

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تهريف بالكتاب ومؤلفه

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين

وبعد :

الكتاب :

«فتح البيان في مقاصد القرآن» درة نادرة بين كتب التفسير، لأن علامتنا، أبا الطيب صديق خان نتيجة لمدارسته كتب التفسير المختلفة، وعى حقيقة مهمة وهي أن بعض كتب التفسير لا تخلو مما دسه الأعداء وأهل الأهواء على الإسلام، بقصد هدم هذا الدين المتين عن طريق الدسّ والوضع حينما أعيتهم الحيل من النيل منه عن طريق الحرب والقوة أو عن طريق الدليل والحجة. فجرد حسامه وبرى يراعه للدفاع عن كتاب الله تعالى فقرأ جُلّ ما كتب الأقدمون وتبين له أن النحوي ليس له هم في تفسيره إلا الإعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة...

والفقيه يكاد يسرد في تفسيره الفقه جميعاً وربما استطرّد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي ربما لا تعلق لها بالآية أصلاً.

والإخباري: ليس له شغل إلا القصص واستيفائها والإخبار عن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة.

والمبتدع: ليس له إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد.

والملحد: لا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله.

ومن المفسرين مَنْ اقتصر في تفسيره على مجرد الرواية ومنهم من اكتفى بمجرد الدراية وقليل من جمع بين الرواية والدراية فاختر الشيخ صديق خان أن يكتب تفسيراً خالياً من الإسرائيليات والخرافات التي يقوم الدليل على بطلانها. وكذلك الجدل المذهبي والمناقشات الكلامية، فجمع بين الرواية والدراية مع تجديد ما طال به العهد وقصر للطلابين فيه الجد والجهد ايقاظاً للنائمين وتحريضاً للمتثبطين.

فاختار صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوي لأنه الحجة المتبعة التي لا يسوغ

مخالفتها.

ثم تفاسير عظماء الصحابة المختصين برسول الله ﷺ .
ثم تفاسير التابعين ومن بعدهم من سلف الأمة وأئمتها المعبرين .
ثم أهل اللغة العربية الذين يفسرون كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة
ومجازاً إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية تراعي النقل عن السلف أو رعاية الأصول المعتمدة
أو قواعد اللغة العربية .

وكان رضي الله عنه في تفسيره يتحرى الدقة والصحة فيما ينقل ، إن ذكر حديثاً عزاه
إلى رواية من غير بيان حال الإسناد لأنه أخذه من الأصول المعتمدة .

وقد سلك في أمور العقائد وفق منهج السلف وخاصة في آيات الصفات وبالجملة
فإن تفسيره تنزاح عنه شبه المبطلين وتحريف الغالين وتأويل الجاهلين ، خلى من كثرة الحشو
والدخيل والخرافات التي لا يقوم عليها دليل . فكان درة بين كتب التفسير .

ولا داعي للإطناب في المدح فالكتاب بين يديك راجع أي موضع فيه تجد صدق ما
قلناه وأكثر مما كتبناه .

المؤلف

هو السيد الإمام والعلامة الهمام صدر العلماء الأعلام، المُسندين في الهند، وعمدة الكرام المحدثين المعتمدين، محيي السنة وقامع البدعة الحبر في التفسير والحديث والأصول الذي انتشرت بوجوده علوم السنة والآثار وصنف في ذلك الأسفار الكبار.

المحدث المفسر الأصولي^(١).

أبو الطيب صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي^(٢) الهندي.
الذي شهد بكماله الداني والقاصي.

(١) مصادر ترجمته . أبجد العلوم ٢٧١/٣ لصديق خان

حلية البشر ٧٣٨/٢ الشيخ عبد الرزاق البيطار

الروض المعطار في خبر الأقطار ص ٤٧٤ محمد عبد الرحيم الحميري

جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص ٤٨ السيد نعمان خير الدين الألوسي

هدية العارفين ٣٨٨/٢ اسماعيل باشا البغدادي

ايضاح المكنون ١٠/١ اسماعيل باشا البغدادي

مقدمة كتاب الروضة الندية طبعت في بولاق ١٢٩٦

الاعلام ١٦٧/٦ خير الدين الزركلي

معجم المؤلفين ٩٠/١٠ عمر رضا كحالة

فهرس الفهارس ١٠٥٥/٢ عبد الحي الكتتاني

المسلمون في الهند ص ٤٠ أبو الحسن الندوي

(٢) قال الحميري: قَنُوجُ أفخر بلاد الهند اسماً وشأناً وأعظمها صيتاً وأقدمها بنياناً. ص: ٤٧٤.

ورد في الحاشية، ان مدينة قَنُوج في أيام ابن بطوطة مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة كثيرة السُكْر وعليها سور عظيم.

مولده:

ولد ضحى يوم الأحد لعله التاسع عشر من جمادى الأولى ١٢٤٨ سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية على صاحبها أفضل سلام وأزكى تحية ببلدة «بريلي» بالهند، موطن جده القريب من جهة الأم، ثم جاءت به أمه الكريمة من «بريلي» إلى «قنوج» بالهند موطن آبائه الكرام.

ولما ناهز السادسة من عمره انتقل والده إلى رحمة ربه وبقي في حجر أمه يتيمًا، تهتم به وتربيته على العفاف والطهارة وحب العلم والعلماء فهو سليل بيت علم وتقوى.

والده:

هو الماجد الفاضل حسن بن علي، تتلمذ على الشيخ عبد الباسط القنوجي ثم رحل إلى لکنهوفاكتسب عن الشيخ العالم محمد نور وغيره من علماء عصره. ثم انتقل إلى دهلي وتتلّمذ على الشيخ عبد العزيز والشيخ رفيع الدين ابني الشيخ الأجل «شاه ولي الله المحدث الدهلوي». وأخذ الإجازة لكتب التفسير والحديث وغيرهما، وصحب العالم المجدد أحمد البريلوي مجدد المائة الثالثة عشرة. واستمر معه حتى صار خليفته في دعوة الحق إلى دين الله، واقتداء الدليل ورد الشرك والبدع إلى أن توفاه الله تعالى ١٢٥٣هـ. من مؤلفاته: كتاب في الحدود والقصاص، وكتاب تقوية اليقين في الرد على عقائد المشركين، ورسالة في رد التعزية والضريح. وغير ذلك من المؤلفات النافعة التي تنهج طريقة السلف الصالح.

أخوه الأكبر:

هو العلامة الشيخ أحمد بن حسن بن علي القنوجي ولد ١٢٤٦هـ وجمع العلوم والفنون المتفرقة من بلاد شتى، على أكابر العلماء في دهلي وغيرها من البلدات. تتلمذ على المولوي عبد الجليل الكولي، وأجاز له الشيخ عبد الغني المجددي الدهلوي وخاتمة المجتهدين الشيخ صالح بن محمد العمري الشهير الفلاني.

سافر قاصداً بيت الله الحرام، إلا أنه مات في الطريق ١٢٧٧هـ. له كتاب الشهاب الثاقب وغيره.

وقد استفاد الشيخ صديق خان من أخيه وأبيه اتباع طريق السلف والبعد عن التقليد، فهما كانا مدرسته الأولى.

صفاته :

كان شيخنا المفسر ربعة من القوم، قليل الشيب شعره إلى شحمة أذنيه . كريماً جواداً شجاعاً جمع إلى الإيمان والتقوى الفراغ من ملاذ النفس وهوى الشيطان . فصيح اللسان سريع الكتابة سريع الحفظ والمطالعة، إذا ذكرت مسألة من مسائل الخلاف استدلل ورجح، وهذا يدل على سعة ثقافته ورجحان عقله .

ادعى الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه، كان إذا استدلل ما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضاراً للسنة المطهرة وعزوها منه . لا تمنعه صولة صائل في تحرير الحق والعمل به .

شيوخه :

رحل الشيخ صديق في سبيل طلب العلم وأخذه عن أكابر أطراف وطنه، فقد شمر عن ساق الجد لتحصيل العلوم، وشد الرحل الى «دهلي» حيث أخذ عن مفتيها الشيخ محمد صدر الدين خان، من تلاميذه الشيخ عبد العزيز وأخيه رفيع الدين ابني العالم المحدث أحمد ابن عبد الرحيم شاه ولي الله الدهلوي .

وقد استفاد العلوم من التفاسير والأحاديث من مشيخة اليمن والهند . فأخذ عن الشيخ حسين بن محسن اليميني، تلميذ الشيخ محمد بن ناصر تلميذ العلامة المجتهد محمد ابن علي الشوكاني . وأقام سلسلة الأسانيد فكتب الحديث الشريف واستحصل سند القرآن الكريم عن الشيخ محمد يعقوب الدهلوي، أخي الشيخ اسحاق حفيد الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي .

وأخذ الإجازة عن الشيخ المعمر عبد الحق الهندي تلميذ الإمام الشوكاني . ومن استجاز منه العالم المحدث الشيخ يحيى بن محمد الحازمي قاضي عدن . وأخذ عن شيوخ غيرهم كثير .

وكلهم أجازوا له مشافهة وكتابة إجازة ماثورة عامة تامة . فكل واحد أجاز له بما هو مذكور في ثبتهم الجامع لجميع أصناف العلوم وأنواع الفنون .

وقد جمع الشيخ صديق شيوخه في كتاب سمّاه «سلسلة العسجد في ذكر مشايخ السند» . ذكر فيه من أخذ عنه ومن أجاز له والأسانيد التي تلقاها عنهم .

ومن دهلي إلى قنوج إلى الحرمين، حيث بقي عاكفاً ثمانية أشهر ثم عاد إلى بهوبال، حيث استوطن واستقر يشغل بالدرس والتأليف . حتى صار رأساً في المعقول والمنقول

وإماماً في علمي الفروع والأصول، وجدّ واجتهد في اتقان القرآن والسنة وتدوين علومهما
ينصر السنة ويروج مصنفاتها ويؤلف مؤلفاته الشريفة، الممتعة النافعة باللسان العربي ولغة
الفرس والهند، ويبذل المال الكثير في إذاعتها بالطبع والتقسيم.

أقوال العلماء فيه:

قال الإمام الألوسي: إن الحنابلة بأجمعهم معظّمون للشيخ صديق خان ولعقيدته
قابلون، ولكلامه سامعون.

وقال الإمام الكتّاني: إن الشيخ صديق من كبار علماء الهند الذين لهم اليد الطولى
في إحياء كثير من كتب الحديث وعلومه، وغيره من العلوم. وقد عدّ صاحب «عون الودود»
على سنن أبي داود» صديق خان أحمد المجددين على رأس المائة الرابعة عشرة.

أما الشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي فقال: إن الإمام صديق خان سيد علماء
الهند، كان ملياً بالعلوم مجتهداً في إشاعتها مجدداً لإذاعتها أحيا السنن الميتة بالأدلة البيض
من السنة والفرقان.

وزاد العلامة محمد منير الدمشقي المصري فقال: كم له من أيادٍ بيض في خدمة
العلم والعلماء وإن جحد فضله الحاسدون وضعفاء العقول.

وختم العلامة الهندي أبو الحسن الندوي فقال: وقد قام صديق خان شخصياً بما لا
تقوم به مجامع علمية، في أكثر الأحيان لكثرة المؤلفات وضخامة الإنتاج.

وبالجملة إن الشيخ صديق خان كان موسوعة علمية، لم يدون أحد في عصره من
علماء الهند أحكام الكتاب العزيز وعلوم السنة المطهرة في العبادة والمعاملة وغيرها خالصة
من آراء الرجال نقية من أقوال العلماء على هذه الكيفية المشاهدة في هذا السفر المبارك
«فتح البيان في مقاصد القرآن» مثله.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى أواخر جمادى الثانية عام ١٣٠٧هـ ودفن بيهوبال بالهند.
وقد خلف ولدين أكبرهما أبو الخير محمد الحسن، صاحب الشرح المطبوع على بلوغ
المرام.

مؤلفاته:

له في الكتابة سرعة عجيبة، وفي التأليف ملكة غريبة، يكتب الكراريس العديدة في يوم
واحد.

تبلغ مؤلفاته اثني وعشرين ومائتين ٢٢٢ كتاباً منها حوالي ستة وخمسون ٥٦ كتاباً في العربية . منها :

فتح البيان في مقاصد القرآن .
شرح تجريد الصحيح للشرجي واسمه عون الباري بحلّ أدلة البخاري .
وشرح اختصار مسلم للمنذري .
وأبجد العلوم .
وهدية السائل إلى أدلة المسائل .
ويقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر النار وأصحاب النار
ومسك الختام شرح بلوغ المرام .
الروضة الندية شرح الدرر البهية .
منهج الوصول إلى إصطلاح أحاديث الرسول .
اتحاف النبلاء المتقين باحياء مآثر الفقهاء المحدثين .
الإدراك في تخريج أحاديث الإشراف .
الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة .
أربعون حديثاً في فضائل الحج والعمرة .
افادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ .
بلوغ السؤل من أقضية الهول .
تميمة الصبي في ترجمة الأربعين من أحاديث النبي .
الجنة في الأسوة الحسنة بالسنة .
الخطبة بذكر الصحاح الستة .
الحرز المكنون من لفظ المعصوم المأمون .
رياض الجنة في تراجم أهل السنة .
غنية القاري في ترجمة ثلاثيات البخاري .
فتح المغيث بفقه الحديث .
قطف الثمر من عقائد أهل الأثر .
الاحتواء على مسألة الاستواء .
بدور الأهله من ربط المسائل بالأدلة .
الانتقاد الرجيح في شرح الاعتقاد الصحيح .
حصول المأمول من علم الأصول .

ذخر المحتي من آداب المفتي .
الصافية في شرح الشافية في علم الصرف .
ظفر اللاضي بما يجب في القضاء على القاضي .
العلم الخفاق من علم الاشتقاق .
غصن البان المورق بمحسنات البيان .
نيل المرام من تفسير آيات الأحكام .
هدية السائل إلى أدلة المسائل .
حسن الأسوة .
الفرع النامي من الأصل السامي .
وغيرها من الكتب التي تشهد له أنه من كبار من لهم اليد الطولى في إحياء كثير من
علوم الكتاب والسنة وسائر الفنون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وبين له من معالم العلم وشعائر الشرائع ومشاعر الملل كل ما جل ودق، ونزل عليه كتاباً معجزاً أفحم مصاقع الخطباء من العرب والعرباء وخطاباً مفحماً أعجز بواقع البلغاء من عصابة الأدباء، بأظهر بينات وأبهر حجج، قرآناً عربياً غير ذي عوج، أمر فيه وزجر، وبشر وأنذر، وذكر المواعظ ليتذكر، وقص عن أيام الأمم الخالية ليعتبر، وضرب فيه ضروب الأمثال ليتدبر، ودل على آيات التوحيد ليتفكر، أنزله بحسب المصالح والحكم منجماً، وجعله بالتحميد مفتوحاً وبالإستعاذة مختتماً، وأوحاه متشابهاً ومحكماً، مزاياه ظاهرة باهرة في كل وجه وكل زمان، دائرة من بين سائر الكتب على كل لسان في كل مكان، كادت الرواسي لهيبته تمور، ويذوب من خشيته الحديد ويميع منه صم الصخور، فمن تمسك بعروته الوثقى وحبله المتين، وسلك جادته الواضحة وصراطه المبين، فقد فاز بمناه، ومن نبذه وراء ظهره وعصاه، واتخذ إلهه هواه، فقد هوى في تخوم الشقاء وتردى في مهاوي الردى والاشتباه، فأى عبارة تبلغ أيسر ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم، وأي إشارة تصلح لبيان أقل ما ينبغي له من التوصيف والتكريم.

كلا والله إن بلاغة البلغاء وسحرة البيان وإن طالت ذيولها، وفصاحة الفصحاء ومهرة قحطان وإن سالت سيولها تتقاصر عن الوفاء بأدنى أوصافه وإن جالت بميادينها خيولها، وتتصاغر عن التشبث بأقصر أطرافه وإن أفلقت في إطرائها فحولها، فتعود ألسنتهم عنه قاصرة، وصفقتهم في أسواقه خاسرة، كيف وتلك الآيات والدلائل، وتيك البينات والمخايل، وهذه العبارات العبقريّة، وما في تضاعيفها من أسرار البرية، مما لا تحيط به ألباب البشر، ولا

تدرك كنهه طباع العالم الأكبر والأصغر، بحيث لو اجتمعت الانس والجن على معارضته ومباراته، لعجزوا عن الاتيان بمثل أقصر آية من آياته فلاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه كلام الملك العلام، من الاطراء والاكرام، أوفق بما يقتضيه الحال من الاجلال والاعظام.

والصلاة والسلام على من أرسله الله إلى الخلق هادياً وبشيراً، ونزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً، فهداهم به إلى الحق وهم في ضلال مبين، وسلك بهم مسلك الهداية حتى أتاهم اليقين، أكمل به بنیان النبوة والجلالة، وختم به ديوان الوحي والرسالة، وأتم به مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، على ألطف أسلوب وأحسن أحوال، أعلى به من الدين معالمة، ومن الحق مراسمة، وبين من البرهان سبيله، ومن الإيمان دليله، وأقام للحق حجته، وأنار للشرع محجته، حتى انشرفت الأفئدة بأنوار البينات، وانزاح عن الضمائر صدأ الشبهات فهو حجة نيرة واضحة المكنون، وآية بينة لقوم يعقلون، بل برهان جلي لا ريب فيه، ومنهج سوي لا يضل من ينتحيه، مظهر لتفاصيل الشرائع والأديان بالاستحقاق، مفسر لمشكلات آيات الأنفس والآفاق، كاشف عن خفايا حظائر القدس، مطلع على خبايا سرائر الأنس، بحر علم لا ينزف، وعيلم فضل لا ينشف، به يتوصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، وبه تكتسب الملكات الفاخرة، كلامه شفاء للسقام، ومرهم للأوهام، وحديثه قاطع للخصام، عند تفاوت الافهام وتباين الاقدام، عليه يدور فلك الأوامر والنواهي، وإليه يستند في معرفة حقائق الأشياء كما هي، أفلح من اتبعه ووالاه، وخاب من أعرض عنه وعاداه.

وصلى الله وسلم على آله البررة، وصحبه الخيرة، مصاييح الأمم، ومفاتيح الكرم، خلفاء الدين، وحلفاء اليقين، الذين بلغوا من محاسن الفضائل غاية الغايات، ووصلوا من مكارم الفواضل نهاية النهايات، قارعوا على الإسلام فكشفوا عنه القوارع والكروب، وسارعوا إلى الإيمان فصرفوا عنه العوادي والخطوب، فابتسم ثغر الدين، وانتظم أمر المسلمين، واتضح الوعد من الله وحق عليه نصر المؤمنين، لا يتسنى العروج إلى معارجهن الرفيعة، ولا

يتأق الرقي إلى مدارجهم المنيعة، لعلو شأنهم ونهاية الاعضال، وصعوبة مرامهم وعزة المنال، فهم شמוש الهدى على فلك السعادة، وبدور الدجى لهم الحسنى وزيادة. وعلى من تبعمهم بالإحسان، صلاة وسلاماً دائمين ما تناوب النيران وتعاقب الملوان.

(وبعد) فيقول الفقير إلى مولاه الغني به عمن سواه، عبده وابن أمته وعبده (أبو الطيب صديق بن حسن بن علي القنوجي) أصلح الله حاله ومآله قبل أن يخرج الأمر من يده:

إن أعظم العلوم مقداراً، وأرفعها شرفاً ومناراً، وأعلاها على الإطلاق، وأولاها تفضيلاً بالاستحقاق، وأساس قواعد الشرائع والعلوم، ومقياس ضوابط المنطوق والمفهوم، ورأس الملل الإسلامية وأسها، وأصل النحل اليمانية واستقصها، وأعز ما يرغب فيه ويعرج عليه، وأهم ما تناخ مطايا الطلب لديه، هو علم التفسير لكلام العزيز القدير، لكونه أوثق العلوم بنياناً، وأصدقها قيلاً وأحسنها تبياناً، وأكرمها نتائجاً، وأنورها سراجاً، وأصحها حجة ودليلاً، وأوضحها محجة وسبيلاً، وقد حاموا جميعاً حول طلابه، وراموا طريقاً إلى جنابه، والتمسوا مصباحاً على قبابه، ومفتاحاً إلى فتح بابيه.

/ وهو علم باحث عن نظم نصوص القرآن، وآيات سور الفرقان بحسب الطاقة البشرية وبوفق ما تقتضيه القواعد العربية، قال الفناري: الأولى أن يقال: علم التفسير معرفة أحوال كلام الله سبحانه وتعالى من حيث القرآنية، ومن حيث دلالاته على ما يعلم أو يظن أنه مراد الله تعالى بقدر الطاقة الانسانية انتهى، وهذا يتناول أقسام البيان بأسرها، ولا يرد عليه ما يرد على سائر الحدود، ومبادئ العلوم اللغوية وأصول التوحيد وأصول الفقه وغير ذلك من العلوم الجمة.

والغرض منه معرفة معاني النظم ومعرفة الأحكام الشرعية العملية، وفائدته حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة وموضوعه كلام الله سبحانه الذي هو منبع كل حكمة ومعدل كل فصلة وغايته التوصل إلى فهم معاني القرآن واستنباط حكمه ليفوز به إلى السعادة الدنيوية

والأخروية، وشرف العلم وجلالته باعتبار شرف موضوعه وغايته، فهو أشرف العلوم وأعظمها، ذكره أبو الخير وابن صدر الدين.

والقرآن الكلام العربي المنزل على محمد ﷺ المتحدى بأقصر سورة منه المنقول تواتراً، ودليله الكتاب والسنة ولفظ العرب العرباء، واستمداده من علمي أصول الدين والفقه وهو قسمان «تفسير» وهو ما لا يدرك إلا بالنقل كأسباب النزول «وتأويل» وهو ما يمكن إدراكه بالقواعد العربية فهو مما يتعلق بالدراية.

والسر في جواز التأويل بشروطه دون التفسير، أن التفسير كشهادة على الله وقطع بأنه عنى بهذا اللفظ هذا المعنى ولا يجوز إلا بتوقيف، ولذا جزم الحاكم بأن تفسير الصحابي مطلقاً في حكم المرفوع، والتأويل ترجيح لأحد المحتملات بلا قطع، فاغتفر، أفاد ذلك جماعة من أهل العلم ذكرهم سليمان الجمل في حاشية الجلالين.

وقد تصدى لتفسير عويصاته أساطين الأمة، وتولى لتيسير معضلاته سلاطين الأئمة من الصحابة والتابعين، وأئمة اللغة والنحويين، ثلثة من الأولين وأمة من الآخرين، فغاصوا في بحار لججه، وخاضوا في أنهار ثبجه، فنظموا في سلك التقرير فرائده، وأبرزوا في معرض التحرير فوائده، وألفوا كتباً جليلة المقدار، وصنفوا زبراً جميلة الآثار، وفصلوا مجمله، وبينوا معضله مع تحقيق للمقاصد وفق ما يرتاد، وتنقيح للمعاهد فوق ما يعتاد.

فالمفسرون من الصحابة الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب، والرواية عن علي أكثر، وعن الثلاثة في ندرة جداً، والسبب فيه تقدم وفاتهم، وروي عن ابن مسعود أكثر مما روي عن علي ومات بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين.

وأما ابن عباس المتوفى سنة ثمان وستين بالطائف فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة ورئيس المفسرين دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين

وعلمه التأويل^(١)» وقد روى عنه في التفسير ما لا يحصى كثرة لكن أحسن الطرق عنه طريقة علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة واعتمد على هذه البخاري في صحيحه، وأوهى الطرق عنه طريق الكلبي أبي النصر محمد بن السائب، فان انضم إليه رواية محمد بن مروان السدي الصغير فهي سلسلة الكذب، وكذلك طريق مقاتل بن سليمان الأزدي، وطريق الضحاك عنه منقطعة فانه لم يلقه، ومن جيد الطرق عنه طريق قيس بن مسلم الكوفي عن عطاء بن السائب وطريق ابن اسحق صاحب السير.

وأما أبي بن كعب المتوفى سنة عشرين على خلاف فيه، فعنه نسخة كبيرة عن طريق أبي العالية، وهذا إسناد صحيح، ومن الصحابة من ورد عنه اليسير من التفسير غير هؤلاء منهم أنس بن مالك المتوفى بالبصرة سنة إحدى وتسعين وأبو هريرة المتوفى بالمدينة سنة سبع وخمسين، وعبدالله بن عمر بن الخطاب المتوفى بمكة المكرمة سنة ثلاث وسبعين، وجابر بن عبدالله المتوفى بالمدينة سنة أربع وسبعين، وأبو موسى الأشعري المتوفى سنة أربع وأربعين، وابن عمرو بن العاص المتوفى سنة ثلاث وستين، وهو أحد العبادلة الذين استقر عليهم أمر العلم في آخر عهد الصحابة، وزيد بن ثابت الأنصاري كاتب النبي صلى الله عليه وآله وسلم المتوفى سنة خمس وأربعين.

وأما المفسرون من التابعين فمنهم أصحاب ابن عباس وهم علماء مكة المكرمة، ومنهم مجاهد بن جبر المتوفى سنة ثلاث ومائة واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري، وسعيد بن جبيرة المتوفى سنة أربع وتسعين، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومائة، وطاوس بن كيسان اليماني المتوفى سنة ست ومائة، وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة أربع عشرة ومائة.

ومنهم أصحاب ابن مسعود وهم علماء الكوفة كعلقمة بن قيس المتوفى سنة اثنتين ومائة، والأسود بن يزيد المتوفى سنة خمس ومائة، ومنهم أصحاب زيد بن أسلم كعبد الرحمن بن زيد ومالك بن أنس، ومنهم الحسن البصري

(١) المستدرك على الصحيحين برواية: اللهم علمه تأويل القرآن وفقهه في الدين واجعله من اهل الايمان

المتوفى سنة إحدى وعشرين ومائة: وعطاء بن أبي سلمة ميسرة الخراساني،
ومحمد بن كعب القرظي المتوفى سنة سبع عشرة ومائة: وأبو العالية رفيع بن
مهران الرياحي المتوفى سنة تسعين: والضحاك بن مزاحم: وعطية بن سعيد
العوفي المتوفى سنة إحدى عشرة ومائة: وقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة
سبع عشرة ومائة: والربيع بن أنس والسدي.

ثم بعد هذه الطبقة الذين صنفوا كتب التفسير التي تجمع أقوال
الصحابة والتابعين كسفيان بن عيينة، ووكيع بن الجراح وشعبة بن الحجاج،
ويزيد بن هارون، وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس، وإسحق بن راهويه،
وروح بن عباد، وعبدالله بن حميد، وأبي بكر بن أبي شيبة وآخرين.

ثم بعد هؤلاء طبقة أخرى منهم عبد الرزاق وعلي بن أبي طلحة وابن
جرير وابن أبي حاتم وابن ماجة والحاكم وابن مردويه وأبو الشيخ بن حيان
وابن المنذر في آخرين.

ثم انتصبت طبقة بعدهم إلى تصنيف تفاسير مشحونة بالفوائد محذوفة
الأسانيد مثل أبي إسحق الزجاج وأبي علي الفارسي ومكي بن أبي طالب وأبي
العباس المهدوي، وأما أبو بكر النقاش وأبو جعفر النحاس فكثيراً ما استدرك
الناس عليهما.

ثم ألف في التفسير طائفة من المتأخرين فاختصروا الأسانيد، ونقلوا
الأقوال بتراء، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل
من سنع له قول يورده، ومن خطر بباله شيء يعتمد، ثم ينقل ذلك خلف
عن سلف ظاناً أن له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف الصالح
ومن هم القدوة في هذا الباب.

قال السيوطي رأيت في تفسير قوله سبحانه ﴿غير المغضوب عليهم ولا
الضَّالِّين﴾ نحو عشرة أقوال مع أن الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة
والتابعين ليس غير اليهود والنصارى، حتى قال ابن أبي حاتم لا أعلم في ذلك
خلفاً من المفسرين.

ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في شيء من العلوم، ومنهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن واقتصر فيه على ما تميز هو فيه، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير، مع أن فيه تبيان كل شيء، فالنحوي تراه ليس له إلا الاعراب وتكثير الأوجه المحتملة فيه وإن كانت بعيدة وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر، والخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفائها والخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة، ومنهم الثعلبي، والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعاً وربما استطرده إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لا تعلق لها بالآية أصلاً، والجواب عن الأدلة للمخالفين كالقرطبي وصاحب المظهري وصاحب العلوم العقلية خصوصاً فخر الدين الرازي قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وخرج من شيء إلى شيء حتى يقضي الناظر العجب، قال أبو حيان في البحر: جمع الامام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شيء إلا التفسير.

والمبتدع ليس له إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لو لاح له شارد من بعيد اقتنصه أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، كما نقل عن البلقيني أنه قال استخرجت من الكشاف اعتزلاً بالمناقش، منها أنه قال في قوله سبحانه وتعالى ﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ أي فوز أعظم من دخول الجنة، وأشار به إلى عدم الرؤية.

والملحد لا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافترائه على الله ما لم يقله، كقول بعضهم في تفسير قوله تعالى ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ ما على العباد أضر من ربهم، وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب.

ومن ذلك القبيل الذين يتكلمون في القرآن بلا سند ولا نقل عن السلف، ولا رعاية للأصول الشرعية، والقواعد العربية، كتفسير محمود بن حمزة الكرماني ضمنه أقوالاً هي عجائب عند العوام، وغرائب عما عهد عن السلف الكرام، وهي أقوال منكرة لا يحل الاعتقاد عليها ولا ذكرها إلا للتحذير.

ومن ذلك قول من قال في ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ إنه الحب والعشق، ومن ذلك قولهم في ﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ إنه الذكر إذا قام، وقولهم في ﴿من ذا الذي يشفع عنده﴾ معناه من ذل أي من الذل وذو إشارة إلى النفس، ويشف من الشفاء جواب «من» و (ع) أمر من الوعي.

وسئل البلقيني عمن فسر بهذا فأفتى بأنه ملحد.

(قلت) وقد نبغت في هذا الزمان طائفة تفسر القرآن برأيها، وتحذف منه الآيات المتواليات تسمى بالنيفرية، وهم الذين أنكروا وجود الملائكة والجن والشياطين إلى غير ذلك، وقد عمت فتنتهم بلاد الهند الإسلامية، فرّق الله جمعهم، وبدد شملهم وأنزل بهم بأسه الذي لا يرده عن القوم المجرمين.

وأما كلام الصوفية في القرآن فليس بتفسير، قال ابن الصّلاح في فتاواه: وجدت عن الامام الواحدي أنه قال: صنف السلمي حقائق التفسير إن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر.

قال النسفي في عقائده: النصوص تحمل على ظواهرها والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد، وقال التفتازاني في شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معان باطنة.

قال صاحب مفتاح السعادة: الايمان بالقرآن هو التصديق بأنه كلام الله سبحانه قد أنزل على رسوله محمد ﷺ بواسطة جبرائيل عليه السلام، وأنه دال على صفة أزلية له سبحانه، وأن ما دل هو عليه بطريق القواعد العربية مما هو مراد الله سبحانه حق لا ريب فيه، ثم تلك الدلالة على مراده سبحانه بواسطة القوانين الأدبية الموافقة للقواعد الشرعية والأحاديث النبوية مراد الله تعالى، وقد ثبت في الحديث أن لكل آية ظهراً وبطناً^(١) وذلك المراد الآخر لما لم يطلع عليه كل أحد بل من أعطى فهماً وعِلماً من لدنه تعالى يكون الضابط في صحته أن لا يرفع ظاهر المعاني المنفهمة عن الألفاظ بالقوانين العربية وأن لا يخالف القواعد الشرعية، ولا يباين إعجاز القرآن، ولا يناقض النصوص الواقعة

(١) أين هذا الحديث: من رواه؟ من أخرجه؟ لم نجده في أي كتاب لدينا.

فيها، فإن وجدت فيه هذه الشرائط فلا طعن فيه وإلا فهو بمعزل عن القبول.
قال الزمخشري: من حق التفسير أن يتعاهد بقاء النظم على حسنه،
والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليماً من القادح.

وكما بينوا في التفسير شرائط، بينوا في المفسر أيضاً شرائط لا يحل
التعاطي لمن عرى عنها أو هو فيها راجل وهي أن يعرف اللغة والنحو
والتصريف والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع والقراءات وأصول الدين وأصول
الفقه، وأسباب النزول والقصص والناسخ والمنسوخ والفقه، والأحاديث المبينة
لتفسير المجمل والمبهم، وعلم الموهبة، وهو علم يورثه الله سبحانه لمن عمل بما
علم انتهى.

ثم إن تفسير القرآن ثلاثة أقسام:

الأول ما لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه، وهو ما استأثر به من علوم
أسرار كتابه من معرفة كنه ذاته ومعرفة حقائق أسمائه وصفاته، وهذا لا يجوز
لأحد الكلام فيه.

والثاني ما أطلع الله سبحانه نبيه عليه من أسرار الكتاب واختصه به فلا
يجوز الكلام فيه إلا له ﷺ أو لمن أذن له، قيل: وأوائل السور من هذا
القسم، وقيل من الأول وهو الراجح.

والثالث علوم علمها الله نبيه وأمره بتعليمها، وهذا ينقسم إلى قسمين
منه ما لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ
واللغات والقراءات وقصص الأمم وإخبار ما هو كائن، ومنه ما يؤخذ بطريق
النظر والاستنباط من الألفاظ، وهو قسمان قسم اختلفوا في جوازه وهو تأويل
الآيات المتشابهات، وقسم اتفقوا عليه وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية
والاعرابية، وكذلك فنون البلاغة وضروب المواعظ والحكم والاشارات لا يمتنع
استنباطها منه لمن له أهلية ذلك، وما عدا هذه الأمور هو التفسير بالرأي الذي
نهى عنه، وفيه خمسة أنواع:

✓ الأول التفسير من غير حصول العلوم التي يجوز معها التفسير، والثاني

تفسير المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، والثالث التفسير المقرر للمذهب الفاسد بأن يجعل المذهب أصلاً، والتفسير تابعاً له فيرد إليه بأي طريق أمكن وإن كان ضعيفاً، الرابع التفسير بأن مراد الله سبحانه كذا على القطع من غير دليل، الخامس التفسير بالاستحسان والهوى والتقليد.

(أقول) إن التفسير الذي ينبغي الاعتداد به والرجوع إليه هو تفسير كتاب الله جل جلاله باللغة العربية حقيقة ومجازاً إن لم تثبت في ذلك حقيقة شرعية فإن ثبتت فهي مقدمة على غيرها، وكذلك إذا ثبت تفسير ذلك من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فهو أقدم من كل شيء بل حجة متبعة لا يسوغ مخالفتها لشيء آخر، ثم تفاسير علماء الصحابة المختصين برسول الله ﷺ فإنه يبعد كل البعد أن يفسر أحدهم كتاب الله تعالى ولم يسمع في ذلك شيئاً عن رسول الله ﷺ، وعلى فرض عدم السماع فهو أحد العرب الذين عرفوا من اللغة دقها وجلها، وأما تفاسير غيرهم من التابعين ومن بعدهم فإن كان من طريق الرواية نظرنا في صحتها سواء كان المروي عنه الشارع أو أهل اللغة، وإن كان بمحض الرأي فليس ذلك بشيء ولا يحل التمسك به ولا جعله حجة، بل الحجة ما قدمناه، ولا نظن بعالم من علماء الإسلام أن يفسر القرآن برأيه فإن ذلك مع كونه من الإقدام على ما لا يحل بما لا يحل قد ورد النهي عنه في حديث «من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ومن فسر القرآن برأيه فأخطأ فقد كفر»^(١) أو كما قال.

إلا أنا لم نتعبد بمجرد هذا الإحسان للظن على أن نقبل تفسير كل عالم كيفما كان بل إذا لم نجده مستنداً إلى الشارع ولا إلى أهل اللغة لم يحل لنا العمل به مع التمسك بحمل صاحبه على السلامة، ونظير ذلك اختلاف العلماء في المسائل العلمية، فهو إن كان إحسان الظن مسوغاً للعمل بما ورد عن كل واحد منهم لوجب علينا قبول الأقوال المتناقضة في تفسير آية واحدة أو في مسألة علمية واللازم باطل بالملزوم مثله.

وإذا عرفت هذه الفوائد فاعلم أن كتب التفاسير كثيرة ذكر منها ملا

(١) الترمذي كتاب التفسير الباب الأول بلفظ: من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ.

كاتب الجلبى فى كشف الظنون ما يزيد على ثلثمائة تفسير مرتباً على حروف الهجاء وزدنا عليه فى كتابنا الأكرير فى أصول التفسير، فمنها تفسير ابن أبى حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازى الحافظ المتوفى سنة خمس وتسعين ومائتين. وانتقاه الشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة فى مجلد، ومنها تفسير ابن جرير أبى جعفر محمد الطبرى المتوفى سنة عشرة وثلثمائة قال السيوطى فى الاتقان: وكتابه أجل التفاسير وأعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والاعراب والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين اهـ .

وقد قال النووي: أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى، وعن أبى حامد الاسفراينى أنه قال: لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً.

ومنها تفسير ابن كثير الإمام الحافظ أبى الفداء إسماعيل بن عمر القرشى المتوفى سنة أربع وسبعين وسبعمائة تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية الحرانى رحمه الله تعالى، وهو كبير فى عشر مجلدات فسر بالأحاديث والآثار مسندة عن أصحابها مع الكلام على ما يحتاج إليه جرحاً وتعديلاً.

ومنها تفسير ابن المنذر وهو الإمام أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابورى المتوفى سنة ثمان عشرة وثلثمائة، ومنها تفسير البخارى وهو ما ذكره فى صحيحه وجعله كتاباً منه، وله التفسير الكبير غير هذا ذكره الفربرى، ومنها تفسير النحاس وهو أبو جعفر أحمد بن محمد النحوى المصرى المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة قصد فيه الاعراب لكن ذكر القراءات التى يحتاج أن يبين إعرابها والعلل التى فيها وما يحتاج فيه من المعانى، ومنها تفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز وتسمى هذه الثلاثة الحاوى لجميع المعانى.

ومنها تفسير المهدوى وهو أبو العباس أحمد بن عمار التميمى المتوفى بعد الثلاثين وأربعمائة.

ثم من المفسرين من اقتصر فى تفسيره على مجرد الرواية وقنع برفع هذه الراية كجلال الدين السيوطى فى الدر المنثور وغيره فى غيره من المسطور،

ومنها من اكتفى بمجرد الدراية وجرد نظره إلى مقتضى اللغة العربية بصحيح العناية وهم الأكثرون، ومنها من جمع بين الأمرين، وسلك المسلكين، وقليل ما هم وقليل من عبادي الشكور.

ومن أحسن التفاسير جمعاً بين الرواية والدراية فيما علمت تفسير الإمام الحافظ القاضي محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليميني المتوفى سنة خمسين ومائتين وألف الهجرية، وهو تفسير كبير بالقول في مجلدات أربع.

وطالما يدور في خلدي أن أحرر في التفسير كتاباً يحتوي على أمرين، ويجمع طريقتين على الوجه المعتبر في الورد والصدر، غير مشوب بشيء من التفسير بالرأي الذي هو من أعظم الخطر، وكنت أنتهز له الفرصة في البلاد والقرى، وأقدم رجلاً وأؤخر أخرى لصعوبة المرام، وعزة المقام، فأين الحضيض من الذرى والثريا من الثرى، فحال بيني وبين ما كنت أخال، تراكم المهمات وتزاحم الأشغال وابتليت بتدبير مصالح العباد في مدينة بهوبال، وانصرمت عرى الآمال عن الفوز بفراغ البال، وأنا أصرف جهدي والمراد ينصرف، والمقصود يتقاعس عن الحصول وينحرف، والأيام تحول وتحجز، والليالي تعد ولا تنجز، حتى سألني جماعة من أهل العلم ممن يتحرى إتباع السنة والكتاب، ويحجنب الإبتداع في كل باب، وألحوا علي وأظهروا الفقر إلى ولم يسعني إلا إسعاف ما أملوه، وإنجاح ما سألوه، فأجبتهم معتمداً على فضل الله وتيسيره ممثلاً بوصية رسول الله ﷺ فيهم فيما يرويه أبو سعيد الخدري ويرفعه: «إن رجلاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً»^(١) ومقتدياً بالسلف الماضين في تدوين علوم الدين إبقاء على الخلق وإيفاء للحق.

وليس على ما جمعه وصنفه مزيد، ولكن لا بد في كل زمان من تجديد ما طال به العهد وقصر للطالبين فيه الجد والجهد، إيقاظاً للنائمين، وتحريضاً للمثبطين، فحررت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوه واستمنحوه كتاباً في أيسر زمان وأحسن تقدير، متوسطاً بين الطويل الممل والقصير المخل،

(١) الترمذي كتاب العلم باب ٤.

وجمعه جمعاً حسناً بعبارة سهلة وألفاظ يسيرة مع تعرض للترجيح بين التفسير المعارضة في مواضع كثيرة، وبيان للمعنى العربي والإعرابي واللغوي مع حرص على إيراد صفوة الصفوة مما ثبت من التفسير النبوي ومن عظماء الصحابة وعلماء التابعين، ومن دونهم من سلف الأمة وأئمتها المعبرين كابن عباس حبر هذه الأمة ومن بعده من الأئمة مثل مجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وأبي العالية والقرظي والكلبي والضحاك ومقاتل والسدي وغيرهم من علماء اللغة والنحو كالغراء والزجاج وسيبويه والمبرد والخليل والنحاس.

ولكن الثابت الصحيح من التفسير المرفوع إلى النبي وإن كان المصير إليه متعيناً. وتقديمه متحتماً، هو تفسير آيات قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن. والثابت من التفسير عن الصحابة ومن تبعهم بالاحسان: إن كان من اللفظ الذي قد نقله الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي فهو مقدم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع فهو كواحد من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم، فإذا خالف ذلك المشهور المستفيض لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب العرباء فبالأولى تفاسير من بعدهم من تابعيهم وسائر الأئمة.

وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي ومن بعده من السلف على وجه واحد مما يقتضيه النظم القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلوم أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني التي تفيدها اللغة العربية ولا إهمال ما يستفاد من العلوم التي يتبين بها دقائق العربية وأسرارها كعلم المعاني والبيان، فإن التفسير بذلك هو تفسير اللغة لا تفسير بمحض الرأي المنهي عنه؛ وقد قال سفيان ليس في تفسير القرآن اختلاف. إنما هو كلام جامع يراد منه هذا وهذا؛ وقال أبو الدرداء: لا تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً.

وأخرج ابن سعد أن علياً قال لابن عباس: «أذهب إليهم (يعني الخوارج) ولا تخصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خصمهم بالسنة».

وأيضاً لا يتيسر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن. ولا اعتبار بما لا يصح كالتفسير

المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صح إسناده إليه، وبهذا تعرف أنه لا بد من الجمع بين الأمرين والتحلي بالوصفين، وعدم الاختصار على مسلك أحد الفريقين، وهذا هو المقصد الذي أردته والمسلك الذي قصدته.

وأذكر الحديث معزواً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأنني آخذه من الأصول التي نقلت عنها كذلك كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطي، ويبعد كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً ولا يبينوه، ولا ينبغي أن يقال فيما أطلقوه أنهم قد علموا ثبوته، فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظن لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة والحسن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها ويعزون ما في تفاسيرهم إليها فليُنظر في أسانيدها موفقاً إن شاء الله تعالى.

واعلم أن تفسير السيوطي المسمى بالدر المنثور، قد اشتمل على غالب ما في تفسيرات السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتفسيرات الصحابة ومن بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر، وقد اشتمل هذا التفسير مني على جميع ما تدعو إليه الحاجة مما يتعلق بالتفسير مع اختصار لما تكرر لفظاً واتحد معنى بقولي ومثله أو ونحوه، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها زبر أهل الرواية، ووجدتها في غيرها من تفاسير علماء الدراية، وعوائد لاحت لي من تصحيح أو تحسين أو تضعيف أو تعقب أو جمع أو ترجيح، مع تحرير للمقاصد بحسب ما يراد ولا يذاد، وتقرير للمعاقد بحيث لا يضاد ولا يصاد، ولم آل جهداً في حسن تحريره وتهذيبه وسعيّاً في لطافة مزجه بالمفسر وترتيبه بالفاظ تنفتح لها الآذان وتنشرح بها الصدور، ومعان تتهلل بها وجوه الأوراق وتتبسم ثغور السطور، رغبة إلى الدخول من أبوابه والكون من أحزابه، ونشاطاً إلى القعود في محرابه، وبذلاً للقوة في إيراد مباحث قلت عناية المتأخرين بها من المفسرين، وقد بالغ في الاعتناء بها المحققون من المتقدمين، لا سيما السمعيات التي هي المطلب الأعلى، والمقصد الأقصى في

أصول الدين، والعروة الوثقى والعمدة القصوى لأهل الحق واليقين، مع تنقيح للكلام، وتوضيح للمرام، يهتزله علماء البلاد في كل ناد، ولا يغض منه إلا كل هائم في واد، من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلله فما له من هاد.

ووطنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة، مقتصرأ فيه على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وقصص لا تصح وأعاريب محلها كتب العربية.

وحيث ذكرت فيه شيئاً من القراءات فهو من السبع المشهورات إلا ما شاء الله، وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها أو لورودها وإذا قرع سمعك ما لم تسمع به من المحصلين، فلا تُسرع وقف وقفة المتأملين لعلك تطلع بوميض برق إلهي، وتألق نور رباني من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة على برهان له جلي أو بيان من سلف صالح واضح وضي.

وقد تلقيت هذا التفسير بحمد الله من تفاسير متعددة عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم، وانتشرت واشتهرت مآثرهم، جمعني الله وإياهم وجميع المسلمين ومن أخلفهم في مستقر رحمته من فراديس جنته.

فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه، وتوفر من التحقيق قسمه وأصاب غرض الحق سهمه، مفيد لمن أقبل على تحصيله، مفيض على من تمسك بذيل إجماله وتفصيله، وقد اشتمل على جميع ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فرائد وقواعد شوارد، من صحيح الدراية، وصريح الرواية.

فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة أنظر تفاسير المعتمدين على الرواية ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو لب الباب وعجب العجاب، وذخيرة الطلاب ونهاية مآرب أرباب الألباب، وأسوة المتبعين، وقدوة الناسكين، وهدى للمتقين.

وقد جاء بحمد لله كنزاً مدفوناً من جواهر الفوائد، وبحراً مشحوناً بنفائس الفرائد، في لطائف طالما كانت مخزونة، وعن الاضافة مصونة، بتقارير ترتاح لها نفوس المحصلين الكاملين وتنزاح منها شبه المبطلين، وتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، وتضحى أنوارها في قلوب السعداء وتطلع نيرانها على أفئدة الأعداء لا يعقل بيناتها إلا العالمون، ولا يحجد بآياتها إلا القوم الظالمون وسميته: ﴿فتح البيان في مقاصد القرآن﴾ وهو اسم له تاريخي، مستمداً من الله سبحانه بلوغ الغاية، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجياً منه جل جلاله أن يديم به الانتفاع، ويجعله من الذخائر التي ليس لها انقطاع، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

اعلم أن الأحاديث في فضائل القرآن كثيرة جداً ولا يتم لصاحب القرآن ما يطلبه من الأجر الموعود به في الأحاديث الصحيحة حتى يفهم معانيه، فإن ذلك هو الثمرة من قراءته.

قال القرطبي^(١) ينبغي له أن يتعلم أحكام القرآن فيفهم عن الله مراده وما فرض عليه فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فما أقبح بحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم معنى ما يتلوه، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح به أن يسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدره، فما مثل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وينبغي له أن يعرف المكي من المدني، ليفرق بين ما خاطب الله به عباده في أول الإسلام، وما ندبهم إليه في آخره وما فرض في أول الإسلام، وما زاد عليهم من الفرائض في آخره، فالمدني هو الناسخ للمكي في أكثر القرآن انتهى.

وقد جمعت في بيان ناسخ القرآن والحديث ومنسوخهما مؤلفاً سميته إفادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ، وهو بالفارسية.

وأجاب الشوكاني رحمه الله تعالى عن سألته عن العوام والنساء الذين

(١) راجع تفسير القرطبي ٣٢ وما بعدها.

يقرؤون القرآن من غير معرفة حلاله وحرامه ومعانيه هل لهم الأجر الوارد من غير نقص أم لا، فقال: «الأجر على تلاوة القرآن ثابت لكنه إذا كان بتدبر معانيه فأجره مضاعف، وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك في حصوله، والله سبحانه لا يضيع عمل عامل منهم انتهى، فيمكن حمل ما ذكر هنا أولاً على مضاعفة الأجر الموعود به لا مجرد الإثابة على نفس التلاوة».

وأما ما جاء عن الصحابة والتابعين في فضل التفسير فعن علي أنه ذكر جابر بن عبد الله ووصفه بالعلم وقال: إنه كان يعرف تفسير قوله تعالى ﴿إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ وقال مجاهد: أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله، وقال الشعبي: رحل مسروق في تفسير آية إلى البصرة ف قيل له إن الذي يفسرها رجل في الشام فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها، وقال عكرمة: في قوله سبحانه ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته. قال ابن عبد البر: هو ضميرة بن حبيب، وقال ابن عباس: مكثت سنتين أريد أن أسأل عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ما يمنعني إلا مهابته فسأله فقال: هي حفصة وعائشة.

وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره، كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح فتدخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب، ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب.

وللسلف رحمهم الله من هذا الجنس ما لا يأتي عليه الحصر، وعن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١) رواه البخاري، وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران»^(٢) متفق عليه.

(١) البخاري / ٥٠٢٧ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه

(٢) مسلم / ٢٤٤ - ابن ماجه / ٥٢ - مسند احمد / ٦ / ٩٨

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين»^(١) رواه مسلم، وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأ القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»^(٢) رواه مسلم، وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»^(٣) رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.

وأخرج الدارمي والترمذي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «إن الذي ليس في جوفه من القرآن كالبيت الخرب»^(٤) قال الترمذي هذا حديث صحيح، وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن عن ذكرى ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفصل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه»^(٥) رواه الترمذي والدارمي والبيهقي في شعب الإيمان، وقال الترمذي هذا حديث حسن غريب.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ال م حرف، ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»^(٦) رواه الترمذي وصححه والدارمي وعن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لوجعل القرآن في إهاب ثم ألقي في النار ما احترق»^(٧) رواه الدارمي، وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله الجنة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار» رواه أحمد والترمذي واستغربه ابن ماجه

(١) مسلم/٢٦٩ - صحيح الجامع الصغير ١٨٩٢

(٢) مسلم/٨٠٤ -

(٣) أبو داود/١٤٦٤ - الترمذي/٢٩١٤

(٤) الترمذي/٢٩١٣

(٥) الترمذي ٢٩٢٦ بخلافات يسيرة في الرواية

(٦) الترمذي ٢٩١٠

(٧) الدارمي كتاب فضائل القرآن الباب الأول.

والدارمي وفيه حفص بن سليمان يضعف في الحديث^(١).

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيلاً من الإبل في عقلها^(٢)» متفق عليه.

وقد وردت أحاديث كثيرة في الإعتصام بالكتاب والسنة.

وأما أحاديث فضائل القرآن سورة سورة فلا خلاف بين من يعرف الحديث إنها موضوعة مكذوبة، وقد أقر به واضعها أخزاه الله بأنه الواضع لها وليس بعد الاقرار شيء، ولا اغترار بمثل ذكر الزمخشري لها في آخر كل سورة فإنه وإن كان إمام اللغة والآلات على اختلاف أنواعها، فلا يفرق في الحديث بين أصح الصحيح وأكذب الكذب، ولا يقدر ذلك في علمه الذي بلغ فيه غاية التحقيق. ولكل علم رجال، وقد وزع الله سبحانه الفضائل بين عباده، والزمخشري نقل هذه الأحاديث عن تفسير الثعلبي، وهو مثله في عدم المعرفة بعلم السنة.

وقد أخطأ من قال إنه يجوز التساهل في الأحاديث الواردة في فضائل الأعمال، وذلك لأن الأحكام الشرعية متساوية الاقدام، لا فرق بين واجبها ومحرمها ومسنونها ومكروهها ومندوبها فلا يحل إثبات شيء منها إلا بما تقوم به الحجة: وإلا فهو من القول على الله بما لم يقل ومن التجريء على الشريعة المطهرة بإدخال ما لم يكن منها فيها، وقد صح تواتراً أن النبي ﷺ قال «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار^(٣)» فهذا الكذاب الذي كذب على رسول الله ﷺ محتسباً للناس بحصول الثواب لم يريح إلا كونه من أهل النار. وأما الذي يقرأ القرآن ولا يعرف معناه كالعوام فالأجر على تلاوة القرآن

(١) مشكاة المصابيح ٢١٤٠.

(٢) البخاري/٥٠٣٣ - مسلم/٧٩١

(٣) البخاري ٢٨/١ وانظر الى ما كتبه السيوطي حول هذا الحديث حيث جمع له اكثر من سبعين رواية في كتابه القيم تحذير الخواص من اكاذيب القصاص وقد صدر بتحقيق د. محمد الصباغ.

ثابت، لكنه إذا كان يتدبر معانيه ويمكنه فهمها فأجره مضاعف، وأما أصل الثواب بمجرد التلاوة فلا شك فيه والله سبحانه لا يضيع عمل عامل، وتلاوة القرآن كتابه سبحانه من أشرف الأعمال لفاهم ولغير فاهم، وإذا أضاع أحد ما اشتمل عليه القرآن من الأحكام أثم من جهة الاضاعة لا من جهة التلاوة والله أعلم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «نزل القرآن على خمسة: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال، فأحلوا الحلال وحرّموا الحرام واعملوا بالمحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال^(١)»، أخرجه البغوي، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار^(٢))، رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «المراء في القرآن كفر^(٣)» وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي ﷺ قوماً يتدارءون في القرآن فقال: «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه^(٤)» رواه أحمد وابن ماجة.

قال البغوي في تفسيره قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه، وذلك فيمن قال من قبل نفسه شيئاً من غير علم، فأما التأويل وهو صرف الآية إلى معنى يحتمل موافق لما قبلها وما بعدها غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط فقد رخص فيه لأهل العلم، أما التفسير وهو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها فلا يجوز إلا بالسمع بعد ثبوته من طريق النقل.

(١) مشكاة المصابيح / ١٨٢

(٢) مشكاة المصابيح / ٢٣٤ والترمذي وسنده ضعيف

(٣) صحيح الجامع الصغير / ٦٥٦٣ ومشكاة المصابيح / ٢٣٦

(٤) أحمد / ١٨٥ / المشكاة / ٢٣٧

وأصل التفسير من التفسرة وهو الدليل الذي ينظر فيه الطبيب فيكشف عن علة المريض، كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصتها، واشتقاق التأويل من الأول وهو الرجوع يقال أولته فآل أي صرفته فانصرف انتهى، والفرق بينهما أن التفسير موقوف على النقل المسموع، والتأويل موقوف على الفهم الصحيح.

وفي الحديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»^(١) واختلفوا في المراد بها على أقوال ذكرتها في الأكسير.

والسور باعتبار النسخ والمنسوخ على أقسام، ذكر سليمان الجمل بعض ذلك في حاشيته على الجلالين، وقد أوضحت المرام في إفادة الشيوخ بما لا مزيد عليه، وتفصيل حروف القرآن ذكرها النسفي في كتابه (مجمع العلوم ومطلع النجوم) وليست هذه من التفسير في شيء وأما علوم القرآن فقد استوعبها السيوطي في الاتقان، على وجه البسط والإيقان، ولا دخل لكلها في فن التفسير، وعقد النظام النيسابوري في تفسيره مقدمات أكثرها بمعزل عن علم التفسير، ولهذا لم نتكلم عليها في تفسيرنا هذا إلا في الشيء اليسير.

وها أنا أشرع الآن بحمد الله في تحرير ما هو بصائر أولي النهى والتميز، في تفسير الكتاب العزيز، وبحسن توفيقه أقول وهو الموفق لكل خير والمعطي كل مسؤل.

المؤلف

(١) صحيح الجامع / ١٥٠٧ وانظر مقدمة تفسير القرطبي حول هذا الموضوع ص ٣٨ وما بعدها.

سورة الفاتحة

أي فاتحة الكتاب معناها أول ما من شأنه أن يفتح به الكتاب، ثم أطلقت على أول كل شيء كالكلام، والتاء للنقل من الوصفية إلى الإسمية أو هي مصدر بمعنى الفتح أطلقت عليه تسمية للمفعول باسم المصدر، وإشعاراً بأصالته كأنه نفس الفتح والإضافة بمعنى اللام كما في جزء الشيء لا بمعنى (من) كما في خاتم فضة، لما عرفت أن المضاف جزء من المضاف إليه لا جزئي له، وسميت بذلك لأن القرآن افتتح بها إذ هي أول ما يكتبه الكاتب من المصحف، وأول ما يتلوه التالي من الكتاب العزيز، وإن لم تكن أول ما نزل من القرآن، وقد اشتهرت بهذا الإسم في أيام النبوة، قيل أنها مكية وهو قول أكثر العلماء، وقيل مدنية وهو قول مجاهد، وقيل أنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلوات الخمس، ومرة بالمدينة حين حولت القبلة جمعاً بين الروايات، والأول أصح قاله البغوي، ورجحه البيضاوي.

وأسماء السور توقيفية وكذا ترتيب السور والآيات أي تتوقف على نقلها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل غير ذلك، وإنما هذا على الأرجح، والسورة طائفة من القرآن لها أول وآخر وترجمة باسم خاص بها بتوقيف، والسورة قد يكون لها إسم واحد، وقد يكون لها إسمان أو أكثر.

وأسماء السور في المصاحف لم يشبتها الصحابة في مصاحفهم، وإنما هو شيء ابتدعه الحجاج كما ابتدع إثبات الأعشار والأسباع، وسميت هذه أم القرآن لكونها أصلاً ومنشأً له إما لمبدئيتها له وإما لاشتغالها على ما فيه من الشناء على الله عز وجل، والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده، أو على جملة

معانيه من الحكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء، والمراد بالقرآن هو المراد بالكتاب، وسميت أيضاً أم الكتاب لأنه يبدأ بقراءتها في الصلاة، قاله البخاري في الصحيح.

وقال أبو السعود مناط التسمية ما ذكر في أم القرآن لا ما أورده البخاري، فإنه مما لا تعلق له بالتسمية كما أشير إليه، قال ابن كثير وصحح تسميتها بالسبع المثاني لأنها سبع آيات وتثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة أو لتكرر نزولها وأخرج أحمد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «هي أم القرآن وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم»^(١) وأخرج ابن جرير عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قال هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني»^(٢)؛ وأخرج نحوه ابن مردويه والدارقطني من حديثه: «وقال كلهم ثقات.

ومن أسمائها كما حكاه في الكشاف سورة الكنز والوافية، وسورة الحمد، وسورة الصلاة، وتسمى الكافية لأنها تكفي عن سواها في الصلاة ولا يكفي سواها عنها، وسورة الشفاء والشافية لقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «هي الشفاء من كل داء» وأخرج الثعلبي عن الشعبي أن رجلاً اشتكى إليه وجع الخاصرة فقال عليك بأساس القرآن^(٣).

وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «إن الله أعطانى فيما من به عليّ فاتحة الكتاب وقال: هي كنز من كنوز عرشي»^(٤)، وأخرج إسحق بن راهويه في مسنده عن علي نحوه مرفوعاً، وذكر القرطبي للفتحة اثني عشر اسماً، وقد ذكر السيوطي في الاتقان خمسة وعشرين اسماً للفتحة.

(١) الإمام أحمد ١٥٢/٢ وانظر الفتح الرباني جزء ١٨/٦٦.

(٢) رواه أحمد الترمذي وصححه والبخاري تفسير ١/١ وقام الحديث ص ٣٠.

(٣) راجع زاد المسير ١٠/١. (٤) ضعيف الجامع ١٥٦١.

وهي سبع آيات بلا خلاف كما حكاه ابن كثير في تفسيره، قال القرطبي: أجمعت الأمة على أنها سبع آيات إلا ما روي عن حسين الجعفي أنها ست وهو شاذ، وعن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إياك نعبد﴾ آية فهي عنده ثمان وهو شاذ انتهى، وإنما اختلفوا في البسملة كما سيأتي:

وقد أخرج عبد بن حميد ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وابن الأنباري في المصاحف عن محمد بن سيرين أن أبي بن كعب وعثمان بن عفان كانا يكتبان فاتحة الكتاب والمعوذتين، ولم يكتب ابن مسعود شيئاً منهن، وقد خالف في ذلك إجماع الصحابة وسائر أهل البيت ومن بعدهم، وأخرج ابن حميد عن إبراهيم قال كان عبد الله بن مسعود لا يكتب فاتحة الكتاب في المصحف، وقال لو كتبتها لكتبت في أول كل شيء.

وقد ورد في فضل هذه السورة أحاديث: منها ما أخرجه البخاري وأحمد وأبو داود والنسائي من حديث أبي سعيد بن المولى أن رسول الله ﷺ قال له «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، قال فأخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قال نعم: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

وأخرج أحمد والنسائي والترمذي وصححه من حديث أبي بن كعب أن النبي ﷺ قال له أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها^(٢)؟ ثم أخبره أنها الفاتحة.

وأخرج أحمد في المسند من حديث عبد الله بن جابر: «أن رسول الله ﷺ قال له: ألا أخبرك بأخر سورة في القرآن؟ قلت بلى يا رسول الله، قال: اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تحتمها»^(٣)، وفي سننه ابن عقيل، وقد احتج به

(١) النسائي ٢٦/ - أبو داود الوتر ١٥/ - أحمد ٢١١/٤ - البخاري تفسير ١/١.

(٢) الترمذي - ثواب القرآن ١ - أحمد ٤١٣/٢ و ١١٤/٥.

(٣) أحمد وصحيح الجامع الصغير ٢٥٨٩.

كبار الأئمة وبقية رجاله ثقات، وابن جابر هذا هو العبدى كما قال ابن الجوزي وقيل الأنصاري البياضي كما قال ابن عساكر.

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال لما أخبره بأن رجلاً رقى سليماً بفاتحة الكتاب: «وما كان يدرى أنها رقية» الحديث^(١).

وأخرج مسلم والنسائي عن ابن عباس قال «بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبرائيل بصره الى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح لنبي قط قال فنزل منه ملك فأق النبي ﷺ فقال أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته^(٢)».

وأخرج مسلم والنسائي والترمذي وصححه عن أبي هريرة «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثاً غير تمام»^(٣) وأخرج البزار في مسنده بسند ضعيف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء إلا الموت^(٤)».

وأخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال: إن رسول الله ﷺ قال: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سقم»^(٥)، وأخرج أبو الشيخ نحوه من حديثه وحديث أبي هريرة مرفوعاً، وأخرج الدارمي والبيهقي في شعب الإيمان بسند رجاله ثقات عن عبد الملك ابن عمير قال: قال رسول الله ﷺ في فاتحة الكتاب «شفاء من كل داء»^(٦).

(١) انظر الحديث بتمامه مسلم ٢٢٠١/٤ والبخاري ١١٣٢.

(٢) انظر الحديث بتمامه مسلم ٨٠٦/١.

(٣) انظر الحديث بتمامه مسلم ٣٩٥/١.

(٤) ضعيف الجامع ٨٢٢.

(٥) (٦) ضعيف الجامع ٣٩٥٤ و٣٩٥٥.

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي وابن السني في عمل اليوم والليلة وابن جرير والحاكم وصححه عن خارجة بن الصلت التميمي عن عمه أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل راجعاً من عنده، فمر على قوم وعندهم رجل مجنون موثق بالحديد، فقال أهله أعندك ما تداوي به هذا فإن صاحبكم قد جاء بخير، قال فقرأت عليه فاتحة الكتاب ثلاثة أيام في كل يوم مرتين غدوة وعشية أجمع بناني ثم أتفل فبرأ فأعطاني مائة شاة، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرت ذلك له فقال «كل فمن أكل برقية باطله فقد أكلت برقية حق»^(١).

وعن ابن عباس قال: فاتحة الكتاب ثلثا القرآن^(٢)، وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ أم القرآن وقل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن»، وأخرج عبد بن حميد في مسنده بسند ضعيف عن ابن عباس يرفعه إلى النبي ﷺ «فاتحة الكتاب تعدل بثلث القرآن»^(٣)، وأخرج الحاكم وصححه وأبو ذر الهروي في فضائله والبيهقي في الشعب عن أنس قال كان النبي ﷺ في مسير له فنزل فمشى رجل من أصحابه إلى جنبه، فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «ألا أخبرك بأفضل القرآن فتلا عليه الحمد لله رب العالمين»^(٤).

وأخرج أبو نعيم والديلمي عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ «فاتحة الكتاب تجزىء ما لا يجزىء شيء من القرآن، ولو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات»^(٥).

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ

(١) صحيح الجامع ٤٣٧٠.

(٢) انظر ضعيف الجامع ٥٩٥٣.

(٣) من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن الزوائد ١٤٦/٧.

(٤) الحاكم ٥٦٠/١.

(٥) ضعيف الجامع ٣٩٥٢.

من قرأ فاتحة الكتاب فكأنما قرأ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، إلى غير ذلك من الأحاديث.

ثم الاستعاذة قبل القراءة سنة عند الجمهور لقوله تعالى ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ واختلفوا في لفظها المختار، ولا يأتي بكثير فائدة، ومعنى أعوذ بالله ألتجئ إليه وأمتنع به مما أخشاه، من عاذ يعوذ والشيطان أصله من شطن أي تباعد من الرحمة أو من شاط إذا هلك واحترق، والأول أولى.

والشيطان اسم لكل عات من الجن والإنس، والرجيم من يرجم بالوسوسة أو مرجوم بالشهب عند استراق السمع أو بالعذاب أو مطرود عن الرحمة.

والاستعاذة تطهر القلب عن كل شيء شاغل عن الله.

ومن لطائفها أن قوله ﴿أعوذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ إقرار من العبد بعجزه وضعفه وبقدرة الباري على دفع جميع المضرات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ مَلِكٌ يَوْمَ
الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

اختلف أهل العلم في البَسْمَلَةِ: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة كتبت في أولها، أو هي بعض آية من أول كل سورة أو هي كذلك في الفاتحة فقط دون غيرها أو أنها ليست بآية في الجميع وإنما كتبت للفصل؟ والأقوال وأدلتها مبسوطه في موضع الكلام على ذلك وقد اتفقوا على أنها بعض آية في سورة النمل، وقد جزم قراء مكة والكوفة وفقهاؤهما بأنها آية من الفاتحة ومن كل سورة، وخالفهم قراء المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها فلم يجعلوها آية لا من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقالوا إنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها.

وبالأول قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في أحد قوليه، وإسحق وعلي بن أبي طالب والزهري ومحمد ابن كعب والثوري، وهو القول الجديد للشافعي، ولذلك يجهر بها عنده.

وبالثاني قال الأوزاعي ومالك وأبو حنيفة وأصحابه، قال أبو السعود وهو الصحيح من مذهب الحنفية.

وقد أثبتتها السلف في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه، ولذا لم يكتبوا آمين. وقد أخرج أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس أن

رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة، وفي رواية انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم، وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين.

وأخرج ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدّها آية، وفي إسناده عمر بن هارون البلخي وفيه ضعف. وروى نحوه الدارقطني مرفوعاً عن أبي هريرة، وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قرأتم الحمد لله فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني^(١)، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها، رواه الدارقطني وقال رجال إسناده كلهم ثقات، ورواه البخاري في تاريخه، وروي موقوفاً أيضاً.

وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «أنزلت عليّ آناً سورة فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر^(٢)» الحديث.

قال البيهقي أحسن ما احتج به أصحابنا في أن البسملة من القرآن وأنها من فواتح السور سوى سورة براءة ما رويها في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف، وأنهم كتبوا فيها البسملة على رأس كل سورة سوى سورة براءة فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاث عشرة آية ليست من القرآن، وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنه كان يعد البسملة آية من الفاتحة ويقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن، رواه الشافعي.

وكما وقع الخلاف في إثباتها وقع الخلاف في الجهر بها في الصلاة وقد أخرج النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة أنه صلى فجهر في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ، وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي

(١) صحيح الجامع ٧٤٢ - الدارقطني ٣١٢/١.

(٢) صحيح الجامع ١٥١٠ - مسلم ٥٣/١ - أبو داود ٢٣ - النسائي ٢١.

وغيرهم، وروى أبو داود والترمذي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يفتتح الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم، قال الترمذي وليس إسناده بذلك، وقد أخرجه الحاكم في المستدرک عن ابن عباس بلفظ كان رسول الله ﷺ يجهر بسم الله الرحمن الرحيم^(١)، ثم قال صحيح.

وأخرج البخاري في صحيحه عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال كانت قراءته مداً ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمد بسم الله ومد الرحمن ومد الرحيم، وأخرج أحمد في المسند وأبو داود في السنن وابن خزيمة في صحيحه والحاكم في مستدرکه، عن أم سلمة أنها قالت كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين^(٢)، وقال الدارقطني إسناده صحيح.

وبهذا قال من الصحابة أبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن الزبير، ومن التابعين فمن بعدهم سعيد بن جبیر وأبو قلابة والزهري وعكرمة وعطاء وطاوس ومجاهد وعلي بن الحسين وسالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي وابن سيرين وابن المنکدر ونافع مولى ابن عمر وزید بن اسلم ومكحول وغيرهم، وإليه ذهب الشافعي.

واحتج من قال إنه لا يجهر بالبسملة في الصلاة بما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين، وفي الصحيحين عن أنس قال صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين، ولمسلم: لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول القراءة ولا في آخرها^(٣)، وأخرج أهل السنن نحوه عن عبد الله بن مغفل، وإلى هذا ذهب الخلفاء الأربعة وجماعة من الصحابة

(١) الحاكم ٢٠٨/١.

(٢) ضعيف الجامع ٤٨٧٦.

(٣) مسلم ٣٩٩ - البخاري ٤٥٣.

كابن مسعود وعمار بن ياسر وابن مغفل وغيرهم، ومن التابعين الحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وقتادة والأعمش والثوري، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد وغيرهم.

وأحاديث الترك وإن كانت أصح. ولكن الإثبات أرجح مع كونه خارجاً من مخرج صحيح فالأخذ به أوفى ولا سيما مع إمكان تأويل الترك، وهذا يقتضي الإثبات الذاتي أعني كونها قرآناً، والوصفي أعني الجهر بها عند الجهر بقراءة ما يفتح بها من السور في الصلاة.

والحاصل أن البسمة آية من الفاتحة ومن غيرها من السور، وحكمها من الجهر والإسرار حكم الفاتحة فيجهر بها مع الفاتحة في الصلاة الجهرية، ويسر بها مع الفاتحة في الصلاة السرية، وبهذا يحصل الجمع بين الروايات.

ولتنقيح البحث والكلام على أطرافه استدلالاً ورداً وتعقباً ودفعاً، ورواية ودراية موضع غير هذا، وقد استوفاه الشوكاني في شرحه للمنتقى، وله جواب عن سؤال نظماً ونثراً.

ومتعلق الباء محذوف وهو اقرأ أو اتلو، وتقديم المفعول للاعتناء به والقصد إلى التخصيص، ويظهر رجحان تقدير الفعل متأخراً في مثل هذا المقام ولا يعارضه قوله تعالى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ لأن المقام مقام القراءة فكان الأمر بها أهم، وأما الخلاف بين أئمة النحو في كون المقدّر اسماً أو فعلاً فلا يتعلق بذلك كثير فائدة، والباء للاستعانة أو للمصاحبة تبركاً، ورجح الثاني الزخشي، والإسم هو اللفظ الدال على المسمى، ومن زعم أن الإسم هو المسمى كما قاله أبو عبيدة وسيبويه والباقلاني وابن الفورك «وحكاة الرازي عن الحشوية والكرامية والأشعرية، فقد غلط غلطاً بيناً، وجاء بما لا يعقل مع عدم ورود ما يوجب المخالفة للعقل لا من الكتاب ولا من السنة ولا من لغة العرب، بل العلم الضروري حاصل بأن الإسم الذي هو أصوات منقطعة وحروف مؤلفة غير المسمى الذي هو مدلوله، والبحث مبسوط في علم الكلام.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة^(١)، وقال الله عز وجل ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ وقال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾.

﴿الله﴾ علم عربي مرتجل جامد عند الأكثر، خاص لذات الواجب الوجود تفرد به الباري سبحانه لم يطلق على غيره، ولا يشركه فيه أحد، وعند الرنخشري اسم جنس صار علماً بالغلبة، والأول هو الصحيح، ولم يقل بالله للفرق بين اليمين واليمين، أو لتحقيق ما هو المقصود بالاستعانة ههنا فإنها تكون تارة بذاته تعالى وتارة باسمه عز وعلا، فوجب تعيين المراد بذكر الاسم وعند المحققين أنه اسم الله الأعظم، وقد ذكره الله تعالى في ألفين وثلاثمائة وستين موضعاً من القرآن.

﴿الرحمن﴾ من الصفات الغالبة لم يستعمل في غير الله عز وجل، وقال أبو علي الفارسي الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ﴿الرحيم﴾ إنما هو في جهة المؤمنين قال تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ وعن ابن عباس قال هما إسمان أحدهما أرق من الآخر، وقيل معناهما ذو الرحمة جمع بينهما للتأكيد وقيل غير ذلك، والأول أولى، وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم.

والرحمة إرادة الخير والإحسان لأهله، وقيل ترك عقوبة من يستحق العقاب: وإسداء الخير والإحسان إلى من لا يستحق، فهو على الأول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل، وأسماء الله تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادئ التي هي انفعالات، وإفراد الوصفين الشريفين بالذكر لتحريك سلسلة الرحمة، وهل الرحمن مصروف أو لا، فيه قولان، مال التفتازاني إلى جواز الأمرين، وقد ورد في فضلها أحاديث ينبغي البحث عن أسانيد الكلام

(١) صحيح الجامع / ٢١٦٣. وفي رواية مسلم إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً...

مسلم/٢٦٧٧ البخاري ٢٠٩٨.

عليها، وقد شرعت التسمية في مواطن كثيرة قد بينها الشارع منها عند الوضوء، وعند الذبيحة، وعند الأكل وعند الجماع وغير ذلك.

﴿الحمد لله﴾ هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري على قصد التبجيل، وبهذا فارق المدح، وقال الزمخشري إنها أخوان، والحمد أخص من الشكر مورداً، وأعم منه متعلقاً، وبه صرح في الفائق، لكن الأوفق ما عليه الأكثر أنهما غير مترادفين بل متشابهان معنى أو اشتقاقاً كبيراً، وتعريفه لاستغراق أفراد الحمد، وأنها مختصة بالرب سبحانه على معنى أن حمد غيره لا اعتداد به، لأن المنعم هو الله عز وجل، أو على أن حمده هو الفرد الكامل، فيكون الحصر ادعائياً، ورجح الزمخشري أن التعريف هنا هو تعريف الجنس لا الإستغراق، وإليه نحا أبو السعود، والصواب ما ذكرناه وعليه الجمهور.

وقد جاء في الحديث «اللهم لك الحمد كله»^(١) قال ابن جرير الحمد ثناء أثنى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال قولوا الحمد لله، ثم رجع اتحاد الحمد والشكر مستندلاً على ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاً من الحمد والشكر مكان الآخر، قال ابن كثير وفيه نظر لأنه اشتهر عند كثير من العلماء المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، انتهى.

ولا يخفى أن المرجع في مثل هذا إلى معنى الحمد في لغة العرب لا إلى ما قاله جماعة من العلماء المتأخرين فإن ذلك لا يرد على ابن جرير ولا تقوم به الحجة هذا إذا لم يثبت للحمد حقيقة شرعية فإن ثبت وجب تقديمها.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال: الحمد لله كلمة الشكر،

(١) ورد أحاديث كثيرة فيها هذا اللفظ ومنها ما أخرجه مسلم ٧٦٩ - ٤٧٦.

وإذا قال العبد الحمد لله قال الله: شكرني عبدي^(١)، وروى ابن جرير عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال: قال النبي ﷺ: «إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك».

وأخرج عبد الرزاق في المصنف والحكيم الترمذي في نوادر الأصول والخطابي في الغريب والبيهقي في الأدب والديلمي في مسند الفردوس عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبداً لا يحمد»^(٢) وأخرج الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن النواس بن سمعان قال: «سُرقت ناقة رسول الله ﷺ فقال: لئن ردها الله عليّ لأشكرن ربي فرجعت، فلما رآها قال الحمد لله فانتظروا هل يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوم أو صلاة فظنوا أنه نسي، فقالوا يا رسول الله كنت قد قلت لئن ردها الله عليّ لأشكرن ربي؛ قال ألم أقل الحمد لله».

وقد ورد في فضل الحمد أحاديث: منها ما أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه البخاري في الأدب المفرد عن الأسود بن سريع قال: قلت يا رسول الله ألا أنشدك محمد حمدت بها ربي تبارك وتعالى؟ فقال أما إن ربك يحب الحمد^(٣).

وأخرج الترمذي وحسنه النسائي وابن ماجه وابن حبان والبيهقي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله)^(٤).

(١) وفي الحديث الطويل لمسلم ٣٩٥/ قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي... قال الله حمدني عبدي.

(٢) الدارقطني ٣١١/١٠.

(٣) ضعيف الجامع / ٢٧٨٩.

(٤) صحيح الجامع ١١١٥/١ - الأحاديث الصحيحة / ١٤٩٧. ابن حبان / ٢٣٢٦.

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «ما من عبد ينعم عليه بنعمة إلا كان الحمد أفضل منها» وأخرج مسلم والنسائي وأحمد عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان»^(١) وأخرج البيهقي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ما شيء أحب إلى الله من الحمد»، وفي الباب أحاديث. وأخرج أهل السنن وابن حبان والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع»^(٢) وأخرج مسلم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(٣).

وإثبات الرفع على النصب الذي هو الأصل للإيدان بأن ثبوت الحمد له تعالى لذاته لا لإثبات مثبت؛ وأن ذلك أمر دائم مستمر لا حادث متجدد كما تفيد قراءة النصب.

﴿رب العالمين﴾ قال في الصحاح الرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بالإضافة وقد قالوه في الجاهلية للملك وقال الزمخشري «الرب» المالك كما يقال رب الدار ورب الشيء أي مالكة قال القرطبي والرب السيد ومنه قوله تعالى: ﴿اذكري عند ربك﴾ وفي الحديث «أن تلد الأمة ربتها»^(٤) والرب المصلح والمدبر والمربي والجابر والقائم قال والرب المعبود. والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه، وهو اسم لما يعلم به غلب فيما يعلم

(١) صحيح الجامع / ٣٨٥٢.

(٢) ضعيف الجامع / ٤٢٢١.

(٣) صحيح الجامع / ١٨١٢ - الأحاديث الصحيحة / ١٦٥١. مسلم ٨/٨٧ الترمذي ١/٣٣٤ أحمد ١٠٠/٣.

(٤) مسلم ٨/ من الحديث الجامع عن عمر بن الخطاب بينا نحن جلوس عند رسول الله... وانظر الأربعين نووية الحديث الأول.

به الصانع من المصنوعات، قال أبو السعود وهو الأحق الأظهر أو اسم لكل موجود سوى الله تعالى، قال قتادة فيدخل فيه جميع الخلق، وهو ظاهر كلام الجوهري، وقيل أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن مفضل، وقال ابن عباس العالمون هم الجن والإنس، وقيل اسم جمع عالم بالفتح وليس جمعاً له لأن العالم عام في العقلاء وغيرهم، والعالمين مختص بالعقلاء، والخاص لا يكون جمعاً لما هو أعم منه، قاله ابن مالك وتبعه ابن هشام في توضيحه، وذهب كثير إلى أنه جمع عالم على حقيقة الجمع، وقال الفراء وأبو عبيد: العالم عبارة عما يعقل وهم أربعة أمم الانس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل، حكاها القرطبي وذكر أدلتها، وقال إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق موجود، دليله قوله تعالى: ﴿قال فرعون وما رب العالمين، قال رب السموات والأرض وما بينهما﴾ وقيل عني به الناس فإن كل واحد منهم عالم، وفيه بعد.

قال الزجاج: العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة وعلى هذا يكون جمعه بالياء والنون تغليبا للعقلاء على غيرهم وعن ابن عباس في الآية قال إله الخلق كله، السموات كلهن ومن فيهن والأرضين كلهن ومن فيهن ومن بينهن مما يعلم ولا يعلم، وفيه دليل على أن رب العالمين جرى مجرى الدليل على وجود الإله القديم وبيان لشمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس، فأثار تربيته عز وجل الفائضة على كل فرد من أفراد الموجودات في كل آن من آنات الوجود غير متناهية فسبحانه ما أعظم شأنه لا تلاحظه العيون بأنظارها، ولا تطالعه العقول بأفكارها شأنه لا يضاهي، واحسانه لا يتناهى، ونحن في معرفته حائرون، وفي اقامة مراسم شكره قاصرون.

وأق بجمع القلة تنبيهاً على أنهم وإن كثروا قليلون في جنب عظمتهم وكبريائه تعالى، واختلف في مبلغ عدد العالم على أقوال لم يصح شيء منها، والحق ما قاله سبحانه وتعالى ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾.

﴿الرحمن الرحيم﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على طريق المبالغة والرحمن

أشد مبالغة من الرحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا وقد تقرر أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى وقال ابن الانباري والزجاج أن الرحمن عبراني، والرحيم عربي، وخالفهما غيرهما (قال القرطبي) وصف نفسه بهما لأنه لما كان باتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع، وقيل فائدة تكريره هنا بعد الذكر في البسملة أن العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور، وإن الحاجة إليها أكثر، فبه سبحانه بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه، وفيه اثبات الصفات الذاتية كما في التي قبلها إثبات الصانع وحدوث العالم.

﴿مالك﴾ قد اختلف العلماء أيما أبلغ «ملك» أو «مالك» والقراءتان مرويتان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر، ذكرهما الترمذي، فذهب إلى الأول أبو عبيد والمبرد، ورجحه الزمخشري، وإلى الثاني أبو حاتم والقاضي أبو بكر بن العربي، والحق أن لكل واحد من الوصفين نوع أخصية لا يوجد في الآخر فالمالك يقدر على ما لا يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعاية، فأحدهما أقوى من الآخر في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته والمالك صفة لفعله وقيل بينهما عموم مطلق، فكل ملك مالك، ولا عكس، لعموم ولاية الملك التزاماً لا مطابقة، قاله التفتازاني، وقيل هما بمعنى.

وقد أخرج الترمذي عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ «ملك» بغير ألف. وأخرج نحوه ابن الانباري عن أنس، وأخرج أحمد والترمذي عن أنس أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر

وعمر وعثمان كانوا يقرؤون «مالك» بالألف وأخرج نحوه سعيد بن منصور عن ابن عمر مرفوعاً، وأخرج نحوه أيضاً وكيع في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن الزهري يرفعه مرسلًا، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في تفسيره وعبد بن حميد وأبو داود عن ابن المسيب مرفوعاً مرسلًا،^(١) وقد روي هذا من طرق كثيرة فهو أرجح من الأول ومالك بمعنى المستقبل، قاله القرطبي، وإضافته إلى ما بعده حقيقية أو لفظية، والتعويل على القرائن والمقامات، قاله الكرخي، وهذا أمس بالعربية وأقعد في طريقها، قاله أبو القاسم الزجاجي.

قال الخطيب والتقييد بقوله ﴿يوم الدين﴾ لا ينافي الاستمرار لأنه من غير اعتبار حدوث في أحد الازمنة انتهى. واليوم في العرف عبارة عما بين طلوع الشمس وغروبها من الزمان، وفي الشرع عما بين طلوع الفجر الثاني وغروب الشمس والمراد هنا مطلق الوقت، والدين الجزاء خيراً كان أو شراً.

ويوم الدين يوم الجزاء من الرب لعباده يقال كما تدين تدان أي كما تفعل تجازي؛ ويدل قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ والإضافة هذه على طريق الإتيان لأدنى ملابسة؛ أي مالك الأمر كله في يوم الجزاء للعباد لأن الأمر فيه لله وحده؛ ولذا خص بالذكر، وعن ابن مسعود وناس من الصحابة انهم فسروا يوم الدين بيوم الحساب، وقال قتادة يوم يدين الله العباد بأعمالهم وقيل في معنى الدين غير ذلك، والأولى ما ذكرناه، وهذه الأوصاف التي أجريت على الله من كونه رباً للعالمين موجداً لهم ومنعماً بالنعم كلها ومالكاً للأمر كله يوم الجزاء بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله ﴿الحمد لله﴾ دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والثناء عليه بل لا يستحقه على الحقيقة سواه، فإن ترتب الحكم على الوصف مشعر بعليته له، وفي هذه الآية اثبات المعاد.

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أي نخصك بالعبادة ونوحدك ونطيعك خاضعين لك ومنك نطلب المعونة على عبادتك وعلى جميع أمورنا، وفي هذه الآية إبطال الجبر والقدر معاً كما أشار إليه الثعلبي في تفسيره، و«إيّا» عند سيبويه اسم مضمّر والكاف حرف خطاب ولا محل له من الإعراب وهو الأصح وقد ارتضاه القاضي، وعند الخليل اسم مضمّر أضيف «إيّا» إليه لأنه يشبه المظهر لتقدمه على الفعل والفاعل، وقال الكوفيون إياك بكماها اسم، وجملة الأقوال فيه سبعة عد منها الخفاجي خمسة فقط، وتقديم المفعول على الفعل لقصد الاختصاص والحصر والقصر، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما، ولا تراحم بين المقتضيات.

والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل، والعبودية أدنى منها، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده ولا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى، قال ابن كثير: وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، والاستعانة طلب المعونة، وهي ضرورية وغير ضرورية.

والعدول عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الإلتفاف وتلوين النظم من باب إلى باب، وفيه الترقى من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود ومن المعقول إلى المحسوس، اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، وقد يكون من الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ أي بكم وقوله ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ أي فساقه، وقد يكون من التكلم إلى الغيبة، فهذه أربعة أقسام ذكرها البيضاوي، والتحقيق أنها ستة وهي ظاهرة لأن الملتفت منه والملتفت إليه اثنان وكل منهما إما غيبة أو خطاب أو تكلم، والعرب يستكثرون منه لفوائد تستدعيه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب آخر كان أدخل في القبول عند السامع وأحسن نظرية لنشاطه، وأملأ لاستلذاذ اصغائه وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني، وقد تختص مواقعه بفوائد ولطائف قلما تتضح إلا للحذاق المهرة وقليل ما هم.

ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد والثناء وأجرى عليه تلك الصفات، تعلق العلم بمعلوم على الذات، سمى الصفات، حري بالثناء وغاية التذلل والاستعانة في المهمات، فخطب ذلك المعلوم للتميز بتلك الأوصاف، فقل إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك، والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الاخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد أو عن سائر الموحدين، وفيه اشعار على التزام الجماعة، وقدمت العبادة على الاستعانة لتوافق رؤوس الآي ولكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق العبادة والاستعانة لقصد التعميم لتناول كل معبود به ومستعان فيه، واستحسنه الزرخشري وقال لتلاؤم الكلام، وأخذ بعضه بحجزة بعض، وتكرير الضمير للتنخيص على تخصيصه تعالى بكل واحدة منها ولا يبراز الالتذاذ بالمناجاة والخطاب.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي^(١)، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال: أثني عليّ عبدي، وإذا قال مالك يوم الدين قال: مجدني عبدي، وربما قال فوض إليّ عبدي، وإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم الخ قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

وعن أبي طلحة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة نلقى العدو فسمعتة يقول يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين قال: فلقد رأيت الرجال تصرع فتضربها الملائكة من بين يديها ومن خلفها. أخرجه البغوي والماوردي معاً في معرفة الصحابة والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل.

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أفراد لمعظم أفراد المعونة المسؤولة بالذكر،

وتعين لما هو الأهم أو بيان لها أي أرشدنا وقيل ثبتنا على المنهاج الواضح، أو اهدنا في الاستقبال كما هديتنا في الحال، وهذا الدعاء من المؤمنين مع كونهم على الهداية بمعنى سؤال التثبيت وطلب مزيد الهداية والثبات عليه، لأن الألفاظ والهدايات من الله تعالى لا تنتاهي، قال الله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ الآية وقال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ والهداية هي الإرشاد والتوفيق والتبيين أو الإلهام أو الدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية. ثم هي قد يتعدى فعلها بنفسه كما هنا وكقوله ﴿وهديناه النجدين﴾ وقد يتعدى بإلى كقوله ﴿اجتبهاه وهداه إلى صراط مستقيم﴾ وقوله ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ -وانك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ وقد يتعدى باللام كقوله ﴿هدانا لهذا﴾ وقوله ﴿يهدي للتي هي أقوم﴾ وقال الزمخشري أصله أن يتعدى باللام أو بإلى، انتهى.

وفرق كثير من المتأخرين بين المتعدي بنفسه وغير المتعدي، فقالوا معنى الأول الإيصال ومعنى الثاني الدلالة، والصراط بالصاد الخالصة لغة قريش، وهي الجادة، والسين قراءة ابن كثير في كل القرآن، ويذكر ويؤنث كالطريق والسبيل، فالتذكير لغة تميم، والتأنيث لغة الحجاز، وجمعه صُرط، وقد تشم الصاد صوت الزاي تحرياً للقرب من المبدل منه، وقد قرئ بهن جميعاً وفصحاهن الصاد، وهي الثابتة في الإمام أي في مصحف عثمان رضي الله عنه كتابة وخطاً المسمى إماماً عند القراء والمفسرين وغيرهم، فإن الإمام لغة ما يؤتم ويقتدى به فيتبع وإن لم يكن من العقلاء، ولهذا أطلق على اللوح والكتاب كما قال تعالى: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ فسمى الكتاب إماماً على وجه.

وقد كان سنة ثلاثين لما سار حذيفة رضي الله عنه لبعض الغزوات وعاد قال لعثمان رضي الله تعالى عنه إني رأيت أمراً عجيباً رأيت الناس يقول بعضهم لبعض قراءتي خير من قراءتك، فإن تركوا ليختلفوا في القرآن فيكون لذلك أمر، فجمع عثمان الصحابة رضي الله عنهم واستشارهم فأشاروا عليه

بجمعهم على مصحف واحد فأرسل إلى حفصة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها لترسل المصحف لتنسخ، وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه جمعها لما كثر قتل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باليمامة وهو الجمع الأول، فأرسلتها إليه فأمر عثمان رضي الله تعالى عنه زيد بن ثابت وابن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث فنسخوها في مصاحف اختلف في عددها كما في شرح الرائية للسخاوي رحمه الله تعالى، وأرسل إلى كل مصر مصحفاً، وحرق ما سواها^(١)، فسمى كل من تلك المصاحف إماماً لا المصحف الذي كان عند عثمان رضي الله تعالى عنه وحده كما قيل، ذكره الخفاجي.

والمستقيم المستوي والمراد به طريق الحق وملة الإسلام، قال ابن كثير أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو كذلك في لغة جميع العرب وهي اللغة الحنيفية السمحة المتوسطة بين الإفراط والتفريط.

وعن جابر بن عبد الله أنه قال هو دين الإسلام وهو أوسع مما بين السماء والأرض، وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم^(٢)، قال ابن كثير، هو إسناد حسن صحيح.

وعن ابن مسعود هو كتاب الله وقيل السنة والجماعة، وعن أبي العالية هو رسول الله ﷺ وصاحبه من بعده، وعن الفضيل بن عياض أنه طريق الحج، وقيل معناه اهدنا صراط المستحقين للجنة، وعن ابن عباس أن معناه

ألهمنا دينك الحق، وهو الأولى لاعتبار العموم.

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ بدل كل من كل، وفائدته التوكيد والتنقيص على أن صراط المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة والاستواء على أكد وجهه وأبلغه بحيث لا يذهب الوهم عند ذكره إلا إليه، والإنعام إيصال النعمة والإحسان إلى الغير إذا كان من العقلاء، ونعم الله تعالى مع استحالة إحصائها ينحصر أصولها في دنيوي وأخروي، وأطلقه ليشمل كل إنعام، فإن نعمة الإسلام عنوان النعم كلها، فمن فاز بها فقد حازها بحذافيرها.

ثم المراد بالوصول هم الأربعة المذكورة في سورة النساء حيث قال ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ وقال ابن عباس: هم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وقيل هم أصحاب محمد ﷺ وأهل بيته وقيل هم الأنبياء خاصة وقيل مطلق المؤمنين، والأول أولى، وفيه الإشارة إلى الاقتداء بالسلف الصالح وهو غير التقليد.

﴿غير المغضوب عليهم﴾ بدل كل من كل أي غير صراط الذين غضبت عليهم وهم اليهود لقوله تعالى فيهم ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ قال القرطبي الغضب في اللغة الشدة وفي صفة الله إرادة العقوبة فهو صفة ذاته أو نفس العقوبة، ومنها حديث أن الصدقة لتطفئ غضب الرب فهو صفة فعله، وغضب الله لا يلحق عصاة المؤمنين، وإنما يلحق الكافرين، والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها، وفي ﴿عليهم﴾ عشر لغات وكلها صواب، قاله ابن الأنباري.

﴿ولا الضالين﴾ لا زائدة قاله الطبري والزخشي وقيل هي تأكيد، حكاة مكى والمهدوي وقيل بمعنى غير قاله الكوفيون والمحلي أي وغير الضالين عن الهدى، وهم النصارى لقوله عز وجل ﴿قد ضلوا من قبل﴾ الآية.

وأصل الضلال الغيوبة والهلاك ومنه ضل اللبن في الماء أي غاب وقال القرطبي هو في لسان العرب الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق، أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن حبان وصححه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المغضوب عليهم هم اليهود^(١)»، وإن الضالين النصارى» ورواه أبو الشيخ عن عبد الله شقيق مرفوعاً، وابن مردويه عن أبي ذر مثله، وبه قال ربيع ابن أنس ومجاهد وابن جبير، وإنما سموها بالاختصاص كل منهما بما غلب عليه، وقيل أراد المغضوب عليهم بالبدعة، والضالين عن السنة قاله القرطبي، وقيل اللفظ يعم الكفار والعصاة والمبتدعة لقول الله تعالى: في القاتل عمداً ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقيل غير ذلك.

وأنت خير بأن جعل الموصول عبارة عما ذكر من طائفة غير معينة مخل ببدلية ما أضيف إليه مما قبله، فالمصير إلى التفسير النبوي متعين وهو الذي أطبق عليه أئمة التفسير من السلف، قال ابن أبي حاتم لا أعلم خلافاً بين المفسرين في هذا التفسير، ويشهد له آيات من القرآن كما تقدم.

قال القرطبي: سورة الفاتحة مشتملة على أربعة أنواع من العلوم هي مناط الدين أحدها علم الأصول وإليه الإشارة بقوله ﴿الحمد لله إلى الرحيم﴾ ومعرفة النبوات وهي قوله ﴿أنعمت عليهم﴾ ومعرفة المعاد هي قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ وثانيها علم الفروع وأعظمه العبادات وهي ﴿إياك نعبد﴾ والعبادة مالية وبدنية وثالثها علم الأخلاق وهو قوله ﴿إياك نستعين﴾ إلى المستقيم﴾ ورابعها علم القصص والأخبار عن الأمم السالفة السعداء منهم والأشقياء وهو المراد بقوله ﴿أنعمت عليهم﴾ إلى آخر السورة انتهى ملخصاً.

وللإمامين الغزالي والرازي في تقرير اشتمالها على علوم القرآن بسط كثير حتى استخرج الرازي منها عشرة آلاف مسألة، وأول السورة مشتمل على

(١) يراجع تفسير القرطبي فقد أورد معاني كثيرة حول هذه الآية. ١٥٠/١.

الحمدلة وآخرها على الذم للمعرضين عن الإيمان، وذلك يدل على أن مطلع الخيرات وعنوان السعادات هو الإقبال على الله، ورأس الآفات وأُس المخالفات هو الإعراض عنه والبعد عن طاعته، وعاقبة ذلك الغضب والضلال.

واعلم أن السنة الصحيحة الصريحة الثابتة تواتراً قد دلت على مشروعية التأمين بعد قراءة الفاتحة، فمن ذلك ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ فقال آمين مد بها صوته.

ولأبي داود رفع بها صوته، وقد حسنه الترمذي، وأخرجه أيضاً النسائي وابن أبي شيبه وابن ماجة والحاكم وصححه، وفي لفظ من حديثه أنه ﷺ قال «رب اغفر لي آمين» أخرجه الطبراني^(١).

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إذا قرأ يعني الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين فقولوا آمين يحبك الله» وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وأحمد وابن أبي شيبه وغيرهم أن رسول الله ﷺ قال «إذا أمَّن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢) زاد الجرجاني في أماليه «وما تأخر» قيل هم الحفظة، وقيل غيرهم من الملائكة، ويعني الذنوب الصغائر دون الكبائر. وفي الباب أحاديث بين صحيح منها وضعيف.

وآمين اسم فعل بمعنى اللهم اسمع واستجب لنا وتقبل، عند أكثر أهل العلم قاله القرطبي وفي الصحاح معناه كذلك فليكن، وبه قال ابن عباس، وعنه قال: قلت يا رسول الله ما معنى آمين^(٣) قال: «رب افعل» أخرجه جوير في تفسيره، وعن هلال بن يساف ومجاهد قالوا آمين اسم من أسماء الله، وقال الترمذي معناه لا تخيب رجائنا، وقيل هو خاتم الله على عباده يدفع به عنهم

(١) جزء من حديث صحيح الجامع / ٣٤٨٠. «رب اغفر لي».

(٢) مسلم / ٤١٠ - البخاري / ٤٧٤.

(٣) صحيح الجامع الصغير / ٣٨٨.

الآثام، رواه الطبراني عن علي بسند ضعيف وعنه عليه السلام أنه كالتخم على الكتاب، رواه أبو داود، والأول أولى.

قيل وليس من القرآن إجماعاً بدليل أنه لم يثبت في المصاحف، وفيه لغتان المد وهو اسم عجمي لأنه بزنة قابيل وهابيل، والقصر على وزن يمين، قال مجنون ليلي:

يا رب لا تسلبني حبها أبداً ويرحم الله عبداً قال آمينا
أي بالمد وقال جبير لما سأل فطحلاً:

تباعد عني فطحل إذ سألته آمين فزاد الله ما بيننا بعدا
فذكره مقصوراً قال الجوهرى وتشديد الميم خطأ، ولكنه روى عن الحسن وجعفر الصادق التشديد وبه قال الحسن بن الفضل من أم إذا قصد أي نحن قاصدون خيرك يا الله.

وهو مبني على الفتح مثل أين وكيف لاجتماع الساكنين ويقال منه أمن فلان تأمينا وهذه الكلمة لم تكن قبلنا إلا لموسى وهارون، كذا ذكر الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس بن مالك مرفوعاً، وقيل بل هي خاصة بهذه الأمة لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين^(١)» أخرجه ابن ماجه، وفي الباب أحاديث.

وقد اختلف أهل العلم في الجهر بها وفي أن الإمام يقولها أم لا. وذلك مبين في مواطنه، وكذلك اختلفوا في وجوب قراءة الفاتحة فذهب جمهور العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد إلى وجوبها وإنها متعينة في الصلاة لا تجزيء إلا بها لقوله صلى الله عليه وسلم «لا صلاة لمن لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب^(٢)» أخرجه الشيخان عن عبادة بن الصامت، وذهب أبو حنيفة إلى أنها لا تتعين على المصلي بل الواجب عليه قراءة آية من القرآن طويلة أو ثلاث آيات قصار لقوله تعالى ﴿فأقروا ما

(١) صحيح الجامع ٥٤٨٩.

(٢) صحيح الجامع / ٧٣٨٨.

تيسر منه ﴿والأول أرجح ويدل عليه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا تجزيء صلاة لمن لم يقرأ فيها ب فاتحة الكتاب»^(١)» أخرجه الدارقطني، وقال إسناده صحيح، والكلام في هذا يطول، وقد بينه الشوكاني في نيل الأوطار، وأوضحناه في مسك الختام، وسيأتي إن شاء الله تعالى في آخر الأعراف شيء مما يتعلق بهذا المقام.

هذا وقد اتفق أهل العلم على أن أعظم المقصود من تنزيل الكتاب العزيز هو إخلاص التوحيد لله عز وجل، وقطع علائق الشرك كائنة ما كانت وذلك لا يحتاج إلى أن تنقل فيه أقوال الرجال، أو يستدل عليه بالأدلة، فإنه الأمر الذي بعث الله لأجله رسله، وأنزل فيه كتبه، وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل، ومن شك في هذا فعليه بالتفكير بالقرآن الكريم فإنه سيجده من أعظم مقاصده وأكبر موارده، فإن عجز عن ذلك فلينظر في سورة من سوره.

فإن قلت: أريد منك مثلاً أقتدي به وأمشي على طريقته وأهتدي إلى التفكير الذي أرشدتني إليه بتقديم النظر فيه فنقول: ها نحن نقرب لك المسافة ونسهل عليك ما استصعبته هذه فاتحة الكتاب العزيز التي يكررها كل مصلٍ في كل صلاة ويفتح بها التالي لكتاب الله والمتعلم له فإن فيها الإرشاد إلى إخلاص التوحيد في ثلاثين موضعاً.

الأول: قوله تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فإن علماء المعاني والبيان ذكروا أنه يقدر المتعلق متأخراً ليفيد اختصاص البداية باسم الله تعالى لا باسم غيره، وفي هذا المعنى ما لا يخفى من إخلاص التوحيد.

الثاني: والثالث: الإسم الشريف أعني لفظ الله عز وجل، فإن مفهومه كما حققه علماء هذا الشأن الواجب الوجود المختص بجميع المحامد، فكان في هذا المفهوم إشارة إلى إخلاص التوحيد أحدهما تفرد بواجب الوجود، وثانيهما

(١) الدارقطني ٣٢١/١ (صحيح المعنى).

اختصاصه بجميع المحامد، فاستفيد من الاسم الشريف الذي أضيف إليه لفظ اسم هذان الأمران.

الرابع: تحلية الرحمن باللام فإنها من أدوات الاختصاص سواء كانت موصولة كما هو شأن آلة التعريف إذا دخلت على المشتقات أو لمجرد التعريف كما يكون إذا دخلت على غيرها من الأسماء والصفات، وقد أوضح هذا المعنى أهل البيان بما لا مزيد عليه.

الخامس: اللام الداخلة على قوله الرحيم والكلام فيها كالكلام في الرحمن.

السادس: اللام الداخلة على قوله ﴿الحمد لله﴾ فإنها تفيد أن كل حمد له لا يشاركه فيه غيره، وفي هذا أعظم دلالة على إخلاص توحيده.

السابع: لام الاختصاص الداخلة على الإسم الشريف، وقد تقرر أن الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الإختياري لقصد التعظيم فلا ثناء إلا عليه، ولا جميل إلا منه، ولا تعظيم إلا له، وفي هذا من أدلة إخلاص التوحيد ما لا يقادر قدره.

الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر قوله ﴿رب العالمين﴾ فإن لفظ الرب باعتبار معناه اللغوي مشعر أتم إشعار بإخلاص توحيده هذا باعتبار معناه الإفرادي دون الإضافي، ثم في معناه الإضافي دلالة أخرى: فإن كونه رب العالمين يدل على ذلك أبلغ دلالة: ثم في لفظ العالمين معنى ثالث لما تقرر لغة وشرعاً أن العالم هو اسم لما عدا الله عز وجل؛ فيدخل في هذا كل شيء غير الله سبحانه فلا رب غيره؛ وكل ما عداه فهو مربوب؛ وصيغ الحصر إذا تتبعته من كتب المعاني والبيان والتفسير والأصول بلغت ثلاث عشرة صيغة فصاعداً، ومن شك في هذا فليتبع كشاف الزمخشري فإنه سيجد فيه ما ليس له ذكر في كتب المعاني والبيان كالقلب فإنه جعله من مقتضيات الحصر، ولعله ذكر ذلك عند تفسيره للطاغوت وغير ذلك مما لا يقتضي المقام بسطه، ومع الإحاطة بصيغ الحصر المذكورة تكثر الأدلة الدالة على إخلاص التوحيد وإبطال

الشرك بجميع أقسامه، ولو أراد رجل أن يجمع ما ورد في هذا المعنى من الكتاب والسنة لكان مجلداً ضخماً.

ثم في تعريفه باللام معنى رابع كمثّل ما قدمنا فإنها تفيد زيادة الاختصاص وتقرر ذلك المفهوم في هذا الموضع، ثم في صيغة الجمع معنى خامس بزيادة تأكيد وتقرير، فإن العالم إن كان اسماً لما عدا الله لم يكن جمعه إلا لمثل هذا المعنى، وعلى فرض انهدامه باللام فهو لا يقتضي ذهاب هذا المعنى المستفاد من أصل الجمع.

الثالث عشر والرابع عشر قوله ﴿الرحمن الرحيم﴾ وتقرير الكلام فيهما كما سلف. الخامس عشر والسادس عشر: قوله ﴿مالك يوم الدين﴾ فإن لفظ مالك معناه الإفرادي من غير نظر إلى معناه الإضافي يفيد استحقاقه باخلاص توحيده، ثم في معناه الإضافي إلى يوم الدين معنى ثان، فإن من كان له الملك في مثل هذا اليوم الذي هو يوم الجزاء لكل العباد وفيه يجتمع العالم أولهم وآخرهم، سابقهم ولاحقهم، جنهم وإنسهم، وملأكتهم، فيه إشارة إلى استحقاقه إخلاص توحيده.

السابع عشر: ما يستفاد من نفس لفظ الدين من غير نظر إلى كونه مضافاً إليه. الثامن عشر: ما يستفاد من تعريفه، فإن في ذلك زيادة احاطة وشمول فإن ذلك الملك إذا كان في يوم هو يوم الدين الذي يشتمل على كل دين كان من له هذا الملك حقيقةً بأن يخلص العباد توحيده ويفردونه بالعبادة كما تفرد بملك يوم له هذا الشأن.

فإن قلت إن هذين المعنيين في لفظ ﴿الدين﴾ باعتبار أصله وباعتبار تعريفه قد أخذ في المعنى الإضافي حسبما ذكرته سابقاً. قلت لا تراحم بين المقتضيات ولا يستنكر النظر إلى الشيء باعتبار معناه الإفرادي تارة وباعتبار معناه الإضافي أخرى، وليس ذلك بممنوع ولا محجور عند من يعرف العلم الذي تستفاد منه دقائق العربية وأسرارها وهم أهل علم المعاني والبيان.

التاسع عشر: والموفى والحادي والعشرون قوله ﴿إياك نعبد﴾ فإن تقديم الضمير معمولاً للفعل الذي بعده يفيد اختصاص العبادة به، ومن اختص بالعبادة فهو الحقيق بإخلاص توحيده، ثم مادة هذا الفعل أعني لفظ نعبد تفيد معنى آخر، ثم المجيء بنون الجماعة الموجبة لكون هذا الكلام صادراً عن كل من تقوم به العبادة من العابدين كذلك، فكانت الدلالات في هذه الجملة ثلاثاً (الأولى) في ﴿إياك﴾ مع النظر إلى الفعل الواقع بعده (الثانية) ما تفيده مادة نعبد مع ملاحظة كونها واقعة لمن ذلك الضمير عبارة عنه وإشارة إليه (الثالثة) ما تفيده النون مع ملاحظة الأمرين المذكورين ولا تراحم بين المقتضيات.

الثاني والعشرون والثالث والعشرون والرابع والعشرون: قوله ﴿وإياك نستعين﴾ فإن تقديم الضمير معمولاً لهذا الفعل له معنى، ثم مادة هذا الفعل لها معنى آخر فإن من كان لا يستعان بغيره لا ينبغي أن يكون له شريك، بل يجب إفراده بالعبادة وإخلاص توحيده إذ وجود من لا يستعان به كعدمه. وتقرير الكلام في الثلاث الدلالات كتقريره في إياك نعبد فلا نعيده.

الخامس والعشرون والسادس والعشرون والسابع والعشرون: قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فإن طلب الهداية منه وحده باعتبار كون هذا الفعل واقعاً بعد الفعلين اللذين تقدم معمولهما فكان له حكمهما وإن كان قد تغير أسلوب الكلام في الجملة، حيث لم يقل نستهدي أو نطلب الهداية حتى يصح أن يكون ذلك الضمير المتقدم المنصوب معمولاً له تقديراً، لكن مع بقاء المخاطبة وعدم الخروج عما يقتضيه لم يقطع النظر عن ذلك الضمير الواقع على تلك الصورة لتوسطه بين هذا الفعل؛ أعني اهدنا وبين من أسند إليه، ثم في ضمير الجماعة معنى يشير إلى استحقاقه سبحانه إخلاص التوحيد على الوجه الذي قدمناه في الفعلين السابقين. ثم في كون هذه الهداية هي هداية الصراط المستقيم التي هي الهداية بالحقيقة، ولا اعتبار بهداية إلى صراط لا استقامة فيه معنى ثالث يشير إلى ذلك المدلول.

الثامن والعشرون: قوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ فإن من يهdy إلى هذا الصراط الذي هو صراط من أنعم الله عليهم يستحق أن لا يشتغل بغيره ولا ينظر إلى سواه، لأن الإيصال إلى طرائق النعم هو المقصود من المشي والمراد بحركات السائرين، وذلك كناية عن الوصول إلى النعم نفسها إذ لا اعتبار بالوصول إلى طرائقها من دون وصول إليها، فكان وقوع الهداية على الصراط المستقيم نعمة بمجرددها، لأن الاستقامة اذا تصورت عند تصور الاعوجاج كان فيها راحة بهذا الاعتبار، فكيف اذا كان ذلك كناية عن طريق الحق، فكيف اذا كان حقاً موصلاً الى الفوز بنعم الله سبحانه.

التاسع والعشرون: قوله ﴿غير المغضوب عليهم﴾ ووجه ذلك أن الوصول إلى النعم قد يكون منغصاً مكدرأ بشيء من غضب المنعم سبحانه، فإذا صفا ذلك عن هذا الكدر وانضم الى الظفر بالنعم الظفر بما هو أحسن منها موقعاً عند العارفين، وأعظم قدراً في صدور المتقين، وهو رضا رب العالمين، كان في ذلك من البهجة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ولا الوقوف على حقيقته ولا تصور معناه. واذا كان المولى لهذه النعمة والمتفضل بها هو الله تعالى ولا يقدر على ذلك غيره ولا يتمكن منه سواه، فهو المستحق لإخلاص توحيده وافراده بالعبادة.

الموفى ثلاثين: قوله ﴿ولا الضالين﴾ ووجهه أن الوصول الى النعم مع الرضا قد يكون مشوباً بشيء من الغواية، مكدرأ بنوع من أنواع المخالفة وعدم الهداية، وهذا باعتبار أصل الوصول الى نعمة من النعم مع رضا المنعم بها فإنه لا يستلزم سلب كون المنعم عليه على ضلالة لا باعتبار هذه النعمة الخاصة من هذا المنعم عز وجل.

ولما كان الأمر في الأصل هكذا كان في وصول النعم الى المنعم عليه من المنعم بها مع كونه راضياً عليه غير غاضب عنه، اذا كان ذلك الوصول مصحوباً بكون صاحبه على ضلالة في نفسه قصور عن وصولها الى من كان

جامعاً بين كونه واصلاً الى المنعم فائزاً برضا المنعم عليه خالصاً من كدر كونه في نفسه على ضلالة، وتقرير الدلالة من هذا الوجه على اخلاص التوحيد كتقريرها في الوجه الذي قبله.

فهذه ثلاثون دليلاً مستفادة من سورة الفاتحة باعتبار ما يستفاد من تراكيبها العربية مع ملاحظة ما يفيد ما اشتملت عليه من تلك الدقائق والأسرار التي هي راجعة الى العلوم الآلية، وداخلة فيما تقتضيه تلك الألفاظ بحسب المادة والهيئة والصورة مع قطع النظر عن التفسير بمعنى خاص قاله بعض السلف، أو وقف عنده من بعدهم من الخلف.

فإن قلت^(١) هذه الأدلة التي استخرجتها من هذه السورة المباركة وبلغت بها الى هذا العدد وجعلتها ثلاثين دليلاً على مدلول واحد، لم نجد لك فيها سلفاً ولا سبقك بها غيرك.

قلت: هذي شكاة ظاهر عنك عارها، واعتراض غير واقع موقعه، ولا مصادف محزه، فإن القرآن عربي، وهذا الاستخراج لما ذكرناه من الأدلة هو على مقتضى اللغة العربية، وبحسب ما تقتضيه علومها التي دونها الثقات، ورواها العدول الاثبات، وليس هذا من التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه، والزجر لفاعله، بل من الفهم الذي يعطاه الرجل في كتاب الله كما أشار اليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كلامه المشهور، وما كان من هذا القبيل فلا يحتاج فيه الى سلف، وكفى بلغة العرب وعلومها المدونة بين ظهراي الناس وعلى ظهر البسيطة سلفاً.

وبالجمله فهذه ثلاثون موضعاً في فاتحة الكتاب يفيد كل واحد منها اخلاص التوحيد مع أن فاتحة الكتاب ليست الا سبع آيات، فما ظنك بما في سائر الكتاب العزيز، فذكرنا لهذه المواضع في فاتحة الكتاب كالبرهان على ما ذكرناه من أن في الكتاب العزيز من ذلك ما يطول تعداده وتنوع الإحاطة به.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة البقرة

قال القرطبي مدينة نزلت في مدد شتك، وقيل هي أول سورة نزلت بالمدينة إلا قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فإنها آخر آية نزلت من السماء، ونزلت يوم النحر في يوم حجة الوداع بمنك، قاله ابن عباس؛ وآيات الربا أيضا من أواخر ما نزل من القرآن؛ وقد ورد في فضلها أحاديث وآثار كثيرة في الصباح والسنن وغيرها؛ ومن فضائلها ما هو خاص بآية الكرسي وما هو خاص بخواتيم هذه السورة؛ وما هو في فضلها وفضل آل عمران؛ وما هو في فضل السبع الطوال، وليطلب ذلك من موطنه.

وهي مائتان وست وقيل وسبع وثمانون آية. قال ابن العربي فيها ألف أمر. وألف نهج؛ وألف حكم؛ وألف خبر، أخذها بركة؛ وتركها حسرة لا تستطيعها البطلة، وهم السحرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾

﴿الْم﴾ قال القرطبي اختلف أهل التأويل في الحروف التي في أوائل السور؛ فقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين هي سر الله في القرآن؛ والله في كل كتاب من كتبه سر؛ فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه؛ ولا نحب أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها ونمرها كما جاءت، وروي هذا القول عن أبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب؛ قال وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسر؛ وفائدة ذكرها طلب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها فهي مما استأثر الله بعلمه.

وقال أبو حاتم لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله عز وجل؛ وقال جمع من العلماء كثير: بل نحب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فروي عن ابن عباس وعلي أيضاً أن الحروف المقطعة من القرآن اسم الله الأعظم إلا أنا لا نعرف تأليفه منها، وقال قطرب والمبرد والفراء وغيرهم واختاره جمع عظيم من المحققين هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من الحروف التي بني كلامهم عليها ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم، قال قطرب كانوا ينفرون عند استماع القرآن فلما نزل (ألم، المص) استنكروا هذا اللفظ فلما أنصتوا له ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبتته في

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم^(١).

وقال جماعة هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بعينها كقول ابن عباس وغيره الألف من الله واللام من جبريل، والميم من محمد، وذهب إلى هذا الزجاج فقال اذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي عن معنى، وقد تكلمت العرب بحروف مقطعة كقوله «فقلت لها قفي فقالت قاف» أي وقفت وفي الحديث «من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة» قال شقيق هو أن يقول في أقتل أق. كما قال النبي ﷺ كفى بالسيف شا أي شافياً^(٢).

وقال بعضهم الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، والمعنى أن الله الواحد أنزل ثلاثين جزءاً من القرآن على محمد ﷺ بعدما بلغ أربعين سنة التي بعثه عندها إلى الخلق، وقال زيد بن أسلم هي أسماء للسور، وقال الكلبي هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسمائه، وقيل إن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب مستوية فيها بخلاف النطق باسميها وهو خاص بمن خط وقرأ والنبي ﷺ أمي فأق بها كذلك زيادة في الإعجاز، وقيل غير ذلك مما لا يأتي عليه الحصر، وقد ذكر شطراً منها الرازي في تفسيره.

ومن أدق ما أبرزه المتكلمون في معاني هذه الحروف ما ذكره الزنجشيري في الكشف حيث قال إنك إذا تأملت ما أورده الله سلطانه في الفواتح من هذه الاسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن

(١) ضعيف الجامع الصغير ٤١٧٩

(٢) ضعيف الجامع الصغير ٥٤٥٤.

المجهورة نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها الألف والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء، ومن المنفتحة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون، ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء، ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء.

ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دق في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيث لهم وإلزام الحجة إياهم.

ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة وآل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر، انتهى وتبعه في ذلك جماعة من أهل التفسير منهم الخازن والنسفي والبيضاوي والخطيب وأبو السعود وغيرهم.

(أقول) هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيث كما قال فهذا متيسر بأن يقال لهم هذا القرآن هو من الحروف التي يتكلمون بها ليس من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيثاً وإلزاماً يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح هو أيضاً مما لا يفهمه أحد من السامعين

ولا يتعقل شيئاً منه فضلاً أن يكون تبكيئاً له وإلزاماً للحجة إياه فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه، ولم يفهم السامع هذا، ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلاً عن كله.

ثم كون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتملاً على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف هو أمر لا تتعلق به فائدة لجاهلي ولا إسلامي، ولا مقرر، ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، ولا يصلح أن يكون مقصداً من مقاصد الرب سبحانه الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به.

وهب أن هذه صناعة عجيبة، ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيداً أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى تتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس حروف كلامهم، ولا مدخل فيما ذكر.

وأيضاً لو فرض أنها كلمات مترتبة بتقدير شيء قبلها أو بعدها لم يصح وصفها بذلك لأنها تعمية غير مفهومة للسامع إلا بأن يأتي من يريد بيانها بمثل ما يأتي به من أراد بيان الألغاز والتعمية، وليس ذلك من الفصاحة والبلاغة في ورد ولا صدر، بل من عكسهما وضد رسمهما.

وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله عز وجل فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرهما به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً عنده من الرطانة، ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على حرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فانهم لم

يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه بحيث لا يلتبس على سامعه كمثل ما تقدم ذكره، ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم، وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا.

وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها لم يبق حينئذ إلا أحد أمرين (الأول) التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصد عنه والتكبح عن طريقه، وهم أتقى الله سبحانه من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه ملعبة لهم يتلاعبون به ويضعون حماقات أنظارهم، وخزعبلات أفكارهم عليه (الثاني) التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيح الواضح والسبيل القويم بل الجادة التي ما سواها مردوم، والطريقة العامة التي ما عداها مهدوم، فمن وجد شيئاً من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه ويتكلم بما وصل إليه علمه، ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل لا أدري أو الله أعلم بمراده، فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه ومحاولة الوقوف على علمه، مع كونه ألفاظاً عربية، وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، فكيف بما نحن بصدد، فإنه ينبغي أن يقال فيه أنه متشابه المتشابه، على فرض أن للفهم إليه سبيلاً، ولكلام العرب فيه مدخلاً، فكيف وهو خارج عن ذلك على كل تقدير.

وانظر كيف فهم اليهود عند سماع ﴿آل﴾ فإنهم لما لم يجدوها على نمط لغة العرب فهموا أن الحروف المذكورة رمز إلى ما يصطلحون عليه من العدد الذي يجعلونه لها كما أخرج ابن اسحق والبخاري في تاريخه وابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله قال: مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله ﷺ وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿آل﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴿فأتى أخاه حبي بن أخطب في رجال من اليهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل عليه ﴿آل﴾ ذلك الكتاب﴾ فقال أنت سمعته فقال نعم، فمشى حبي في أولئك النفر إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد ألم

يذكر أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿آلَمَ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ قال بلى قالوا أجباءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال نعم، قالوا لقد بعث الله من قبلك الأنبياء ما نعلمه بين نبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك، فقال حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد هل مع هذا غيره قال نعم قال وما ذاك قال ﴿المصّر﴾ قال هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون، فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره، قال نعم وما ذاك قال ﴿آلَرَ﴾ قال هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان، هذه إحدى وثلاثون سنة ومائتان، فهل مع هذا غيره قال نعم ﴿آلَرَ﴾ قال فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون سنة ومائتان، ثم قال لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً. ثم قاموا فقال أبو ياسر لأخيه حيي ومن معه من الاحبار ما يديركم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وستون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون سنة، فقالوا لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾^(١).

فانظر ما بلغت إليه أفهامهم من هذا الأمر المختص بهم من عدد الحروف مع كونه ليس من لغة العرب في شيء، وتأمل أي موضع أحق بالبيان من رسول الله ﷺ من هذا الموضع، فإن هؤلاء الملاحين قد جعلوا ما فهموه

(١) لم أجده في صحاح الكتب بين يدي.

عند سماع ﴿آلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ من ذلك العدد موجباً للتشيط عن الإجابة له والدخول في شريعته، فلو كان لذلك معنى يعقل ومدلول يفهم لدفع رسول الله ﷺ ما ظنوه بادىء بدء حتى لا يتأثر عنه ما جاؤوا به من التشكيك على من معهم.

فإن قلت هل ثبت عن رسول الله ﷺ في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به.

قلت لا أعلم أن رسول الله ﷺ تكلم في شيء من معانيها بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وصححه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول ﴿آلَمْ﴾ حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»^(١) وله طرق عن ابن مسعود.

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري بسند ضعيف عن عوف بن مالك الأشجعي ونحوه مرفوعاً.

فإن قلت هل روي عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلي.

قلت قد روي عن ابن مسعود أنه قال ﴿آلَمْ﴾ حرف اشتقت من حروف اسم الله وعنه قال هي اسم الله الأعظم؛ وعن ابن عباس في قوله ﴿آلَمْ وَحَمْدُونَ﴾ قال اسم مقطع وعنه في فواتح السور قال هو قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله.

وعن الربيع بن أنس قال «ألف» مفتاح اسمه الله «ولام» مفتاح اسمه لطيف «وميم» مفتاح اسمه مجيد وقد روي نحو هذه التفاسير عن جماعة من

(١) الدارمي ٤٢٩/٢ - الترمذي ٥٣/٤ - مشكاة المصابيح ٢١٣٧/ وفي رواية للديلمي ١٣/١ والخطيب في التاريخ ٢٨٥/١ برواية: اقرؤا القرآن فانكم تؤجرون إليه أما اني لا اقول الم....

التابعين، فيهم عكرمة والشعبي والسدي وقتادة ومجاهد والحسن.
فإن قلت هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال في تفسير شيء من
هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه.

قلت لا لما قدمنا إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول
الله ﷺ.

فإن قلت هذا مما لا مجال للاجتهاد فيها ولا مدخل للغة العرب فلم لا
يكون له حكم الرفع.

قلت تنزيل هذا منزلة المرفوع وإن قال به طائفة من أهل الأصول
وغيرهم فليس مما تشرح له صدور المنصفين، ولا سيما إذا كان في مثل هذا
المقام، وهو التفسير لكلام الله سبحانه، فإنه دخول من أعظم الخطر مما لا
برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم أنه يبعد من الصحابي كل البعد أن يقول
بمحض رأيه فيما لا مجال للاجتهاد فيه، وليس مجرد الاستبعاد مسوغاً للوقوع في
خطر الوعيد الشديد.

على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه كما
تجده كثيراً في تفاسيرهم المنقولة عنهم، وتجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه.

ثم ههنا مانع آخر؛ وهو أن المروي عن الصحابة في هذا مختلف
متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكماً لا وجه له، وإن
عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض، ولا يجوز، ثم ههنا مانع غير
هذا المانع وهو أنه لو كان شيء مما قالوه مأخوذاً عن النبي ﷺ لاتفقوا عليه
ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه، فلما اختلفوا في هذا علمنا أنه لم يكن
مأخوذاً عن النبي ﷺ، ثم لو كان عندهم شيء عن النبي ﷺ في هذا لما تركوا
حكاية عنه ورفعوا إليه، لا سيما عند اختلافهم واضطراب أقوالهم في مثل هذا
الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل لها.

ولا يقال قد اختلفوا في غيره من الأحكام فيلزم عدم الأخذ به، لأننا
نقول اختلافهم في ذلك من قبيل الأخذ بالأخص أو الأعم أو المتقدم أو

المتأخر، وفي كثير مما اختلفوا فيه إن علموا بالنص تركوا ذلك بخلاف ما هنا، والله أعلم.

والذي أراه لنفسي ولكل من أحب السلامة واقتدى بسلف الأئمة أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الإعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عز وجل لا تبلغها عقولنا، ولا تهتدي إليها أفهامنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك فلا تجاوز، وسيأتي لنا عند تفسير قوله تعالى: ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب، وآخر متشابهات﴾ كلام طويل الذيول وتحقيق تقبله صحيحات الافهام وسليمات العقول.

﴿ذلك الكتاب﴾ أي القرآن، وقيل فيه اضممار أي هذا الكتاب الذي وعدتك به أو وعدت به على لسان موسى وعيسى أن أنزله عليك، قال ابن عباس في الآية يعني هذا الكتاب، وبه قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي ومقاتل وزيد بن أسلم وابن جريج، وحكاه البخاري عن أبي عبيدة، والإشارة إلى الكتاب المذكور بعده، والعرب قد تستعمل الإشارة إلى البعيد الغائب، مكان الإشارة إلى القريب الحاضر، ومنه قوله تعالى ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة﴾ وقوله ﴿تلك حجتنا آتيناها إبراهيم﴾ وقوله ﴿تلك آيات الكتاب﴾ وقوله ﴿ذلكم حكم الله﴾ قال أبو السعود وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للايذان بعلو شأنه، وكونه في الغاية القاصية من الفضل والشرف، انتهى.

وقيل إن الإشارة إلى غائب، واختلف في ذلك الغائب، ف قيل هو الكتاب الذي كتب على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأجل والرزق، وقيل الكتاب الذي كتبه الله على نفسه في الأزل كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتي تغلب غضبي»^(١) وفي رواية «سبقت» وقيل الإشارة إلى ما قد

(١) مسلم ٢٧٥١/ وفي رواية لما خلق الله الخلق... البخاري ١٥٠٩/.

نزل بمكة، وقيل إلى ما في التوراة والإنجيل، وقيل إلى قوله قبله ﴿آلَمْ﴾ ورجحه الزمخشري.

وقد وقع الاختلاف في ذلك إلى تمام عشرة أقوال حسبها حكاها القرطبي وأرجحها ما صدرناه، والكتاب مصدر بمعنى المكتوب وأصله الضم والجمع، ومنه يقال للجند كتية لاجتماعها، والكتاب يجمع الحروف بعضها إلى بعض، وهو اسم من أسماء القرآن.

﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك فيه أنه من عند الله وأنه الحق والصدق، وقيل هو خبر بمعنى النهي أي لا ترتابوا فيه والريب والشك مع التهمة مصدر، وهو قلق النفس واضطرابها، ومنه قوله ﷺ «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(١) فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة، ومنه ريب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، وقيل الريب هو الشك مطلقاً، وقال ابن أبي حاتم لا أعلم في هذا خلافاً، وقد يستعمل الريب في التهمة والحاجة، حكى ذلك القرطبي، ومعنى هذا النفي العام أن الكتاب ليس بمظنة للريب لوضوح دلالة وضوحاً يقوم مقام البرهان المقتضى لكونه لا ينبغي الإرتياب فيه بوجه من الوجوه.

﴿هدى﴾ أي رشاد وبيان، وأنه يذكر وهو الكثير وبعضهم يؤنث أي هو هدى أو هذه هدى أو هو هاد لهم إلى الحق، والهدى مصدر، وهذا وزن نادر في المصادر لم يرد منه فيما قيل إلا الهدى والتقى والسرى والبكا بالقصر في لغة، وزاد الشاطبي: لغى بالضم في لغة أيضاً قال الزمخشري: وهو الدلالة الموصلة إلى البغية بدليل وقوع الضلال في مقابله، انتهى.

قال القرطبي: الهدى هديان، هدى دلالة وهو الذي يقدر عليه الرسل واتباعهم، قال الله تعالى ﴿ولكل قوم هاد﴾ وقال ﴿وإنك لتهدي إلى صراط

(١) النسائي ٣٣٤/٢ - الترمذي ٨٤/٢ - الدارمي ٢٥٤/٢ - الحاكم ١٣/٢ - مسند احمد ٢٠٠/١ - ابو نعيم ٣٥٢/٦.

مستقيم ﴿فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق فقال لنبيه ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فالهدى على هذا يحىء بمعنى خلق الإيمان في القلب، ومنه قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وقوله ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿للمتقين﴾ أي من ثبتت لهم التقوى، وتخصيص الهدى بالمتقين لما أنهم المقتبسون من أنواره المتفعون بآثاره وإن كانت بهدايته شاملة لكل ناظر من مؤمن وكافر، ولذا أطلقت في قوله ﴿هَدَى لِلنَّاسِ﴾ قاله أبو السعود قال ابن فارس وأصلها في اللغة قلة الكلام، وقال في الكشف المتقي في اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى، والوقاية الصيانة، وهو في الشريعة الذي يقي نفسه تعاطي ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك انتهى قال ابن مسعود وهم المؤمنون.

وعن معاذ بن جبل أنه قيل له من المتقون فقال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة، وعن أبي هريرة أن رجلاً قال له ما التقوى؟ قال هل وجدت طريقاً ذا شوك، قال نعم، قال فكيف صنعت قال إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال ذلك التقوى، وعن أبي الدرداء قال تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خيفة أن يكون حراماً يكون حجاباً بينه وبين الله وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري في تاريخه والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن عطية السعدي قال: قال رسول الله ﷺ «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به بأس» فالمصير إلى ما أفاده هذا الحديث واجب، ويكون هذا معنى شرعياً للمتقي أخص من المعنى الذي قدمنا عن صاحب الكشف زاعماً أنه المعنى الشرعي.

وقد أطال القوم في ذكر تعاريف التقوى ورسوم المتقي لا حاجة لنا إلى التطويل بذكر تلك الأقوال، فالمرفوع يغني عن المرقوع، والصباح يغني عن المصباح.

﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ هو وصف للمتقين كاشف، وأصل الإيمان في اللغة التصديق، قال تعالى ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي بمصدق وتعديته بالباء لتضمنه معنى الإعراف، وقد يطلق بمعنى الوثوق وكلا الوجهين حسن هنا، والغيب في كلام العرب كل ما غاب عنك. قال القرطبي واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا فقالت فرقة الغيب هو الله سبحانه، وضعفه ابن العربي، وقال آخرون القضاء والقدر. وقال آخرون القرآن وما فيه من الغيوب وقيل القلب أي يصدقون بقلوبهم، وقيل الغيب الخفاء، وقال آخرون الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهدي إليه العقول من أشراط الساعة، وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان والجنة والنار.

قال ابن عطية وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها. قال وهذا هو الإيمان الشرعي المشار إليه في حديث جبرائيل حين قال للنبي ﷺ «فأخبرني عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ونؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت» انتهى، وهذا الحديث هو ثابت في الصحيح بلفظ «والقدر خيره وشره»^(١).

وقد أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وأبو نعيم كلاهما في معرفة الصحابة عن نزيلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة واستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا بأن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ رسول الله ﷺ

(١) جزء من الحديث الطويل عن عمر بن الخطاب انظر تمامة مسلم ٨/.

فقال «أولئك قوم آمنوا بالغيب» وأخرج البزار وأبو يعلى والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال كنت جالسا مع النبي ﷺ قال: «أنبئوني بأفضل أهل الإيمان إيماناً» فقالوا يا رسول الله الملائكة قال هم كذلك ويحق لهم، وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها قالوا يا رسول الله «الأنبياء الذين أكرمهم الله برسالته ونبوته» قال هم كذلك ويحق لهم وما يمنعهم وقد أنزلهم الله المنزلة التي أنزلهم بها قالوا يا رسول الله الشهداء الذين استشهدوا مع الأنبياء. قال هم كذلك وما يمنعهم وقد أكرمهم الله بالشهادة. قالوا فمن يا رسول الله؟ قال «أقوام في أصلاب الرجال يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني ويصدقوني ولم يروني يجدون الورق المعلق فيعملون بما فيه فهو لأفضل أهل الإيمان إيماناً»^(١) وفي إسناده محمد بن أبي حميد، وفيه ضعف.

وأخرج حسن بن عرفة في جزئه المشهور والبيهقي في الدلائل عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ، فذكر نحو الحديث الأول وفي إسناده المغيرة بن قيس البصري وهو منكر الحديث وأخرج نحوه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً والإسماعيلي عن أبي هريرة مرفوعاً أيضاً والبزار عن أنس مرفوعاً.

وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده عن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «يا ليتني قد لقيت إخواني» قالوا يا رسول الله ألسنا إخوانك، قال «بلى ولكن قوم يجيئون من بعدكم يؤمنون بي إيمانكم ويصدقوني تصديقكم وينصروني نصركم، فيا ليتني قد لقيت إخواني»^(٢) وعن أبي جمعة الأنصاري قال:

(١) الدارمي رفاق ٣١، أحمد بن حنبل ١٠٦/٤. المستدرک ٨٥/٤.

(٢) أحمد بن حنبل ٧١/٣ - ٢٤٨/٥ - ٢٥٧ - ٢٦٤.

قلت يا رسول الله هل من قوم أعظم منا أجراً: آمنا بك واتبعناك قال: ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم يأتون من بعدكم، يأتيهم كتاب الله بين لوحين فيؤمنون بي ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجراً^(١)» أخرجه أحمد والدارمي والبارودي وابن قانع معاً في معجم الصحابة، والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم عن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله ﷺ «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن آمن بي ولم يرني سبع مرات» أخرجه الطيالسي وأحمد والبخاري في تاريخه والطبراني والحاكم.

وأخرج أحمد وابن حبان عن أبي سعيد أن رجلاً قال يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني» وأخرج الطيالسي وعبد بن حميد عن ابن عمر نحوه، وأخرج أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث أنس نحو حديث الباهلي المتقدم.

وعن ابن مسعود أنه قال والذي لا إله غيره ما آمن أحد أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ ﴿الْم﴾ الآية، وللتابعين أقوال، والراجح ما تقدم من أن الإيمان الشرعي يصدق على جميع ما ذكر هنا.

وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح كلاماً مفيداً في حديث عمر بن الخطاب المتقدم باعتبار ما ورد في الصحابة، وحاصله أن فضيلة الصحابة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، ومجرد زيادة الأجر لا يستلزم أفضلية غير الصحابة على الصحابة لأن الأجر إنما يقع مفاضلة بالنسبة إلى ما يماثله من العمل، ومشاهدة النبي ﷺ لا يعدلها عمل، هذا حاصل ما أشار إليه وهو محتاج إليه لأنه كثيراً ما يستشكل الجمع بين الأحاديث والله أعلم.

قال ابن جرير في هذه الآية: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان

بالغيب قولاً واعتقاداً وعملاً، وتدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل، وقال ابن كثير إن الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وقد ورد فيه آثار كثيرة انتهى.

وقد أنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه، وقال أهل السنة إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصانها، وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر النصوص من الكتاب والسنة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه، وبين أصله من اللغة.

والدليل على أن الأعمال من الإيمان قوله ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان^(١)» أخرجه الشيخان عن أبي هريرة.

ولشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام كلام في معنى الغيب وعالمه في كتاب العقل والنقل حاصله أن من زعم أن عالم الغيب الذي أخبر به الله والرسول هو العالم العقلي الذي يثبت هؤلاء الفلاسفة فهو من أضل الناس، فإن ابن سينا ومن سلك سبيله في هذا كالشهرستاني والرازي وغيرهما يقولون إن الإلهيين يثبتون العالم العقلي ويردون على الطبيعيين منهم الذين لا يثبتون إلا العالم الحسي ويدعون أن العالم العقلي الذي يثبتونه هو ما أخبرت به الرسل من الغيب الذي أمروا بالإيمان به مثل وجود الرب والملائكة والجنة، وليس الأمر كذلك، فإن ما يثبتونه من العقليات إذا حقق الأمر لم يكن لها وجود إلا في العقل، وسميت مجردات ومفارقات لأن العقل مجرد الأمور الكلية

عن المغيبات، وأما تسميتها مفارقات فكان أصله أن النفس الناطقة تفارق البدن وتصير حينئذ عقلاً وكانوا يسمون ما جامع المادة بالتدبير لها كالنفس قبل الموت نفساً وما فارقتها بالكلية فلم يتعلق بها لا تعلق تدبير ولا غيره عقلاً، ولا ريب أن النفس الناطقة قائمة بنفسها باقية بعد الموت منعمة أو معذبة كما دل على ذلك نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها ثم تعاد إلى الأبدان.

والمقصود هنا أن ما يثبتونه من العقليات إذا حققت لم يكن إلا ما ثبت في عقل الإنسان، ولهذا كان منتهى تحقيقهم الوجود المطلق، وهو الوجود المترك بين الموجودات. وهذا إنما يكون مطلقاً في الأذهان لا في الأعيان، والمتفلسفة يجعلون الكلي المشترك موضوع العلم الإلهي، وأما الوجود الواجب فتارة يقولون هو الوجود المقيد بالقيود السلبية كما يقوله ابن سينا، وتارة يجعلونه المجرد عن كل قيد سلبي وثبوتي كما يقوله بعض الملاحدة من باطنية الرافضة والإتحادية، وتارة يجعلونه نفس وجود الموجودات فلا يجعلون للممكنات وجوداً غير الوجود الواجب، وغايتهم أنهم يجعلون في أنفسهم شيئاً ويظنون أن ذلك موجود في الخارج، ولهذا يمدهم الشياطين، فإن الشياطين تتصرف في الخيال وتلقي في خيالات الناس أموراً لا حقيقة لها، ومحققو هؤلاء يقولون أرض الحقيقة هي أرض الخيال.

وأما ما أخبرت به الرسل موجودة من الغيب، فهو أمور ثابتة أكمل وأعظم مما نشاهده نحن في هذه الدار وتلك أمور محسوسة تشاهد وتحس، ولكن بعد الموت وفي الدار الآخرة، ويمكن أن يشاهدها في هذه الدار من يختصه الله بذلك ليست عقلية قائمة بالعقل، ولهذا كان الفرق بينها وبين الحسيات التي نشاهدها أن تلك غيب وهذه شهادة قال تعالى ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ وكون الشيء غائباً وشاهداً أمر إضافي بالنسبة إلينا، فإذا غاب عنا كان غيباً، وإذا شاهدناه كان شهادة، ليس هو فرقاً يعود إلى أن ذاته تعقل ولا

تشاهد ولا تحس، بل كل ما يعقل ولا يمكن أن يشاهد بحال فإنما يكون في الذهن، والملائكة يمكن أن يشاهدوا ويروا الرب تعالى، ويمكن رؤيته بالأبصار والمؤمنون يرونه يوم القيامة وفي الجنة كما تواترت النصوص في ذلك عن النبي ﷺ، واتفق على ذلك سلف الأمة وأئمتها، وإمكان رؤيته يعلم بالدلائل العقلية القاطعة، لكن ليس هو الدليل الذي سلكه طائفة من أهل الكلام كأبي الحسن وأمثاله حيث ادعوا أن كل موجود يمكن رؤيته، بل قالوا ويمكن أن يتعلق به الحواس الخمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس، فإن هذا مما يعلم فساده بالضرورة عند جماهير العلماء، وهذا من أغاليط بعض المتكلمين، هذا. قوله ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يداومون عليها، والإقامة في الأصل الدوام والثبات، وليس من القيام على الرجل، وإنما هو من قولك قام الحق أي ظهر وثبت، وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيئاتها في أوقاتها وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها وحدودها وزيج في أفعالها وإتمام أركانها، والصلاة أصلها في اللغة الدعاء من صلى يصلي إذا دعا، ذكر هذا الجوهرى وغيره، وقال قوم هي مأخوذة من الصلا، وهو عرق في وسط الظهر ويفترق عند العجب، ذكر هذا القرطبي، وهذا هو المعنى اللغوي.

وأما المعنى الشرعي فهو هذه الصلاة التي هي ذات الأركان والأذكار، قال ابن عباس المراد به الصلوات الخمس وقال قتادة إن إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها.

﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي يخرجون ويتصدقون في طاعة الله وفي سبيله والرزق عند الجمهور ما صلح للإنتفاع به حلالاً كان أو حراماً خلافاً للمعتزلة فقالوا إن الحرام ليس برزق، وللبحث في هذه المسألة موضع غير هذا، والإنفاق إخراج المال من اليد وأنفق الشيء وأنفذه أخوان، ولو استقرت الألفاظ وجدت كل ما فاءه نون وعينه فاء دالاً على معنى الذهاب والخروج.

وفي المجيء بمن التبعية ههنا نكتة سرية هي الإرشاد إلى ترك

الإسراف والتبذير، وتقديم المفعول للاهتمام به والمحافظة على رؤوس الآي، قال أبو بكر الباقلاني: ذهب الأشاعرة كلهم إلى نفي السجع عن القرآن، وذهب كثير ممن خالفهم إلى إثباته انتهى، قال البقاعي الثاني فاسد، وأطال في بيان ذلك بلا طائل، والحق أنه في القرآن من غير التزام له في الأكثر، وكأن من نفاه نفي التزامه أو أكثريته، ومن أثبته أراد وروده فيه في الجملة، فاحفظه ولا تلتفت لما سواه، والذي عليه العلماء أنه تطلق الفواصل عليه دون السجع قاله الخفاجي.

قال: ابن عباس يعني زكاة أموالهم، وعن قتادة يعني الإنفاق في فرائض الله التي افترض عليهم في طاعته وسبيله كالزكاة والنذر وفي الجهاد وعلى النفس وقال ابن مسعود هي نفقة الرجل على أهله، واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات وهو الحق من غير فرق بين النفقة على الأقارب وغيرهم وصدقة الفرض والنفل، وعدم التصريح بنوع من الأنواع التي يصدق عليها مسمى الإنفاق يشعر أتم إشعار بالتعميم^(١).

(١) وقد ذكر ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير في علم التفسير لهذه الآية آراء عدة منها: «أنها النفقة التي كانت واجبة قبل وجوب الزكاة، ذكره بعض المفسرين، وقالوا: إنه كان فرض على الرجل أن يمسك مما في يده مقدار كفايته يومه وليلته، ويفرق باقية على الفقراء. فعلى قول هؤلاء الآية منسوخة بآية الزكاة، وغير هذا القول أثبت.

واعلم أن الحكمة في الجمع بين الإيمان بالغيب وهو عقد القلب وبين الصلاة وهي فعل البدن، وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال، أنه ليس في التكليف قسم رابع، إذا ما عدا هذه الأقسام فهو ممتزج بين اثنين منها كالحج والصوم ونحوهما إ - هـ. (زاد المسير ٢٦/١).

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢﴾

﴿والذين يؤمنون﴾ أي يصدقون ﴿بما أنزل إليك﴾ المراد به ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن بأسره والشرعة عن آخرها، والتعبير بالماضي مع كون بعضه مترقياً لتغليب المحقق على المقدر أو لتزليل ما في شرف الوقوع منزلة الواقع، قال القاضي الانزال نقل الشيء من أعلى الى أسفل، وهو انما يلحق المعاني بتوسط لحوقه الذوات الحاملة لها، قال الامام المراد من إنزال القرآن ان جبريل عليه السلام في السماء سمع كلام الله فنزل به على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يقال نزلت رسالة الامير من القصر، والرسالة لا تنزل ولكن كان المستمع في علو فنزل وأدى في سفلى، وقول الامير لا يفارق ذاته اهـ.

قال الخفاجي وذهب بعض السلف الى أنه من المشابهة أي يجزم بالنزول من غير معرفة بكيفيته وهو الحق اذ مثل هذا من التدقيقات الفلسفية لا ينبغي ذكره في التفسير اهـ حاصله.

قلت ويرد على مذهب بعض السلف ما ورد في الاحاديث الصحيحة من بيان كيفية الوحي وبدئه وبه ترجم البخاري، وهو أول باب عنون به كتابه الصحيح. وقد نطق به القرآن، ولا شك أن كلامه سبحانه المنزل على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مسموع بالأذان مقروء باللسنة محفوظ في الصدور، مكتوب في المصاحف، له حرف وصوت كما دلت عليه السنة المطهرة في غير موضع من دواوين الاسلام وزبر الايمان، وليس هذا موضع بسطه، وسيأتي الكلام عليه تحت تفسير قوله تعالى ﴿حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾.

﴿وما أنزل من قبلك﴾ وهو الكتب السالفة المنزلة على الانبياء من قبل كالطورا والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وغيرها، والايان بالكل جملة فرض عين، وبالقرآن تفصيلاً فرض كفاية، قيل هو مؤمنو أهل الكتاب، وفيهم نزلت، وقد رجح هذا ابن جرير، ونقله السدي عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة، واستشهد له ابن جرير بقوله تعالى ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم﴾ وبقوله تعالى ﴿والذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ والآية الأولى نزلت في مؤمني العرب، وقيل إن الآيتين جميعاً في المؤمنين على العموم، وعلى هذا فالجملة عطف على الجملة الأولى صفة للمتقين بعد صفة أو مرفوعة على الاستئناف، أو عطف على المتقين، والتقدير هدى لهم وللذين يؤمنون، الحق ان هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها وليس مجرد ذكر الايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل الى من قبله بمقتضى لجعل ذلك وصفاً لمؤمني أهل الكتاب، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا، ولا في نظم القرآن ما يقتضي ذلك، وقد ثبت الثناء على من جمع بين الامرين من المؤمنين في غير آية فمن ذلك قوله ﴿يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل﴾ وقوله تعالى ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل اليكم﴾ وقوله تعالى ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله لا نفرق بين أحد من رسوله﴾ وقال ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾.

﴿وبالآخرة﴾ أي بالدار الآخرة، تأنيث الآخر الذي هو نقيض الأول كما أن الدنيا تأنيث الأدنى غلبتا على الدارين فجرتا مجرى الاسماء وهي صفة الدار بدليل قوله تعالى ﴿تلك الدار الآخرة﴾ وسميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها ﴿هم يوقنون﴾ الايقان ايقان العلم بانتفاء الشك والشبهة عنه، قال في الكشف فالمراد أنهم يوقنون بالبعث والنشور وسائر أمور الآخرة من دون شك، وفي تقديم الظرف مع بناء الفعل على الضمير إشعار بالحصر، وان ما

عدا هذا الامر الذي هو أساس الايمان ورأسه ليس بمستأهل عندهم للايقان به والقطع بوقوعه، وفيه تعريض ممن عداهم من أهل الكتاب، فان اعتقادهم في أمور الآخرة بمعزل من الصحة فضلاً عن الوصول الى مرتبة اليقين.

﴿أولئك﴾ أي الذين هذه صفتهم وما فيه من البعد للاشعار بعلو درجتهم ورفعة مرتبتهم في الفضل وهو مبتدأ وخبره ﴿على هدى من ربهم﴾ أي على رشاد ونور، وقيل على استقامة منحوها من عنده وأوتوها من قبله، وهو اللطف والتوفيق الذي اعتضدوا به على أعمال الخير والترقي الى الافضل فالافضل والابهام المفهوم من التنكير في (هدى) لكمال تفخيمه أي على هدى أي هدى، لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره، وهذا كلام مستأنف بياني، ويمكن أن يكون خبراً عن الذين يؤمنون بالغيب فيكون متصلاً بما قبله.

قال في الكشاف: قوله ﴿على هدى﴾ مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به، شبهت حالهم بحال من أعتلى الشيء وركبه، ونحوه هو على الحق وعلى الباطل، وقد صرحوا بذلك في قوله جعل الغواية مركباً، وامتنى الجهل، واقتعد غارب الهوى اهـ.

وقال أبو السعود وإيراد كلمة الاستعلاء على استعارتها لتمسكهم بالهدى استعارة تبعية متفرعة على تشبيهه باعتلاء الراكب واستوائه على مركوبه أو على جعلها قرينة للاستعارة بالكناية بين الهدى والمركوب للإيدان بقوة تمسكهم منه، وكمال رسوخهم فيه انتهى.

وقال الخفاجي الاستعارة في الحرف تبعية متعلقة وهو المعنى الكلي الشامل له كما حققه والتمثيل ضرب المثل والإتيان بمثال ومطلق التشبيه والمركب منه، وهذا ظاهر لا نزاع فيه، وإنما النزاع في الاستعارة التبعية هل تكون تمثيلية أم لا، فذهب الفاضل المحقق إلى جوازه متمسكاً بما صرح

العلامة في مواضع من كشفه كما صرح به هنا وقد سبقه إليه الطيبي ، وقال إنه مسلك الشيخين الزمخشري والسكاكي ولم يرتضه المدقق في الكشف ، فأول ما في عباراتهم وتبعه فيه السيد وشنع على الفاضل حتى كأنه أبو عذرتة وهي المعركة العظمى التي عقدت لها المجالس ، وصنفت فيها الرسائل ما هو أشهر من «قفا نبك» .

والحاصل أن استعارة «على» استعارة تبعية تستلزم كون الاستعلاء مشبهاً به وتركب الطرفين يستلزم أن لا يكون مشبهاً به فلا يجتمعان . ومن الفضلاء من رده ، وانتصر للسعد سعد جده فقال هو ممنوع .

والحاصل أنه يجري في الحرف التمثيل بمعنى انتزاع الحالة من الأمور المتعددة ولا يجري فيه التشبيه في المفصل المركب قصداً .

والذي يخطر بالبال ، بعد طي شقة القيل والقال ، أن الخلاف بينهم في حرف واحد إذ لا خلاف في أن التمثيل التفصيلي المعروف يستدعي تركيب الطرفين حقيقة ، وأن التمثيل الآخر الذي هو محل النزاع هل يشترط فيه التركيب بعد الاتفاق على أنه لا يلزم التصريح بأجزائه لفظاً ولا تقديراً فذهب الشريف إلى أنه يشترط فيه أن تكون أجزاؤه مرادة منوية فلا يكون ما اقتصر عليه من الحرف ونحوه مما هو عمدة المعنى المجازي مستعملاً في معنى مجازي ، بل حقيقة وإلا كان مجازاً مفرداً لا تمثيلاً ، أو لا يشترط فيه ذلك بل يكفي تركيب المأخذ المنتزع منه ذلك ، ويكون الحرف المذكور مع ما يدل عليه بالالتزام من طرفي التشبيه وما يتممه متجاوزاً فيه وإلا لم يصح دخول (على) على الهدى كما مشى عليه السعد ، ومن مشى على جادته . فالنزع كاللفظي انتهى حاصله .

قلت : وقد أطال المحققون الكلام على هذا بما لا يتسع له المقام ، واختلف من بعدهم في ترجيح الراجح من القولين ، وقد جمع العلامة الشوكاني في ذلك رسالة مستقلة سماها الطود المنيف ، في ترجيح ما قاله السعد على ما قاله الشريف ، فليرجع إليها من أراد أن يتضح له المقام ، ويجمع بين أطراف

الكلام على التمام، وحاصلها أن الحق في جانب السعد وأن الصواب بيده، وقد تقدمه إلى مثل هذا العلوي في حاشيته على الكشاف، وليس للسعد فيه زيادة على ما يفيد كلام الزمخشري إلا مجرد الإيضاح، ولم يأت بشيء من طرفه يستحق المؤاخذه عليه انتهى.

أقول فالحق اجتماع الاستعارة التبعية والتمثيلية، وذلك هو محل النزاع وقد اعترف الشريف بأن المقام صالح لهما لكن ادعى امتناع اجتماعهما، ويدل ذلك على أن الاستعارة التبعية تمثيلية الاستقراء، وبه يشعر قول إمام الفن السكاكي صاحب المفتاح، وهذا صريح فيما صرح به السعد والله أعلم.

﴿وأولئك﴾ في تكرير إسم الإشارة دلالة على أن كلاً من الهداية الماضية والفلاح الآتي بحيث لو انفرد أحدهما لكفى ميمزاً على حياله.

﴿هم المفلحون﴾ أي المنجحون الناجون الفائزون نجوا من النار، وفازوا بالجنة، والمفلح الظافر بالمطلوب، والفلاح أصله في اللغة الشق والقطع قاله أبو عبيد، قال القرطبي: وقد يستعمل في الفوز والبقاء وهو أصله أيضاً في اللغة فمعناه الفائزون بالجنة، والباقون فيها، وقال في الكشاف: المفلح الفائز بالبعية كأنه الذي أنفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه، إنتهى.

وقد استعمل الفلاح في السحور، ومنه الحديث الذي رواه أبو داود «حتى كاد يفوتنا الفلاح قلت ما الفلاح؟ قال السحور: وكأن معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهذا سمي فلاحاً، وضمير الفصل ويسمى عماداً له فوائد ذكرها الخفاجي منها الدلالة على اختصاص المسند إليه بالمسند دون غيره، وقد ورد في فضل هذه الآيات الشريفة أحاديث.

ثم ذكر سبحانه فريق الشر بعد الفراغ من ذكر فريق الخير قاطعاً لهذا الكلام عن الكلام الأول معنوياً له بما يفيدان شأن جنس الكفرة عدم إجداء الإنذار لهم، وأنه لا يترتب عليه ما هو المطلوب منهم من الإيمان وأن وجود ذلك كعدمه فقال:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ
 اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾
 وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ
 اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾

﴿إن الذين﴾ التعريف للعهد أو للجنس، والثاني أولى ﴿كفروا﴾ أي جحدوا وأنكروا، وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية ومنه سمي الكافر كافراً لأنه يغطي بكفره ما يجب أن يكون عليه من الإيمان ﴿سواء عليهم﴾ أي متساو لديهم، وسواء إسم مصدر بمعنى الاستواء وارتفاعه على أنه خبر لأن ﴿أنذرتهم﴾ أي خوفتهم وحذرتهم، والإنذار الإبلاغ والإعلام مع التخويف فكل منذر معلم، وليس كل معلم منذراً، قرىء بتحقيق الهمزتين وإبدال الثانية ألفاً، قال البيضاوي وهذا الإبدال لحن، ورد عليه على القارى بأن ما قاله تقليداً للكشاف خطأ لأن القراءة به متواترة عن النبي ﷺ فإنكارها كفر، وتمام هذا البحث في الجمل ﴿أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون.

قال القرطبي واختلف العلماء في تأويل هذه الآية فقليل هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب وسبق في علم الله أنه يموت على كفره أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً، وقال ابن عباس والكلبي نزلت في رؤساء اليهود حمي بن أخطب وكعب ابن الأشرف ونظرائهما وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب، والأول أصح فان من عين أحداً فإنما مثل عن كشف الغيب بموته على الكفر انتهى.

﴿ختم الله على قلوبهم﴾ أي طبع الله عليها واستوثق فلا تعي خيراً ولا

تفهمه والختم والكتم أخوان، وأصل الختم مصدر معناه التغطية على الشيء، والاستيثاق منه حتى لا يدخله شيء ولا يخرج منه ما حصل فيه، ومنه ختم الكتاب والباب، وما يشبه ذلك حتى لا يوصل الى ما فيه ولا يوضع فيه غيره، فشبّه هذا المعنى بضرب الخاتم على الشيء تشبيهه معقول بمحسوس، والجامع انتفاء القبول لما منع منع منه، وكذا يقال في الختم على الاسماع، واسناد الختم الى الله قد احتج به أهل السنة على المعتزلة، وحاولوا دفع هذه الحجة بمثل ما ذكره صاحب الكشف والكلام على مثل هذا متقرر في موطنه.

﴿وعلى سمعهم﴾ أي مواضعه، وانما وحد السمع مع جمع القلوب كما تقدم والابصار كما سيأتي لانه مصدر يقع على القليل والكثير، أو لوحدة المسموع وهو الصوت، وانما خص هذه الأعضاء بالذكر لانها طرق العلم، فالقلب محله وطريقه إما السماع وإما الرؤية ﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ الغشاوة الغطاء وهذا البناء لما يشتمل على الشيء كالعصابة والعمامة، ومنه غاشية السرج وهي غطاء التعامي عن آيات الله ودلائل توحيده قيل المراد بالختم والغشاوة ههنا هما المعنويان لا الحسيان، ويكون الطبع والختم على القلوب والاسماع، والغشاوة على الابصار كما قاله جماعة قال تعالى ﴿فان يشأ الله يختم على قلبك﴾ وقال ﴿ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ ﴿وله عذاب عظيم﴾ يعني في الآخرة وقيل الاسر والقتل في الدنيا والعذاب الدائم في العقبى والعذاب هو كل ما يؤلم الانسان هو مأخوذ من الحبس والمنع، يقال في اللغة أعذبه عن كذا حبسه ومنعه ومنه عذوبة الماء لانها حبست في الاناء حتى صفت، وقيل هو الايجاع الشديد، والعظيم نقيض الحقيق، والكبير نقيض الصغير، فكان العظيم فوق الكبير كما أن الحقيق دون الصغير، ويستعملان في الجثث والاحداث جميعاً.

﴿ومن الناس﴾ جمع إنسان أو اسم جمع لانسان قاله سيبويه والجمهور، وأصله الناس وذهب الكسائي الى أنه اسم تام، وقال سلمة كل من ناس

وأناس مادة مستقلة، والفرق بين الجمع واسم الجمع ان اسم الجمع ما دل على ما فوق الاثنين ولم يكن على أوزان الجموع سواء كان له مفرد أو لا ويشترط فيه أيضاً أن لا يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرّة ولا بالياء كزنج وزنجي، فإنه اسم جنس جمعي، ويعرف باطراد تصغيره من غير رد الى المفرد، وقد يراد باسم الجمع الجمع الوارد على خلاف القياس، وهذا في عرف النحاة، وأما أهل اللغة فاسم الجمع عندهم يسمى جمعاً حقيقة ذكره الخفاجي سمي به لانه عهد اليه فني أو لانه يستأنس بمثله، ولام التعريف فيه للجنس أو للعهد.

﴿من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ ذكر سبحانه في أول هذه السورة المؤمنين الخالص، ثم ذكر بعدهم الكفرة الخالص، ثم ذكر ثالثاً المنافقين في الآيات الثلاث عشرة وهم الذين لم يكونوا من إحدى الطائفتين بل صاروا فرقة ثالثة لانهم وافقوا في الظاهر الطائفة الاولى، وفي الباطن الطائفة الثانية، ولذا نزل فيهم ﴿إن المنافقين في الدرك الاسفل من النار﴾ قيل نزلت في عبد الله بن أبيّ ومعتب بن قشير وجد بن قيس وأصحابهم، والمراد باليوم الآخر، الوقت الذي لا ينقطع بل هو دائم أبداً وهو يوم القيامة ﴿وما هم بمؤمنين﴾ نفى عنهم الايمان بالكلية في جميع الازمنة كما تفيده الجملة الاسمية ففيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره

﴿يخادعون الله﴾ أي يخالفونه، ﴿والذين آمنوا﴾ والخداع في أصل اللغة الفساد حكاه ثعلب عن ابن الاعرابي وقيل أصله الإخفاء حكاه ابن فارس وغيره والمراد أنهم صنعوا صنع الخادعين وان كان العالم الذي لا يخفى عليه شيء لا يخدع، وصيغة فاعل تفيد الاشتراك في أصل الفعل والمراد بالمخادعة من الله أنه لما أجرى عليهم أحكام الاسلام مع أنهم ليسوا منه في شيء فكأنه خادعهم بذلك كما خادعوه باظهار الاسلام وابطان الكفر مشاكلة لما وقع منهم بما وقع منه، والمراد بمخادعة المؤمنين لهم هو أنهم أجروا عليهم ما أمرهم الله

به من أحكام الاسلام ظاهراً، وان كانوا يعلمون فساد بواطنهم كما أن المنافقين خادعوههم باظهار الاسلام وابطان الكفر، وقد يكون الخداع حسناً اذا كان الغرض منه استدراج الغير من الضلال الى الرشده ومن ذلك استدراجات التنزيل على لسان الرسل في دعوة الأمم، قاله الطيبي، والآية من قبيل الإستعارة التمثيلية حيث شبه حالهم في معاملتهم لله بحال المخادع مع صاحبه من حيث القبح أو من باب المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية، وأصل التركيب يخادعون رسول الله أو من باب التورية حيث ذكر معاملتهم لله بلفظ الخداع.

والمراد بقوله ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ الإشعار بأنهم لما خادعوا من لا يخدع كانوا مخادعين لأنفسهم، لأن الخداع إنما يكون مع من لا يعرف البواطن، وأما من عرف البواطن فمن دخل معه في الخداع، فإنما يخدع نفسه وما يشعر بذلك، والمراد أنهم يمينونها الأمانى الباطلة، وهي كذلك تمنهم، والنفس ذات الشيء وحقيقته، ثم قيل للقلب والروح والدم والماء نفس، والمراد بالأنفس هنا ذواتهم أو قلوبهم ودواعيهم وآراؤهم ﴿وما يشعرون﴾ أي لا يعلمون أن وبال خداعهم راجع عليهم.

قال أهل اللغة: شعرت بالشيء فطنت، قال في الكشف الشعور علم الشيء علم حس من الشعار ومشاعر الإنسان حواسه، وقيل الشعور إدراك الشيء من وجه يدق ويخفى من الشعر لدقته، والأول أولى، قال ابن عباس إنهم المنافقون من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم، عن ابن سيرين قال لم يكن عندهم شيء أخوف من هذه الآية.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (١٠)

﴿في قلوبهم مرض﴾ المرض كل ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة من علة أو نفاق أو تقصير في أمر، قاله ابن فارس وقيل هو الألم فيكون على هذا مستعاراً للفساد الذي في عقائدهم إما شكاً ونفاقاً، أو جحداً وتكذيباً ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ أي كفراً ونفاقاً، والمراد بزيادة المرض الإخبار بأنهم كذلك بما يتجدد لرسول الله ﷺ من النعم، ويتكرر له من منن الله الدنيوية والدينية، ويحتمل أن يكون دعاء عليهم بزيادة الشك وترادف الحسرة وفرط النفاق، وفسر ابن عباس المرض بالشك والنفاق، وقال ابن زيد: هذا مرض في الدين وليس مرضاً في الأجسام، وقال عكرمة وطاوس المرض الرياء، والقراء مجتمعون على فتح الراء من مرض إلا أبا عمرو فإنه قرأ بالسكون. ﴿ولهم عذاب﴾ أي نكال

﴿أليم﴾ أي مؤلم يخلص وجعه إلى قلوبهم، قال ابن عباس كل شيء في القرآن أليم فهو الموجه انتهى، ووصف به العذاب للمبالغة ﴿بما كانوا يكذبون﴾ أي يبدلون ويحرفون، قاله ابن مسعود، وقيل المعنى بتكذيبهم الله ورسوله في السر، وقيل بكذبهم إذ قالوا آمنا وهم غير مؤمنين، والكذب هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به وهو حرام كله لأنه علل به استحقاق العذاب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾

﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ يعني المنافقين والقائل لهم هو الله أو الرسول أو المؤمنون، والمعنى لا تفسدوا بالنفاق وموالة الكفر وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن: فإنكم إذا فعلتم ذلك فسد ما في الأرض بهلاك الأبدان وخراب الديار، وبطلان الذرائع وخراب العالم كما هو مشاهد عند ثوران الفتن وهيج الحروب والتنازع، والفساد خروج الشيء عن الحالة اللائقة به والاعتدال، والصلاح ضده، وكلاهما يعمان كل ضار ونافع

﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ يعني يقولونه كذباً «وإنما» من أدوات القصر كما هو مبين في علم المعاني، والصلاح ضد الفساد، وهذا الجواب منهم رد للناصح على أبلغ وجه لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض.

﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ في الأرض بالكفر وهو أشد الفساد، رد لما أدعوه أبلغ رد للاستئناف به وتصديره بحرفي التأكيد، و (ألا) حرف تنبيه ينبه بها المخاطب وهي المنبهة على تحقيق ما بعدها. قال ابن مسعود الفساد هنا الكفر والعمل بالمعصية ﴿ولكن لا يشعرون﴾ وذلك لأنهم يظنون أن ما هم عليه من النفاق وإبطان الكفر صلاح وهو عين الفساد، وقيل لا يشعرون ما أعد الله لهم من العذاب، والأول أولى.

وإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ
السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا الْقَوَاةُ الَّذِينَ ءَامِنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى
شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾

﴿وإذا قيل لهم﴾ أي للمنافقين . . نصحوهم من وجهين (أحدهما) النهي
عن الفساد وهو عبارة عن التخلي عن الرذائل (وثانيهما) الأمر بالإيمان وهو عبارة
عن التحلي بالفضائل، فإن كمال الإيمان بمجموع الأمرين ﴿كما آمن الناس﴾
يعني أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار، وقيل الناس عبد الله بن
سلام وأصحابه و «ما» مصدرية أو كافة واللام للعهد أو للجنس، وأستدل به
على قبول توبة الزنديق وأن الإقرار باللسان إيمان ﴿قالوا﴾ أي أجابوا بأحق
جواب وأبعده عن الحق والصواب ﴿أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ أي الجهال،
الهمزة للإنكار واللام مشار بها إلى الناس أو للجنس بأسره وهم مندرجون فيه،
نسبوا إلى المؤمنين السفه استهزاء واستخفافاً فتسببوا بذلك إلى تسجيل الله
عليهم بالسفه بأبلغ عبارة وأكد قول وحصر كما قال تعالى:

﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ أي الجهال، وأصل السفه والسفاهة رقة الحلوم
وفساد البصائر وسخافة العقول، وخفة النهي، وإنما سمى الله المنافقين سفهاء
لأنهم كانوا عند أنفسهم عقلاء فقلب ذلك عليهم وسماهم سفهاء، ورد أبلغ
رد في تجهيلهم

﴿ولكن لا يعلمون﴾ أنهم كذلك إما حقيقة أو مجازاً تنزيلاً لإصرارهم على
السفه منزلة عدم العلم، وإنما ذكر العلم هنا، والشعور فيما قبل، لأنه أكثر
طباقاً بذكر السفه، والتمييز بين الحق والباطل يفتقر إلى نظرة وفكرة، والنفاق
يدرك بأدنى تفتن وتأمل من قولهم وفعلهم.

عن ابن عباس أنها نزلت في شأن اليهود.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي المهاجرين والأنصار، ومعنى لقيته ولاقيته استقبلته قريباً.

﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ كإيمانكم.

﴿وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَیَاطِينِهِمْ﴾ أي رجعوا إليهم قيل هو من الخلوة وقيل (إلى) بمعنى الباء وقيل بمعنى مع وخلوت بفلان وإليه إذا انفردت معه، أو من خلاك ذم أي مضى عنك، ومنه القرون الخالية أو من خلوت به إذا سخرت منه، وعدي بإلى لتضمنين معنى الإنهاء.

والمراد بالشیاطین رؤسائهم وكهنتهم، وقيل المراد بالشیاطین الممائلون منهم للشیاطین فی التمرد والعناد، المظهرون لكفرهم أو كبار المنافقين، والقائلون صغارهم.

﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ فی الدین والاعتقاد أي إنا مصاحبوكم فی دینکم وموافقوكم علیه.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤْنَ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وآله وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن من شرهم ونقف على سرهم، ونأخذ من غنائمهم، تأكيد لما قبله أو بدل منه أو استئناف.

قال ابن عباس نزلت هذه الآية فی عبد الله بن أبيّ وأصحابه، والهزء السخرية واللعب والاستخفاف يقال هزأت واستهزأت بمعنى، وأصله الخفة وهو القتل السريع، وهزأ يهزأ مات فجأة وتهزأ به ناقتة أي تسرع به وتخف، والمراد درؤهم للإسلام ودفعهم للحق.

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ
بِالْهُدَىٰ فَمَا رَاحَتِ رِجَّتُهُمْ وَاكُنُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي
اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بُكْمٍ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾

﴿الله يستهزئ بهم﴾ أي ينزل بهم الهوان والحقارة وينتقم منهم ويستخف بهم انتصافاً منهم لعباده المؤمنين، وجزاء لاستهزائهم بهم، فسمى الجزاء باسمه، لأنه في مقابلته، وورد ذلك في القرآن كثيراً ومنه ﴿جزاء سيئة سيئة مثلها، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ والجزاء لا يكون سيئة، والقصاص لا يكون اعتداء لأنه حق، ومنه ﴿ومكروا ومكر الله﴾ ﴿إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً﴾ ﴿وتعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾ وهو في السنة كثير كقوله ﷺ «إن الله لا يمل حتى تملوا»، وإنما قال ﴿الله يستهزئ بهم﴾ لأنه يفيد التجدد وقتاً بعد وقت وهو أشد عليهم وأنكى لقلوبهم، وأوجع لهم من الإستهزاء الدائم الثابت المستفاد من الجملة الإسمية لأنه يألفه ويوطن نفسه عليه، قال ابن عباس يفتح لهم باب الجنة فإذا انتهوا إليه سد عنهم وردوا إلى النار.

﴿ويمدهم﴾ أي يتركهم ويمهلهم ويطيل لهم المدة كما قال ﴿إنما نخلي لهم ليزدادوا إثماً﴾ والمد الزيادة قال يونس بن حبيب يقال أمد في الشر وأمد في الخير، ومنه ﴿وأمددناهم بأموال وبنين، وأمددناهم بفاكهة﴾ وقال الأخفش مددت له إذا تركته وأمددته إذا أعطيته ﴿في طغيانهم﴾ أي في ضلالهم وأصل الطغيان مجاوزة الحد ومنه ﴿إنا لما طغى الماء﴾ والغلو في الكفر ﴿يعمهُون﴾ أي يترددون في الضلالة متحيرين، والعمه والعامه الحائر المتردد، والعمه في القلب كالعمى في العين، قال في الكشف: العمه مثل العمى إلا أن العمى في البصر

والرأي، والعمه في الرأي خاصة انتهى، فبينهما عموم وخصوص مطلقاً.

﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ يعني المنافقين استبدلوا الكفر بالإيمان، وإنما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعاً على سبيل الاستعارة، فالشراء ههنا مستعار للاستبدال كقوله تعالى ﴿فاستحبوا العمى على الهدى﴾ فأما أن يكون معنى الشراء المعاوضة كما هو أصله حقيقة فلا لأن المنافقين لم يكونوا مؤمنين وما كانوا على الهدى فيبيعوا إيمانهم؛ والعرب قد تستعمل ذلك في كل من استبدل شيئاً بشيء، وأصل الضلالة الحيرة والجور عن القصد وفقد الإهداء، ويطلق على النسيان ومنه قوله تعالى ﴿فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾ وعلى الهلاك كقوله تعالى ﴿إذا ضللنا في الأرض﴾ والهدى التوجه إلى القصد، وقد استعير الأول للعدول عن الصواب في الدين، والثاني للإستقامة عليه، قال ابن عباس في الآية اشتروا الكفر بالإيمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا؛ وقال قتادة قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنة إلى البدعة.

﴿فما ربحت تجارتهم﴾ أي ما ربحوا في تجارتهم، وأصل الربح الفضل عن رأس المال والتجارة صناعة التاجر، وأسند الربح إليها على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي وهو إسناد الفعل إلى ملابس للفاعل كما هو مقرر في علم المعاني، والمراد ربحوا وخسروا ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي مصيبين في تجارتهم لأن رأس المال هو الإيمان، فلما أضاعوه واعتقدوا الضلالة فقد ضلوا عن الهدى، وقيل في شرائعهم الضلالة وقيل في سابق علم الله.

﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ المثل قول يشبه قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره، ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه. وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في

نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته: وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه واستوقد بمعنى أوقد مثل استجاب بمعنى أجاب، فالسين والياء زائدتان، ووقود النار سطوعها وارتفاع لهبها.

﴿فلما أضاءت ما حوله﴾ يعني النار، والإضاءة فرضاً الإنارة وفعلها يكون لازماً ومتعدياً ﴿ذهب الله بنورهم﴾ الذهاب زوال الشيء ﴿وتركهم﴾ أي أبقاهم، وترك في الأصل بمعنى طرح وخلي ﴿في ظلمات﴾ جمع ظلمة والظلمة عدم النور ﴿لا يبصرون﴾ هذا المثل للمنافقين لبيان ما يظهرونه من الإيمان مع ما يبطنونه من النفاق لا يثبت لهم به أحكام الإسلام كمثل المستوقد الذي أضاءت ناره ثم طفئت، فإنه يعود إلى الظلمة ولا تنفعه تلك الإضاءة اليسيرة فكان بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر كبقاء المنافق في حيرته وتردده.

قال ابن عباس في الآية نزلت في المنافقين يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستدفاً ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فبقى في ظلمة حائراً متخوفاً، فكذلك حال المنافقين، أظهروا كلمة الإيمان وأمنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وناكحوا المسلمين وقاسموهم في الغنائم فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف، وقيل ذهب نورهم ظهور عقيدتهم للمؤمنين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل في القبر أو على الصراط، والأول أولى.

وإنما وصفت هذه النار بالإضاءة مع كونها نار باطل لأن الباطل كذلك يسطع لهب ناره لحظة ثم تخفت ومنه قولهم: للباطل صولة ثم يضمحل.

وقد تقرر عند علماء البلاغة أن لضرب الأمثال شأنًا عظيمًا في إبراز خفيات المعاني ورفع أستار محجبات الدقائق، ولهذا استكثر الله تعالى ذلك في كتابه

العزیز، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ذلك في مخاطباته ومواعظه.

قال ابن جرير: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال ﴿رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾ وقال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾.

﴿صم﴾: أي عن استماع الحق لأنهم لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعه والصمم الانسداد ﴿بكم﴾ أي خرس عن النطق بالخير فهم لا يقولونه، والأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل الأبكم والأخرس واحد ﴿عمي﴾ أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل، ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى، والعمى ذهاب البصر، كانت حواسهم سليمة ولكن لما سدوا عن سماع الحق آذانهم وأبوا أن تنطق به ألسنتهم، وأن ينظروا إليه بعيونهم، جعلوا كمن تعطلت حواسه، وذهب إدراكه كما قال الشاعر: ^(١)

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء كلهم أذن
﴿فهم لا يرجعون﴾ أي عن ضلالتهم ونفاقهم.

(١) ومن ذلك قوله مسكين الداري

ما ضرَّ جاراً لي أجاوره	ألا يكون لبابه ستر
أعمى إذا ما جارتني خرجت	حتى يوارى جارتني الخدر
وتصمُّ عما بينهم أذني	حتى يكون كأنه وقر

أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيءَ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ
 حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ
 مَشْوَاهُ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

﴿أو كصيب من السماء﴾ أو: حرف الشك لقصد التخيير بين المثلين أي
 مثلوهم بهذا أو هذا، وهي وإن كانت في الأصل للشك فقد توسع فيها حتى
 صارت لمجرد التساوي من غير شك، وقال الفراء وغيره أنها بمعنى الواو،
 والصيب المطر واشتقاقه من صاب يصوب إذا نزل، وكل ما نزل من الأعلى إلى
 الأسفل فهو صيب، والسماء في الأصل كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل
 لسقف البيت سماء، والسماء أيضاً المطر سمي بها لنزوله منها، واطلاق السماء
 على المطر واقع كثيراً في كلام العرب، وقيل من السماء بعينها، وإنما ذكر الله
 تعالى من السماء وإن كان المطر لا ينزل إلا منها ليرد على زعم أن المطر ينعقد
 من أبخرة الأرض فأبطل مذهب الحكماء بقوله ﴿من السماء﴾ ليعلم أن المطر منها
 لا كما هو زعمهم الباطل.

﴿فيه ظلمات﴾ أي في الصيب، وبه قال جمهور المفسرين، وقال
 السيوطي في السحاب وهو خلاف ظاهر نظم الآية، وقيل (في) بمعنى مع، وإنما
 جمع الظلمات إشارة إلى أنه انضم إلى ظلمة الليل، ظلمة الغيم والمطر
 ﴿ورعد﴾ اسم لصوت الملك الذي يزجر السحاب، وقد أخرج الترمذي من
 حديث ابن عباس قال: سألت اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ قال
 «ملك من الملائكة بيده مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله» قالوا فما هذا
 الصوت الذي يسمع؟ قال زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر،

قالت صدقت، الحديث بطوله وفي إسناده مقال، وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، وقيل هو اضطراب أجرام السحاب عند نزول المطر منها وإلى هذا ذهب جمع من المفسرين تبعاً للفلاسفة وجهلة المتكلمين، وقيل غير ذلك، قال ابن عباس: الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والبرق لمعان سوطه من نور يزجر به السحاب، وقيل الرعد اسم ملك يزجر السحاب^(١) إذا تبددت جمعها وضمها فإذا اشتد غضبه يخرج من فيه النار فهي البرق ﴿وبرق﴾ النار التي تخرج منه، أي مخراق بيد الملك الذي يسوق السحاب، وإليه ذهب كثير من الصحابة وجمهور علماء الشريعة للحديث السابق، وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة إن البرق ما ينقذ من اصطكاك أجرام السحاب المتراكمة من الأبخرة المتصاعدة المشتعلة على جزء ناري يلهب عند الاصطكاك.

﴿يجعلون﴾ أي أصحاب الصيب ﴿أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ إطلاق الأصابع على بعضها مجاز مشهور، والعلاقة الجزئية والكلية لأن الذي يجعل في الأذن إنما هو رأس الاصبع لاكلها، والصواعق، ويقال الصواعق هي قطعة نار تنفصل من مخراق الملك الذي يزجر السحاب عند غضبه وشدة ضربه لها، ويدل على ذلك حديث ابن عباس المذكور قريباً، وبه قال كثير من علماء الشريعة، ومنهم من قال إنها نار تخرج من فم الملك، وقال الخليل هي الوقعة الشديدة من صوت الرعد يكون معها أحياناً قطعة نار تحرق ما أتت عليه، وقال أبو زيد الصاعقة نار تسقط من السماء في رعد شديد، وقال بعض المفسرين تبعاً للفلاسفة ومن قال بقولهم إنها نار لطيفة تنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامها، وسيأتي في سورة الرعد إن شاء الله تعالى في تفسير الرعد والبرق والصواعق ما له مزيد فائدة وإيضاح، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك»، أخرجه الترمذي وقال حديث غريب ﴿حذر الموت﴾

(١) فقد روى أحمد في مسنده (٢٤٨٣) والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح غريب وفي حديث طويل إجابته به ﷺ اليهود.

أي مخافة الهلاك، والموت ضد الحياة ﴿والله محيط بالكافرين﴾ أي عالم بحالهم وقيل يجمعهم ويعذبهم والإحاطة الأخذ من جميع الجهات حتى لا يفوت المحاط به بوجه من الوجوه.

﴿يكاد البرق﴾ أي يقرب يقال كاد يفعل ولم يفعل ﴿يخطف أبصارهم﴾ أي يختلسها والخطف استلاب الشيء والأخذ بسرعة ﴿كلما أضاء لهم﴾ يعني البرق ﴿مشوا فيه﴾ أي في إضاءته ونوره ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي وقفوا متحيرين ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم﴾ أي بصوت الرعد ﴿وأبصارهم﴾ بوميض البرق ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع له فيه، والآية على عمومها بلا استثناء، وفيه دليل على أن الحادث حال حدوثه والممكن حال بقائه مقدوران لا كما زعم المعتزلة من أن الاستطاعة قبل الفعل. وهذا مثل آخر ضربه الله للمنافقين، والمنافقون أصناف منهم من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، ومنهم من قال فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها، من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وورد بلفظ أربع وزاد وإذا خاصم فجر، وورد بلفظ إذا عاهد غدر، وقد ذكر ابن جرير ومن تبعه من المفسرين أن هذين المثليين لصنف واحد من المنافقين.

﴿يا أيها الناس﴾ لم يقع النداء في القرآن بغير «يا» من الأدوات والنداء في الأصل طلب الإقبال والمراد به هنا التنبيه وأي مبني على الضم في محل نصب والناس نعت لأي على اللفظ وحركته إعرابية وحركة أي بنائية، واستشكل رفع التابع مع عدم عامل الرفع، والنداء على سبع مراتب: نداء مدح كقوله: ﴿يا أيها النبي﴾ و﴿يا أيها الرسول﴾، ونداء ذم كقوله: ﴿يا أيها الذين هادوا﴾ و﴿يا أيها الذين كفروا﴾ ونداء تنبيه كقوله: ﴿يا أيها الإنسان﴾ و﴿يا أيها الناس﴾ ونداء إضافة كقوله: ﴿يا عبادي﴾ ونداء نسبة كقوله: ﴿يا بني آدم﴾ و﴿يا بني إسرائيل﴾، ونداء تسمية كقوله: ﴿يا داود﴾ و﴿يا إبراهيم﴾، ونداء تضيف كقوله:

﴿يا أهل الكتاب﴾، قاله الكرخي .

قال ابن عباس ﴿يا أيها الناس﴾ خطاب لأهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين، والحق أن ما قاله ابن عباس أكثر من لا كُلي، فإن البقرة والنساء والحجرات مدنيات وفاقاً، وقد قال في كل منها يا أيها الناس^(١).

﴿أعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾ قال ابن عباس وحدوا، وكل ما ورد في القرآن من العبادة قيل معناه التوحيد. وأصل العبادة غاية التذلل، وقد تقدم تفسيرها والمعنى ابتدع خلقكم من غير مثال سبق، وإنما خص نعمة الخلق وامتن بها عليهم لأن جميع النعم مترتبة عليها وهي أصلها الذي لا يوجد شيء منها بدونها، وأيضاً فالكفار يقرون بأن الله هو الخالق (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) فامتن عليهم بما يعترفون به فلا ينكرونه، وفي أصل معنى الخلق وجهان أحدهما التقدير يقال خلقت الأديم للسقاء إذا قدرته قبل القطع (الثاني) الإنشاء والاختراع والإبداع.

﴿والذين من قبلكم﴾ بالذات أو الزمان أي وخلقهم ﴿لعلكم تتقون﴾ ولعل أصلها الترجي والطمع والتوقع والإشفاق، وذلك مستحيل على الله تعالى ولكنه لما كان في المخاطبة منه للبشر كان بمنزلة قوله لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم والطمع، وبهذا قال جماعة من أهل العربية منهم سيبويه، وقيل بمعنى لام كي أي لتتقوا وبهذا قال جماعة منهم قطرب والطبري، وقيل إنها بمعنى التعرض للشيء كأنه قال متعرضين للتقوى وإليه مال أبو البقاء وغيره.

(١) وقد اختلف العلماء فيمن عنى بهذا الخطاب وعلى أربعة أقوال.

انه عام لجميع الناس وهو قول ابن عباس.

انه خطاب لليهود دون غيرهم قاله الحسن ومجاهد.

انه خطاب للكفار من شرعي العرب وغيرهم قاله السدي.

انه خطاب للمنافقين واليهود قاله مقاتل انظر (زاد المسير ٤٧/١).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ أي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاء مذلة ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، والحزن ما غلظ من الأرض، «وجعل» هنا بمعنى صير وجاء بمعنى صار وطفق وأوجد، والتصيير يكون بالفعل تارة وبالقول والعقد أخرى، والفراش وطاء يستقرون عليها، واستدل به أكثر المفسرين على أن شكل الأرض بسيط ليس بكروي.

﴿والسما بناء﴾ أي سقفاً مرفوعاً قيل إذا تأمل المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه فالسما مرفوعة كالسقف، والأرض مفروشة بالبساط والنجوم كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت، وفيه ضروب النبات المهيئة لمنفعه، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها، والسما اسم جنس يقع على الواحد والمتعدد، وقيل جمع سماة، والبناء مصدر سمي به المبنى بيتاً كان أو قبة أو خباء، وأصل البناء وضع لبنة على أخرى فجعل السماء كالقبة المضروبة عليهم، والسقف للبيت الذي يسكنونه كما قال (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً).

﴿ وأنزل من السماء﴾ يعني السحاب ﴿ماء﴾ يعني المطر ﴿فأخرج به﴾ أي بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ جمع ثمرة ﴿رزقاً لكم﴾ والمعنى أخرجنا لكم ألواناً من الثمرات وأنواعاً من النبات، ليكون ذلك متاعاً لكم وعلفاً لدوابكم إلى حين، وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد كما أبدع نفوس

الأسباب والمواد، ولكن له في الإنشاء مدرجاً من حال إلى حال صنائع وحكماء يجدد فيها لأولي الأبصار عبراً وسكوناً إلى عظيم قدرته ليس ذلك في إيجادها دفعة ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ جمع ند وهو المثل والنظير، وفي جعله جمع نديد نظر ﴿وأنتم تعلمون﴾ بعقولكم أن هذه الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله وأنه واحد خالق لجميع الأشياء وإنه لا مثل له ولا ند ولا ضد، وفي الآية دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن ماجة وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت قال «جعلني الله نداً»^(١). ما شاء الله وحده» وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبوداود والنسائي وابن ماجة والبيهقي عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان « وأخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

﴿وإن كنتم في ريب﴾ أي شك لأن الله عليم بأنهم شاكون ﴿مما نزلنا على عبدنا﴾ أن القرآن أنزله على محمد ﷺ وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم

(١) وقد روى مسلم عن عبدالله قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال قلت له: إن ذلك لعظيم، قال قلت: ثم أي؟ قال: ثم إن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك (أي يأكل) قال قلت: ثم أي قال ثم إن تزاني حليلة جارك.

وفي رواية: قال: إن تدعو الله نداً وقد خلقك.

قال ابن حجر في الفتح: ... ولا ينسب شيء في الخلق لغير الله تعالى فيكون شريكاً ونداً ومساوياً له في نسبة الفعل إليه، وقد نبه الله تعالى عباده على ذلك بالآيات المذكورة وغيرها المصروفة بنفي الانداد والآلهة المدعوة معه، فتضمنت الرد على ما يزعم أنه يخلق أفعاله، ومنها ما حذر به المؤمنين أو أثني عليهم، ومنها ما وبخ به الكافرين وحديث الباب (المذكور) ظاهر في ذلك.

للتفخيم، لأن قبله اعبدوا ربكم فكان حق المقام أن يقول مما نزل على عبده والعبد مأخوذ من التعبد وهو التذلل، وعبدا إضافة تشريف لمحمد ﷺ، والتنزيل التدريج والتنجيم ﴿فأتوا بسورة﴾ أي من سورة، والسورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص سميت بذلك لأنها مشتملة على كلماتها كاشتمال سور البلدة عليها، وأقل ما تتألف منه السورة ثلاث آيات استدل به من قال أنه يتعلق الإعجاز بأقل من سورة ورد به على من قال من المعتزلة بانه يتعلق بجميع القرآن ﴿من مثله﴾ الضمير عائد على القرآن عند جمهور أهل العلم، وقيل على التوراة والإنجيل لأن المعنى إنها تصدق مافيه، وقيل يعود على النبي ﷺ، والمعنى من بشر مثل محمد ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ، والأول أوجه وأولى، ويدل عليه أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في التحدي، وإنما وقع الكلام في المنزل لا في المنزل عليه ﴿وادعوا شهداءكم﴾ جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة أو المعاون، والمراد هنا الآلهة أي استعينوا بأهتكم التي تعبدونها ﴿من دون الله﴾ وقيل المعنى وادعوا ناساً يشهدون لكم، ومعنى دون: أدنى مكان من الشيء واتسع فيه حتى استعمل في تحطي شيء إلى شيء آخر ومنه ما في هذه الآية، وله معان أخر منها التقصير عن الغاية والحقارة، والعرب تقول هذا دون ذلك أي اقرب منه ﴿إن كنتم صادقين﴾ فيما قلتم إنكم تقدرون على المعارضة. وهذا تعجيز لهم وبيان لانقطاعهم، أو أن محمداً ﷺ يقوله من تلقاء نفسه، والأول أولى، والصدق خلاف الكذب، وهو مطابقة الخبر للواقع أو الإعتقاد أو لهما على الخلاف المعروف في علم المعاني.

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ
 لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
 تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ
 قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿فإن لم تفعلوا﴾ فيما مضى ﴿ولن تفعلوا﴾ ذلك فيما يأتي وتبين لكم
 عجزكم عن المعارضة وذلك ان النفوس الأبية إذا قرعت بمثل هذا التقرير
 استفرغت الوسع في الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه ولو قدروا على ذلك
 لأتوا به، فحيث لم يأتوا بشيء ظهرت المعجزة للنبي ﷺ وبان عجزهم، وهم
 أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآن من جنس كلامهم وكانوا حراساً على إطفاء
 نوره وإبطال أمره، ثم مع هذا الحرص الشديد لم توجد المعارضة من أحدهم
 ورضوا بسبي الذراري وأخذ الأموال والقتل، وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة
 صح صدق رسول الله ﷺ، وإذا كان الأمر كذلك وجب ترك العناد.

وهذا من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها لأنها لم تقع المعارضة
 من أحد من الكفرة في أيام النبوة وفيما بعدها وإلى الآن، وقد كرر الله سبحانه
 تحدي الكفار لهذا في مواضع من القرآن منها هذا، ومنها قوله تعالى في سورة
 القصص ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه إن كنتم صادقين﴾
 وقال في سورة سبحان ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا
 القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾ وقال في سورة هود ﴿أم
 يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون
 الله إن كنتم صادقين﴾ وقال في سورة يونس ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة
 مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾.

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل وجه الإعجاز في القرآن هو كونه

في الرتبة العلية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر أو كان العجز عن المعارضة الصرفة من الله سبحانه لهم عن أن يعارضوه، والحق الأول فإن القرآن يأتي تارة بالقصة باللفظ الطويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز ولا يخل بالمقصود، وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام وأوزانه أوزان الأشعار والخطب والرسائل ولهذا تحدث العرب به فعجزوا عنه وتحيروا فيه واعترفوا بفضله، وهم معدن البلاغة وفرسان الفصاحة حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لمغدق وإن أعلاه لمثمر، والكلام في هذا مبسوط في موطنه.

﴿فاتقوا النار﴾ بالإيمان بالله وكتبه ورسله والقيام بفرائضه واجتناب مناهيه وقيل المعنى فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله فإنه مستوجب للعقاب بالنار ﴿التي وقودها الناس والحجارة﴾ أي حطبها والوقود بالفتح الحطب وبالضم التوقد، وقيل كل من الفتح والضم يجري في الآلة والمصدر والمراد بالحجارة الأصنام التي كانوا يعبدونها لأنهم قرنوا أنفسهم بها في الدنيا فجعلت وقوداً للنار معهم، ويدل على هذا قوله تعالى ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ وقيل المراد بها حجارة الكبريت لأنها أكثر التهاباً قاله ابن عباس، وقيل جميع الحجارة، وفيه دليل على عظم تلك النار وقوتها وفي هذا من التهويل ما لا يقادر قدره من كون هذه النار تتقد بالناس والحجارة فأوقدت بنفس ما يراد إحراقه بها.

﴿أعدت للكافرين﴾ أي لمن كان مثل ما أنتم عليه من الكفر، قاله ابن عباس والمعنى جعلت عدة لعذابهم وهيئت لذلك، وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس قال تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية وقودها الناس والحجارة قال أوقد عليها ألف عام حتى احمرت وألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يطفأ لها، وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً مثله،

وأخرج أحمد ومالك والبخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قال نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا يا رسول الله إن كانت لكافية قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها.

وعن أبي هريرة قال أترونها حمراء مثل ناركم هذه التي توقدون ، انها لأشد سواداً من القار، والآية دلت على أنها مخلوقة الآن إذ الإخبار عن إعدادها بلفظ الماضي دليل على وجودها وإلا لزم الكذب في خبر الله تعالى، فما زعمته المعتزلة من أنها تخلق يوم الجزاء مردود، وتأويلهم بأنه يعبر عن المستقبل بالماضي لتحقيق الوقوع ومثله كثير في القرآن مدفوع بأنه خلاف الظاهر، ولا يصار إليه إلا بقريضة، والأحاديث الصحيحة المتقدمة تدفعه.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه وتعالى في كتابه العزيز لما في ذلك من تنشيط عباده المؤمنين لطاعاته، وتنشيط عباده الكافرين عن معاصيه، والتبشير بالإخبار بما يظهر أثره على البشرة وهي الجلد الظاهرة من البشر والسرور، والمأمور بالتبشير قيل هو النبي ﷺ وقيل هو كل أحد كما في قوله ﷺ «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة» والصالحات الأعمال المستقيمة، والمراد هنا الاعمال المطلوبة منهم المفترضة عليهم، وفيه رد على من يقول أن الإيمان بمجردة يكفي، فالجنة تنال بالإيمان والعمل الصالح قيل هو ما كان فيه أربعة أشياء العلم والنية والصبر والإخلاص، يعني عن الرياء قاله عثمان.

﴿أن لهم جنات﴾ جمع جنة وهي البساتين وإنما سميت جنات لأنها تجن من فيها أي تستر بشجرها أو تسترها بالأشجار والأوراق، وقيل الجنة ما فيه نخل والفردوس ما فيه كرم وهي إسم لدار الثواب كلها وهي مشتملة على جنات كثيرة ﴿تجري﴾ أي على ظهر الأرض من غير حفيرة بل هي متماسكة

بقدره الله ﴿من تحتها﴾ أي تحت الجنات لاشتغالها على الأشجار أي من تحت أشجارها، قال مسروق إنها تجري من غير أخدود ﴿الأنهار﴾ جمع نهر وهو المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات، والمراد الماء الذي يجري فيها لأن الأنهار لا تجري، واسند الجري إليها مجازاً فالجاري حقيقة هو الماء كما في قوله تعالى ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ أي أهلها، والنهر يجوز فيه فتح الهاء وسكونها وكذا كل ما عينه حرف حلقي، وجمع الأول أنهر، وجمع الآخر أنهار، وأخرج ابن أبي حاتم وابن حبان والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أنهار الجنة تفجر من تحت جبال مسك».

﴿كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً﴾ أي أطعموا من الجنة طعاماً والمراد بثمره النوع لا الفرد قاله سعد التفتازاني، وأطال الكلام فيه ﴿قالوا هذا الذي رزقنا من قبل﴾ في الدنيا ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ وصف آخر للجنات أو جملة مستأنفة والمراد أنه شبيهه ونظيره لا أنه هو، لأن ذات الحاضر لا يكون عين ذات الغائب لاختلافهما، وذلك أن اللون يشبه اللون وإن كان الحجم والطعم والرائحة والمأدبة متخالفة والضمير في «به» عائد إلى الرزق وقيل المراد أنهم أتوا بما يرزقونه في الجنة متشابهاً فما يأتيهم في أول النهار يشابه الذي يأتيهم في آخره فيقولون هذا الذي رزقنا من قبل، فإذا أكلوا وجدوا له طعماً غير طعم الأول، عن ابن عباس ليس في الدنيا مما في الجنة شيء إلا الأسماء، وعن الحسن في قوله ﴿متشابهاً﴾ قال خيار كله يشبه بعضه بعضاً لا رذال فيه ألم تروا إلى ثمار الدنيا كيف ترذلون بعضه.

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يبرزقون، يلهمون الحمد والتسبيح كما يلهمون النفس، طعامهم جشاء، ورشحهم كرشح المسك، وفي لفظ ورشحهم المسك» أخرجه مسلم، والمعنى أن فضول طعامهم يخرج في الجشاء وهو تنفس المعدة، والرشح العرق.

﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾ أي في الجنات من الحور العين المطهرة من البول والغائط والحيض والولد وسائر الأقدار، وقيل هي عجائز الدنيا الغمص العمش طهرن من قذرات الدنيا وقيل طهرن من مساوي الأخلاق والمعنى أنه لا يصيبهن ما يصيب النساء من قذر الحيض والنفاس والغائط والبزاق والنخامة، وسائر الأدناس التي لا يمتنع تعلقها بنساء الدنيا، والأزواج جمع زوج وهو ما يكون معه آخر فيقال زوج للرجل والمرأة، وزوجة بالتاء قليل وأنها لغة تميم. قاله الفراء، والزوج أيضاً الصنف والتثنية زوجان، والطهارة النظافة ﴿وهم فيها خالدون﴾ أي ماكثون أبداً، والخلد والخلود البقاء الدائم الذي لا ينقطع، وقد يستعمل مجازاً فيما يطول دام أم لم يدم، والمراد هنا الأول لما يشهد له الآيات والأحاديث، والمعنى لا يخرجون منها ولا يموتون.

وعن ابن عباس في قوله ﴿وهم فيها خالدون﴾ قال يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له، وعن سعيد بن جبير خالدون يعني لا يموتون، وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت، يا أهل الجنة لا موت، كل خالد فيما هو فيه^(١)» وأخرج الطبراني وابن

(١) وقد وردت الأحاديث الكثيرة في صفة أهل الجنة فقتطف منها من صحيح مسلم الأحاديث التالية:
- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «اعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».
- عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: انه قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة».

- عن أبي هريرة: ان النبي ﷺ قال: «إن الله يقول لأهل الجنة؛ يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا! وسعديك. والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى؟ يا رب وقد اعطينا ما لم تحط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأي شيء أفضل من ذلك فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».
- عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة من أمتي، على صورة القمر ليلة البدر. ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء اضاءة. ثم بعد ذلك منازل لا يتغفطون =

مردويه وأبو نعيم من حديث ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا، ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد. وقد أخرج ابن ماجة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والبزار وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي وابن مردويه عن أسامة بن زيد قال رسول الله ﷺ «ألا هل مشمر للجنة فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأأ وريحانة تهتز وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمره نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد، في دار سليمة وفاكهة خضراء» الحديث.

والاحاديث في وصف الجنة كثيرة جداً ثابتة في الصحيحين وغيرهما، وكذلك في صفات نساء أهل الجنة ما لا يتسع المقام لبسطه، فلينظر في دواوين الإسلام، وقد ألف الحافظ محمد بن أبي بكر القيم الجوزي كتاباً في أحوال الجنة سماه (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) لم يؤلف في الإسلام قبله مثله، وهو أجمع ما جمع في هذا الباب، وقد لخصته بحذف الزوائد والأسانيد وسميته (مثير ساكن الغرام إلى روضات دار السلام) فليرجع إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ في صفات أهل الجنة في الصحيحين وغيرهما من طريق جماعة من الصحابة أن أهل الجنة لا يبصقون ولا يتمخطون ولا يتغوطون.

= ولا يبولون ولا يتمخطون ولا يبرزقون أمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك أخلاقهم على خلق رجل واحد على طول أبيهم آدم ستون ذراعاً. انظر صحيح مسلم / ١٨٢٢ وما بعده.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (٢١)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ أنزل الله هذه الآية رداً على الكفار لما أنكروا ما ضربه سبحانه من الأمثال كقوله ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ قوله ﴿أو كصيب من السماء﴾ فقالوا إن الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال، وقد قال الرازي أن الله تعالى لما بين الدليل كون القرآن معجزاً أورد ههنا شبهة أوردتها الكفار قدحاً في ذلك؛ وأجاب عنها، وتقرير الشبهة أنه جاء في القرآن ذكر النحل والعنكبوت والنمل، وهذه الأشياء لا يليق ذكرها بكلام الفصحاء؛ فاشتمال القرآن عليها يقدر في فصاحته فضلاً عن كونه معجزاً؛ وأجاب الله عنها بأن صغر هذه الأشياء لا يقدر في الفصاحة إذا كان ذكرها مشتملاً على حكمة بالغة انتهى.

ولا يخفك أن تقرير هذه الشبهة على هذا الوجه وإرجاع الإنكار إلى مجرد الفصاحة لا مستند له ولا دليل عليه؛ وقد تقدمه الى شيء من هذا صاحب الكشف؛ والظاهر ما ذكرناه أولاً لكون هذه الآية جاءت بعقب المثليين اللذين هما المذكوران قبلها؛ ولا يستلزم استنكارهم لضرب الأمثال بالأشياء المحقرة أن يكون ذلك لكونه قادحاً في الفصاحة والإعجاز، والحياة تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم، كذا في الكشف وتبعه الرازي في مفاتيح الغيب، وقال القرطبي الاستحياء الانقباض عن الشيء والإمتناع منه خوفاً من مواجهة القبيح، وهذا محال على الله انتهى.

وقد اختلفوا في تأويل ما في هذه الآية من ذكر الحياة فقيل ساغ ذلك لكونه واقعاً في الكلام المحكى عن الكفار، وقيل هو من باب المشاكلة كما

تقدم، وقيل هو جار على سبيل التمثيل، وضرب المثل اعتماده وصنعه، والبعوض صغار البق، الواحدة بعوضة سميت بذلك لصغرها، قاله الجوهري وغيره، وهو من عجيب خلق الله في غاية الصغر شديد اللسع وله ستة أرجل وأربعة أجنحة وله ذنب وخرطوم مجوف، وهو مع صغره يغوص خرطوميه في جلد الفيل والجاموس والجمال فيبلغ منه الغاية.

﴿فما فوقها﴾ يعني الذباب والعنكبوت وما هو أعظم منها في الجثة، قال الكسائي والفراء، الفاء هنا بمعنى إلى، وقيل معناه فما دونها وأصغر منها، وهذا القول أشبه بالآية لأن الغرض بيان أن الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً للدنيا بجناح البعوضة وهو أصغر منها، وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات فقليل هو أحقر من ذرة، وأجمع من غلة، وأطيش من فراشة، وألح من ذبابة.

﴿فأما الذين آمنوا﴾ بمحمد ﷺ والقرآن ﴿فيعلمون أنه﴾ يعني ضرب المثل ﴿الحق﴾ أي الثابت الواقع موقعه، وهو المقابل للباطل، والحق واحد الحقوق، والمراد هنا الأول، وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز إطلاق هذا اللفظ على الله سبحانه ﴿من ربهم﴾ لا يجوز إنكاره لأن ضرب الأمثال من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ أي بهذا المثل، والإرادة نقيض الكراهة، وقيل هي نزوع أي اشتياق النفس وميلها إلى فعل بحيث يحملها عليه، أو هي قوة هي مبدأ النزوع، والأول مع الفعل، والثاني قبله، وإرادته سبحانه ترجيح أحد مقدوريه على الآخر بالإيقاع أو معنى يوجب هذا الترجيح، والإرادة صفة له ذاتية قديمة زائدة على العلم.

﴿يضل به كثيراً﴾ أي من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً ﴿ويهدي به كثيراً﴾ يعني المؤمنين يصدقونه ويعلمون أنه حق، وهو كالتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بإما فهو خبر من الله سبحانه، وقيل هو حكاية لقول الكافرين كأنهم قالوا ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة وإلى هدى، وليس هذا بصحيح، فإن الكافرين لا يقرون بأن في

القرآن شيئاً من الهداية، ولا يعترفون على أنفسهم بشيء من الضلالة.

وقد أطال المتكلمون الخصام في تفسير الضلال المذكور هنا وفي نسبته إلى الله سبحانه وقد نقح الرازي في تفسيره في هذا الموضع تنقيحاً نفيساً، وجوده وطوله وأوضح فروعاً وأصوله فليرجع إليه فإنه مفيد جداً، وأما صاحب الكشف فقد اعتمد هنا على عصاه التي يتوكأ عليها في تفسيره، فجعل إسناد الإضلال إلى الله سبحانه لكونه سبباً فهو من الإسناد المجازي إلى ملابس للفاعل الحقيقي، وحكى القرطبي عن أهل الحق من المفسرين أن المراد بقوله يضل يخذل.

﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ يعني الكافرين وقيل المنافقين وقيل اليهود، ولا خلاف في أن هذا من كلام الله سبحانه، قال القرطبي، فيه دلالة لمذهب أهل السنة أن الهدى والضلال من الله، والفسق الخروج عن الشيء، ذكر معنى هذا الفراء، وقد زعم ابن الاعرابي أنه لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم «فاسق» وهذا مردود عليه فقد حكى ذلك عن العرب وأنه من كلامهم جماعة من أئمة اللغة كابن فارس والجوهري وابن الانباري وغيرهم.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال «خمس فواسق» الحديث، وقال في الكشف الفسق الخروج عن القصد، ثم قال والفاسق في الشريعة الخارج عن أمر الله بارتكاب الكبيرة ١ هـ. وقال القرطبي الفسق في عرف الإستعمال الشرعي الخروج عن طاعة الله عز وجل فقد يقع على من خرج بكفر، وعلى من خرج بعصيان ١ هـ. وهذا هو أنسب للمعنى اللغوي، ولا وجه لقصره على بعض الخارجين دون بعض.

قال الرازي في تفسيره واختلف أهل القبلة هل هو مؤمن أو كافر، فعند أصحابنا هو مؤمن، وعند الخوارج أنه كافر، وعند المعتزلة أنه لا مؤمن ولا كافر، واحتج المخالف بقوله (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) قوله (ان المنافقين هم الفاسقون) وقوله (حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) وهذه المسألة طويلة مذكورة في علم الكلام ١ هـ.

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿الذين ينقضون عهد الله﴾ النقض إفساد ما أبرم من بناء أو حبل أو عهد، والنقاضة ما نقض من حبل الشعر، وقيل أصل النقض الفسخ وفك المركب، والمعنى متقارب، والمعنى يتركون ويخالفون، وأصل العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال والعهد قيل هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره وهو قوله ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾ وقيل هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسن رسله، ونقضهم ذلك ترك العمل به، وقيل بل هو نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر مخلوقاته، ونقضه ترك النظر فيه، وقيل هو ما عهده إلى الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس.

﴿من بعد ميثاقه﴾ الضمير للعهد أو لله تعالى، قاله السمين، وعلى الأول مصدر مضاف إلى المفعول، وعلى الثاني مضاف للفاعل، «ومن» لابتداء الغاية فإن ابتداء النقض بعد الميثاق، والميثاق العهد المؤكد باليمين مفعول من الوثيقة وهي الشدة في العقد والربط جميعاً، والجمع المواثيق والميثاق، واستعمال النقض في إبطال العهد على سبيل الإستعارة.

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ القطع معروف والمصدر في الرحم القطيعة، واختلفوا ما هو الشيء الذي أمر الله بوصله ف قيل الأرحام وموالاة

المؤمنين، وقيل وصل القول بالعمل لزوم الجماعات المفروضة، وقيل أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب البعض الآخر، وقيل المراد به حفظ شرائعه وحدوده التي أمر في كتبه المنزلة على ألسن رسله بالمحافظة عليها، وقيل سائر ما فيه رفض خير أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين عبده فهي عامة، وبه قال الجمهور وهو الحق، والأمر هو القول الطالب للفعل، وقيل مع العلو، وقيل مع الاستعلاء، وبه الأمر الذي هو واحد الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر فإنه مما يؤمر به.

﴿ويفسدون في الأرض﴾ يعني بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بحمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن والاستهزاء بالحق وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه، فالمراد بالفساد في الأرض الأفعال والأقوال المخالفة لما أمر الله به كعبادة غيره، والإضرار بعباده، وتغيير ما أمر بحفظه، وبالجمله فكل ما خالف الصلاح شرعاً أو عقلاً فهو فساد، وهؤلاء لما استبدلوا النقض بالوفاء، والقطع بالوصل كان عملهم فساداً لما نقضوا أنفسهم من الفلاح والربح، وعن قتادة قال ما نعلم الله أوعد في ذنب ما أوعد في نقض هذا الميثاق، فمن أعطى عهد الله وميثاقه من ثمرة قلبه فليوف به الله، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث ثابتة في الصحيح وغيره من طريق جماعة من الصحابة النهي عن نقض العهد والوعيد الشديد عليه.

﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي المغبونون باهمال العقل عن النظر، واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، وأصل الخسار والخسران النقصان، والخاسر هو الذي نقص نفسه من الفلاح والفوز، قال مقاتل: الخاسرون هم أهل النار، وقال ابن عباس كل شيء نسبته الله إلى غير أهل الإسلام مثل خاسر ومسرف وظالم ومجرم وفاسق فإنما يعني به الكفر، وما نسبته إلى أهل الإسلام فإنما يعني به الذم.

﴿كيف﴾ هو للسؤال عن الأحوال، والمراد هنا الأحوال التي يقع عليها

الكفر على الطريق البرهاني من العسر واليسر والسفر والاقامة والكبر والصغر والعز والذل وغير ذلك، وهذا الاستفهام هو للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم، وفيه تبكيت وتعنيف لهم ﴿تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ بعد نصب الدلائل ووضع البراهين الدالة على وحدانيته، والخطاب على طريقة الإلتفات ثم ذكر الدلائل فقال ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ يعني نطفاً في أصلاب آبائكم وعلقاً ومضغاً ﴿فَأَحْيَاكُم﴾ يعني في الأرحام بنفخ الروح وفي الدنيا ﴿ثُمَّ يَمِيتُكُمْ﴾ أي عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بالنشور يوم نفخ الصور، واختلف المفسرون في ترتيب هاتين الموتين والحياتين، والحاصل أن المراد بالموت الأول العدم السابق، وبالحياة الأولى الخلق، وبالموت الثاني الموت المعهود، وبالحياة الثانية الحياة للبعث، فجاءت الفاء وثم على بابيهما من التعقيب والتراخي على هذا التفسير، وهو أحسن الأقوال، وقد ذهب إلى هذا جماعة من الصحابة فمن بعدهم.

قال ابن عطية وهذا القول هو المراد بالآية وهو الذي لا محيد للكفار عنه، وإذا أذعنت نفوس الكفار بكونهم كانوا معدومين ثم أحياء في الدنيا ثم أمواتاً فيها لزمهم الإقرار بالحياة الأخرى، قال غيره والحياة التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياة الدنيا، وقيل أن المراد كنتم أمواتاً في ظهر آدم عليه السلام ثم أخرجكم من ظهره كالذر ثم يميتكم موت الدنيا ثم يبعثكم، وقيل كنتم أمواتاً أي نطفاً في أصلاب الرجال ثم يحييكم حياة الدنيا، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ثم يحييكم في القبور ثم يميتكم فيها ثم يحييكم الحياة التي ليس بعدها موت، قال القرطبي فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتات وثلاث إحياءات، وكونهم موق في ظهر آدم وإخراجهم من ظهره والشهادة عليهم غير كونهم نطفاً في أصلاب الرجال، فعلى هذا يجيء أربع موتات وأربع إحياءات، وقد قيل إن الله أوجدكم قبل خلق آدم كالبهائم وأماتهم فيكون على هذا خمس موتات وخمس إحياءات، وموتة سادسة للعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في الحديث «ولكن ناساً أصابتهم النار بذنوبهم فأماتهم الله إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن في الشفاعة فجاء بهم إلى أن قال:

فينبتون نبات الحبة في حميل السيل» وهو في الصحيح من حديث أبي سعيد .
﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي تردون في الآخرة إلى الله سبحانه فيجازيكم بأعمالكم، قال في الكشف عطف الأول بالفاء وما بعده بثم، لأن الأحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ، وأما الموت فقد تراخى عن الأحياء، والأحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت إن أريد به النشور تراخياً ظاهراً، وإن أريد به أحياء القبر فمنه يكتسب العلم بتراخيه، والرجوع الى الجزء أيضاً متراخ عن النشور، انتهى .

ولا يخفاك أنه إن أراد بقوله ان الأحياء الأول قد تعقب الموت انه وقع على ما هو متصف بالموت فالموت الآخر وقع على ما هو متصف بالحياة وإن أراد أنه وقع الأحياء الأول عند أول اتصافه بالموت بخلاف الثاني فغير مسلم فإنه وقع عند آخر أوقات موته كما وقع الثاني عند آخر أوقات حياته، فتأمل هذا، وقد أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال لم تكونوا شيئاً فخلقكم ثم يميتكم ثم يحييكم يوم القيامة .

﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض﴾ قال ابن كيسان أي خلق من أجلكم ما فيها من المعادن والنبات والحيوان والجبال والبحار لتتفعوا به في مصالح الدين والدنيا، أما الدين فهو الاعتبار والتفكر في عجائب مخلوقات الله الدالة على وحدانيته، وأما الدنيا فهو الانتفاع بما خلق فيها، وقيل اللام للاختصاص، وقيل للملك والإباحة، وفيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر، وفي التأكيد بقوله ﴿جميعاً﴾ أقوى دلالة على هذا .

وقد استدل بهذه الآية على تحريم أكل الطين لأنه تعالى خلق لنا ما في الأرض، دون نفس الأرض، وقال الرازي في تفسيره إن لقائل أن يقول أن في جملة الأرض ما يطلق عليه أنه في الأرض فيكون جامعاً للوصفين، ولا شك

أن المعادن داخلية في ذلك، وكذلك عروق الأرض وما يجري مجرى البعض لها، ولأن تخصيص الشيء بالذكر لا يدل على نفي الحكم عما عداه إهـ.

وقد ذكر صاحب الكشف ما هو أوضح من هذا فقال: فإن قلت هل لقول من زعم أن المعنى خلق لكم الأرض وما فيها وجه صحة. قلت إن أراد بالأرض الجهات السفلية دون الغبراء كما تذكر السماء وتراد الجهات العلوية جاز ذلك فإن الغبراء وما فيها واقعة في الجهات السفلية أهـ. وأما التراب فقد ورد في السنة تحريمه وهو أيضاً ضار ليس مما ينتفع به أكلاً، ولكنه ينتفع به في منافع أخرى، وليس المراد منفعة خاصة كمنفعة الأكل بل كل ما يصدق عليه أنه ينتفع به بوجه من الوجوه، وأما السم القاتل ففيه نفع لأجل دفع الحيوانات المؤذية وقتلها فلا يراد أنه لا نفع فيه.

﴿ثم استوى إلى السماء﴾ أي قصد وأقبل على خلقها. وقيل عمد، وقال ابن عباس ارتفع وقال الأزهري صعد أمره، وكذا ذكره صاحب المحكم، وذلك أن الله خلق الأرض أولاً ثم عمد إلى خلق السماء، وأصل «ثم» يقتضي تراخياً زمانياً ولا زمان هنا فليل هي إشارة إلى التراخي بين رتبتي خلق الأرض والسماء. قاله القرطبي، والاستواء في اللغة الاعتدال والانتصاب والاستقامة، وضده الاعوجاج قاله في الكشف والرازي، ويطلق على الإرتفاع والعلو على الشيء، قال تعالى: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ وقال ﴿لستوا على ظهوره﴾ وهذا المعنى هو المناسب لهذه الآية.

وقد قيل إن هذه الآية من المشكلات، وقد ذهب كثير من الأئمة إلى الإيمان بها وترك التعرض لتفسيرها، وخالفهم آخرون، وقد استدل بقوله ﴿ثم استوى﴾ على أن خلق الأرض متقدم على خلق السماء، وكذلك الآية التي في ﴿حم﴾ السجدة وقال تعالى في النزاعات ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾ فوصف خلقها ثم قال ﴿والأرض بعد ذلك دحاه﴾ فكأن السماء على هذا خلقت قبل الأرض، وكذلك قوله تعالى ﴿الحمد لله الذي خلق السموات

والأرض ﴿وقد قيل أن خلق جرم الأرض متقدم على السماء، ودحوها متأخر وقد ذكر نحو هذا جماعة من أهل العلم، وهذا جمع جيد لا بد من المصير إليه، ولكن خلق ما في الأرض لا يكون إلا بعد الدحو والآية المذكورة هنا دلت على أنه خلق ما في الأرض قبل خلق السماء، وهذا يقتضي بقاء الإشكال وعدم التخلص عنه بمثل هذا الجمع، قاله الشوكاني.

قلت: ذكر رحمه الله في السورتين المذكورتين أن «ثم» للتراخي الرتبي لا للتراخي الزماني، أو أن «بعد» بمعنى مع كما في قوله ﴿عتل بعد ذلك زنيم﴾ أو أنها بمعنى قبل كقوله ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾ أي من قبل الذكر فيزول ما ذكره رحمه الله تعالى من بقاء الإشكال.

وقال الفراء الإستواء في كلام العرب على وجهين (أحدهما) أن يستوي الرجل وينتهي شبابه وقوته أو يستوي من اعوجاج، وقال البيهقي الاستواء بمعنى الإقبال صحيح لأن الإقبال هو القصد، والقصد هو الإرادة وذلك جائز في صفات الله، وقال سفيان بن عيينة أي قصد إليها وقيل علا دون تكيف ولا تحديد واختاره الطبري، وقال أبو العالية استوى ارتفع وقال قتادة إن السماء خلقت أولاً، حكاه عنه الطبري، والبحث في ذلك يطول، وقد استوفاه الرازي في تفسيره، وأجاب عنه بوجه ثم قال: الجواب الصحيح أن قوله «ثم» ليس للترتيب ههنا، وإنما هو على جهة تعديد النعم والله أعلم.

﴿فسواهن﴾ أي عدل خلقهن فلا اعوجاج فيه ولا فطور، وقيل معناه سوى سطوحهن بالإملاس وقيل جعلهن سواء ﴿سبع سموات﴾ مستويات لا صدع فيها ولا فطور، وفي هذا التصريح بأن السموات سبع، وأما الأرض فلم يأت في ذكر عددها إلا قوله تعالى ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ فقليل في العدد وقيل في غلظهن وما بينهن. وقال الماوردي أن الأرض سبع، ولكن لم يفتق بعضها من بعض، والصحيح أنها سبع كالسموات: وعلى أنها سبع أرضين متفاصلة

بعضها فوق بعض تختص دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا، ولا تلزم من في غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز، وفي مشاهدتهم السماء واستمدادهم للضوء منها قولان (أحدهما) أنهم يشاهدون السماء من كل جانب من أرضهم ويستمدون الضياء منها، وهذا قول من جعل الأرض مبسوطة (والثاني) أنهم لا يشاهدون السماء فإن الله تعالى خلق لهم ضياء يستمدون منه، وهذا قول من جعل الأرض كروية، وفي الآية قول ثالث حكاه الطيبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض، تفرق بينها البحار وتظل جميعها السماء انتهى، وسيأتي تحقيق ما هو الحق في آخر سورة الطلاق إن شاء الله تعالى.

وقد ثبت في الصحيح قوله ﷺ «من أخذ من الأرض شبراً ظلماً طوقه الله من سبع أرضين»، وهو ثابت من حديث عائشة وسعيد بن زيد.

وقد أطنب الرازي في تفسيره في بيان السموات هل هي سبع أو ثمان، وذكر مذاهب الحكماء في ذلك وأجابهم بوجوه ثم قال: أعلم أن هذا الخبط مما ينبهك على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى إدراك هذه الأشياء، وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها فوجب الإقتصار فيه على الدلائل السمعية.

فإن قال قائل: فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفي العدد الزائد؟ قلنا الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد انتهى، وفي هذا إشارة إلى ما ذكره الحكماء من الزيادة على السبع.

ونحن نقول أنه لم يأتنا عن الله ولا عن رسوله إلا السبع فنقتصر على ذلك ولا نعمل بالزيادة إلا إذا جاءت من طريق الشرع، ولم يأت شيء من ذلك، عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة في هذه الآية قالوا إن الله كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسماه عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء

فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها سبع أرضين في يومين الأحد والإثنين، فخلق الأرض على حوت وهو الذي ذكره في قوله ﴿ن والقلم﴾ والحوت قائم على ظهر صفاة والصفاة ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة في الريح وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماء ولا في الأرض فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسي عليها الجبال فقرت فذلك قوله تعالى ﴿وجعل لها رواسي أن تميد بكم﴾ وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وسخرها وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء، وذلك قوله ﴿أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض﴾ إلى قوله ﴿وبارك فيها﴾ يقول أنبت شجرها فيها ﴿وقدر فيها أقواتها﴾ يقول أقوات أهلها في أربعة أيام سواء للسائلين يقول من سأل، فهكذا الأمر ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة، وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ قال خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار وجبال البرد وما لا يعلم ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً من الشياطين، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش أخرجه البيهقي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن جرير.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من حديث أبي هريرة في الصحيح قال أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيدي فقال «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيه الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم يوم الجمعة بعد العصر^(١)».

(١) هناك رجال مغرمون بالتجديد، فلم يجدوا غير حديث الرسول ﷺ يتخذونه مطية لهم: يردونه تارة، ويؤولونه تارة، فلما رأوا في هذا الحديث أن الخلق بدأ يوم السبت وانتهى يوم الجمعة، فتصير سبعة أيام، وقد روي في الصحيح، طاروا فرحاً، وقالوا كيف يصح وهو معارض بالآيات القائلة أن الخلق في ستة =

وقد ثبت عن النبي ﷺ من طرق عند أهل السنن وغيرهم عن جماعة من الصحابة أحاديث في وصف السموات وإن غلط كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام، وأنها سبع سموات، وأن الأرض سبع أرضين، ولم يأت في التنزيل ولا في السنة المطهرة تصريح بأن فيهن من يعقل من العوالم والاولاد وأنبيائهم، والآثار من الصحابة ومن بعدهم إن جاءت بسند صحيح لا تصلح للاحتجاج على ذلك، فكيف بما لم يصح سنده أو صح ولكن لم يتابع عليه أو توبع عليه ولكن لم يساعده نص من الله ورسوله، وكذلك ثبت في وصف السماء آثار من جماعة من الصحابة وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور بعض ذلك في تفسير هذه الآية، وإنما تركنا ذكره هنا لكونه غير متعلق بهذه الآية على الخصوص بل هو متعلق بما هو أعم منها^(١) ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ أي يعلم الجزئيات كما يعلم الكلليات وإنما أثبت سبحانه لنفسه العلم بكل شيء لأنه يجب أن يكون عالماً بجميع ما ثبت أنه خالقه.

= أيام، وعموا عن نص الآيات والحديث، فالآيات تنص على أن خلق السموات والأرض في ستة أيام وأما الحديث فيتفق معها تماماً، لأنه يقول إن الذي خلق في السابعة إنما هو آدم وآدم غير السموات والأرض، وإنما هو أصل النوع الذي يعمر الأرض، وتسخر له السموات وما فيها. (١) جاء في فتح الباري ٢٩٣/٦.

روى أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «ان بين كل سماء وسماء خمسمائة عام وان سمك كل سماء كذلك وان بين كل أرض وأرض خمسمائة عام» وأخرجه اسحق بن راهويه والبخاري من حديث أبي ذر نحوه ولا يروى داود والترمذي من حديث العباس بن عبد المطلب مرفوعاً «بين كل سماء وسماء إحدى أو اثنتان وسبعون سنة» وجمع بين الحديثين بأن اختلاف المسافة بينهما باعتبار بطء السير وسرعته.

وروى ابن جرير من طريق شعبة عن عمر بن مرة عن أبي الضحى عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ قال: «في كل أرض مثل إبراهيم، ونحو ما على الأرض من الخلق، هكذا أخرجه مختصراً واسناده صحيح. وأخرجه الحاكم والبيهقي من طريق عطاء بن السائب عن أبي الضحى مطولاً، وأوله أي سبع أرضين، في كل أرض آدم كآدمكم، ونوح كنوحكم، وإبراهيم كإبراهيمكم، وعيسى كعيسى. ونبي كنبئكم» قال البيهقي اسناده صحيح، إلا أنه شاذ بكرة، وروى ابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: لو حدثتكم بتفسير هذه الآية لكفرتم وكفركم تكذيبكم بها.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٢١﴾

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال، وكل ما ورد في القرآن من هذا النحو فهذا سبيله، وقيل إذ زائدة والأول أوجه ﴿لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾ جمع ملك بوزن فعل قاله ابن كيسان، وقيل جمع ملاك بوزن مفعول، قاله أبو عبيده، وأراد بالملائكة الذين كانوا في الأرض، وذلك أن الله تعالى خلق الأرض وأسكن فيها الجن واسكن في السماء الملائكة، فأفسدت الجن في الأرض فبعث إليهم طائفة من الملائكة فطردهم إلى جزائر البحار ورؤوس الجبال، وأقاموا مكانهم^(١)، وقيل: القول لمطلق الملائكة وكان ذلك تعليماً للمشاورة وتعظيماً لآدم، وبياناً لكون الحكمة تقتضي إيجاد ما يغلب خيره على شره، واللام في ﴿لِلْمَلٰٓئِكَةِ﴾ للتبليغ وهو أحد المعاني التي جاءت لها اللام.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي خالق بدلاً منكم ورافعكم إلي، وجاعل هنا من جعل المتعدي إلى مفعولين، وذكر المطرزي أنه بمعنى الخالق، وذلك يقتضي أنه متعد إلى مفعول واحد، وصيغة إسم الفاعل بمعنى المستقبل، والأرض هنا هي هذه الغبراء، ولا يختص ذلك بمكان دون مكان، وقيل إنها مكة كما ورد في مرسل ضعيف، وقال ابن كثير أنه مدرج، والخليفة هنا معناه الخالف لمن كان قبله من الملائكة، ويجوز أن يكون بمعنى المخلف أي يخلفه غيره، قيل هو آدم كما دل عليه السياق، وقيل كل من له خلافة في الأرض، ويقوي الأول قوله ﴿خَلِيفَةً﴾ دون الخلائف واستغنى بذكر آدم عن ذكر من

(١) لم نعثر على دليل على هذا القول.

بعده، والصحيح أنه إنما سمي خليفة لأنه خليفة الله في أرضه لإقامة حدوده وتنفيذ قضاياءه، قيل خاطب الله الملائكة بهذا الخطاب لا للمشورة ولكن لاستخراج ما عندهم، قيل وفيه إرشاد عباده إلى المشاورة وأن الحكمة تقتضي اتخاذ ما يغلب خيره وإن كان فيه نوع شر، وأنه لا رأي مع وجود النص، وهو أصل في المسائل التعبدية.

قال بعض المفسرين أن في الكلام حذفاً والتقدير إني جاعل في الأرض خليفة يفعل كذا وكذا فكرهوا ذلك و﴿قالوا﴾ أي أستكشافاً عما خفي عليهم من الحكمة الباهرة، وليس باعتراض على الله ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله ﴿بل عباد مكرمون﴾ وإنما عرفوا ذلك بإخبار من الله أو تلقى من اللوح المحفوظ أو مقياس لأحد الثقلين على الآخر ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي بمقتضى القوة الشهوانية، والفساد ضد الصلاح ﴿ويسفك الدماء﴾ بغير حق بمقتضى القوة الغضبية كما فعل الجن، وسفك الدم صبه، قاله ابن فارس والجوهري والمهدوي ولا يستعمل السفك إلا في الدم.

﴿ونحن نسبح﴾ أي نقول سبحان الله وبحمده وهي صلاة الخلق وعليها يرزقون، عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل قال «ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده»^(١) أخرجه مسلم، وقال ابن عباس كل ما جاء في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة فيكون المعنى ونحن نصلي لك، وأصل التسبيح في كلام العرب التنزيه والتبعيد من السوء على وجه التعظيم، فيكون المعنى ونحن ننزهك عن كل سوء ونقيصة ﴿بحمدك﴾ أي حامدين لك أو متلبسين بحمدك فإنه لولا إنعامك علينا بالتوفيق لم نتمكن من ذلك ﴿ونقدس لك﴾ وأصل التقديس التطهير أي ونطهرك عن النقائص وعن كل ما لا يليق بك من سوء وما نسبته إليك الملحدون، وافتراه الجاحدون،

وذكر في الكشف أن معنى التسبيح والتقديس واحد وهو تبعيد الله من السوء، وفي القاموس وغيره من كتب اللغة ما يرشد إلى ما ذكرناه، والتأسيس خير من التأكيد خصوصاً في كلام الله سبحانه، وقيل معناه نظهر أنفسنا لطاعتك وعبادتك والأول أولى.

وعن ابن مسعود وناس من الصحابة نقدر لك أي نصلي لك، وقال مجاهد نعظمك ونكبرك واللام زائدة، والجملة حال أي فنحن أحق بالاستخلاف.

ولما كان سؤالهم واقعاً على صفة تستلزم إثبات شيء من العلم لأنفسهم أجاب الله سبحانه عليهم فقال ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ وفي هذا الإجمال ما يغني عن التفصيل، لأن من علم ما لا يعلم المخاطب له كان حقيقاً بأن يسلم له ما يصدر عنه، وعلى من لا يعرف أن يعترف لمن يعلم بأن أفعاله صادرة على ما يوجبه العلم وتقتضيه المصلحة الراجحة والحكمة البالغة، ولم يذكر متعلق قوله ﴿تعلمون﴾ ليفيد التعميم، ويذهب السامع عند ذلك كل مذهب ويعترف بالعجز ويقر بالقصور.

عن ابن عباس قال: إن الله أخرج آدم من الجنة قبل أن يخلقه قال وقد كان فيها أي في الأرض قبل أن يخلق بألفي عام: الجن بنو الجان فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحور، فلما قال ﴿إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ كما فعل أولئك الجان فقال ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أخرجه الحاكم وصححه عنه.

وفي الباب آثار من الصحابة كثيرة، وعن قتادة كان في علم الله أنه سيكون من الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة، وقيل أعلم أنهم

يذنبون ويستغفرون فأغفر لهم، وقيل أعلم من وجود المصلحة والحكمة ما لا تعلمون أنتم.

وقد ثبت في كتب الحديث المعتبرة أحاديث من طريق جماعة من الصحابة، في صفة خلقه سبحانه لآدم وهي موجودة فلا نطول بذكرها، قيل خاطبهم بذلك لأجل أن يصدر منهم ذلك السؤال فيجابون بذلك الجواب، وقيل لأجل تعليم عباده مشروعية المشاورة لهم، وظاهره أنهم استنكروا استخلاف بني آدم في الأرض لكونهم مظنة للإفساد في الأرض، وإنما قالوا هذه المقالة قبل أن تتقدم لهم معرفة ببني آدم بل قبل وجود آدم، فضلاً عن ذريته لعلم قد علموه من الله سبحانه بوجه من الوجوه، لأنهم لا يعلمون الغيب، قال بهذا جماعة من المفسرين.

﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ سمي آدم لأنه خلق من أديم الأرض وهو وجهها وقيل لأنه كان آدم اللون، والأدمة هي السمرة، ولما خلق الله آدم وتم خلقه علمه أسماء الأشياء كلها قال في الكشف وما آدم إلا اسم أعجمي وأقرب أمره أن يكون على فاعل كآزر وعازر وعابر وشالغ وفالغ وأشباه ذلك اهـ واشتقاقه من الأدمة وغيرها تعسف قاله البيضاوي، وقال السمين بعد كلام طويل أن ادعاء الاشتقاق فيه بعيد لأن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاق ولا تصريف اهـ.

والأسماء هي العبارات والمراد أسماء المسميات قال بذلك أكثر العلماء، وهو المعنى الحقيقي للإسم والتأكيد بقوله ﴿كلها﴾ يفيد أنه علمه جميع الأسماء ولم يخرج؛ عن هذا شيء منها كائناً ما كان، وقال ابن جرير إنها أسماء الملائكة وأسماء ذرية آدم، ثم رجح هذا وهو غير راجح، وقيل صنعة كل شيء قال ابن عباس علمه إسم كل شيء حتى القصعة والقصيعة، وقيل خلق الله كل شيء من الحيوان والجماد وغير ذلك وعلم آدم الأسماء كلها فقال يا آدم هذا بعير، وهذا فرس، وهذه شاة حتى أتى على آخرها، وقيل علمه اللغات كلها أي جميع اللغات لكن بنوه تفرقوا في اللغات فحفظ بعضهم العربية ونسي

غيرها، والمراد علم الأسماء لفظاً ومعنى، مفرداً ومركباً، حقيقة ومجازاً، والمراد بالإسم ما يدل على معنى ذاتاً كان أو عرضاً، فهو أعم من الإسم والفعل والحرف، وقال في المظهري وعندي ان الله علم آدم الأسماء الإلهية كلها ثم رجح هذا بكلام طويل وهو غير راجح مع ما فيه من البعد والتكلف، ولم يقل به أحد من المفسرين، ويأباه ظاهر النظم وسياقه، واستدل بالآية من قال إن اللغات توقيفية وضعها الله وعلمها بالوحي.

﴿ثم عرضهم على الملائكة﴾ يعني تلك الأشخاص، وإنما قال عرضهم ولم يقل عرضها لتغليب العقلاء عليهم، واختلف أهل العلم هل عرض على الملائكة المسميات أو الأسماء، والظاهر الأول لأن عرض نفس الأسماء غير واضح، وعرض الشيء إظهاره، قال ابن عطية والذي يظهر أن الله علم آدم الأسماء وعرض عليه مع ذلك الأجناس أشخاصاً ثم عرض تلك على الملائكة وسألهم عن أسماء مسمياتها التي قد تعلمها آدم فقال لهم هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، قال الماوردي فكان الأصح توجه العرض إلى المسمى، ثم في زمن عرضهم قولان (أحدهما) أنه عرضهم بعد أن خلقهم (الثاني) أنه صورهم بقلوب الملائكة ثم عرضهم.

﴿فقال أنبؤني﴾ أي أخبروني أمر تعجيز، والنبأ خبر ذو فائدة عظيمة وإيثاره على الإخبار للإيذان برفعة شأن الأسماء وعظم خطرها ﴿بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ أي لم أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل منهم وأعلم، أمره سبحانه للملائكة بهذا لقصد التبكيت لهم مع علمه بأنهم يعجزون عن ذلك ﴿قالوا﴾ يعني الملائكة ﴿سبحانك﴾ تنزيهاً لك وذلك لما ظهر عجزهم، وفيه إشعار بأن سؤا لهم كان استفساراً، ولم يكن اعتراضاً ﴿وسبحان﴾ مصدر لا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله كعاذ الله ﴿لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾ أي إنك أجل من أن نحيط بشيء من علمك إلا ما علمتنا ﴿إنك أنت العليم﴾ أي بخلقك، وهو من أسماء الصفات التامة وهو المحيط بكل المعلومات ﴿الحكيم﴾ أي في أمرك. وله معنيان ﴿أحدهما﴾ أنه القاضي العدل ﴿الثاني﴾ المحكم للأمر كي لا يتطرق إليه الفساد.

قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَذَكَّرُ
أُنْبِيَئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

﴿قال﴾ يعني الله تعالى ﴿يا آدم﴾ استدل به على أن آدم نبي متكلم
﴿أنبئهم بأسمائهم﴾ وذلك لما ظهر عجز الملائكة فسمى كل شيء باسمه وذكر
وجه الحكمة التي خلق لأجلها بأن قال لهم هذا الجرم يسمى القصة وحكمته
وضع الطعام فيه وهكذا ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ فيه دليل على مزية العلم،
وأنه شرط في الخلافة وفضل آدم على الملائكة، قال الإمام لما أراد الله إظهار
فضل آدم على الملائكة لم يظهره إلا بالعلم فلو كان في الإمكان شيء أشرف
من العلم كان إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم، ولذلك أمر الله تعالى
الملائكة بالسجود له لأجل فضيلة العلم.

قلت ويؤخذ من هذا استحباب القيام للعالم، وقال الطيبي أفادت هذه
الآية علم اللغة فوق التخلي بالعبادة فكيف علم الشريعة.

﴿قال﴾ يعني الله تعالى ﴿ألم أقل لكم﴾ يا ملائكتي ﴿أني أعلم غيب
السموات والأرض﴾ يعني ما كان وما سيكون، وذلك أنه سبحانه علم أحوال
آدم قبل أن يخلقه، وفي اختصاصه بعلم غيب السموات والأرض رد لما يتكلفه
كثير من العباد من الاطلاع على شيء من علم الغيب كالمنجمين والكهان،
وأهل الرمل والسحر والشعوذة ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ أي ما
تظهرون وما تسرون كما يفيد معنى ذلك عند العرب، ومن فسر به شيء خاص
فلا يقبل منه ذلك إلا بدليل.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾

﴿واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ قيل هذا خطاب مع ملائكة الارض والاصح انه خطاب مع جميع الملائكة وهو الظاهر من قوله ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ والسجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع، وغايته وضع الوجه على الأرض، والإسجاد إدامة النظر، وفي هذه الآية فضيلة لآدم عليه السلام عظيمة حيث أسجد الله له ملائكته وقيل ان السجود كان لله ولم يكن لآدم، وإنما كانوا مستقبلين له عند السجود، ولا ملجأ لهذا فان السجود للبشر قد يكون جائزاً في بعض الشرائع بحسب ما تقتضيه المصالح، وقد دلت هذه الآية على ان السجود لآدم وكذلك الآية الاخرى أعني قوله ﴿فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ وقال تعالى ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً﴾ فلا يستلزم تحريمه لغير الله في شريعة نبينا محمد ﷺ ان يكون كذلك في سائر الشرائع.

ومعنى السجود هنا وضع الجبهة على الارض واليه ذهب الجمهور، قال قوم هو مجرد التذلل والانقياد والاول اولى، وقد وقع الخلاف هل كان السجود من الملائكة لآدم قبل تعليمه الاسماء أم بعده؟ وقد أطلال البحث في ذلك البقاعي في تفسيره، وظاهر السياق أنه وقع التعليم وتعبه الامر بالسجود وتعبه اسكانه الجنة ثم إخراجهم منها واسكانه الارض.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة في تفضيل الأنبياء على الملائكة، وهذه القصة ذكرت في القرآن في سبع سور، في هذه السورة والاعراف والحجر والإسراء والكهف وطه وص، ولعل السر في تكريرها تسلياً رسول الله ﷺ فإنه كان في محنة عظيمة في قومه وأهل زمانه، فكأنه قال أو لا ترى أن أول الأنبياء وهو آدم كان في محنة عظيمة للخلق، ذكره الخطيب والظاهر أنه لإظهار شرف آدم وفضله على سائر الخلق حتى الملائكة، وليس في هذه القصة ما يدل على

محنة آدم.

﴿فسجدوا﴾ وكان السجود يوم الجمعة من وقت الزوال إلى العصر، قيل أول من سجد لآدم جبرائيل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم عزرائيل ثم الملائكة المقربون، والله أعلم ﴿إلا ابليس﴾ استثناء متصل، لأنه كان من الملائكة على ما قاله الجمهور، قال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين كان من الجن الذين كانوا في الأرض فيكون الاستثناء على هذا منقطعاً، واستدلوا على هذا بقوله تعالى ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ ويقول تعالى ﴿إلا ابليس كان من الجن﴾ والجن غير الملائكة^(١) وأجاب الأولون بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس عن جملة الملائكة لما سبق في علم الله من شقائه عدلاً منه ﴿لا يستل عما يفعل﴾ وليس في خلقه من نار ولا تركب الشهوة فيه حين غضب الله عليه ما يدفع أنه من الملائكة، وأيضاً على تسليم ذلك لا يمتنع أن يكون الاستثناء متصلاً تغليياً للملائكة الذين هم أئوف مؤلفة على إبليس الذي هو فرد واحد بين أظهرهم، وسمي به لأنه أبلس من رحمة الله أي يئس وكان اسمه عزازيل بالسريانية، وبالعربية الحرث، فلما عصى غير اسمه فسمي ابليس وغيّرت صورته.

قال ابن عباس كان ابليس من الملائكة بدليل أنه استثناء منهم، وقيل أنه من الجن وأنه أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس، والأول أصح لأن الخطاب كان مع الملائكة فهو داخل فيهم ثم استثناء منهم وعليه أكثر المفسرين كالبعثي والواحدي والقاضي، وقالوا المعنى كان من الجن فعلاً ومن الملائكة نوعاً أو لأن الملائكة قد يسمون جنّاً لاختفائهم.

﴿أبى﴾ امتنع من فعل ما أمر به من السجود فلم يسجد، فيه رد على

(١) إبليس كان من الجن، ولم يكن من الملائكة ولا طاوس الملائكة كما يزعمون، والأمر بالسجود كان موجهاً إلى الملائكة والجن، وإنما جاء القرآن بذكر الملائكة فقط اكتفاء بذكر الأشرف، وذلك كما تقول: سار خلف نعش الزعيم: الوزراء والأمراء والكبراء، مع أن هذا لا ينفي أنه سار خلفه طبقات العمال والفلاحين والتلاميذ.

الجبرية إذ لا يوصف بالإباء إلا من هو قادر على المطلوب ﴿واستكبر﴾ أي تعظم عن السجود لآدم والاستكبار والاستعظام للنفس، وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ «ان الكبر بطر الحق وغمط الناس» وفي رواية غمص الناس، وإنما قدم الإباء عليه وإن كان متأخراً عنه في الترتيب لأنه من الأفعال الظاهرة بخلاف الاستكبار فإنه من أفعال القلوب، واقتصر في سورة ص على ذكر الاستكبار، وفي سورة الحجر على ذكر الإباء ﴿وكان من الكافرين﴾ أي من جنسهم في علم الله تعالى، وإنما وجبت له النار لسابق علم الله تعالى بشقاوته، وقيل إن ﴿كان﴾ هنا بمعنى صار قال ابن فورك أنه خطأ ترده الأصول.

وأفادت الآية استقباح التكبر والخوض في سر الله تعالى، وإن الأمر للوجوب، وإن الذي علم الله من حاله أنه يتوفى على الكفر هو الكافر على الحقيقة إذ العبرة بالخواتيم وإن كان بحكم الحال مؤمناً، وهذه مسألة الموافقة المنسوبة إلى أبي الحسن الأشعري ومعناها أن العبرة بالإيمان الذي يوافي العبد عليه أي يأتي متصفاً به في آخر حياته وأول منازل آخرته، وحيث أطلقت مسألة الموافقة فالمراد بها ذلك، وهي مما اختلف فيها الشافعية والحنفية والماتريدية، وللسبكي فيها تأليف مستقل، ومن فروعها أنه يصح أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله، ويبتنى عليها مسألة الإحباط في الأعمال بالردة.

قال الخفاجي مسألة الموافقة من أمهات المسائل وفصلها النسفي في شرح التمهيد فقال ما حاصله أن الشافعي يقول أن الشقي شقي في بطن أمه وكذا السعيد فلا تبديل في ذلك ويظهر ذلك عند الموت ولقاء الله وهو معنى الموافقة والماتريدية يقولون يحو الله ما يشاء ويثبت فيصير السعيد شقياً والشقي سعيداً إلا أنهم يقولون من مات مسلماً مخلصاً في الجنة ومن مات كافراً مخلصاً في العذاب باتفاق الفريقين فلا ثمرة للخلاف أصلاً، إلا أن يقال إن من كان مسلماً وورث أباه المسلم إذا مات كافراً يرد ما أخذه إلى بقية الورثة المسلمين، وكذا الكافر وتبطل جميع أعماله، والمنقول في المذهب خلافه فحينئذ لا ثمرة له إلا أنه يصلح منه أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله بقصد التعليق في المستقبل حتى

وَقُلْنَا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ ءَادَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّاهُ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾

لا يكون شكا في الايمان حالاً، ولا حاجة لتأويله، والماتريدية يمنعون ذلك مطلقاً انتهى.

﴿وقلنا﴾ هو من خطاب الأكابر والعظماء أخبر سبحانه عن نفسه بصيغة الجمع لأنه ملك الملوك ﴿يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة﴾ أي اتخذ الجنة مأوى ومنزلاً ومسكناً وهو محل السكون، وأما ما قاله بعض المفسرين أن قوله ﴿أسكن﴾ تنبيه على الخروج لأن السكنى لا يكون ملكاً، وأخذ ذلك من قول جماعة من العلماء أن من أسكن رجلاً منزلاً له فإنه لا يملكه بذلك وإن له أن يخرج منه، فهو معنى عرفي، والواجب الأخذ بالمعنى العربي إذا لم يثبت في اللفظ حقيقة شرعية.

والزوج هي حواء بالمد وهي في اللغة الفصيحة بغير هاء وقد جاء بها قليلاً كما في صحيح مسلم قال يا فلان «هذه زوجتي فلانة» الحديث، وكان خلق حواء من ضلعه الأيسر فلذا كان كل إنسان ناقصاً ضلعاً من الجانب الأيسر، فجهة اليمين أضلاعها ثمانية عشر، وجهة اليسار أضلاعها سبعة عشر، وقصة خلقها مبسوبة في كتب السنة لا نطول بذكرها هنا فيه دلالة عن أن الجنة مخلوقة الآن.

واختلفوا في الجنة التي أمر آدم بسكنها فقليل إنها جنة كانت في الأرض، وقيل هي دار الجزاء والثواب، لأنها المعهودة، وقيل هي جنة بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان، خلقها الله امتحاناً لآدم، وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما في قوله تعالى ﴿اهبطوا مصرًا﴾ لما أن خلق آدم كان في الأرض بلا خلاف، ولم يذكر في هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى

بالذكر والتذكير، لما أنه من أعظم النعم، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس وقيل أنها كانت في السماء السابعة بدليل ﴿اهبطوا﴾ ثم أن الأهباط الأول كان منها إلى السماء الدنيا، والثاني منها إلى الأرض، وقيل الكل ممكن والأدلة النقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع، قاله أبو السعود.

قلت وقد استوعب الحافظ ابن القيم في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأقرح دلائل الفريقين من غير تصريح برجحان أحد القولين والله تعالى أعلم.

﴿وكلا منها﴾ أي اجمعا بين الإستقرار والأكل من رزق الجنة ﴿رغداً﴾ رغد العيش اتسع ولان أي رزقاً واسعاً ليناً، وأرغد القوم أخصبوا الرغيدة الزبد ﴿حيث شئتما﴾ أي في أي مكان من الجنة شئتما، وسع الأمر عليهما إزاحة للعلة والعذر في التناول من الشجرة المنهى عنها من بين أشجارها التي لا تنحصر ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ يعني للأكل، والقرب الدنو.

قال الأصمعي: والنهي عن القرب فيه سد للذريعة وقطع للوسيلة ولهذا جاء به عوضاً عن الأكل، ولا يخفى أن النهي عن القرب لا يستلزم النهي عن الأكل لأنه قد يأكل من ثمرة الشجرة من هو بعيد عنها إذا حمل إليه، فالأولى أن يقال المنع من الأكل مستفاد من المقام، والشجر ما كان له ساق من نبات الأرض وواحد شجرة.

واختلف أهل العلم في تعيين هذه الشجرة ف قيل هي الكرم وقيل هي السنبله قاله ابن عباس، وله عنه طريق صحيحة، وقيل التين، وقيل الخنطة، وقيل اللوز، وقيل النخلة، وقيل هي شجرة القلم، وقيل الكافور، وقيل الأترج، وقيل هي شبه البر وتسمى الدعة، وهذا مروى عن جماعة من الصحابة فمن بعدهم، وقيل عن جنس من الشجرة، وقيل ليس في ظاهر الكلام ما يدل على التبيين إذ لا حاجة إليه لأنه ليس المقصود تعرف عين تلك الشجرة وما لا يكون مقصوداً لا يجب بيانه.

﴿فتكونا من الظالمين﴾ يعني إن أكلتما من هذه الشجرة ظلمتما أنفسكما فمن جوز ارتكاب الذنوب على الأنبياء قال ظلم نفسه بالمعصية، والظلم أصله وضع الشيء في غير موضعه، ومن لم يجوز ذلك على الأنبياء حمل الظلم على أنه فعل ما كان الأولى أن لا يفعله، وكلام أهل العلم في عصمة الانبياء واختلاف مذاهبهم في ذلك مدون في مواطنه، وقد أطال البحث في ذلك الرازي في تفسيره في هذا الموضع فليرجع إليه فإنه مفيد.

﴿فأزلهما الشيطان﴾ أي استزل آدم وحواء ﴿عنها﴾ أي الجنة ودعاهما إلى الزلة وهي الخطيئة أي إستزلهما وأوقعهما فيها، وقيل من الإزالة وهي التنحية أي نحاهما وقيل من الزوال.

وقد اختلف أهل العلم في الكيفية التي فعلها الشيطان في إزلالهما فقيل أنه كان ذلك بمشافهة منه لهما واليه ذهب الجمهور، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾ والمقاسمة ظاهرها المشافهة، وقيل لم يصدر منه إلا مجرد الوسوسة، والمفاعلة ليست على بابها بل للمبالغة وقيل غير ذلك.

﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي صرفهما عما كانا عليه من الطاعة إلى المعصية، وقيل الضمير للجنة، وعلى هذا فالفعل مضمن معنى أبعدهما، وإنما نسب ذلك إلى الشيطان لانه هو الذي تولى اغواء آدم حتى أكل من الشجرة ﴿وقلنا اهبطوا﴾ أي انزلوا إلى الأرض، خطاب لآدم وحواء وخوطبا بما يخاطب به الجمع لان الاثنين أقل الجمع عند البعض من أئمة العربية، وقيل انه خطاب لهما ولابليس وللحية.

فهبط آدم بسرنديب من أرض الهند على جبل يقال له نود، وأهبطت حواء بجدة وابليس بالائلة من أعمال البصرة والحية باصبهان، وقيل خطاب

لها ولذريتهما لانهما لما كانا أصل هذا النوع الانساني جعلنا بمنزلته، ويدل على ذلك قوله (بعضكم لبعض عدو) فإن هذه الجملة الواقعة حالاً مبيناً للهيئة الثابتة للمأمورين بالهبط تفيد ذلك يعني العداوة التي بين المؤمنين من ذرية آدم وبين ابليس.

واليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ والعدو خلاف الصديق وهو من عدا اذا ظلم، والعدوان الظلم الصراح وقيل إنه مأخوذ من المجاوزة يقال عداه اذا جاوزه، والمعنيان متقاربان، فإن من ظلم فقد تجاوز.

قال ابن فارس العدو اسم جامع للواحد والاثنين والثلاثة، والعداوة التي بين ذرية آدم والحية هي ما روى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «من ترك الحيات مخافة طلبهن فليس منا، ما سلمانهن منذ حاربناهن» أخرجه أبو داود، وله عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «اقتلوا الحيات كلهن فمن خاف من ثارهن فليس مني» وفي رواية إلا الجان الأبيض «الذي كأنه قضيب فضة» وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إن بالمدينة جناً قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فأذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان» «وفي رواية» أن بهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم منها شيئاً فخرجوا عليه ثلاثاً فإن ذهب وإلا فاقتلوه فانه كافر».

﴿ولكم في الارض مستقر﴾ المراد بالمستقر موضع الإستقرار، ومنه ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ وقد يكون بمعنى الاستقرار، ومنه ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ فالآية محتملة للمعنيين ومثلها قوله ﴿جعل لكم الأرض قراراً﴾ ﴿ومتاع﴾ المتاع ما يستمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوها أي بلغة ومستمتع ﴿إلى حين﴾ أي إلى وقت انقضاء آجالكم.

واختلف المفسرون في قوله ﴿حين﴾ ف قيل إلى الموت وقيل إلى قيام الساعة، وأصل معنى الحين في اللغة الوقت البعيد، ومنه ﴿هل أتى على

الإنسان حين من الدهر ﴿والحين الساعة ومنه﴾ ﴿أو تقول حين ترى العذاب﴾
والحين القطعة من الدهر ومنه ﴿فذرهم في غمرتهم حتى حين﴾ أي حتى تفنى
آجالهم ويطلق على السنة وقيل على ستة أشهر، ومنه ﴿تؤق اكلها كل حين﴾
ويطلق على المساء والصباح ومنه ﴿حين تمسون وحين تصبحون﴾ قال ابن
العربي الحين المجهول لا يتعلق به حكم والحين المعلوم سنة.

﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ ومعنى التلقي أخذه لها وقبوله لما فيها
وعلمه بها وقيل فهمه لها وفطنته لما تضمنته^(١)، وأصل معنى التلقي الاستقبال أي
استقبل الكلمات الموحاة إليه، وقيل إن معنى تلقي تلقن، ولا وجه له في
العربية، واختلف السلف في تعيين هذه الكلمات فعن ابن عباس قال هي
قوله ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وعنه
قال علم شأن الحج وهي الكلمات، وعن عبد الله بن زيد قال لا إله إلا أنت
سبحانك وبحمدك عملت سوءاً، وظلمت نفسي فارحمي إنك أنت أرحم
الراحمين، وروي نحوه عن أنس وسعيد بن جبير ﴿فتاب عليه﴾ أي فتجاوز
عنه وغفر له، وأصل التوبة من تاب يتوب إذا رجع ﴿إنه هو التواب﴾ أي
الرجاع على عبادة بقبول التوبة ﴿الرحيم﴾ بخلقه.

(١) ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى. قال: ألم تسبق رحمتك إليّ
قبل غضبك؟ قال: بلى. قال: ألم تسجد لي ملائكتك وتسكني جنتك؟ قال: بلى. قال: أي رب
[أرأيت] ان تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم.

وفي رواية أنه قال: اللهم لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي،
إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمي،
فأنت خير الراحمين [اللهم] لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتاب علي.
إنك أنت التواب الرحيم.. رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ
بِعَهْدِكُمْ وَاتَّقُوا فَارْهَبُونَ ﴿٤٠﴾

﴿قُلْنَا اهبطوا منها جميعاً﴾ إما في زمان واحد أو في أزمنة متفرقة، لأن المراد الاشتراك في أصل الفعل، وهذا هو الفرق بين جاءوا جميعاً، وجاءوا معاً يعني هؤلاء الأربعة أو آدم وحواء وذريتهما، وكرر قوله اهبطوا للتوكيد والتغليظ، وقيل إنه لما تعلق به حكم غير الحكم الأول كرهه، ولا تراحم بين المقتضيات، فقد يكون التكرير للأمرين معاً أخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، وعنه ما غابت الشمس من ذلك اليوم حتى اهبط من الجنة، وعن الحسن قال لبث آدم في الجنة ساعة من نهار. تلك الساعة مائة وثلاثون سنة من أيام الدنيا.

وأخرج البخاري والحاكم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم»^(١)، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها»، وقد ثبت أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما في محاجة آدم وموسى عليهما السلام، وحج موسى بقوله أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال أول ما اهبط الله آدم إلى أرض الهند وعنه إلى أرض بين مكة والطائف، وعن علي أطيب ريح الأرض الهند

هبط بها آدم فعلق شجرها من ريح الجنة، وقد روي عن جماعة من الصحابة أن آدم أهبط إلى أرض الهند، منهم جابر وابن عمر وعلي، وقد روي عن جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم حكايات في صفة هبوط آدم من الجنة وما أهبط معه وما صنع عند وصوله إلى الأرض، ولا حاجة لنا ببسط جميع ذلك، وقد ذكر طرفاً منها الحافظ ابن القيم في الحادي.

﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي رشد وبيان وشريعة، وقيل كتاب ورسول، وقيل التوفيق للهداية ﴿فمن تبع هداي فلا خوف عليهم﴾ فيما يستقبلهم، وقيل عند الفرع الأكبر ﴿ولا هم يحزنون﴾ أي على ما خلفوا وفاتهم من الدنيا، وقال ابن جبير لا خوف عليهم في الآخرة ولا يحزنون للموت، والخوف هو الذعر، ولا يكون إلا في المستقبل، والحزن ضد السرور، قال اليزيدي حزنه لغة قریش وأحزنه لغة تميم.

﴿والذين كفروا﴾ أي جحدوا عطف على ﴿فمن تبع﴾ قسيم له ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ أي بالقرآن ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي يوم القيامة وصحبة أهل النار لها بمعنى الاقتران والملازمة ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها ولا يموتون فيها، وبقي قسم ثالث وهو من آمن ولم يعمل الطاعات فليس داخلاً في الآيتين، وقد تقدم تفسير الخلود.

﴿يا بني إسرائيل﴾ اتفق المفسرون على أن إسرائيل هو يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله، لأن إسر في لغتهم هو العبد، وإيل هو الله، وكذلك جبريل هو عبد الله وميكائيل عبد الله، قال القفال إن إسر بالعبرانية في معنى إنسان فكأنه قيل رجل الله، وقيل معناه صفوة الله، والأول أولى، والمعنى يا أولاد يعقوب.

والخطاب مع جماعة اليهود الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب في أيام محمد ﷺ، قيل أن له إسمين. وقيل أن إسرائيل لقب له وهو اسم أعجمي غير منصرف، وقد تصرف في العرب بلغات كثيرة أفصحها لغة القرآن وهي

قراءة الجمهور، استدل به على دخول أولاد الأولاد في الوقف على الأولاد. ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي اشكروا، وإنما عبر عنه بالذكر لأن من ذكر النعمة فقد شكرها، ومن جحدتها فقد كفرها: والذكر بالكسر هو ضد الإنصات، وبالضم ضد النسيان، وجعله بعض أهل العلم مشتركاً بين ذكر القلب واللسان، وقال الكسائي ما كان بالقلب فهو مضموم الذال، وما كان باللسان فهو مكسور الذال.

قال ابن الأنباري: والمعنى في الآية اذكر واشكر نعمتي فحذف الشكر اكتفاء بذكر النعمة وهي اسم جنس، وحدها أنها المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، وقيل المنفعة الحسنة والأول أولى، والكلام على قيود هذا الحد وضروب النعمة مستوفى في تفسير الرازي فليراجعه.

والنعم المخصوصة ببني إسرائيل كثيرة من جملتها أنه جعل منهم أنبياء وأنزل عليهم الكتاب والمن والسلوى، وأخرج لهم الماء من الحجر ونجاهم من آل فرعون وفلق لهم البحر وأغرق فرعون وظللهم بالغمام وغير ذلك من نعم كثيرة، وقيل إن هذه النعمة هي إدراك المخاطبين بها زمن محمد صلى الله عليه وسلم والأول أولى قال ابن الفارس فيه دليل على أن الله على الكفار نعمة خلافاً لمن قال لا نعمة لله عليهم، وإنما النعمة للمؤمنين.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ أي امثلوا أمري، يقال أوفى ووفى مشدداً، ووفى مخففاً ثلاث لغات بمعنى واحد وقيل يقال وفيت ووفيت بالعهد وأوفيت بالكيل لا غير، واختلف أهل العلم في العهد المذكور في هذه الآية ما هو فقيل هو المذكور في قوله تعالى ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ وقيل هو ما في قوله ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً﴾ وقيل هو قوله ﴿ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس﴾ وقيل أن المراد من هذا العهد ما أثبتته في الكتب المتقدمة من وصف محمد ﷺ وإنه سيبعثه على ما صرح بذلك في سورة المائدة بقوله ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ إلى قوله ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ وقال في سورة الأعراف

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾.

وأما عهد الله معهم فهو أن ينجز لهم ما وعدهم من وضع ما كان عليهم من الإصر والاعلال التي كانت في أعناقهم، وقال ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق﴾ الآية وقال ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله اليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وقال ابن عباس إن الله تعالى كان عهد إلى بني إسرائيل في التوراة إني باعث من بني اسماعيل نبياً أمياً فمن تبعه وصدق بالنور الذي يأتي به أي بالقرآن غفرت له ذنبه وأدخلته الجنة، وجعلت له أجرين، أجراً باتباع ما جاء به موسى وجاءت به سائر أنبياء بني إسرائيل، وأجراً باتباع ما جاء به محمد النبي الأمي من ولد اسماعيل، وتصديق هذا في القرآن في قوله تعالى ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ إلى قوله ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾.

وكان علي بن عيسى يقول تصديق ذلك في قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته﴾ وتصديقه أيضاً فيما روى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال ﴿ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بعيسى ثم آمن بمحمد ﷺ فله أجران ، ورجل أدب أمتة فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ورجل أطاع الله وأطاع سيده فله أجران﴾.

ولنذكر الآن بعض ما جاء في كتب الأنبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد ﷺ.

فالأول: جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة إن هاجر لما غضبت عليها سارة تراءى لها ملك الله فقال لها يا هاجر أين تريدين ومن أين أقبلت، قالت أهرب من سيدتي سارة فقال لها ارجعي إلى سيدتك واخفزي لها فإن

الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلددين ابناً وتسميه إسماعيل من أجل أن الله سمع تبتلك وخشوعك، وهو يكون عين الناس، وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة اليه بالخضوع وهو يشكر على رغم جميع إخوته.

وأعلم أن الاستدلال بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله بالظلم والجور، وبأمر لا يتم إلا بالكذب على الله تعالى، ومعلوم أن إسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين في الكل أعني في معظم الدنيا ومعظم الأمم، ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل الإستيلاء إلا بالإسلام لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام إلا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الشرق والغرب بالإسلام ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة.

فلو لم يكن النبي ﷺ صادقاً لكانت هذه المخالطة منهم للأمم ومن الأمم لهم معصية لله تعالى وخروجاً عن طاعته إلى طاعة الشيطان، والله يتعالى عن أن يبشر بما هذا سبيله.

والثاني: جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: أن الرب إلهكم يقيم لكم نبياً مثلي من بينكم ومن إخوانكم، وفي هذا الفصل أن الرب تعالى قال لموسى إني مقيم لهم نبياً مثلك من بين إخوانهم وأما رجل لم يسمع كلماتي التي يؤديها عني ذلك الرجل باسمي أنا أنتقم منه.

وهذا الكلام يدل على أن النبي الذي يقيمه الله تعالى ليس من بني إسرائيل كما أن من قال لبني هاشم أنه سيكون من إخوانكم إمام، عقل منه أنه لا يكون من بني هاشم، ثم أن يعقوب عليه السلام هو إسرائيل ولم يكن له أخ إلا العيص، ولم يكن للعيص ولد من الأنبياء سوى أيوب، وأنه كان قبل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يكون موسى عليه السلام مبشراً به، وأما إسماعيل فإنه كان أخاً لإسحاق والد يعقوب، ثم أن كل نبي بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل، فالنبي عليه السلام ما كان منهم، لكنه كان من

إخوانهم لأنه من ولد إسماعيل الذي هو أخو إسحاق عليهم السلام. فإن قيل قوله «من بينكم» يمنع من أن يكون المراد محمداً ﷺ، لأنه لم يقم من بين بني إسرائيل.

قلنا بل قد قام من بينهم لأنه عليه السلام ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كانوا كخير وبني قينقاع والنضير وغيرهم، وأيضاً فإن الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشام، فإذا قام محمد ﷺ بالحجاز فقد قام من بينهم وأيضاً فإنه إذا كان من اخوانهم فقد قام من بينهم فإنه ليس ببعيد منهم.

والثالث: قال في الفصل العشرين من هذا السفر: أن الرب تعالى جاء في طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصف عن يمينه عنوات القديسين فمنحهم العز وحببهم إلى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة. وجه الاستدلال أن جبل فاران وهو بالحجاز لأن في التوراة أن اسماعيل تعلم الرمي في برية فاران ومعلوم أنه إنما سكن بمكة.

إذا ثبت هذا فنقول إن قوله «فمنحهم العز» لا يجوز أن يكون المراد اسماعيل عليه السلام لأنه لم يحصل عقيب سكنى اسماعيل عليه السلام هناك عز ولا اجتمع هناك ربوات القديسين، فوجب حمله على محمد ﷺ، قالت اليهود المراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضاً ومن جبل فاران أيضاً فانتشرت في هذه المواضع.

قلنا هذا لا يصح لأن الله تعالى لو خلق ناراً في موضع فإنه لا يقال جاء الله في ذلك الموضع إلا إذا تبع تلك الواقعة وحي نزل في ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك، وعندكم أنه لم يتبع ظهور النار وحي ولا كلام إلا من طور سيناء، فما كان ينبغي إلا أن يقال جاء الله من طور سيناء، فأما أن يقال ظهر من ساعير ومن جبل فاران فلا يجوز وروده كما لا يقال جاء الله من الغمام إذا ظهر في الغمام احتراق ونيران كما يتفق ذلك في أيام الربيع.

وأيضاً ففي كتاب حقوق بيان ما قلنا وهو جاء الله من طور سيناء والقدس من جبل فاران لو انكشفت السماء من بهاء محمد وامتألت الأرض من حمده يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزه تسير المنايا أمامه، ويصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الأرض وتأمل الامم وبحث عنها فتضعضت الجبال القديمة واتضعت الروابي الدهروية وتزعزعت ستور أهل مدين، ركبت الخيول وعلوت مراكب الانقياد والغوث وستنزع في قسيك اغراقاً ونزعاً وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء وتخور الأرض بالأنهار، ولقد رأيتك الجبال فارتاعت وانحرف عنك شؤبوب السيل، ونفرت المهاري نفيراً ورعباً ورفعت أيديها وجللاً وفرقاً وتوقفت الشمس والقمر عن مجراهما، وسارت العساكر في برق سهامك ولمعان بيانك تدوخ الأرض غضباً، وتدوس الامم زجراً لأنك ظهرت بخلاص أمتك، وانقاذ تراب ابائك، هكذا نقل عن ابن رزين الطبري.

أما النصارى فقال أبو الحسين رحمه الله تعالى في كتاب الغرر قد رأيت في نقولهم «وظهر من جبال فاران لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود وترتوي السهام بأمرك المحمود لأنك ظهرت بخلاص أمتك وانقاذ مسيحك». فظهر بما ذكرنا أن قوله تعالى في التوراة ظهر الرب من جبال فاران، ليس معناه ظهور النار منه بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات، وما ذاك إلا رسولنا محمد ﷺ.

فإن قالوا المراد مجيء الله تعالى، ولهذا قال في آخر الكلام: وانقاذ مسيحك.

قلنا لا يجوز وصف الله تعالى بأنه يركب الخيول وبأن شعاع منظره مثل النور، وبأنه جاز المشاعر القديمة، وأما قوله: وانقاذ مسيحك فإن محمداً عليه السلام أنقذ المسيح من كذب اليهود والنصارى.

والرابع: ما جاء في كتاب شعيا في الفصل الثاني والعشرين منه «قومي

فازهري مصباحك، يريد مكة فقد دنا وقتك وكرامة الله تعالى طالعة عليك، فقد تجلج الأرض الظلام وغطى على الأمم الضباب، والرب يشرق عليك إشراقاً، ويظهر كرامته عليك، تسير الأمم إلى نورك والملوك إلى ضوء طلوعك، وارفعي بصرك إلى ما حولك، وتأملي فإنهم مستجمعون عندك ويحجونك ويأتيتك ولدك من بعيد لأنك أم القرى، فأولاد سائر البلاد كأنهم أولاد مكة وتزين ثيابك على الأرائك والسرر حين ترين ذلك تسرين وتبتهجين من أجل أنه يميل إليك ذخائر البحر، ويحج إليك عساكر الأمم، ويساق إليك كباش مدين، ويأتيتك أهل سبأ ويتحدثون بنعم الله ويمجدونه وتسير إليك أغنام فاران، ويرفع إلى مذبحي ما يرضيني وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمداً.

فوجه الاستدلال أن هذه الصفات كلها موجودة لمكة فإنه قد حج إليها عساكر الأمم ومال إليها ذخائر البحر، وقوله أحدث لبيت محمدتي حمداً، معناه أن العرب كانت تلي قبل الإسلام فتقول لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك، ثم صار في الإسلام: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك، فهذا هو الحمد الذي جدده الله لبيت محمدته.

فإن قيل المراد بذلك بيت المقدس وسيكون ذلك فيما بعد.

قلنا لا يجوز أن يقول الحكيم قد دنا وقتك مع أنه ما دنا بل الذي دنا أمر لا يوافق رضاه ومع ذلك لا يحذر منه.

وأيضاً فإن كتاب شعيا مملوء من ذكر البادية وصفتها وذلك يبطل قولهم.

الخامس: روى السمان في تفسيره في السفر الأول من التوراة أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام قال قد أجبت دعائك في اسماعيل، وباركت عليه فكبرته وعظمته جداً جداً، وسيلد اثني عشر عظيماً وأجعله لأمة عظيمة.

والاستدلال به أنه لم يكن في ولد اسماعيل من كان لأمة عظيمة غير نبينا محمد ﷺ فأما دعاء إبراهيم عليه السلام واسماعيل فكان لرسولنا عليه الصلاة والسلام لما فرغا من بناء الكعبة وهو قوله ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو

عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿١﴾ ولهذا كان يقول عليه الصلاة والسلام «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى» وهو قوله ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، فإنه مشتق من الحمد، والاسم المشتق من الحمد ليس الا لبنينا، فإن اسمه محمد وأحمد ومحمود، وقيل أن صفته في التوراة ان مولده بمكة ومسكنه بطيبة وملكه بالشام وأمه الحمادون^(١).

والسادس: قال المسيح للحواريين أنا أذهب وسيأتيكم الفارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه، انما يقول كما يقال له، وتصديق ذلك ﴿إن أتبع الا ما يوحى الي﴾ وقوله ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع إلا ما يوحى إلي﴾ أما الفارقليط ففي تفسيره وجهان ﴿أحدهما﴾ أنه الشافع المشفع، وهذا أيضاً صفته عليه الصلاة والسلام ﴿الثاني﴾ قال بعض النصارى الفارقليط هو الذي يفرق بين الحق والباطل، وكان في الأصل فاروق، كما يقال راووق للذي يروق به، وأما ليط فهو التحقيق في الأمر كما يقال شيب أشيب ذو شيب، وهذا أيضاً صفة شرعنا لأنه هو الذي يفرق بين الحق والباطل.

والسابع: قال دانيال لبخت نصر حين سأله عن الرؤيا التي كان رآها من غير أن قصها عليه رأيت أيها الملك منظراً هائلاً رأسه من الذهب الإبريز وساعده من الفضة وبطنه وفخذه من نحاس وساقاه من حديد وبعض رجليه من حديد وبعضها من خزف، ورأيت حجراً يقطع من غير قاطع، وصلك

(١) عن جابر بن عبد الله ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عرض علي الأنبياء، فإذا موسى عليه السلام ضرب من الرجال كأنه من رجال شنوءة (قبيلة من اليمن)، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام فإذا اقرب من رأيت به شهباً عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم عليه السلام فإذا اقرب من رأيت به شهباً صاحبكم (يعني نفسه) ورأيت جبريل عليه السلام فإذا اقرب من رأيت به شهباً - دحية.

رجل ذلك الصنم ودقها دقاً شديداً فتفتت الصنم كله حديده ونحاسه وفضته وزهبه وصارت رفاتاً، وعصفت بها الرياح فلم يوجد لها أثر، وصار ذلك الحجر الذي صك ذلك الرجل من ذلك الصنم جبلاً عالياً امتلأت به الأرض، فهذا رؤياك أيها الملك.

وأما تفسيرها فأنت الرأس الذي رأيته من الذهب ويقوم بعدك مملكة أخرى دونك والمملكة الثالثة التي تشبه النحاس تنبسط على الأرض كلها، والمملكة الرابعة تكون قوتها مثل الحديد، وأما الرجل التي كان بعضها من حديد وبعضها من خزف، فإن بعض المملكة يكون عزيزاً وبعضها يكون ذليلاً، وتكون كلمة الملك متفرقة ويقيم إله السماء في تلك الأيام مملكة أبدية لا تتغير ولا تزول. وأنها تزيل جميع الممالك، وسلطانها يبطل جميع السلاطين، وتقوم هي إلى الدهر، فهذا تفسير الحجر الذي رأيت أنه يقطع من جبل بلا قاطع حتى دق الحديد والنحاس والخزف، والله أعلم بما يكون في آخر الزمان.

فهذه هي البشارات الواردة في الكتب المتقدمة بمبعث رسولنا محمد ﷺ ذكره الرازي، وقال الزجاج المراد بالعهد ما أخذ عليهم في التوراة من اتباع محمد ﷺ، وقيل هو أداء الفرائض، وقيل أراد جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكليف دون بعض، ولا مانع من حمله على جميع ذلك.

﴿أوف بعهدكم﴾ أي بما ضمنت لكم من الجزاء، وقيل بالقبول والثواب عليه بدخول الجنة ﴿وإياي فارهبون﴾ أي فخافون في نقضكم العهد، والرهب والرهبنة الخوف، ويتضمن الأمر به معنى التهديد، وتقديم معمول الفعل يفيد الاختصاص، قال صاحب الكشاف وهو أكد في إفادة التخصيص من ﴿إياك نعبد﴾ والفاء جواب أمر مقدر أي تنبهوا فارهبون، أو زائدة وسقطت الياء من قوله فارهبون لأنه رأس آية.

وَأَمِنُوا بِمَا آنَزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا
 قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا لِلْحَقِّ وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

﴿وَأَمِنُوا بِمَا آنَزَلْتُ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي لما في التوراة
 من التوحيد والنبوة والأخبار ونعت النبي ﷺ ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ المراد
 أهل الكتاب لأنهم العارفون بما يجب للأنبياء وما يلزم من التصديق، أي لا
 تكونوا يا معشر اليهود أول كافر بهذا النبي ﷺ مع كونكم قد وجدتموه مكتوباً
 عندكم في التوراة والإنجيل، مبشراً به في الكتب المنزلة عليكم.

وقد حكى الرازي في تفسيره في هذا الموضع ما وقف عليه من البشارات
 برسول الله ﷺ في الكتب السابقة، وقيل الضمير في «به» عائد إلى القرآن
 المدلول عليه بقوله «بما أنزلت» وقيل عائد إلى التوراة المدلول عليها بقوله لما
 معكم، والخطاب لجماعة، والكافر لفظه واحد وهو في معنى الجمع أي أول
 الكفار أو أول فريق كافر، ومفهوم الصفة غير مراد هنا فلا يرد أن المعنى بل
 آخر كافر، وإنما ذكرت الأولية لأنها أفحش لما فيها من الابتداء بالكفر، بل
 يجب أن تكونوا أول فريق مؤمن به لأنكم أهل نظر في معجزاته والعلم بشأنه
 وصفاته.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تستبدلوا ببيان صفة محمد ﷺ التي
 في التوراة عوضاً يسيراً من الدنيا لأن الدنيا بالنسبة إلى الآخرة كالشيء اليسير
 الحقير الذي لا قيمة له والذي كانوا يأخذونه من الدنيا كالشيء اليسير بالنسبة
 إلى جميعها فهو قليل القليل، وهذه الآية وإن كانت خطاباً لبني إسرائيل ونهياً
 لهم، فهي متناولة لهذه الأمة بفحوى الخطاب أو بلحنه، فمن أخذ من
 المسلمين رشوة على إبطال حق أمر الله به أو إثبات باطل نهى الله عنه، أو

امتنع من تعليم ما علمه الله وكنتم البيان الذي أخذ الله عليه ميثاقه به فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ﴿وإياي فاتقون﴾ بالإيمان واتباع الحق والإعراض عن حطام الدنيا.

ولما كانت الآية السابقة مشتملة على ما هو كالمبادئ لما في الآية الثانية فصلت بالرهبة التي هي من مقدمات التقوى، أو لأن الخطاب بها لما عم العالم والمقلد أمر فيها بالرهبة المتناولة للفريقين، وأما الخطاب بالثانية فحيث خص بالعلماء أمر فيها بالتقوى الذي هو المنتهى وباقي الكلام فيه كالكلام في قوله ﴿وإياي فارهبون﴾ وقد تقدم قريباً.

﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ أي ولا تكتبوا في التوراة ما ليس فيها فيختلط الحق المنزل بالباطل الذي كتبتم، وقيل لا تخلطوا الحق من صفة محمد ﷺ بالباطل من تغيير صفته، واللبس الخلط، وقيل هو مأخوذ من التغطية أي لا تغطوا الحق بالباطل، والأول أولى، والباء للإلصاق على الأول وقيل للاستعانة واستبعده أبو حيان، وقال فيه صرف عن الظاهر من غير ضرورة، قال السمين ولا أدري ما هذا الاستبعاد مع وضوح هذا المعنى الحسن، والباطل في كلام العرب الزائل، والباطل الشيطان والمراد به هنا خلاف الحق والمراد النهي عن كنتم حجج الله التي أوجب عليهم تبليغها وأخذ عليهم بيانها، ومن فسر اللبس أو الكتمان بشيء معين ومعنى خاص كما تقدم فلم يصب إن أراد أن ذلك هو المراد دون غيره لا إن أراد أنه مما يصدق عليه.

﴿وتكنتموا الحق﴾ لما فيه من الضرر والفساد، وفيه أن العالم بالحق يجب عليه إظهاره ويحرم عليه كتمانها، وفيه تنبه لسائر الخلق وتحذير من مثله فصار هذا الخطاب وإن كان خاصاً في الصورة عاماً في المعنى، فعلى كل أحد أن لا يلبس الحق بالباطل ولا يكتنم الحق ﴿وأنتم تعلمون﴾ فيه أن كفرهم كفر عناد لا كفر جهل، وذلك أغلظ للذنب وأوجب للعقوبة، وهذا التقييد لا يفيد جواز اللبس والكتمان مع الجهل لأن الجاهل يجب عليه أن لا يقدم على شيء

حتى يعلم بحكمه خصوصاً في أمور الدين، فإن التكلم فيها والتصديق للإصدار والإيراد في أبوابها إنما أذن الله به لمن كان رأساً في العلم فرداً في الفهم، وما للجهال والدخول فيما ليس من شأنهم، والقعود في غير مقاعدهم.

وأعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة، بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهى عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه، وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف. فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الأنصاف، ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه، حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه ومن تأخره.

وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال ينزل مفرقاً على حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ نزل الوحي على رسول الله ﷺ إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وكل عاقل فضلاً عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية لنزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحریم أمر كان حلالاً وتحليل أمر كان حراماً، وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحيناً في عبادة، وحيناً في معاملة، ووقتاً في ترغيب، ووقتاً في ترهيب، وآونة في بشارة وآونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا، وطوراً في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية، ومرة في أقاصيص ماضية.

وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف، ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الإئتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتبار نفسه مختلف باختلافها فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون، والماء والنار،

والملاح والحادي، وهل هذا إلا من فتح أبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض، أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور، فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة؛ وتبين الأمر الموجب للإرتباط؛ فإن وجد الاختلاف بين الآيات رجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك فوجده تكلفاً محضاً وتعسفاً بيناً، انقذ في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة.

هذا على فرض أن نزول القرآن كان مترتباً على هذا الترتيب الكائن في المصحف، فكيف وكل من له أدنى علم بالكتاب وأيسر حظ من معرفته، يعلم علماً يقيناً أنه لم يكن كذلك، ومن شك في هذا وإن لم يكن مما يشك فيه أهل العلم، رجع إلى كلام أهل العلم العارفين بأسباب النزول المطلعين على حوادث النبوة فإنه يثلج صدره ويزول عنه الريب بالنظر في سورة من السور المتوسطة فضلاً عن المطولة فإنه لا محالة يجدها مشتملة على آيات نزلت في حوادث مختلفة، وأوقات متباينة، لا مطابقة بين أسبابها وما نزل فيها في الترتيب، بل يكفي المقصر أن يعلم أن أول ما نزل ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ وبعده ﴿يا أيها المدثر، يا أيها المزمل﴾ وينظر أين موضع هذه الآيات والسور في ترتيب المصحف.

وإذا كان الأمر هكذا فأي معنى لطلب المناسبة بين آيات نعلم قطعاً أنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً، وتأخر ما أنزله الله متقدماً، فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة. وما أقل نفع مثل هذا وأنزر ثمرته، وأحقر فائدته، بل هو عند من يفهم ما يقول وما يقال له من تضييع الأوقات وانفاق الساعات في أمر لا يعود بنفع على فاعله، ولا على من يقف عليه من الناس.

وأنت تعلم أنه لو تصدى رجل من أهل العلم للمناسبة بين ما قاله

رجل من البلغاء من خطبه ورسائله وإنشأته، أو إلى ما قاله شاعر من الشعراء من القصائد التي تكون تارة مدحاً وأخرى هجاءً وحيناً تشبيهاً وحيناً رثاءً وغير ذلك من الأنواع المتخالفة فعمد هذا المتصدي إلى ذلك المجموع فناسب بين فقره ومقاطعه، ثم تكلف تكلفاً آخر فناسب بين الخطبة التي خطبها في الجهاد والخطبة التي خطبها في الحج والخطبة التي خطبها في النكاح، ونحو ذلك وناسب بين الإنشاء الكائن في العزاء والإنشاء الكائن في الهناء وما يشابه ذلك لعد هذا المتصدي لمثل هذا مصاباً في عقله، متلاعباً بأوقاته، عابثاً بعمره الذي هو رأس ماله.

وإذا كان مثل هذا بهذه المنزلة وهو ركوب الأحموقة في كلام البشر، فكيف تراه يكون في كلام الله سبحانه الذي أعجزت بلاغته بلغاء العرب، وأبكمت فصاحته فصحاء عدنان وقحطان، وقد علم كل مقصر وكامل أن الله سبحانه وصف هذا القرآن بأنه عربي، وأنزله بلغة العرب، وسلك فيه مسالكهم في الكلام، وجرى فيه مجاريهم في الخطاب، وقد علمنا أن خطيبهم كان يقوم المقام الواحد فيأتي بفنون مختلفة وطرائق متباينة فضلاً عن المقامين فضلاً عن المقامات، فضلاً عن جميع ما قاله ما دام حياً، وكذلك شاعرهم.

ولنكتف بهذا التنبيه على هذه المفسدة التي يعثر في ساحاتها كثير من المحققين، وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم عليه السلام، فإذا قال متكلف كيف ناسب هذا ما قبله قلنا لا كيف:

فدع عنك نهياً صريحاً في حجراته وهات حديثاً ما حديث الرواحل

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ
وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ المراد هنا الصلاة المعهودة وهي صلاة المسلمين، يعني الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها وجميع أركانها، على أن التعريف للعهد، ويجوز أن يكون للجنس ومثلها الزكاة، والإيتاء الإعطاء، والزكاة مأخوذة من الزكاء وهو النماء، وسمي إخراج جزء من المال زكاة أي زيادة مع أنه نقص منه لأنها تكثر بركته أو يكثر أجر صاحبه، وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال زكى فلان أي طهر.

والظاهر أن الصلاة والزكاة والحج والصوم ونحوها قد نقلها الشرع إلى معان شرعية، هي المرادة بما هو مذكوره في الكتاب والسنة منها، وقد تكلم أهل العلم على ذلك بما لا يتسع المقام لبسطه، وقد اختلف أهل العلم في المراد بالزكاة هنا فقليل المفروضة لاقترانها بالصلاة، وقيل صدقة الفطر، والظاهر أن المراد ما هو أعم من ذلك.

﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي صلوا مع المصلين يعني محمداً ﷺ، والركوع في اللغة الانحناء وكل منحن راع، ويستعار الركوع أيضاً للانحناء في المنزلة، وإنما خص الركوع بالذكر هنا لأن اليهود لا ركوع في صلاتهم، وقيل لكونه كان ثقیلاً على أهل الجاهلية، وقيل أنه أراد بالركوع جميع أركان الصلاة، والركوع الشرعي هو أن ينحني الرجل ويمد ظهره وعنقه، ويفتح أصابع يديه ويقبض بها على ركبتيه ثم يطمئن راعياً ذاكراً بالذكر المشروع.

وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما ما هو معروف.

وفي الآية حث على إقامة الصلاة في الجماعة وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم على خلاف بينهم في كون ذلك عيناً أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أنه سنة مؤكدة مرغّب فيها وليس بواجب وهو الحق للأحاديث الصحيحة الثابتة عن جماعة من الصحابة من أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة أو سبع وعشرين درجة، وثبت في الصحيح عنه ﷺ الذي يصلي مع الإمام أفضل من الذي يصلي وحده ثم ينام، والبحث طويل الذيول كثير النقول، استوفاه الشوكاني رحمه الله تعالى في شرحه للمنتقى.

﴿تأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ الهزمة للاستفهام مع التوبيخ للمخاطبين، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر فإنه فعل حسن مندوب إليه، بل سبب ترك فعل البر المستفاد من قوله ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تتركونها فلا تأْمُرُونَهَا به مع تزكية النفس والقيام في مقام دعاة الخلق إلى الحق إيهاماً للناس وتليساً عليهم، نزلت في علماء اليهود، والبر: الطاعة والعمل الصالح وسعة الخير والمعروف والصدق.

فالبر: اسم جامع لجميع أعمال الخير والطاعات، والنسيان هو هنا بمعنى الترك، وفي الأصل خلاف الذكر والحفظ أي زوال الصورة التي كانت محفوظة عن المدركة والحافظة، وإنما عبر عن الترك بالنسيان لأن نسيان الشيء يلزمه تركه فهو من استعمال الملزوم في اللازم أو السبب في المسبب، وسر هذا التجوز الإشارة إلى أن ترك ما ذكر لا ينبغي أن يصدر عن العاقل إلا نسياناً، والنفس: الروح، ومنه قوله تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يريد الأرواح والنفس الجسد، والمعنى وتعطلون عما لها فيه نفع.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ جملة حالية مشتملة على أعظم تقرير وأشد توبيخ وأبلغ تبكيت، أي كيف تتركون البر الذي تأْمُرُونَ النَّاسَ به وأنتم من أهل العلم العارفين بقبح هذا الفعل، وشدة الوعيد عليه كما ترونه في الكتاب

الذي تتلونه وتدرسونه، والآيات التي تقرؤونها من التوراة، والتلاوة: القراءة وهي المراد هنا وأصلها الاتباع.

﴿أفلا تعقلون﴾ استفهام للإنكار عليهم والتقريع لهم، وهو أشد من الأول وأشد، ولشد ما قرع الله في هذا الموضع من يأمر بالخير ولا يفعله من العلماء الذين هم غير عاملين بالعلم، فاستنكر عليهم أولاً أمرهم للناس بالبر مع نسيان أنفسهم من ذلك الأمر الذي قاموا به في الجامع، ونادوا به في المجالس إيهاماً للناس بأنهم مبلغون عن الله ما تحملوه من حججه، ومبينون لعباده ما أمرهم ببيانه وموصلون إلى خلقه ما استودعهم واثمنهم عليه، وهم اترك الناس لذلك وأبعدهم من نفعه وأزهدهم فيه.

ثم ربط هذه الجملة بجملة أخرى جعلها مبينة لحالهم وكاشفة لعوارهم وهاتكة لأستارهم، وهي أنهم فعلوا هذه الفعلة الشنيعة، والخصلة الفظيعة، على علم منهم ومعرفة بالكتاب الذي أنزل عليهم وملازمة لتلاوته وهم في ذلك كما قال المعري:

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد لا حب التلاوات

ثم انتقل معهم من تقريع إلى تقريع، ومن توبيخ إلى توبيخ، فقال أنكم لو لم تكونوا من أهل العلم وحملة الحجة وأهل الدراسة لكتب الله لكان مجرد كونكم ممن يعقل حائلاً بينكم وبين ذلك ذائداً لكم عنه، زاجراً لكم منه، فكيف أهملتم ما يقتضيه العقل بعد إهمالكم لما يوجبه العلم؟ والعقل في أصل اللغة المنع ومنع عقال البعير لأنه يمنع عن الحركة ومنه العقل في الدية لأنه يمنع الولي عن قتل الجاني، والعقل نقيض الجهل.

ويصح تفسير ما في الآية هنا بما هو أصل معنى العقل عند أهل اللغة أي أفلا تمنعون أنفسكم من مواقة هذه الحال المزرية، ويصح أن يكون معنى الآية أفلا تنظرون بعقولكم التي رزقكم الله إياها حيث لم تنتفعوا بما لديكم من

العلم، والعقل قوة تهىء قبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة العقل.

وأخرج أحمد وابن أبي شبة وعبد بن حميد والبخاري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ رأيت ليلة أسرى بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل من هؤلاء قال هؤلاء خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون.

وثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان مالك؟ ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية.

وفي الباب أحاديث معناها أن يطلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم بم دخلتم النار، وإنما دخلنا الجنة بتعليمكم، قالوا إنا كنا نأمركم ولا نفعل، وأخرج الطبراني والخطيب في الاقتضاء والأصبهاني في الترغيب بسند جيد عن جندب بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه»^(١).

(١) صحيح الجامع الصغير/ ٥٧٠٧ برواية «وينسى نفسه».

وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
 مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَبْنِي إِسْرَاءُ يَلْ أَدْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
 فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ
 وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ قيل إن المخاطبين بهذا هم المؤمنون وقيل اليهود لما عاقهم عن الإيمان الشره وحب الرياسة فأمرُوا بالصبر، وهو الصوم لأنه يكسر الشهوة، والصلاة لأنها تورث الخشوع وتنفي الكبر، وأفرد الصلاة بالذكر تعظيماً لشأنها، والمعنى استعينوا على حوائجكم إلى الله وقيل على ما يشغلكم من أنواع البلايا، وقيل على طلب الآخرة بالصبر.

والصبر في اللغة الحبس والمراد هنا استعينوا بحبس أنفسكم عن الشهوات وقصرها على الطاعات، على دفع ما يرد عليكم من المكروهات، وقيل الصبر هنا هو خاص بالصبر على تكاليف الصلاة وأداء الفرائض، واستدل هذا القائل بقوله تعالى ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ وليس في هذا الصبر الخاص بهذه الآية ما ينفي ما يفيد الألف واللام الداخلة على الصبر من الشمول، كما أن المراد بالصلاة هنا جميع ما يصدق عليه الصلاة الشرعية من غير فرق بين فريضة ونافلة، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

وعن ابن عباس أنه نعى له أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فصلى ركعتين أطل فيها السجود ثم قام إلى راحلته وهو يقول ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وقد وردت أحاديث كثيرة في مدح الصبر والترغيب فيه والجزاء للصابرين، ولم نذكرها ههنا لأنها ليست بخاصة بهذه الآية، بل هي واردة في مطلق الصبر، وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور ههنا

منها شطراً صالحاً، وفي الكتاب العزيز من الثناء على ذلك والترغيب فيه الكثير الطيب.

وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير عن حذيفة قال: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وأخرج أحمد والنسائي وابن حبان عن صهيب عن النبي ﷺ قال كانوا يعني الأنبياء يفرعون إذا فزعوا إلى الصلاة، وعن ابن عباس أنه كان في مسير له فنعى إليه ابن له فنزل فصلى ركعتين ثم استرجع فقال فعلنا كما أمرنا الله تعالى ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ وقد روي نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين.

واختلف المفسرون في مرجع للضمير في قوله ﴿وانها لكبيرة﴾ ف قيل انه راجع إلى الصلاة وإن كان المتقدم هو الصبر والصلاة فقد يجوز إرجاع الضمير إلى أحد الأمرين المتقدم ذكرهما، كما قال تعالى ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ إذا كان أحدهما داخلاً تحت الآخر بوجه من الوجوه، وقيل انه عائد إلى الصلاة من دون اعتبار دخول الصبر تحتها لان الصبر هو عليها كما قيل سابقاً، وقيل ان الضمير راجع إلى الصلاة وإن كان الصبر مراداً منها لكن لما كانت أكد وأعم تكليفاً وأكثر ثواباً كانت الكناية بالضمير عنها، ومنه قوله تعالى ﴿والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ كذا قيل، وقيل إن الضمير راجع إلى الأشياء المكنوزة ومثل ذلك قوله ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ رجع الضمير هنا إلى الفضة والتجارة لما كانت أعم نفعاً وأكثر وجوداً والتجارة هي الحاملة على الإنفضااض.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الأول الصبر هناك جعل داخلاً تحت الصلاة وهنا لم يكن داخلاً وإن كان مراداً، وقيل إن المراد الصبر والصلاة ولكن ارجع الضمير إلى أحدهما استغناء به عن الآخر، ومنه قوله تعالى ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ أي ابن مريم آية وأمه آية، وقيل رجع الضمير

اليهما بعد تأويلهما بالعبادة، وقيل رجع الى المصدر المفهوم من قوله ﴿واستعينوا﴾ وهو الاستعانة وقيل رجع إلى جميع الأمور التي نهى عنها بنو إسرائيل، والأول هو الظاهر الجاري على قاعدة كون الضمير للأقرب، والكبيرة التي يكبر أمرها ويتعظم شأنها على حاملها لما يجده عند تحملها والقيام بها من المشقة ومنه ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم اليه﴾.

﴿الا﴾ استثناء مفرغ وشرطه أن يسبق بنفي فيؤول الكلام هنا بالنفي أي أنها لا تخف ولا تسهل إلا.

﴿على الخاشعين﴾ يعني المؤمنين، وقيل الخائفين، وقيل المطيعين المتواضعين لله، والخاشع هو المتواضع، قال في الكشاف الخشوع هو الإخبات والتطامن، فاللين والإنقياد انتهى.

وقال الزجاج الخاشع الذي يرى أثر الذل والخشوع عليه، وخشعت الأصوات أي سكنت، وخشع ببصره إذا غضه، وقال سفيان الثوري سألت الأعمش عن الخشوع فقال يا ثوري أنت تريد أن تكون إماماً للناس ولا تعرف الخشوع، ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطء الرأس لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء في الحق سواء، وتخشع لله في. وأما الخضوع كل فرض افترض عليك انتهى.

وما أحسن ما قاله بعض المحققين في بيان ماهيته أنه هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع، واستثنى سبحانه الخاشعين مع كونهم باعتبار استعمال جوارحهم في الصلاة وملازمتهم لوظائف الخشوع الذي هو روح الصلاة وأتعبهم لأنفسهم اتعباً عظيماً في الأسباب الموجبة للحضور والخضوع لأنهم لما يعلمونه من تضاعف الأجر وتوفر الجزاء والظفر بما وعد الله به من عظيم الثواب تسهل عليهم تلك المتاعب، ويتذلل لهم ما يركبونه من

المصاعب، بل يصير ذلك لهم خالصة وراحة عندهم محضة.

﴿الذين يظنون﴾ أي يستيقنون وقيل يعلمون، والظن هنا عند الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى ﴿إني ظننت أني ملاق حسابية﴾ وقوله ﴿وظنوا أنهم مواقعوها﴾ وقيل أن الظن في الآية على بابه ويضم في الكلام بذنوبهم فكأنهم توقعوا لقاءه مذنبين، ذكره الماوردي والأول أولى، وأصل الظن الشك مع الميل إلى أحد الطرفين، وقد يقع موقع اليقين في مواضع منها هذه الآية.

ومعنى ﴿أنهم ملاقوا ربهم﴾ ملاقوا جزاءه، والمفاعلة هنا ليست على بابها، ولا أرى في حمله على أصل معناه من دون تقدير المضاف بأساً أي يوقنون أنهم يرونه، وفي هذا مع ما بعده من قوله ﴿وأنهم إليه راجعون﴾ إقرار بالبعث وما وعد الله به في اليوم الآخر، وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة.

﴿يا بني إسرائيل أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ إنما كرر ذلك سبحانه تأكيداً للحجة عليهم وتحذيراً لهم من ترك اتباع محمد ﷺ، ثم قرنه بالوعيد وهو قوله ﴿واتقوا يوماً﴾ قيل المراد بالنعمة أيادي الله عندهم وأيامه، قاله سفيان بن عيينة، وعن مجاهد التي أنعم بها على بني إسرائيل فيما سمى وفيما سوى ذلك، فجّر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى وأنجاهم من عبودية آل فرعون، وكان عمر بن الخطاب إذا تلا هذه الآية قال مضى القوم وإنما يعني أنتم.

﴿وأنى فضلتكم على العالمين﴾ يعني على عالمي زمانكم، فلا يتناول من مضى ولا من يوجد بعدهم، وهذا التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف للأبناء، قيل فيه ورود العام المراد به الخصوص، لأن المراد بالعالمين عالمو زمانهم، وقيل على جميع العالمين بما جعل فيهم الأنبياء، وقال في

الكشاف على الجم الغفير من الناس كقوله ﴿باركنا فيها للعالمين﴾ يقال رأيت عالماً من الناس يراد الكثرة انتهى، قال الرازي في تفسيره وهذا ضعيف لأن لفظ العالم مشتق من العلم وهو الدليل، وكلما كان دليلاً على الله كان علماً وكان من العالم، وهذا تحقيق قول المتكلمين: العالم كل موجود سوى الله، وعلى هذا لا يمكن تخصيص لفظ العالم ببعض المحدثات، انتهى.

أقول هذا الاعتراض ساقط أما أولاً فدعوى اشتقاقه من العلم لا برهان عليه، وأما ثانياً فلو سلمنا صحة هذا الاشتقاق كان المعنى موجوداً بما يتحصل معه مفهوم الدليل على الله الذي يصح إطلاق إسم العلم عليه، وهو كائن في كل فرد من أفراد المخلوقات التي يستدل بها على الخالق، وغايته أن جمع العالم يستلزم أن يكونوا مفضلين على أفراد كثيرة من المحدثات، وأما إنهم مفضلون على كل المحدثات في كل زمان، فليس في اللفظ ما يفيد هذا ولا في اشتقاقه ما يدل عليه، وأما من جعل العالم أهل العصر فغايته أن يكونوا مفضلين على أهل عصور، لا على أهل كل عصر، فلا يستلزم ذلك تفضيلهم على أهل العصر الذين فيهم نبينا ﷺ ولا على ما بعده من العصور.

ومثل هذا الكلام ينبغي استحضاره عند تفسير قوله تعالى ﴿وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وعند قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاكُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ وعند قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فإن قيل أن التعريف في العالمين يدل على شموله لكل عالم.

قلت لو كان الأمر هكذا لم يكن ذلك مستلزماً لكونهم أفضل من أمة محمد ﷺ لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فإن هذه الآية ونحوها تكون مخصصة لتلك الآيات.

﴿واتقوا يوماً﴾ أي واحشوا عذاب يوم، أمر معناه الوعيد والمراد باليوم يوم القيامة أي عذابه.

﴿لا تجزي﴾ لا تكفي ولا تقضي.

﴿نفس عن نفس شيئاً﴾ يعني حقاً لزمها، وقيل معناه لا تنوب نفس عن نفس يوم القيامة ولا ترد عنها شيئاً مما أصابها، بل يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وقيل أن طاعة المطيع لا تقضي عن العاصي ما كان واجباً عليه، والنفس الأولى هي المؤمنة والثانية هي الكافرة ومعنى التنكير التحقير أي شيئاً يسيراً حقيراً ﴿ولا يقبل منها شفاعة﴾ أي في ذلك اليوم، وذلك أن اليهود قالوا يشفع لنا آباؤنا فرد الله عليهم ذلك، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو الإثنان تقول استشفعته أي سألته أن يشفع لي أي يضم جاهه إلى جاهك عند المشفوع إليه ليصل النفع إلى المشفوع له، وضمير (منها) يرجع إلى النفس المذكورة ثانياً أي إن جاءت بشفاعة شافع، ويجوز أن يرجع إلى النفس المذكورة أولاً أي إذا شفعت لم يقبل منها.

﴿ولا يؤخذ منها عدل﴾ أي فدية وهو مماثلة الشيء بالشيء، والعدل بفتح العين الفداء وبكسرهما المثل، وقيل بالفتح المساوي للشيء قيمة وقدرًا وبالكسر المساوي له في جنسه وجرمه، وأما العدل واحد الأعدال فهو بالكسر لا غير قاله السمين، والضمير يرجع إلى النفوس المدلول عليها بالنكرة في سياق النفي، والنفس تذكر وتؤنث والمعنى كما قال السدي لا تغني نفس مؤمنة عن نفس كافرة من المنفعة شيئاً.

﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا يمنعون من العذاب، والنصر العون والأنصار الأعوان ومنه ﴿من أنصاري إلى الله﴾ والنصر أيضاً الانتقام يقال انتصر زيد لنفسه من خصمه أي انتقم منه لها والنصر أيضاً الإتيان يقال نصرت أرض بني فلان أي أتيتها.

وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي واذكروا إذ خلصنا أسلافكم وأجدادكم، فاعتده نعمة ومنة عليهم، لأنهم نجوا بنجاة أسلافهم، وهذا شروع في تفصيل نعم الله عليهم، وفصلت بعشرة أمور تنتهي بقوله: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ والنجاة النجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها، ثم سمي كل فائز وخارج من ضيق إلى سعة ناجياً وإن لم يلق على نجوة «وآل فرعون» قومه وآل يضاف إلى ذوي الخطر ولا يضاف إلى البلدان فلا يقال من آل المدينة، وجوزه الأخفش، واختلفوا هل يضاف إلى المضر أم لا فمنعه قوم وسوغه آخرون وهو الحق.

وفرعون قيل هو إسم ذلك الملك بعينه، وقيل إنه اسم لكل ملك من ملوك العمالة أولاد عمليق بن لاوز بن أرم بن سام بن نوح كما يسمى من ملك الفرس كسرى، ومن ملك الروم قيصر، ومن ملك الحبشة النجاشي، وقيل فرعون إسم علم لمن كان يملك مصر من القبط والعماليق، وإسم فرعون موسى المذكور هنا قابوس في قول أهل الكتاب، وقال وهب اسمه الوليد بن مصعب بن الريان، وعمر أكثر من أربعمئة سنة، وعاش موسى مائة وعشرين سنة، قال المسعودي لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية، وقال الجوهري إن كل عات يقال له فرعون، وقد تفرعن، وهو ذو فرعنة أي دهاء ومكر، وقال في الكشف تفرعن فلان إذا عتى وتجبر.

﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي يكلفونكم ويولونكم قاله أبو عبيدة، وقيل يذوقونكم ويلزمونكم إياه، وأصل السوم الدوام، ومنه سائمة الغنم لداومتها الرعي، وفي

الكشاف أصله في سام السلعة اذا طلبها كأنه بمعنى يبيعونكم سوء العذاب ويريدونكم عليه، انتهى.

﴿سوء العذاب﴾ أي أشده وأسوأه وأفظعه، وإن كان كله سيئاً، والسوء كل ما يغم الإنسان من أمر دنيوي أو أخروي.

﴿يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ الذبح في الأصل الشق وهو فري أوداج المذبوح، قيل ذبحوا منهم اثني عشر ألفاً، وقيل سبعين ألفاً، وهل نساء جمع نسوة أو جمع امرأة من حيث المعنى قولان، والمراد يتركون نساءكم أحياء ليستخدموهن ويمتهنوهن، وأما امر بذبح الأبناء واستحياء النساء لأن الكهنة أخبروه بأنه يولد مولود يكون هلاكه على يده، وعبر عن البنات باسم النساء لأنه جنس يصدق عليهن، وقالت طائفة انه أمر بذبح الرجال واستدلوا بقوله نساءكم والأول أصح بشهادة السبب، ولا يخفى ما في قتل الأبناء واستحياء البنات للخدمة ونحوها من انزال الذل بهم وإصاق الإهانة الشديدة بجمعهم لما في ذلك من العار.

والإشارة بقوله ﴿وفي ذلكم﴾ إلى جملة الأمر من الإنجاء والذبح، قاله ابن عطية.

﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ أي اختيار وامتحان، والبلاء يطلق تارة على الخير وتارة على الشر، فإن أريد به هنا الشر، كانت الإشارة إلى ما حل بهم من النقمة بالذبح ونحوه، وإن أريد به الخير كانت الإشارة إلى النعمة التي أنعم الله عليهم بالإنجاء وما هو مذكور قبله من تفضيلهم على العالمين، وقد اختلف السلف ومن بعدهم في مرجع الإشارة فرجح الجمهور الأول ورجح الآخرون الآخر، قال ابن كيسان أبلاه وبلاه في الخير والشر، وقيل الأكثر في الخير أبليته وفي الشر بلوته، وفي الاختبار ابتليته وبلوته قاله النحاس، استدل به بعض من يقول بالتناسخ وقال إن القوم كانوا هم بأعيانهم، فلما تطاولت عليهم مدة التلاشي والبلى نسوا فذكروا، قال الكرمانى وهذا محال وجهل بكلام

العرب، فإن العرب تخاطب بمثل هذا وتعني الجد الأعلى والأب الأبعد.

﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أي فلقنا، وأصل الفلق الفرق والفصل، ومنه فرق الشعر، ومنه ﴿وقرآنا فرقناه﴾ أي فصلناه، والباء في ﴿بكم﴾ بمعنى اللام أو السببية والمراد أن فرق البحر كان بسبب دخولهم فيه لما صاروا بين المائين صار الفرق بهم، وأصل البحر في اللغة الإتساع أطلق على البحر الذي هو مقابل البر لما فيه من الاتساع بالنسبة إلى النهر والخليج ويطلق على الماء المالح، وقال السيوطي في مفحومات الأقران البحر هو القلزم وكنيته أبو خالد كما روي عن قيس بن عباد، قال ابن عساكر كأنه كني بذلك لطول بقائه، وروى أبو يعلى بسند ضعيف عن النبي ﷺ قال: «فلق البحر لبي إسرائيل يوم عاشوراء» انتهى.

﴿فأنجيناكم﴾ أي أخرجناكم منه.

﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ فيه، ووافق ذلك يوم عاشوراء فصام موسى ذلك اليوم شكراً لله عز وجل، والمراد بآل فرعون هنا هو وقومه وأتباعه، والغرق الرسوب في الماء وتجاوز به عن المداخلة في الشيء، تقول غرق فلان في اللهو فهو غرق، قاله السمين.

﴿وأنتم تنظرون﴾ يعني إلى إهلاكهم، وقيل إلى مصارعهم أي حال كونكم ناظرين اليهم بأبصاركم أو المعنى ينظر بعضهم إلى بعض آخر من السالكين في البحر، وقيل نظروا إلى أنفسهم ينجون وإلى آل فرعون يغرقون، قيل أن البحر قذفهم حتى نظروا اليهم.

وهذه الواقعة كما أنها لموسى معجزة عظيمة تخر لها أطم الجبال، ونعمة عظيمة لأوائل بني إسرائيل موجبة عليهم شكرها باللسان والبال، كذلك اقتصاصها على ما هي عليه من رسول الله ﷺ معجزة جلية تطمئن بها القلوب

الأبية، وتنقاد لها النفوس الغبية، موجبة لأعقابهم أن يتلقوها بالاذعان ويقبلوها بصميم الجنان، فلا تأثرت أوائلهم بمشاهدتها ورؤيتها، ولا تذكرت أواخرهم بتذكيرها وروايتها، فيا لها من عصابة ما أعصاها، وطائفة ما أطغاها وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس. قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال ما هذا اليوم؟ قالوا هذا يوم صالح نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى فقال رسول الله ﷺ «نحن أحق بموسى منكم فصامه وأمر بصومه»^(١)».

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا﴾ قراءة الجمهور واعدنا قال النحاس وهي اجود وأحسن وليس هو من الوعد والوعيد في شيء، وإنما هو من باب الموافاة يعني من المواعدة وهو من الله الأمر، ومن موسى القبول، وذلك أن الله وعده بمجيء الميقات.

﴿موسى﴾ اسم أعجمي عبري معرب غير منصرف، فموشى بالعبرية الماء والشجر، سمي موسى لأنه أخذ من بين الماء والشجر ثم قلبت الشين سينا فسمي موسى.

﴿أربعين ليلة﴾ قال الزجاج تمام أربعين ليلة وهي عند أكثر المفسرين ثلاثون من ذي القعدة وعشر من ذي الحجة وبه قال أبو العالية، وإنما خص الليالي بالذكر دون الأيام لأنها غرر الشهور، ولأن الليلة أسبق من اليوم فهي قبله في الرتبة وقيل لأن الأشهر العربية وضعت على سير القمر وقيل لأن الظلمة أقدم من الضوء والمعاني متقاربة.

﴿ثم اتخذتم العجل﴾ أي جعلتم العجل إلهاً، قال الحسن البصري كان اسم عجل بني إسرائيل الذي عبدوه «بهموت» وقيل بهبوت ﴿من بعده﴾ أي

بعد مضي موسى إلى الطور، وقد ذكر بعض المفسرين أنهم عدوا عشرين يوماً وعشرين ليلة وقالوا قد اختلف مواعده فاتخذوا العجل وهذا غير بعيد منهم فقد كانوا يسلكون طرائق من التعنت خارجة عن قوانين العقل مخالفة لما يخاطبون به بل ويشاهدونه بأبصارهم، فلا يقال كيف يعدون الايام والليالي على تلك الصفة، وقد صرح لهم في الوعد بأنها أربعون ليلة والمعنى من بعد عبادتكم العجل، وسمى العجل عجلًا لاستعجالهم عبادته، كذا قيل وليس بشيء لان العرب تطلق هذا الاسم على ولد البقر، وقد كان جعله لهم السامري على صورة العجل.

﴿وأنتم ظالمون﴾ أي وانتم ضارون لأنفسكم بالمعصية حيث وضعتم العبادة في غير موضعها وقيل إنما سماهم ظالمين لأنهم أشركوا بالله وخالفوا موعد نبيهم قيل والذين عبدوه منهم ثمانية آلاف وقيل كلهم إلا هارون مع اثني عشر ألفاً وهذا أولى.

وفي يوم عاشوراء احاديث كثيرة نورد منها:

عن حميد بن عبد الرحمن، انه سمع معاوية بن ابي سفيان، خطيباً بالمدينة خطبهم يوم عاشوراء فقال اين علماءكم يا أهل المدينة؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هذا يوم عاشوراء. ولم يكتب الله عليكم صيامه، وانا صائم فمن أحب منكم أن يصوم فليصم ومن أحب أن يفطر فليفطر.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يٰقَوْمِ إِنِّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

﴿ثم عفونا عنكم﴾ أي محونا ذنوبكم وتجاوزنا عنكم، والعفو يجوز أن يكون بعد العقوبة والغفران لا يكون معها، وهذا هو الفرق بينهما وهو من الاضداد يقال عفت الريح الأثر أي أذهبه وعفا الشيء أي كثر، ومنه (حتى عفوا) وقال أبو السعود العفو محو الجريمة من عفاه درسه وقد يجيء لازماً قال:

عرفت المنزل الخالي عفاه بعد أحوال
عفاه كل هتان كثير الوبل هطال

﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعد عبادتكم العجل.

﴿لعلكم تشكرون﴾ ما أنعم الله به عليكم من العفو عن ذنبكم العظيم الذي وقعتم فيه وتستمرون بعد ذلك على الطاعة، وأصل الشكر في اللغة الظهور، قال الجوهري الشكر الثناء على المحسن بما أولاك من المعروف، يقال شكرته وشكرت له، وباللام افصح والشكران خلاف الكفران.

﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ الكتاب التوراة بالإجماع من المفسرين واختلفوا في الفرقان فقال الفراء وقطرب المعنى آتينا موسى التوراة ومحمد الفرقان، وقد قيل أن هذا غلط أوقعها فيه أن الفرقان مختص بالقرآن وليس كذلك فقد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ قال الزجاج أن الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره تأكيداً وقيل أن الواو صلة وهي قد تزداد في

النعوت، وقيل أن المعنى ذلك المنزل جامع بين كونه كتاباً وفارقاً بين الحق والباطل وهو كقوله (آتيناً موسى الكتاب تماماً على الذي احسن وتفصيلاً لكل شيء) وقيل الفرقان الفرق بينهم وبين قوم فرعون أنجى الله هؤلاء وأغرق هؤلاء، وقال ابن زيد الفرقان الفراق البحر والشرع الفارق بين الحلال والحرام، وقيل الفرقان الفرج من الكرب أو النصر وقيل أنه الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه كأنه قال آتيناً موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له ﴿لعلكم تهتدون﴾ يعني بالتوراة أي لكي تهتدوا للتدبر والتفكر فيه والعمل والاعتقاد بما يحويه.

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ يعني الذين عبدوا العجل، والقوم يطلق تارة على الرجال دون النساء، ومنه قوله تعالى ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ ثم قال ﴿ولا نساء من نساء﴾ ومنه ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أراد الرجال وقد يطلق على الجميع كقوله تعالى ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ والمراد هنا بالقوم عبدة العجل، وهذا شروع في بيان كيفية العفو، والقوم ليس له واحد من لفظه ومفرده رجل ﴿يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل﴾ يعني إلهاً تعبدونه فكانهم قالوا ما نصنع فقال ﴿فتوبوا إلى بارئكم﴾ أي ارجعوا إلى خالقكم واعزموا وصمموا بالتوبة.

والبارئ الخالق وقيل البارئ هو المبدع المحدث، والخالق هو المقدر الناقل من حال إلى حال، وفي ذكر البارئ هنا إشارة إلى عظيم جرمهم أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره وأصل التركيب لخلوص الشيء عن غيره إما على سبيل التفصي كبرء المريض من مرضه، والمديون من دينه، أو الإنشاء كبرأ الله آدم من الطين.

﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي اجعلوا القتل متعقباً للتوبة تماماً لها، قال القرطبي وأجمعوا على أنه لم يؤمر كل واحد من عبدة العجل بأن يقتل نفسه بيده

قيل قاموا صفين وقتل بعضهم بعضاً وقيل وقف الذين عبدوا العجل ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلام فقتلوهم فتاب الله على الباقيين منهم، عن ابن عباس قال أمر موسى قومه عن أمر من ربه أن يقتلوا أنفسهم، واحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة جعل يقتل بعضهما بعضاً فانجلت الظلمة عنهم عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة، وعن علي قال قالوا لموسى ما توبتنا قال يقتل بعضكم بعضاً فأخذوا السكاكين فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه لا يبالي من قتل حتى قتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله تعالى إلى موسى مرهم فليرفعوا أيديهم وقد غفر لمن قتل وتيب على من بقي^(١).

﴿ذلكم﴾ يعني هذا القتل وتحمل هذه الشدة.

﴿خير لكم﴾ لأن الموت لا بد منه ﴿عند بارئكم﴾ من حيث أنه طهرة من الشرك ووصلة إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية.

﴿فتاب عليكم﴾ أي فعلتم ما أمرتم به فتجاوز عنكم، وهذه الفاء فاء التفسير وفاء التفصيل، وهذا من كلام الله تعالى خاطبهم به على طريق الإلتفات من التكلم الذي يقتضيه السياق إلى الغيبة وقيل أنه من جملة كلام موسى لقومه، والأول أولى ﴿إنه هو التواب﴾ أي الرجاء بالمغفرة القابل للتوبة البالغ في قبولها منهم ﴿الرحيم﴾ بخلقه.

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ٨٢: واختلفوا فيمن خوطب بهذا على ثلاثة أقوال: أحدها: أنه خطاب للكل، قاله السدي عن أشياخه. والثاني: أنه خطاب لمن لم يعبد ليقتل من عبد، قاله مقاتل. والثالث: أنه خطاب للعابدين فحسب، أمروا أن يقتل بعضهم بعضاً، قاله أبو سليمان الدمشقي. وفي الإشارة بقوله: «ذا» في: «ذلكم» قولان. أحدهما: أنه يعود إلى القتل. والثاني: أنه يعود إلى التوبة.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ
نَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي لا نصدقك. بأن ما نسمعه كلام الله ﴿حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي عياناً، ظاهر السياق أن القائلين بهذه المقالة هم قوم موسى، قيل هم السبعون الذين اختارهم ممن لم يعبدوا العجل وذلك أنهم لما سمعوا كلام الله، قالوا له بعد ذلك هذه المقالة معتذرين عن عبادة أصحابهم العجل، فخرج بهم موسى، وقيل عشرة آلاف من قومه والمؤمن به، والجهرة استعيرت للمعانية وأصلها الظهور ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل، قيل هي الموت وفيه ضعف، وقيل سبب الموت، واختلفوا في ذلك السبب فقيل ان ناراً نزلت من السماء فأحرقتهم وقيل جاءت صيحة من السماء وقيل أرسل جموعاً من الملائكة فسمعوا بحسهم فخرجوا صاعقين ميتين يوماً وليلة، والأول أولى، والمراد بأخذ الصاعقة إصابتها إياهم وسيأتي في الأعراف أنهم ماتوا بالرجفة أي الزلزلة، ويمكن الجمع بأنه حصل لهم الجميع، وقيل المراد بالصاعقة الموت، واستدل عليه بقوله الآتي ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ﴾ ولا موجب للمصير إلى هذا التفسير لأن المصعوق قد يموت كما في هذه الآية وقد يغشى عليه ثم يفيق كما في قوله تعالى ﴿وخر موسى صعقاً فلما أفاق﴾ وما يوجب بعد ذلك قوله.

﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فإنها لو كانت الصاعقة عبارة عن الموت لم يكن لهذه الجملة كثير معنى، بل قد يقال أنه لا يصح أن ينظروا الموت النازل بهم إلا أن يكون المراد نظر الأسباب المؤثرة للموت، قيل أنهم نظروا أوائل الصاعقة النازلة بهم الواقعة عليهم لا آخرها الذي ماتوا عنده، والمعنى ينظر بعضكم الى بعض كيف يأخذه الموت وكيف يحيا، وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لأنهم طلبوا ما لم يأذن به الله من رؤيته في الدنيا.

﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾ المراد بذلك الإحياء لهم لوقوعه بعد الموت فبعثوا بعد الموت ليستوفوا آجالهم، قاله أنس، ولو أنهم قد ماتوا لانقضاء آجالهم لم يبعثوا إلى يوم القيامة، وأصل البعث الإثارة للشيء من محله وقد تكون عن إغماء ونوم، ولهذا قيد البعث بالموت.

وقد ذهب المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية في الدنيا والآخرة، وذهب من عداهم إلى جوازها في الدنيا والآخرة، ووقعها في الآخرة، وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة وهي قطعية الدلالة لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة، وزعموا أن العقل قد حكم بها دعوى مبنية على شفا جرف هار، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب، وسيأتيك بيان ما تمسكوا به من الأدلة القرآنية، وكلها خارج عن محل النزاع، بعيد من موضع الحجة، وليس هذا موضع المقال في هذه المسألة، وقد استوعب الحافظ ابن القيم الكلام عليها في كتابه حادي الأرواح بما يشفي العليل ويروي الغليل فليرجع إليه ﴿لعلكم تشكرون﴾ إنعامنا ذلك أي بالبعث بعد الموت، قاله أبو السعود أو ما كفرتموه قاله البيضاوي^(١).

(١) ورد في صحيح مسلم اثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى.
- (١٨١/١) عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون؛ ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل». وفي رواية: «ثم تلا هذه الآية للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» يونس/ ٢٦.
- وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما. وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما. وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن (مسلم/ ١٨٠).

وَوَضَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ
فَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ
خَطَايَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وظللنا عليكم الغمام﴾ أي جعلناه كالظلة، والغمام جمع غمامة قاله
الأخفش، قال الفراء ويجوز غمام قال ابن عباس غمام أبرد من هذا وأطيب،
وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة، وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر،
وكان معهم في التيه، وقال قتادة كان هذا الغمام في البرية ظلل عليهم من
الشمس وجعل لهم عموداً من نور يضيء لهم بالليل إذا لم يكن قمر، والته واد
بين الشام ومصر وقدره تسعة فراسخ مكثوا فيه أربعين سنة متحيرين لا يهتدون
إلى الخروج.

﴿وأنزلنا عليكم المن والسلوى﴾ يعني في التيه، قال قتادة أطعمهم ذلك
حين برزوا إلى البرية، فكان المن يسقط عليهم في محلته طلع الفجر إلى
طلوع الشمس سقوط الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، فيأخذ
الرجل قدر ما يكفيه يومه ذلك فإن تعدى ذلك فسد ما يبقى عنده، حتى إذا
كان يوم سادسه يوم جمعة أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه فبقي عنده
لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر المعيشة، ولا لطلبه شيء، وهذا كله في
البرية.

وقد ذكر المفسرون أن هذا جرى في التيه بين مصر والشام لما امتنعوا من
دخول مدينة الجبارين وقالوا لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا﴾ وسيأتي بسطه في
سورة المائدة، وكان عدد الذين تاهوا ستمائة ألف وماتوا كلهم في التيه إلا من
لم يبلغ العشرين، ومات فيه موسى وهارون، وكان موت موسى بعد هارون

بسنة، والمن قيل هو الترنجبين وعلى هذا أكثر المفسرين وهو ظل ينزل من السماء على شجر أو حجر ويحلو وينعقد عسلًا ويجف جفاف الصمغ، ذكر معناه في القاموس، وقيل المن العسل وقيل شراب حلو، وقيل خبز الرقاق، قاله وهب، وقيل هو مصدر يعم جميع ما من الله به على عباده من غير تعب ولا زرع، ومنه ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم من حديث سعيد بن زيد عن النبي ﷺ إن الكمأة من المن الذي انزل على موسى، وقد ثبت مثله من حديث أبي هريرة عند أحمد والترمذي.

ومن حديث جابر وأبي سعيد وابن عباس عند النسائي، وقد قالوا يا موسى قد قتلنا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم، فأرسل الله عليهم السلوى، قيل هو السمانى كحباري طائر يذبحونه فيأكلونه يبعثها عليهم الجنوب، قال ابن عطية السلوى طائر باجماع المفسرين، قال القرطبي ما ادعاه من الإجماع لا يصح، وقد قال المؤرخ أحد علماء اللغة والتفسير أنه العسل، وبه قال الجوهري: وقال ابن يحيى السلوى طائر يشبه السمانى وخاصيته أن أكل لحمه يلين القلوب القاسية يموت إذا سمع صوت الرعد كما أن الخفاف يقتله البرد فيلهمه الله تعالى أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون فيها مطر ولا رعد إلى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر في الأرض، قال الأخفش السلوى لا واحد له من لفظه مثل الخير والشر وهو يشبه أن يكون واحده سلوى مثل جماعته، وقال الخليل واحده سلواة، وقال الكسائي السلوى واحدة وجمعه سلاوى، وقيل هو السمانى بعينه فكان الرجل يأخذ ما يكفيه يوماً وليلة فإذا كان يوم الجمعة يأخذ ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت شيء.

﴿كلوا﴾ أي وقلنا لهم كلوا ﴿من طيبات﴾ أي حلالات أو مستلذات ﴿ما رزقناكم﴾ ولا تدخروا لغد، استدل به على أن الضيف لا يملك ما قدم له وأنه لا يتصرف إلا بإذن ﴿وما ظلمونا﴾ أي وما بخسوا حقنا ﴿ولكن كانوا﴾

أنفسهم يظلمون﴾ بأخذهم أكثر مما حد لهم فاستحقوا بذلك عذابي، وقطع مادة الرزق الذي كان ينزل عليهم بلا مؤنة ولا تعب في الدنيا، ولا حساب في العقبى، فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر، وتقديم الأنفس يفيد الاختصاص، وفيه ضرب تهكم بهم، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على تماديهم في الظلم واستمرارهم على الكفر.

﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية﴾ سميت قرية لاجتماع الناس فيها وقد يطلق عليهم مجازاً وقوله تعالى ﴿وأسأل القرية﴾ يحتمل الوجهين مشتقة من قرية أي جمعت لجمعها لأهلها تقول قرية الماء في الحوض أي جمعته واسم ذلك الماء قرى بكسر القاف، قال جمهور المفسرين القرية هي بيت المقدس وبه قال مجاهد، وقال ابن عباس هي أريحاء قرية الجبارين، قال ابن الأثير قرية بالغور قرية من بيت المقدس، وجزم القاضي وغيره بالأول، وقيل كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة، فعلى هذا يكون القائل يوشع بن نون لأنه هو الذي فتح أريحاء بعد موسى، لأن موسى مات في التيه، وعلى الأول القائل موسى عليه السلام، وقيل قرية من قرى الشام.

﴿فكلوا منها حيث شئتم رغداً﴾ أمر بإباحة، ورغداً كثيراً واسعاً أي أكلاً رغداً ﴿وادخلوا الباب﴾ الذي أمرتم بدخوله هو باب في بيت المقدس يعرف اليوم بباب حطة، وقيل هو باب القبة التي كان يصلي إليها موسى وبنو إسرائيل، ومن قال ان القرية أريحاء قال ادخلوا من أي باب كان من أبوابها وكان لها سبعة أبواب.

﴿سجداً﴾ أي منحنين كالراكعين أو خضعاً متواضعين، والسجود قيل هو هنا الانحناء وقيل التواضع والخضوع، واستدلوا على ذلك بأنه لو كان المراد السجود الحقيقي الذي هو وضع الجبهة على الأرض لامتنع الدخول المأمور به لأنه لا يمكن الدخول حال السجود.

قال في الكشف: انهم أمروا بالسجود عند الانتهاء الى الباب شكراً لله وتواضعاً واعترضه أبو حيان في النهر الماد فقال لم يؤمروا بالسجود بل هو قيد في وقوع المأمور به وهو الدخول، والأحوال نسب تقييدية والأوامر نسب اسنادية انتهى، ويجاب عنه بأن الأمر بالمقيد أمر بالقيد، فمن قال أخرج مسرعاً فهو أمر بالخروج على هذه الهيئة، فلو خرج غير مسرع كان عند أهل اللسان مخالفاً للأمر، ولا ينافي هذا كون الأحوال نسباً تقييدية فإن اتصافها بكونها قيوداً مأموراً بها هو شيء زائد على مجرد التقييد.

﴿وقولوا حطة﴾ قيل الحطة في الاصل اسم للهيئة من الخط كالجلسة والقعدة وقيل هي التوبة معناه الاستغفار، وقال ابن فارس في المجمل: حطة كلمة أمروا بها لو قالوها لحطت أوزارهم أي لا يدري معناها، قال الرازي في تفسيره أمرهم بأن يقولوا ما يدل على التوبة، وذلك لأن التوبة صفة القلب فلا يطلع الغير عليها.

وإذا اشتهر واحد بالذنب ثم تاب بعده لزمه أن يحكي توبته لمن شاهد منه الذنب، لأن التوبة لا تتم إلا به انتهى، وكون التوبة لا تتم إلا بذلك، لا دليل عليه بل مجرد عقد القلب عليها يكفي سواء اطلع الناس على ذنبه أم لا، وربما كان التكتم بالتوبة على وجه لا يطلع عليها إلا الله عز وجل أحب إلى الله وأقرب إلى مغفرته وأما رفع ما عند الناس من اعتقادهم بقاءه على المعصية فذلك باب آخر.

﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ أي نسترها عليكم من الغفر وهو الستر، لأن المغفرة تستر الذنوب، وخطايا جمع خطية ﴿وسنزيد المحسنين﴾ أي نزيدهم ثواباً أو إحساناً إلى إحسانهم المتقدم وهو اسم فاعل من أحسن.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سئل عن الإحسان فقال: «ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ قيل انهم قالوا حنطة وقيل قالوا بلسانهم حنطاً سمقثاً أي حنطة حمراء، استخفافاً منهم بأمر الله وقيل غير ذلك، والصواب أنهم قالوا حبة في شعيرة قالوا ذلك استهزاء أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ، وفي رواية عن ابن عباس عن ابن جرير وابن المنذر: حنطة في شعيرة، والأول أرجح لكونه في الصحيحين، وبدلوا الفعل أيضاً حيث دخلوا يزحفون على أستاههم، قال الكيا الهراسي: فيه دليل على أنه لا يجوز تغيير الأقوال المنصوص عليها وأنه يتعين اتباعها.

وقال الرازي يحتج به فيما ورد من التوقيف في الاذكار والأقوال وانه غير جائز تغييرها، وربما احتج به علينا المخالف في تجويز تحريم الصلاة بلفظ التعظيم والتسبيح وفي تجويز القراءة بالفارسية وفي تجويز النكاح بلفظ الهبة وما جرى مجرى ذلك.

﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ هو من وضع الظاهر موضع المضمرة لنكتة تقدر في كل محل بما يناسبه تعظيماً كقوله ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله﴾ وتحقيراً كقوله ﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان﴾ أو ازالة لبس أو غير ذلك وهي مبسوبة في الاتقان للجلال السيوطي، وكما تقرر في علم البيان وهي هنا تعظيم الأمر عليهم ومبالغة في تقبيح فعلهم وشأنهم ﴿رجزاً من﴾

السَّاءُ ﴿يعني عذاباً، والرجز العذاب، قيل أرسل الله عليهم طاعوناً فهلك منهم في ساعة واحدة سبعون ألفاً.﴾

وأخرج مسلم غيره من حديث أسامة بن زيد وسعد بن مالك وخزيمة ابن ثابت قالوا: قال رسول الله ﷺ ان هذا الطاعون رجز وبقية عذاب عذب به اناس من قبلكم ، فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها، ومن المعلوم أن الطاعون ضرب الجن للإنس فهو أرضي لا سماوي وإنما قيل فيه من السَّاء لأن القضاء به يقع فيها، قال الجلال السيوطي فهلك منهم في ساعة سبعون ألفاً أو أقل انتهى، وهذا الوباء غير الذي حل بهم في التيه.

﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي يعصون ويخرجون عن أمر الله تعالى، وفي الأعراف (يظلمون) تنبيهاً على أنهم جامعون بين هذين الوصفين.

﴿وإذ استسقى موسى لقومه﴾ أي طلب السقيا لقومه، وذلك أنهم عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقي لهم ففعل، والاستسقاء إنما يكون عند عدم الماء وحبس القطر ومعناه في اللغة طلب السقيا، وفي الشرع ما ثبت عن النبي ﷺ في صفته من الصلاة والدعاء، وهذا تذكير لنعمة أخرى كفروها ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ وكانت العصا من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى، ولها شعبتان تتقدان في الظلمة نوراً واسمها عليق وقيل نبغة حملها آدم معه من الجنة فتوارثها الأنبياء حتى وصلت إلى شعيب، فأعطاه موسى، كذا قيل والله أعلم، والحجر يحتمل أن يكون معيناً فيكون اللام للعهد وهو الذي فر بثوبه فلما سألوه السقيا ضربه، ويحتمل أن لا يكون معيناً فتكون للجنس وهو أظهر في المعجزة وأقوى للحجة.

﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ يعني على عدد أسباط بني إسرائيل والمعنى فضربه فانفجرت والانفجار الإنشقاق وانفجر الماء انفتح، قال المفسرون

انفجرت وانبجست بمعنى واحد وقيل انبجست عرقت، وانفجرت سالت، قال ابن عطية ولا خلاف أنه كان حجراً مربعاً يخرج من كل جهة ثلاث عيون إذا ضرب موسى سالت العيون، وإذا استغنوا عن الماء جفت

﴿قد علم كل أناس مشربهم﴾ المشرب موضع الشرب وقيل هو المشروب نفسه، وفيه دليل على أنه يشرب من كل عين قوم منهم لا يشاركونهم غيرهم، قيل كان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدها إلى غيرها، والأسباط ذرية الاثني عشر من أولاد يعقوب وكل عين تسيل في قناة إلى سبط، وكانوا ستمائة ألف، وسعة العسكر اثنا عشر ميلاً.

﴿كلوا﴾ أي قلنا لهم كلوا المن والسلوى ﴿واشربوا﴾ أي الماء المتفجر من الحجر ﴿من رزق الله﴾ فهذا كله من رزقه كان يأتيهم بلا مشقة ولا كلفة ولا تعثوا في الأرض مفسدين عثى يعثى عثياً وعثا يعثو عثواً وعاث يعيث عيثاً لغات بمعنى أفسد، قال في الكشف العثى أشد الفساد فليل لهم لا تملأوا في الفساد في حال فسادكم لأنهم كانوا متمادين فيه انتهى، وفي هذه الآية معجزة عظيمة لموسى عليه السلام حيث انفجر من الحجر الصغير ما روى منه الجمع والكثير، ومعجزة نبينا ﷺ أعظم منه لأنه انفجر الماء من بين أصبعيه فروى منه الجمل الغفير لأن انفجار الماء من بين الدم واللحم أعظم من انفجاره من الحجر^(١).

(١) ويؤيد هذا ما رواه الامام مسلم في صحيحه / ٤٢٧٩.

عن انس بن مالك انه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وامر الناس ان يتوضؤوا منه قال: فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه. فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم.

وفي رواية: ان النبي صلى الله عليه وسلم كان بالزوراء (والزوراء بالمدينة عند السوق والمسجد فيما ثَمَّة) دعا بقدح فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل ينبع من بين أصابعه فتوضأ جميع أصحابه قال قلت: كم كانوا يا ابا حمزة قال: قالوا زهاء الثلاثماية.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي
هُوَ أَذْيُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ۖ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ ۖ وَالْمَسْجُكَةُ ۖ وَبَاءَ ۖ وَبِعَظَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل إذ قال أسلافكم، وهذا تذكير
لجناية أخرى صدرت منهم وإسناد الفعل إلى فروعهم وتوجيه التوبيخ إليهم لما
بينهم وبين أصولهم من الاتحاد.

﴿يَا مَوْسَىٰ لَنْ نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا﴾ هذا تضجر منهم بما صاروا
فيه من النعمة والرزق الطيب، والعيش المستلذ، ونزوع ما ألفوه قبل ذلك من
خشونة العيش، ويحتمل أن لا يكون هذا منهم تشوقاً إلى ما كانوا فيه وبطراً لما
صاروا إليه من المعيشة الرافهة بل هو باب من تعنتهم وشعبة من شعب
نعجرفهم كما هو دأبهم وهجيرهم في غالب ما قص علينا من أخبارهم.

وقال الحسن البصري أنهم كانوا أهل كراث وأبصال واعداس فنزعوا إلى
مكرهم مكر السوء، واشتاقت طباعهم إلى ما جرت عليه عادتهم فقالوا لن
نصبر على طعام واحد أي نوع منه والمراد بالطعام الواحد هو المن والسلوى،
وهما وإن كانا طعامين لكن لما كانوا يأكلون أحدهما بالآخر جعلوهما طعاماً واحداً
وقيل لتكررها في كل يوم وعدم وجود غيرها معها ولا تبدة بهما، والبقل كل
نبات ليس له ساق والشجر ما له ساق.

وقال في الكشف البقل ما أنبتته الأرض من الخضر والمراد به أطائب

البقول التي يأكلها الناس كالنعناع والكرفس والكراث وأشباهها انتهى وجمعه بقول، والقثاء معروف الواحد قثاءة وفيها لغتان كسر القاف وضمها والمشهور الكسر والفوم قيل هو الثوم وقد قرأه ابن مسعود بالثاء وروي نحو ذلك عن ابن عباس، وقيل الفوم الحنطة، وإليه ذهب أكثر المفسرين كما قال القرطبي، وقد رجح هذا ابن النحاس، قال الجوهري: ومن قال بهذا الزجاج والأخفش وقال بالأول الكسائي والنضر بن شميل، وقيل الفوم السنبله وقيل الحمص وقيل الفوم كان حباً يخبز، والعدس والبصل معروفان، قيل إنما طلبوا هذه الأنواع لأنها تعين على تقوية الشهوة أو لأنهم ملوا من البقاء في التيه، فسألوا هذه الأطعمة التي لا توجد إلا في البلاد، وكان غرضهم الوصول إلى البلاد لا تلك الأطعمة والأول أولى.

﴿قال﴾ يعني موسى عليه السلام لهم وقيل القائل هو الله والأول أولى ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى﴾ أي أخس وأردأ، وهو الذي طلبوه والاستبدال وضع الشيء موضع الآخر، قال الزجاج أدنى مأخوذ من الدنو أي القرب وقيل من الدناءة وقيل أصله أدون من الدون أي الرديء، والهمزة للانكار مع التوبيخ، والمراد أتضعون هذه الأشياء التي هي دون موضع المن والسلوى اللذين هما خير منها من جهة الاستلذاذ والوصول من عند الله بغير واسطة أحد من خلقه، والحل الذي لا تطرقه الشبهة وعدم الكلفة بالسعي له والتعب في تحصيله ﴿بالذي هو خير﴾ أي أشرف وأفضل وهو ما هم فيه.

﴿اهبطوا مصرًا﴾ أي انزلوا مصرًا وانتقلوا من هذا المكان إلى مكان آخر، فالهبوط لا يختص بالنزول من المكان العالي إلى الأسفل بل قد يستعمل في الخروج من أرض إلى أرض مطلقاً قاله الشهاب، وظاهر هذا أن الله أذن لهم بدخول مصر، وقيل أن الأمر للتعجيز والاهانة لأنهم كانوا في التيه لا يمكنهم هبوط مصر لانسداد الطرق عليهم إذ لو عرفوا طريق مصر لما أقاموا أربعين سنة متحيرين لا يهتدون إلى طريق من الطرق، فهو مثل قوله تعالى ﴿كونوا

حجارة أو حديداً ﴿ قال الخليل وسيبويه أراد مصرأ من الأمصار ولم يرد المدينة المعروفة وهو خلاف الظاهر، بل يجوز صرفه مع حصول العلمية والتأنيث لأنه ثلاثي ساكن الأوسط وبه قال الأخفش والكسائي، والمصر في الاصل الحد الفاصل بين الشيتين وقيل المصر البلدة العظيمة.

﴿فإن لكم ما سألتكم﴾ يعني من نبات الأرض ﴿وضربت عليهم﴾ أي على فروعهم وأخلافهم ﴿الذلة﴾ أي الهوان وقيل الجزية وزى اليهودية وفيه بعد والأول أولى والمعنى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم وألزموا الذل والهوان بسبب قتلهم عيسى في زعمهم، والذلة بالكسر الصغار والحقارة والذلة بالضم ضد العجز.

﴿والمسكنة﴾ أي الفقر والفاقة وسمى الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة، ومعنى ضرب الذلة والمسكنة إلزامهم بذلك والقضاء به عليهم قضاء مستمراً لا يفارقهم ولا ينفصل عنهم مع دلالة على أن ذلك مشتمل عليهم اشتمال القباب على من فيها، أو لازم لهم لزوم الدرهم المضرب لسكته.

وهذا الخبر الذي أخبر الله تعالى به وهو معلوم في جميع الأزمنة فان اليهود أقمأهم الله أذل الفرق وأشدهم مسكنة وأكثرهم تصاغراً، لم ينتظم لهم جمع ولا خفقت على رؤسهم راية، ولا ثبتت لهم ولاية بل مازالوا عبيد العصى في كل زمن، وطروقة كل فحل في كل عصر، ومن تمسك منهم بنصيب من المال وإن بلغ في البثرة أي مبلغ فهو متظاهر بالفقر مرتد بأثواب المسكنة ليدفع عن نفسه أطماع الطامعين في ماله، إما بحق كتوفير ما عليه من الجزية أو بباطل كما يفعله كثير من الظلمة من التجارىء على الله بظلم من لا يستطيع الدفع عن نفسه، فلا ترى أحداً من أهل الملل أذل ولا أحرص على المال من اليهود كأنهم فقراء وإن كانوا أغنياء مياسير.

﴿وباءوا﴾ رجعوا يقال باء بكذا أي رجع والمراد أنهم رجعوا ﴿بغضب من الله﴾ أو صاروا أحقاء بغضبه، وقال أبو عبيدة والزجاج احتملوه وقيل أقرؤا به وقيل استحقوه وقيل لازموه، وهو الواجه يقال بوأته منزلاً فتبؤا أي ألزمته فلزمه ﴿ذلك﴾ أي ما تقدم من ضرب الذلة وما بعده.

﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق﴾ أي بسبب كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء بغير حق يحق عليهم اتباعه والعمل به ولم يخرج هذا مخرج التقييد حتى يقال أنه لا يكون قتل الأنبياء بحق في حال من الأحوال لمكان العصمة، بل المراد نعي هذا الأمر عليهم وتعظيمه وأنه ظلم بحت في نفس الأمر، ويمكن أن يقال أنه ليس بحق في اعتقادهم الباطل لأن الأنبياء لم يعارضوهم في مال ولا جاه بل أرشدوهم إلى مصالح الدين والدنيا كما كان من شعيا وزكريا ويحيى فإنهم قتلوهم وهم يعلمون ويعتقدون أنهم ظالمون وإنما حملهم على ذلك حب الدنيا واتباع الهوى، عن ابن مسعود قال كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار.

﴿ذلك﴾ تكرير الإشارة لقصد التأكيد وتعظيم الأمر عليهم وتهويله، ومجموع ما بعد الإشارة الأولى والإشارة الثانية هو السبب لضرب الذلة وما بعده، وقيل يجوز أن يكون الإشارة الثانية إلى الكفر والقتل فيكون ما بعدها سبباً للسبب قاله الزمخشري وهو بعيد جداً ﴿بما عصوا﴾ أمري ﴿وكانوا يعتدون﴾ الاعتداء تجاوز الحد في كل شيء أي يتجاوزون أمري ويرتكبون محارمي.

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيْنَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قيل أن المراد بهم المنافقون بدلالة جعلهم مقترنين
باليهود والنصارى والصابئين أي آمنوا في الظاهر، والأولى أن يقال أن المراد
الذين صدقوا النبي ﷺ وصاروا من جملة أتباعه، وكأنه سبحانه أراد أن يبين
أن حال هذه الملة الإسلامية وحال من قبلها من سائر الملل يرجع إلى شيء
واحد وهو أن من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً استحق ما ذكره
الله من الأجر، ومن فاته ذلك فاته الخير كله، والأجر دقه ووجله.
بالإيمان ههنا هو ما بينه رسول الله ﷺ من قوله لما سأله جبريل عليه السلام
عن الإيمان فقال «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره»
ولا يتصف بهذا الإيمان إلا من دخل في الملة الإسلامية، فمن لم يؤمن بمحمد
ﷺ ولا بالقرآن فليس بمؤمن، ومن آمن بهما صار مسلماً مؤمناً ولم يبق يهودياً
ولا نصرانياً ولا مجوسياً.

﴿والذين هادوا﴾ معناه صاروا يهوداً قيل هو نسبة لهم إلى يهوذا بن
يعقوب بالذال المعجمة فقلبتا العرب دالا مهملة، وقيل معنى هادوا تابوا
لتوبتهم عن عبادة العجل، ومنه قوله تعالى ﴿إنا هدنا إليك﴾ أي تبنا، وقيل
أن معناه السكون والموادعة وقال في الكشف معناه دخل في اليهودية.

﴿والنصارى﴾ قال سيويه مفردة نصران ونصرانة كندمان وندمانه، ولكن
لا يستعمل إلا بياء النسب، فيقال رجل نصراني وامرأة نصرانية، وقال الخليل
واحد النصارى نصري، وقال الجوهري ونصران قرية بالشام تنسب إليها
النصارى، ويقال ناصرة فعلى هذا فالياء للنسب، وقال في الكشف أن الياء
للمبالغة كالتي في أحمر سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح.

﴿والصابئين﴾ جمع صابيء وقيل صاب، والصابيء في اللغة من خرج ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ، سموا هذه الفرقة صابئة لأنها خرجت من دين اليهود والنصارى وعبدوا الملائكة وقيل عبدوا الكواكب، وقال البيضاوي إنهم قوم بين اليهود والمجوس انتهى، ثم جعل هذا اللقب علماً لطائفة من الكفار، وقيل هم يدعون أنهم على دين صابيء بن شيث بن آدم والأول أولى.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية في كتابه في الرد على المنطقيين إن حران كانت دار هؤلاء الصابئة وفيها ولد إبراهيم عليه السلام أو انتقل إليها من العراق على اختلاف القولين، وكان بها هيكل العلة هيكل العقل الأول هيكل النفس الكلية هيكل زحل هيكل المشتري هيكل المريخ هيكل الشمس، وكذلك الزهرة وعطارد والقمر، وكان هذا دينهم قبل ظهور النصرانية فيهم، ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين حتى جاء الإسلام ولم يزل بها الصابئة والفلاسفة في دولة الاسلام إلى آخر وقت، ومنهم الصابئة الذين كانوا ببغداد وغيرها أطباء وكتاباً وبعضهم لم يسلم.

ولما قدم الفارابي حران في أثناء المائة الرابعة دخل عليهم وتعلم منهم وأخذ عنهم ما أخذ من المتفلسفة، وكان ثابت بن قرة الحراني صاحب الزيج قد شرح كلام أرسطو في الإلهيات، وقد رأيت وبينت بعض ما فيه من الفساد، فإن فيه ضللاً كثيراً، وكذلك كان دين أهل دمشق وغيرها قبل ظهور دين النصرانية وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي، ولهذا يوجد في دمشق مساجد قديمة فيها قبلة إلى القطب الشمالي، وتحت جامع دمشق معبد كبير له قبلة إلى القطب الشمالي كان هؤلاء، فإن الصابئة نوعان صابئة حنفاء موحدون، وصابئة مشركون، فالأول هم الذين أثنى الله عليهم بهذه الآية فأثنى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً من هذه الملة الأربع: المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، فهؤلاء كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل، وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل النسخ والتبديل، والصابئون الذين كانوا قبل

هؤلاء كالمتبعين لملة إبراهيم إمام الحنفاء قبل نزول التوراة والإنجيل، وهذا بخلاف المجوس والمشركون فإنه ليس فيهم مؤمن، فلهذا قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فذكر الملل الست هؤلاء، وأخبر أنه يفصل بينهم يوم القيامة لم يذكر في الست من كان مؤمناً، وإنما ذكر ذلك في الأربعة فقط، ثم إن الصابئين ابتدعوا الشرك فصاروا مشركين، والفلاسفة المشركون من هؤلاء المشركين.

وأما قدماء الفلاسفة الذين كانوا يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئاً ويؤمنون بأن الله محدث لهذا العالم ويقرون بمعاد الأبدان، فأولئك من الصابئة الحنفاء الذين أثنى الله عليهم، ثم المشركون من الصابئة كانوا يقرون بحدوث هذا العالم كما كان المشركون من العرب يقرون بحدوثه، وكذلك المشركون من الهند، وقد ذكر أهل المقالات أن أول من ظهر عنه القول بقدمه من هؤلاء الفلاسفة المشركين هو ارسطو، انتهى المقصود منه.

﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ في زمن نبينا ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ بشريعته ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي ثواب أعمالهم، والأجر في الأصل مصدر يقال أجره الله يأجره أجراً، وقد يعبر به عن نفس الشيء المجازي به، والآية الكريمة تحتل المعنيين.

﴿عند ربهم﴾ «عند» ظرف مكان لازم للإضافة لفظاً ومعنى أي لهم أجرهم ثابتاً عند ربهم.

وقد تقدم تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي في الآخرة حين يخاف الكفار من العذاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر، وتفويت الثواب.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ أي عهدكم يا معشر اليهود والمراد أنه أخذ سبحانه عليهم الميثاق أن يعملوا بما شرعه لهم في التوراة أو بما هو أعم من ذلك أو أخص ﴿ورفعنا فوقكم الطور﴾ يعني الجبل العظيم، والطور اسم الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة فيه، قال ابن عباس وكان بنو إسرائيل أسفل منه، وقيل هو اسم لكل جبل بالسريرية، وفي القاموس يطلق على أي جبل كان وصرح به السمين ويطلق أيضاً على جبال مخصوصة بأعيانها، وهذا الجبل رفع فوقهم كان من جبال فلسطين، وعن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن موسى لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح قال لهم خذوها والتزموها فقالوا لا إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك فصعقوا ثم أحيوا، فقال لهم خذوها والتزموها فقالوا لا فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم فجعل عليهم مثل الظلمة واوتوا ببحر من خلفهم ونار من قبل وجوههم وقيل لهم خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق، قيل وسجدوا على أنصاف وجوههم اليسرى وجعلوا يلاحظون الجبل بأعينهم اليمنى وهم سجود، فصار ذلك سنة في سجود اليهود، قيل فكأنه حصل لهم بعد هذا القسر والإلجاء قبول وإذعان اختياري، وكان يكفي في الأمم السابقة مثل هذا الإيمان.

قال ابن جرير عن بعض العلماء لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق، قال ابن عطية والذي لا يصح سواه أن الله سبحانه اخترع وقت

سجودهم الإيمان لأنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة انتهى، وهذا تكلف ساقط حمله عليه المحافظة على ما قد ارتسم من قواعد مذهبية قد سكن قلبه اليها كغيره، وكل عاقل يعلم انه لا سبب من أسباب الإكراه أقوى من هذا أو أشد منه، ونحن نقول أكرههم الله على الإيمان فأمنوا مكروهين ورفع عنهم العذاب بهذا الإيمان، وهو نظير ما ثبت في شرعنا من رفع السيف عن تكلم بكلمة الإسلام والسيف وصلت قد هزه حامله على رأسه.

وقد ثبت في الصحيح ان النبي ﷺ قال لمن قتل من تكلم بكلمة الإسلام معتذراً عن قتله بأنه قالها تقية ولم يكن عن قصد صحيح «أأنت فتشت عن قلبه^(١)» وقال «لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس» قال القفال إنه ليس إجباراً على الإسلام لأن الجبر ما سلب الاختيار بل كان إكراهاً وهو جائز ولا يسلب الاختيار كالمحاربة مع الكفار؛ فأما قوله ﴿لا إكراه في الدين﴾ وقوله ﴿أفأنت تكره الناس﴾ فقد كان قبل الأمر بالقتال ثم نسخ؛ ذكره الشهاب.

﴿خذوا ما آتيناكم﴾ أي قلنا لهم خذوا ما اعطيناكم ﴿بقوة﴾ القوة الجد والاجتهاد ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي ادرسوا ولا تنسوه؛ والمراد بذكر ما فيه أن يكون محفوظاً عندهم ليعملوا به ﴿لعلكم تتقون﴾ أي لكي تنجو من الهلاك في الدنيا والعذاب في العقبى أو رجاء منكم أن تكونوا متقين.

(١) فقد روى مسلم في صحيحه / ٩٦ عن اسامة بن زيد بن حارثة يحدث قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقه من جهينة، فَصَبَّخْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِيَنَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ وَطَعَنَتْهُ بَرْمِي حَتَّى قَتَلَتْهُ. قال: فلما قدمنا بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا اسامة اقتلته بعدما قال لا إله إلا الله قال؛ قلت: يا رسول الله انه كان متعوذاً (أي معتصماً) قال: فقتلته بعدما قال لا إله إلا الله. فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن اسلمت قبل ذلك اليوم.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

﴿ثم توليتم﴾ أصل التولي الإدبار عن الشيء والإعراض بالجسم ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً ﴿من بعد ذلك﴾ أي الميثاق أو رفع الطور أو إيتاء التوراة؛ والمراد هنا إعراضهم عن الميثاق المأخوذ عليهم من بعد البرهان لهم والترهيب بأشد ما يكون وأعظم ما تجوزه العقول. وتقدره الأفهام، وهو رفع الجبل فوق رؤوسهم كأنه ظلة عليهم.

﴿فلولا﴾ حرف امتناع لوجود تختص بالجميل الإسمية ﴿فضل الله عليكم﴾ بأن تدارككم بلطفه؛ والفضل الزيادة والخير والأفضال والإحسان قاله ابن فارس في المجلد ﴿ورحمته﴾ حتى أظهروا التوبة ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ أي المغبونين بذهاب الدنيا والهالكين بالعذاب في العقبى: والخسران النقصان.

﴿ولقد علمتم﴾ أي عرفتم فيتعدى لواحد فقط والفرق بينهما أن العلم يستدعي معرفة الذات وما هي عليه من الاحوال، والمعرفة تستدعي معرفة الذات أو الفرق ان المعرفة يسبقها جهل بخلاف العلم ولذلك لا يجوز إطلاقها عليه سبحانه.

﴿الذين اعتدوا منكم﴾ أي جاوزوا الحد ﴿في السبت﴾ يقال سبت اليهود لأنهم يعظمونه ويقطعون فيه أعمالهم، وأصل السبت في اللغة القطع لأن الأشياء تمت فيه وانقطع العمل، وقيل هو مأخوذ من السبوت وهو الراحة والدعة، وقال في الكشف السبت مصدر سبت اليهود إذا عظمت يوم السبت انتهى، وفيه نظر، فان هذا اللفظ موجود واشتقاقه مذكور في لسان العرب قبل

فعل اليهود ذلك .

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن اليهود افترقت فرقتين، ففرقة اعتدت في السبت أي جاوزت ما أمر الله به من العمل فيه فصادوا السمك الذي نهاهم الله عن صيده فيه، والفرقة الأخرى انقسمت الى فرقتين: ففرقة جاهرت بالنهي واعتزلت، وفرقة لم توافق المعتدين ولا صادوا معهم لكنهم جالسوهم ولم يجاهروهم بالنهي، ولا اعتزلوا عنهم، فمسخهم الله جميعاً ولم ينج إلا الفرقة الأولى فقط .

وهذه من جملة المحن التي امتحن الله بها هؤلاء الذين بالغوا في العجرفة وعاندوا أنبياءهم وما زالوا في كل موطن يظهر من حماقاتهم وسخف عقولهم وتعتهم نوعاً من أنواع التعسف، وشعبة من شعب التكلف، فإن الحيتان كانت في يوم السبت كما وصف الله سبحانه بقوله: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَاعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ فاحتالوا لصيدها وحفروا الحفائر وشقوا الجداول، فكانت الحيتان تدخلها يوم السبت فيصيدونها يوم الأحد، فلم ينتفعوا بهذه الحيلة الباطلة وكانت هذه القصة في زمن داود بأرض أيلة .

﴿فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ أمر تحويل وتسخير وتكوين وهو عبارة عن تعلق القدرة بنقلهم عن الحقيقة البشرية إلى حقيقة القردة أي كونوا مبعدين عن الرحمة مطرودين عن الشرف، وقيل فيه تقديم وتأخير معناه كونوا خاسئين قردة ولهذا لم يقل خاسئات، والخاسيء المبعد، ومنه قوله تعالى ﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ أي مبعداً وقوله ﴿اخْسِئُوا فِيهَا﴾ أي تباعدوا تباعد سخط ويكون الخاسيء بمعنى الصاغر، والمراد هنا كونوا بين المصير إلى أشكال القردة مع كونهم مطرودين صاغرين، فقردة خبر الكون، وخاسئين خبر آخر، وقيل انه صفة لقردة، والاول أظهر .

وعن ابن عباس قال مسخهم الله قردة بمعصيتهم ولم يعيش مسيخ قط فوق ثلاثة ايام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، قال الحسن انقطع ذلك النسل، وقال مجاهد مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة، إنما هو مثل ضربه الله لهم كقوله ﴿مثل الحمار يحمل أسفارا﴾ وقال ابن عباس صار شباب القوم قردة، والمشيخة صاروا خنازير^(١).

واختلف في مرجع الضمير في قوله ﴿فجعلناها﴾ ف قيل المسخة والعقوبة وقيل الأمة، وقيل القرية، وقيل القردة، وقيل الحيتان، والأول أظهر ﴿نكالا﴾ أي عقوبة وعبرة، والنكال الزجر والعقاب، والنكل القيد لأنه يمنع صاحبه ﴿لما بين يديها وما خلفها﴾ أي عقوبة لما مضى من ذنوبهم وعبرة لمن بعدهم إلى يوم القيامة، وقيل من الذنوب التي عملوا قبل وبعد، قاله ابن عباس ﴿وموعظة للمتقين﴾ من قومهم أو لكل متق سمعها. الموعظة مأخوذ من الاتعاض والإزجار والوعظ التخويف، وقال الخليل الوعظ التذكير بالخير.

(١) روى عثمان بن عطاء عن أبيه قال: نودي الذين اعتدوا في السبت ثلاثة أصوات. نودوا: يا أهل القرية، فانتبهت طائفة أكثر من الأولى، ثم نودوا: يا أهل القرية، فانتبه الرجال والنساء والصبيان، فقال الله لهم: (كونوا قردة خاسئين) فجعل الذين نههم يدخلون عليهم فيقولون: يا فلان ألم نهكم؟ فيقولون برؤوسهم: بلى. قال قتادة: فصار القوم قردة تعاوي، لها أذنان بعدما كانوا رجالاً ونساء.

وفي رواية عن قتادة: صار الشبان قردة، والشيخوخا خنازير، وما نجا إلا الذين نهوا، وهلك سائرهم. وقال غيره: كانوا نحواً من سبعين ألفاً وعلى هذا القول العلماء، غير ما روي عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم تمسخ أبدانهم، وهو قول بعيد، قال ابن عباس: لم يحيا على الأرض إلا ثلاثة أيام، ولم يحيا مسخ في الأرض فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل. وزعم مقاتل أنهم عاشوا سبعة أيام، وماتوا في اليوم الثامن، وهذا كان في زمان داود عليه السلام.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُواً قَالَ
 أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لِنَارِكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٨﴾

﴿واذ قال موسى لقومه﴾ توبيخ آخر لأخلاف بني إسرائيل بتذكير بعض جنيات صدرت من أسلافهم، أي اذكروا وقت قول موسى لأصولكم وقد قتل لهم قتيل لا يدرى قاتله، وسألوه أن يدعو الله أن يبينه لهم فدعاه، والقتيل اسمه عاميل.

﴿إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة﴾ قيل إن قصة ذبح البقرة المذكورة هنا مقدم في التلاوة ومؤخر في المعنى على قوله تعالى ﴿واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾ ويجوز أن يكون قوله ﴿إذ قتلتم﴾ مقدماً في النزول ويكون الأمر بالذبح مؤخراً، قال الكرخي وإنما أخر أول القصة تقدماً لذكر مساوئهم وتعدد لها ليكون أبلغ في توبيخهم على القتل، ويجوز أن يكون ترتيب نزولها على حسب تلاوتها، فكأن الله أمرهم بذبح البقرة حتى ذبحوها ثم وقع ما وقع من أمر القتل فأمروا أن يضربوا ببعضها، هذا على فرض أن الواو تقتضي الترتيب، وقد تقرر في علم العربية أنها لمجرد الجمع من دون ترتيب ولا معية.

والبقرة اسم للأثني ويقال للذكر ثور، وقيل إنها تطلق عليهما وأصله من البقر وهو الشق لأنها تشق الأرض بالحرث، قال الأزهري البقر اسم جنس وجمعه باقر ﴿قالوا اتخذنا هزواً﴾ أي نحن نسألك أمر القتل وأنت تأمرنا بذبح بقرة، وإنما قالوا ذلك لبعد ما بين الأمرين في الظاهر ولم يعلموا ما وجه الحكمة فيه، والهزو هنا اللعب والسخرية، وإنما يفعل ذلك أهل الجهل لأنه نوع من العبث الذي لا يفعله العقلاء، ولهذا أجابهم موسى بالاستعانة بالله

سبحانه من الجهل.

﴿قال﴾ يعني موسى ﴿أعوذ بالله﴾ أي أمتنع به ﴿أن أكون من الجاهلين﴾ أي بالجواب لا على وفق السؤال أو من المستهزئين بالمؤمنين، وهذا أبلغ من قولك أن أكون جاهلاً.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي ما سنها، وهذا السؤال عن صفة البقرة لا عن حقيقتها فإنها معروفة، وهذا نوع من أنواع تعنتهم المألوفة، فقد كانوا يسلكون هذه المسالك في غالب ما أمرهم الله به، ولو تركوا التعنت والأسئلة المتكلفة لأجزأهم ذبح بقرة من عرض البقر، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم.

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر﴾ أي لا هي كبيرة ولا صغيرة، والفاضر المسنة التي لم تلد ومعناه في اللغة الواسع، قال في الكشف وكأنها سميت فارضاً لأنها فرضت سنها أي قطعتها وبلغت آخرها انتهى، ويقال للشيء القديم فارض، والبكر الصغيرة الفتية التي لم تحمل ولم تلد، ويطلق في اناث البهائم وبني آدم على ما لم يفتحله الفحل، ويطلق أيضاً على الأول من الأولاد.

﴿عوان بين ذلك﴾ أي نصف بين سنين، والعوان المتوسطة بين سني الفارض والبكر وهي التي قد ولدت بطناً أو بطين، ويقال هي التي ولدت مرة بعد مرة والجمع عون بالضم، والإشارة إلى الفارض والبكر وهما وإن كانتا مؤنثين فقد أشير إليهما بما هو للمذكر على تأويل المذکور كأنه قال ذلك المذکور، وجاز دخول «بين» المقتضية لشيئين لأن المذکور متعدد.

﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ به أي من ذبح البقرة ولا تكثروا السؤال وهذا تجديد للأمر وتأکید له وزجر لهم عن التعنت فلم ينفعهم ذلك ولا نجع فيهم، بل رجعوا إلى طيبتهم، وعادوا إلى عكرهم واستمروا على عادتهم المألوفة.

قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾

و ﴿قَالُوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ اللون واحد الألوان، وجمهور المفسرين على أنها كانت جميعها صفراء، قال بعضهم حتى قرنها وظلفها، وقال الحسن وسعيد بن جبير أنها كانت صفراء القرن والظلف فقط وهو خلاف الظاهر، والمراد بالصفرة هنا الصفرة المعروفة، وروي عن الحسن أن صفراء معناه سوداء، وهذا من بدع التفاسير ومنكراتها، وليت شعري كيف يصدق على اللون الأسود الذي هو أقبح الألوان أنه يسر الناظرين، وكيف يصح وصفه بالفقوع الذي يعرف كل من يعرف لغة العرب أنه لا يجري على الأسود بوجه من الوجوه، فإنهم يقولون في وصف الأسود حالك وحلكوك ودجوجي وغريب، قال الكسائي يقال فقع لونها إذا خلصت صفرتها، وقال في الكشف الفقوع أشد ما يكون من الصفرة وأنصعه، ومعنى ﴿تسر الناظرين﴾ تدخل عليهم السرور إذا نظروا إليها إعجاباً بها واستحساناً للونها، قال وهب كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدها يعجبهم حسنها وصفاء لونها^(١).

(١) وروى السدي عن أشياخه أن رجلاً من بني إسرائيل كانت له بنت وابن أخ فقير، فخطب إليه ابنته، فأبى، فغضب وقال: والله لأقتلن عمي، ولأخذن ماله ولأنكحن ابنته، ولأكُلُن ديتَه، فأتاه فقال: قد قدم تجار في بعض أسباط بني إسرائيل، فانطلق معي فخذ لي من تجارتهم لعلني أصيب فيها ربحاً، فخرج معه، فلما بلغا ذلك السبط، قتله الفتى، ثم رجع، فلما أصبح، جاء كأنه يطلب عمه لا يدري أين هو، فاذا بذلك السبط قد اجتمعوا عليه، فأمسكهم وقال: قتلتم عمي وجعل يبكي وينادي: واعماه. قال أبو العالية: والذي سأل موسى أن يسأل الله البيان: القاتل. وقال غيره: بل القوم اجتمعوا فسألوا موسى، فلما أمرهم بذبح بقرة، قالوا: أتناخذنا هزواً.

قَالُوا اَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ
لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْكَيْنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي سائمة أو عاملة وعلى هذا
فليس هذا السؤال تكريراً للسؤال الأول كما ادعاه بعضهم، قاله الخطيب ﴿إن
البقر تشابه علينا﴾ أي التبس واشتبه أمرها علينا أي أن جنس البقر متشابه
عليهم لكثرة ما يتصف منها بالعوان الصفراء الفاقعة ﴿وإننا إن شاء الله
لمهتدون﴾ وعدوا من أنفسهم بالإهتداء إلى ما دلهم عليه والامتثال لما أمروا به،
قليل لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الدهر.

﴿قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول﴾ أي ليست مذللة والذلول التي يذلها
العمل ﴿تثير الأرض﴾ أي تقلبها للزراعة ﴿ولا تسقي الحرث﴾ أي ليست
بسانية يعني من النواضح التي يسنى عليها ويسقى الزرع، وحرف النفي الآخر
توكيد للأول أي هذه بقرة غير مذللة بالحرث ولا بالنضح، ولهذا قال الحسن
كانت البقرة وحشية، وقال قوم إن قوله تثير فعل مستأنف والمعنى إيجاب الحرث
لها والنضح بها والأول أرجح لأنها لو كانت مثيرة ساقية لكانت مذللة ربيعة
وقد نفى الله ذلك عنها.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي بريئة من العيوب، والمسلمة هي التي لا عيب فيها وقيل
مسلمة من العمل وهو ضعيف لأن الله سبحانه قد نفى ذلك عنها، والتأسيس
خير من التأكيد، والإفادة أولى من الإعادة ﴿لا شية فيها﴾ أي لا لون فيها غير
لونها، والشية مأخوذة من وشي الثوب إذا نسج على لونين مختلفين، وثور
موشى: في وجهه وقوائمه سواد ويقال ثور أشيه وفرس أبلق وكبش أخرج

وتيس أبرق وغراب أبقع، كل ذلك بمعنى أبلق والمراد أن هذه البقرة خالصة الصفرة ليس في جسمها لمعة من لون آخر، فلما سمعوا هذه الأوصاف التي لا يبقى بعدها ريب ولا يخالج سامعها شك، ولا تحتل الشركة بوجه من الوجوه أقصروا من غوايتهم وانتبهوا من رقتهم، وغرقوا بمقدار ما أوقعهم فيه تعنتهم من التضيق عليهم.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي أوضحت لنا الوصف وبينت لنا الحقيقة التي يجب الوقوف عندها، فحصلوا تلك البقرة الموصوفة بتلك الصفات، قيل «أل» في الآن للتعريف الحضوري وقيل زائدة لازمة ﴿فذبحوها﴾ وامثلوا الأمر الذي كان يسيراً فعسروه وكان واسعاً فضيقوه.

﴿وما كادوا يفعلون﴾ ما أمروا به لما وقع منهم من التثبط والتعنت وعدم المبادرة فكان ذلك مظنة للاستبعاد محلاً للمجيء بعبارة مشعرة بالتثبط والتعنت الكائن منهم، وقيل أنهم كادوا يفعلون لعدم وجدان البقرة المتصفة بهذه الأوصاف، وقيل لارتفاع ثمنها، وقيل لخوف انكشاف أمر المقتول والأول أرجح.

وقد استدل جماعة من المفسرين والاصوليين بهذه الآية على جواز النسخ قبل امكان الفعل، وليس ذلك عندي بصحيح لوجهين:

(الأول) أن هذه الأوصاف، الزيدة بسبب تكرار السؤال هي من باب التقييد للمأمور به لا من باب النسخ، وبين البابين بون يعيد كما هو مقرر في علم الأصول.

(الثاني) أما لو سلمنا أن هذا من باب النسخ لا من باب التقييد لم يكن فيه دليل على ما قالوه فانه قد كان يمكنهم بعد الأمر الأول ان يعمدوا إلى بقرة من عرض البقر فيذبحوها ثم كذلك بعد الوصف بكونها جامعة بين الوصف بالعوان والصفرة، ولا دليل يدل على أن هذه المحاوره بينهم وبين موسى عليه السلام واقعة في لحظة واحدة، بل الظاهر أن هذه الاسئلة المتعنتة كانوا يتواطؤون عليها ويديرون

الرأي بينهم في أمرها ثم يوردونها، وأقل الاحوال الاحتمال القادح في الاستدلال.

وعن عبدة السلماني قال كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن اخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم إلى بعض، فقال ذو الرأي منهم علام يقتل بعضكم بعضاً، وهذا رسول الله فيكم، فأتوا موسى فذكروا ذلك له فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ الآية قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا من قتلك، فقال هذا لابن أخيه، ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً ولم يورث قاتل بعده.

وعن ابن عباس أن القتيل وجد بين قريتين وأن البقرة كانت لرجل كان يير أباه فاشتروها بوزنها ذهباً، وقد روي في هذا قصص مختلفة لا يتعلق بها كثير فائدة.

وفي القصة أحكام منها الاستدلال بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ على أن الأمر لا يدخل في عموم الأمر فإن موسى لم يدخل في الأمر بدليل قوله (فذبحوها) ومنها الاستدلال على أن السنة في البقرة الذبح، ومنها الاستدلال على جواز ورود الأمر مجملاً وتأخير بيانه، ومنها دلالة قوله لا فارض ولا بكر وقوله مسلمة على جواز الاجتهاد واستعمال غالب الظن في الأحكام لأن ذلك لا يعلم إلا بالاجتهاد، ومنها أن المستهزيء يستحق سمة الجهل، ومنها دلالة قوله (إن شاء الله) على الاستثناء في الأمور، ومنها دليل أهل السنة في أن الأمر لا يستلزم المشيئة، ومنها الدلالة على حصر الحيوان بالوصف وجواز السلم فيه، ومنها دلالة قوله ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾ على أن الأمر على الفور ويدل على ذلك أنه استقصرهم حين لم يبادروا إلى فعل ما أمرهم به وقال فذبحوها وما كادوا يفعلون.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ
بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ أي واذكروا يا بني إسرائيل وقت قتل هذه النفس وما وقع فيه من القصة والخطاب لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، واسناد القتل والتدريء إليهم، لأن ما يصدر عن الاسلاف ينسب للاخلاف توبيخاً وتقريعاً.

قال الرازي في تفسيره اعلم أن وقوع القتل لا بد أن يكون متقدماً لأمره تعالى بالذبح، فأما الإخبار عن وقوع القتل وعن أنه لا بد أن يضرب القتيل ببعض تلك البقرة فلا يجب أن يكون متقدماً على الإخبار عن قصة البقرة، فقول من يقول هذه القصة يجب أن تكون متقدمة في التلاوة على الأولى خطأ لأن هذه القصة في نفسها يجب أن تكون متقدمة على الأولى في الوجود، فأما التقدم في الذكر فغير واجب لأنه تارة يقدم ذكر السبب على الحكم، وأخرى على العكس من ذلك، فكأنهم لما وقعت لهم تلك الواقعة أمرهم الله بذبح البقرة فلما ذبحوها قال ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ من قبل، ونسب القتل إليهم لكون القاتل منهم انتهى، والقتيل اسمه عاميل ذكره الكرمانى وقيل نكار حكاها الماوردي وقاتله ابن أخيه وقيل أخوه.

﴿فَادَرَأْتُمْ فِيهَا﴾ اختلفتم وتنازعتم لأن المتنازعين يدرأ بعضهم بعضاً أي يدفعه ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي ما كتمتم بينكم من أمر القتل فالله مظهره لعباده ومبينه لهم، وعن المسيب بن رافع قال ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله، وتصديق ذلك في كتاب الله.

﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة صماء لا

باب لها ولا كوة خرج عمله إلى الناس كائناً ما كان .

وأخرج البيهقي من حديث عثمان قال : قال رسول الله ﷺ من كانت له سريرة صالحة أو سيئة أظهر الله عليه منها رداء يعرف به ، والموقوف أصح ، ولجماعة من الصحابة والتابعين كلمات تفيد هذا المعنى .

﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ يعني القتل ، واختلف في تعيين البعض الذي أمروا بأن يضربوا به القتل فقل بلسانها وقيل بعجب الذنب . وقيل بفخذها اليمين ، وقال ابن عباس بالعظم الذي يلي الغضروف ، وهو أصل الاذن ، ولا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم ، ويكفي أن نقول أمرهم الله بأن يضربوه ببعضها فأى بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به ، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان ، وليس في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ما يدل على ذلك البعض ما هو ، وذلك يقتضي التخيير .

﴿كذلك يحیی الله الموتی﴾ أي كمثل هذا الاحياء يوم القيامة ، فلا فرق بينهما في الجواز والامكان ، والغرض من هذا الرد عليهم في انكار البعث ، وهذا يقتضي أن يكون الخطاب مع العرب لا مع اليهود لانهم يقرون بالبعث والجزاء ، وعلى هذا الجملة اعتراض في خلال الكلام المسوق في شأن اليهود ﴿ويریكم آیاته﴾ أي علاماته ودلائله الدالة على كمال قدرته ، وهذا يحتمل أن يكون خطاباً لمن حضر القصة ويحتمل أن يكون خطاباً للموجودين عند نزول القرآن ، والرؤية هنا بصرية ﴿لعلکم تعقلون﴾ أي تمنعون أنفسكم من المعاصي .

وقد اخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قصة طويلة في ذكر البقرة وصاحبها لا حاجة إلى التطويل بذكرها وقد استوفاهما السيوطي في الدر المنثور .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ثم﴾ موضوعة للتراخي في الزمان ولا تراخي هنا فهي محمولة على الاستبعاد مجازاً ﴿قست قلوبكم﴾ أي يبست وجفت وقيل غلظت واسودت وصلبت، وقساوة القلب إنتزاع الرحمة منه والقسوة الصلابة واليبس وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والاذعان لآيات الله مع وجود ما يقتضي خلاف هذه القسوة من أحياء القتل وتكلمه وتعيينه لقاتله، وفيه استعارة تبعية تمثيلية تشبيهاً لحال القلوب في عدم الاعتبار والإلتعاض بالقسوة.

والإشارة بقوله ﴿من بعد ذلك﴾ إلى ما تقدم من الآيات الموجبة للين القلب ورقته التي جاء بها موسى أو أحياء القتل بعد ضربه ببعض البقرة، وهذا مؤكد للاستبعاد المذكور أشد تأكيد ﴿فهي﴾ أي القلوب في الغلظة والشدة ﴿كالحجارة﴾ أي كالشيء الصلب الذي لا تخلخل فيه.

قليل (أو) في قوله ﴿أو أشد قسوة﴾ بمعنى الواو كما في قوله تعالى ﴿آثماً أو كفوراً﴾ وقيل هي بمعنى بل واختاره أبو حيان، وعلى أن «أو» على أصلها أو بمعنى الواو فالعطف على قوله كالحجارة أي هذه القلوب هي كالحجارة أو هي أشد قسوة منها فشبهوها بأي الأمرين شئت فإنكم مصيبون في هذا التشبيه، وقد أجاب الرازي في تفسيره عن وقوع أو ههنا مع كونها للترديد الذي لا يليق بعلام الغيوب بثمانية أوجه.

﴿وإن من الحجارة﴾ قال في الكشاف إنه بيان لفضل قلوبهم على الحجارة في شدة القسوة وتقرير لقوله أو أشد قسوة انتهى، وفيه أن مجيء البيان بالواو غير معروف ولا مألوف والأولى جعل ما بعد الواو تذييلاً أو حالاً ﴿لما

يتفجر منه الانهار ﴿ قيل أراد به جميع الحجارة وقيل أراد به الحجر الذي كان يضرب عليه موسى ليسقي الاسباط، والتفجر التفتح بالسعة والكثرة ﴾ وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ﴿ يعني العيون الصغار التي هي دون الانهار، التفجر التفتح والشق واحد الشقوق وهو يكون بالطول أو بالعرض بخلاف الانفجار فهو الانفتاح من موضع واحد مع اتساع الخرق، والمراد أن الماء يخرج من الحجارة من مواضع الانفجار والانشقاق^(١).

﴿ وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ أي أن من الحجارة لما ينحط من المكان الذي هوفيه إلى أسفل منه من الخشية التي تداخله وتحل به، وقيل أن الهبوط مجاز عن الخشوع منها والتواضع الكائن فيها انقياداً لله عز وجل، فهو مثل قوله تعالى ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ واختاره ابن عطية، وقد حكى ابن جرير عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعيرت الإرادة للجدار، وذكر الجاحظ أن الضمير في قوله ﴿ وإن منها ﴾ راجع إلى القلوب لا إلى الحجارة وهو فاسد فإن الغرض من سياق هذا الكلام هو التصريح بأن قلوب هؤلاء بلغت في القسوة وفرط اليبس الموجبين لعدم قبول الحق والتأثر للمواعظ إلى مكان لا تبلغ إليه الحجارة التي هي أشد الاجسام صلابة وأعظمها صلادة، فإنها ترجع إلى نوع من اللين وهو تفجرها بالماء وتشققها عنه، وقبولها لما توجهه الخشية لله من الخشوع والانقياد بخلاف تلك القلوب.

وفي قوله ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ من التهديد وتشديد الوعيد ما لا يخفى، فإن الله عز وجل إذا كان عالماً بما يعملونه مطلعاً عليه، غير غافل عنه، كان لمجازاتهم بالمرصاد.

(١) قال مجاهد: كل حجر ينفجر منه الماء، ينشق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل فهو من خشية الله. زاد السير ١/١١٢.

﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

﴿افتطمعون﴾ الهمزة للاستفهام وتدخل على ثلاثة من حروف العطف الفاء كما هنا والواو كقوله الآتي ﴿أو لا يعلمون﴾ وثم كقوله ﴿أثم إذا ما وقع﴾ واختلف في مثل هذه التراكيب فذهب الجمهور إلى أن الهمزة مقدمة من تأخير لأن لها الصدر، والتقدير فأتطمعون وألا يعلمون وثم إذا. وذهب الزخشي إلى أنها داخلة على محذوف دل عليه سياق الكلام والتقدير هنا أستمعون اخبارهم وتعلمون أحوالهم فتطمعون ﴿أن يؤمنوا لكم﴾ مع أنهم لم يؤمنوا بموسى، هذا الاستفهام فيه معنى الانكار كأنه أيسها من إيمان هذه الفرقة من اليهود، والخطاب لأصحاب النبي ﷺ، أوله ﷺ والجمع للتعظيم ﴿وقد كان فريق منهم﴾ قيل المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى عليه السلام يوم الميقات والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه.

﴿يسمعون كلام الله﴾ أي التوراة وقيل انهم سمعوا خطاب الله لموسى عليه السلام حين كلمه، وعلى هذا فيكون الفريق هم السبعون الذين اختارهم موسى ﴿ثم يحرفونه﴾ أي يغيرونه ويبدلونه والتحريف الامالة والتحويل، وثم للتراخي إما في الزمان أو في الرتبة، والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة فجعلوا حلاله حراماً أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم كتحريفهم صفة رسول الله ﷺ، واسقاط الحدود عن أشرفهم، أو سمعوا كلام الله لموسى عليه السلام فزادوا فيه ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال، أي ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سبيلهم ﴿من بعد ما عقلوه﴾ أي علموا صحة كلام الله ومراده فيه ﴿وهم يعلمون﴾ أي ذلك الذي فعلوه هو تحريف مخالف لما أمرهم الله به من تبليغ شرائعه كما هي، فهم وقعوا

في المعصية عالمين بها وذلك أشد لعقوبتهم وأبين لضلالتهم.

واعلم أن التوراة والانجيل اللذين عند اليهود والنصارى الآن يختلف فيهما هل هما مبدلان ومحرّفان لفظاً أو تأويلًا، فأما التوراة فأفرط فيها قوم وقالوا كلها أو جلها مبدل، وذهبت طائفة من الفقهاء والمحدثين إلى أن ذلك إنما وقع في التأويل فقط كما صرح به البخاري، واختاره الفخر الرازي وغيره لقوله تعالى ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ وهو أمر للنبي ﷺ بالاحتجاج بها، والمبدل لا يحتج به ولما اختلفوا في الرجم لم يمكنهم تغيير آيته منها، وتوسط طائفة وهو الحق فقالوا بدل بعض منها وحرف لفظه، وأول بعض منها بغير المراد منه، وأنه لم يعط منها موسى لبني اسرائيل غير سورة واحدة وجعل ما عداها عند أولاد هارون، فلم تزل عندهم حتى قتلوا عن آخرهم في وقعة بختنصر، وبعد ذلك جمع عزيز بعضاً منها ممن حفظها فهو الذي عندهم اليوم، وليس أصلها، وفيه زيادة ونقص وخلاف وترجمة وتأويل^(١).

وأما الإنجيل ففيه تبديل وتحريف في بعض ألفاظه ومعانيه وهو مختلف النسخ، والأنجيل أربعة كما فصله بعضهم في كتاب عقده لذلك سماه المفيد في التوحيد.

(١) وقد ذكر ابن الجوزي عند تفسيره لهذه الآية:

وفي المخاطبين بهذه الآية ثلاثة أقوال:

انه النبي صلى الله عليه وسلم خاصة قاله ابن عباس ومقاتل.

انهم المؤمنون تقديره افتطمعون ان تصدقوا ببيكم.

انهم الانسان. فانهم لما اسلموا أحبوا اسلام اليهود للرضاعة التي كانت بينهم.

وَإِذَا الْقَوَالِذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُّهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ
بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّوْنَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمَنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ
إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ نزلت في اليهود، قال ابن عباس ان منافقي اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب رسول الله ﷺ قالوا لهم آمنا بالذي آمنتم به وأن صاحبكم صادق وقوله حق، وأنا نجد نعته وصفته في كتابنا ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ووهب ابن يهودا رؤساء اليهود لاموا منافقي اليهود على ذلك، وعن عكرمة أنها نزلت في ابن صوريا.

﴿قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وذلك أن ناساً من اليهود أسلموا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذب به آبائهم، وقيل ان المراد ما فتح الله عليهم في التوراة في صفة محمد ﷺ، والفتح عند العرب القضاء والحكم والفتاح القاضي بلغة اليمن، والفتح النصر، ومن ذلك قوله تعالى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ ومن الأول ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ أي الحاكمين ويكون الفتح بمعنى الفرق بين الشيئين وقيل معناه الانزال، وقيل الاعلام أو التبيين أو المن أي ما من به عليكم من نصركم على عدوكم.

﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ﴾ أي ليخاصمكم أصحاب محمد ﷺ ويحتجوا عليكم بقولكم فيقولون لكم قد أقررتم أنه نبي حق في كتابكم ألا تتبعونه ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة وقيل عند بمعنى في، وقيل عند ذكر ربكم والأول أولى، والمحااجة إراز الحجة أي لا تخبروهم بما حكم عليكم الله به من العذاب

فيكون ذلك حجة لهم عليكم فيقولون نحن أكرم على الله منكم وأحق بالخير منه، والحجة الكلام المستقيم، وحاججت فلاناً فحججته أي غلبته بالحجة ﴿أفلا تعقلون﴾ ما فيه الضرر عليكم من هذا التحديث الواقع منكم لهم، وهذا من تمام مقولهم.

ثم وبخهم الله سبحانه فقال ﴿أو لا يعلمون﴾ أي اليهود ﴿أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ ما يخفون وما يبذون ويظهرون من جميع أنواع الأسرار، وأنواع الإعلان، ومن ذلك إسرارهم الكفر وإعلانهم الإيمان وتحريف الكلم عن مواضعه، قال ابن عباس هذه الآيات في المنافقين من اليهود، وقال أبو العالية ما يسرون من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم، وما يعلنون حين قالوا للمؤمنين آمنا، وقد قال بمثل هذا جماعة من السلف.

﴿وممنهم أميون﴾ أي ومن اليهود، والأمي منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، وقال أبو عبيدة إنما قيل لهم أميون لنزول الكتاب عليهم كأنهم نسبوا إلى أم الكتاب فكأنه قال ومنهم أهل كتاب، وقيل هم نصارى العرب وقيل هم قوم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم لذنوب ارتكبوها، وقيل هم المجوس حكاه المهدوي وقيل غير ذلك والراجح الأول، وقيل أميون أي عوام ومن هذا شأنه لا يطمع في إيمانه.

﴿لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾ أي أنهم لا علم لهم به إلا ما هم عليه من الأماني التي يتمنونها ويعلمون بها أنفسهم، والأماني جمع أمنية وهي ما يتمناه الإنسان لنفسه، فهؤلاء لا علم لهم بالكتاب الذي هو التوراة لما هم عليه من كونهم لا يكتبون ولا يقرؤون المكتوب، والاستثناء منقطع أي لكن الأماني ثابتة لهم من كونهم مغفوراً لهم بما يدعونه لأنفسهم من الأعمال الصالحة أو بما لهم من السلف الصالح في اعتقادهم، وقيل الأماني الأكاذيب المختلفة، قاله ابن عباس أي ولكن يعتقدون أكاذيب اخذوها تقليداً من المحرفين أو مواعيد فارغة

سمعوها منهم من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً، وقيل الأمانى التلاوة، ومنه قوله تعالى ﴿إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي إذا تلى ألقى الشيطان في تلاوته أي لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، وقراءة عارية عن معرفة المعنى، وقيل الأمانى التقدير، قال الجوهري يقال منى له أي قدر، قال في الكشف والاشتقاق من منى إذا قدر لأن المتمنى يقدر في نفسه ويحزم ما يتمناه، وكذلك المختلق والقاريء يقدران كلمة كذا بعد كذا انتهى، وقيل هو من التمني وهو قولهم ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾ وغير ذلك مما تمنوه، والمعنى لكن يتمنون أشياء لا تحصل لهم^(١).

﴿وإن هم إلا يظنون﴾ أي ليسوا على يقين، والظن هو التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم كذا في القاموس، أي ما هم إلا يترددون بغير جزم ولا يقين: وقيل الظن هنا بمعنى الكذب وقيل هو مجرد الحدس.

لما ذكر الله سبحانه أهل العلم بأنهم غير عاملين بل يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ذكر أهل الجهل منهم بأنهم يتكلمون على الأمانى ويعتمدون على الظن الذي لا يقفون من تقليدهم على غيره ولا يظفرون بسواه.

(١) ويؤيد هذا ما رواه مقاتل:

كان المسلم يلقي حليفه أو أخاه من الرضاعة من اليهود.

فيسأله: اتجدون محمداً في كتابكم.

فيقولون: نعم إنه لح.

فسمع كعب بن الأشرف وغيره. فقال لليهود في السر:

اتجدون أصحاب محمد بما فتح الله عليكم من امر محمد ليخاصموكم به عند ربكم باعترافكم انه نبي، أفلا تعقلون انه حجة عليكم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾
 وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَنْتَا مَتَّعُدُونَ قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ الويل الهلاك قال الفراء الأصل في الويل وي أي حزن كما تقول وي لفلان أي حزن له فوصلته العرب باللام، وقال الخليل ولم يسمع على بنائه إلا ويح وويس وويه وويك وويب، وكله متقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم وهي مصادر لم تنطق العرب بأفعالها وجاز الابتداء به وإن كان نكرة لأن فيه معنى الدعاء، وقال ابن عباس الويل شدة العذاب، وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ الويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره أخرجه الترمذي، وقال حديث غريب، والخريف السنة، والكتابة معروفة والمعنى أنهم يكتبون الكتاب المحرف ولا يبينون ولا ينكرونه على فاعله أو ما يكتبونه من التأويلات الزائفة، وقوله ﴿بأيديهم﴾ تأكيد لأن الكتابة لا تكون إلا باليد، فهو مثل قوله ﴿ولا طائر يطير بجناحيه﴾ وقوله ﴿يقولون بأفواههم﴾ قال ابن السراج هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وفيه أنه قد دل على أنه من تلقائهم قوله ﴿يكتبون الكتاب﴾ فإسناد الكتابة إليهم يفيد ذلك.

﴿ثم يقولون هذا﴾ أي جميعاً على الأول وبخصوصه على الثاني وثم للتراخي الرتبي فإن نسبة المحرف والتأويل الزائغ إلى الله سبحانه صريحاً أشد شناعة من نفس التحريف والتأويل ﴿من عند الله ليشتروا به﴾ أي بما كتبوا ﴿ثمناً قليلاً﴾ أي المآكل والرشاء، والاشتراء الاستبدال ووصفه بالقلة لكونه فانياً لا ثواب فيه أو لكونه حراماً لا تحل به البركة فهؤلاء الكتبة لم يكتفوا

بالتحريف، ولا بالكتابة لذلك المحرف حتى نادوا في المحافل بأنه من عند الله لينالوا بهذه المعاصي المتكررة هذا العرض المزر، والعوض الحقير، واستدل به النخعي على كراهة كتابة المصحف بالأجرة.

﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ تأكيد لقوله ﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم﴾ ومع ذلك فيه نوع مغايرة لأن هذا وقع تعليلاً فهو مقصود وذلك وقع صلة فهو غير مقصود، والكلام في هذا كالذي فيما قبله من جهة أن التكرير للتأكيد ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ قيل من الرشاء ونحوها وقيل من المعاصي، وكرر الويل تغليظاً عليهم وتعظيماً لفعالهم وهتكاً لأستارهم. وقال السعد التفتازاني إنما كرر ليفيد أن الهلاك مرتب على كل واحد من الفعلين على حدة لا على مجموع الأمرين، والكسب مسبب فجاء النظم على هذا الترتيب.

وقد ذكر صاحب الدر المنثور آثاراً عن جماعة من السلف أنهم كرهوا بيع المصاحف مستدلين بهذه الآية، ولا دلالة فيها على ذلك، ثم ذكر آثاراً عن جماعة منهم أنهم جوزوا ذلك ولم يكرهوه.

﴿وقالوا﴾ أي اليهود ﴿لن تمسنا﴾ أي تصيبنا ﴿النار إلا أياماً معدودة﴾ استثناء مفرغ أي قدراً مقدراً يحصرها العد، ويلزمها في العادة القلة ثم يرفع عنا العذاب، وقد اختلف في سبب نزول هذه الآية، قال ابن عباس إن اليهود كانوا يقولون مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودة ثم ينقطع العذاب، فأنزل الله في ذلك هذه الآية.

وعن عكرمة قال اجتمعت يهود يوماً فخاصموا النبي ﷺ فقالوا لن تمسنا النار إلا أربعين يوماً ثم يخلفنا فيها ناس، وأشاروا إلى النبي ﷺ وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ ورد يديه على رأسه كذبتم بل أنتم خالدون مخلدون فيها لان خلفكم

فيها إن شاء الله أبداً ففيهم نزلت هذه الآية ، وأخرج أحمد والبخاري والدارمي والنسائي من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ سأل اليهود في خير من أهل النار؟ قالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ «اخشئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً»^(١)

والمراد بقوله ﴿قل أتخذتم عند الله عهداً﴾ الإنكار عليهم لما صدر منهم من هذه الدعوى الباطلة أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة أي لم يتقدم لكم مع الله عهد بهذا ولا أسلفتم من الأعمال الصالحة ما يصدق هذه الدعوى حتى يتعين الوفاء بذلك وعدم إخلاف العهد أي إن اتخذتم عهداً ﴿فلن يخلف الله عهده﴾ هذا جواب الاستفهام المتقدم في قوله ﴿أتخذتم﴾ وقال ابن عطية هذا اعتراض بين أثناء الكلام قال الرازي العهد في هذا الموضع يجري مجرى الوعد، وإنما سمى خبره سبحانه عهداً لأن خبره أوكد من العهود المؤكدة ﴿أم تقولون﴾ أم متصلة وحينئذ الاستفهام للتقرير المؤدي إلى التبكيت أو منقطعة والاستفهام لإنكار الاتخاذ ونفيه ﴿على الله ما لا تعلمون﴾.

(١) يقول ابن الجوزي لماذا قدروها بأربعين فيه ثلاثة أقوال: انهم قالوا بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة ونحن نقطع مسيرة كل سنة في يوم ثم ينقضي العذاب وتهلك النار. . قاله ابن عباس. انهم قالوا: عتب علينا ربنا في أمر فاقسم ليعذبنا أربعين ليلة ثم يدخلنا الجنة، فلن تمسنا النار إلا أربعين يوماً تحلة القسم وهذا قول الحسن وابي العالية. انها عدد الأيام التي عبدوا فيها العجل قاله مقاتل.

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾

﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما بعد حرف النفي مختص به خبراً واستفهاماً أي بلى تمسكم النار أبداً لا على الوجه الذي ذكرتم من كونه أياماً معدودة ﴿من كسب سيئة﴾ المراد بها الجنس هنا ومثله قوله تعالى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها، ومن يعمل سوءاً يجز به﴾ ثم أوضح سبحانه أن مجرد كسب السيئة لا يوجب الخلود في النار بل لا بد أن يكون سببه محيطاً به فقال ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي أهدت به من جميع جوانبه فلا تبقى له حسنة وسدت عليه مسالك النجاة، قيل هي الشرك قاله ابن عباس ومجاهد، وقيل هي الكبيرة، وتفسيرها بالشرك أولى لما ثبت في السنة تواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار، ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود، وإن كان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وعليه إجماع المفسرين، وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج، قال الحسن كل ما وعد الله عليه النار فهو الخطيئة استدلل به على أن المعلق على شرطين لا ينجز بأحدهما ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ والخلود في النار هو للكفار والمشركين فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك^(١).

(١) روى مسلم في صحيحه / ١٩٣.

عن انس بن مالك: ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: يخرج من النار من قال لا إله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة.

ثم يخرج من النار من قال لا إله الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة.

وفي رواية:

اني لاعرف آخر اهل النار خروجاً من النار رجل يخرج منها زحفاً فيقال له انطلق فادخل الجنة قال فيذهب فيدخل الجنة...

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي
 الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
 الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فإن قلت لو دل الإيمان على العمل لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكراراً، قلت آمنوا يفيد الماضي وعملوا يفيد المستقبل، فكأنه قال آمنوا ثم داموا عليه آخراً، ويدخل فيه جميع الأعمال الصالحة ﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها ولا يموتون، وأق بالفاء في الشق الأول دون الثاني إيذاناً بتسبب الخلود في النار على الشرك وعدم تسبب الخلود في الجنة عن الإيمان، بل هو بمحض فضل الله تعالى.

﴿وإذ أخذنا﴾ الخطاب مع بني إسرائيل وهم اليهود المعاصرون للنبي ﷺ بما وقع من أسلافهم توبيخاً لهم بسوء صنيع أسلافهم أي اذكروا إذ أخذنا ميثاقهم، وقيل الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين، والأول أولى لأن المقام مقام تذكيرهم، وهذا شروع في تعداد بعض آخر من قبائح أسلاف اليهود بما ينادي بعدم إيمان أخلافهم ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمانهم ﴿ميثاق بني إسرائيل﴾ الذين كانوا في زمن موسى، وقد تقدم تفسير الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل، وقال مكي إن الميثاق الذي أخذه الله عليهم هنا هو ما أخذه عليهم في حياتهم على ألسن أنبيائهم وهو قوله ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ خبر بمعنى النهي وهو أبلغ من صريح النهي لما فيه من الاعتناء بشأن المنهى عنه، وتأكد طلب امتثاله حتى كأنه امثل وأخبر عنه، وعبادة الله إثبات توحيده

وتصديق رسله، والعمل بما أنزل الله في كتبه.

﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما وامتنال أمرهما وسائر ما أوجبه الله على الولد لوالديه من الحقوق، ومنه البر بهما والرحمة لهما والنزول عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله ويوصل إليهما ما يحتاجان إليه، ولا يؤذيها وإن كانا كافرين، وأن يدعوها إلى الإيمان بالرفق واللين، وكذا إن كانا فاسقين يأمرهما بالمعروف من غير عنف، ولا يقول لهما أف

﴿وذوي القربى﴾ أي القرابة عطف على الوالدين لأن حقها تابع لحقهما، والإحسان إليهم إنما هو بواسطة الوالدين، والقربى مصدر كالرجعى والعقبى وهم القرابة، والإحسان بهم صلتهم والقيام بما يحتاجون إليه بحسب الطاقة وبقدر ما تبلغ إليه القدرة.

﴿واليتامى﴾ جمع يتيم، واليتيم في بني آدم من فقد أبوه، وفي سائر الحيوانات من فقدت أمه وأصله الانفراد يقال صبي يتيم أي منفرد من أبيه فإذا بلغ الحلم زال عنه اليتيم، وتجب رعاية حقوق اليتيم لثلاثة أمور لصغره ويطمه وخلوه عمن يقوم بمصلحته إذ لا يقدر هو أن ينتفع بنفسه ولا يقوم بحوائجه

﴿والمساكين﴾ جمع مسكين وهو من أسكنته الحاجة وذللته وهو أشد فقراً من الفقير عند أكثر أهل اللغة وكثير من أهل الفقه، وروي عن الشافعي أن الفقير أسوأ حالا من المسكين، وقد ذكر أهل العلم لهذا البحث أدلة مستوفاة في مواطنها.

﴿وقولوا للناس حسناً﴾ أي قولاً حسناً سماه حسناً مبالغة، وقرىء حسناً بضمتين وهي لغة أهل الحجاز، وحسنى بغير تنوين على أنه مصدر كبشرى، والمراد به ما فيه تخلق وإرشاد، حكاه الأخفش، قال النحاس وهذا لا يجوز في العربية لا يقال من هذا شيء إلا بالألف واللام نحو الفضلى والكبرى والحسنى، وهذا قول سيبويه، وقرأ زيد بن ثابت وابن مسعود حسناً قال

الأخفش هما بمعنى واحد مثل البخل والبخل، والرشد والرشد، فهو صفة مشبهة لا مصدر، كما فهم من عبارة القاموس فسقط ما للكرخي هنا، والظاهر أن هذا القول الذي أمرهم الله به لا يختص بنوع معين بل كل ما صدق عليه أنه حسن شرعاً كان من جملة ما يصدق عليه هذا الأمر، وقد قيل إن ذلك هو كلمة التوحيد، وقيل الصدق، وقيل الأمر بالمعروف، وقيل هو اللين في القول والعشرة وحسن الخلق والنهي عن المنكر وقيل غير ذلك، قيل إن الخطاب للحاضرين من اليهود في زمن النبي ﷺ فلهذا عدل عن الغيبة إلى الخطاب قاله ابن عباس، وقيل إن المخاطبين به هم الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام، وإنما عدل من الغيبة إلى الخطاب على طريق الالتفات.

وتقدم تفسير قوله ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وهو خطاب لبني إسرائيل فالمراد الصلاة التي كانوا يصلونها والزكاة التي كانوا يخرجونها قال ابن عطية وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يقبل ولا تنزل على ما لا يقبل.

والخطاب في قوله ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ قيل للحاضرين منهم في عصر النبي ﷺ لأنهم مثل سلفهم في ذلك، وفيها التفات من الغيبة إلى الخطاب أي أعرضتم عن العهد، ومن فوائد الالتفات تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات والسأمة من الاستمرار على منوال واحد كما هو مقرر في محله، والإعراض والتولي بمعنى واحد وقيل التولي بالجسم والإعراض بالقلب ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ﴾ منصوب على الإستثناء وهو من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَنْتُمْ مَعْرُضُونَ﴾ كإعراض آبائكم، أمرهم الله تعالى بهذه التكاليف الثمانية لتكون لها المنزلة عنده بما التزموا به ثم أخبر عنهم أنهم ما وفوا بذلك.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ
ثُمَّ أَقَرَّرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ قيل هو خطاب لمن كان في زمن النبي ﷺ من اليهود، والمراد أسلافهم المعاصرون لموسى على سنن التذكيرات السابقة، وهذا شروع في بيان ما فعلوه بالعهد المتعلق بحقوق العباد بعد بيان ما فعلوا بالعهد المتعلق بحقوق الله وما يجري مجراها، وقيل لأبائهم وفيه تقرير لهم وتوبيخ ﴿لَا تَسْفِكُونَ﴾ أي لا تريقون والسفك الصب وقد تقدم ﴿دِمَاءَكُمْ﴾ أي لا يفعل ذلك بعضكم ببعض أو لا تسفكوا دماء غيركم فيسفك دماءكم فكأنكم سفكتم دماء أنفسكم فهو من باب المجاز بأدنى ملابسة، أو لأنه يوجهه قصاصاً فهو من باب إطلاق المسبب على السبب ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من داره، وقيل لا تفعلوا شيئاً فتخرجوا بسببه من دياركم، والدار المنزل الذي فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال، وقال الخليل كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم يكن فيه أبنية، وقيل سميت دار لدورها على سكانها كما يسمى الحائط حائطاً لأحاطته على ما يحويه ﴿ثُمَّ أَقَرَّرْتُمْ﴾ من الإقرار أي حصل منكم الاعتراف بهذا الميثاق المأخوذ عليكم أنه حق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يا معشر اليهود، الشهادة هنا بالقلوب، وقيل هي بمعنى الحضور أي أنكم الآن تشهدون على أسلافكم بذلك، وعلى هذا إسناداً لإقرار إليهم مجاز وكان الله سبحانه قد أخذ في التوراة على بني إسرائيل أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفية ولا يسترقه.^(١)

(١) روى السدي عن أشياخه مختصراً....

كانت قريظة يقاتلون في حرب سمير. وإذا أسر الرجل جمعوا له حتى يفدوه، فتعيرهم العرب بذلك كيف تقاتلون وتفدون فيقولون: امرنا أن نفديهم وحرّم علينا قتلهم. فيقولون لهم: فلم تقاتلوهم فيقولون: نستحي أن يستذل حلفاؤنا، فعيرهم الله بالآية التالية.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ
تُظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تُمْسِكُوهُمْ وَهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ
عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا
جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ
إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم
تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان﴾ أي أنتم هؤلاء الحاضرون المشاهدون
تخالفون ما أخذه الله عليكم في التوراة، وأصل المظاهرة المعاونة مشتقة من
الظهر، لأن بعضهم يقوي بعضاً فيكون له كالظهر، ومنه قوله تعالى ﴿وكان
الكافر على ربه ظهيراً﴾ وقوله ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ والمعنى تتعاونون
عليهم بالمعصية والظلم، والاثم في الأصل الذنب وجمعه آثام ويطلق على
الفعل الذي يستحق به صاحبه الدم واللوم، وقيل هو ما تنفر منه النفس ولا
يطمئن إليه القلب، والآية تحتل ما ذكرنا وتحتل أن يتجاوز به عما يوجب
الاثم إقامة للسبب مقام المسبب، والعدوان التجاوز في الظلم وهو مصدر
كالكفران والغفران، والمشهور ضم فائه وفيه لغة بالكسر.

﴿وإن يأتوكم﴾ أي الفريق الذي تخرجونه من دياره وقت الحرب حال
كونه ﴿أسارى﴾ جميع أسير وهو من يؤخذ قهراً، فعيل بمعنى مفعول، أو جمع
أسرى وهو جمع أسير كجرحي وجريح، وبه قرأ حمزة، قال أبو حاتم ولا يجوز
أسارى، وقال الزجاج يقال أسارى كما يقال سكارى، قال ابن فارس يقال في
جمع أسير أسرى وأسارى انتهى، فالعجب من أبي حاتم حيث ينكر ما ثبت في
التنزيل وقرأ به الجمهور، والاسير مشتق من السير وهو القد الذي يشد به
المحمل فسمي أسيراً، لأنه يشد وثاقه ثم سمي كل أخيد أسيراً وإن لم يشد

﴿تفادوهم﴾ أي بالمال وهو استنقاذهم بالشراء وقيل تبادلهم وهو مفادة الأسير، والفداء هو ما يؤخذ من الأسير ليفك به أسره، يقال فداه وفاداه أعطى فداه وأنقذه ﴿وهو﴾ ضمير الشأن ويسمى ضمير القصة ولا يرجع إلا على ما بعده وفائدته الدلالة على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه ﴿محرم عليكم إخراجهم﴾ قال المفسرون كان الله سبحانه قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة أربعة عهود: ترك القتل وترك الإخراج وترك المظاهرة وفداء أسراهم فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء فوبخهم الله على ذلك بقوله:

﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ أي إن وجدتموهم في يد غيركم فديتموهم وأنتم تقتلونهم بأيديكم فكان إيمانهم الفداء وكفرهم قتل بعضهم بعضاً فذمهم على مناقضة أفعالهم لأنهم أتوا ببعض ما يوجب عليهم وتركوا البعض، وهذا هو مناط التوبيخ حسب ما يفيد ترتيب النظم الكريم لأن من قضية الإيمان ببعضه الإيمان بالباقي لكون الكل من عند الله داخلاً في الميثاق ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم﴾ يا معشر اليهود ﴿إلا خزي في الحياة الدنيا﴾.

الخزي الهوان والعذاب، وقد وقع هذا الجزاء الذي وعد الله به الملاحين اليهود موفراً فصاروا في خزي عظيم بما الصق بهم من الذل والمهانة بالأسر والقتل وضرب الجزية والجلاء، فكان خزي بني قريظة القتل والسبي، وخزي بني النضير الإجماع والنفي من منازلهم إلى أريحا وأذرعات من أرض الشام.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ يعني النار لأنهم جاؤا بذنب شديد ومعصية فظيعة، وهذا إخبار من الله سبحانه بأن اليهود لا يزالون في عذاب موفر لازم لهم بالجزية والصغار والذلة والمهانة ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد وتهديد عظيم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴿٨٦﴾ بأن آثروها عليها لأن الجمع بين لذات الدنيا والآخرة غير ممكن، فمن اشتغل بتحصيل لذات الدنيا فاتته لذات الآخرة، قال قتادة استحبوا قليل الدنيا على كثير الآخرة ﴿٨٦﴾ فلا يخفف عنهم العذاب ﴿٨٦﴾ أبداً ما داموا ﴿٨٦﴾ ولا هم ينصرون ﴿٨٦﴾ أي لا يمنعون من عذاب الله، لا يوجد لهم ناصر يدفع عنهم ولا يثبت لهم نصر في أنفسهم على عدوهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطيناه التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة، شروع في بيان بعض آخر من جنایاتهم وتصديره بالجملة القسمية، لاظهار كمال الاعتناء به ﴿وقفينا من بعده بالرسول﴾ أي أتبعنا، والتقفية الاتباع والارداف وهو أن يقفو إثر الآخر مأخوذ من القفا وهو مؤخر العتق، والمراد أن الله سبحانه أرسل على إثره رسلاً جعلهم تابعين له وكانت الرسل من بعد موسى إلى زمن عيسى متواترة يظهر بعضهم في إثر بعض والشریعة واحدة، وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثون من بعده كالشموئيل بن بابل والياس ومنشائل واليسع ويونس وزكريا ويحيى وشعيا وحزقييل وداود وسليمان وأرميا وهو الخضر وعيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل بعثهم الله وانتخبهم من أمة موسى وأخذ عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصفة أمته، وكانوا يحكمون بشریعة موسى إلى أن بعث الله عيسى، فجاءهم بشریعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله:

﴿وآتينا عيسى بن مريم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات، وهي الأدلة

التي ذكرها الله في آل عمران والمائدة، وهي الآيات التي وضع على يديه من أحياء الموتى وإبراء الأكمه والابرص وخلقه من الطين كهيئة الطير وإبراء الأسقام والإخبار بكثير من الغيوب، وما ورد عليه من التوراة والإنجيل الذي أحدث الله إليه، وقيل هي الإنجيل، واسم عيسى بالسريانية ايشوع، ومريم بالسريانية بمعنى الخادم ثم سمي به فلذلك لم ينصرف، وفي لسان العرب هي المرأة التي تكره مخالطة الرجال، قال أبو السعود وهو بالعبرية من النساء كالزير من الرجال، ووزنه مفعّل إذا لم يثبت فعيل، ذكر السيوطي في التحبير أن مدة ما بين موسى وعيسى ألف وتسعمائة سنة وخمس وعشرون سنة.

﴿وأيدناه بروح القدس﴾ التأييد التقوية، وروح القدس من إضافة الصفة الى الموصوف أي الروح المقدسة والقدس الطهارة والمقدس المطهر قيل هو جبريل، قاله ابن مسعود أيد الله به عيسى، وسمي جبريل روحاً وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة، وقيل القدس هو الله عز وجل وروحه جبريل وقيل المراد بروح القدس الاسم الذي كان يحمي به عيسى الموتى واسم الله الأعظم، وقيل المراد به الإنجيل، وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه أيده الله به لما فيه من القوة وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «اللهم أيد حسان بروح القدس» وكان جبريل يسير مع عيسى حيث سافر فلم يفارقه حتى صعد به الى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم﴾ أي بما لا يوافقها ويلائمها، وأصل الهوى الميل الى الشيء، قال الجوهري وسمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار، وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنوي بهمزة التوبيخ ﴿استكبرتم﴾ عن إجابته احتقاراً للرسول واستبعاداً للرسالة، والسين زيادة للمبالغة ﴿فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ الفاء للتفصيل ومن الفرق المكذبين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ومن الفرق المقتولين يحيى وزكريا عليهما الصلاة والسلام وسائر من قتلوه.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ
كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف المراد به هنا الذي عليه غشاوة تمنع من وصول الكلام اليه فلا يعي ولا يفقه، قال في الكشف هو مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقوله ﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وقيل إن الغلف جمع غلاف مثل حمار وحمر أي قلوبنا أوعية للعلم فما بالها لا تفهم عنك وقد وعينا علماً كثيراً فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره، فرد الله عليهم ما قالوه فقال ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي طردهم وأبعده من كل خير، وأصل اللعن في كلام العرب الطرد والابعاد ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾ وصف إيمانهم بالقلة لأنهم الذين قص الله علينا من عنادهم وعجرفتهم وشدة لجاحهم وبعدهم من إجابة الرسل ما قصه، ومن جملة ذلك أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

وقال معمر: المعنى لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره، قال الواقدي معناه لا يؤمنون قليلاً ولا كثيراً، قال الكسائي تقول العرب مررنا بأرض قلما تنبت الكراث والبصل أي لا تنبت شيئاً، وأخرج أحمد بسند جيد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراج فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح، فأَي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه» وقال قتادة لا يؤمن منهم إلا قليل لأن من آمن من المشركين كان

أكثر منهم ، وقيل فزماناً قليلاً يؤمنون فهو على حد قوله ﴿آمنوا وجه النهار واكفروا آخره﴾ ،

﴿ولما جاءهم﴾ أي اليهود ﴿كتاب من عند الله﴾ هو القرآن ﴿مصدق لما معهم﴾ من التوراة والانجيل أنه يخبرهم بما فيها ويصدقه ولا يخالفه ﴿وكانوا من قبل﴾ مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿يستفتحون﴾ أي يستنصرون به ، والاستفتاح الاستنصار أي كانوا من قبل يطلبون من الله النصر على أعدائهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي يجدون صفته عندهم في التوراة ، وقيل الاستفتاح هنا بمعنى الفتح أي يخبرونهم بأنه سيبعث ويعرفونهم بذلك ﴿على الذين كفروا﴾ يعني مشركي العرب ، وذلك أنهم كانوا إذا أحزنهم أمر ودهمهم عدو يقولون اللهم انصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم مع قتل عاد وإرم^(١) .

﴿فلما جاءهم ما عرفوا﴾ يعني محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وعرفوا أنه نبي من غير بني إسرائيل ﴿كفروا به﴾ أي جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ أي عليهم وضعا للظاهر موضع المضمرة للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم واستعلت عليهم وشملتهم ، واللام للعهد أو للجنس ودخلوا فيه دخولاً أولياً .

(١) اورد القرطبي في تفسيره :

قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود . فعادت يهود بهذه الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا ان تخرجه في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم .

قال : فكانوا اذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا فانزل الله هذه الآيات .

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءٌ وَبِعْضِبٍ عَلَى غَضِبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ۚ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

﴿بئس ما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بئس الشيء وقال الفراء بئسما بجملته شيء واحد ركب كحبذا بئسما باعوا به حظ أنفسهم حين استبدلوا الباطل بالحق ﴿أن يكفروا بما أنزل الله﴾ يعني القرآن ﴿بغياً﴾ أي حسداً، قال الأصمعي البغي مأخوذ من قولهم قد بغى الجرح إذا فسد، وقيل أصله الطلب ولذلك سميت الزانية بغياً وهو علة لقوله يكفروا قاله القاضي ، وقال الزمخشري هو علة لقوله اشتروا وقوله الآتي ان ينزل علة لقوله بغياً أي لأن ينزل، والمعنى أنهم باعوا أنفسهم بهذا الثمن البخس حسداً ومنافسة ﴿أن ينزل الله من فضله﴾ وليس بواجب عليه ﴿على من يشاء من عباده فباء﴾ أي فرجعوا وصاروا أحقاء ﴿بغضب على غضب﴾ قيل الغضب الأول لعبادتهم العجل والثاني لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل لكفرهم بعبسى عليه السلام والانجيل ثم لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن، وقيل لكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ثم البغي عليه، وقال ابن عباس الأول بتضييعهم التوراة وتبديلها والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقيل غير ذلك، والتنكير للتعظيم ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾ ذو إهانة مأخوذ من الهوان، وقيل وهو ما اقتضى الخلود في النار.

﴿وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله﴾ وهو القرآن وقيل كل كتاب أي صدقوا بالقرآن أو صدقوا بما أنزل الله من الكتب ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ أي

التوراة ﴿ويكفرون﴾ الواو للحال ﴿بما وراءه﴾ أي بما سواه من الكتب، قاله الفراء وبما بعده يعني الأنجيل والقرآن قاله أبو عبيده، قال الجوهري وراء بمعنى خلف وقد يكون بمعنى قدام وأمام فهي من الاضداد ومنه قوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي قدامهم، وفي الموازنة للآمدي وراء ليست من الأضداد إنما هو من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء، خلفاً كان او قدماً إذا لم تره ولم تشاهده، فأما إذا رأيته فلا يكون وراءك ومنه قوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي أنه كان أمامهم وصح ذلك لأنهم لم يعاينوه ولم يشاهدوه انتهى.

قال الخفاجي وهذا لا ينافي قوله البيضاوي ولذلك عد من الاضداد لأن معناه أنه لما أطلق على خلف وقدام وهما ضدان عد ضدّاً تسميحاً على عادة أهل اللغة، وإن كان موضوعاً لمعنى شامل لهما لأنه مصدر بمعنى الستر فيها لكنه قد يستعمل بمعنى الساتر وقد يستعمل بمعنى المستور، ولذا قال في القاموس هو من الاضداد أولاً، وقيل أنه مضاف الى الفاعل مطلقاً لأن الرجل يوارى ما خلفه على من هو قدامه وما قدامه على من هو خلفه انتهى.

﴿وهو الحق﴾ يعني القرآن ﴿مصدقاً لما معهم﴾ يعني التوراة ﴿قل﴾ يا محمد ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة وقد نهيتم فيها عن قتل الأنبياء، وهذا تكذيب لهم لأن الإيمان بالتوراة مناف لقتل أشرف خلقه، وهذا الخطاب وإن كان مع الحاضرين من اليهود فالمراد به أسلافهم، ولكنهم لما كانوا يرضون بأفعال سلفهم كانوا مثلهم، وفي الآية دليل على أن من رضي بالمعصية فكأنه فاعل لها^(١).

(١) وتقتلون هنا بمعنى قتلتم، فوضع المستقبل في موضع الماضي، لأن الوهم لا يذهب الى غيره وأنشدوا في ذلك:

شهد الخطيئة حين يلقي ربه ان الوليد أحق بالعدر

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ولقد جاءكم موسى﴾ هذا داخل تحت الأمر السابق أي وقل لهم لقد جاءكم موسى والغرض منه بيان كذبهم، هكذا أفاده البيضاوي وكثير من المفسرين وفيه نظر أشار له أبو السعود ﴿بالبينات﴾ أي بالدلالات الواضحة والمعجزات الظاهرة، والبينات يجوز أن يراد بها التوراة أو التسع الآيات المشار إليها بقوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات﴾ ويجوز أن يراد بها الجميع ﴿ثم اتخذتم العجل من بعده﴾ أي من بعد النظر في تلك البينات أو من بعد موسى لما ذهب إلى الميقات ليأتي بالتوراة ﴿وأنتم ظالمون﴾ أي حال كونكم ظالمين بهذه العبادة الصادرة منكم عناداً بعد قيام الحجة عليكم، وإنما كرره تبكيتاً لهم وتأكيذاً للحجة عليهم.

﴿وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا﴾ قد تقدم تفسير أخذ الميثاق ورفع الطور، والأمر بالسمع معناه الطاعة

والقبول وليس المراد مجرد الإدراك بحاسة السمع ومنه قولهم «سمع الله لمن حمده» أي قبل وأجاب ﴿قالوا سمعنا﴾ أي سمعنا قولك بحاسة السمع ﴿وعصينا﴾ يعني أمرك بقلوبنا أي لا نقبل ما تأمرنا به، ويجوز أن يكونوا أرادوا بقولهم سمعنا ما هو معهود من تلاعبهم واستعمالهم المغالطة في مخاطبة أنبيائهم، وذلك بأن يحملوا قوله تعالى ﴿إسمعوا﴾ على معناه الحقيقي أي السماع بالحاسة ثم أجابوا بقولهم سمعنا أي أدركنا ذلك بأسماعنا عملاً بموجب ما تأمرنا به، ولكنهم لما

كانوا يعلمون أن هذا غير مراد لله عز وجل بل مراده بالأمر بالسماح الأمر بالطاعة والقبول لم يقتصروا على هذه المغالطة بل ضموا الى ذلك ما هو الجواب عندهم فقالوا وعصينا .

﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ أي تداخل حبه في قلوبهم ورسخ فيها صورته لفرط شغفهم به وحرصهم على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب، والشراب أعماق البدن، وفيه تشبيه بليغ أي جعلت قلوبهم لتمكن حب العجل منها كأنها تشربه ، وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل في الاعضاء حتى يصل الى باطنها، والطعام يتجاوزها ولا يتغلغل فيها، قال أبو السعود ﴿في قلوبهم﴾ بيان لمكان الإشراب كما في قوله تعالى ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ والجملة حال من ضمير قالوا بتقدير «قد» انتهى .

قيل أن موسى أمر أن يبرد العجل ويذرى في النهر وأمرهم أن يشربوا منه فمن بقي في قلبه شيء من حب العجل ظهر سحالة الذهب على شاربه وما أبعده، والإشراب مخالطة المائع للجامد ثم اتسع فيه حتى قيل في الألوان نحو اشرب بياضه حمرة .

﴿بكفرهم﴾ الباء للسببية أي بسبب كفرهم السابق الموجب لذلك، قيل كانوا مجسمة أو حلولية ولم يروا جسماً أعجب منه فتمكن في قلوبهم ما سول لهم السامري ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ الذي زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل عليكم وتكفرون بما وراءه، فإن هذا الصنع وهو في قولكم سمعنا وعصينا في جواب ما أمرتم به في كتابكم وأخذ عليكم الميثاق به مناد عليكم بأبلغ نداء بخلاف ما زعمتم، وكذلك ما وقع منكم من عبادة العجل ونزول حبه من قلوبكم منزلة الشراب هو من أعظم ما يدل على أنكم كاذبون في قولكم نؤمن بما أنزل علينا لا صادقون، فإن زعمتم إن كتابكم الذي آمنت به أمركم بهذا فبئس ما يأمركم به إيمانكم بكتابكم، وفي هذا من التهكم ما لا يخفى ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ بزعمكم، والمعنى لستم بمؤمنين لأن الإيمان لا يأمر بعبادة العجل والمراد آبائهم أي فكذلك لستم بمؤمنين بالتوراة وقد كذبتهم محمداً والإيمان بها لا يأمر بتكذيبه .

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا
الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾

﴿قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله﴾ أي نعيمها لأن الدار الآخرة في الحقيقة هي انقضاء الدنيا وهي للفريقين، وهذا رد عليهم لما ادعوا أنهم يدخلون الجنة ولا يشاركونهم في دخولها غيرهم، وإلزام لهم بما تبين به أنهم كاذبون في تلك الدعوى، وأنها صادرة منهم لا عن برهان ﴿خالصة﴾ مصدر كالعافية والعاقبة وهو بمعنى الخلوص، والمراد أنه لا يشاركونهم فيها غيرهم إذا كانت اللام في قوله ﴿من دون الناس﴾ للجنس أو لا يشاركونهم فيها المسلمون إن كانت اللام للعهد، وهذا أرجح لقولهم في الآية الأخرى ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهو مؤكد له لأن «دون» تستعمل للاختصاص يقال هذا لي دونك أو من دونك أي لا حق لك فيه، وقد تأتي في غير هذا للانتقاص في المنزلة أو المكان أو المقدار ﴿فتمنوا الموت﴾ أي فاطلبوه واسألوه، وإنما أمرهم بتمني الموت لأن من اعتقد أنه من أهل الجنة كان الموت أحب إليه من الحياة إذ لا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت، ولما كان ذلك منهم مجرد دعوى أحجموا ﴿إن كنتم صادقين﴾ في قولكم ودعواكم ولهذا قال سبحانه^(١)

(١) وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

لو ان اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم [مقامهم] في النار وقيل أيضاً :

ان الله صرفهم عن اظهار التمني، وقصرهم عن الامساك ليجعل ذلك آية لنبهه صلى الله عليه وسلم.

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثَّهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ
وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزَجِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ هو ظرف زمان يصدق بالماضي والمستقبل تقول ما فعلت أبداً ذكره السمين، وقال هنا «لن» وفي الجمعة «لا» لأن لن أبلغ في النفي من لا ودعواهم هنا بالغة قاطعة فناسب ذكر لن فيها، ودعواهم في الجمعة قاصرة مردودة وهي زعمهم أنهم أولياء الله فناسب ذكر «لا» فيها ﴿بما قدمت أيديهم﴾ أي بما قدمته من الذنوب التي يكون فاعلها غير آمن من العذاب بل غير طامع في دخول الجنة فضلاً عن كونها خالصة له مختصة به، وإنما أضاف العمل الى اليد لأن أكثر جنایات الإنسان تكون خالصة له مختصة به، وإنما أضاف العمل الى اليد لأن أكثر جنایات الإنسان تكون من يده.

وقيل أن الله سبحانه صرفهم عن التمني ليجعل ذلك آية لنبه ، والمراد بالتمني هنا هو التلطف بما يدل عليه لا مجرد خطوة بالقلب وميل النفس إليه، فإن ذلك لا يراد في مقام الحاجة ومواطن الخصومة ومواقف التحدي، وفي تركهم للتمني او صرفهم عنه معجزة لرسول الله فإنهم قد كانوا يسلكون من التعجرف والتجري على الله وعلى أنبيائه بالدعاوى الباطلة في غير موطن ما قد حكاها عنهم التنزيل، فلم يتركوا عاداتهم هنا إلا لما قد تقرر عندهم من أنهم إذا فعلوا ذلك التمني نزل بهم الموت إما لأمر قد علموه أو للصرفة من الله عز وجل، وقد يقال قد ثبت النهي عن النبي في شريعته ، ويجب أن المراد هنا إلزامهم الحجة وإقامة البرهان على بطلان دعواهم.

عن ابن عباس قال: قال لهم رسول الله إن كنتم في مقالكم صادقين فقولوا اللهم أمتنا ، فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه

فمات مكانه ، وعنه لو أن اليهود تمنوا لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ﴿والله عليهم بالظالمين﴾ فيه تخويف وتهديد لهم ، وإنما خصهم بالظلم لأنه أعم من الفكر لأن كل كافر ظالم وليس كل ظالم كافراً فلهذا كان أعم وكانوا أولى به .

﴿ولتجدنهم﴾ اللام للقسم والنون للتأكيد أي والله لتجدنهم يا محمد ، وهذا أبلغ من قوله ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ ﴿أحرص الناس على حياة﴾ زيادة على عدم تمني الموت ، والحرص أشد الطلب ، وتنكير «حياة» للتحقير أي أنهم أحرص الناس على حقير حياة وأقل لبث في الدنيا فكيف بحياة كثيرة ولبث متطاوّل ، وقال في الكشف أنه أراد بالتنكير حياة مخصوصة وهي الحياة المتطاولة ، وتبعه في ذلك الرازي والخازن في تفسيريهما ﴿ومن الذين أشركوا﴾ ، ووجه ذكرهم بعد ذكر الناس مع كونهم داخلين فيهم للدلالة مزيد حرص المشركين من العرب ومن شابههم من غيرهم ، فمن كان أحرص منهم وهم اليهود كان بالغاً في الحرص الى غاية لا يقادر قدرها .

وإنما بلغوا في الحرص الى هذا الحد الفاضل على حرص المشركين لأنهم يعلمون بما يحل بهم من العذاب في الآخرة بخلاف المشركين من العرب ونحوهم فإنهم لا يقرّون بذلك ، فكان حرصهم على الحياة دون حرص اليهود ، والأول وإن كان فيه خروج من الكلام في اليهود الى غيرهم من مشركي العرب لكنه أرجح لعدم استلزامه للتكلف ولا ضير في استطراد ذكر حرص المشركين بعد ذكر حرص اليهود ، وقال الرازي إن الثاني أرجح ليكون ذلك ابلغ في إبطال دعواهم وفي إظهار كذبهم في قولهم أن الدار الآخرة لنا لا لغيرنا انتهى ، ويجاب عنه بأن هذا الذي جعله مرجحاً قد أفاده قوله تعالى ﴿ولتجدنهم أحرص الناس﴾ ولا يستلزم استثناء الكلام في المشركين أن لا يكونوا من جملة الناس .

﴿يود أحدهم﴾ بيان لزيادة حرصهم على طريقة الاستثناء وهم المجوس أي يتمنى أحدهم ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ أي تعمير ألف سنة ، وإنما خص الألف

بالذكر لأن العرب كانت تذكر ذلك عند إرادة المبالغة، ولأنها نهاية العقود ولأنها تحية المجوس فيما بينهم يقولون «زي هزارسال» أي عش الف سنة أو ألف نيروز أو ألف مهرجان، فهذه تحيتهم، وهذا كناية عن الكثرة فليس المراد خصوص هذا العدد، والمعنى أن اليهود أحرص من المجوس الذين يقولون ذلك.

﴿وما هو بمزحزحه﴾ أي بمباعده قيل هو راجع إلى أحدهم كما جرى عليه الجلال، وعلى هذا يكون قوله ﴿أن يعمر﴾ فاعلاً لمزحزحه وقيل هو لما دل عليه يعمر من مصدره أي وما التعمير بمزحزحه ويكون قوله ﴿أن يعمر﴾ بدلاً منه، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت هو عماد، وقيل هو ضمير الشأن وإليه نحا الفارسي تبعاً للكوفيين، وقيل «ما» تيممة وهو مبتدأ خبره بمزحزحه على زيادة الباء وقيل ما هي الحجازية والضمير اسمها وما بعده خبرها والأول أرجح، وكذلك الثاني والثالث ضعيف جداً لأن العماد لا يكون إلا بين شيئين، ولهذا يسمونه ضمير الفصل والرابع فيه أن ضمير الشأن يفسر بجمله سالمة عن حرف جر كما حكاه ابن عطية عن النحاة، والمزحزحة التنحية يقال زحزحته فتزحزح أي نحيته فتنحى وتباعد ﴿من العذاب﴾ «من» بمعنى عن أي النار ﴿أن يعمر﴾ أي لو عمر طول عمره لا ينقذه من العذاب ﴿والله بصير بما تعملون﴾ لا يخفى عليه خافية من أحوالهم.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

﴿قل من كان عدواً لجبريل﴾ أي بسبب نزوله بالقرآن المشتمل على سبهم وتكذيبهم، هذه الآية قد أجمع المفسرون على أنها نزلت في اليهود، قال ابن جرير الطبري وأجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولي لهم، ثم اختلفوا ما كان سبب قولهم ذلك فقال بعضهم إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر نبوته، ثم ذكر روايات في ذلك، وجبريل اسم ملك وهو أعجمي فلذلك لم ينصرف والقول باشتقاقه من جبروت الله بعيد، لأن الاشتقاق لا يكون في الأسماء الأعجمية، وكذا قول من قال أنه مركب تركيب الإضافة أو تركيب مزج نحو حضرموت، وفيه ثلاث عشرة لغة أفصحها وأشهرها بزنة قنديل.

والضمير في قوله ﴿فإنه﴾ يحتمل وجهين الأول أن يكون لله ويكون الضمير في قوله ﴿نَزَّلَهُ﴾ لجبريل أي فإن الله سبحانه نزل جبريل ﴿على قلبك﴾ وفيه ضعف كما أي يفيد قوله ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ الثاني أنه لجبريل والضمير في قوله ﴿نَزَّلَهُ﴾ للقرآن فإن جبريل نزل القرآن على قلبك وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وخزانة الحفظ وبيت الرب، وقد قيل أنه في الدماغ ﴿بإذن الله﴾ أي بعلمه وإرادته وتيسيره وتسهيله. وقال ابن الخطيب تفسير الإذن هنا بالأمر أي بأمر الله أولى من تفسيره بالعلم لأنه حقيقة في الأمر، مجاز في العلم، ويجب الحمل على الحقيقة ما أمكن وإذا كان نزوله بإذن الله فلا وجه للعداوة، وإنما يكون لها وجه لو كان النزول برأيه

﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ هو التوراة كما سلف أو جميع الكتب المنزلة، وفي

هذا دليل على شرف جبريل وارتفاع منزلته وأنه لا وجه لمعاداة اليهود له حيث كان منه ما ذكر من تنزيل الكتاب على قلبك أو تنزيل الله له على قلبك، وهذا وجه الربط بين الشرط والجواب، أي من كان معادياً لجبريل منهم فلا وجه لمعاداته له فإنه لم يصدر منه إلا ما يوجب المحبة دون العداوة، أو من كان معادياً له فإن سبب معاداته أنه وقع منه ما يكرهونه من التنزيل، وليس ذلك بذنب له وإن كرهوه فإن هذه الكراهة منهم له بهذا السبب ظلم وعدوان، لأن هذا الكتاب الذي نزل به هو مصدق لكتابهم وموافق له ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي في القرآن هداية للمؤمنين إلى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثواب وبشرى لهم بثوابها إذا أتوا بها، وعذاب وشدة على الكافرين.

ثم انه اتبع سبحانه هذا الكلام بجملة مشتملة على شرط وجزاء تتضمن الذم لمن عادى جبريل بذلك السبب والوعيد الشديد له فقال ﴿من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل﴾ العداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله تعالى والبغض لأوليائه، والعداوة من الله للعبد هي تعذيبه بذنبه وعدم التجاوز عنه والمغفرة له، قال الكرمانى قدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب، ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله، فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب، وإنما خص جبريل وميكائيل بعد ذكر الملائكة لقصد التشريف لهما والدلالة على فضلهما، وأنها وإن كانا من الملائكة فقد صارا باعتبار ما لهما من المزية بمنزلة جنس آخر أشرف من جنس الملائكة تنزيلاً للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي كما ذكره صاحب الكشف، وقرره علماء البيان.

وفي جبريل ثلاث عشرة لغة ذكرها ابن جرير الطبري وغيره، وفي ميكائيل ست لغات، وهما إسمان أعجميان قيل معناهما عبد الله لأن جبروميك بالسريانية هو العبد، والإيل هو الله، والعرب إذا نطقت بالعجمي تساهلت فيه، وقال ابن جني خلطت فيه، والأولى ما ذكرناه ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ فأما عداوتهم لله فإنها لا تضره ولا تؤثر، وعداوته لهم تؤديهم إلى العذاب الأليم الدائم الذي لا ضرر أعظم منه.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلِمًا
عَهْدًا وَعَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ
رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿ولقد أنزلنا إليك﴾ يا محمد ﴿آيات بينات﴾ أي واضحات دالة على معانيها وعلى كونها من عند الله مفصلات بالحلal والحرام والحدود والأحكام، أو علامات دالة على نبوتك ﴿وما يكفر بها﴾ أي ما يحدد بهذه الآيات إلا الفاسقون - أي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به، والظاهر أن المراد جنس الفاسقين ويحتمل أن يراد اليهود لأن الكلام معهم، والأول أولى لأنهم داخلون فيه دخولاً اولوياً.

﴿أو كلما عاهدوا عهداً﴾ استفهام إنكار ﴿نبذه فريق﴾ أصل النبذ الطرح والألقاء ومنه سمي اللقيط منبذاً، ومنه سمي النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء، وهو حقيقة في الاجرام، وإسناده الى العهد مجاز ﴿منهم﴾ يعني اليهود ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ يعني كفر فريق منهم بنقض العهد وفريق منهم بالجحد للحق، والمعنى على إنكار اللياقة والمناسبة أي لا ينبغي منهم نبذ العهد كلما عقدوه.

﴿ولما جاءهم رسول من عند الله﴾ يعني محمداً ﷺ، هذا أشنع عليهم مما قبله ﴿مصدق لما معهم﴾ أي بصحة التوراة وأن التوراة بشرت بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان مجرد مبعثه مصدقاً للتوراة فاتفقت التوراة والقرآن ﴿نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب﴾ أي اليهود ﴿كتاب الله﴾ أي التوراة قال السدي لما جاءهم صلى الله عليه وآله وسلم

عارضوه بالتوراة فاتفقت التوراة والفرقان فنبذوا التوراة لموافقة القرآن لها وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن، أو لأنهم لما كفروا بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وبما أنزل عليه بعد أن أخذ الله عليهم في التوراة الإيمان به وتصديقه واتباعه، وبين لهم صفته، كان ذلك منهم نبذاً للتوراة ونقضاً لها ورفضاً لما فيها، ويجوز أن يراد بالكتاب هنا القرآن أي لما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم من التوراة نبذوا كتاب الله الذي جاء به هذا الرسول، والأول أولى، لأن النبذ لا يكون إلا بعد التمسك والقبول، ولم يتمسكوا بالقرآن^(١).

﴿وراء ظهورهم﴾ هذا مثل يضرب لمن يستخف بالشيء فلا يعمل به، تقول العرب اجعل هذا خلف ظهرك ودبر أذنك وتحت قدمك أي اتركه وأعرض عنه

﴿كأنهم لا يعلمون﴾ تشبيه لهم بمن لا يعلم شيئاً مع كونهم يعلمون علماً يقيناً من التوراة بما يجب عليهم من الإيمان بهذا النبي، ولكنهم لما لم يعلموا بالعلم بل عملوا عمل من لا يعلم من نبذ كتاب الله وراء ظهورهم كانوا بمنزلة من لا يعلم، وهم علماء اليهود تجاهلوا، وحملهم على ذلك عداوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا قليلاً.

قال ابن عباس: رضي الله عنه:

هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا محمد ما جئنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينة فتتبعك بها فأنزل الله هذه الآية ولقد أنزلنا إليك....

وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَٰكِنَّ
الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ
هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ
مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا
لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿واتبعوا﴾ عطف على نبذ ﴿ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾ يعني
اليهود والتلاوة القراءة، قال الزجاج على عهد سليمان، وقيل المعنى في زمن ملكه
وقيل في قصصه وصفاته وأخباره، قال الفراء تصلح «على وفي» في هذا الموضع
والأول أظهر وقيل يضمن تتلو معنى تتقول أي تتقول على ملك سليمان وهذا
أولى، فإن التجوز في الأفعال أولى من التجوز في الحروف، وقد كانوا يظنون أن
هذا هو علم سليمان وأنه يستجيزه ويقول به فرد الله ذلك عليهم وقال ﴿وما كفر
سليمان﴾ يعني بالسحر ولم يعمل به، وسليمان علم أعجمي فلذلك لم ينصرف،
وقال أبو البقاء فيه العجمة والتعريف والألف والنون وهذا إنما يثبت إذا دخله
الاشتقاق والتصريف، وقد تقدم أنها لا يدخلان في الأسماء الأعجمية، وفيه
تنزيه سليمان عن السحر، ولم يتقدم أن أحداً نسب سليمان إلى الكفر ولكن لما
نسبته اليهود إلى السحر صاروا بمنزلة من نسبته إلى الكفر، لأن السحر يوجب
ذلك وقالوا إن سليمان ملك الناس بالسحر، ولهذا أثبت الله سبحانه كفر
الشياطين فقال ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ أي بتعليمهم قرأ ابن عامر والكوفيون
سوى عاصم ولكن بالتخفيف ورفع الشياطين والباقون بالتشديد والنصب.

عن ابن عباس قال إن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء فإذا
سمع أحدهم بكلمة حق كذب معها ألف كذبة فأشربتها قلوب الناس واتخذوها

دواوين فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود فأخذها فدفنها تحت الكرسي، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال ألا أدلكم على كنز سليمان الذي لا كنز لأحد مثل كنزه الممنع، قالوا نعم فأخرجوه فإذا هو سحر فتناسختها الأمم وأنزل الله عذر سليمان فيما قالوا من السحر ، فقال ﴿واتبعوا﴾ الآية، أخرجته الحاكم وصححه.

وأخرج النسائي وابن أبي حاتم عنه قال كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا هذا الذي كان سليمان يعمل به، فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿واتبعوا﴾ الآية.

﴿يعلمون الناس السحر﴾ وهو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي يحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة من أن الجبال تسير، وهو مشتق من سحرت الصبي إذا خدعته، وقيل أصله الخفاء فإن الساحر يفعله خفية، وقيل أصله الصرف لأن السحر مصروف عن جهته، وقيل أصله الاستمالة لأن من سحرك استمالكك، وقال الجوهري السحر الأخذة وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، والساحر العالم.

وقال الغزالي السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور، ويطرصد له وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستغاثة بالشياطين، وتحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور انتهى، وقد ذكر أبو السعود أنواعاً من السحر فليرجع إليه.

وقد اختلف هل له حقيقة أم لا فذهبت المعتزلة وأبو حنيفة إلى أنه خدع لا

أصل له ولا حقيقة، وذهب من عداهم الى أن له حقيقة مؤثرة، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سحر، سحره لبيد بن الأعصم اليهودي حتى كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولم يكن قد أتاه ثم شفاه الله سبحانه، والكلام في ذلك يطول، وعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السحر من الكبائر وثناه بالشرك كما في الصحيحين.

﴿و﴾ أي ويعلمون الناس ﴿ما أنزل على الملكين﴾ فهو معطوف على السحر، والمراد بهما واحد والعطف لتغاير الاعتبار أو هو نوع أقوى منه، أو على ما تتلو وما بينهما اعتراض أي ﴿واتبعوا ما أنزل﴾ الخ قال السدي هذا سحر آخر خاصموه به فإن كلام الملائكة فيما بينهم إذا علمته الأنس فصنع وعمل به كان سحراً ﴿ببابل﴾ أي في بابل وهو إسم أرض أو بلد في سواد العراق أو أرض الكوفة، قاله ابن مسعود وقيل جبل دماويد، وقيل نهاوند، وقيل نصيبين، وقيل المغرب ومنع الصرف للعجمة والعلمية أو للتأنيث والعلمية، سميت بذلك لتبليبل السنة الخلائق بها، والبلبله التفرقة، وقيل أن «ما» في قوله ﴿وما أنزل على الملكين﴾ نافية، والواو عاطفة على قوله ﴿وما كفر سليمان﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل.

﴿هاروت وماروت﴾ فهاروت وماروت بدل من الشياطين على قراءة التشديد والنصب في قوله ﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ ذكر ابن جرير، وأما على قراءة التخفيف والرفع فهو منصوب على الذم وهو بدل بعض، ومن فسرها بقييلتين من الجن يكون عنده بدل كل.

وقال ابن جرير فإن قال لنا القائل وكيف وجه تقديم ذلك، قيل تقديمه أن يقال واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن

داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وإن الذي يعلمونهم ذلك رجلان أحدهما هاروت والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم انتهى، يعني أنه بدل من الناس أي يعلمان الناس خصوصاً هاروت وماروت.

وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطاقة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الأنس النساء وخاصة في حال طمثن، قال الله ﴿ومن شر النفاثات في العقد﴾.

ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلاً من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه! ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع أو أنها خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن «الملكين» بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته، وعندني أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن الله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالتوت، ولهذا يقول الملكان ﴿إنما نحن فتنة﴾ ويؤيده ما قال أبو السعود أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام، فإن الإبدال في حكم تنحية المبدل منه. وقال هاروت وماروت عطف بيان للملكين علمان لهما، وقرىء بالرفع على هما هاروت وماروت انتهى المراد منه.

قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنها كانا ملكين من السماء وأنها أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان، وكان عبد الرحمن بن أبزي

يقرؤها ﴿وما أنزل على الملكين داود وسليمان﴾ وقال الضحاك هما علجان من أهل بابل، وهاروت وماروت إسمان أعجميان لا ينصرفان وهما سريانيان، ويجمعان على هواريت ومواريت وهوارية وموارية، وليس من زعم اشتقاقهما من الهرت والمرت وهو الكسر بمصيب لعدم انصرافهما، ولو كانا مشتقين كما ذكر لانصرفا.

أخرج البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشرفت الملائكة على الدنيا فرأت بني آدم يعصون فقالت يا رب ما أجهل هؤلاء وما أقل معرفة هؤلاء بعظمتك فقال الله لو كنتم في مسلاخهم لعصيتُموني، قالوا كيف يكون هذا ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال اختاروا منكم ملكين فاختاروا هاروت وماروت، ثم أهبطا إلى الأرض وركبت فيهما شهوات بني آدم، ومثلت لهما امرأة فما عصما حتى واقعها المعصية، فقال الله اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة فنظر أحدهما لصاحبه قال ما تقول، قال أقول إن عذاب الدنيا منقطع، وإن عذاب الآخرة لا ينقطع، فاختر عذاب الدنيا فهما اللذان ذكر الله في كتابه ﴿وما أنزل على الملكين﴾ الآية، وقد رويت هذه القصة عن ابن عمر بالفاظ وفي بعضها أنه يروي ذلك ابن عمر عن كعب الاحبار كما أخرجه جماعة من أهل الأثر.

وأخرج الحاكم^(١) وصححه عن علي بن أبي طالب أن هذه الزهرة تسميها العرب الزهرة والعجم «أناهيد» قال ابن كثير وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جداً. وعن ابن عباس الزهرة امرأة وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عنه أن المرأة التي فتن بها الملكان مسخت فهذه هي الكوكبة الحمراء يعني الزهرة، وقيل وكانت من لحم أو من أهل فارس ملكة في بلدها، وكانت من أجل النساء فمسخها الله كوكبا، وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عنه، فذكر قصة طويلة وفيها التصريح بأن الملكين شربا الخمر وزنيا

(١) المستدرک ٢/٢٦٥.

بالمرأة وقتلاها، وعن ابن مسعود قال أنها أنزلت إليهما الزهرة في صورة امرأة وأنها وقعا في الخطيئة.

وقد روي في هذا الباب قصص طويلة، وروايات مختلفة استوفاهما السيوطي في الدر المنثور، وذكر ابن كثير في تفسيره بعضها ثم قال وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع متصل الأسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن على ما أراده الله تعالى، والله تعالى أعلم انتهى.

وقال أبو السعود هما معذبان ببابل قيل معلقان بشعورهما، وقيل منكوسان يضربان بسياط الحديد إلى قيام الساعة، وهذا مما لا تعويل عليه، لما أن مداره رواية اليهود مع ما فيه من المخالفة لأدلة العقل والنقل انتهى، ومثله في الخازن ونحوه في المظهري،

وهذا القول يقتضي أن هذه القصة غير صحيحة وأنها لم تثبت بنقل معتبر، وتبع أبو السعود في ذلك البيضاوي التابع في ذلك للفخر الرازي والسعد التفتازاني وغيرهما ممن أطال في ردها. لكن قال الشيخ زكريا الأنصاري: الحق ما أفاده شيخنا حافظ عصره الشهاب ابن حجر أن لها طرقاً تفيد العلم بصحتها فقد رواها مرفوعة الامام أحمد وابن حبان والبيهقي وغيرهم، وموقوفة على علي وابن مسعود وابن عباس، وغيرهم بأسانيد صحيحة، قال الخفاجي قال المحدثون وجميع رجاله غير موثوق بهم، لكن قال خاتمة الحفاظ الشهاب ابن حجر أن له طرقاً كثيرة جمعتها في جزء مفرد يكاد الواقف عليها يقطع بصحتها لكثرتها وقوة مخارجها. وقال بعضهم بلغت طرقه نيفاً وعشرين انتهى.

(قلت والبيضاوي لما استبعد هذا المنقول ولم يطلع عليه قال إنه محكي عن اليهود، ولعله من رموز الأولين، ذكره الخطيب.)

وكذا أهل الكلام طعنوا في هذه القصة وعدوها من المحالات لمسح الإنسان كوكباً كما بينوه في كتبهم . وحاول البيضاوي التوفيق بأنها تمثيلات كقصة ايسال وسلامان وحرير مقطان وغير ذلك مما وضعه المتقدمون والمتأخرون إشارة إلى أن القوى لو ركبت في تلك لعصت . وأسماء الله ومناجاته تلحق السفلى بالعلوى ونحوه .

هذا؛ وقد أطنب الشيخ ابن حجر المكي في جواب الرازي واستبعاده لهذه القصة في كتابه الزواجر بما لا مزيد عليه .

وقال القرطبي بعد سياق بعض تلك، قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره لا يصح منه شيء؛ فإنه قول تدفعه الأصول في الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه؛ وسفراؤه إلى رسله ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ثم ذكر ما معناه أن العقل يجوز وقوع ذلك منهم لكن وقوع هذا الجائر لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح انتهى .

وأقول هذا مجرد استبعاد وقد ورد الكتاب العزيز في هذا الموضع تراه ولا وجه لإخراجه عن ظاهره بهذه التكلفات؛ وما ذكره من أن الأصول تدفع ذلك؛ فعلى فرض وجود هذه الأصول فهي مخصصة بما وقع في هذه القصة، ولا وجه لمنع التخصيص، وقد كان إبليس بتلك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين^(١)

﴿وما يعلمان من أحد﴾ أي هاروت وماروت أو الرجلان والأول أولى؛ قال الزجاج تعليم انذار من السحر لا تعليم دعاء إليه؛ قال وهو الذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر؛ ومعناه أنهما يعلمان على النهي فيقولان لهم لا تفعلوا كذا، وقد قيل أن قوله ﴿يعلمان﴾ من الإعلام لا من التعليم وقد جاء في كلام العرب تعلم بمعنى أعلم كما حكاه ابن الأنباري وابن الأعرابي وهو كثير في أشعارهم ﴿حتى يقولوا﴾ أي إلا أن ينصحاها أولاً أو أن يقولوا.

(١) قوله: كان إبليس بتلك المنزلة العظيمة وصار أشر البرية وأكفر العالمين دعوى لا دليل عليها.

﴿إنما نحن فتنة﴾ هو على ظاهره أي ابتلاء واختبار من الله لعباده ومحنة، وقيل إنه استهزاء منها لأنها إنما يقولانه لمن قد تحقق ضلاله والأول أولى، والمعنى إنما نحن ابتلاء فمن عمل بما تعلم منا واعتقد حقيقته كفر، ومن توقي عن العمل به واتخذ ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقي على الإيمان، فلا تكفر باعتقاد حقيقته وجواز العمل به قاله أبو السعود.

قال الخفاجي وفيه إشارة إلى أن الاجتناب واجب احتياطاً وكما لا يحرم الفلسفة للمنصوب للذب عن الدين برد الشبهة وإن كان أغلب احواله التحريم، كذلك تعلم السحر إن فرض فشوه في صقع وأريد تبين فساده لهم ليرجعوا إلى الحق، وهو لا ينافي إطلاق القول بالتحريم فاعرفه، انتهى.

قلت أخرج البزار (بإسناد صحيح والحاكم وصححه عن ابن مسعود «من أتى كاهناً أو ساحراً وصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج البزار عن عمر بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من تطير أو تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له، ومن عقد عقدة ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» وأخرج عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من تعلم شيئاً من السحر قليلاً أو كثيراً كان آخر عهده من الله».

وفي قولهما ﴿فلا تكفر﴾ أبلغ إنذار وأعظم تحذير أي أن هذا ذنب يكون من فعله كافراً فلا تكفر، وفيه دليل على أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد، وبين من تعلمه ليكون ساحراً، ومن تعلمه ليقدر على دفعه، وبه قال أحمد.

﴿فيتعلمون منها﴾ يعني من الملكين ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ أي سحراً سبباً في التفريق بينهما كالتمويه والتخييل والنفت في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده البغضاء والنشوز والخلاف بين الزوجين ابتلاء من الله تعالى، وفي إسناد التفريق إلى السحرة وجعل السحر سبباً لذلك دليل على أن للسحر تأثيراً في القلوب بالحب والبغض والجمع والفرقة والقرب والبعد، وقد ذهب

طائفة من العلماء إلى أن الساحر لا يقدر على أكثر مما أخبر الله به من التفرقة، لأن الله ذكر ذلك في معرض الذم للسحر وبين ما هو الغاية في تعليمه، فلو كان يقدر على أكثر من ذلك لذكره، وقالت طائفة أخرى أن ذلك خرج مخرج الأغلب وأن الساحر يقدر على غير ذلك المنصوص عليه، وقيل ليس للسحر تأثيراً في نفسه أصلاً لقوله تعالى.

﴿وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾ والحق أنه لا تنافي بين القولين المذكورين، فإن المستفاد من جميع ذلك أن للسحر تأثير في نفسه وحقيقة ثابتة، ولم يخالف في ذلك إلا المعتزلة وأبو حنيفة كما تقدم وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال.

﴿ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ يعني السحر لأنهم يقصدون به العمل أو لأن العلم يجر إلى العمل غالباً، وفيه تصريح بأن السحر لا يعود على صاحبه بفائدة ولا يجلب إليه منفعة بل هو ضرر محض، وخسران صرف، وشر بحث، قال أبو السعود فيه أن الاجتناب عما لا تؤمن غوائله خير كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية، وإن قال من قال:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

﴿ولقد علموا﴾ يعني اليهود ﴿لمن اشتراه﴾ أي اختار السحر، والمراد بالشراء هنا الاستبدال أي من استبدل ما يتلو الشياطين ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من نصيب كما عند أهل اللغة، كذا قال الزجاج ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم﴾ أي باعوها وقد أثبت لهم العلم في قوله ولقد علموا، ونفاه عنهم في قوله ﴿لو كانوا يعلمون﴾ واختلفوا في توجيه ذلك فقال قطرب والأخفش أن المراد بقوله ﴿ولقد علموا﴾ الشياطين والمراد بقوله ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الأنس وقال الزجاج أن الأول للملكين وإن كان بصيغة الجمع فهو مثل قولهم الزيدان قاموا، والثاني المراد به علماء اليهود، وإنما قال لو كانوا يعلمون لأنهم تركوا العمل بعلمهم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا
وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

﴿ولو أنهم آمنوا﴾ أي اليهود بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من القرآن ﴿وأتقوا﴾ ما وقعوا فيه من السحر والكفر ﴿لمثوبة من عند الله﴾ أي لكان ثواب الله إياهم ﴿خير﴾ لهم يعني هذا الثواب، والمثوبة وزنها مفعولة قاله الواحدي أو مفعلة كمشورة ومتربة وكان من حقها الإعلال فيقال مثابة كمقالة إلا أنهم صححوها، قاله السمين ﴿لو كانوا يعلمون﴾ ذلك هو إما للدلالة على أنه لا علم لهم أو لتنزيل علمهم مع عدم العمل منزلة العدم.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا﴾ أي راقبنا واحفظنا ويجوز أن يكون من أعرنا سمعك أي فرغه لكلامنا، ووجه النهي عن ذلك أن هذا اللفظ كان بلسان اليهود سبا قيل إنه في لغتهم بمعنى إسمع لا سمعت، وقيل غير ذلك فلما سمعوا المسلمين يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم راعنا طلبا منه أن يراعيهم من المراعاة اغتنموا الفرصة وكانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كذلك مظهرين أنهم يريدون المعنى العربي، مبطنين أنهم يقصدون السب الذي هو معنى هذا اللفظ في لغتهم، وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص وإن لم يقصد المتكلم بها هذا المعنى المفيد للشتم سدا للذريعة ودفعاً للوسيلة، وقطعا لمادة المفسدة والتطرق إليه.

ثم أمرهم الله بأن يخاطبوا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا يحتمل النقص ولا يصلح للتعريض فقال ﴿وقولوا انظرننا﴾ أي أقبل علينا وانظر إلينا وهو من

باب الحذف والإيصال، وقيل معناه انتظرنا وتأن بنا، وقرأ الأعمش أنظرنا بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك، وأمرهم بعد هذا النهي والأمر بأمر آخر وهو قوله.

﴿واسمعوا﴾ أي اسمعوا بما أمرتم به ونهيتم عنه، معناه أطيعوا الله في ترك خطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك اللفظ وخاطبوه بما أمرتم به، ولا تخاطبوه بما يسر اليهود، بل تخيروا لخطابه صلى الله عليه وآله وسلم من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أدقها، ويحتمل أن يكون معناه اسمعوا ما يخاطبكم به الرسول من الشرع حتى يحصل لكم المطلوب بدون طلب للمراعاة.

قال ابن جرير والصواب من القول عندنا في ذلك أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها كلمة كرهها الله أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذي ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبة ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي» وما أشبه ذلك، ثم توعدهم اليهود بقوله ﴿وللكافرين عذاب أليم﴾ ويحتمل أن يكون وعيداً شاملاً لجنس الكفرة.

﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم﴾ فيه بيان شدة عداوة الكفار للمسلمين حيث لا يودون إنزال الخير عليهم من الله سبحانه، وقد قيل بأن الخير الوحي وقيل غير ذلك والظاهر أنهم لا يودون أن ينزل على المسلمين أي خير كان فهو لا يختص بنوع معين كما يفيد وقوع هذه النكرة في سياق النفي، وتأکید العموم بدخول «من» الزائدة عليها وإن كان بعض أنواع الخير أعظم من بعض فذلك لا يوجب التخصيص.

﴿والله يختص برحمته﴾ أي يميز ﴿من يشاء﴾ تمييزه والرحمة قيل هي القرآن والاسلام، وقيل النبوة وقيل جنس الرحمة من غير تعيين كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فكيف لا يودون أن يختص برحمته من يشاء من عباده وكل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم فإنه منه ابتداء وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك، بل له الفضل والمنة على خلقه.

﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿ما ننسخ من آية﴾ كلام مستأنف قاله أبو السعود، وقال البهسي لم يعطف لشدة ارتباطه بما قبله، والنسخ في كلام العرب على وجهين.

أحدهما النقل كنقل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً أعني من اللوح المحفوظ، ولا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية ومنه إنا كنا ننسخ ما كنتم تعملون أي نأمر بنسخه.

الثاني الإبطال والازالة وهو المقصود هنا، وهذا القسم الثاني ينقسم الى قسمين عند أهل اللغة أحدهما إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله ﴿ما ننسخ من آية﴾ وفي صحيح مسلم «لم تكن نبوة قط الا تناسخت» أي تحولت من حال الى حال (والثاني) ازالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى فينسخ الله ما يلقي الشيطان أي يزيله، وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب ومنه ما روي عن أبي وعائشة أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول.

قال ابن فارس النسخ الكتاب والنسخ أن يزيل أمراً كان من قبل يعمل به ثم ينسخه بحادث غيره كالأية تنزل بأمر ثم تنسخ بأخرى وكل شيء خلف شيئاً فقد انتسخه، يقال نسخ الشيب الشباب، وتناسخ الورثة أن تموت ورثة بعد ورثة، وأصل الميراث قائم وكذا تناسخ الأزمنة والقرون.

وقال ابن جرير معنى ما ننسخ ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبذله ونغيره، وذلك ان يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً والمباح محظوراً والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك الا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الإخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب

وهو نقله من نسخة إلى أخرى فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره انما هو تحويله إلى غيره، وسواء نسخ حكمها أو خطها إذ هي في كلتي حالتها منسوخة انتهى .

وقد جعل علماء الأصول مباحث النسخ من جملة مقاصد ذلك الفن فلا نطول بذكره بل نحيل من أراد الاستيفاء عليه على كتابنا [حصول المأمول من علم الأصول] فليرجع اليه، وقد اتفق أهل الاسلام على ثبوته سلفاً وخلفاً^(١) وهو جائز عقلاً وواقع سمعاً، ولم يخالف في ذلك أحد إلا من لا يعتد بخلافه ولا يؤبه بقوله، وقد اشتهر عن اليهود أقماهم الله إنكاره وهم محجوجون بما في التوراة فإن الله قال لنوح عليه السلام عند خروجه من السفينة إني قد جعلت كل دابة مأكلاً لك ولذريتك وأطلعت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه، ثم قد حرم على موسى وعلى بني اسرائيل كثيراً من الحيوان .

وثبت في التوراة أن آدم كان يزوج الأخ من الأخت وقد حرم الله ذلك على موسى عليه السلام وعلى غيره، وثبت فيها أن إبراهيم عليه السلام أمر بذبح ابنه ثم قال الله له لا تذبحه وأن موسى عليه السلام أمر بني اسرائيل أن يقتلوا من عبد منهم العجل ثم أمرهم برفع السيف عنهم، وحرم عليهم العمل يوم السبت ولم يجرمه على من كان قبلهم ونحو هذا كثير في التوراة الموجودة بأيديهم، والقرآن الكريم نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والإنجيل وغيرهما، ونسخ الآية بيان انتهاء التعبد بقراءتها أو بالحكم المستفاد منها أو بهما جميعاً، وإنساؤها إذهابها من القلوب .

﴿أو ننسأها﴾ بفتح النون والسين والهمز ومعنى هذه القراءة تؤخرها عن النسخ من قولهم نسأت هذا الأمر إذا أخرته، قال ابن فارس ويقولون نسأ الله في أجلك وأنسأ الله أجلك، وقد انتسأ القوم إذا تأخروا وتباعدوا ونسأتهم أنا أي أخرتهم، وقيل معناه تؤخر نسخ لفظها أي نتركه في أم الكتاب فلا يكون، وقيل

(١) وللشيخ زكريا علي يوسف كتاب سماه (الايان وآثاره) ذكر فيه فصلاً طويلاً رد فيه على المجددين الذين أنكروا النسخ في القرآن بغير دليل أو برهان .

نذهبها عنكم لا تقرأ ولا تذكر، وقرئ نساها بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك أي نتركها فلا نبدها ولا ننسخها.

ومنه قوله تعالى ﴿نسوا الله فأنسيهم﴾ أي تركوا عبادته فتركهم في العذاب، وحكى الأزهري أن معناه نأمر بتركها يقال أنسيته الشيء أي أمرته بتركه ونسيته تركته، وقال الزجاج أن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك لا يقال أنسى بمعنى ترك، قال وما روي عن ابن عباس أو نساها أي نتركها لا نبدها فلا يصح.

والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى أو نساها نبح لكم تركها من نسي إذا ترك ثم تعديه، وقد ثبت في البخاري وغيره عن أنس «أن الله أنزل في الذين قتلوا في بئر معونة أن بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا» ثم نسخ، وهكذا ثبت في مسلم وغيره عن أبي موسى قال «كنا نقرأ سورة نسيها في الطول والشدة براءة فأنسيته غير أي حفظت منها لو كان لابن آدم واديان من مال لا بتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوفه إلا التراب» وكنا نقرأ سورة نسيها بإحدى المسبحات أولها سبح لله ما في السموات فأنسيناها غير أي حفظت منها ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم فتسئلوا عنها يوم القيامة، وقد روي مثل هذا من طريق جماعة من الصحابة ومنه آية الرجم كما رواه عبد الرزاق وأحمد وابن حبان عن عمر.

﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ أي نأت بما هو أنفع للناس منها في العاجل والآجل أو في أحدهما أو بما هو مماثل لها من غير زيادة، ومرجع ذلك إلى إعمال النظر في المنسوخ والناسخ فقد يكون الناسخ أخف فيكون أنفع لهم في العاجل، وقد يكون أثقل وثوابه أكثر فيكون أنفع في الآجل، وقد يستويان فتحصل المماثلة، وقال الشافعي الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة وتابعه على ذلك طائفة، واستدل بهذه الآية وليس بصحيح، والحق جواز نسخ الكتاب بالسنة، والكلام في هذا معروف في أصول الفقه.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

﴿ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ هذه الآية تفيد أن النسخ من مقدوراته وأن انكاره انكار للقدرة الإلهية والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد هو وأمته وفيه دليل على جواز النسخ والاستفهام للتقرير وهكذا قوله ﴿ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض﴾ أي له التصرف فيهما بالايجاد والاختراع ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده وما فيه النفع لهم من أحكامه التي تعبدهم بها، وشرعها لهم، وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأزمنة والأشخاص، وهذا وإن كان خطاباً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لكنه فيه تكذيب لليهود المنكرين للنسخ.

﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ بينهما عموم وخصوص من وجه فإن الولي قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور، وفيه إشارة إلى تعلق الخطابين السابقين بالأمة أيضاً، وهذا صنع من لا ولي لهم غيره ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول والامتثال والتعظيم والاجلال.

وقد ذهب جمهور أهل الأصول إلى جواز نسخ القرآن بالسنة المتواترة، وخالف في ذلك الشافعي وتابعه على ذلك طائفة، واختلف المانعون فمنهم من منعه عقلاً كالحرث المحاسبي وعبد الله بن سعيد القلانسي، وهو رواية عن أحمد ابن حنبل، ومنهم من منعه سمعاً كالشيخ أبي حامد الاسفرايني، احتج الجمهور بأن التكليف بمقتضى السنة كالتكليف بالآية القرآنية وبأن ذلك قد وقع في هذه الشريعة المطهرة، واحتج الآخرون بقوله تعالى ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وتقرير الدلالة من وجهين.

أحدهما أن ما ينسخ به القرآن يجب أن يكون خيراً أو مثلاً، والسنة ليست كذلك.

ثانيهما أنه قال ﴿نأت﴾ والضمير لله سبحانه، فيجب أن لا ينسخ إلا بما يأتي به الله وهو القرآن.

وأجاب الأولون عن ذلك بأن المراد بقوله نأت بخير منها أو مثلها أي بحكم خير منها أو مثلها في حق المكلف باعتبار الثواب وهذا صحيح، ولا يخالفه الضمير في قوله ﴿نأت﴾ فإن القرآن والسنة جميعاً من عند الله سبحانه، قال الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ والكلام في المسألة طويل وهو مدون في الأصول بما لا يتسع المقام لبسطه، فالحق الجواز.

وأما نسخ الكتاب بما صح من آحاد السنة فقد منعه الجمهور لأن الآحاد لا تفيد القطع والكتاب مقطوع به، وذهب جماعة من متأخري الحنفية إلى جواز نسخ القرآن بالخبر المشهور، وقال في جمع الجوامع أن نسخ القرآن بالآحاد جائز غير واقع، وقال أبو بكر الباقلاني والغزالي وأبو عبد الله البصري أنه جائز في عصره صلى الله عليه وآله وسلم لا بعده، وذهب جمع من الظاهرية إلى جوازه ووقوعه.

وأقول أن النزاع إن كان في قطعية المتن فلا شك أن القرآن كذلك وما صح من آحاد السنة ليس بقطع، وإن النزاع في الدلالة فإن كان القرآن المنسوخ عموماً أو محتملاً فدلالته ظنية كدلالة ما صح من الآحاد، والذي يصلح أن يكون محلاً للنزاع هنا هو الثاني لا الأول، على أنه قد وقع نسخ القطعي بالظني فإن استقبال بيت المقدس ثبت ثبوتاً قطعياً متواتراً، ثم أن أهل قباء استداروا إلى الكعبة وهم في الصلاة بخبر واحد، ولم ينكر عليهم ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكذلك ثبت نسخ الوصية للوالدين والأقربين

بقوله صلى الله عليه وآله وسلم « لا وصية لوارث » وكذلك نسخ قوله تعالى ﴿ لا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ ﴾ بقول عائشة رضي الله تعالى عنها ما توفي رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما يشاء، ونسخ قوله تعالى ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ الآية بنهيه ﷺ عن أكل كل ذي ناب، والكلام في هذا يطول ومحلّه مطولات كتب الأصول، فإن استيفاء الكلام في هذه المسألة يحتاج إلى رسالة مستقلة والله أعلم.

وعدة الآيات المنسوخات قد بلغها بعضهم إلى خمسمائة آية لكن قال الشيخ أحمد ولي الله الدهلوي وعلى ما حررنا لا يتعين النسخ إلا في خمس آيات انتهى، وعندي أن في هذه الخمس نظراً أيضاً كما بيته في دليل الطالب. وأما الأحاديث المنسوخة فعدتها عند ابن الجوزي أحد وعشرون حديثاً، وعند الحافظ ابن القيم أقل من عشرة أحاديث كما أفاد في أعلام الموقعين، وقال النسخ الواقع في الأحاديث الذي أجمعت عليه الأمة لا يبلغ عشرة أحاديث البتة ولا شطرها انتهى^(١).

وقال الزرقاني في شرح الموطأ: مذهب المحدثين والأصوليين والفقهاء أنه متى أمكن الجمع بين الحديثين وجب الجمع انتهى، وفي الدراسات لمحمد معين: قد تكلمت على بطلان النسخ الاجتهادي في أجزاء مفردة سميتها غاية الفسخ لمسئلة النسخ، وهو الأكثر في دعاوى المتأخرين لا سيما الفقهاء الحنفيين، والنسخ المعول عليه عند المتقدمين هو المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما غيره فتعدية وتجاوز من التعبد إلى التشريع انتهى وتفصيل ذلك ذكرناه في إفادة الشيوخ بمقدار الناسخ والمنسوخ.

(١) وقد كثرت المصنفات حول الناسخ والمنسوخ منها.

- فيضة البيان في ناسخ ومنسوخ القرآن.

- اخبار اهل الرسوخ لابن الجوزي.

- الناسخ والمنسوخ من كتاب الله وغيرها فليرجع إليها.

أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِدْ
الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ أم بمعنى بل وفي هذا توبيخ وتقريع أي سؤالاً مثل ما سئل موسى حيث سأله أن يرهم الله جهرة إلى غير ذلك، وسألوا محمداً ﷺ أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً، ورويت في سبب نزول هذه الآية روايات لا نطول بذكرها^(١)

﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان﴾ أي يستبدل ويأخذه بدله بترك النظر في الآيات البينات واقتراح غيرها والباء للعوض كما استظهره السفاقي لا للسبب، كما قال به أبو البقاء، قيل خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد.

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الطريق المستوي أي المعتدل أي الحق، ومعنى ضل أخطأ، وسواء هو الوسط من كل شيء قاله أبو عبيدة ومنه قوله تعالى:

﴿وفي سواء الجحيم﴾ وقال الفراء: السواء القصد أي ذهب عن قصد الطريق وسمته أي طريق طاعة الله.

(١) أن رجلاً قال: يا رسول الله لو كانت كفاراتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي ﷺ: «اللهم لا نبغيها، ما أعطاكم الله، خير مما أعطى بني إسرائيل، كانوا إذا أصاب أحدهم الخطيئة؛ وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فان كفرها كانت له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزيًا في الآخرة، فقد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بني إسرائيل. فقال: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه [ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً]) النساء: ١١٠. وقال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن» فنزلت هذه الآية. قاله أبو العالية.

وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا
مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ
بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

﴿ود كثير من أهل الكتاب﴾ أي تمنى كثير من اليهود، فيه إخبار المسلمين بحرص اليهود على فتنهم وردهم عن الإسلام والتشكيك عليهم في دينهم ﴿لو﴾ مصدرية.

﴿لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله ود أي ودوا ذلك من عند أنفسهم ويحتمل أن يتعلق بقوله حسداً أي حسداً ناشئاً من عند أنفسهم وهو علة لقوله ود، والحسد تمنى زوال نعمة الإنسان.

﴿من بعدما تبين لهم الحق﴾ يعني في التوراة أن قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ودينه حق لا يشكون فيه فكفروا به بغياً وحسداً.

﴿فاعفوا واصفحوا﴾ والعفو ترك المؤاخذة بالذنب والصفح إزالة أثره من النفس، صفحت عن فلان إذا عرضت عن ذنبه وقد ضربت عنه صفحاً إذا عرضت عنه، وقيل هما متقاربان، والعطف على هذا للتأكيد وحسنه تغاير اللفظين، وفيه الترغيب في ذلك والإرشاد إليه، وقد نسخ ذلك بالأمر بالقتال قاله أبو عبيدة ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ أي افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه وما قد قضى به في سابق علمه وهو قتل من قتل منهم وإجلاء من أجلى وضرب الجزية على من ضربت عليه، والسلام على من أسلم ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيه وعيد وتهديد لهم عظيم.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير﴾ حث من الله سبحانه لهم على الاشتغال بما ينفعهم ويعود عليهم بالمصلحة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخير الذي يثابون عليه حتى يمكن الله لهم وينصرهم على المخالفين لهم ﴿تجدوه عند الله﴾ يعني ثوابه وأجره حتى التمرة واللقمة مثل أحد ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ لا يخفى عليه شيء من قليل الأعمال وكثيرها وفيه ترغيب في الطاعات وأعمال البر، وزجر عن المعاصي.

﴿وقالوا﴾ أي أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ قال الفراء: يجوز أن يكون هوداً بمعنى يهوديا وأن يكون جمع هائد، والنصارى جمع نصران أو نصرى والمراد يهود المدينة ونصارى نجران وقدمت اليهود على النصارى لفظاً لتقدمهم زماناً، قيل في هذا الكلام حذف وأصله وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً هكذا قال كثير من المفسرين وسبقهم إلى ذلك بعض السلف، وظاهر النظم القرآني أن طائفتي اليهود والنصارى وقع منهم هذا القول وأنهم يختصون بذلك دون غيرهم، ووجه القول بأن في الكلام حذفاً ما هو معلوم من أن كل طائفة من هاتين الطائفتين تضلل الأخرى، وتنفي عنها أنها على شيء من الدين فضلاً عن دخول الجنة كما في هذا الموضع فإنه قد حكى الله عن اليهود أنها قالت ﴿ليست النصارى على شيء﴾ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء.

﴿تلك أمانيتهم﴾ أي شهواتهم الباطلة التي تمنوها على الله بغير حق،

والاماني جمع أمنية قد تقدم تفسيرها، والإشارة بقوله تلك إلى ما تقدم لهم من الأماني التي آخرها انه لا يدخل الجنة غيرهم وقيل ان الإشارة إلى هذه الأمنية الآخرة، والتقدير مثال تلك الأمنية أمانهم على حذف المضاف ليطابق أمانهم^(١).

﴿قل هاتوا﴾ يقال للمفرد المذكر هات وللمؤنث هاتي، وهو اسم فعل بمعنى احضر، وقيل اسم صوت بمعنى ها التي بمعنى احضر وقيل فعل أمر، وهذا هو الصحيح ﴿برهانكم﴾ أي حجتكم على دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهوديا أو نصرانيا دون غيرهم، والبرهان الدليل الذي يحصل عنده اليقين، قال ابن جرير: طلب الدليل هنا يقتضي اثبات النظر، ويرد على من ينفيه، والبرهان مشتق من البره وهو القطع ومنه برهة من الزمان أي القطعة منه، وقيل نونه أصلية لثبوتها في برهن يبرهن برهنة، والبرهنة البيان ووزنه فعل لا فعلن ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في تلك الأماني المجردة والدعوى الباطلة، قال الرازي دلت الآية على أن المدعي سواء ادعى نفياً وإثباتاً فلا بد له من الدليل والبرهان، وذلك من أصدق الدلائل على بطلان القول بالتقليد، انتهى.

(١) قال ابن عباس: اختصم يهود المدينة ونصارى نجران عند النبي ﷺ، فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، ولا يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وكفروا بالإنجيل وعيسى. وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، وكفروا بالتوراة وموسى؛ فقال الله تعالى ﴿تلك أمانهم﴾.

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

ثم رد عليهم فقال ﴿بلى﴾ وهو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة أي ليس كما تقولون بل يدخلها ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي استسلم، وقيل أخلص وخص الوجه بالذكر لكونه أشرف ما يرى من الإنسان، ولأنه موضع السجود، ومجمع الحواس والمشاعر الظاهرة وفيه يظهر العز والذل، وقيل أن العرب تخبر بالوجه عن جملة الشيء وإن المعنى هنا الوجه وغيره، وقيل المراد بالوجه هنا المقصد أي من أخلص مقصده، ومجموع الشرط والجزاء رد على أهل الكتاب وإبطال لتلك الدعوى ﴿وهو محسن﴾ موحد أي متبع في عمله لله ﴿فله أجره عند ربه﴾ أي ثواب عمله وهو الجنة ﴿ولا خوف عليهم﴾ أي في الآخرة وأما في الدنيا فالمؤمنون أشد خوفاً وحزناً من غيرهم لأجل خوفهم من العاقبة ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما فاتهم من الدنيا أو للموت.

﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ قاله رافع بن حرمة ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ بيان لتضليل كل فريق صاحبه بخصوصه أثر بيان تضليله كل من عداه على وجه العموم، قيل نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران تناظروا عند النبي ﷺ وارتفعت أصواتهم وقالوا هذا القول وفيه أن كل طائفة تنفي الخير عن الأخرى، ويتضمن ذلك إثباته لنفسها تحجراً لرحمة الله سبحانه، قال في الكشف: أن الشيء هو الذي يصح ويعتد به قال: وهذه مبالغة عظيمة لأن المحال والمعدوم يقع عليهما اسم الشيء وإذا نفي إطلاق اسم الشيء عليه فقد بولغ في ترك الإعتداد به إلى ما ليس بعده،

وهكذا قولهم أقل من لا شيء.

﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أي التوراة والإنجيل، وليس فيهما هذا الاختلاف فكان حق كل منهم أن يعترف بحقية دين صاحبه حسبما ينطق به كتابه، فإن كتب الله تعالى متصادقة وقيل المراد جنس الكتاب وفي هذا أعظم توبيخ وأشد تقريع لأن الوقوع في الدعاوى الباطلة والتكلم بما ليس عليه برهان، هو وإن كان قبيحاً على الإطلاق لكنه من أهل العلم والدراسة لكتب الله أشد قبحاً وأفظع جرماً وأعظم ذنباً.

﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك الذي سمعت به بعينه لا قولاً مغايراً له.

﴿قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ المراد بهم كفار العرب الذين لا كتاب لهم قالوا مثل مقالة اليهود اقتداء بهم لانهم جهلة لا يقدرّون على غير التقليد لمن يعتقدون انه من اهل العلم، وقيل المراد بهم طائفة من اليهود والنصارى وهم الذين لا علم عندهم، وقال عطاء هم أمم كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب قالوا في أنبيائهم أنهم ليسوا على شيء..

﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة﴾ أي بين المحق والمبطل.

﴿فما كانوا فيه يختلفون﴾ من أمر الدين، أخبر سبحانه بأن هو المتولي لفصل هذه الخصومة التي وقع فيها الخلاف عند الرجوع إليه فيعذب من يستحق التعذيب وينجي من يستحق النجاة.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا
كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

قال الرازي: واعلم أن هذه الواقعة بعينها قد وقعت في أمة محمد ﷺ فإن كل طائفة تكفر الأخرى مع اتفاقهم على تلاوة القرآن انتهى.

﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه﴾ هذا الاستفهام فيه أبلغ دلالة على أن هذا الظلم غير متناه وأنه بمنزلة لا ينبغي أن يلحقه سائر أنواع الظلم أي لا أحد أظلم ممن يمنع مساجد الله أي من يأتي إليها للصلاة والتلاوة والذكر وتعليمه ﴿وسعى في خرابها﴾ قال أبو البقاء: الخراب اسم مصدر بمعنى التخریب، وقال غيره: هو مصدر خرب المكان يخرب خراباً وهو هنا السعي في هدمها ورفع بنيانها، ويجوز أن يراد بالخراب تعطيلها عن الطاعات التي وضعت لها فيكون أعم من قوله ﴿أن يذكر فيها اسمه﴾ فيشمل جميع ما يمنع من الأمور التي بنيت لها المساجد لتعلم العلم وتعليمه والقعود للاعتكاف وانتظار الصلاة، ويجوز أن يراد ما هو أعم من الأمرين من باب عموم المجاز كما في قوله تعالى ﴿إنما يعمر مساجد الله﴾.

﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ هذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي ما كان ينبغي للمانعين دخولها في جميع الأحوال إلا حال خوفهم وخشوعهم، وذلك أن بيت المقدس موضع حج النصارى وزيارتهم، قال ابن عباس: لم يدخلها بعد عمارتها رومي أو نصراني إلا خائفاً إن علم به قتل، وقيل أخيفوا بالجزية والقتل، فالجزية على الذمي، والقتل على الحربي، وقيل خوفهم هو فتح مدائنهم الثلاث قسطنطينية ورومية وعمورية والأول أولى.

وفيه إرشاد للعباد من الله عز وجل أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله

من أهل الكفر من غير فرق بين مسجد ومسجد، وبين كافر وكافر كما يفيد
عموم اللفظ، ولا ينافيه حصول السبب الخاص وأن يجعلوهم بحالة إذا أرادوا
الدخول كانوا على وجل وخوف من أن يفتن لهم أحد من المسلمين فينزلون
بهم ما يوجب الإهانة والإذلال، وليس فيه الإذن لنا بتمكينهم من ذلك حال
خوفهم، بل هو كناية عن المنع لهم منا من دخول مساجدنا، وقيل معناه ما
كان الحق أن يدخلوها إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن
يمنعوهم منها، أو ما كان لهم في علم الله وقضائه، فيكون وعداً للمؤمنين
بالنصر واستخلاص المساجد منهم وقد أنجز وعده.

﴿لهم في الدنيا خزي﴾ يعني الصغار والذل والقتل والسبي وقيل هو
ضرب الجزية عليهم وإذلالهم وقيل غير ذلك وقد تقدم تفسيره ﴿ولهم في
الآخرة عذاب عظيم﴾ يعني النار.

قال ابن عباس: أن قريشا منعوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة
عند الكعبة في المسجد الحرام يعني في ابتداء الإسلام فأنزل الله ﴿ومن
أظلم﴾ الآية نزلت في خراب بيت المقدس على يد فلطيوس الرومي ولم يزل
خراباً حتى بناه المسلمون في عهد عمر رضي الله تعالى عنه، وقال السدي: هم
الروم كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس، وليس في الأرض رومي
يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، وقد أخيف بأداء الجزية فهو
يؤديها، وأما بخزيهم في الدنيا فإنه إذا قام المهدي وفتحت القسطنطينية قتلهم
فذلك الخزي، وعن قتادة أنهم الروم، وعن كعب أنهم النصارى لما ظهوروا
على بيت المقدس حرقوه، وفيه أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أن عهد
بختنصر كان قبل مولد المسيح بدهر طويل، والنصارى كانوا بعد المسيح فكيف
يكونون مع بختنصر في تخريب بيت المقدس.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: هم المشركون حين صدوا
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن البيت يوم الحديبية، قال أبو صالح:

ليس للمشركين أن يدخلوا المسجد إلا خائفين، عن قتادة قال: يعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وقال ﴿مساجد الله﴾ وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد وهو بيت المقدس أو المسجد الحرام لأن الحكم عام، وإن كان السبب خاصاً.

ورجح الطبري القول الأول، وقال: إن النصارى هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس بدليل أن مشركي العرب لم يسعوا في خراب المسجد الحرام وإن كانوا قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الأوقات من الصلاة فيه.

وأيضاً الآية التي قبل هذه والتي بعدها في ذم أهل الكتاب، ولم يجر لمشركي مكة ذكر، ولا للمسجد الحرام، فتعين أن يكون المراد بهذه بيت المقدس، ورجح غيره القول الثاني بدليل أن النصارى يعظمون بيت المقدس أكثر من اليهود، فكيف يسعون في خرابه وهو موضع حجهم.

وقال الرازي: وعندي فيه وجه خامس وهو أقرب إلى رعاية النظم وهو أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك على اليهود فكانوا يمنعون الناس عن الصلاة إلى الكعبة، ولعلهم سعوا أيضاً في تخريب الكعبة وفي تخريب مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا التأويل أولى مما قبله انتهى، وفي أحكام القرآن أنه كل مسجد، قال: وهو الصحيح لأن اللفظ عام ورد بصيغة الجمع فتخصيصه ببعض المساجد أو ببعض الأزمنة محال.

قلت وهذا هو الصواب فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويدخل فيه السبب الخاص دخولاً أولياً.

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾
وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١١٦﴾

﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾ المشرق موضع الشروق والمغرب موضع الغروب، وهما إسمان مكان وقيل إسمان مصدر أي الإشراف والإغراب، أي هما ملك الله وما بينهما من الجهات والمخلوقات فيشمل الأرض كلها أي جهة تستقبلونها فهناك وجه الله أي المكان الذي يرتضي لكم استقباله، وذلك يكون عند التباس جهة القبلة التي أمرنا بالتوجه إليها بقوله سبحانه ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾ قال في الكشف: والمعنى أنكم إذا منعتم أن تصلوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس فقد جعلت لكم الأرض مسجداً فصلوا في أي بقعة شئتم من بقاعها وافعلوا التولية فيها فإن التولية ممكنة في كل مكان لا يختص أماكنها في مسجد دون مسجد، ولا في مكان دون مكان، انتهى.

وهذا التخصيص لا وجه له فإن اللفظ أوسع منه وإن كان المقصود به بيان السبب فلا بأس «وأين» هنا إسم شرط وهي ظرف مكان وتكون إسم استفهام أيضاً فهي مشترك بينهما و«ثم» إسم إشارة للمكان البعيد خاصة مثل هنا، وقال أبو البقاء: نائب عن هناك، وليس بشيء ﴿إن الله واسع عليم﴾ فيه إرشاد إلى سعة رحمته وأنه يوسع على عباده في دينهم ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، وقيل واسع بمعنى أنه يسع علمه كل شيء كما قال وسع كل شيء علماً، وقال الفراء: الواسع الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء.

عن ابن عباس قال: أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة قال الله تعالى ﴿ولله المشرق والمغرب﴾ الآية فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم

صرفه الله إلى البيت العتيق ونسخها فقال ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر قال: كان النبي ﷺ يصلي على راحلته تطوعاً أينما توجهت به ثم قرأ ابن عمر هذه الآية ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾ وقال في هذا أنزلت هذه الآية^(١)، وأخرج نحوه عنه ابن جرير والدارقطني والحاكم وصححه.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث جابر وغيره عن رسول الله ﷺ أنه كان يصلي على راحلته قبل المشرق، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل واستقبل القبلة وصلى^(٢)، وأخرج عبد بن حميد والترمذي وضعفه وابن ماجة وابن جرير وغيرهم عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة سوداء^(٣) مظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلي فيه فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا على غير القبلة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله ﷻ ولله المشرق والمغرب ﴿الآية فقال «مضت صلاتكم»^(٤) عن ابن عباس قال: قبله الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما بين المشرق والمغرب^(٥) قبله أخرجه ابن أبي شيبة والترمذي وصححه وابن ماجة.

﴿وقالوا اتخذ الله ولداً﴾ القائل هم اليهود والنصارى، فاليهود قالوا عزيز ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله، وقيل هم كفار العرب قالوا الملائكة بنات الله أخرجه البخاري عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

(١) الترمذي كتاب التفسير سورة ٢ باب ٤.

(٢) صحيح الجامع الصغير ٤٨٤١.

(٣) ابن كثير ١٥٨/١.

(٤) صحيح الجامع الصغير ٥٤٦٠.

قال: «قال الله تعالى كذبي ابن آدم وشتمني، فأما تكذبه إياي فيزعم أي لا أقدر أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقله لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً^(١)» وأخرج نحوه أيضاً من حديث أبي هريرة، وفي الباب أحاديث.

والمراد بقوله ﴿سبحانه﴾ تنزيه الله تعالى عما نسبوا إليه من اتخاذ الولد، وفيه رد على القائلين بأنه اتخذ ولداً لأن اتخاذ الولد لبقاء النوع، والله منزّه عن الفناء والزوال ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ أي بل هو مالك لما فيهما فكيف ينسب إليه الولد، وهؤلاء القائلون داخلون تحت ملكه والولد من جنسهم لا من جنسه، ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد ﴿كل له قانتون﴾ أي مطيعون ومقرون له بالعبودية، والقانت المطيع الخاضع أي كل من في السموات والأرض كائناً ما كان من أولي العلم وغيرهم مطيعون له خاضعون لعظمته، خاشعون لجلاله، لا يستعصي شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيتته، والقنوت في أصل اللغة القيام، قال الزجاج: فالخلق قانتون أي قائمون بالعبودية إما إقراراً وإما أن يكونوا على خلاف ذلك فأثر الصنعة بين عليهم، وقيل أصله الطاعة ومنه ﴿والقانتين والقانتات﴾ وقيل السكوت ومنه ﴿قوموا لله قانتين﴾ ولهذا قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت ﴿وقوموا لله﴾ الآية فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام، وقيل القنوت الصلاة والأولى أن القنوت لفظ مشترك بين معان كثيرة قيل هي ثلاثة عشر معنى وهي مبينة وقد نظمها بعض أهل العلم، واختلف في حكم الآية فقيل هو خاص وقيل عام لأن لفظة كل تقتضي الشمول والإحاطة^(٢).

(١) صحيح الجامع الصغير ٢٢٠٣.

(٢) وقد ورد الحديث: «افضل الصلاة طول القنوت».

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

﴿بديع السموات والأرض﴾ أبدع الشيء أنشأه لا عن مثال، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له مبدع، والأصل بديع سمواته أي بدعت لمجيئها على شكل فائق حسن غريب ﴿وإذا قضى أمراً﴾ أي أحكمه وأتقنه، قال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه، قيل هو مشترك بين معان يقال قضى بمعنى خلق ومنه ﴿فقضاهن سبع سموات﴾ وبمعنى أعلم، ومنه ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب﴾ وبمعنى أمر ومنه ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ وبمعنى ألزم منه ﴿قضى عليه القاضي﴾ وبمعنى أوفاه ومنه ﴿فلما قضى موسى الأجل﴾ وبمعنى أراد ومنه ﴿فإذا قضى أمراً﴾ والتقدير إذا قضى أمراً يكون ويحصل، فلفظ يكون المقدر هو العامل في «إذا».

والأمر واحد الأمور، وقد ورد في القرآن على أربعة عشر معنى.

(الأول): الدين، ومنه ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله﴾.

(الثاني): بمعنى القول ومنه ﴿فإذا جاء أمرنا﴾.

(الثالث): العذاب ومنه ﴿لما قضى الأمر﴾.

(الرابع): عيسى ومنه ﴿فإذا قضى أمراً﴾ أي أوجد عيسى عليه السلام.

(الخامس): القتل ومنه ﴿فإذا جاء أمر الله﴾.

(السادس): فتح مكة ﴿فتربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾.

(السابع): قتل بني قريظة وجلاء النضير ومنه ﴿فاعفوا واصفحوا حتى

يأتي الله بأمره﴾.

(الثامن): القيامة ومنه ﴿أتى أمر الله﴾.

(التاسع): القضاء ومنه ﴿يدبر الأمر﴾.

(العاشر): الوحي ومنه ﴿يَتَنَزَّلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ﴾.

(والحادي عشر): أمر الخلائق ومنه ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

(والثاني عشر): النصر ومنه ﴿هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(والثالث عشر): الذنب ومنه ﴿فَذَاكَتْ وَبَالَ أَمْرَهَا﴾.

(والرابع عشر): الشأن ومنه ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ هكذا أورد هذه المعاني بأطول من هذا بعض المفسرين، وليس تحت ذلك كثير فائدة، فإطلاقه على الأمور المختلفة لصدق اسم الأمر عليها.

﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الظاهر في هذا المعنى الحقيقي، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقال تعالى ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقال ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وقد قيل أن ذلك مجاز وأنه لا قول، وإنما هو قضاء يقضيه فعبر عنه بالقول، وقال البيضاوي ليس المراد حقيقة أمر وامثال، بل تمثيل حصول ما تعلقت به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقف انتهى، وهذا من أنفاسه الفلسفية وكم له من أشباه ذلك وأمثاله^(١).

(١) وقد استدلل العلماء على قدم القرآن بقوله ﴿كُنْ﴾.

فقالوا: لو كانت (كن) مخلوقة لافتقرت إلى إيجادها بمثلها وتسلسل ذلك. والمتسلسل محال...
فإن قيل: هذا خطاب لمعدوم فالجواب: أنه خطاب تكوين يظهر أثر القدرة ويستحيل أن يكون المخاطب موجوداً - زاد المسير ١/١٣٧، ١٣٨.

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿١٨﴾

﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ قيل هم اليهود وقيل النصارى، ورجحه ابن جرير لأنهم المذكورون في الآية، وقيل مشركو العرب وعليه أكثر المفسرين ﴿لولا﴾ حرف تحضيض أي هلا

﴿يكلّمنا الله﴾ مشافهة من غير واسطة بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فنعلم أنه نبي أو بواسطة الوحي إلينا لا إليك، وهذا منهم استكبار وتعنت ﴿أو تأتينا﴾ لذلك ﴿آية﴾ أي علامة على نبوته، وهذا منهم جحود ﴿كذلك﴾ أي مثل ذلك القول الشنيع الصادر عن العناد والفساد.

﴿قال الذين من قبلهم﴾ قيل هم اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب، أو الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون اليهود والنصارى، أو اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى ﴿مثل قولهم﴾ وذلك أن اليهود سألوا موسى أن يريهم الله جهرة، وأن يسمعهم كلام الله وسأله من الآيات ما ليس لهم مسئلته ﴿تشابهت قلوبهم﴾ أي في التعنت والعمى والعناد والاقتراح، وقال الفراء: في اتفاقهم على الكفر، وإلا لما تشابهت أقاويلهم الباطلة ﴿قد بينا الآيات﴾ أي نزلناها بينة بأن جعلناها كذلك في أنفسها كما في قولهم سبحانه من صغر البعوض وكبر الفيل، لا أنا بيناها بعد أن لم تكن بينة ﴿لقوم يوقنون﴾ أي يعترفون بالحق وينصفون في القول، ويدعون لأوامر الله سبحانه لكونهم مصدقين له سبحانه مؤمنين بآياته متبعين لما شرعه لهم.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أي بالصدق وقال ابن عباس: بالقرآن وقيل بالإسلام وقيل معناه لم نرسلك عبثاً بل أرسلناك بالحق ﴿بشيراً﴾ أي مبشراً لأوليائي وأهل طاعتي بالثواب العظيم ﴿ونذيراً﴾ أي منذراً وخوفاً لأعدائي وأهل معصيتي بالعذاب الأليم ﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ قرأ الجمهور بالرفع مبنياً للمجهول أي حال كونك غير مسؤل، وقرئ بالرفع مبنياً للمعلوم، قال الأخفش: ويكون في موضع الحال عطفاً على بشيراً ونذيراً أي حال كونك غير سائل عنهم لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم، وقرأ نافع ولا تسأل بالجزم، والمعنى ولا يصدر منك السؤال عن هؤلاء وعمن مات منهم على كفره ومعصيته تعظيماً لحاله وتغليظاً لشأنه، أي إن هذا أمر فظيع وخطب شنيع، يتعاضم المتكلم أن يجري على لسانه، ويتعاضم السمع أن يسمعه وفي القاموس الجحيم النار الشديدة التأجج وكل نار بعضها فوق بعض، والجحيم ما عظم من النار، قاله أبو مالك، والمعنى لا تسأل عن حالهم التي تكون لهم في القيامة فإنها شنيعة ولا يمكنك في هذه الدار الإطلاع عليها وهذا فيه تخويف لهم وتسلية له صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد ابن كعب القرظي قال: قال رسول الله ﷺ «ليت شعري ما فعل أبوي» فنزلت هذه الآية فما ذكرهما حتى توفاه الله، قال السيوطي هذا مرسل ضعيف الإسناد ثم رواه من طريق ابن جرير عن داود بن أبي عاصم مرفوعاً وقال هو معضل الإسناد لا تقوم به ولا بالذي قبله حجة.

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ أي ليس

غرضهم ومبلغ الرضا منهم ما يقترحونه عليك من الآيات، ويوردونه من التعنتات، فإنك لو جئتهم بكل ما يقترحون وأجبتهم عن كل تعنت لم يرضوا عنك حتى تدخل في دينهم وتتبع ملتهم، والملة اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه على ألسن أنبيائه وهكذا الشريعة، وقال ابن عباس: هذا في أمر القبلة أيسوا منه أن يوافقهم عليها، والرضا ضد الغضب وهو من ذوات الواو لقولهم الراضون ﴿قل إن هدى الله﴾ أي الإسلام ﴿هو الهدى﴾ الحقيقي لا ما أنتم عليه من الشريعة المنسوخة والكتب المحرفة.

ثم أتبع ذلك بوعيد شديد لرسول الله ﷺ فقال ﴿ولئن﴾ هذه تسمى اللام الموطئة للقسم وعلامتها أن تقع قبل أدوات الشرط، وأكثر مجيئها مع إن، وقد تأتي مع غيرها نحو ﴿لما آتيتكم من كتاب، لمن تبعك منهم﴾ ﴿اتبعت أهواءهم﴾ أي أهواء اليهود والنصارى ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ أي البيان بأن دين الله هو الإسلام، وأن القبلة هي قبلة إبراهيم وهي الكعبة، ويحتمل أن يكون تعريضاً لأمتهم وتحذيراً لهم أن يواقعوا شيئاً من ذلك، أو يدخلوا في أهواء أهل الملل ويطلبوا رضا أهل البدع، أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال: أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبلتهم، فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأيسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله هذه الآية.

وجواب القسم قوله ﴿مالك من الله من ولي﴾ يلي أمرك ويقوم بك ﴿ولا نصير﴾ ينصرك ويمنعك من عقابه، وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي ترجف له القلوب وتنصدع منه الأفئدة ما يوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله سبحانه، والقائمين ببيان شرائعه، ترك الدهان لأهل البدع المتمذهبين بمذاهب السوء التاركين للعمل بالكتاب والسنة، المؤثرين لمحض الرأي عليهما فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً وأبان من أخلاقه لينا لا يرضيه إلا اتباع بدعته والدخول في مداخله، والوقوع في حبائله، فإن فعل العالم ذلك بعد أن علمه الله من العلم ما يستفيد به أن هدى الله هو ما في كتابه وسنة

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢١﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٣﴾

رسوله، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة وجهالة بينة، ورأي منهار، وتقليد على شفا جرف هار، فهو إذ ذاك ماله من الله من ولي ولا نصير، ومن كان كذلك فهو لا محالة مخذول وهالك بلا شك وشبهة.

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى قاله قتادة وقيل هم المسلمون، والكتاب هو القرآن وقيل من أسلم من أهل الكتاب، وقال ابن عباس: نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب، وكانوا أربعين رجلاً ثمانية من رهبان الشام منهم بحيرى الراهب والباقي من الحبشة وقيل هم المؤمنون عامة ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ أي يقرؤونه كما أنزل لا يغيرونه ولا يحرفونه ولا يبدلون ما فيه من نعت رسول الله ﷺ، وقيل المراد بالتلاوة أنهم يعملون بما فيه فيحللون حلاله ويحرمون حرامه، فيكون من تلاه يتلوه إذا اتبعه أي يتبعونه حق اتباعه، ومنه قوله تعالى ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي اتبعها قاله ابن عباس، وقال عمر بن الخطاب: يعني إذ مر بذكر الجنة يسأل الجنة وإذا مر بذكر النار تعوذ من النار، وقال زيد بن أسلم: يتكلمون به كما أنزل ولا يكتُمونه، عن قتادة قال: هم أصحاب محمد ﷺ، وعن الحسن قال: يعملون بحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويكلمون ما أشكل عليهم إلى عالمه، وقيل يتدبرونه حق تدبره ويتفكرون في معانيه وحقائقه وأسراره،

﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي يصدقون به، فإن كانت الآية في أهل الكتاب فالمعنى أن المؤمن بالتوراة الذي يتلوها حق تلاوتها هو المؤمن بمحمد ﷺ لأن في

التوراة نعتة وصفته، وإن كانت في المؤمنين عامة فالمعنى ظاهر ﴿ومن يكفر به﴾ أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان.

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾ قد مر مثل هذا في صدر السورة وقد تقدم تفسيره وهذا من العام الذي يراد به الخاص كقوله تعالى ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ ومعنى الآية ولا تنفعها شفاعة إذا وجب عليها العذاب ولم تستحق سواه، وقيل: أنه رد على اليهود في قولهم أن آباءنا يشفعون لنا، ووجه التكرار الحث على اتباع الرسول النبي الأمي، ذكر معناه ابن كثير في تفسيره وقيل للتوكيد وتذكير النعم، وفيه عظة لليهود الذين كانوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال البقاعي في تفسيره: أنه لما طال المدى في استقصاء تذكيرهم بالنعم ثم في بيان عوارهم وهتك أستارهم، وختم ذلك بالترهيب لتضييع أديانهم بأعمالهم وأحوالهم وأقوالهم، أعاد ما صدر به قصتهم من التذكير بالنعم والتحذير من حلول النقم، يوم يجمع الأمم، ويدوم فيه الندم، لمن زلت به القدم، ليعلم أن ذلك فذلقة القصة والمقصود بالذات الحث على انتهاز الفرصة انتهى.

وأقول: ليس هذا بشيء، فإنه لو كان سبب التكرار ما ذكره من طول المدى، وأنه أعاد ما صدر به قصتهم لذلك لكان الأولى بالتكرار، والأحق بإعادة الذكر هو قوله سبحانه ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدكم أوف بعدهم وإياي فارهبون﴾ فإن هذه الآية مع كونها أول الكلام معهم والخطاب لهم في هذه السورة، هي أيضاً أولى بأن تعاد وتكرر لما فيها من الأمر بذكر النعم والوفاء بالعهد، والرهبة لله سبحانه، وبهذا

تعرف صحة ما قدمناه لك عند أن شرع الله سبحانه في خطاب بني إسرائيل من هذه السورة فراجعه.

ثم حكى البقاعي بعد كلامه السابق عن الحراني أنه قال: كرهه تعالى إظهاراً لمقصد التثام آخر الخطاب بأوله ليتخذ هذا الإفصاح والتعليم أصلاً لما يمكن بأن يرد من نحوه في سائر القرآن، حتى كان الخطاب إذا انتهى إلى غاية خاتمة يجب أن يلحظ القلب بداية تلك الغاية فيتلوها ليكون في تلاوته جامعاً لطرفي الشاء، وفي تفهمه جامعاً لمعاني طرفي المعنى انتهى.

وأقول لو كان هذا سبب التكرار لكان الأولى به ما عرفناك، وأما قوله وليتخذ ذلك أصلاً لما يرد من التكرار في سائر القرآن، فمعلوم أن حصول هذا الأمر في الأذهان وتقرره في الأفهام لا يختص بتكرار آية معينة يكون افتتاح هذا المقصد بها، فلم تتم حينئذ النكتة في تكرير هاتين الآيتين بخصوصهما، والله الحكمة البالغة التي لا تبلغها الأفهام ولا تدركها العقول، فليس في تكلف هذه المناسبات المتعسفة إلا ما عرفناك به هنالك فتذكر.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي
قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١٢٤)

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لبني إسرائيل والابتلاء الاختبار والامتحان أي ابتلاه بما أمره به وهو استعارة تبعية واقعة على طريق التمثيل، أي فعل معه فعلاً مثل فعل المختبر، والغرض من هذا التذكير توبيخ أهل الملل المخالفين، وذلك لأن إبراهيم يعترف بفضل جميع الطوائف قديماً وحديثاً، فحكى الله عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين واليهود والنصارى قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأن ما أوجبه الله على إبراهيم جاء به محمد، وفي ذلك حجة عليهم.

وإبراهيم اسم أعجمي معناه في السريانية أب رحيم كذا قال الماوردي، قال ابن عطية: ومعناه في العربية ذلك، قال السهيلي: وكثيراً ما يقع الاتفاق بين السرياني والعربي، وفيه لغات، وكان مولد إبراهيم بالسوس من أرض الأهواز، وقيل ببابل، وقيل بكوثي، وهي قرية من سواد الكوفة، وقيل بخران ولكن أباه نقله إلى أرض بابل وهي أرض نمرود الجبار.

وقد أورد صاحب الكشف هنا سؤالاً في رجوع الضمير إلى إبراهيم مع كون رتبته التأخير، وأجاب عنه بأنه قد تقدم لفظاً فرجع إليه، والأمر في هذا أوضح من أن يشتغل بذكره أو ترد في مثله الأسئلة أو يسود وجه القرطاس بإيضاحه.

وقد اختلف العلماء في تعيين الكلمات فقليل هي شرائع الإسلام وقيل ذبح ابنه وقيل أداء الرسالة وقيل هي خصال الفطرة، وقيل قوله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقيل الطهارة، قال الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة لأن

هذا كله مما ابتلي به إبراهيم انتهى ، وظاهر النظم القرآني أن الكلمات هي قوله ﴿إني جاعلك﴾ وما بعده ويكون ذلك بياناً للكلمات ، وجاء عن بعض السلف ما يوافق ذلك وعن آخرين ما يخالفه ، والحق أنه إذا لم يصح شيء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا جاءنا من طريق تقوم بها الحجة في تعيين تلك الكلمات لم يبق لنا إلا أن نقول أنها ما ذكره الله سبحانه في كتابه قال ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ ويكون ذلك بياناً للكلمات ، أو السكوت وإحالة العلم في ذلك على الله سبحانه .

وأما ما روي عن ابن عباس ونحوه من الصحابة ومن بعدهم في تعيينها فهو أولاً أقوال الصحابة ولا تقوم بها الحجة فضلاً عن أقوال من بعدهم ، وعلى تقدير أنه لا مجال للاجتهاد في ذلك وإن له حكم الرفع فقد اختلفوا في التعيين اختلافاً يمنع معه العمل ببعض ما روي عنهم دون البعض الآخر ، بل اختلفت الروايات عن الواحد منهم كما روي عن ابن عباس فكيف يجوز العمل بذلك ، وبهذا تعرف ضعف قول من قال : أنه يصار إلى العموم ، ويقال تلك الكلمات هي جميع ما ذكر ههنا ، فإن هذا يستلزم تفسير كلام الله بالضعيف والمتناقض وما لا تقوم به الحجة ، وعلى هذا فيكون قوله ﴿إني جاعلك﴾ مستأنفاً كأنه قيل ما ذا قال له .

وقال ابن جرير : ما حاصله أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ذلك وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له ، ثم قال : إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب ، يعني أن الكلمات هي قوله ﴿إني جاعلك للناس إماماً﴾ وقوله ﴿وعهدنا إلى إبراهيم﴾ وما بعده ، ورجح ابن كثير^(١) أنها تشمل جميع ما ذكر وفيه بعد .

(١) ابن كثير ١/١٦٦ .

﴿فَأْتَمَهُنَّ﴾ أي قام بهن أتم قيام، وامثل اكمل امثال، واختلف هل كان هذا الابتلاء قبل النبوة أو بعدها فليل بالاول دليل السياق فانه يدل على أن قيامه عليه السلام بهن كالسبب لأن يجعله الله إماماً، والسبب يتقدم على المسبب، وقيل بالثاني لأن التكليف لا يعلم إلا من جهة الوحي الإلهي، وذلك بعد النبوة، وقيل إن فسر الابتلاء بالكوكب والقمر والشمس كان ذلك قبل النبوة، وإن فسر بما وجب عليه من شرائع الدين كان ذلك بعد النبوة.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم ﴿إِمَامًا﴾ يقتدي بدينك وهديك وستتك، والإمام هو الذي يؤتم به، ومنه قيل للطريق إمام وللبناء إمام لأنه يؤتم بذلك أي يهتدي به السالك، والإمام لما كان هو القدوة للناس لكونهم يأتمون به ويهتدون بهديه أطلق عليه هذا اللفظ إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته مأموراً باتباعه في الجملة، وإبراهيم يعترف بفضله جميع الطوائف قديماً وحديثاً، فأما اليهود والنصارى فانهم مقرون بفضله ويتشرفون بالنسبة إليه، وأنهم من أولاده، وأما العرب في الجاهلية فانهم أيضاً يعترفون بفضله ويتشرفون على غيرهم به لأنهم من أولاده، ومن ساكني حرمة، وخدام بيته، ولما جاء الإسلام زاده الله شرفاً وفضلاً، فحكى الله عن إبراهيم أموراً توجب على المشركين والنصارى واليهود قبول قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم والاعتراف بدينه والانقياد لشرعه، لأن ما أوجبه الله على إبراهيم هو من خصائص دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ذلك حجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب في وجوب الانقياد لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان به وتصديقه.

﴿قَالَ وَمَنْ ذَرِيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون ذلك دعاء من إبراهيم أي واجعل من بعض ذريتي أئمة، ويحتمل أن يكون هذا من إبراهيم لقصد الإستفهام وإن لم يكن بصيغته أي ومن ذريتي ماذا يكون يا رب، فأخبره أن فيهم عصاة وظلمة، وأنهم لا يصلحون لذلك ولا يقومون به، ولا ينالهم عهد الله سبحانه، وتخصيص البعض بذلك لبداهة استحاله

إمامة الكل، وإن كانوا على الحق، عن قتادة قال هذا عند الله يوم القيامة لا ينال عهده ظلماً، فأما في الدنيا فقد نالوا عهده فوارثوا به المسلمين وغادوهم وناكحوهم، فلما كان يوم القيامة قصر الله عهده وكرامته على أوليائه، وعن مجاهد قال لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به، وعن ابن عباس قال يخبره أنه إن كان في ذريته ظالماً لا ينال عهده ولا ينبغي له أن يوليه شيئاً من أمره، والنيل الإدراك وهو العطاء، والذرية مأخوذة من الذر، لأن الله أخرج الخلق من ظهر آدم عليه السلام حين أشهدهم على أنفسهم كالذر، وقيل مأخوذ من ذرأ الله الخلق يذرؤهم إذا خلقهم، وفي الكتاب العزيز ﴿فأصبح هسبياً تذرؤه الرياح﴾ وقال الخليل: إنما سموا ذرية لأن الله تعالى ذرأها على الأرض كما ذرأ الزراع البذر، قال ابن عباس: يؤخذ من هذا إباحة السعي في منافع الذرية والقربة وسؤال من بيده ذلك.

واختلف في المراد بالعهد ف قيل الإمامة وقيل النبوة وقيل عهد الله أمره وقيل الأمان من عذاب الآخرة ورجحه الزجاج، والأول أظهر كما يفيد السياق.

وقد استدل بهذه الآية جماعة من أهل العلم على أن الإمام لا بد أن يكون من أهل العدل والعمل بالشرع كما ورد لأنه إذا زاغ عن ذلك كان ظالماً ويمكن أن ينظر إلى ما يصدق عليه اسم العهد وما يفيد الإضافة من العموم فيشمل جميع ذلك اعتباراً بعموم اللفظ من غير نظر إلى السبب ولا إلى السياق، فيستدل به على اشتراط السلامة من وصف الظلم في كل من تعلق بالأمور الدينية.

وقد اختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالماً ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل أنه سيوجد من ذريته من هو ظالم لنفسه، انتهى، ولا يخفك أنه لا جدوى لكلامه هذا فالأولى أن يقال أن هذا الخبر في معنى الأمر لعباده أن لا يولوا أمور الشرع ظالماً، وإنما قلنا أنه في معنى الأمر لأن إخباره تعالى لا يجوز أن يتخلف، وقد علمنا أنه قد نال عهده من الإمامة وغيرها كثير من الظالمين.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم أو لأجل مناسكهم، والبيت هو الكعبة غلب عليه كما غلب النجم على الثريا، ويدخل فيه جميع الحرم لوصفه بكونه آمناً كما سيأتي، ومثابة مصدر من ثاب يثوب مثاباً ومثابة أي مرجعاً يرجع الحجاج إليه بعد تفرقهم عنه، وقيل المثابة من الثواب أي يثابون هنالك قال مجاهد المراد أنهم لا يقضون منه أوطارهم، قال الأخفش ودخلت الهاء لكثرة من يثوب إليه كعلامة ونسابة، وقال غيره هي للتأنيث وليست للمبالغة وهو مصدر أو اسم مكان، قولان.

﴿وَأَمْنًا﴾ هو اسم مكان أي موضع أمن وهو أظهر من جعله اسم الفاعل على سبيل المجاز كقوله ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ فإن الآمن هو الساكن والملتجئ والأول لا مجاز فيه، وقد استدل بذلك جماعة من أهل العلم على أنه لا يقام الحد على من لجأ إليه، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وقيل إن ذلك منسوخ، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعصده شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاه فقال العباس: يا رسول الله إلا الأذخر فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: إلا الأذخر» أخرجه البخاري ومسلم^(١) وكان الناس يأمنون فيه من أذى المشركين فإنهم كانوا لا يتعرضون لأهل مكة ويقولون هم أهل الله، وقال ابن عباس في الآية معاذاً وملجأً.

(١) رواه مسلم / ١٣٥٣ وقد ورد في فضائل مكة أحاديث كثيرة صحيحة.

﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ قرىء على أنه فعل ماض أي واتخذوه مصلى، وقرىء على صيغة الأمر، ويجوز أن يكون تقديره وقلنا اتخذوا والمقام في اللغة موضع القيام قال النحاس هو من قام يقوم يكون مصدراً واسماً للموضع، ومقام من أقام، ومن للتبعض وهذا هو الظاهر، وقيل بمعنى في وقيل زائدة على قول الأخفش وليساً بشيء، اختلف في تعيين المقام على أقوال أصحها أنه الحجر الذي يعرفه الناس ويصلون عنده ركعتي الطواف، وقيل المقام الحرم كله روي ذلك عن عطاء ومجاهد وقيل عرفة والمزدلفة، وقال الشعبي: الحرم كله مقام، والمعنى اتخذوا مصلى كائناً عند مقام إبراهيم، والعندية تصدق بجهاته الأربع والتخصيص بكون المصلى خلفه إنما استفيد من فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم. والصحابة بعده.

أخرج البخاري وغيره من حديث أنس عن عمر بن الخطاب قال: «وافقت ربي في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت هذه الآية وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجن فنزلت آية الحجاب واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نسائه في الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك» وأخرجه مسلم وغيره مختصراً من حديث ابن عمر عنه^(١).

وأخرج مسلم وغيره من حديث جابر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين ثم قرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ وفي مقام إبراهيم عليه السلام أحاديث كثيرة مستوفاة في الأمهات وغيرها، والأحاديث الصحيحة تدل على أن مقام إبراهيم هو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع

(١) وانظر الحديث بطوله في صحيح مسلم / ١٤٧٩.

الجدار أتاه إسماعيل به ليقوم فوقه كما في البخاري من حديث ابن عباس، وهو الذي كان ملصقا بجدار الكعبة وأول من نقله عمر بن الخطاب كما أخرجه عبد الرزاق والبيهقي بإسناد صحيح، وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق مختلفة.

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث جابر في وصف حج النبي ﷺ قال لما طاف النبي ﷺ قال له عمر هذا مقام إبراهيم، قال نعم، وأخرج نحوه ابن مردويه قيل: كان أثر أصابع رجلي إبراهيم فيه فاندurst بكثرة المسح بالأيدي، وإنما أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقيله.

وقد روى البخاري في بدء قصة المقام أثراً طويلاً عن ابن عباس وقد ورد في حديث الترمذي أن الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما^(١).

واختلفوا في قوله ﴿مصلى﴾ فمن فسر المقام بمشاهد الحج ومشاعره قال مصلى مدعى من الصلاة التي هي الدعاء، ومن فسر المقام بالحجر قال معناه واتخذوا من مقامه قبلة أمروا بالصلاة عنده، وهذا هو الصحيح لأن لفظ الصلاة إذا أطلق لا يعقل منه إلا الصلاة المعهودة ذات الركوع والسجود ولأن مصلى الرجل هو الموضع الذي يصلي فيه.

﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ معنى عهدنا هنا أمرنا أو أوحينا، وقيل ألزمتنا وأوجبنا، ومن أغرب ما نقل في تسمية إسماعيل أن إبراهيم كان يدعو الله أن يرزقه ولداً ويقول في دعائه اسمع يا إيل، وإيل بلسان السريانية هو الله، فلما رزق الولد سماه به وقيل هو إسم أعجمي، وفيه لغتان اللام والنون ويجمع على سماعيل وسماعيل وأساميع، والمراد بالتطهير قيل من الأوثان قاله ابن عباس، وقيل من الآفات

(١) الترمذي كتاب الحج الباب ٤٩ - أحمد بن حنبل ٢/٢١٢، ٢١٤.

والريب وقول الزور والرجس، قاله مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، وقيل من الكفار، وقيل من النجاسات وطواف الجنب والحائض وكل خبيث، والظاهر أنه لا يختص بنوع من هذه الأنواع وأن كل ما يصدق عليه مسمى التطهير فهو يتناوله إما تناولاً شمولياً أو بديلاً.

والإضافة في قوله «بيتي» للتشريف والتكريم، والمراد بالبيت الكعبة، والطائف الذي يطوف به أي الدائر حوله، وقيل الغريب الطاريء على مكة والعاكف المقيم، وأصل العكوف في اللغة اللزوم واللبث والإقبال على الشيء، وقيل هو المجاور دون المقيم من أهلها، والمراد بقوله ﴿الركع السجود﴾ المصلون، وخص هذين الركنين بالذكر لأنها أشرف أركان الصلاة، عن ابن عباس قال: إذا كان قائماً فهو من الطائفين، وإذا كان جالساً فهو من العاكفين، وإذا كان مصلياً فهو من الركع السجود، وعن عمر بن الخطاب أنه سئل عن الذين ينامون في المسجد فقال: هم العاكفون.

وفي الآية مشروعية طهارة المكان للطواف والصلاة، قال الرازي والكياسي وفيها دلالة على أن الطواف للغرباء أفضل، والصلاة للمقيم أمثل

(قلت): ولم يظهر لي وجه ذلك، قالوا وفيها دلالة على جواز الصلاة في نفس الكعبة حيث قال (بيتي) خلافاً لما لك (قلت): وفيه أن الطواف لا يكون في نفس الكعبة، قال الرازي: وفيها دلالة على أن الطواف قبل الصلاة (قلت) وقد سبقه بذلك ابن عباس، وفيها دلالة على جواز المجاورة بمكة لأن قوله ﴿والعاكفين﴾ يحتمله، والسجود جمع ساجد نحو قاعد وقعود، وهو مناسب لما قبله، وقيل أنه مصدر نحو الدخول والقعود، والمعنى ذوي السجود، ذكره أبو البقاء والأول أولى، ولتقارب الأخيرين ذاتاً وزماناً ترك العاطف بينهما وجمع صفتين جمع سلامة وآخرين جمع تكسير لأجل المقابلة وهو نوع من الفصاحة.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٢٦﴾
وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ أي مكة وقيل الحرم ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ والمراد الدعاء لأهله من ذريته وغيرهم كقوله عيشة راضية أي راض صاحبها أو الإسناد إلى المكان مجاز كما في ليل نائم أي نائم فيه، قاله السعد التفتازاني، وعلى هذا المراد أمن الملتجئ إليه فأسند إليه مبالغة، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن إبراهيم حرم مكة واني حرمت المدينة ما بين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهاها»^(١) كما أخرجه أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث جابر وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ من طريق جماعة من الصحابة، وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ان الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وهي حرام الى يوم القيامة»^(٢) أخرجه البخاري وأهل السنن من حديث أبي هريرة تعليقاً، وابن ماجه من حديث صفية بنت شيبة، وفي الباب أحاديث غير ما ذكرنا.

ولا تعارض بين هذه الأحاديث فإن إبراهيم عليه السلام لما بلغ الناس أن الله حرّمها وأنها لم تزل حراماً آمناً نسب إليه أنه حرّمها أي أظهر للناس حكم الله فيها، وإلى هذا الجمع ذهب ابن عطية وابن كثير، وقال ابن جرير: أنها كانت حراماً ولم يتعبد الله الخلق بذلك حتى سأله إبراهيم فحرّمها وتعبدهم بذلك انتهى وكلا الجمعين حسن.

(١) مسلم ١٣٦٢.

(٢) صحيح الجامع الصغير ١٧٤٧.

﴿وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ انما سأل ابراهيم ذلك لأن مكة لم يكن بها زرع ولا ثمرة فاستجاب الله له وجعل مكة حرماً آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء، عن محمد بن مسلم الطائفي قال: بلغني أنه لما دعا ابراهيم للحرم نقل الله الطائف من فلسطين ﴿ومن﴾ للتبعيض أي بعض الثمرات، ولم يقل من الحبوب لما في تحصيله من الذل الحاصل بالحرث وغيره، فاقصره على الثمرات لتشريفهم، وقيل «من» للبيان وليس بشيء اذ لم يتقدم مبهم يبين بها، والمراد بالأمن المذكور في قوله ﴿مثابة للناس وآمناً﴾ هو الأمن من الأعداء والخسف والمسخ والمراد هنا من الأمن هو الأمن من القحط، ولهذا قال ﴿وارزق أهله من الثمرات﴾ ذكره الكرخي.

والمعنى وارزق من آمن من أهله دون من كفر، وسبب هذا التخصيص أن إبراهيم لما سأل ربه أن يجعل النبوة والإمامة في ذريته: فأجابه الله بقوله: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ وصار ذلك تأديباً له في المسئلة فلا جرم خص هنا بدعائه المؤمنين دون الكافرين، ثم أعلمه أن الرزق في الدنيا يستوي فيه المؤمن والكافر بقوله:

﴿قال ومن كفر فأمته﴾ أي سأرزق الكافر أيضاً ﴿قليلاً﴾ أي في الدنيا مدة حياته، وعن محمد بن كعب القرظي قال: دعا إبراهيم للمؤمنين وترك الكفار، ولم يدع لهم بشيء فقال تعالى ﴿ومن كفر فأمته﴾ الآية. وعن ابن عباس قال: كان إبراهيم احتجها على المؤمنين دون الناس، فأنزل الله ومن كفر فأنا أرزقهم أيضاً كما أرزق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزقهم، ثم قرأ ابن عباس ﴿كلاً عند هؤلاء وهؤلاء﴾ الآية، فالظاهر أن هذا من كلام الله سبحانه رداً على إبراهيم حيث طلب الرزق للمؤمنين دون غيرهم، ويحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً بياناً لحال من كفر ويكون في حكم الإخبار عن حال الكافرين بهذه الجملة الشرطية، أي من كفر فإني أمته في هذه الدنيا بما يحتاجه من الرزق الى منتهى أجله وذلك قليل لأنه ينقطع.

﴿ثم أضطره﴾ أي ألزه لز المضطر لكفره بعد هذا التمتع ﴿إلى عذاب النار﴾ أخبر سبحانه أنه لا ينال الكفرة من الخير الا تمتعهم في هذه الدنيا، وليس لهم بعد ذلك الا ما هو شر محض، وأما على قراءة من قرأ فأمتعته وأضطره بصيغة الأمر فهي مبنية على أن ذلك من جملة كلام إبراهيم، وأنه لما فرغ من الدعاء للمؤمنين دعا للكافرين بالإمتاع قليلاً، ثم دعا عليهم بأن يضطرهم الله الى عذاب النار، وحاصل معنى أضطره ألزمه حتى أصيره مضطراً لذلك لا يجد عنه مخلصاً ولا منه متحولاً ﴿وبئس المصير﴾ أي المرجع هي، والواو فيه ليست للعطف والالزم عطف الإنشاء على الإخبار بل للاستئناف كما قال في المغنى في قوله ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾.

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل﴾ حكاية حال ماضية استحضاراً لصورته العجيبة، والقواعد جمع قاعدة وهي الأساس، قاله أبو عبيدة والفراء وهي صفة غالبية من القعود بمعنى الثبات، ولعله مجاز من المقابل للقيام ومنه قعدك الله، وقال الكسائي: هي الجدر والمراد برفعها رفع ما هو مبنى فوقها لا رفعها في نفسها فإنها لم ترفع، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه أو المراد بها سافات البناء، فإن كل ساف قاعدة لما يبنى عليه ويرفعها بناؤها أو المراد رفع مكانته ودعاء الناس إلى حجه، وفي إبهام القواعد وتبيينها ثانياً بقوله من البيت تفخيم لشأنها.

﴿ربنا﴾ أي قائلين ربنا، وقرأ أبي وابن مسعود يقولان ربنا ﴿تقبل منا﴾ أي طاعتنا إياك وعبادتنا لك ﴿إنك أنت السميع﴾ لدعائنا ﴿العليم﴾ بنياتنا.

وقد أكثر المفسرون في تفسير هذه الآية من نقل أقوال السلف في كيفية بناء البيت، ومن أي أحجار الأرض بني، وفي أي زمان عرف، ومن حجه، وما ورد فيه من الأدلة الدالة على فضله أو فضل بعضه كالحجر الأسود، وفي الدر المنثور من ذلك ما لم يكن في غيره فليرجع إليه، وفي تفسير ابن كثير بعض من ذلك.

ولما لم يكن ما ذكره متعلقا بالتفسير لم نذكره
وفي القسطلاني على البخاري بنيت الكعبة عشر مرات:
الأول: بناء الملائكة .

الثاني: بناء آدم .

الثالث: بناء ابنه شيث بالطين والحجارة وغرق بالطوفان .

الرابع: بناء إبراهيم^(١).

الخامس: بناء العمالقة .

السادس: بناء جرهم والذي بناه منهم هو الحرث بن مضاخ الأصغر.

السابع: بناء قصي خامس جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

الثامن: بناء قريش .

التاسع: بناء عبد الله بن الزبير في أوائل سنة أربع وستين .

العاشر: بناء الحجاج انتهى حاصله ، قال سليمان الجمل وهذا بحسب

ما اطلع عليه وإلا فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألف وتسع وثلاثين كما

نقله بعض المؤرخين ، قال الرازي فيه : أن بناء المسجد قربة وفيه استحباب

الدعاء بقبول الأعمال .

(١) روى أنس عن النبي ﷺ ، قال: كانت الملائكة تحج إلى البيت قبل آدم . وقال ابن عباس: لما أهبط آدم؛ قال الله تعالى: يا آدم! اذهب فابن لي بيتاً فطف به، واذكرني حوله كما رأيت ملائكتي تصنع حول عرشي. فأقبل يسعى حتى انتهى إلى البيت الحرام، وبناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سيناء، وطور زيتا، والجودي، وحراء، فكان آدم أول من أسس البيت، وطاف به، ولم يزل كذلك حتى بعث الله الطوفان، فدرس موضع البيت، فبعث الله إبراهيم وإسماعيل. وقال علي ابن أبي طالب، رضي الله عنه: لما أمر الله تعالى إبراهيم ببناء البيت؛ ضاق به ذرعاً، ولم يدر كيف يصنع، فأنزل الله عليه كهيفة السحابة، فيها رأس يتكلم، فقال: يا إبراهيم! علم على ظلي، فلما علم ارتفعت. وفي رواية أنه كان يبني عليها كل يوم صفال: وحفر إبراهيم من تحت السكينة، فأبدى عن قواعد، ما تحرك القاعدة منها دون ثلاثين رجلاً. فلما بلغ موضع الحجر، قال لإسماعيل: التمس لي حجراً، فذهب يطلب حجراً، فجاء جبريل بالحجر الأسود، فوضعه، فلما جاء إسماعيل، قال: من جاءك بهذا الحجر؟ قال: جاء به من يتكل على بنائي وبنائك.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا
إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ أي ثابتين عليه أو زدنا منه، قيل المراد بالإسلام هنا مجموع الإيمان والأعمال ﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ من للتبعيض أو للتبيين، قال ابن جرير: إنه أراد بالذرية العرب خاصة، وكذا قال السهيلي، قال ابن عطية: وهذا ضعيف لأن دعوته ظهرت في العرب وغيرهم من الذين آمنوا به، والأمة الجماعة في هذا الموضع وقد تطلق على الواحد ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ وتطلق على الدين ومنه ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ وتطلق على الزمان ومنه ﴿وَأَذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ قيل أراد بالأمة أمة محمد ﷺ بدليل قوله ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ هي من الرؤية البصرية، والمناسك جمع نسك وأصله في اللغة الغسل يقال نسك ثوبه إذا غسله، وهو في الشرع اسم للعبادة، وقيل واحداً منسك والمراد هنا مناسك الحج، وقيل مواضع الذبح، وقيل جمع التعبادات، قال علي: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: قد فعلت أي رب فأرنا مناسكنا أبرزها لنا وعلمناها، فبعث الله جبريل فحج به^(١)، وفي الباب آثار كثيرة عن السلف من الصحابة ومن بعدهم يتضمن أن جبريل أرى إبراهيم المناسك، وفي أكثرها أن الشيطان تعرض له.

(١) وقال أبو مجلز: لما فرغ إبراهيم من البيت أتاه جبريل، فأراه الطواف، ثم أتى به جرة العقبة، فعرض له الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبعاً، وقال له: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به جرة الوسطى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات، فقال: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان. ثم أتى به الجمرة القصوى، فعرض لهما الشيطان، فأخذ جبريل سبع حصيات، وأعطى إبراهيم سبع حصيات. فقال له: ارم وكبر، فرميا وكبرا مع كل رمية حتى غاب الشيطان، ثم أتى به منى، فقال: ها هنا يخلق الناس رؤوسهم، ثم أتى به جمعاً، فقال: ها هنا يجمع الناس، ثم أتى به عرفة، فقال: اعرفت؟ قال: نعم. قال: فمن ثم سميت عرفات.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾

﴿وتب علينا﴾ أي تجاوز عنا والمراد بالتوبة التثبيت، لأنها معصومان لا ذنب لهما وقيل المراد تب على الظلمة منا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ﴾ أي المتجاوز عن عباده ﴿الرحيم﴾ بهم.

﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ ضمير فيهم راجع إلى الأمة المسلمة المذكورة سابقاً وقرأ أبي في آخرهم، ويحتمل أن يكون الضمير راجعاً إلى الذرية وهم العرب من ولد اسماعيل، وقد أجاب الله لإبراهيم عليه السلام هذه الدعوة فبعث في ذريته رسولا منهم وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أخبر عن نفسه أنه دعوة إبراهيم كما أخرجه أحمد من حديث العرياض بن سارية^(١) وغيره^(٢) ومراده هذه الدعوة، وقد أجمع على ذلك المفسرون، لأن إبراهيم إنما دعا لذريته وهو بمكة ولم يبعث من ذريته بمكة غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فدل على أن المراد به محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والرسول هو المرسل، قال ابن الأنباري: يشبه أن يكون أصله ناقة مرسال ومرسلة إذا كانت سهلة السير ماضية أمام النوق، ويقال جاء القوم أرسالاً أي بعضهم في إثر بعض.

﴿يتلو عليهم آياتك﴾ وهو القرآن ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ أي معاني

(١) أحمد بن حنبل ١٢٧/٤ - ١٢٨ - ٢٦٢/٥.

(٢) قوله تعالى: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم﴾ في الهاء والميم من ﴿فيهم﴾ قولان. أحدهما: أنها تعود على الذرية، قاله مقاتل والفراء: على أهل مكة في قوله: ﴿وارزق أهله﴾ والمراد بالرسول: محمد ﷺ. وقد روى أبو أمامة عن النبي ﷺ، أنه قيل: يا رسول الله! ما كان بدء أمرك؟ قال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» رواه أبو داود الطيالسي وأحمد في «المسند» عن أبي أمامة، وفي مسنده الفرج بن فضالة، وهو ضعيف، وجاء الحديث بمعناه في «مسند أحمد» عن العرياض بن سارية، وقد صححه الشيخ أحمد شاكر.

الكتاب من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية، والكتاب هو القرآن ﴿والحكمة﴾ أي ويعلمهم الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل، ووضع كل شيء موضعه، والمراد بالحكمة هنا المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم للشرعية، وقال قتادة: هي السنة وقيل هي الفصل بين الحق والباطل، وقال ابن قتيبة: هي العلم والعمل، ولا يكون الرجل حكيماً حتى يجمعهما، وقال ابن دريد: كل كلمة وعظمتك أو دعتك إلى مكربة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، وقيل أن المراد بالآيات ظاهر الألفاظ، والكتاب معانيها، والحكمة الحكم وهو مراد الله بالخطاب وقيل غير ذلك ﴿ويزكيهم﴾ التزكية التطهير من الشرك وسائر المعاصي ﴿إنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان، وقال الكسائي: العزيز الغالب والحكيم العالم.

﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ الاستفهام للانكار، قال الزجاج وابن جني: سفه بمعنى جهل أي جهل أمر نفسه فلم يفكر فيها أنها مخلوقة لله فيجب عليه عبادته، وقال أبو عبيدة: المعنى أهلك نفسه، وقال الأخفش: أي فعل بها من السفه ما صار به سفيهاً، وقال الزمخشري: امتنها واستخف بها، عن أبي العالية قال: رغبت اليهود والنصارى عن ملته واتخذوا اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، وتركوا ملة إبراهيم الإسلام، وبذلك بعث الله نبيه محمداً الرسول الذي هو دعوة إبراهيم فقد رغبت عن ملة إبراهيم، فيه إشارة إلى لزوم اتباع ملته فيما لم يثبت نسخه.

﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ تعليل للحصر قبله، واللام جواب قسم محذوف، والغرض منه الحجة والبيان لقوله ﴿ومن يرغب﴾ والاصطفاء الاختيار أي اخترناه في الدنيا بالرسالة والخلة كما شاهدوه ونقله جيل بعد جيل ﴿وأنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أمر مغيب فاحتاج الإخبار به إلى فضل تأكيد قيل مع الأنبياء في الجنة أو الذين لهم الدرجات العلى، فكيف يرغب عن ملته راغب.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿إذ قال له ربه أسلم﴾ يحتمل أن يكون متعلقاً بقوله ﴿اصطفيناه﴾ أي اخترناه وقت أمرنا له بالإسلام، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف هو اذكر، قال في الكشف كأنه قيل اذكر ذلك الوقت ليعلم أنه المصطفى الصالح الذي لا يرغب عن ملة مثله، وزاد أبو السعود وأنه ما نال ما نال إلا بالمبادرة للإذعان والانقياد لما أمره به واخلاص سره، قال ابن عباس: قال الله له ذلك حين خرج من السرب، وذلك عند استدلاله بالكوكب وإطلاعه على أمارات الحدوث فيها وافتقارها إلى محدث مدبر، ومعنى ﴿أسلم﴾ انقذ الله وأخلص دينك وعبادتك له أو استقم أوفوض أمورك إلى الله أو اذعن واطلع أو اثبت على ما أنت عليه من الإسلام ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أي فوضت أمري إليه، قال ابن عباس: وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى في النار.

﴿ووصى بها إبراهيم بنيه﴾ الضمير في «بها» راجع إلى الملة الحنيفية أو إلى الكلمة أي أسلمت لرب العالمين، قال القرطبي: وهو أصوب لأنه أقرب مذكور أي قولوا أسلمنا انتهى، والأول أرجح لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم وأولى بهم، قيل كانوا ثمانية منهم اسمعيل وهو أول أولاده وقيل أربعة عشر ﴿ويعقوب﴾ معطوف على إبراهيم أي وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه، وكانوا اثني عشر، وقرئ بنصب يعقوب فيكون داخلاً فيما أوصاه إبراهيم، قال القشيري: وهو بعيد، لأن يعقوب لم يدرك جده إبراهيم وإنما ولد بعد موته.

﴿يا بني﴾ قيل أنه من مقول إبراهيم وقيل من مقول يعقوب

﴿إن الله اصطفى لكم الدين﴾ المراد بالدين ملته التي لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه وهي الملة التي جاء بها محمد ﷺ ، وفي قوله :

﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ إيجاز بليغ ، والمراد إلزموا الإسلام ولا تفارقوه حتى تموتوا ، وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تموتوا على حالة غير حالة الإسلام ، وليس فيه نهى عن الموت الذي هو قهري ، ولهذا قال السيوطي نهى عن ترك الإسلام وأمر بالثبات عليه إلى مصادفة الموت ، انتهى ، والمعنى أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه ، وإن حق هذا الموت أن لا يحصل فيهم ، عن فضيل بن عياض قال :

﴿مسلمون﴾ أي محسنون بربكم الظن ، ويدل عليه ما روي عن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول : « لا يموتن أحد إلا وهو يحسن الظن بربه » أخرجاه في الصحيحين^(١) .

(١) قال البغوي : في تفسيره - ١٨٨ : والنهي في ظاهر الكلام وقع على الموت ، وإنما هو في الحقيقة عن ترك الإسلام معناه : داوموا على الإسلام حتى لا يصادفكم الموت إلا وأنتم مسلمون ، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله : أنه قال : إلا وأنتم مسلمون ، أي : محسنون بربكم الظن ، أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أبي شريح ، أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي ، أنا علي بن الجعد أنا أبو جعفر الرازي عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام ، يقول : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » .

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي
 قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ
 لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٣٢﴾

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي ما كنتم حاضرين حين
 احتضر يعقوب وقرب من الموت، ﴿وَأَمْ﴾ هذه قيل هي المنقطعة وقيل هي
 المتصلة وفي الهمزة الإنكار المفيد للتقريع والتوبيخ، والخطاب لليهود والنصارى
 الذين ينسبون إلى إبراهيم وإلى بنيه أنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله
 ذلك عليهم وقال لهم: أشهدتم يعقوب وعلمتم ما أوصى به بنيه فتدعون ذلك
 عن علم أم لم تشهدوا بل أنتم مفترون، والشهداء جمع شاهد ولم ينصرف لأن
 فيه ألف التأنيث التي لتأنيث الجماعة، والمراد بحضور الموت حضور مقدماته،
 وسمى يعقوب لأنه هو وأخوه العيص كانا توأمين في بطن واحد فتقدم العيص
 وقت الولادة في الخروج مسابقة ليعقوب، فتأخر يعقوب عنه ونزل على إثره
 وعقبه في الخروج.

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ يعني لأولاده الإثني عشر ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي أي شيء
 تعبدون، وإنما جاء بما دون من لأن المعبودات من دون الله غالبها جمادات
 كالأوثان والنار والشمس والكواكب ﴿مَنْ بَعْدِي﴾ أي من بعد موتي ﴿قَالُوا﴾
 نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وإسماعيل وإن كان عماً
 ليعقوب فإن العرب تسمى العم أباً والخالة أمماً، وعم الرجل صنو أبيه،
 وقرىء أهلك فليل أراد إبراهيم وحده ويكون إسماعيل وإسحاق عطفاً على أهلك
 وإن كان هو أباه حقيقة وإبراهيم جده، ولكن لإبراهيم مزيد خصوصية، وقيل
 أهلك جمع كما روي عن سيبويه أن أيمن جمع سلامة ومثله أبون، وقدم إسماعيل
 على إسحاق لأنه أسبق منه في الولادة بأربع عشرة سنة وأنه جد نبينا صلى الله
 عليه وآله وسلم ﴿إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون التوحيد
 والعبودية.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبت﴾ تلك إشارة إلى إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه، وما بعده بيان لحال تلك الأمة وحال المخاطبين بأن لكل من الفريقين كسبه لا ينفعه كسب غيره ولا يناله منه شيء، ولا يضره ذنب غيره، وفيه الرد على من يتكل على عمل سلفه ويروح نفسه بالأمانى الباطلة، ومنه ما ورد في الحديث [من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبة^(١)] والمراد أنكم لا تتفنون بحسناتهم ولا تؤاخذون بسيئاتهم، وفيه إبطال مذهب من يجوز تعذيب أولاد المشركين تبعاً لأبائهم، قال ابن فارس: وفيه اثبات الكسب للعبد ﴿ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ أي عن أعمالهم كما لا يسألون عن أعمالكم، ومثله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾، وإن ليس للإنسان إلا ما سعى.

﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا﴾ وهذا فن آخر من فنون كفرهم واضلالهم لغيرهم إثر بيان ضلالتهم في أنفسهم، قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ووهب بن يهودا، وفي نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابها خاصموا المؤمنين في الدين فكل فريق منهم يزعم أنه أحق بدين الله ﴿قل بل ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي قل يا محمد في الرد عليهم هذه المقالة بل الهدى ملة إبراهيم، والحنيف المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق، وهو في أصل اللغة الذي تميل قدماء كل واحدة إلى أختها أي تتبع ملة إبراهيم حال كونه حنيفاً، وقال قوم: الحنف الاستقامة

(١) أبو داود كتاب العلم الباب ١ - أحمد بن حنبل ٢/٢٥٢ - ٤٠٧.

فسمي دين إبراهيم حنيفاً لاستقامته، ويسمى معوج الرجلين أحنف تفاعلاً بالإستقامة كما قيل للديغ سليم، وللمهلكة مفازة، وقال مجاهد: حنيفاً متبعاً، وقال ابن عباس: حاجاً، وعن خصيف قال: الحنيف المخلص، وقال أبو قلابة: الحنيف الذي يؤمن بالرسول كلهم من أولهم إلى آخرهم.

وأخرج أحمد^(١) عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، «بعثت بالحنيفية السمحة» وأخرج أحمد والبخاري في الأدب المفرد وابن المنذر عن ابن عباس قال: قيل يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله قال «الحنيفية السمحة» ونصب ملة على الإغراء، قاله أبو عبيدة أي ألزموها ﴿وما كان﴾ أي إبراهيم ﴿من المشركين﴾ وفي نفي كونه من المشركين تعريض باليهود لقولهم عزيز ابن الله وبالنصارى لقولهم المسيح ابن الله أي أن إبراهيم ما كان على هذه الحالة التي أنتم عليها من الشرك بالله، فكيف تدعون عليه انه كان على اليهودية أو النصرانية وتدعون أنكم على ملته.

(١) أحمد بن حنبل ٢٦٦/٥ ١١٦/٦ ، ٢٢٢.

البخاري كتاب الايمان الباب ٢٩ - أحمد بن حنبل ٢٢٦/١.

عن أبي أمامة قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية من سراياه قال فمر رجل بغار فيه شيء من ماء قال فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلى من الدنيا ثم قال لو أني أتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل فاتاه فقال يا نبي الله اني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل فحدثني نفسي بان أقيم فيه وأتخلى من الدنيا قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولقام أحدكم في الصف خير من صلاته ستين سنة.

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أي الصحف، وهذا خطاب للمسلمين
وأمر لهم بأن يقولوا لهم هذه المقالة وقيل انه خطاب للكفار بأن يقولوا ذلك
حتى يكونوا على الحق، والأول أولى، وأعاد الموصول لثلاثتهم من إسقاطه
اتحاد المنزل مع أنه ليس كذلك، وذكر إسماعيل وما بعده لكونهم مزوجين لها
متعبدين بتفاصيلها، داخلين تحت أحكامها، ومقررين لما أنزل على إبراهيم
فكأنه منزل عليهم أيضاً وإلا فليسوا منزلاً عليهم في الحقيقة. والأسباط أولاد
يعقوب وهم اثنا عشر ولداً ولكل واحد من الأولاد جماعة، والسبط في بني
إسرائيل بمنزلة القبيلة في العرب، وسموا الأسباط من السبط وهو التابع فهم
جماعة متتابعون، وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أي هم في
الكثرة بمنزلة الشجر، وقيل الأسباط حفدة يعقوب أي أولاد أولاده لا أولاده
لأن الكثرة إنما كانت فيهم دون أولاد يعقوب في نفسه فهم أفراد لا أسباط.

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ من التوراة، وعبر بالإيتاء دون الإنزال فراراً من
التكرار الصوري الموجب للثقل في العبارة ﴿وَعِيسَى﴾ من الإنجيل، ولم يقل
وما أُوتِيَ عيسى إشارة إلى اتحاد المنزل عليه مع المنزل على موسى، فإن الإنجيل
مقرر للتوراة ولم يخالفها إلا في قدر يسير فيه تسهيل كما قال: ﴿وَلَأَحِلَّ لَكُمْ
بَعْضُ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ المذكورون وغيرهم ﴿مِنْ
رَبِّهِمْ﴾ يعني والكتب التي أُوتِيَ جميع الأنبياء، وذلك كله حق وهدى ونور، وإن
الجميع من عند الله، وإن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانوا على هدى وحق
﴿لَا نُفَرِّقُ﴾ في الإيمان ﴿بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بل نؤمن بكل الأنبياء قال الفراء

معناه لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى.

قال في الكشف ﴿أحد﴾ في معنى الجماعة ولذلك صح دخول ﴿بين﴾ عليه، وليس كونه في معنى الجماعة من جهة كونه نكرة في سياق النفي كما سبق إلى كثير من الأذهان، وقال القرافي: ان «أحداً» الذي لا يستعمل إلا في النفي معناه إنسان بإجماع أهل اللغة، وأحداً الذي يستعمل في الإثبات معناه الفرد من العدد إذا كان مسمى أحد اللفظين غير مسمى الآخر في اللغة، وضابط الاشتقاق أن تجد بين اللفظين مناسبة في اللفظ والمعنى، ولا يكفي أحدهما تغايراً في الاشتقاق، فإن وجدت المقصود به إنسان فآلفه ليست منقلبة عن واو، وإن وجدت المقصود به نصف الاثنين من العدد فهو الصالح للإثبات والنفي وآلفه منقلبة عن واو، انتهى، وقد حقق المقام الخفاجي في العناية فليرجع إليه.

﴿ونحن له مسلمون﴾ أي ونحن لله تعالى خاضعون بالطاعة مدعون له بالعبودية، وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عباس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منها الآية التي في البقرة ﴿قولوا آمنا بالله﴾ كلها وفي الآخرة ﴿آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون﴾ وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة «كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله» الآية^(١).

فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾

﴿فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾ هذا خطاب للمسلمين أيضاً أي فان آمن أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به من جميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم فقد اهتدوا، وعلى هذا فمثل زائدة كقوله ﴿ليس كمثله شيء﴾ وقيل أن المماثلة وقعت بين الايمانين أي فان آمنوا بمثل إيمانكم، وقال في الكشف إنه من باب التبكيت لأن دين الحق واحد لا مثل له وهو دين الإسلام أي فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد فقد اهتدوا، وقيل إن الباء زائدة مؤكدة وقيل إنها للاستعانة.

﴿وان تولوا فإنما هم في شقاق﴾ أصله من الشق وهو الجانب، كأن كل واحد من الفريقين في جانب غير الجانب الذي فيه الآخر، وقيل انه مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب، فكل واحد من الفريقين يحرص على فعل ما يشق على صاحبه، ويصح حمل الآية على كل واحد من المعنيين، قال أبو العالية: في شقاق أي فراق، وقيل في خلاف ومنازعة، وقيل في عداوة ومحاربة، وقيل في ضلال.

﴿فسيكفيكهم الله﴾ أي من شر اليهود والنصارى، والكفاية وعد وضمان من الله لنبيه ﷺ أنه سيكفيه من عانده وخالفه من المتولين، وقد أنجز له وعده بما أنزله من بأسه بقريظة والنضير وبني قينقاع^(١)، وفيه معجزة للنبي ﷺ وهو إخبار بغيب ﴿وهو السميع﴾ لأقوالهم ﴿العليم﴾ بأحوالهم يسمع جميع ما ينطقون به ويعلم جميع ما يضمرون من الحسد والغل، وهو مجازيهم ومعاقبهم.

(١) وقد وردت قصص يهود قريظة والنضير وبني قينقاع في كتب السيرة مطولاً انظر مثلاً سيرة ابن هشام ٢٣٩/٤

صَبَّغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ ﴿٣٨﴾

﴿صبغة الله﴾ الخطاب للمسلمين أي قولوا للنصارى المقالة، والمعنى صبغنا الله بالايان، قال الأخفش وغيره: أي دين الله وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهي الحالة التي يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله، لأن الايمان يطهر النفوس، انتهى وقال ابن عباس: دين الله، وقال مجاهد: فطرة الله التي فطر الناس عليها، وأخرج ابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال «إن بني إسرائيل قالوا يا موسى هل يصبغ ربك فقال اتقوا الله فناداه ربه يا موسى سألوكم هل يصبغ ربك فقل نعم أنا أصبغ الالوان الاحمر والابيض والاسود والالوان كلها في صبغتي» وأنزل الله على نبيه ﴿صبغة الله﴾ الآية، وعنه صبغة الله البياض.

وقد ذكر المفسرون أن أصل ذلك أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية، ويجعلون ذلك تطهيراً لهم، فاذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانياً، حقاً، فرد الله عليهم بقوله ﴿صبغة الله﴾ أي الإسلام ولا صبغة أحسن من صبغة الإسلام ولا أطهر وهو دين الله الذي بعث به نوحاً ومن كان بعده من الأنبياء، وسماه صبغة استعارة، قال البغوي: إطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهي، وتقرير المشاكلة هنا مبسوط في التلخيص وشرحه للسعد، وقيل الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الإسلام بدلاً من معمودية النصارى^(١)، ذكره الماوردي، وقيل الصبغة الختان لانه يصبغ المختتن بالدم، وقيل الصبغة سنة الله.

﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي ديناً وقيل تطهيراً لانه يطهر من أوساخ الكفر ﴿ونحن له عابدون﴾ أي مطيعون.

(١) روى ابو حاتم البستي في صحيح مسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه: ان ثمامة الخنفي اسر فمر به النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث به الى حائط ابي طلحة فأمره ان يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسن إسلام صاحبكم.

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿قل أتحتاجوننا في الله﴾ أي قل يا محمد لليهود والنصارى الذين قالوا إن دينهم خير من دينكم: أتجادلوننا وتخاصموننا في دين الله الذي أمرنا أن نتدين به والقرب منه والخطوة عنده، وذلك كقولهم نحن أبناء الله وأحباؤه، والمجادة المجادلة لإظهار الحجة ﴿وهو ربنا وربكم﴾ أي نشرك نحن وأنتم في ربوبيته لنا وعبوديتنا له فكيف تدعون أنكم أولى به منا وتحتاجوننا في ذلك، وله أن يصطفي من عباده من يشاء ﴿ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ فلستم بأولى بالله منا وهو مثل قوله تعالى ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ ﴿ونحن له مخلصون﴾ أي نحن أهل الإخلاص للعبادة دونكم، وهو المعيار الذي يكون به التفاضل، والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله من غيره، فكيف تدعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق، والجمل الثلاث أحوال، وفي الآية توبيخ لهم وقطع لما جاؤا به من المجادلة والمناظرة، قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

﴿أم تقولون﴾ أم هنا معادلة للهمزة في قوله ﴿أتحاجوننا﴾ أي أم تقولون إن هؤلاء الانبياء على دينكم، وعلى قراءة يقولون بالياء تكون أم منقطعة أي بل يقولون وفيه تقريع وتوبيخ ﴿إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾ يعني أترعمون أن إبراهيم وبنيه كانوا على دينكم وملتكم، وإنما حدثت اليهودية والنصرانية بعدهم فثبت كذبكم عليهم ﴿قل أنتم أعلم أم الله﴾ أي الله أعلم بذلك، وقد أخبرنا بأنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وأنتم تدعون أنهم كانوا كذلك فهل أنتم أعلم أم الله سبحانه، والتفضيل على سبيل الاستهزاء أو على تقدير أن يظن بهم علم في الجملة وإلا فلا مشاركة.

﴿ومن أظلم ممن كتم﴾ أي أخفى ﴿شهادة عنده من الله﴾ استفهام انكار أي لا أحد أظلم يحتمل أن يراد بذلك الدم لأهل الكتاب بأنهم يعلمون أن هؤلاء الأنبياء ما كانوا هوداً ولا نصارى، بل كانوا على الملة الإسلامية فظلموا أنفسهم بكتمتهم لهذه الشهادة، بل بادعائهم لما هو مخالف لها وهو أشد في الذنب ممن اقتصر على مجرد الكتم الذي لا أحد أظلم منه، ويحتمل أن المراد أن المسلمين لو كتموا هذه الشهادة لم يكن أحد أظلم منهم، ويكون المراد بذلك التعريض بأهل الكتاب، وقيل المراد هنا ما كتموه من صفة محمد ﷺ.

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ فيه وعيد شديد وتهديد ليس عليه مزيد، وإعلام بأن الله سبحانه لا يترك أمرهم سدى ولا يترك عقوبتهم على هذا الظلم القبيح والذنب الفظيع، والغافل الذي لا يفتن للأمر إهمالاً منه، مأخوذ من الأرض الغفل وهي التي لا علم بها ولا أثر عمارة، وقال الكسائي أرض غفل لم تمطر.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

وكرر قوله سبحانه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لتضمنها معنى التهديد والتخويف الذي هو المقصود في هذا المقام، وتلك إشارة إلى إبراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط، وقيل لأنه إذا اختلف مواطن الحجاج والمجادلة حسن تكريره للتذكير به وتأكيده، وقيل إنما كرهه تنبيهاً لليهود ولن يتكل على فضل الآباء وشرفهم أي لا تتكلموا على فضل الآباء فكل يؤخذ بعمله، وكل إنسان يسأل يوم القيامة عن كسبه لا عن كسب غيره، وفيه وعظ وزجر وهذا كالأول.

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ هذا إخبار من الله سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن السفهاء من اليهود والمشركين والمنافقين سيقولون هذه المقالة قيل إن سيقول بمعنى قال وإنما عبر عن الماضي بلفظ المستقبل للدلالة على استدامته والاستمرار عليه، وقيل إن الإخبار بهذا الخبر كان قبل التحول إلى الكعبة، وإن فائدة ذلك أن الإخبار بالمكروه إذا وقع قبل وقوعه كان فيه تهوينا لصدمته وتخفيفاً لروعته، وكسراً لسورته، والسفهاء جمع سفيه وهو الكذاب البهات المتعمد خلاف ما يعلم، كذا قال بعض أهل اللغة، وقال في الكشف هم خفاف الأحلام، ومثله في القاموس، وقد تقدم في تفسير قوله ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ ما ينبغي الرجوع إليه.

قيل نزلت هذه الآية في اليهود وذلك أنهم طعنوا في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة لأنهم لا يرون النسخ، وقيل نزلت في مشركي مكة وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد ﷺ أمره واشتاق مولده، وقد توجه نحو

بلدكم، فلعله يرجع إلى دينكم، وقيل نزلت في المنافقين وإنما قالوا ذلك استهزاء بالاسلام، وقيل يحتمل أن لفظ السفهاء للعموم فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود، ويحتمل وقوع هذا الكلام من كلهم إذ لا فائدة في التخصيص، ولأن الأعداء يبالغون في الطعن والقذح فإذا وجدوا مقالاً قالوا، ومجالاً جالوا، والإتيان بالسین الدالة على الاستقبال من الإخبار بالغيب وعليه أكثر المفسرين وحكمته أنهم كما قالوا ذلك في الماضي منهم أيضاً من يقوله في المستقبل كما قال البيضاوي تبعاً للكشاف.

﴿ما ولّاهم﴾ أي ما صرفهم ﴿عن قبلتهم﴾ وهي بيت المقدس ﴿التي كانوا عليها﴾ أي ثابتين مستمرين على التوجه إليها ومراعاتها واعتقاد حقيقتها، والقبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان، وإنما سميت قبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله، ولما قال السفهاء ذلك رد الله عليهم بقوله ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ فله أن يأمر بالتوجه إلى أي جهة شاء لا يختص به مكان دون مكان خاصة ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام أمره أي امتثاله لا بخصوص المكان، وتخصيص هاتين الجهتين بالذكر لمزيد ظهورهما حيث كان أحدهما مطالع الأنوار والإصباح، والآخر مغربها، ولكثرة توجه الناس إليهما لتحقيق الأوقات لتحصيل المقاصد والمهمات ذكره الكرخي ﴿يهدي من يشاء﴾ من عباده اشعار بأن تحويل القبلة إلى الكعبة من الهداية للنبي ﷺ ولأهل ملّته ﴿إلى صراط مستقيم﴾ يعني إلى جهة الكعبة وهي قبلة إبراهيم عليه السلام.

وقد أخرج البخاري ومسلم^(١) وغيرهما عن البراء أن النبي ﷺ «كان أول ما نزل المدينة نزل على أخواله من الأنصار، وأنه صلى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأن أول صلاة صلاها العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على

(١) أحمد بن حنبل ٢٨٢/٤ - البخاري كتاب الايمان الباب ٢٠.

أهل المسجد وهم راکعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل الكعبة فداروا قبل البيت كما هم، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قِبَلَ بيت المقدس وأهل الكتاب فلما وَلَّى وجهه قِبَلَ البيت أنكروا ذلك وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأَنزَلَ الله ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ الآية» وله طرق آخر وألفاظ متقاربة.

وعن ابن عباس قال أن أول ما نسخ في القرآن القبلة وعنه أن النبي ﷺ كان يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما تحول إلى المدينة ستة عشر شهرا ثم صرفه الله إلى الكعبة^(١)، وفي الباب أحاديث كثيرة بمضمون ما تقدم، وكذلك وردت أحاديث في الوقت الذي نزل فيه استقبال القبلة وفي كيفية استدارة المصلين لما بلغهم ذلك، وقد كانوا في الصلاة فلا نطول بذكرها، فيه الرد على من أنكر النسخ ودلالة على جواز نسخ السنة بالقرآن لأن استقبال بيت المقدس كان ثابتاً بالسنة الفعلية لا بالقرآن.

(١) وروي أن أول من صلى إلى الكعبة حين صُرفت القبلة عن بيت المقدس أبو سعيد بن المعلّى؛ وذلك أنه كان مجتازاً على المسجد فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس بتحويل القبلة على المنبر وهو يقرأ هذه الآية: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ» حتى فرغ من الآية؛ فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أول من صلى فتواريئنا نَعْمًا فصليناها؛ ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بالناس الظهر يومئذ. قال أبو عمر: ليس لأبي سعيد بن المعلّى غير هذا الحديث، وحديث: «كنت أصلي» في فضل الفاتحة؛ خرّجه البخاري.

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

﴿وكذلك﴾ أي كما أن الكعبة وسط الأرض كذلك ﴿جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي عدولاً خياراً، والوسط الخيار والعدل، والآية محتملة للأمرين، وقد ثبت عن النبي ﷺ تفسير الوسط هنا بالعدل، رواه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن أبي سعيد مرفوعاً فوجب الرجوع إلى ذلك، ولما كان الوسط مجانباً للغلو والتقصير كان محموداً أي هذه الأمة لم تغل غلو النصارى في عيسى، ولا قصرُوا تقصير اليهود في أنبيائهم، ويقال فلان أوسط قومه وواسطتهم ووسطهم أي خيارهم، والآية دلت على أن الإجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانتلمت به عدالتهم أي اختلت قاله الكرخي، وفيه دلالة على تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم.

﴿لتكونوا﴾ اللام لام كي فتفيد العلية أو هي لام الصيرورة ﴿شهداء على الناس﴾ يعني يوم القيامة أي تشهدون للأنبياء على أمهم انهم قد بلغوهم ما أمرهم الله بتبليغه إليهم، وقالت طائفة معنى الآية يشهد بعضكم على بعض بعد الموت، وقيل المراد لتكونوا شهداء على الناس في الدنيا فيما لا يصح إلا بشهادة العدول ﴿ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ أي على أمته بأنهم قد فعلوا ما أمر بتبليغه إليهم، ومثله قوله تعالى ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ وقيل عليكم بمعنى لكم أي يشهد لكم بالإيمان، وقيل معناه يشهد عليكم بالتبلغ لكم، قال في الكشف: لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى ﴿والله على كل

شيء شهيد ﴿وكن أنت الرقيب عليهم﴾ ﴿وأنت على كل شيء شهيد﴾ ، انتهى .

وانما آخر لفظ (على) في شهادة الأمم على الناس وقدمها في شهادة الرسول عليهم لان الغرض كما قال صاحب الكشاف في الأول اثبات شهادتهم على الامم ، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ، وقيل أن شهيداً أشبه بالفواصل والمقاطع من عليكم فكان قوله ﴿شهيداً﴾ تمام الجملة ومقطوعها دون عليكم ، وهذا الوجه يرد على الزمخشري مذهبه من أن تقديم المفعول يشعر بالاختصاص .

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم^(١) عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم فيقولون ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته، فذلك قوله يعني هذه الآية فتشهدون له بالبلاغ وأشهد عليكم» وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر عن النبي ﷺ قال «أنا وأمتي يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق ما من الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبي كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه بلغ رسالة ربه» وأخرج البخاري ومسلم^(٢) وغيرهما عن أنس قال مروا بجنائزة فأتني عليها خيراً فقال النبي ﷺ «وجبت» ثلاثاً، ومروا بجنائزة فأتني عليها شراً فقال النبي ﷺ «وجبت» ثلاثاً فسأله عمر فقال من أثبتتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثبتتم عليه شراً وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض» ثلاثاً. زاد الحكيم الترمذي ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية. وفي الباب أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة عند أهل الصحاح

(١) أحمد ٣٢/٣.

(٢) مسلم ٩٤٩/ البخاري ٧٢٣/.

والسنن وغيرهم.

﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ المراد بهذه القبلة هي بيت المقدس، ويؤيد هذا قوله ﴿كنت عليها﴾ إذ كان نزول هذه الآية بعد صرف القبلة إلى الكعبة، وقيل المراد الكعبة أي القبلة التي أنت عليها الآن بعد أن كانت إلى بيت المقدس ويكون كنت بمعنى الحال، وقيل المراد بذلك القبلة التي كان عليها قبل استقبال بيت المقدس، فإنه كان يستقبل في مكة الكعبة ثم لما هاجر توجه إلى بيت المقدس تألفاً لليهود ثم صرف إلى الكعبة، وفيه أعاريب خمسة أحسنها ما ذكرناه.

﴿إلا لنعلم﴾ استثناء مفرغ من أعم العلل ﴿من يتبع الرسول﴾ في التوجه إلى ما أمر به من القبلة أو الدين، والالتفات إلى الغيبة مع إirاده صلى الله عليه وآله وسلم بعنوان الرسالة للاشعار بعلّة الاتباع ﴿ممن ينقلب على عقبيه﴾ أي يرجع إلى الكفر، وقد ارتد لذلك جماعة، والمعنى ما جعلناها إلا لنبتليهم يعني من يسلم لأمره ممن يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد، قال ابن عباس: لنميز أهل اليقين من أهل الشك قيل المراد العلم هنا الرؤية، وقيل ليعلم النبي وقيل المراد لنعلم ذلك موجوداً حاصلاً، وهكذا ما ورد معللاً بعلم الله سبحانه لا بد أن يؤول بمثل هذا كقوله ﴿وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء﴾.

﴿وإن كانت لكبيرة﴾ أي ما كانت إلا كبيرة كما قاله الفراء، والضمير في كانت راجع إلى ما يدل عليه قوله ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ من التحويلة والتولية أو الجعلة أو الردة ذكر معنى ذلك الأخفش، ولا مانع من أن يرجع الضمير إلى القبلة المذكورة أي وإن كانت القبلة المتصفة بأنك كنت عليها لكبيرة أي تحويلها على أهل الشرك والريب، قاله ابن عباس.

﴿إلا على الذين هدى الله﴾ أي هداهم للإيمان فانشرحت صدورهم لتصديقك وقبلت ما جئت به عقولهم، وهذا الاستثناء مفرغ لأن ما قبله في قوة النفي أي أنها لا تخف ولا تسهل إلا على أهل الهدى، وقيل استثناء من مستثنى منه محذوف أي وإن كانت لكبيرة على الناس إلا على الذين، وقيل يحتمل كلا الوجهين والأول أولى، وعن ابن جريج قال: بلغني أن ناساً ممن أسلم رجعوا فقالوا مرة ههنا ومرة ههنا.

﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ وهذه اللام تسمى لام الجحود عند البصريين وخبر كان محذوف أي ما كان الله مريداً لإضاعة إيمانكم، والكوفيون لا يقدرُونَ شيئاً وإن اللام عندهم للتأكيد وهكذا القول فيما أشبه هذا التركيب مما ورد في القرآن وغيره نحو. ﴿وما كان الله ليطلعهكم﴾، وما كان الله ليذر ﴿المقدس ثم قال: اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس قال: فسمى الصلاة إيماناً لاجتماعها على نية وقول وعمل، وقيل المراد ثبات المؤمنين على الإيمان عند تحويل القبلة وعدم ارتيابهم كما ارتاب غيرهم، والأول يتعين القول به والمصير إليه لما أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان والطبراني والحكم وصححه ابن عباس قال: لما وجه رسول الله ﷺ إلى القبلة قالوا يا رسول الله فكيف بالذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل. ﴿وما كان الله﴾ الآية وفي الباب أحاديث كثيرة وآثار عن السلف.

﴿إن الله بالناس﴾ تعليل لما قبله ﴿لرؤوف رحيم﴾ الرؤوف كثير الرأفة وهي أشد من الرحمة وأكثر منها والمعنى متقارب وقدم الأبلغ للفاصلة.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ
شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

﴿قد نرى تقلب وجهك﴾ تصرفه ﴿في﴾ جهة ﴿السماء﴾ قال القرطبي في تفسيره: قال العلماء هذه الآية متقدمة في النزول على قوله: ﴿سيقول السفهاء﴾ ومعنى ﴿قد﴾ تكثير الرؤية كما قاله صاحب الكشاف، وقيل للتحقيق، والمعنى تحول وجهك إلى السماء قاله قطرب، وقال الزجاج: تقلب عينيك في النظر إلى السماء والمعنى متقارب، والمعنى مطلعاً إلى الوحي ومتشوقاً للأمر باستقبال الكعبة، وكان يود ذلك لأنها قبله إبراهيم، ولأنها أدعى إلى إسلام العرب.

﴿فلنولينك﴾ هو إما من الولاية أي فلنعطينك ذلك أو من التولي أي فلنجعلنك متولياً إلى جهتها، وهذه بشارة من الله له صلى الله عليه وآله وسلم بما يحب، والفاء هنا للتسبب وقيل المعنى نحولنك ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ قاله ابن عمر: أي قبله إبراهيم نحو الميزاب، وهذا أولى لقوله ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ المراد بالشطرن هنا الناحية والجهة ويرد بمعنى البعض مطلقاً، ويكون بمعنى النصف في الشيء، وبمعنى الجهة والنحو، ويقال شطر أي بعد ومنه الشطر وهو الشاب البعيد من الجيران الغائب عن منزله والشطير البعيد، ومنه منزل شطير وشطرن إليه أي أقبل، قال الراغب: والشاطر أيضاً من يتباعد من الحق.

ولا خلاف أن المراد بشطرن المسجد هنا الكعبة، وقد حكى القرطبي الإجماع على أن استقبال عين الكعبة فرض على المعايين وعلى أن غير المعايين يستقبل الناحية، ويستدل على ذلك بما يمكنه الاستدلال به، وعن البراء شطر المسجد قبله، وعن ابن عباس قال: نحوه وقال أبو العالية: تلقاءه، وقال ابن عباس: البيت كله قبله وقبله البيت الباب، وأخرج البيهقي عنه مرفوعاً قال:

البيت قبله لأهل المسجد والمسجد قبله لأهل الحرم والحرم قبله لأهل الأرض مشارقها ومغاربها من أمتي .

وقد أخرج ابن ماجة عن البراء قال صلينا مع رسول الله صلى عليه وآله وسلم نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقليب وجهه في السماء وعلم الله من قلب نبيه أنه يهوى الكعبة فصعد جبريل فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ينظر ما يأتيه به، فأنزل الله هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا جبريل كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله يعني الآية التي قبل هذه .

واختلف في وقت تحويل القبلة ف قيل كان في يوم الاثنين بعد الزوال للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة ، وعليه الأكثر وقيل كان يوم الثلاثاء لثمانية عشر شهراً وقيل كان لسته عشر شهراً وقيل لثلاثة عشر شهراً، وقيل في جمادى، وقيل في نصف شعبان، وقيل نزلت ورسول الله ﷺ في مسجد بني سلمة، وقد صلى بأصحابه ركعتين من صلاة الظهر فتحول في الصلاة واستقبل الميزاب وحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال فسمى ذلك المسجد مسجد القبلتين، ووصل الخبر إلى أهل قباء في صلاة الصبح .

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي عمر^(١) قال بينما الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل القبلة فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، وظاهر حديث البراء في البخاري أنها كانت صلاة العصر، ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر.

(١) البخاري / باب القبلة - ١٠ .

﴿وحيث ما كنتم﴾ أي من بر، أو بحر، مشرق أو مغرب وهذا خطاب للأمة ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي نحو البيت وتلقاه، وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما بين المشرق والمغرب قبلة،^(١) أخرجه الترمذي، وقال حديث حسن صحيح قيل أراد بالمشرق مشرق الشتاء في أقصر يوم من السنة وبالمغرب مغرب الصيف في أطول يوم من السنة، فمن جعل مغرب الصيف في هذا الوقت عن يمينه ومشرق الشتاء عن يساره كان مستقبلاً للقبلة، وهذا في حق أهل المشرق لأن المشرق الشتوي جنوبي متباعد عن خط الاستواء وبمقدار الميل، والمغرب الصيفي شمالي متباعد عن خط الاستواء، والذي بينهما فقوسها مكة، والفرض لمن بمكة في القبلة اصابة عين الكعبة، ولمن بعد من مكة اصابة الجهة ويعرف ذلك بدلائل القبلة، وليس هذا موضع ذكرها، وهذا أحد الأصول الدالة على تجويز الاجتهاد، وفيه إيجاب استقبال الكعبة في كل صلاة فرضاً كانت أو نفلاً في كل مكان حضراً أو سافراً، وهو مخصوص بالآية المتقدمة في نافلة السفر على الراحلة وبالآية الآتية في حال المسافرة.

﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ قال السدي: هم اليهود خاصة والكتاب التوراة وقال غيره: أحبار اليهود وعلماء النصارى لعموم اللفظ، والكتاب التوراة والإنجيل ﴿ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ الضمير في ﴿أنه﴾ راجع إلى ما يدل عليه الكلام من التحول إلى جهة الكعبة، وعلم أهل الكتاب بذلك إما لكونه قد بلغهم عن أنبيائهم، أو وجدوا في كتب الله المنزلة عليهم أن هذا النبي مستقبل الكعبة أو لأنهم قد علموا من كتبهم أو أنبيائهم أن النسخ سيكون في هذه الشريعة، فيكون ذلك موجباً عليهم الدخول في الإسلام ومتابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقيل راجع إلى الشطر، وقيل إلى النبي ﷺ ويكون على هذا إلتفاتاً من خطابه بقوله ﴿فلنولينك﴾ إلى الغيبة، والأول أولى ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ قال السدي: أنزل ذلك في اليهود والمعنى ما أنا بساه عما يفعل هؤلاء اليهود فأنا أجازيهم عليه في الدنيا والآخرة.

وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَاتِيعُوا قِبَلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَهُمْ
وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ أَتْبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

﴿ولئن﴾ لام قسم وان شرطية ﴿أتيت الذين أوتوا الكتاب﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿بكل آية﴾ أي بكل معجزة وبكل حجة وبرهان ﴿ما تبعوا قبلك﴾ أي الكعبة عناداً، وفي هذه الآية مبالغة عظيمة وهي متضمنة للتسليية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وترويح خاطره بأن هؤلاء لا يؤثر فيهم كل آية ولا يرجعون إلى الحق وإن جاءهم بكل برهان فضلاً عن برهان واحد، وذلك لأنهم لم يتركوا اتباع الحق لدليل عندهم أو لشبهة طرأت عليهم حتى يوازنوا بين ما عندهم وما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقنعوا عن غوايتهم عند وضوح الحق، بل كان تركهم للحق تمرداً وعناداً مع علمهم بأنهم ليسوا على شيء، ومن كان هكذا فهو لا ينتفع بالبرهان أبداً.

والإخبار في قوله ﴿وما أنت بتابع﴾ يمكن أن يكون بمعنى النهي من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، أي لا تتبع يا محمد ﴿قبلتهم﴾ ويمكن أن يكون على ظاهره دفعاً لأطماع أهل الكتاب، وقطعاً لما يرجونه من رجوعه صلى الله عليه وآله وسلم إلى القبلة التي كان عليها، وهذه الجملة أبلغ من النفي من قوله ﴿ما تبعوا قبلك﴾ من وجوه منها كونها إسمية تكرر فيها الاسم مؤكداً نفيها بالباء ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ فيه إخبار بأن اليهود والنصارى مع حرصهم على متابعة الرسول ﷺ لما عندهم، هم مختلفون في دينهم حتى في هذا الحكم الخاص الذي قصه الله سبحانه على رسوله، فإن بعضهم لا يتابع الآخر في استقبال قبلته، قال في الكشف: وذلك أن اليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس، انتهى.

قال الشهاب: ان كون قبلة النصارى مطلع الشمس صرحوا به لكن وقع في بعض كتب القصص أن قبلة عيسى كانت بيت المقدس.

وقال الحافظ ابن القيم في بدائع الفوائد: قبلة أهل الكتاب ليست بوحي وتوقيف من الله بل بمشورة واجتهاد منهم، أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق، وهم يقولون بأن قبلة المسيح قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة، وإنما وضع لهم أشياخهم هذه القبلة فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال بيت المقدس على رسوله أبداً، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك الأمر، وأما اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا عليه، فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة.

﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ يعني مرادهم ورضاهم لو رجعت إلى قبلتهم
 ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ في أمر القبلة أو بأنهم مقيمون على باطل وعناد
 ﴿إنك إذا لمن الظالمين﴾ فيه من التهديد العظيم والزجر البليغ ما تقشعر له
 الجلود، وترجف منه الافئدة، وإذا كان الميل إلى أهوية المخالفين لهذه الشريعة
 الغراء والملة الشريفة من أمر رسول الله ﷺ الذي هو سيد ولد آدم^(١) يوجب

(١) ذكر مسلم في صحيحه: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع مسلم / ٢٢٧٨.

كذلك يؤيده حديث الشفاعة الذي رواه مسلم / ١٩٤/ والبخاري / ١٥٧٩: وملخصه أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون بم ذاك يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنون الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم... فيأتون آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويأتون محمداً ويسألونه الشفاعة فيجاب يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الناس. انظر بتنصل لحديث مسلم / ٢٢٧٨.

الظلم عليه وحاشاه أن يكون من الظالمين. فما ظنك بغيره من أمته، وقد صان الله هذه الفرقة الإسلامية بعد ثبوت قدم الإسلام وارتفاع مناره عن أن يميلوا إلى شيء من هوى أهل الكتاب، ولم تبق إلا دسيسة شيطانية ووسيلة طاغوتية، وهي ميل بعض من تحمل حجج الله إلى هوى بعض طوائف المبتدعة لما يرجوه من الحطام العاجل من أيديهم أو الجاه لديهم، إن كان لهم في الناس دولة أو كانوا من ذوي الصولة، وهذا الميل ليس بدون ذلك الميل بل اتباع أهوية المبتدعة يشبه اتباع أهوية أهل الكتاب كما يشبه الماء الماء، والبيضة البيضة، والتمرة التمرة.

وقد تكون مفسدة اتباع أهوية المبتدعة أشد على هذه الملة من مفسدة اتباع أهوية أهل الملل، لأن المبتدعة ينتمون إلى الإسلام ويظهرون للناس أنهم ينصرون الدين ويتبعون أحسنه، وهم على العكس من ذلك، والضد لما هنالك، ولا يزالون ينقلون من يميل إلى أهويتهم من بدعة إلى بدعة، ويدفعونه من شناعة إلى شناعة حتى يسلكوه من الدين ويخرجوه منه، وهو يظن أنه منه في الصميم، وأن الصراط الذي هو عليه هو الصراط المستقيم.

هذا إن كان في عداد المقصرين ومن جملة الجاهلين، وإن كان من أهل العلم والفهم المميزين بين الحق والباطل، كان في اتباعه لأهويتهم ممن أضله الله على علم، وختم على قلبه وصار نقمة على عباده ومصيبة صلبها الله على المقصرين لأنهم يعتقدون أنه في علمه وفهمه لا يميل إلا إلى الحق، ولا يتبع إلا الصواب، فيضلون بضلاله فيكون عليه إثمهم وإثم من اقتدى به إلى يوم القيامة نسأل الله اللطف والسلامة والهداية والكرامة.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكُفِّرُونَ
 الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ
 وَجْهَةٍ هُومُؤِلِّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾

﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ يعني علماء اليهود والنصارى، وقيل أراد به مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿يعرفونه﴾ الضمير لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وإن لم يسبق له ذكر لدلالة الكلام عليه وعدم اللبس، ذكره القاضي ويقال عليه بل سبق ذكره بلفظ الرسول مرتين أي يعرفون نبوته، روي ذلك عن مجاهد وقتادة وطائفة من أهل العلم، وقيل يعرفون تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة بالطريق التي قدمنا ذكرها، وبه قال جماعة من المفسرين، ورجح صاحب الكشاف الأول، وعندي أن الراجح الآخر كما يدل عليه السياق الذي سيقى له هذه الآية.

﴿كما يعرفون أبناءهم﴾ أنهم منهم لا يشكون فيه، ولا يشتبه عليهم كما لا تشبه عليهم أبناؤهم من أبناء غيرهم، يعني يعرفون أن القبلة التي صرفتك إليها هي قبلة إبراهيم وقبلة الأنبياء قبلك، كما يعرفون أولادهم، قال ابن سلام: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني ومعرفتي بمحمد أشد، وخص الأبناء دون البنات أو الأولاد لأن الذكور أعرف وأشهر، وهم لصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق، والالتفات عن الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له صلى الله عليه وآله وسلم من حيث ذاته ونسبه بل من حيث كونه مسطوراً في الكتاب منعوتاً بالنعوت التي من جملتها أنه صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إلى القبلتين كأنه قيل: الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه، وبهذا تظهر جزالة النظم الكريم ذكره الكرخي.

﴿وإن فريقاً منهم﴾ أي من علماء أهل الكتاب ﴿ليكتُمون الحق﴾ يعني أمر القبلة أو صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فكتُم الحق هو عند أهل القول الأول نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، وعند أهل القول الثاني استقبال الكعبة ﴿وهم يعلمون﴾ أن كتمان الحق معصية.

﴿الحق﴾ يحتمل أن يكون المراد به الحق الأول ويحتمل أن يراد به جنس الحق على أنه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ وخبره قوله ﴿من ربك﴾ أي الحق هو الذي من ربك لا من غيره ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والامتراء الشك، نهاه الله سبحانه عن الشك في كون الحق من ربه أو في كون كتمانهم الحق مع علمهم، وعلى الأول هو تعريض للأمة أي لا يكن أحد من أمته من الممترين لأنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يشك في كون ذلك هو الحق من الله سبحانه وفيه كناية وهي أبلغ من التصريح.

﴿ولكل وجهة﴾ أي لكل دين وجهة ولكل أهل ملة قبله، والوجهة، فعلة من المواجهة وفي معناها الجهة والوجه وهي اسم للمكان المتوجه إليه كالكعبة أو مصدر، والمراد القبلة أي أنهم لا يتبعون قبلك وأنت لا تتبع قبلتهم ولكل وجهة إما بحق وإما بباطل.

والضمير في ﴿هو موليها﴾ راجع إلى لفظ ﴿كل﴾ والهاء هي المفعول الأول والثاني محذوف أي موليها وجهه في صلاته، والمعنى أن لكل صاحب ملة قبله صاحب القبلة موليها وجهه، فقبله المسلمين الكعبة، وقبله اليهود بيت المقدس، وقبله النصارى مطلع الشمس، أو لكل منكم يا أمة محمد قبله يصلي إليها من شرق أو غرب أو جنوب أو شمال إذا كان الخطاب للمسلمين، ويحتمل أن يكون الضمير لله سبحانه وإن لم يجر له ذكر إذ هو معلوم أن الله فاعل ذلك، والمعنى أن لكل صاحب ملة قبله الله موليها إياه، وقيل لكل واحد من الناس قبله وقرىء مولاها، والضمير لواحد، والمعنى الواحد مولاها أي

محول ومصروف إليها.

﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي فبادروا إلى ما أمركم الله به من استقبال البيت الحرام كما يفيد السياق وإن كان ظاهر الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير كما يفيد العموم المستفاد من تعريف الخيرات، قال ابن زيد: يعني الأعمال الصالحة والمراد من الاستباق إلى الاستقبال الاستباق إلى الصلاة في أول وقتها فإن الصلاة فيه أفضل، لأن ظاهر الأمر للوجوب، فإذا لم يتحقق الوجوب فلا أقل من الندب، والآية دليل لمذهب الشافعي في أفضلية الصلاة في أول الوقت، والسبق الوصول إلى الشيء أولاً، وأصله التقدم في السير ثم تجوز به في كل ما تقدم، والخيرات واحدها خيرة بوزن فيعلة أو زنة فعلة كجفنة، وعلى كلا التقديرين فليستا للتفضيل.

﴿أينما تكونوا﴾ أي في أي جهة من الجهات المختلفة تكونوا ﴿يأت بكم الله﴾ للجزاء يوم القيامة فهو وعد لأهل الطاعة بالثواب ووعد لأهل المعصية بالعقاب ويجمعكم ﴿جميعاً﴾ ويجعل صلاتكم في الجهات المختلفة كأنها إلى جهة واحدة ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ ومنه الإعادة بعد الموت والإثابة لأهل الطاعة والعقاب لمستحق العقوبة^(١)

(١) روى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّمَا مَثَلُ الْمُهْجَرِ إِلَى الصَّلَاةِ كَمَثَلِ الْيُهْدِيِّ الْبَدَنَةِ ثُمَّ الَّذِي عَلَى أَثَرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَقَرَةَ ثُمَّ الَّذِي عَلَى أَثَرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الْكَبْشَ ثُمَّ الَّذِي عَلَى أَثَرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الدَّجَاجَةَ ثُمَّ الَّذِي عَلَى أَثَرِهِ كَالَّذِي يُهْدِي الْبَيْضَةَ». وروى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَصِلِي الصَّلَاةَ لَوَقْتُهَا وَقَدْ تَرَكَ مِنَ الْوَقْتِ الْأَوَّلِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ». وأخرجه مالك.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ الظاهر أن «من» هنا ابتدائية، والأقرب أن تكون بمعنى «في» أي مكان سافرت ﴿وأنه﴾ أي التولي ﴿للق من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾ بالياء والتاء وتقدم مثله.

﴿ومن حيث خرجت﴾ أي من أي مكان خرجت للسفر ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ حيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴿كرر سبحانه هذا تأكيداً لأمر استقبال الكعبة وللاهتمام به لأن موقع التحويل كان معني به في نفوسهم، وقيل وجه التكرير أن النسخ من مظان الفتنة ومواطن الشبهة، فإذا سمعوه مرة بعد أخرى ثبتوا واندفع ما يختلج في صدورهم، وقيل أنه كرر هذا الحكم لتعدد علله، فإنه سبحانه ذكر للتحويل ثلاث علل: الأولى ابتغاء مرضاته، والثانية يجري العادة الإلهية أن يولي أهل كل ملة وصاحب دعوة جهة يستقبل بها، والثالثة دفع حجج المخالفين فقرن بكل علة معلولها، وقيل أراد بالأول ول وجهك شطر الكعبة إذا صليت تلقاءها، ثم قال: وحيثما كنتم معاشر المسلمين في سائر المساجد بالمدينة وغيرها فولوا وجوهكم شطره، ثم قال ﴿ومن حيث خرجت﴾ يعني وجوب الاستقبال في الأسفار، فكان هذا أمراً بالتوجه إلى الكعبة في جميع المواطن من نواحي الأرض.

﴿لئلا﴾ اللام لام كي وإن هي المصدرية ولا نافية ﴿يكون للناس عليكم حجة﴾ قيل أراد بالناس أهل الكتاب، وقيل هو على العموم، وقيل هم

قريش واليهود. والمعنى لا حجة لأحد عليكم في التولي إلى غيره أي لتنتفي مجادلتهم لكم من قول اليهود يحدد ديننا ويتبع قبلتنا. وقول المشركين يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ يعني المعاندين من أهل الكتاب القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه، وقيل: هم مشركو العرب وحجتهم قولهم راجعت قبلتنا؛ وقيل: معناه لئلا يقولوا لكم قد أمرتم باستقبال الكعبة ولستم ترونها، وقال أبو عبيدة: إلا ههنا بمعنى الواو، وأبطل الزجاج هذا القول وقال إنه استثناء منقطع أي لكن الذين ظلموا منهم فإنهم يحتجون ومعناه إلا من ظلم باحتجازه فيما قد وضع له، كأن تقول ما لك عليّ حجة إلا أن تظلمني أي ما لك عليّ حجة ولكنك تظلمني، وسمى ظلمه حجة لأن المحتج بها سماه حجة وإن كانت داحضة.

ورجح ابن جرير الطبري أن الاستثناء متصل وقال: نفى الله أن تكون لأحد حجة على النبي ﷺ وأصحابه في استقبالهم الكعبة، والمعنى لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الداحضة حيث قالوا ما ولاهم، وقالوا إن محمداً تحير في دينه وماتوجه إلى قبلتنا أنا أهدي منه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن أو يهودي أو منافق، قال: والحجة بمعنى الحاجة التي هي المخاصمة والمجادلة وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حيث كانت من ظالم، ورجح ابن عطية أن الاستثناء منقطع كما قال الزجاج، قال القرطبي: وهذا على أن يكون المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب كأنه قال لكن الذين ظلموا في قولهم رجع محمد ﷺ إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله.

﴿فلا تخشوهم﴾ أي لا تخافوا جداولهم في التولي إليها ومطاعنهم فإنها داحضة باطلة لا تضركم ﴿واخشوني﴾ أي احذروا عقابي إن أنتم عدلتم عما ألزمتكم به وفرضته عليكم ﴿ولأنتم نعمتي عليكم﴾ أي بهدايتي إياكم إلى قبلة إبراهيم لتتم لكم الملة الحنيفية، وقيل تمام النعمة الموت على الإسلام ثم دخول الجنة ثم رؤية الله تعالى ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي لكي تهتدوا من الضلالة، ولعل وعسى من الله واجب.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٦﴾ فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ
وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٧﴾

﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة﴾ التشبيه واقع على أن النعمة في القبلية كالنعمة في الرسالة، وقيل معنى الكلام على التقديم والتأخير أي فاذكروني كما أرسلنا، قاله الزجاج وقيل غير ذلك، والتعبير بصيغة التكلم الدالة على العظمة بعد التعبير بالصيغة التي لا دلالة لها عليها من قبيل التفنن وجرياً على سنن الكبراء، وفيكم خطاب لأهل مكة والعرب وكذا قوله منكم، وفي إرساله رسولاً منهم نعمة عظيمة عليهم لما فيه من الشرف لهم، ولأن المعروف من حال العرب الأنفة الشديدة من الانقياد للغير، فكان بعثة الرسول منهم وفيهم أقرب إلى قبول قوله والانقياد له، والرسول هو محمد ﷺ، والآيات القرآن وذلك من أعظم النعم لأنه معجزة باقية على الدهر، والتركية التطهير من دنس الشرك والذنوب، وقيل محاسن الأعمال ومكارم الأفعال، والحكمة هي السنة المطهرة والفقه في الدين.

﴿ويعلمكم﴾ من أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية وقصص الأنبياء والخبر عن الحوادث المستقبلية ﴿ما لم تكونوا تعلمون﴾ ذلك قبل بعثة رسول الله ﷺ وتستقلون بعلمه بعقولكم.

﴿فاذكروني أذكركم﴾ أمر وجوابه، وفيه معنى المجازاة قاله سعيد بن جبير، والمعنى اذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب والمغفرة حكاة عنه القرطبي، وروى نحوه مرفوعاً، وقيل الذكر يكون باللسان وهو التسبيح والتحميد ونحو ذلك من الأذكار الماثورة، ويكون بالقلب، وهو التفكير في الدلائل الدالة على وحدانيته وبدائع خلقه ويكون بالجوارح وهو الاستغراق في الأعمال التي أمروا

بها مثل الصلاة وسائر الطاعات التي للجوارح فيها فعل، وقيل غير ذلك.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة» أخرجه البخاري ومسلم^(١).

وأخرجنا عنه قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»^(٢) وأخرجنا عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر كمثل الحي والميت»^(٣) وفي الباب أحاديث كثيرة.

﴿واشكروا لي﴾ يعني بالطاعة ما أنعمت به عليكم، قال الفراء: شكرتك وشكرت لك واحد، قال ابن عطية: ولي أفصح وأشهر مع الشكر، والشكر معرفة الإحسان والتحدث به، وأصله في اللغة الظهور وقد تقدم الكلام فيه، وقد ورد في فضل ذكر الله على الإطلاق وفضل الشكر أحاديث كثيرة كما أشرنا إليه. ﴿ولا تكفروا﴾ أي بجحد النعم وعصيان الأمر، والكفر هنا ستر النعمة لا التكذيب، فمن أطاع الله فقد شكره ومن عصاه فقد كفر، وقد تقدم الكلام فيه.

(١) مسلم ٢٦٧٥/.

(٢) ومثل ذلك ما رواه ابن ماجه عن عبد الله بن بسر أن اعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن شرائع الاسلام قد كثرت عليّ فانبثني منها بشيء أتشبث به قال: لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عز وجل.

(٣) ومنه حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سيروا هذا جمدان (جبل في طريق مكة) سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات مسلم ٢٦٧٦/.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿٥٤﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة﴾ لما فرغ سبحانه من ارشاد عباده إلى ذكره وشكره عقب ذلك بارشادهم إلى الاستعانة بالصبر عن المعاصي وحفظ النفس، وبالصلاة التي هي عماد الدين ومعراج المؤمنين، فإن من جمع بين ذكر الله وشكره واستعان بالصبر والصلاة على تأدية ما أمر الله به، ودفع ما يرد عليه من المحن فقد هدي إلى الصواب، ووفق للخير، ومن الناس من حمل الصبر على الصوم وفسره به، ومنهم من حمله على الجهاد ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع، والصبر حبس النفس على احتمال المكارة في ذات الله، وتوطئتها على تحمل المشاق في العبادات وسائر الطاعات، وتجنب الجزع والمحظورات، والمعنى استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض وبالصلوات الخمس على تمحيص الذنوب، وخصها بالذكر لتكررها وعظمتها لأنها أم العبادات ومناجاة رب الكائنات.

﴿إن الله مع الصابرين﴾ أي بالعون والنصر وإجابة الدعوة، وهذه المعية التي أوضحها الله فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال، وهذه المعية خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين، وأما المعية بالعلم والقدرة فهي عامة في حق كل أحد، والجملة تعليل لما قبلها من الاستعانة بالصبر خاصة كما قال أبو السعود أو بالصبر والصلاة كما قال الكرخي.

﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء﴾ قيل نزلت فيمن قتل بيد من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وسماهم في الخازن بأسمائهم وكان الناس يقولون فيهم مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها فأنزل الله هذه الآية، وقيل إن الكفار قالوا إن

الناس يقتلون أنفسهم ظلماً لمرضاة محمد ﷺ من غير فائدة فنزلت هذه الآية . وأخبر الله أن من قتل في سبيله فإنه حي ، وإنما خص الشهداء لأنهم فضلوا على غيرهم بمزيد النعم ، وهو أنهم يرزقون من مطاعم الجنة ومآكلها ، وغيرهم ينعمون بما دون ذلك .

﴿ولكن لا تشعرون﴾ بهذه الحياة عند مشاهدتكم لأبدانهم بعد سلب أرواحهم لأنكم تحكمون عليها بالموت في ظاهر الأمر ، بحسب ما يبلغ إليه علمكم الذي هو بالنسبة إلى علم الله كما يأخذ الطائر في منقاره من ماء البحر . وليسوا كذلك في الواقع بل هم أحياء في البرزخ تصل أرواحهم إلى الجنان ، فهم أحياء من هذه الجهة ، وإن كانوا أمواتاً من جهة خروج الروح من أجسادهم .

وفي الآية دليل على ثبوت عذاب القبر للعصاة وأن المطيعين لله يصل إليهم ثوابهم وهم في قبورهم في البرزخ ، ولا اعتداد بخلاف من خالف في ذلك ، فقد تواترت به الأحاديث الصحيحة ودلت عليه الآيات القرآنية ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ وقد وردت أحاديث في أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تأكل من ثمار الجنة^(١) ، فمنها عن كعب بن مالك مرفوعاً عند أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن ماجه وروي «أن أرواح الشهداء على صور طيور بيض» كما أخرجه ابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي العالية .

والآية نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر ، وفيها دلالة على أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها مغايرة لما يحس من البدن تبقى بعد الموت دراكة وعليه جمهور الصحابة والتابعين ، وبه نطقت الآيات والسنن ، وعلى هذا تخصيص الشهداء لاختصاصهم بالقرب من الله تعالى ومزيد البهجة والكرامة .

(١) صحيح الجامع الصغير ١٥٥٥ .

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ
وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات﴾ أي لنختبرنكم واللام جواب القسم، أي والله لنبلونكم يا أمة محمد ﷺ والبلاء أصله المحنة أي نمتحنكم لنختبركم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء أم لا، وليظهر الطائع من العاصي، والتنكير للتقليل أي بشيء قليل من هذه الأمور، فإن ما وقاهم عنه أكثر بالنسبة إلى ما أصابهم بألف مرة فكذا ما يصيب به معانديهم، وإنما أخبر به قبل الوقوع ليوطنوا عليه نفوسهم ويزداد يقينهم عند مشاهدتهم له حسبما أخبر به، وليعلموا أنه شيء يسير له عاقبة محمودة، والمراد بالخوف ما يحصل لمن يخشى من نزول ضرر به من عدو أو غيره، وبالجوع المجاعة التي تحصل عند الجذب والقحط، وبنقص الأموال ما يحدث فيها بسبب الجوائح وما أوجبه الله فيها من الزكاة ونحوها.

عن رجاء بن حيوة قال: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة فيه إلا تمر، وبنقص الأنفس بالموت والقتل في الجهاد، وبنقص الثمرات ما يصيبها من الآفات، وهو من عطف الخاص على العام لشمول الأموال للثمرات وغيرها.

وقال الشافعي: في تفسير هذه الآية الخوف خوف الله والجوع صيام شهر رمضان ونقص الأموال إخراج الزكاة والصدقات ونقص الأنفس بالأمراض ونقص الثمرات موت الأولاد لأن الولد ثمرة القلب. وفي الحديث: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ قالوا: نعم قال: أقبضتم ثمرة فؤاده! قالوا: نعم، قال: فماذا قال؟ قالوا: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد» أخرجه الترمذي عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً. وقال حديث حسن، ولكن اللفظ القرآني أوسع مما قال وأعم منه فلا يخصص

بشيء دون غيره ﴿وبشر الصابرين﴾ أمر لرسول الله ﷺ أو لكل من يقدر على التبشير، وقد تقدم معنى البشارة، والصبر أصله الحبس، والجملة عطف على ﴿ولنبلونكم﴾ عطف المضمون على المضمون أي الإبتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر قاله سعد التفتازاني.

﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ المصيبة واحدة المصايب وهي النكبة التي يتأذى بها الإنسان وإن صغرت ﴿قالوا﴾ أي باللسان والقلب لا باللسان فقط فإن التلفظ بذلك مع الجزع قبيح وسخط للقضاء وذلك أن يتصور ما خلق لأجله وأنه يرجع إلى ربه ويتذكر نعم الله عليه ليرى أن ما أبقي الله عليه أضعاف ما استرده منه فيهن عليه ويستسلم ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ في الآخرة فيجازينا. وصفهم بأنهم المسترجعون عند المصيبة لأن ذلك تسليم ورضا. وفيه بيان أن هذه الكلمات ملجأ للمصابين وعصمة للمتحنين، فإنها جامعة بين الإقرار بالعبودية لله والاعتراف بالبعث والنشور، والرجوع والتفويض إلى الله والرضا بكل ما نزل به من المصايب.

وفي الحديث «من استرجع عند المصيبة جبر الله مصيبته وأحسن عقابه وجعل له خلفاً صالحاً يرضاه» وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ أعطيت أمتي شيئاً لم يعطه أحد من الأمم أن يقولوا عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون ألا تسمع إلى قول يعقوب عند فقد يوسف يا أسفا على يوسف «، وقد ورد في فضل الاسترجاع عند المصيبة أحاديث كثيرة. ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾ الصلاة هنا المغفرة قاله ابن عباس، أو الشاء الحسن قاله الزجاج، وعلى هذا فذكر الرحمة لقصد التأكيد، وقال في الكشف: الصلاة الرحمة والتعطف فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة كقوله رأفة رحمة، رؤوف رحيم، والمعنى عليهم رأفة بعد رأفة، ورحمة بعد رحمة انتهى، وعبر عن المغفرة بلفظ الجمع للتنبيه على كثرتها وتنوعها، قاله البيضاوي وأبو السعود، وقيل المراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة وإنما وصفوا هنا بذلك لكونهم فعلوا ما فيه الوصول إلى طريق الصواب من الاسترجاع والتسليم.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمُرَّةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿٥٩﴾

﴿وأولئك هم المهتدون﴾ يعني إلى الاسترجاع، وقيل إلى الجنة، وقيل إلى الحق والصواب، وقال عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة، فالعدلان الصلاة والرحمة، والعلاوة الهداية، وقد وردت أحاديث كثيرة في ثواب أهل البلاء وأجر الصابرين ذكرها المفسرون لا نطيل بذكرها هنا فإنها معروفة في كتب الآثار.

﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس الصلب وهو هنا علم، جبل من جبال مكة معروف، وكذلك المروة علم لجبل بمكة معروف، وأصلها في اللغة واحدة والمروى، وهي الحجارة الصغار التي فيها لين، وقيل التي فيها صلابة، وقيل يعم الجميع، وقيل إنها الحجارة البيض البراقة. وقيل إنها الحجارة السود، والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة أي من أعلام مناسكه، والمراد بها مواضع العبادة التي أشعرها الله إعلماً للناس من الموقف والمسعى والمنحر، ومنه إشعار الهدي أي إعلامه بغرز حديدة في سنامه، والأجود شعائر بالهمز لزيادة حرف المد وهو عكس معاش ومصاب.

﴿فمن حج البيت﴾ هو في اللغة القصد، وفي الشرع الإتيان بمناسك الحج التي شرعها الله سبحانه ﴿أو اعتمر﴾ العمرة في اللغة الزيارة، وفي الشرع الإتيان بالنسك المعروف على الصفة الثابتة فالحج والعمرة قصد وزيارة

﴿فلا جناح﴾ أي فلا إثم ﴿عليه أن يطوف﴾ أي يدور ﴿بهما﴾ ويسعى بينهما والجناح أصله الجنوح وهو الميل، ومنه الجوانح لاعوجاجها، ورفع الجناح يدل على عدم الوجوب، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري، وحكى الزمخشري في الكشف عن أبي حنيفة أنه يقول: هو واجب وليس بركن، وعلى تاركه دم وقد ذهب إلى عدم الوجوب ابن عباس وابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين، وعن أحمد أنه سنة، وأجمعوا على أنه مشروع فيهما، وإنما الخلاف في وجوبه.

ومما يقوي دلالة هذه الآية على عدم الوجوب قوله تعالى في آخر الآية ﴿ومن تطوع خيراً﴾ أي زاد على ما فرض عليه من حج أو عمرة أو طواف أو تطوع بالسعي أو فعل طاعة فرضاً كان أو نفلاً ﴿فإن الله شاكر عليم﴾ مثير على الطاعة لا يخفى عليه، وذهب الجمهور إلى أن السعي واجب ونسك من جملة المناسك وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة، وبه قال الحسن، وإليه ذهب الشافعي ومالك، واستدلوا بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن عائشة أن عروة قال لها أرأيت قول الله ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية فما أرى على أحد جناحاً أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة بثسماً قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أولتها كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة، لطاغية كانوا يعبدونها، وكان من أهلها يتخرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله إن الصفا والمروة الآية، قالت عائشة ثم قد بين رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما .

وأخرج مسلم وغيره عنها أنها قالت لعمرى ما أتم الله حج من لم يسع بين الصفا والمروة ولا عمرته، لأن الله قال ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال سئل رسول الله ﷺ فقال إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا، وأخرج أحمد في مسنده والشافعي وابن سعد وابن

المنذر وابن قانع والبيهقي عن حبيبة بنت أبي تجزأة قالت: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم يسعى حتى أرى ركبته من شدة السعي يدور بهما إزاره، وهو يقول «اسعوا فإن الله عز وجل كتب عليكم السعي» ويؤيد ذلك حديث «خذوا عني مناسككم»^(١) واختار الشوكاني في جميع مؤلفاته الوجوب وهو الراجح.

﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ فيه إخبار بأن الذي يكتُم ذلك ملعون، وفيه دليل على جواز لعن الكافر بعد موته خلافاً لمن قال إنه لا فائدة له، واختلفوا من المراد بذلك فقيل أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ، وقد روي عن جماعة من السلف أن الآية نزلت في أهل الكتاب لكتمتهم نبوة نبينا ﷺ وآية الرجم وغيرها من الأحكام التي كانت في التوراة، وقيل: كل من كتم الحق وترك بيان ما أوجب الله بيانه وهو الراجح لأن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما تقرر في الأصول، فعلى فرض أن سبب النزول ما وقع من اليهود والنصارى من الكتم فلا ينافي ذلك تناول هذه الآية لكل من كتم الحق.

وفي هذه الآية من الوعيد الشديد ما لا يقادر قدره، فإن من لعنه الله ولعنه كل من يأتي منه اللعن من عباده قد بلغ من الشقاوة والخسران إلى الغاية التي لا تلحق ولا يدرك كنهها.

وفي قوله ﴿من البينات والهدى﴾ دليل على أنه يجوز كتم غير ذلك كما قال أبو هريرة: حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين أما أحدهما فبشته، وأما الآخر فلو بثته قطع هذا البلعوم، أخرجه البخاري.

والضمير في ﴿بيناه﴾ راجع إلى ﴿ما أنزلنا﴾ والكتاب إسم جنس وتعريفه

(١) وقد كثرت الكتب التي تتكلم عن كيفية جمع النبي صلى الله عليه وسلم ومنها ما ألفه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

يفيد شموله لجميع الكتب، وقيل المراد به التوراة، واللعن: الإبعاد والطرده، والمراد بقوله ﴿اللاعنون﴾ الملائكة والمؤمنون قاله الزجاج وغيره ورجحه ابن عطية، وقيل كل من يتأق منه اللعن، فيدخل في ذلك الجن والإنس، وقال ابن عباس: جميع الخلائق إلا الجن والإنس، وقيل هم الإنس والجن، وقيل ما تلاعن إثنان من المسلمين إلا رجعت إلى اليهود والنصارى الذين كتموا صفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحكام التوراة والإنجيل، وقيل هم الحشرات والبهائم.

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن البراء ابن عازب قال: كنا في جنازة مع النبي ﷺ فقال: «إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه فتسمعه كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته» فذلك قول الله تعالى: ﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ يعني دواب الأرض، وعن مجاهد إذا أجذبت البهائم دعت على فجار بني آدم، وعنه أن دواب الأرض والعقارب والخنافس يقولون إنما منعنا القطر بذنوبهم فيلعنونه، وعن أبي جعفر يلعنهم كل شيء حتى الخنفساء.

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن كتم العلم والوعيد لفاعله.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئاً أبداً ﴿إن الذين يكتُمون﴾ الآية، وقوله ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ إلى آخرها.

وهل إظهار علوم الدين فرض كفاية أو فرض عين، فيه خلاف، والأصح أنه إذا أظهرها البعض بحيث يتمكن كل واحد من الوصول إليه لم يبق مكتوماً، وقيل متى سئل العالم عن شيء يعلمه من أمر الدين يجب عليه إظهاره وإلا فلا، وفي الآية دليل على وجوب قبول قول الواحد لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ
وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾
وَاللَّهُمُّ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا﴾ فيه استثناء التائبين الراجعين من الكفر إلى الإسلام والمصلحين لما فسد من أعمالهم، والمبينين للناس ما بينه الله في كتبه وعلى ألسن رسله، قال قتادة: أصلحوا ما بينهم وبين الله وبينوا الذين جاءهم من الله ولم يكتموا ولم يحدونه ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ يعني أتجاوز عنهم وأقبل توبتهم، قاله سعيد بن جبیر ﴿وأنا التواب﴾ أي المتجاوز عن عبادي الرجاء بقلوبهم المنصرفة عني إلى ﴿الرحيم﴾ بهم بعد إقبالهم علي، والجملة اعتراض تذييل محقق لمضمون ما قبله والالتفات إلى التكلم للتفنن في النظم الكريم، مع ما فيه من التلويع والرمز إلى ما مر من اختلاف المبدأ في فعله تعالى السابق وهو اللعن واللاحق وهو الرحمة.

﴿إن الذين كفروا﴾ بالكتمان وغيره ﴿وماتوا وهم كفار﴾ جملة حالية وإثبات الواو فيها أفصح خلافاً لمن جعل حذفها شاذاً وهو الزمخشري تبعاً للفرء، وقد استدل بذلك على أنه لا يجوز لعن كافر معين لأن حاله عند الوفاة لا يعلم ولا ينافي ذلك ما ثبت عنه ﷺ من لعنه لقوم من الكفار بأعيانهم لأنه يعلم بالوحي ما لا نعلم، وقيل يجوز لعنه عملاً بظاهر الحال كما يجوز قتاله، واستدل بقوله ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة﴾ على جواز لعن الكفار على العموم قال القرطبي لا خلاف في ذلك قال وليس لعن الكافر بطريق الزجر له عن الكفر بل هو جزاء على الكفر وإظهار قبح كفره، سواء كان الكافر عاقلاً أو مجنوناً، وقال قوم من السلف: لا فائدة في لعن من جن أو مات منهم لا بطريق الجزاء ولا بطريق الزجر.

قال: ويدل على هذا القول أن الآية دالة على الإخبار عن الله والملائكة والناس بلعنهم لا على الأمر به.

قال ابن العربي: إن لعن العاصي المعين لا يجوز باتفاق لما روي أن النبي ﷺ أتى بشارب خمر مراراً فقال بعض من حضر «لعنه الله ما أكثر ما يشربه» فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك»^(١) والحديث في الصحيحين ﴿والناس أجمعين﴾ قيل هذا يوم القيامة، وأما في الدنيا ففي الناس المسلم والكافر، ومن يعلم بالعاصي ومعصيته ومن لا يعلم فلا يتأتى اللعن له من جميع الناس، وقيل في الدنيا، والمراد يلعنه غالب الناس أو كل من علم بمعصيته منهم، عن أبي العالية قال: إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم يلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون، وقال قتادة: يعني بالناس أجمعين المؤمنين.

﴿خالدين فيها﴾ أي في النار، وقيل في اللعنة وإنما أضمرت لعظم شأنها ﴿لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ فيعتذرون قاله أبو العالية، وقال ابن عباس: لا يؤخرون، والإنظار والإمهال، وقيل معناه لا ينظر الله إليهم فهو من النظر، وقيل هو من الانتظار أي لا ينتظرون ليعتذروا.

﴿وإلهم إله واحد﴾ أي لا شريك له في الألوهية ولا نظير له في الربوبية، والتوحيد هو نفي الشريك والقسيم والشبيه، فالله تعالى واحد في أفعاله لا شريك له يشاركه في مصنوعاته، وواحد في ذاته لا قسيم له. وواحد في صفاته لا يشبهه شيء من خلقه ﴿لا إله إلا هو﴾ تقرير للوحدانية بنفي غيره من الألوهية وإثباتها له ﴿الرحمن الرحيم﴾ وقد تقدم تفسيرهما، وفيه الإرشاد إلى التوحيد وقطع العلائق، والإشارة إلى أن أول ما يجب بيانه ويحرم كتمانها هو أمر التوحيد.

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وصححه ابن

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي
الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

ماجة عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَالْهَيْكَلُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ و﴿الْم، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وأخرج الديلمي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أشد على مرده الجن من هؤلاء الآيات التي في سورة البقرة ﴿وَالْهَيْكَلُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ الآيتين.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لما ذكر سبحانه التوحيد بقوله ﴿وَالْهَيْكَلُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ عقب ذلك بالدليل الدال عليه وهو هذه الأمور الثمانية التي هي من أعظم صنعة الصانع الحكيم، مع علم كل عاقل بأنه لا يتهياً من أخذ من الآلهة التي اثبتها الكفار أن يأتي بشيء منها أو يقتدر عليه أو على بعضه، وهي خلق السموات، وتعاقب الليل والنهار، وجري الفلك في البحر، وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبث الدواب فيها بسببه، وتصريف الرياح، وتسخير السحاب، فإن من أمعن نظره وأعمل فكره في واحد منها انبهر له وضاق ذهنه عن تصور حقيقته، وتحتّم عليه التصديق بأن صانعه هو الله سبحانه، وإنما جمع السموات لأنها أجناس مختلفة كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووجد الأرض لأنها كلها من جنس واحد وهو التراب، والآية في السماء سمكها وارتفاعها بغير عمد، ولا علاقة ما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم، والآية في الأرض مدّها وبسطها على الماء وما يرى فيها من الجبال والبحار، والمعادن والجواهر، والأنهار والأشجار والثمار والنبات.

﴿واختلاف الليل والنهار﴾ تعاقبهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر، وإضاءة أحدهما وإظلام الآخر، وقيل في الطول والقصر والزيادة والنقصان قال ابن الخطيب: وعندي فيه وجه ثالث هو أنها كما يختلفان في الأزمنة فهما يختلفان في الأمكنة فإن من يقول إن الأرض كرة فكل ساعة عينتها فتلك الساعة في موضع من الأرض صبح، وفي موضع آخر ظهر، وفي آخر عصر، وفي آخر مغرب. وفي آخر عشاء. وهلم جراً. هذا اذا اعتبرنا البلاد المختلفة في الطول. أما البلاد المختلفة في العرض فكل بلد يكون عرضه للشمال أكثر كانت أيامه الصيفية أطول وأيامه الشتوية بالضد من ذلك، فهذه الأحوال المختلفة في الأيام والليالي بحسب اختلاف أطوال البلاد وعروضها أمر عجيب قاله الكرخي.

وانما قدم الليل على النهار لأن الظلمة أقدم. قال تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ وهذا أصح القولين، وقيل النور سابق الظلمة، ويبنى على هذا الخلاف فائدة وهي ان الليلة هل هي تابعة لليوم قبلها أو لليوم بعدها، فعلى القول الصحيح تكون الليلة لليوم بعدها فيكون اليوم تابعا لها، وعلى القول الثاني تكون لليوم قبلها فتكون الليلة تابعة له، فيوم عرفة على القول الأول مستثنى من الأصل فإنه تابع لليلة بعده، وعلى الثاني جاء على الأصل.

والآية فيهما أن انتظام أحوال العباد بسبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار وطلب النوم والراحة يكون بالليل، فاختلفا فيها إنما هو لتحصيل مصالح العباد، والنهار ما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقال النضر ابن شميل: أول النهار طلوع الشمس ولا يعد ما قبل ذلك من النهار، وكذا قال ثعلب والزجاج، وقسم ابن الانباري الزمان إلى ثلاثة أقسام: قسماً جعله ليلاً محضاً وهو من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وقسماً جعله نهراً محضاً وهو من طلوع الشمس إلى غروبها، وقسماً جعله مشتركاً بين النهار والليل وهو

ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لبقايا ظلمة الليل ومبادئ ضوء النهار، هذا باعتبار مصطلح أهل اللغة، وأما في الشرع فالكلام في ذلك معروف.

﴿والفلك التي تجري في البحر﴾ وهي السفن وإفراده وجمعه بلفظ واحد وهو هذا ويذكر ويؤنث، قال تعالى ﴿في الفلك المشحون﴾ و﴿الفلك التي تجري في البحر﴾ وقال ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ وقيل واحده فلك بالتحريك مثل أسد وأسد، والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهي موقرة بالأثقال والرجال، فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر فلا ينجي منه إلا الله تعالى.

﴿بما ينفع الناس﴾ يعني ركوبها، والحمل عليها في التجارات لطلب الأرباح، والآية في ذلك أن الله لو لم يقو قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض في منافعهم، وأيضاً فإن الله خص كل قطر من أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل، فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن وخوف البحر وغير ذلك فالحامل ينتفع لأنه يربح، والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ أي المطر الذي به حياة العالم وإخراج النبات والأرزاق ﴿فأحيا به الأرض﴾ أي أظهر نضارتها وحسنها ﴿بعد موتها﴾ أي بعد يبسها وجذبها، سماه موتاً مجازاً، والآية في هذين الله جعله سبباً لإحياء الجميع من حيوان ونبات ونزوله عند وقت الحاجة إليه بمقدار المنفعة وعند الاستسقاء والدعاء، وإنزاله بمكان دون مكان ﴿وبث فيها﴾ أي في الأرض ﴿من كل دابة﴾ قال ابن عباس: يريد كل ما دب على وجه الأرض من جميع الخلق من الناس وغيرهم، والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم مع ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة، والطبائع والأخلاق والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان، والبهائم والنشر، والظاهر أن قوله ﴿بث﴾ معطوف على

قوله فأحيا لأنها أمران متسبيان عن إنزال المطر، وقال في الكشف: ان الظاهر عطفه على أنزل، وقال أبو حيان: لا يصح عطفه على أنزل ولا على أحيا، والصواب أنه على حذف الموصوف أي وما بث، وفيه زيادة فائدة وهو جعله آية مستقلة وحذف الموصول شائع في كلام العرب انتهى.

﴿وتصريف الرياح﴾ أي إرسالها عقيماً وملقحة وصرأً ونصرأً وهلاكاً وحرارة وباردة ولينة وعاصفة، وقيل تصريفها في مهاها جنوباً وشمالاً ودبوراً وقبولاً وصبأً ونكباء، وهي التي تأتي بين مهبي ريحين، وقيل تصريفها أن تأتي السفن الكبار بقدر ما تحملها والصغار كذلك، ولا مانع من حمل التصريف على جميع ما ذكر، وعن أبي بن كعب: كل شيء في القرآن من الرياح فهي رحمة وكل شيء من الريح فهي عذاب، وقد ورد في النهي عن سب الريح وأوصافها أحاديث كثيرة لا تعلق لها بالآية، والآية في الريح انه جسم لطيف لا يمسك ولا يرى وهو مع ذلك في غاية القوة بحيث يقلع الشجر والصخر، ويخرب البنيان العظيم، وهو مع ذلك حياة الوجود فلو أمسك طرفه عين لمات كل ذي روح وأنتن ما على وجه الأرض.

﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي الغيم المذل، سمي سحاباً لانسحابه في الهواء وسحبت ذيلي سحباً وتسحب فلان على فلان اجتراً، والمسخر المذل، وسخره بعثه من مكان إلى آخر، وقيل تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده، وفيه آيات أخر ففي هذه الأنواع الثمانية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار وأنه الواحد في ملكه فلا شريك له ولا نظير، وهو المراد بقوله وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴿لآيات لقوم يعقلون﴾ أي دلالات على وحدانيته سبحانه لمن ينظر ببصره ويتفكر بعقله، وإنما جمع آيات لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً مدبراً مختاراً.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله﴾ إظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لتربية المهابة وتفخيم المضاف، وإبانة كمال قبح ما ارتكبه.

ولما فرغ سبحانه من الدليل على وحدانيته، أخبر أن مع هذا الدليل الظاهر المفيد لعظيم سلطانه وجليل قدرته وتفرده بالخلق، قد وجد في الناس من يتخذ معه سبحانه نداً يعبدونه من الأصنام كذا قيل، وقد تقدم تفسير الأنداد مع أن هؤلاء الكفار لم يقتصروا على مجرد عبادة الأنداد، بل أحبوا حباً عظيماً، وأفرطوا في ذلك إفراطاً بالغاً حتى صار حبهم لهذه الأوثان ونحوها متمكناً في صدورهم كتمكن حب المؤمنين لله سبحانه، ويجوز أن يكون المراد كحبهم لله أي عبدة الأوثان، قاله الزجاج وابن كيسان، ويجوز أن يكون مبنياً للمفعول ومعناه كما يحب الله ويعظم، والأول أولى لقوله:

﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ فإنه استدراك لما يفيد التشبيه من التساوي أي أن حب المؤمنين لله أشد من حب الكفار للأنداد، لأن المؤمنين يخصون الله سبحانه بالعبادة والدعاء، والكفار لا يخصون أصنامهم بذلك بل يشركون الله معهم ويعترفون بأنهم إنما يعبدون أصنامهم ليقرّبوهم إلى الله، ويمكن أن يجعل هذه الجملة دليلاً على الثاني لأن المؤمنين إذا كانوا أشد حباً لله لم يكن حب الكفار للأنداد كحب المؤمنين لله، وقيل المراد بالأنداد هنا الرؤساء والكبراء أي يطيعونهم في معاصي الله، ويقوى هذا الضمير في قوله ﴿يحبونهم﴾ فإنه لمن يعقل، ويقويه أيضاً قوله سبحانه عقب ذلك ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا﴾ الآية،

والحب نقيض البغض والمحبة والإرادة وقيل في معنى الآية غير ذلك وإيثار إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتفخيم الحب والاشعار بعلته.

﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب﴾ قرأ أهل مكة بالياء وأهل الشام بالفوقية، والمعنى على الأولى لو يرى الذين ظلموا في الدنيا عذاب الآخرة لعلموا حين يرونه ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ قاله أبو عبيدة، قال النحاس: وهذا القول هو الذي عليه أهل التفسير انتهى، وعلى هذا فالرؤية هي البصرية لا القلبية، وروي عن محمد بن يزيد قال: هذا التفسير الذي جاء به أبو عبيدة بعيد، وليست عبارته فيه بالجيدة لأنه يقدر ولو يرى الذين ظلموا العذاب، فكأنه يجعله مشكوكاً فيه وقد أوجبه الله تعالى، ولكن التقدير وهو الأحسن ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله، ويرى بمعنى يعلم أي لو يعلمون حقيقة قوة الله وشدة عذابه، قال: وجواب لو محذوف أي لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة كما حذف في قوله ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾.

ومن قرأ بالفوقية فالتقدير ولو ترى يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذين ظلموا في حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوة لله جميعاً، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم علم ذلك؛ ولكن خوطب بهذا الخطاب؛ والمراد به أمته، وقيل ﴿أن﴾ في موضع نصب مفعول لأجله أي لأن القوة لله، ودخلت إذ وهي لما مضى في إثبات هذه المستقبلات تقريباً للأمر وتصحيحاً لوقوعه، وهو مما يتكرر في القرآن كثيراً، وجميع في الأصل فعيل من الجمع وكأنه اسم جمع فلذلك يتبع تارة بالمفرد، قال تعالى: ﴿نحن جمع منتصر﴾ وتارة بالجمع قال تعالى ﴿جميع لدينا محضرون﴾ وينتصب حالاً ويؤكد بمعنى كل، ويدل على الشمول كدلالة كل، ولا دلالة له على الاجتماع في الزمان.

﴿وأن الله شديد العذاب﴾ عطف على ما قبله وفائدته تهويل الخطب وتفضيع الأمر، فإن اختصاص القوة به تعالى لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ
 الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوَآتُ لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا
 كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾
 يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا يَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
 لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾

﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب﴾ أي تنزه وتبعد
 معناه أن السادة والرؤساء من مشركي الإنس تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر
 ورأوا يعني التابعين والمتبوعين العذاب، قيل عند المعاناة في الدنيا، وقيل عند
 العرض والمساءلة في الآخرة، ويمكن أن يقال فيها جميعاً إذ لا مانع من ذلك،
 وقيل هم الشياطين يتبرؤون من الإنس وبه قال قتادة، والقول هو الأول، وقد
 احتج جمع من أهل العلم بهذه الآية على ذم التقليد وهو مذكور في موطنه
 ﴿وتقطعت بهم﴾ أي عنهم ﴿الأسباب﴾ بسبب كفرهم جمع سبب، وأصله في
 اللغة الحبل الذي يشد به الشيء ويجذب به، ثم جعل كل ما جر شيئاً سبباً
 فهي مجاز هنا، والمراد بها الوصل التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من الرحمة
 وغيرها، وقيل هي الأعمال، وقال ابن عباس: هي المنازل، وقال أيضاً: هي
 الأرحام وقال المودة، وقيل العهود والحلف.

﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة﴾ أي رجعة إلى الدنيا، الكرة الرجعة
 والعودة إلى حال قد كانت، و«لو» هنا بمعنى التمني كأنه قيل ليت لنا كرة،
 ولهذا وقعت الفاء في الجواب، والمعنى أن الأتباع قالوا لو رددنا إلى الدنيا حتى
 نعمل صالحاً ﴿فتبرأ منهم﴾ أي المتبوعين ﴿كما تبرؤا منا﴾ اليوم وهو جواب
 التمني ﴿كذلك﴾ أي كما أراهم الله العذاب ﴿يريههم الله أعمالهم﴾ السيئة،
 وهذه الرؤية إن كانت البصرية فقله ﴿حسرات عليهم﴾ منتصب على الحال،

وإن كانت القلبية فهو المفعول الثالث، والمعنى أن أعمالهم الفاسدة يريهم الله إياها فتكون عليهم حسرات وندامات أو يريهم الله الأعمال الصالحة التي أوجبها عليهم فتركوها فيكون ذلك حسرة عليهم، والحسرة الغم على ما فاته وشدة الندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه ﴿وما هم بخارجين من النار﴾ فيه دليل على خلود الكفار في النار، وظاهر هذا التركيب يفيد الاختصاص، وجعله الزمخشري للتقوية لغرض له يرجع إلى المذهب والبحث في هذا يطول، عن ثابت بن معبد قال: ما زال أهل النار يأملون الخروج منها حتى نزلت هذه الآية.

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ قيل إنها نزلت في ثقيف وخزاعة وعامر بن صعصعة وبني مدلج فيما حرموه على أنفسهم من الحرث والأنعام، حكاه القرطبي في تفسيره، وهذا هو المشهور بخلاف ما جرى عليه القاضي من أنها نزلت في قوم حرموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس فإنه مرجوح، قاله الكرخي، ولكن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسمي الحلال حلالاً لانحلال عقدة الحظر عنه، والطيب هنا هو المستلذ كما قاله الشافعي وغيره، وقال مالك وغيره: هو الحلال فيكون تأكيداً لقوله حلالاً.

«ومن» في مما للتبعض للقطع بأن في الأرض ما هو حرام كالحجارة لا يؤكل أصلاً، وليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال حلالاً والأمر مستعمل في كل من الوجوب والندب والإباحة، الأول إذا كان لقيام البنية، والثاني كالأكل مع الضيف، والثالث كغير ما ذكر، وقيل معنى حلالاً، مأذوناً فيه شرعاً، والطيب الحلال وإن لم يستلذ كالأدوية، وفي هذه الآية دليل على أن كل ما لم يرد فيه نص أو ظاهر من الأعيان الموجودة في الأرض فأصله الحل حتى يرد دليل يقتضي تحريمه وأوضح دلالة على ذلك من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾.

﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ جمع خطوة بالفتح والضم وهي بالفتح المرة وبالضمة لما بين القدمين، وقيل إنها لغتان وقرئ خطوات بضم الخاء والطاء والهمز على الواو، قال الأخفش: وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطيئة من الخطأ لا من الخطو، والمعنى على قراءة الجمهور لا تقتفوا أثر الشيطان وطرقه وتزيينه وعمله، وكل ما لم يرد به الشرع فهو منسوب إلى الشيطان، وقيل هي النذور في المعاصي، وقيل المحقرات من الذنوب. والأولى التعميم وعدم التخصيص بفرد أو نوع، قال ابن عباس: ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان، وقال عكرمة: هي نزعات الشيطان، وعن سعيد بن جبير قال: هي تزيين الشيطان، وقال قتادة: كل معصية لله فهي من خطواته، وعن ابن عباس: ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من الخطوات وكفارته كفارة يمين.

﴿إنه لكم عدو﴾ تعليل للنهي عن الاتباع ﴿مين﴾ أي ظاهر العداوة ومثله قوله تعالى ﴿إنه عدو مضل مين﴾ وقوله ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ وقد أظهر الله عداوته بآية السجود لآدم^(١).

(١) وهذا غاية في التحذير، ومثله في القرآن كثير. وقال عبد الله بن عمر: إن إبليس مَوْثَقٌ في الأرض السفلى، فإذا تحرك فإن كل شرٍّ في الأرض بين آثنين فصاعداً من تحركه. وخرَجَ الترمذي من حديث أبي مالك الأشعري وفيه: «وَأَمَرَكُم أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنْ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سَرَاعاً حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حَصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يَحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ» الحديث. وقال فيه: (حديث حسن صحيح غريب).

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كُنَّا آبَاءَهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

ثم بين عداوته ما هي فقال ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ قيل استعير الأمر لتزيينه
وبعته لهم على الشر تسفيها لرأيهم، وتحقيراً لشأنهم قاله البيضاوي، وقيل لا
حاجة إلى صرف الأمر عن ظاهره لأن حقيقته طلب الفعل، ولا ريب أن
الشیطان يطلب السوء والفحشاء ممن يريد إغواءه ﴿بالسوء﴾ سمي السوء سوءاً
لأنه يسوء صاحبه بسوء عاقبته، وهو مصدر ساءه يسؤه سوءاً ومساءة إذا أحزنه
﴿والفحشاء﴾ أصله سوء المنظر ثم استعمل فيما يقبح من المعاني، وقيل السوء
القبیح والفحشاء التجاوز للحد في القبح، وقيل السوء ما لا حد فيه،
والفحشاء ما فيه الحد قاله ابن عباس، وقيل الفحشاء الزنا، وقيل هو البخل
وقيل إن كل ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي بأن تقولوا، قال ابن جرير
الطبري: يريد ما حرموا من البحيرة والسائبة ونحوهما مما جعلوه شرعاً. وقيل
هو قولهم هذا حلال وهذا حرام بغير علم، والظاهر أنه يصدق على كل ما قيل
في الشرع بغير علم فيتناول ذلك جميع المذاهب الفاسدة التي لم يأذن فيها الله،
ولم ترد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمر الشيطان وسوسته
عبارة عن هذه الخواطر التي يجدها الإنسان في قلبه، وفاعل هذه الخواطر هو
الله تعالى، وإنما الشيطان كالعرض، وقد صح عنه ﷺ أن الشيطان يجري من
ابن آدم مجرى الدم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾
الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ راجع إلى الناس في قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لأن الكفار
منهم، وهم المقصودون هنا فعدل عن المخاطبة إلى الغيبة على طريق الالتفات،

مبالغة في بيان ضلالهم، كأنه يقول للعقلاء انظروا إلى هؤلاء الحمقى ماذا يقولون، وقيل مشركو العرب خاصة، وقد سبق ذكرهم في قوله ﴿من يتخذ من دون الله أنداداً﴾ ولفظ أبي السعود نزلت في المشركين أمروا باتباع القرآن وسائر ما أنزل الله من الحجج الظاهرة والبيّنات الباهرة فجنحوا للتقليد انتهى، وقيل نزلت في اليهود، وعلى هذا فالآية مستأنفة، وألفينا معناها وجدنا وفي هذه الآية من الذم للمقلدين والنداء بجهلهم الفاحش، واعتقادهم الفاسد ما لا يقادر قدره حيث عارضوا الدلالة بالتقليد.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾ الآية يعني من التحريم والتحليل، وفي ذلك دليل على قبح التقليد والمنع منه، والبحث في ذلك يطول.

قال الرازي في هذه الآية تقرير هذا الجواب من وجوه.

(أحدها) أنه يقال للمقلد هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الإنسان أن يعلم كونه محقاً أم لا، فإن اعترفت بذلك لم تعلم جواز تقليده إلا بعد أن تعرف كونه محقاً فكيف عرفت أنه محق، وإن عرفت بتقليد آخر لزم التسلسل، وإن عرفته بالعقل فذلك كاف فلا حاجة إلى التقليد، وإن قلت ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقاً، فإذا قد جوزت تقليده وإن كان مبطلاً، فإذا أنت على تقليدك لا تعلم أنك محق أو مبطل.

(وثانيها) هب أن ذلك المتقدم كان عالماً بهذا الشيء إلا أنا لو قدرنا أن ذلك المتقدم ما كان عالماً بذلك الشيء قط وما اختار فيه البتة مذهباً، فأنت ماذا كنت تعمل، فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه كان لا بد من العدول إلى النظر فكذا ههنا.

(وثالثها) أنك إذا قلدت من قبلك فذلك المتقدم كيف عرفته، أعرفته بتقليد أم لا بتقليد، فإن عرفته بتقليد لزم إما الدور وإما التسلسل، وإن عرفته لا بتقليد بل بدليل، فإذا أوجبت تقليد ذلك المتقدم وجب أن تطلب العلم

بالدليل لا بالتقليد، لأنك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل، مع أن ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد كنت مخالفاً له، فثبت أن القول بالتقليد يفضي ثبوته إلى نفيه فيكون باطلاً.

وإنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان تنبيهاً على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل، إنتهى كلامه.

وكم من آية بينة واثرة جلي تدل على ذم التقليد والمقلدين، ولكن مفاصد الجهل والتعصب كثيرة لا يأتي عليها الحصر، وقد أفرده الشوكاني بمؤلف مستقل سماه القول المفيد في حكم التقليد، واستوفى الكلام فيه في أدب الطلب ومنتهى الارب، وألف الحافظ الواحد المتكلم ابن القيم في ذلك كتاباً ضخماً سماه أعلام الموقعين عن رب العالمين.

قال ابن عباس: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته فقال له رافع بن خارجه ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ﷺ ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخيراً منا، فأنزل الله في ذلك هذه الآية:

﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ﴾ الهمة للإنكار، والواو إما للحال أو للعطف، وجواب لو محذوف قاله أبو البقاء وتقديره لا تبعوهم، والذي جرى عليه أبو السعود أن لو في مثل هذا التركيب لا تحتاج إلى جواب لأن القصد منها تعميم الأحوال ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يعلمون ﴿شَيْئاً﴾ من أمر الدين، وهذا لفظ عام ومعناه خاص لأنهم كانوا يعقلون كثيراً من أمور الدنيا فهذا يدل على جواز ذكر العام مع أن المراد به خاص ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الصواب وكيفية اكتسابه، قال البيضاوي: وهو دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر والاجتهاد.

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى
 فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
 وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
 وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا
 إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾

ثم ضرب لهم مثلاً فقال ﴿ومثل الذين كفروا﴾ في اتباعهم آباءهم
 وتقليدهم لهم وفي ذلك نهاية الزجر لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقهم في
 التقليد ﴿كمثل الذي ينطق بما لا يسمع﴾ فيه تشبيه واعظ الكافرين وداعهم
 وهو محمد ﷺ بالراعي الذي ينطق بالغنم أو الإبل فلا تسمع ﴿إلا دعاء
 ونداء﴾ ولا تفهم ما يقول، هكذا فسر الزجاج والفراء وسيبويه، وبه قال
 جماعة من السلف، قال سيبويه: لم يشبهوا بالناعق إنما شبهوا بالمنعوق به،
 والمعنى مثلك يا محمد ﷺ ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من
 البهائم التي لا تفهم، فحذف لدلالة المعنى عليه، وقال قطرب: المعنى مثل
 الذين كفروا في دعائهم ما لا يفهم يعني الاصنام كمثل الراعي إذا نطق بغنمه
 وهو لا يدري أين هي، وبه قال ابن جرير الطبري، وقال ابن زيد: المعنى مثل
 الذين كفروا في دعائهم الآلهة الجماد كمثل الصائح في جوف الليل فيجيبه
 الصدى فهو يصيح بما لا يسمع ويحبيه ما لا حقيقة فيه، فهذه أربعة أقوال.

وقال البيضاوي: المعنى أن الكفرة لانهماكهم في التقليد لا يلقون
 أذهانهم إلى ما يتلى عليهم فهم في ذلك كالبهائم التي ينطق عليها فتسمع
 الصوت ولا تعرف مغزاه، وتحس بالنداء ولا تفهم معناه.

وقد اختلف الناس في هذه الآية إختلافاً واضطربوا اضطراباً شديداً.
 والذي لخصناه أقوال مهذبة لكل قول منها تقدير، ذكره السمين، والنعيق زجر

الغنم والصياح بها. والعرب تضرب المثل براعي الغنم في الجهل ويقولون أجهل من راعي ضان، قال ابن عباس: مثل الذين كفروا مثل البقر والحمار والشاة إن قلت لبعضها كلاماً لم يعلم ما تقول غير أنه يسمع صوتك، وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وعظته لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك، ونحوه قال مجاهد والدعاء والنداء بمعنى واحد وسوغ العطف اختلاف اللفظ.

﴿صم بكم عمي﴾ هذا نتيجة ما قبله، ورفع على الذم أي هم صم عن سماع الحق ودعاء الرسول ﴿بكم﴾ عن النطق بالحق ﴿عمي﴾ عن طريق الهدى ﴿فهم لا يعقلون﴾ أي بالعقل للإخلال بالنظر نتيجة للنتيجة، قيل المراد به العقل الكسبي، لأن العقل الطبيعي كان حاصلًا فيهم، قال عطاء: هم اليهود الذين أنزل الله فيهم ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ إلى قوله فما أصبرهم على النار.

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ هذا تأكيد للأمر الأول أعني قوله: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾ وإنما خص المؤمنين هنا لكونهم أفضل أنواع الناس، قيل والمراد بالأكل الانتفاع وقيل المراد به الأكل المعتاد وهو الظاهر، وقيل أن الأمر في كلوا قد يكون للوجوب كالأكل لحفظ النفس ودفع الضر عنها، وقد يكون للندب كالأكل مع الضيف، وقد يكون للإباحة إذا خلا من هذه العوارض، وعن عمر بن عبد العزيز أن المراد بما في الآية طيب الكسب لا طيب الطعام، وقال الضحاك: أنها حلال الرزق.

وأخرج أحمد ومسلم والترمذي وابن المنذر وابن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبل إلا طيباً وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ إني بما

تعملون عليهم ﴿ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له» وقيل الطيب المستلذ من الطعام فلعل قوماً تنزهوا عن أكل المستلذ من الطعام فأباح الله لهم ذلك.

﴿واشكروا لله﴾ على ما رزقكم من نعمه وأحل لكم، وفيه التفات من ضمير المتكلم إلى الغيبة إذ لو جرى على الأسلوب الأول لقال واشكرونا، والأمر فيه للوجوب فقط ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي تخصونه بالعبادة وتقرون بأن إلهكم لا غيره كما يفيد تقديم المفعول، وقيل ان كنتم عارفين بالله وبنعمته فاشكروه عليها، والأول أولى.

﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ لما أمرنا الله تعالى في الآية التي تقدمت بأكل الطيبات التي هي الحلالات، بين في هذه الآية أنواعاً من المحرمات فقال ﴿إنما﴾ وهي كلمة موضوعة للحصر تثبت ما تناوله الخطاب وتنفي ما عداه، وقد حصرت ههنا التحريم في الأمور المذكورة بعدها أي ما حرم عليكم إلا الميتة وهي كل ما فارقه الروح من غير ذكاة.

وقد خصص هذا العموم بمثل حديث «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان فالجراد والحوت، وأما الدمان فالطحال والكبد» أخرجه أحمد وابن ماجه والدارقطني والحاكم وابن مردويه عن ابن عمر، ومثل حديث جابر في العنبر الثابت في الصحيحين مع قوله تعالى ﴿أحل لكم صيد البحر﴾ فالمراد بالميتة هنا ميتة البر لا ميتة البحر.

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز أكل جميع حيوانات البحر حيها

وميتها، وقال بعض أهل العلم أنه يحرم من حيوانات البحر ما يحرم شبهه في البر، وتوقف ابن حبيب في خنزير الماء، قال ابن القاسم: أنا أتقيه ولا أراه حراماً، والدم هو الجاري السائل وكانت العرب تجعل الدم في المصارين ثم تشويه وتأكله، فحرمه الله تعالى.

وقد اتفق العلماء على أن الدم حرام، وفي الآية الأخرى ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ فيحمل المطلق على المقيد لأن ما خلط باللحم غير محرم، قال القرطبي بالإجماع، وقد روت عائشة أنها كانت تطبخ اللحم فتعلو الصفرة على البرمة من الدم، فيأكل ذلك النبي ﷺ ولا ينكره.

وأما لحم الخنزير فظاهر هذه الآية والآية الأخرى أعني قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ أن المحرم إنما هو اللحم فقط، وقد أجمعت الأمة على تحريم شحمه كما حكاه القرطبي في تفسيره، وقد ذكرت جماعة من أهل العلم أن اللحم يدخل تحته الشحم، وحكى القرطبي الإجماع أيضاً على أن جملة الخنزير محرمة إلا الشعر فإنه تجوز الخرازة به، وقيل: أراد بلحمه جميع أجزائه، وإنما خص اللحم بالذكر لأنه المقصود لذاته بالأكل، واختلفوا في نجاسته فقال الجمهور أنه نجس وقال مالك أنه طاهر وكذا كل حيوان عنده، لأن علة الطهارة هي الحياة، وللشافعي قولان في ولوغ الخنزير (الجديد) أنه كالكلب (والقديم) يكفي فيه غسلة واحدة.

والآية قصر قلب للرد على من استحل هذه الأربعة وحرم الحلال غيرها كالسوائب ومع ذلك هو نسبي أي ما حرم عليكم إلا هذه الأربعة لا غيرها من البحيرة وما بعدها في الآية وإن كان حرم غيرها من الأمور المذكورة في أول المائدة.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ يعني ما ذبح للأصنام والطواغيت وصيح في

ذبحه لغير الله، وأصل الإهلال رفع الصوت يقال أهل بكذا أي صرخ ورفع صوته ومنه إهلال الصبي واستهلاله، وهو صياحه عند ولادته، ومنه الهلال لأنه يصرخ عند رؤيته، والمراد هنا ما ذكر عليه اسم غير الله تعالى كاللات والعزى إذا كان الذابح وثنياً، والنار إذا كان الذابح مجوسياً. ولا خلاف في تحريم هذا وأمثاله.

ومثله ما يقع من المعتقدين للأموات من الذبح على قبورهم، فإنه مما أهل به لغير الله، ولا فرق بينه وبين الذبح للوثن، قال مجاهد: يعني ما ذبح لغير الله، أخرجه ابن أبي حاتم، وفي تفسير النيسابوري للنظام قال العلماء لو أن مسلماً ذبح ذبيحة وقصد بذبحها التقرب إلى غير الله صار مرتداً، وذبيحته ذبيحة مرتد انتهى.

وقال صاحب الروض: إن المسلم إذا ذبح للنبي ﷺ كفر وانتهى، وهذا القائل من الشافعية.

قال الشوكاني: وإذا كان الذبح لسيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كفراً عنده فكيف بالذبح لسائر الأموات، انتهى.

وقيل أن المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التي كانوا يذبحونها لأصنامهم كما تقدم وأجازوا ذبيحة النصراني إذا سمي عليها باسم المسيح، وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبي وسعيد بن المسيب لعموم قوله تعالى ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ وقال مالك والشافعي وأبو حنيفة: لا يحل ذلك، والحجة فيه أنهم إذا ذبحوا على اسم المسيح فقد أهلوا به لغير الله فوجب أن يجرم، ورؤي عن علي أنه قال: إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا وإذا لم تسمعوهم فكلوا، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون.

﴿فمن اضطر﴾ إلى شيء من هذه المحرمات، والمضطر هو المكلف بالشيء الملجأ إليه المكره عليه والمراد هنا من خاف التلف، والمضطر إما بإكراه فيبيح ذلك إلى زوال الإكراه، أو يجوع في مخمصة، فإن كانت دائمة فلا خلاف في جواز الشبع منها، وإن كانت نادرة فقال الشافعي: يأكل ما يسد به الرمق، وبه قال أبو حنيفة أو يأكل قدر الشبع، وبه قال مالك، فأكل ﴿غير باغ﴾ بالاستئثار على مضطر آخر أو على الوالي وأصل البغي الفساد ﴿ولا عاد﴾ اسم فاعل أصله من العدوان وهو الظلم ومجاوزة الحد، والمراد بالباغي من يأكل فوق حاجته، والعادي من يأكل هذه المحرمات وهو يجد عنها مندوحة وبلغة، وقال ابن عباس: باغ في الميتة وعاد في الأكل وقيل غير باغ على المسلمين ولا معتد عليهم، فيدخل في الباغي والعادي قاطع السبيل والخارج على السلطان والمفارق للجماعة والأئمة، والمفسد في الأرض وقاطع الرحم، وقيل المراد غير باغ على مضطر آخر ولا عاد لسد الجوعة، قاله سعيد بن جبير.

﴿فلا إثم عليه﴾ في تناوله ولا حرج، ومن أكله وهو غير مضطر فقد بغى واعتدى ﴿إن الله غفور﴾ لمن أكل من الحرام ﴿رحيم﴾ به إذ أحل له الحرام في الاضطرار^(١).

(١) روى أبو داود قال حدثنا موسى بن إسماعيل قال حدثنا حماد عن سَمَاك بن حرب عن جابر بن سَمُرَةَ أن رجلاً نزل الحَرَّةَ ومعه أهله وولده، فقال رجل: إن ناقة لي ضَلَّتْ فإن وجدتْها فأمسكها؛ فوجدوها فلم يجد صاحبها فمرضت، فقالت امرأته: انحرها، فأبى فَنَفَقَتْ. فقالت: اسلخها حتى نُقَدَّ لحمها وشحمها ونأكله؛ فقال: حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه فسأله، فقال: «هل عندك غنًى يغنيك» قال لا، قال: «فكلوها» قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر؛ فقال: أفلا كنت نحررتها! فقال: أستحييت منك.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
 أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا
 يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى
 وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ المراد بهذه الآية علماء اليهود لأنهم كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد ﷺ ونعته ووقت نبوته، هذا قول المفسرين، وقال المتكلمون بل كانوا يكتُمون التأويل، والمعنى يكتُمون معاني ما أنزل الله من الكتاب، والأول أولى ﴿وَيَشْتُرُونَ بِهِ﴾ أي بالكتمان أو بما أنزل الله من الكتاب، والأول أظهر، والاشتراء هنا الاستبدال، وقد تقدم تحقيقه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ سماه قليلاً لانقطاع مدته وسوء عاقبته، وهذا السبب وإن كان خاصاً فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهو يشمل كل من كتم ما شرعه الله وأخذ عليه الرشا.

﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ ذكر البطون دلالة وتأكيذاً على أن هذا الأكل حقيقة، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل أكل فلان أرضي ونحوه، وقال في الكشف معناه ملء بطونهم ظرف متعلق بما قبله لا حال مقدرة كما قال الكواشي ﴿إِلَّا النَّارَ﴾ استثناء مفرغ أي أنه يوجب عليهم عذاب النار فسمى ما أكلوه ناراً لأنه يؤول إليها، هكذا قال أكثر المفسرين وهو من مجاز الكلام، وقيل إنهم يعاقبون على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة ومثله قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾.

﴿وَلَا يَكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي كلام رحمة وما يسرهم بل يكلمهم بالتوبيخ، وعدم تكليم الله إياهم كناية عن حلول غضب الله عليهم وعدم الرضا عنهم، يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه، وقال ابن جرير

الطبري المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه ولا بما يكرهونه كقوله تعالى ﴿إخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ وإنما كان عدم تكليمهم في معرض التهديد لأن يوم القيامة هو اليوم الذي يكلم الله فيه كل الخلائق بلا واسطة فيظهر عند كلامه السرور في أوليائه وضده في أعدائه.

﴿ولا يزكّهم﴾ لا يثنى عليهم خيراً، قاله الزجاج وقيل معناه لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم أو لا ينزلهم منازل الأزكياء، وقيل لا يطهرهم من دنس الذنوب ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي وجيع يصل ألمه إلى قلوبهم وهو النار.

﴿أولئك﴾ أي الموصوفون بالصفات الستة من قوله ﴿إن الذين يكتُمون﴾ إلى هنا، وهذا بيان لحالهم في الدنيا بعد أن بين حالهم في الآخرة ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة﴾ أي اختاروا الضلالة على الهدى واختاروا العذاب على المغفرة، لأنهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه وأخفوه، وكان في إظهاره الهدى والمغفرة. وفي كتمانهم الضلالة والعذاب ﴿فما أصبرهم على النار﴾ حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، وقد تقدم تحقيق معناه

وذهب الجمهور ومنهم الحسن ومجاهد إلى أن معناه التعجب، والمراد تعجب المخلوقين من حال هؤلاء الذين باشروا الأسباب الموجبة لعذاب النار، فكأنهم بهذه المباشرة للأسباب صبروا على العقوبة في نار جهنم، وحكى الزجاج أن المعنى ما أبقاهم على النار، من قولهم ما أصبر فلاناً على الحبس أي ما أبقاه فيه، وقيل المعنى ما أقل جزعهم من النار، فجعل قلة الجزع صبراً، وقال الكسائي وقطرب أي ما أدومهم على عمل أهل النار، وقيل «ما» استفهامية ومعناه التوبيخ أي شيء صبرهم على عمل أهل النار، وهذا من مجاز الكلام، وبه قال ابن عباس والسدي وعطاء وأبو عبيدة.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ
 بَعِيدٍ ﴿٧٦﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي
 الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ
 الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
 وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٧٧﴾

﴿ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ أي ذلك الأمر وهو العذاب، قاله الزجاج، وقال الأخفش: ان خبر اسم الإشارة محذوف والتقدير ذلك معلوم والمراد بالكتاب هنا القرآن أو التوراة والحق الصدق، وقيل الحجة ﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ يعني في معانيه وتأويله فحرفوه وبدلوه، وقيل آمنوا ببعض وكفروا ببعض، والمراد بالكتاب قيل التوراة فادعى النصارى أن فيها صفة عيسى وأنكرهم اليهود، وقيل خالفوا ما في التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم واختلفوا فيها، وقيل المراد القرآن والمختلفون هم كفار قريش، يقول بعضهم هو سحر وكهانة، وبعضهم يقول هو أساطير الأولين، وبعضهم يقول غير ذلك، وقيل المختلفون هم اليهود والنصارى ﴿لفي شقاق﴾ أي خلاف ومنازعة ﴿بعيد﴾ عن الحق وقد تقدم معنى الشقاق.

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ قيل أن هذه الآية نزلت للرد على اليهود والنصارى لما أكثروا الكلام في شأن القبلة عند تحويل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة، وقيل أن سبب نزولها أنه سأل رسول الله ﷺ سائل عن الإيمان فتلا هذه الآية حتى فرغ منها ثم سألها أيضاً فتلاها ثم سألها فتلاها قال وإذا عملت بحسنة أحبها قلبك، وإذا عملت بسيئة أبغضها قلبك»، أخرجه ابن أبي حاتم وصححه عن أبي ذر .

قل أشار سبحانه بذكر المشرق إلى قبلة النصارى لأنهم يستقبلون مطلع الشمس وأشار بذكر المغرب إلى قبلة اليهود لأنهم يستقبلون بيت المقدس، وهو في جهة الغرب منهم إذ ذاك وزعم كل طائفة منهم أن البر في ذلك، فأخبر الله تعالى أن البر ليس فيما زعموا ولكنه فيما بينه في هذه الآية، وقيل المخاطب هم المسلمون وقيل هو عام لهم ولأهل الكتابين أي ليس البر مقصوراً على أمر القبلة.

والبر اسم جامع لكل طاعة وعمل الخير، ويجوز أن يكون بمعنى البار، ويطلق المصدر على إسم الفاعل كثيراً ومنه في التنزيل ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي غائراً وهذا اختيار أبي عبيدة، والمشرق جهة شروق الشمس، والمغرب جهة غروبها، وهذا مشكل بما تقدم من أن قبلة اليهود إنما هي بيت المقدس، وهو بالنسبة إلى المدينة شمال لا مغرب^(١) لأن من استقبل بيت المقدس يكون فيها ظهره مقابلاً لميزاب الكعبة ووجهه مقابلاً لبيت المقدس الذي هو من جهة الشام وكذا بالنسبة لمكة فلم يظهر المراد في هذه الآية، وقد تنبه أبو السعود لهذا وأجاب عنه بما لا يجدي شيئاً فليتأمل فإني لم أر من حقق المقام والله أعلم.

﴿ولكن البر﴾ أي لكن ذا البر، وقرئ البار أو بر ﴿من آمن بالله﴾ والأخير أوفق وأحسن، والبر اسم جامع لكل طاعة وأعمال الخير مما لا يختلف باختلاف الشرائع وما يختلف باختلافها، والمراد بالبر هنا الإيمان والتقوى ﴿واليوم الآخر﴾ ذكر ذلك لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت ﴿والملائكة﴾ أي الإيمان بهم كلهم لأن اليهود قالوا إن جبريل عدونا ﴿والكتاب﴾ قيل أراد به القرآن وقيل جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قوله ﴿والنبيين﴾ يعني أجمع، وإنما خص الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها.

(١) إنما يأتي الإشكال على قول من فسر الآية بهذا القول، أما على قول الآخرين فلا إشكال.

﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ ضمير حبه راجع إلى المال، وقيل إلى الإيتاء المدلول عليه بقوله وأتى المال وقيل أنه راجع إلى الله سبحانه أي على حب الله، والمعنى على الأول أنه أعطى المال وهو يحبه ويشح به، ومنه قوله تعالى ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ وعلى الثاني أنه يجب إيتاء المال وتطيب به نفسه، وعلى الثالث أنه أعطى من تضمنته الآية في حب الله عز وجل لا لغرض آخر، وهو مثل قوله ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾.

عن ابن مسعود قال: يعطى وهو صحيح صحيح يأمل العيش ويخاف الفقر، وأخرج الحاكم عنه مرفوعاً مثله، وعن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم قال «أن تصدق وأنت صحيح صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان» أخرجه الشيخان^(١).

﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ يعنى أهل قرابة المعطي وقدم ذوي القربى لكون دفع المال إليهم صدقة وصلة إذا كانوا فقراء، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة» أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه والحاكم والبيهقي في سننه من حديث سلمان بن عامر الضبي^(٢).

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث زينب امرأة ابن مسعود أنها سألت رسول الله هل تجزى عنها من الصدقة النفقة على زوجها وأيتام في حجرها فقال: «لك أجران أجر الصدقة وأجر القرابة»، وأخرج الطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه من حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

(١) مسلم / ١٠٣٢ - البخاري / ٧٥٧.

(٢) أحمد / ٤ - ٧، ١٨، ٢١٤.

﴿واليتامى﴾ أي وهكذا يتامى المحاويج الفقراء أولى بالصدقة من الفقراء الذين ليسوا يتامى لعدم قدرتهم على الكسب، واليتيم هو الذي لا أب له مع الصغر ﴿والمساكين﴾ جمع مسكين، والمساكين الساكن إلى ما في أيدي الناس لكونه لا يجد شيئاً ﴿وابن السبيل﴾ المسافر المنقطع، وجعل ابناً للسبيل لئلا يمتد له، وهو اسم جنس أو واحد أريد به الجمع.

﴿والسائلين﴾ يعني الطالبين للإحسان المستطعمين ولو كانوا أغنياء، عن علي بن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «للسائل حق ولو جاء على فرس»^(١) أخرجه أحمد وأبو داود، وعن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس»، أخرجه مالك في الموطأ، وعن أم نجيد قالت: قلت يا رسول الله المسكين ليقوم على بابي فلم أجد شيئاً أعطيه إياه قال «إن لم تجدي إلا ظلفاً محرقاً فدفعه إليه في يده»، أخرجه أبو داود والترمذي وقال حديث صحيح، وفي رواية مالك في الموطأ عنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «ردوا المسكين ولو بظلف محرق».

﴿وفي الرقاب﴾ يعني المكاتبين وقيل هو فك النسيئة وعتق الرقبة وفداء الأسارى أي دفعه في فكها أي لأجله وبسببه ﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ المفروضة، فيه دليل على أن الإيتاء المتقدم هو صدقة التطوع لا صدقة الفريضة ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ الله أو الناس، قيل المراد بالعهد القيام بحدود الله والعمل بطاعته وقيل النذر ونحوه، وقيل الوفاء بالمواعيد والبر في الحلف وأداء الأمانات ﴿والصابرين في البأساء﴾ الشدة والفقر ﴿والضراء﴾ المرضى والزمانة، والبأساء والضراء اسمان بنيا على فعلاء ولا فعل لهما لأنها اسمان وليسا بنعت ونصب والصابرين على المدح وقيل على الإختصاص، ولم يعطف على ما قبله لمزيد شرف الصبر وفضيلته. قال أبو علي إذا ذكرت صفات للمدح

أو الذم وخولف الأعراب في بعضها فذلك تفنن ويسمى قطعاً، لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماع الذكر ومزيد اهتمام بشأنه.

قال الراغب: ولما كان الصبر من وجه مبدأ للفضائل ومن وجه جامعاً للفضائل إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ، غير إعرابه تنبيهاً على هذا المقصد، وهذا كلام حسن، فالآية جامعة لجميع الكمالات الإنسانية وهي صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس

﴿وحين البأس﴾ أي وقت الحرب وشدة القتال في سبيل الله وسمى الحرب بأساً لما فيه من الشدة.

﴿وأولئك الذين صدقوا﴾ وصفهم بالصدق في أمورهم والوفاء بها وإنهم كانوا جادين في الدين واتباع الحق، وتحري البر، حيث لم تغيرهم الأحوال، ولم تزلزلهم الأهوال، قال ربيع: صدقوا أي تكلموا بكلام الإيمان فكانت حقيقته العمل، قال: وكان الحسن يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل، فإن لم يكن مع القول عمل فلا شيء.

﴿وأولئك هم المتقون﴾ عن الكفر وسائر الرذائل وتكرير الإشارة لزيادة تنويه شأنهم، وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم، قال الواحدي: إن الواوات في هذه الأوصاف تدل على أن من شرائط البر استكمالها وجمعها، فمن قام بواحد منها لا يستحق الوصف بالبر، وقيل هذه خاصة الأنبياء لأن غيرهم لا تجتمع فيه تلك الصفات، وقيل هي عامة في جميع المؤمنين وهي الأولى إذ لا دليل على التخصيص.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ
بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَتْبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي
الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل﴾ كتب معناه فرض وأثبت، وهذا إخبار من الله سبحانه لعباده بأنه شرع لهم ذلك وقيل إن كتب هنا إشارة إلى ما جرى به القلم في اللوح المحفوظ، والخطاب للقاتلين وولاة الأمور، والقصاص أصله قص الأثر أي اتباعه ومنه القاص لأنه يتبع الآثار، وقص الشعر اتباع أثره، فكأن القاتل يسلك طريقاً من القتل يقص أثره فيها ومنه قوله تعالى ﴿فارتدا على آثارهما قصصاً﴾ وقيل أن القصاص مأخوذ من القص وهو القطع يقال قصصت ما بينهما أي قطعت، قيل نزلت في حين من أحياء العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتل فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام، وقيل نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف.

وقيل نزلت لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وآله وسلم من وجوب القتل بلا عفو، ووجوب العفو بلا قتل، والقتل تارة وأخذ الدية تارة؛ والقصاص فرض على القاتل للولي لا على الولي؛ والقصاص المساواة والمماثلة في القتل والدية والجراح فيقتل القاتل بمثل الذي قتل به، وهو قول مالك والشافعي؛ وقيل يقتل بالسيف وهو قول أبي حنيفة ورواية عن أحمد؛ والكلام في فروع هذه المسألة يطول؛ «وفي» في القتل للسبب كقوله ﷺ «أن امرأة دخلت النار في هرة أي بسببها» وفعل يطرد جمعاً لفعل بمعنى مفعول.

﴿الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن الحر لا يقتل بالعبد وهم الجمهور، وذهب أبو حنيفة وأصحابه والثوري وابن أبي ليلى وداود إلى أنه يقتل به إذا كان غير سيده، وأما سيده فلا يقتل به إجماعاً إلا ما روي عن النخعي، فليس مذهب أبي حنيفة ومن معه على الإطلاق ذكره الشوكاني في شرح المنتقى، قال القرطبي: وروي ذلك عن علي وابن مسعود وبه قال سعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وقتادة والحكم بن عتبة، واستدلوا بقوله تعالى ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس﴾ وأجاب الأولون عن هذا الاستدلال بأن قوله الحر بالحر والعبد بالعبد مفسر لقوله تعالى ﴿النفس بالنفس﴾ وقالوا أيضاً أن قوله ﴿وكتبنا عليهم فيها﴾ يفيد أن ذلك حكاية عما شرعه الله لبني إسرائيل في التوراة.

ومن جملة ما استدل به الآخرون قوله ﷺ «المسلمون تتكافأ دماؤهم» ويجاب عنه بأنه مجمل، والآية مبينة ولكنه يقال أن قوله تعالى ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد﴾ إنما أفاد بمنطوقه أن الحر يقتل بالحر والعبد يقتل بالعبد، وليس فيه ما يدل على أن الحر لا يقتل بالعبد إلا باعتبار المفهوم، فمن أخذ بمثل هذا المفهوم لزمه القول به هنا، ومن لم يأخذ بمثل هذا المفهوم لم يلزمه القول به هنا، والبحث في هذا محرر في علم الأصول.

وقد استدل بهذه الآية القائلون بأن المسلم يقتل بالكافر، وهم الكوفيون والثوري لأن الحر يتناول الكافر كما يتناول المسلم، وكذا العبد والأنثى يتناولان الكافر كما يتناولان المسلم، واستدلوا أيضاً بقوله تعالى ﴿أن النفس بالنفس﴾ لأن النفس تصدق على النفس الكافرة كما تصدق على النفس المسلمة، وذهب الجمهور إلى أنه لا يقتل المسلم بالكافر، واستدلوا بما ورد في السنة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «لا يقتل مسلم بكافر»^(١) وهو مبين لما يراد في

(١) أحمد ٧٩/١ - ١٧٨/٢ وبرواية لا يقتل مؤمن بكافر ١٨٠/٢.

الآيتين، وهذه الآية مع الأحاديث الواردة في ذلك حجة على أصحاب الرأي، والبحث في هذا يطول.

واستدل بهذه الآية القائلون بأن الذكر لا يقتل بالأنثى، وقرروا الدلالة على ذلك بمثل ما سبق إلا إذا سلم أولياء المرأة الزيادة على ديتها من دية الرجل، وبه قال مالك والشافعي وأحمد وإسحق والثوري وأبو ثور، وذهب الجمهور إلى أنه يقتل الرجل بالمرأة ولا زيادة وهو الحق، وقد بسط الشوكاني البحث في نيل الأوطار فليرجع إليه.

﴿فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾
 ﴿من﴾ هنا عبارة عن القاتل أو الجاني والمراد بالأخ المقتول أو الولي، والشيء عبارة عن الدم، والمعنى أن القاتل والجاني إذا عفي له من جهة المجنى عليه أو الولي دم أصابه منه على أن يأخذ منه شيئاً من الدية أو الأرش فليتبع المجنى عليه أو الولي من عليه الدم فيما يأخذه منه من ذلك اتباعاً بالمعروف وليؤد الجاني ما لزمه من الدية أو الأرش إلى المجنى عليه أو إلى الولي أداء بإحسان، وقيل أن ﴿من﴾ عبارة عن الولي، والأخ يراد به القاتل، والشيء الدية، والمعنى أن الولي إذا جنح إلى العفو عن القصاص إلى مقابل الدية فإن القاتل مخير بين أن يعطيها أو يسلم نفسه للقصاص كما روي عن مالك أنه يثبت الخيار للقاتل في ذلك، وذهب من عداه إلى أنه لا يخير بل إذا رضي الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل، بل يلزمه تسليمها.

وقيل معنى عفي بذل أي من بذل له شيء من الدية فليقبل وليتبع بالمعروف، وقيل أن المراد بذلك أن من فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من الديات، فيكون عفي بمعنى فضل، وعلى جميع التقادير فتنكير شيء للتقليل فيتناول العفو من الشيء اليسير من الدية، والعفو الصادر عن فرد من أفراد الورثة.

وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً وأن الفاسق مؤمن لأن الله

تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسماء مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص، وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع، فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن، وأنه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولي الدم وأراد بها أخوة الإيمان، فلولا أن الإيمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة، وأيضاً ندب إلى العفو عن القاتل والعفو لا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر.

﴿ذلك تخفيف من ربكم ورحمة﴾ إشارة إلى العفو والدية أي أن الله شرع لهذه الأمة العفو من غير عوض، أو بعوض، ولم يضيق عليهم كما ضيق على اليهود، فإنه أوجب عليهم القصاص ولا عفو، وكما ضيق على النصارى فإنه أوجب عليهم العفو ولادية، وفيه تضيق على كل من الوارث والقاتل، فهذا تخفيف مما كتب على من كان قبلكم.

﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ أي بعد التخفيف نحو أن يأخذ الدية ثم يقتل القاتل أو يعفو ثم يستقص.

وقد اختلف أهل العلم فيمن قتل القاتل بعد أخذ الدية فقال جماعة منهم مالك والشافعي أنه كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله وإن شاء عفا عنه، وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة ولا يمكن الحاكم الولي من العفو، وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة، وقال عمر بن عبد العزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى.

وأخرج عبد الرازق وابن أبي شيبة وأحمد وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي شريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل فإنه يختار إحدى ثلاث إما أن يقتص وإما أن يعفو، وإما أن يأخذ الدية فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها أبداً»^(١) وعن قتادة

قال ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية» أخرجه^(١) ابن جرير وابن المنذر.

وأخرج سمويه في فوائده عن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ فذكر مثله، والعذاب الأليم قيل هو عذاب الآخرة وقيل هو أن يقتل قصاصاً ولا تقبل منه دية ولا يعفى عنه، والأول أظهر وأولى، ويدل له الحديث المتقدم.

﴿ولكم في القصاص حياة﴾ خطاب لمريدي القتل ظلماً، وقال أبو السعود: بيان لمحاسن الحكم المذكور على وجه بديع لا تنال غايته حيث جعل الشيء وهو القصاص محلاً لضده وهو الحياة، ونكر الحياة ليدل على أن في هذا الجنس نوعاً من الحياة عظيماً لا يبلغه الوصف، وذلك لأنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد فتنتشر الفتنة بينهم، ففي شرع القصاص سلامة من هذا كله^(٢)، والمعنى ولكم في هذا الحكم الذي شرعه الله بقاء وحياة لأن الرجل إذا علم أنه

(١) أبو داود كتاب الديات الباب ٥ - أحمد بن حنبل ٢٦٢/٢.

(٢) عن مسلم بن يزيد أحد بني سعد بن بكر أنه سمع أبا شريح الخزاعي ثم الكعبي وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول أذن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح في قتال بني بكر حتى أصبنا منهم ثأرنا وهو بمكة ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم نوافع السيف فلقي رهط منا الغد رجلاً من هذيل في الحرم يؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم كي يسلم وكان قد وترهم في الجاهلية وكانوا يطلبونه فقتلوه وبادروا أن يخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب غضباً شديداً والله ما رأيته غضب غضباً أشد منه فسعيناً إلى أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم نستشفعهم وخشيناً أن نكون قد هلكنا فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قام فائتى على الله عز وجل بما هو أهله ثم قال أما بعد فإن الله عز وجل هو حرم مكة ولم يجرمها الناس وإنما أحلها لي ساعة من النهار أمس وهي اليوم حرام كما حرمها الله عز وجل أول مرة وإن أغنى الناس على الله عز وجل ثلاثة رجل قتل فيها ورجل قتل غير قاتله ورجل طلب بدخل في الجاهلية وإني والله لأدين هذا الرجل الذي قتلتهم فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقتل قصاصاً إذا قتل آخر كف عن القتل وانزجر عن التسرع إليه، والوقوع فيه، فيكون ذلك بمنزلة الحياة للنفوس الإنسانية.

وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنه جعل القصاص الذي هو موت، حياة باعتبار مايؤول إليه من ارتداع الناس عن قتل بعضهم بعضاً إبقاء على أنفسهم واستدامة حياتهم، وقيل إن الحياة سلامة من القصاص في الآخرة فإنه إذا اقتصر في الدنيا لم يقتصر عنه في الآخرة والأولى.

وقال الخازن: هذا الحكم غير مختص بالقصاص الذي هو القتل، بل يدخل فيه جميع الجروح والشجاج وغير ذلك، وقرأ أبو الجوزاء ﴿ولكم في القصص حياة﴾ أي فيما قص عليكم من حكم القتل حياة أو في كتاب الله أي نجاة وقيل أراد حياة القلوب، وقيل هو مصدر بمعنى القصاص. والكل ضعيف والقراءة به منكرة ﴿يا أولي الألباب﴾ أي ذوي العقول الكاملة، جعل هذا الخطاب موجهاً إلى أولي الألباب وناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لأنهم هم الذين ينظرون في العواقب، ويتحامون ما فيه الضرر الآجل، وأما من كان مصاباً بالحمق والطيش والخفة فإنه لا ينظر عند سورة غضبه وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة، ولا يفكر في أمر مستقبل، والألباب جمع لب، وهو العقل الخالي من الهوى، سمي بذلك لأحد وجهين إما لبنائه من لب بالمكان أقام به وإما من اللباب وهو الخالص.

ثم علل سبحانه هذا الحكم الذي شرعه لعباده بقوله ﴿لعلكم تتقون﴾ أي تعملون عمل أهل التقوى، وتتحامون القتل بالمحافظة على القصاص والحكم به والاذعان له، فيكون ذلك سبباً للتقوى.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت﴾ قد تقدم معنى كتب قريباً، وحضور الموت حضور أسبابه وأماراته وظهور علاماته من العلل والأمراض المخوفة، وليس المراد منه معاينة الموت، لأنه في ذلك الوقت يعجز عن الإيصاء، وإنما لم يؤنث الفعل المسند إلى الوصية وهو كتب لوجود الفاصل بينهما، وقيل لأنها بمعنى الإيصاء، وقد روي جواز إسناد ما لا تأنيث فيه إلى المؤنث مع عدم الفصل، وقد حكى سيبويه: أقام امرأة وهو خلاف ما أطبق عليه أئمة العربية.

﴿إن ترك خيراً﴾ شرط سبحانه ما كتبه من الوصية بأن يترك الموصي خيراً أي مالاً. قال الزهري: هو يطلق على القليل والكثير، فتجب الوصية في الكل وقيل لا يطلق إلا على المال الكثير، وهو قول الأكثرين.

واختلف أهل العلم في مقدار الخير فقل ما زاد على سبعمائة دينار، وقيل ألف دينار، وقيل ما زاد على خمسمائة دينار، وقيل ستون ديناراً فما فوقها. وقيل من خمسمائة إلى ألف، وقيل إنه المال الكثير الفاضل عن العيال، والخير هنا المال، ويقع في القرآن على وجوه ونبه بتسميته خيراً على أن الوصية تستحب في مال طيب.

﴿الوصية﴾ أي الإيصاء، والوصية في الأصل عبارة عن الأمر بالشيء والعهد به في الحياة وبعد الموت وهي هنا عبارة عن الأمر بالشيء بعد الموت، وقد اتفق أهل العلم على وجوب الوصية على من عليه دين أو عنده ودیعة أو نحوها، وأما من لم يكن كذلك فذهب أكثرهم إلى أنها غير واجبة عليه سواء كان فقيراً أو غنياً، وقالت طائفة إنها واجبة.

﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ لم يبين الله سبحانه ههنا القدر الذي كتب الوصية به للوالدين والأقربين فقليل الخمس وقليل الربع وقليل الثلث، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فذهب جماعة إلى أنها محكمة، وقالوا هي وإن كانت عامة فمعناها الخصوص، والمراد بها من الوالدين من لا يرث كالأبوين الكافرين، ومن هو في الرق، ومن الأقربين من عدا الورثة منهم.

قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على أن الوصية للوالدين اللذين لا يرثان والأقرباء الذين لا يرثون جائزة، وقال كثير من أهل العلم أنها منسوخة بآية الموارث مع قوله ﷺ «لا وصية لوارث»^(١) وهو حديث صححه بعض أهل الحديث، وروي من غير وجه، وللشيخ سعد التفتازاني فيه مناقشة، وقال بعض أهل العلم إنه نسخ الوجوب وبقي النذب، روي ذلك عن الشعبي والنخعي ومالك.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالعدل لا وكس فيه ولا شطط، وقد أذن الله للميت بالثلث دون ما زاد عليه فلا يزيد على الثلث، ولا يوصي للغني ويدع الفقير، وعن علي لأن أوصي بالخمسة أحب إلي من أن أوصي بالربع، ولأن أوصي بالربع أحب إلي من أن أوصي بالثلث، فمن أوصي بالثلث فلم يترك، وقل يوصي بالسدس أو بالخمسة أو بالربع ﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله معناه الثبوت والوجوب، وقل ثبوت نذب لا ثبوت فرض ووجوب ﴿على المتقين﴾ أي على الذين يتقون الشرك.

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وحسنه أحمد والترمذي من حديث أبي أمامة الباهلي به مرفوعاً وقواه ابن خزيمة وابن الجارود - انظر تمييز الطيب من الخبيث / ١٦٣٦.

فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾

﴿فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ هذا الضمير عائد إلى الإيصاء المفهوم من الوصية، وكذلك الضمير في قوله ﴿سمعه﴾ والتبديل التغير، والضمير في ﴿إثمه﴾ راجع إلى التبديل المفهوم من قوله بدله، وهذا وعيد لمن غير الوصية المطابقة للحق التي لا حيف فيها ولا مضارة وإنه يبوء بالإثم، وليس على الموصي من ذلك شيء فقد تخلص مما كان عليه بالوصية به.

قال القرطبي: ولا خلاف أنه إذا أوصى بما لا يجوز مثل أن يوصي بخمر أو خنزير أو شيء من المعاصي أنه يجوز تبديله، ولا يجوز امضاؤه كما لا يجوز إمضاء ما زاد على الثلث قاله أبو عمرو، انتهى.

والمبدلون إما الأوصياء بأن ينكروا الوصية أو يغيروها إما في الكتابة أو في قسمة الحقوق، أو الشهود بأن يكتموا الشهادة أو يغيروها، والمعنى فمن بدل قول الميت أو ما أوصى به، وقيل الضمير في ﴿بدله﴾ يعود على الوصية لأنها بمعنى الإيصاء وقيل على نفس الإيصاء، وقيل على الأمر والفرض الذي أمر به الله وفرضه أو في المكتب أو الحق أو المعروف، فهذه ستة أقوال أولاها ما ذكرنا.

ولكن هنا وقفة من حيث أن الكلام السابق إنما هو في الوصية المنسوخة التي هي للوالدين والأقربين، وقوله ﴿فمن بدله﴾ إلى آخر الآية إنما هو في الوصية التي استقر عليها الشرع ويعمل بها إلى الآن، وعلى هذا فكيف يعود الضمير من المحكمة على المنسوخة. قال سليمان الجمل: فليتأمل فإني لم أر من نبه على هذا انتهى.

قلت إنما يرد هذا على قول من قال بنسخ الوصية المذكورة، وقد تقدم أن جماعة من أهل العلم ذهبت إلى أنها محكمة فلا تأمل ولا تنبيه والله أعلم. ﴿إن الله سميع﴾ لما أوصى به الموصي ولقوله ﴿عليم﴾ بتبديل المبدل وفعل الوصي فيجازي عليه الأول بالخير والثاني بالشر.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٧﴾

﴿فمن خاف﴾ أي علم وهو مجاز والعلاقة بينهما ان الإنسان لا يخاف شيئاً حتى يعلم أنه مما يخاف منه، فهو من باب التعبير عن السبب بالمسبب، ومنه قوله تعالى ﴿إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله﴾ أي يعلما ﴿من موصٍ جنفاً أو إثماً﴾ الجنف المجاوزة، من جنف يجنف إذا جاوز قاله النحاس، وقيل الجنف الميل، قاله في الصحاح والكشاف، والإثم الظلم، وقيل الجنف الخطأ في الوصية والإثم العمد ﴿فأصلح بينهم﴾ أي أصلح ما وقع بين الورثة من الشقاق والاضطراب بسبب الوصية باطل ما فيه ضرر ومخالفة لما شرعه الله، وإثبات ما هو حق كالوصية في قرابة لغير وارث، والضمير في ﴿بينهم﴾ راجع الى الورثة وان لم يتقدم لهم ذكر لأنه قد عرف أنهم المرادون من السياق، وقيل راجع إلى الموصى لهم وهم الأبوان والقرابة ﴿فلا إثم عليه﴾ أي لا حرج عليه في الصلح وإن كان فيه تبدل لأنه خير بخلاف الأول فإنه ضير ﴿إن الله غفور رحيم﴾ لمن أصلح وصيته بعد الجنف والميل.

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار» الحديث^(١) أخرجه أبو داود والترمذي، ومعنى المضارة في الوصية أن لا تمضي أو ينقص بعضها أو يوصي لغير أهلها أو يحيف في الوصية ونحوها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ قد تقدم معنى ﴿كتب﴾ ولا خلاف بين المسلمين أجمعين أن صوم رمضان فريضة افترضها الله سبحانه على هذه الأمة، والصيام أصله في اللغة الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، ويقال للصمت صوم، لأنه إمساك عن الكلام، ومنه ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي إمساكاً عن الكلام، وهو في الشرع الإمساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وفي الآية تأكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطبيب للنفس ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ من الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم، والمعنى أن الصوم عبادة قديمة ما أدخل الله أمة من افتراضها عليهم، لم يفرضها عليكم وحدكم.

واختلف المفسرون في وجه التشبيه ما هو، فقليل هو قدر الصوم ووقته، فإن الله كتب على اليهود والنصارى صوم رمضان فغيروا، وقيل هو الوجوب فإن الله أوجب على الأمم الصيام، وقيل هو الصفة أي ترك الأكل والشرب ونحوهما في وقت، فعلى الأول معناه أن الله كتب على هذه الأمة صوم رمضان كما كتبه على الذين من قبلهم، وعلى الثاني أن الله أوجب على هذه الأمة الصيام كما أوجه على الذين من قبلهم، وعلى الثالث أن الله سبحانه أوجب على هذه الأمة الإمساك عن المفطرات كما أوجه على الذين من قبلهم ﴿لعلكم تتقون﴾ المراد بالتقوى المحافظة عليها، وقيل تتقون المعاصي بسبب هذه العبادة لأنها تكسر الشهوة وتضعف دواعي المعاصي كما ورد في الحديث أنه جنة وأنه وجاء^(١).

(١) وقام الحديث عن مسلم / ١٤٠٠

يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن
تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

﴿أياماً معدودات﴾ أي معينات بعدد معلوم ومقدرات، ويحتمل أن يكون في هذا الجمع لكونه من جموع القلة إشارة إلى تقليل الأيام أي قليلات، يعني أقل من أربعين، وقيل أنه كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً وصوم عاشوراء ثم نسخ ذلك بفريضة صوم شهر رمضان، قال ابن عباس: أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة ثم الصوم، وقيل ان المراد أيام شهر رمضان، وعلى هذا فتكون الآية غير منسوخة.

وأخرج البخاري في تاريخه والطبراني عن دغفل بن حنظلة عن النبي ﷺ قال: كان على النصارى صوم شهر رمضان فمرض ملكهم فقالوا لئن شفاه الله لنزيدن عشرًا ثم كان آخر فأكل لحماً، فأوجع فوه فقال لئن شفاه الله ليزيدن سبعة ثم كان عليهم ملك آخر فقال ما ندع من هذه الثلاثة الأيام شيئاً نتمها ونجعل صومنا في الربيع ففعل فصارت خمسين يوماً. وأخرج البخاري ومسلم عن عائشة قالت كان عاشوراء يصام فلما أنزل رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر^(١).

﴿فمن كان﴾ حين حضوره ووجود الشخص فيه ﴿منكم مريضاً﴾ ولو في اثناء اليوم بخلاف السفر، فلا يبيح له الفطر إذا طرأ في اثناء اليوم، وهذا سر التعبير بعلى في السفر دون المرض، قيل للمريض حالتان ان كان لا يطيق الصوم كان الإفطار عزيمة وان كان يطيقه مع تضرر ومشقة كان رخصة، وبهذا

(١) جاء في البخاري عن عبد الله بن عمر:

صام النبي صلى الله عليه وسلم عاشوراء، وأمر بصيامه فلما فرض رمضان ترك.

قال الجمهور ﴿أو على سفر﴾ أي مستعلياً على السفر ومتمكناً منه بأن كان متلبساً به وقت طلوع الفجر.

واختلف أهل العلم في السفر المباح للافطار فقليل مسافة قصر الصلاة، والخلاف في قدرها معروف، وبه قال الجمهور، وقال غيرهم بمقادير لا دليل عليها، والحق أن ما صدق عليه مسمى السفر فهو الذي يباح عنده الفطر، وهكذا ما صدق عليه مسمى المرض فهو الذي يباح عنده الفطر، وقد وقع الإجماع على الفطر في سفر الطاعة، واختلفوا في الأسفار المباحة، والحق أن الرخصة ثابتة فيه وكذا اختلفوا في سفر المعصية.

﴿فعدة من أيام آخر﴾ أي فعلية عدة ما أفطر من أيام آخر بصومها بدله، وأخر جمع أخرى تأنيث آخر بفتح الخاء أو جمع أخرى بمعنى آخره تأنيث آخر بكسر الخاء، وفيه الوصف والعدل، واختلف النحاة في كيفية العدل فيه على أقوال، والعدة فعلة من العدد، وهو بمعنى المعدود أي فعلية عدة أو فالحكم عدة أو فالواجب عدة من غير أيام مرضه وسفره، وإليه ذهب الظاهرية، وبه قال أبو هريرة، وليس في الآية ما يدل على وجوب التابع في القضاء.

﴿وعلى الذين﴾ لا ﴿يطيقونه﴾ لكبر أو موز لا يرجى برؤه، وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فقليل إنها منسوخة، وإنما كانت رخصة عند ابتداء فرض الصيام، لأنه شق عليهم، وكان من أطعم كل يوم مسكيناً ترك الصوم وهو يطيقه ثم نسخ ذلك وهو قول الجمهور، وروي عن بعض أهل العلم أنها لم تنسخ، وأنها رخصة للشيوخ والعجائز خاصة إذا كانوا لا يطيقون الصيام إلا بمشقة، وهذا يناسب قراءة التشديد، وهو يطوقونه أي يكلفونه والناسخ لهذه الآية عند الجمهور قوله تعالى ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ ﴿فدية طعام مسكين﴾ وقرىء مساكين، والفدية الجزاء وهو القدر الذي يبذله الإنسان يقي به نفسه من تقصير وقع منه

في عبادة ونحوها.

وقد اختلفوا في مقدار الفدية فقليل كل يوم صاع من غير البر ونصف صاع منه، وقيل مد فقط أي من غالب قوت البلد، وقال ابن عباس: يعطي كل مسكين عشاءه وسحوره أي قدر ما يأكله في يومه، وروي أن أنس ابن مالك ضعف عن الصوم عاماً قبل موته فصنع جفنة من ثريد ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم، عن ابن عباس بسند صحيح أنه قال: لأم ولد له حامل أو مرضعة أنت بمنزلة الذين لا يطيقون الصوم. عليك الطعام لا قضاء عليك، عن ابن عمر أن إحدى بناته أرسلت تسأله عن صوم رمضان وهي حامل، قال: تفطر وتطعم كل يوم مسكيناً، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

﴿فمن تطوع خيراً فهو خير له﴾ قال ابن شهاب: معناه من أراد الإطعام مع الصوم، وقال مجاهد: معناه من زاد في الإطعام على المد، وقيل من أطعم مع المسكين مسكيناً آخر.

﴿وأن تصوموا﴾ أي أن صيامكم ﴿خير لكم﴾ أيها المطيعون من الإفطار مع الفدية وكان هذا قبل النسخ، وقيل معناه وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق، وقيل هو خطاب مع الكافة لأن اللفظ عام فرجوعه إلى الكل أولى، وهو الأصح، وقد ورد في فضل الصوم أحاديث كثيرة جداً ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أن الصوم خير لكم وقيل المعنى إذا صمتم علمتم ما في الصوم من المعاني المورثة للخير والتقوى، ولا رخصة لأحد من المكلفين في إفطار رمضان بغير عذر، والأعذار المبيحة للفطر ثلاثة (أحدها) السفر والمرض والحيض والنفاس وأهلها إذا أفطروا فعليهم القضاء دون الفدية (والثاني) الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وعليهما القضاء والفدية، وبه قال الشافعي، وذهب أهل الرأي إلى أنه لا فدية عليهما (الثالث) الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة والمريض الذي لا يرجى برؤه فعليهم الفدية دون القضاء.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ
فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿شهر﴾ أي ذلكم شهر أو كتب عليكم الصيام صيام شهر، وقرئء
بالنصب أي صوموا شهراً، ولأهل اللغة فيه قولان أشهرهما أنه اسم لمدة الزمان
الذي يكون مبدؤه الهلال ظاهراً إلى أن يستتر، سمي بذلك لشهرته في حاجة
الناس إليه من المعاملات، والثاني ما قاله الزجاج أنه اسم للهلال نفسه، و
﴿رمضان﴾ علم لهذا الشهر المخصوص وهو علم جنس مركب تركيباً إضافياً
وكذا باقي أسماء الشهور وهو ممنوع من الصرف للعلمية والزيادة، وهو مأخوذ
من رمض الصائم يرمض إذا احترق جوفه من شدة العطش، والرمضاء ممدوداً
شدة الحر، ومنه الحديث الثابت في الصحيح «صلاة الأوابين إذا رمضت
الفصال»^(١) أي أحرقت الرمضاء أجوافها.

قال الجوهري: وشهر رمضان يجمع على رمضان وأرمضاء، يقال أنهم
لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها فوافق
هذا الشهر أيام الحر فسمي بذلك، وقيل إنما سمي رمضان لأنه يرمض
الذنوب أي يحرقها بالأعمال الصالحة، وقال الماوردي: أن اسمه في الجاهلية
ناتق وإنما سموه بذلك لأنه كان ينتقم لشدة عليهم، وقد حققنا ذلك في
كتابنا لقطة العجلان مما تمس إلى معرفته حاجة الإنسان فليرجع إليه.

وقد أخرج أبو حاتم وأبو الشيخ وابن عدي والبيهقي في سننه عن أبي

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٧٠٩.

هريرة مرفوعاً وموقوفاً لا تقولوا رمضان فإن رمضان إسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١) وثبت عنه أنه قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢) وثبت عنه أنه قال: «شهر عيد لا ينقصان رمضان وذو الحجة»^(٣) وقال «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة»^(٤) وهذا كله في الصحيح، وثبت عنه في أحاديث كثيرة غير هذه أنه كان يقول «رمضان» بدون ذكر الشهر، وقد ورد في فضل رمضان أحاديث كثيرة.

﴿الذي أنزل فيه القرآن﴾ أي ابتدء فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، قيل أنزل فيه من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، ثم كان ينزل به جبرائيل نجماً نجماً إلى الأرض، وقيل أنزل في شأنه القرآن؛ وهذه الآية أعم من قوله تعالى ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ وقوله ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ يعني ليلة القدر، والقرآن اسم لكلام الله تعالى علم لما بين الدفتين وهو بمعنى المقروء كالمشروب يسمى شراباً، والمكتوب يسمى كتاباً، وقيل هو مصدر قرأ يقرأ ومنه قوله تعالى ﴿وقرآن الفجر﴾ أي قراءة الفجر، وعن الشافعي أنه قال: القرآن اسم وليس بمهموز، وليس هو من القراءة ولكنه اسم لهذا الكتاب كالتوراة والإنجيل، فعلى هذا إنه ليس بمشتق.

وذهب الأكثرون إلى أنه مشتق من القرء، وهو الجمع فسمي قرآناً لأنه يجمع السور والآيات بعضها إلى بعض، ويجمع الأحكام والقصص والأمثال. والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وقيل في معنى الآية الذي نزل بفرض صيامه القرآن كما تقول نزلت هذه الآية في الصلاة والزكاة ونحو ذلك، روي

(١) أحمد ٢/٢٣٢.

(٢) أحمد ٢/٢٨١.

(٣) أحمد ٥/٥١.

(٤) البخاري / الصوم: ٨.

هذا عن مجاهد والضحاك وهو اختيار الحسن بن الفضل .

وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في الشعب عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزل الزبور لثماني عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن جابر مثله لكنه قال وأنزل الزبور لاثني عشر، وزاد وأنزل التوراة لست خلون من رمضان؛ وأنزل الإنجيل لثماني عشرة خلت من رمضان^(١).

وعن ابن عباس قال أنه أنزل في ليلة القدر وفي رمضان وفي ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام، وعنه قال نزل القرآن جملة لأربع وعشرين من رمضان فوضع في بيت العزة في السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ترتيلاً، وعنه أنه قال ليلة القدر هي الليلة المباركة وهي في رمضان أنزل القرآن جملة واحدة من الذكر إلى البيت المعمور؛ ثم نزل به جبريل نجوماً في ثلاث وعشرين سنة.

﴿هدى للناس﴾ أي هادياً لهم من الضلال بإعجازه ﴿وبينات من الهدى﴾ من عطف الخاص على العام إظهاراً لشرف المعطوف بإفراده بالذكر لأن القرآن يشمل محكمه ومتشابهه، والبيانات تختص بالمحكم منه، قيل الهدى الأول في الأحكام الاعتقادية والهدى الثاني في الفرعية فهما متغايران ﴿والفرقان﴾ هو ما فرق بين الحق والباطل أي فصل .

﴿فمن شهد منكم الشهر﴾ هذا من أنواع المجاز اللغوي وهو إطلاق اسم الكل على الجزء، أطلق الشهر وهو اسم للكل وأراد جزءاً آمنه، وقد فسرهُ علي وابن عمر أن من شهد أول الشهر ﴿فليصمه﴾ جميعه، والمعنى ومن حضر

ولم يكن في سفر بل كان مقيماً فليصم فيه، قال جماعة من السلف والخلف أن من أدركه شهر رمضان مقيماً غير مسافر لزمه صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام، واستدلوا بهذه الآية.

وقال الجمهور: أنه إذا سافر أفطر لأن معنى الآية أنه حضر الشهر من أوله إلى آخره لا إذا حضر بعضه وسافر فإنه لا يتحتم عليه إلا صوم ما حضره، وهذا هو الحق، وعليه دلت الأدلة الصحيحة من السنة، وقد كان يخرج صلى الله عليه وسلم في رمضان فيفطر، وقيل هي رؤية الهلال ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»^(١)، أخرجه الشيخان، ولا خلاف أنه يصوم رمضان من رأى الهلال ومن أخبر به؛ ثم قيل يجزيء فيه خبر الواحد قاله أبو ثور، وقيل خبر الجمع قاله مالك.

﴿ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾ قد تقدم تفسيره وإنما كرره لأن الله تعالى ذكر في الآية الأولى تخيير المريض والمسافر والمقيم الصحيح ثم نسخه بقوله ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فلو اقتصر على هذا لاحتمل أن يشمل النسخ الجميع فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم فيهما باق على ما كان عليه، وقد أطلت بعضهم في بيان مسائل المرض والسفر في تفسير هذه الآية والأمر ظاهر.

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ فلذلك أباح الفطر للسفر والمرض، وفيه أن هذا مقصد من مقاصد الرب سبحانه ومراد من مراداته في جميع أمور الدين، ومثله قوله تعالى ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ وقد ثبت عن رسول الله ﷺ «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» وهو في الصحيح^(٢)، واليسر السهل الذي لا عسر فيه، عن ابن عباس قال اليسر الإفطار في السفر، والعسر الصوم في السفر.

(١) مسند أحمد ٤/٤١٧ - ١/٣٦٥ - ٣/١٣١.

(٢) مسند أحمد ٢/٤١٥ - ٥/٤٢.

﴿ولتكمّلوا العدة﴾ قال في الكشف علة للأمر بمراعاة العدة، عن الربيع قال عدة رمضان، وقال الضحاك: عدة ما أفطر المريض في السفر، وقد صح عن رسول الله ﷺ: أنه قال «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فأكمّلوا العدة ثلاثين يوماً»^(١).

﴿ولتكبروا الله﴾ علة لما علم من كيفية القضاء والخروج عن عهدة الفطر، والمراد بالتكبير هنا هو قول القائل الله أكبر، قال الجمهور ومعناه الحض على التكبير في آخر رمضان، وقد وقع الخلاف في وقته فروي عن بعض السلف أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر وقيل إذا رأوا هلال شوال كبروا إلى انقضاء الخطبة، وقيل إلى خروج الإمام، وقيل هو التكبير يوم الفطر، قال مالك: هو من حين يخرج من داره إلى أن يخرج الإمام، وبه قال الشافعي، وقال أبو حنيفة: يكبر في الأضحى ولا يكبر في الفطر.

عن ابن مسعود أنه كان يكبر: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر، والله الحمد، وعن ابن عباس أنه كان يكبر: الله أكبر كبيراً الله أكبر كبيراً الله أكبر وأجل والله الحمد، الله أكبر على ما هدانا. وعنه قال: حق على الصائمين إذا نظروا إلى شهر شوال أن يكبروا الله حتى يفرغوا من عيدهم لأن الله تعالى يقول ولتكبروا الله.

﴿على ما هداكم﴾ أي أرشدكم إلى طاعته وإلى ما يرضى به عنكم، قيل ﴿على﴾ هنا على بابها من الاستعلاء كأنه قيل ولتكبروا الله حامدين على ما هداكم قاله الزمخشري ﴿الثاني﴾ أنها بمعنى لام العلة والأول أولى لأن المجاز في الحرف ضعيف و(ما) في ما هداكم مصدرية أي على هدايته إياكم أو موصولة بمعنى الذي وفيه بعد ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على نعمه، وقد تقدم تفسيره، وهو علة الترخيص والتيسير قاله في الكشف، وهذا نوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدي إلى تبيانه إلا النقاد من علماء البيان.

(١) صحيح مسلم وفي رواية: «الشهر تسع وعشرون، فإذا رأيتم الهلال فصوموا. وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فأقدروا له.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ يحتمل أن يكون السؤال عن القرب والبعد كما يدل عليه قوله ﴿فإني قريب﴾ ويحتمل أن يكون السؤال عن إجابة الدعاء كما يدل على ذلك قوله ﴿أجيب دعوة الداع﴾ ويحتمل أن السؤال عما هو أعم من ذلك، وهذا هو الظاهر مع قطع النظر عن السبب الذي أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق الصلت بن حكيم عن رجل من الأنصار عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقریب ربنا فنناجیه أم بعيد فننادیه، فسکت النبي ﷺ فنزلت هذه الآية، وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الحسن قال سأل أصحاب النبي ﷺ أين ربنا فأنزل الله هذه الآية. (١)

وأخرج ابن مردويه عن أنس أنه سأل أعرابي النبي ﷺ أين ربنا فنزلت. وعن ابن عباس قال: قال يهود المدينة يا محمد صلى الله عليه وسلم كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وأن غلظ كل سماء مثل ذلك، فنزلت هذه الآية، وقيل أنهم سألوه في أي ساعة ندعو ربنا فنزلت، والقرب قيل بالإجابة وقيل بالعلم وقيل بالإنعام، وقال في الكشف أنه تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه وسرعة إنجابه حاجة من سأله بمن قرب مكانه، فإذا دعى أسرع تلييته، قيل والقرب استعارة تبعية تمثيلية وإلا فهو متعال عن القرب الحسي لتعالیه عن المكان ونظيره ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ قاله الكرخي.

(١) وقيل: عن مقاتل أن عمر رضي الله عنه واقع امرأته بعدما صلى العشاء فندم على ذلك وبكى، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ورجع مغتاً - وكان ذلك قبل نزول الرخصة فنزلت هذه الآية - القرطبي ٣٠٨/٢.

والحق أن القرب من الصفات نؤمن به ونغمره على ما جاء ولا نؤول ولا نعطل. وعن أبي موسى الأشعري قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال توجه إلى خيبر أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ «أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً وهو معكم» أخرجه البخاري ومسلم، ومعنى أربعوا ارفقوا بها، وقيل أمسكوا عن الجهر فإنه قريب يسمع دعاءكم. (١).

﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ معنى الإجابة هو معنى ما في قوله تعالى ﴿أدعوني أستجب لكم﴾ وقيل معناه أقبل عبادة من عبدني بالدعاء لما ثبت عنه ﷺ من أن الدعاء هو العبادة كما أخرجه أبو داود وغيره من حديث النعمان بن بشير، والظاهر أن الإجابة هنا هي باقية على معناها اللغوي، وكون الدعاء من العبادة لا يستلزم أن الإجابة هي القبول للدعاء أي جعله عبادة متقبلة فالإجابة أمر آخر غير قبول هذه العبادة، والمراد أن الله سبحانه وتعالى يجيب بما شاء وكيف شاء فقد يحصل المطلوب قريباً، وقد يحل بعيداً، وقد يدفع عن الداعي من البلاء ما لا يعلمه بسبب دعائه، وهذا مقيد بعدم اعتداء الداعي في دعائه كما في قوله سبحانه

﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ ومن الاعتداء ان يطلب ما لا يستحقه ولا يصلح له كمن يطلب منزلة في الجنة مساوية لمنزلة الأنبياء أو فوقها.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ قال: «ما

(١) وفي رواية لمسلم / ٢٧٠٤: انكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم قال الراوي (عبد الله بن قيس) فقال (النبي): يا عبد الله بن قيس الا أدلك على كنز من كنوز الجنة فقلت بلى يا رسول الله قال: قل لا حول ولا قوة إلا بالله..

وفي رواية أخرى: والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم.

من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»^(١) وثبت في الصحيح أيضاً من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي»^(٢).

﴿فليستجيبوا لي﴾ أي كما أجبتهم إذا دعوني فليستجيبوا لي فيما دعوتهم إليه من الإيمان والطاعات، وقيل معناه أنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم له أي القيام بما أمرهم به والترك لما نهاهم عنه، وقال: مجاهد أي فليطيعوني، والإجابة في اللغة الطاعة من العبد والإثابة والعطاء من الله

﴿وليؤمنوا بي﴾ اللام فيه للأمر كما فيما قبله أي وليدوموا على الإيمان

(لعلهم يرشدون) أي يهتدون، قاله الربيع بن أنس، والرشد خلاف الغي، قال الهروي: الرشد والرشد والرشد الهدى والإستقامة ومنه هذه الآية، وقد ورد في فضل الدعاء وآدابه أحاديث كثيرة ذكرها أهل التفسير، وهي في الصحاح والسنن لا نطول بذكرها^(٣).

(١) حديث ما من مسلم يدعوه.. رواه مسلم باب الذكر والدعاء ٩٢/ ورواه أحمد عن أبي سعيد

الخدري ورواه البزار وأبو يعلى والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) حديث يستجاب لأحدكم ما لم يعجل... رواه مسلم ٢٧٣٥/.

(٣) والدعاء تفتقر اجابته الى شروط أصلها الطاعة لله، ومنها اكل الحلال فإن أكل الحرام يمنع اجابة الدعاء ومنها حضور القلب ففي بعض الحديث: (لا يقبل الله دعاء من قلب غافل).

أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ
 عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ
 بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ
 مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ
 عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ
 لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ فيه دلالة على أن هذا الذي أحله الله كان حراماً عليهم، وهكذا كان كما يفيد السبب لنزول الآية، فقد أخرج البخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن البراء بن عازب قال كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي، وأن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فكان يومه ذلك يعمل في أرضه فلما حضر الإفطار أقي امرأته فقال هل عندكم طعام قالت لا، ولكن أنطلق فأطلب ذلك، فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رآته نائماً قالت خيبة لك أمت، فلما انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك النبي ﷺ فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿من الفجر﴾ ففرحوا بها فرحاً شديداً.

والرفث كناية عن الجماع، وعن ابن عباس قال الدخول والتغشي والإفشاء والمباشرة والرفث واللمس والمس هذا الجماع، غير أن الله حيي كريم يكني بما شاء عما شاء، قال الزجاج: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من امرأته وكذا قال الأزهري، وقيل الرفث أصله قول الفحش، رفث وأرفث إذا تكلم بالقبيح وليس هو المراد هنا وعُدي الرفث بإلى لتضمينه معنى الإفشاء.

﴿هَن لِبَاس لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاس لَهْنَ﴾ تعليل لما قبله وجعل النساء لباساً للرجال والرجال لباساً لهْنَ لامتزاج كل واحد منهما بالآخر عند الجماع كالامتزاج الذي يكون بين الثوب ولا بسه، قال أبو عبيدة وغيره: يقال للمرأة لباس وفراش وإزار، وقيل إنما جعل كل واحد منهما لباساً للآخر لأنه يستره عند الجماع عن أعين الناس وعن ابن عباس: هَن سَكَن لَكُمْ وَأَنْتُمْ سَكَن لَهْنَ قيل لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر، وقد روي في سبب نزول هذه الآية أحاديث عن جماعة من الصحابة نحو ما قاله البراء.

﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كَنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي تخونونها بالمباشرة في ليالي الصوم يقال خان واختان بمعنى وهما من الخيانة، قال القتيبي أصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدي الأمانة فيه انتهى، وإنما سماهم خائنين لأنفسهم لأن ضرر ذلك عائد عليهم.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل معنيين أحدهما قبول التوبة من خيانتهم لأنفسهم، والآخر التخفيف عنهم بالرخصة والإباحة كقوله ﴿عَلَّمَ أَنْ لَنْ تَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني خفف عنكم وكقوله ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللَّهِ﴾ يعني تخفيفاً وهكذا قوله: ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ يحتمل العفو من الذنب ويحتمل التوسعة والتسهيل ﴿فَالْآنَ﴾ قال أبو البقاء ﴿الْآنَ﴾ حقيقة الوقت الذي أنت فيه وقد يقع على الماضي القريب منك وعلى المستقبل القريب تنزيلاً للقريب منزلة الحاضر وهو المراد هنا، وقد تقدم الكلام على الآن ﴿بِأَشْرَوْهْنَ﴾ أي جامعوهن فهو حلال لكم في ليالي الصوم، وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحد بصاحبه، قيل هذا الأمر والثلاثة بعده للإباحة وفيه دليل على جواز نسخ الكتاب للسنّة.

﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ تأكيد لما قبله أو تأسيس، والثاني أولى أي ابتغوا بمباشرة نسائكم حصول ما هو معظم المقصود من النكاح وهو حصول النسل والولد، قيل فيه نهى عن العزل وقيل عن غير المأتي، والتقدير وابتغوا المحل

الذي كتب الله لكم، وقيل المراد ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه قاله الزجاج وغيره، وقيل ابتغوا الرخصة والتوسعة وقيل ابتغوا ما كتب لكم من الإماء والزوجات، وقيل ابتغوا ليلة القدر، وقيل غير ذلك مما لا يفيدُه النظم القرآني ولا دل عليه دليل آخر، وقرأ الحسن البصري ﴿واتبعوا﴾ بالعين المهملة من الاتباع.

﴿كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هو تشبيه للمنع والمراد هنا بالخيط الأبيض هو المعترض في الأفق لا الذي هو كذب السرحان فإنه الفجر الكذاب الذي لا يحل شيئاً ولا يحرمه، والمراد بالخيط الأسود سواد الليل، والتبيين أن يمتاز أحدهما عن الآخر، وذلك لا يكون إلا عند دخول وقت الفجر.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد قال: كان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه يعني الليل من النهار.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عدي بن حاتم أنه جعل تحت وسادته خيطين أبيض وأسود جعل ينظر إليهما فلا يتبين له الأبيض من الأسود، فغدا على رسول الله ﷺ فأخبره قال: إن وسادك إذن لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل، وفي رواية^(١) في البخاري وغيره أنه قال له إنك لعريض العقل، وفي رواية عند ابن جرير وابن أبي حاتم أنه ضحك منه.

قيل «من» الأولى لابتداء الغاية والثانية للبيان، قاله السيوطي، وقال الزمخشري وغيره الثانية للتبعض أي حال كون الخيط الأبيض بعضاً من الفجر، وفي تجويز المباشرة إلى الصبح دلالة على جواز تأخير الغسل إليه وصحة

(١) رواه أحمد في المسند وفي رواية لمسلم /١٠٩/: ان وسادك لعريض.

صوم من أصبح جنباً.

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أمر وهو للوجوب وهو يتناول كل الصيام عند أبي حنيفة، وقال الشافعية إنمأ ورد هذا في بيان أحكام صوم الفرض، ويدل على إباحة الفطر من النفل حديث عائشة في مسلم وفيه أهدي لنا حيس، قال أرنيه فلقد أصبحت صائماً فأكل، وقيل للوجوب في صوم الفرض وللندب في صوم النفل، وقيل للوجوب فيهما.

وفي الآية التصريح بأن للصوم غاية هي الليل فعند إقبال الليل من المشرق وإدبار النهار من المغرب يفطر الصائم ويحل له الأكل والشرب وغيرهما.

﴿ولا تباشروهن﴾ قيل المراد بالمباشرة هنا الجماع، وقيل يشمل التقبيل واللمس إذا كانا بشهوة لا إذا كانا بغير شهوة فهما جائزان كما قاله عطاء والشافعي وابن المنذر وغيرهم، وعلى هذا يحمل ما حكاه ابن عبد البر من الإجماع على أن المعتكف لا يباشر ولا يقبل فتكون هذه الحكاية للإجماع مقيدة بأن يكون بشهوة.

﴿وأنتم عاكفون في المساجد﴾ الاعتكاف في اللغة الملازمة يقال عكف على الشيء إذا لازمه، ولما كان المعتكف يلزم المسجد قيل له عاكف في المسجد ومعتكف فيه، لأنه يحبس نفسه لهذه العبادة في المسجد، والاعتكاف في الشرع ملازمة طاعة مخصوصة على شرط مخصوص، وقد وقع الإجماع على أنه ليس بواجب، وعلى أنه لا يكون إلا في المسجد.

بين سبحانه في هذه الآية أن الجماع يحرم على المعتكف في الليل والنهار حتى يخرج من اعتكافه. وللاعتكاف أحكام مستوفاة في كتب الفقه وشروح الحديث.

وأقول أن قوله تعالى ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ جملة إنشائية نهية مسوقة لتحريم مباشرة النساء في حال الاعتكاف في المساجد، فقوله ﴿في المساجد﴾ متعلق بقوله ﴿عاكفون﴾ وليست لبيان النهي عن مباشرة

النساء في المساجد من غير فرق بين المعتكف وغيره، ولو كان كذلك لم تكن لقوله ﴿وأنتم عاكفون﴾ فائدة.

ثم هذا الاعتكاف المذكور في الآية قد بينه رسول الله ﷺ لأمته باعتكافه غير مرة وهو وزوجاته وأصحابه بمحضره فكان ﷺ إذا أراد الاعتكاف أمر بخبائه فضرب في المسجد كما ثبت في الصحيحين وغيرهما ثم أقام فيه لا يخرج منه إلا لحاجة الإنسان ويعود مسرعاً لا يعود مريضاً ولا يشتغل بشيء كما ثبت في دواوين الإسلام فهذا هو الاعتكاف الشرعي الذي علمنا رسول الله ﷺ.

ومن زعم أن المراد به مطلق اللبث ولو في غير المسجد، نظر إلى أصل معناه اللغوي فقد قدم الحقيقة اللغوية على الحقيقة الشرعية وهو خلاف ما تقرر في الأصول، بل خلاف ما عليه أهل العلم سلفاً وخلفاً، ولو كان الاعتكاف المشروع هو مجرد اللبث ولو في غير المسجد لكان اللبث في داره وفي سوقه وفي المصاطب ونحوها معتكفاً إذا حصلت منه النية، وهذا خلاف ما في القرآن الكريم، وخلاف ما ثبت تواتراً في السنة المطهرة، وخلاف ما فهمه المسلمون من هذه العبادة، بل خلاف ما ورد عنه ﷺ من قوله كما في سنن سعيد بن منصور من حديث ابن مسعود قال: لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا اعتكاف إلا في المساجد الثلاثة أو قال: إلا في مسجد جماعة^(١).

وأما ما فهمه بعض الناس من جواز الوطء للمعتكف في غير المسجد فيرده ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: السنة على المعتكف أن لا يعود مريضاً ولا يشهد جنازة ولا يمس امرأة ولا يباشرها ولا يخرج لحاجة إلا لما لا بد منه، ولا اعتكاف إلا بصوم ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع، وقد تقرر أن قول الصحابي «من السنة» أو السنة له حكم

(١) والصحيح أنه يصح في مسجد جامع كما نصت كتب الفقه أما أحاديث الاعتكاف فهي كثيرة منها: ما روته عائشة رضي الله عنها: كان الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان.

الرفع، وهذا الحديث كما يدل على تحريم الوطء على المعتكف يدل على أنه لا اعتكاف إلا في مسجد جامع فهو يرد عليه من جهتين، وقد ذكر الشوكاني الكلام على هذا الحديث في شرحه على المنتقى فليرجع إليه.^(١)

﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ أي هذه الاحكام حدود الله، وأصل الحد المنع ومنه سمي البواب والسجان حداداً، وسميت الأوامر والنواهي حدود الله لأنها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها وأن يخرج عنها ما هو منها، ومن ذلك سميت الحدود حدوداً لأنها تمنع أصحابها من العود، ومعنى النهي عن قربانها النهي عن تعديها بالمخالفة لها، وقيل أن حدود الله هي محارمة فقط ومنها المباشرة من المعتكف والافطار في رمضان لغير عذر وغير ذلك مما سبق النهي عنه، ومعنى النهي عن قربانها على هذا واضح، وقيل حدود الله فرائض الله. وقيل المقادير التي قدرها ومنع من مخالفتها ﴿كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ أي كما بين لكم هذه الحدود يبين لكم معالم دينه وأحكام شريعته والعلامات الهادية إلى الحق.

(١) وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف يدني إلى رأسه فأرجله، ، ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة انسان (الغائط والبول) وقد اجمع العلماء على ان الاعتكاف ليس بواجب وأنه سنة، واستحب مالك الا يخرج المعتكف إلا بعد آذان صلاة العيد حين يغدو من المعتكف الى المصلى وبه قال أحمد. وقال الشافعي والأوزاعي: يخرج اذا غابت الشمس والله أعلم.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ هذا يعم جميع الأمة وجميع الأموال لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد دليل الشرع بأنه يجوز أخذه فإنه مأخوذ بالحق لا بالباطل، ومأكل بالحل لا بالإثم، وإن كان صاحبه كارهاً كقضاء الدين إذا امتنع منه من هو عليه، وتسليم ما أوجبه الله من الزكاة ونحوها ونفقة من أوجب الشرع نفقته، والحاصل أن ما لم يبيح الشرع أخذه من مالكة فهو مأكل بالباطل وإن طابت به نفس مالكة كمهر البغي وحلوان الكاهن، وثمر الخمر والملاهي، وأجرة المغني، والقمار، والرشوة في الحكم وشهادة الزور والخيانة في الوديعة والأمانة، والأكل بطريق التعدي والنهب والغصب، والباطل في اللغة الذهاب الزائل، والمعنى بالسبب الباطل أو مبطلين أو متلبسين بالباطل، عن ابن عباس قال: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وقال مجاهد معناها لا تخصم وأنت تعلم أنك ظالم.

﴿وتدلوها بها إلى الحكام﴾ مجزوم عطفاً على ﴿تأكلوا﴾ فهو من جملة المنهي عنه أي لا تلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام، يقال أدلى الرجل بحجته أو بالأمر الذي يرجو النجاح به تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر، يقال أدلى دلوه أرسلها، والمعنى أنكم لا تجمعوا بين أكل الأموال بالباطل وبين الإدلاء بها إلى الحكام بالحجج الباطلة، والمعنى لا تسرعوا بالخصومة في الأموال إلى الحكام ليعينوكم على إبطال حق أو تحقيق باطل، وأما الإسراع بها لتحقيق الحق فليس مذموماً.

وفي هذه الآية دليل أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ولا يحرم الحلال من غير فرق بين الأموال والفروج، فمن حكم له القاضي بشيء مستنداً في حكمه

إلى شهادة زور أو يمين فاجرة فلا يحل له أكله فإن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وهكذا إذا أرشى الحاكم فحكم له بغير الحق فإنه من أكل أموال الناس بالباطل، ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام، ولا يحرم الحلال.

وقد روي عن أبي حنيفة ما يخالف ذلك، وهو مردود بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ كما في حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيء فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار» وهو في الصحيحين وغيرهما^(١).

وقيل معناه لا تأكلوا المال بالباطل وتنسبوه إلى الحكام، والأول أولى، وكان شريح القاضي يقول إني لأقضي لك وإني لأظنك ظالماً ولكن لا يسعني إلا أن أقضي بما يحضرنى من البينة وأن قضائي لا يحل لك حراماً ﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾ أي قطعة أو جزءاً أو طائفة فعبر بالفريق عن ذلك، وأصل الفريق القطعة من الغنم تشد عن معظمها، وقيل في الكلام تقديم وتأخير والتقدير لتأكلوا أموال فريق من الناس بالإثم، وسمي الظلم والعدوان إثماً باعتبار تعلقه بفاعله، قال ابن عباس أي باليمين الكاذبة، وقيل بشهادة الزور

﴿وأنتم تعلمون﴾ أي حال كونكم عالمين أنكم على الباطل أو أن ذلك باطل ليس من الحق في شيء، وهذا أشد لعقابهم وأعظم لجرمهم.

(١) حديث (انكم تختصمون لدي...) رواه مسلم ١٧١٣.

وفي رواية: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج اليهم فقال: «إنما أنا بشر وأنه يأتيني الخصم».

فلعل بعضكم أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۚ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١٨٩) وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَتِّلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

﴿يسألونك عن الأهلة﴾ أي عن فائدة اختلافها، لأن السؤال عن ذاتها غير مفيد، وقد أخرج ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس قال: نزلت في معاذ بن جبل وثعلبة بن عتبة وهما رجلان من الأنصار قالوا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد، فنزلت هي مواقيت للناس في حل دينهم ولصومهم ولفطرمهم، وأوقات حجهم وأجائهم وأوقات الحيض وعدد نسائهم، والشروط التي إلى أجل، ولهذا خالف بينه وبين الشمس التي هي دائمة على حالة واحدة.

والأهلة جمع هلال وجمعها باعتبار هلال كل شهر أو كل ليلة تنزيلاً لاختلاف الاوقات منزلة اختلاف الذوات، والهلال اسم لما يبدو في أول الشهر وفي آخره، قال الأصمعي هو هلال حتى يستدير، وقيل هو هلال حتى ينير بضوئه السماء، وذلك ليلة السابع، وإنما قيل له هلال لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته، ومنه استهل الصبي إذا صاح واستهل وجهه وتهلل إذا ظهر فيه السرور، والهلال في الحقيقة واحد وجمعه باعتبار أوقاته واختلافه في ذاته، واختلف أهل اللغة إلى متى يسمى هلالاً فقال الجمهور لليلتين، وقيل لثلاث ثم يكون قمراً، وقال أبو الهيثم لليلتين من أول الشهر ولليلتين من آخره وما بينهما قمر.

﴿قل هي مواقيت﴾ الذي قرره أبو السعود والخازن أن الجواب مطابق

للسؤال، وفي الآية بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجازات والأيمان وغير ذلك، ومثله قوله تعالى ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ وقيل هو جواب بغير ما سأل عنه تنبيهاً على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب لا عن سبب الاختلاف، فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض للمكلف في معرفتها ولا يليق أن تبين له.

والمواقيت جمع الميقات وهو الوقت والفرق بين الوقت وبين المدة والزمان أن المدة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها، والزمان مدة منقسمة إلى الماضي والحال والمستقبل، والوقت الزمان المفروض لأمر، وكل ما جاء في القرآن من السؤال أجيب عنه بقل بلا فاء إلا في طه ﴿ويستلونك عن الجبال فقل﴾ لأن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال وفي طه كان قبله إذ تقديره ان سئلت عن الجبال فقل.

﴿لناس﴾ أي لأغراضهم الدنيوية والدينية كما أشار لذلك بتعداد الأمثلة إذ الأهلة ليست مواقيت لذوات الناس ﴿والحج﴾ عطف على الناس أي يعلم بها وقته، فلو استمرت على حالة لم يعرف ذلك، قال سيبويه: بالفتح كالرد والشد وبالكسر كالذكر مصدران بمعنى وقيل بالفتح مصدر وبالكسر الاسم، وإنما أفرد سبحانه بالحج بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، ولا يجوز فيه النسء عن وقته ولعظم المشقة على من التبس عليه وقت مناسكه أو أخطأ وقتها أو وقت بعضها.

وقد جعل بعض علماء المعاني هذا الجواب أعني قوله قل هي مواقيت الخ من الأسلوب الحكيم كما تقدم وهو تلقي المخاطب بغير ما يترب تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، ووجه ذلك أنهم سألوا عن أجرام الأهلة باعتبار زيادتها ونقصانها فأجيبوا بالحكمة التي كانت الزيادة والنقصان لأجلها لكون ذلك أولى بأن يقصده السائل وأحق بأن يتطلع لعلمه.

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ وجه اتصال هذا بالسؤال عن الأهلة والجواب بأنها مواقيت للناس والحج أن الأنصار كانوا إذا حجوا لا يدخلون من أبواب بيوتهم إذا رجع أحدهم إلى بيته بعد إحرامه قبل تمام حجه، لأنهم يعتقدون أن المحرم لا يجوز أن يحول بينه وبين السماء حائل فكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم، وقد ورد هذا المعنى عن جماعة من الصحابة والتابعين، وقال أبو عبيدة: إن هذا من ضرب المثل، والمعنى ليس البر أن تسألوا الجهال ولكن البر التقوى واسألوا العلماء كما تقول أتيت الأمر من بابه، وقيل هو مثل في جماع النساء وأنهم أمروا بإتيانهم في القبل لا في الدبر، وقيل غير ذلك، والبيوت جمع بيت وقرىء بضم الباء وكسرهما ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ قد تقدم تفسير التقوى والفلاح.

﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ لا خلاف بين أهل العلم أن القتال كان ممنوعاً قبل الهجرة لقوله ﴿فاعف عنهم واصفح﴾ وقوله ﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾ وقوله ﴿لست عليهم بمضيطر﴾ وقوله ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾ ونحو ذلك مما نزل بمكة فلما هاجر إلى المدينة أمره الله سبحانه بالقتال ونزلت هذه الآية.

قال أبو العالية: إنها أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة، وقيل أول ما نزل قوله تعالى ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ حتى نزل قوله تعالى ﴿اقتلوا المشركين﴾ وقوله تعالى ﴿وقاتلوا المشركين كافة﴾ قيل انه نسخ بها سبعون آية والمعنى قاتلوا في طاعة الله وطلب رضوانه.

عن أبي موسى الأشعري قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي

العليا فهو في سبيل الله»^(١).

﴿الذين يقاتلونكم﴾ قال جماعة من السلف المراد بهذا من عدا النساء والصبيان والشيوخ والزماني والرهبان والمجانين والمكافيف ونحوهم، وجعلوا هذه الآية محكمة غير منسوخة ﴿ولا تعتدوا﴾ المراد بالاعتداء عند أهل القول الأول هو مقاتلة من لم يقاتل من الطوائف الكفرية، والمراد به على القول الثاني مجاوزة قتل من يستحق القتل إلى قتل من لا يستحقه ممن تقدم ذكره، قال ابن عباس: أي لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير، ولا من ألقى السلم وكف يده فإن فعلتم فقد اعتديتم، وقال عمر بن عبد العزيز: أن هذه الآية في النساء والذرية ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ أي لا يريد بهم الخير.

عن بريدة قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال «اغزوا بالله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ولا تعتدوا» أخرجه مسلم^(٢).

(١) وفي رواية: «أن رجلاً اعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليذكر والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله أعلی فهو في سبيل الله» وفي رواية من قاتل لتكون كلمة الله العلياً فهو في سبيل الله، مسلم / ١٩٠٤.

(٢) وقد اختلف العلماء هل هذه الآية منسوخة أم لا فعلى قولين:

١ - أنها منسوخة بقوله ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾.

٢ - أنها محكمة... وأما الذين لم يعدوا أنفسهم للقتال كالرهبان والمجانين... فلا تعتدوا عليهم.

وبه قال أبو جعفر وقال: وهذا القول أولى بالصواب.

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ
عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾

﴿واقتلوهم حيث ثففتموهم﴾ يقال ثقف يثقف ثقفاً ورجل ثقيف إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور، قال في الكشف: والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة، ومنه رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه انتهى.

قال أبو السعود: أصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً أو عملاً وفيه معنى الغلبة، قال ابن جرير: الخطاب للمهاجرين والضمير لكفار قريش انتهى والمعنى واقتلوهم حيث وجدتموهم وأدركتموهم في الحل والحرم وإن لم يتدؤكم، وتحقيق القول فيه أن الله تعالى أمر بالجهاد في الآية الأولى بشرط إقدام الكفار على القتال، وفي هذه الآية أمرهم بالجهاد معهم سواء قاتلوا أو لم يقاتلوا واستثنى منه المقاتلة عند المسجد الحرام.

﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أي أخرجوهم من مكة، وقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر ربه فأخرج من مكة من لم يسلم عند أن فتحها الله عليه ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ أي الفتنة التي أرادوا أن يفتنوكم بها وهي رجوعكم إلى الكفر أشد من القتل، وقيل المراد بالفتنة المحنة التي تنزل بالإنسان في نفسه أو أهله أو ماله أو عرضه، وقيل المراد بالفتنة الشرك الذي عليه المشركون لأنهم كانوا يستعظمون القتل في الحرم، فأخبرهم الله أن الشرك الذي هم عليه أشد مما يستعظمونه، وقيل المراد فتنهم إياكم بصدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم في الحرم أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم، والظاهر أن المراد الفتنة في الدين بأي سبب كان وعلى أي صورة اتفق فإنها أشد من القتل لأنه يؤدي إلى الخلود في النار، والقتل ليس كذلك ولذا جعل أشد منه.

﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾ اختلف أهل العلم في ذلك فذهبت طائفة إلى أنها محكمة وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى متعد بالقتال فيه فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له، وهذا هو الحق، وقالت طائفة أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ ويجاب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن هنا بيناء العام على الخاص فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم، ومما يؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها لم تحل لأحد قبله وإنها أحلت لي ساعة من نهار»، وهو في الصحيح^(١).

وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله صلى الله عليه وآله وسلم لابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ويجاب عنه بأنه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿فإن قاتلوكم﴾ أي في المسجد الحرام، هذا مفهوم الغاية ﴿فاقتلوهم﴾ أي فقاتلوهم ﴿كذلك﴾ أي القتل والاخراج ﴿جزاء الكافرين﴾ مطلقاً بأن يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم، فثبت بهذا تحريم القتال في الحرم إلا أن يقاتلوا فيقاتلوا ويكون دفعاً لهم ﴿فإن انتهوا﴾ عن قتالكم وعن الكفر ودخلوا في الإسلام ﴿فإن الله غفور﴾ لما سلف ﴿رحيم﴾ بعباده حيث لم يعاجلهم بالعقوبة.

﴿وقاتلوهم﴾ فيه الأمر بمقاتلة المشركين ولو في الحرم وإن لم يتدؤوكم بالقتال فيه، وهذا هو الذي استقر عليه الحكم الآن ﴿حتى﴾ أي إلى غاية هي أن ﴿لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾ وهو الدخول في الإسلام والخروج عن سائر الأديان المخالفة له فمن دخل في الإسلام وأقلع عن الشرك لم يحل قتاله، وقيل المراد بالفتنة هنا الشرك والظاهر أنها الفتنة في الدين عما عمومها كما سلف.

(١) سبق ذكره.

فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ لِلَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ
 أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ
 أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
 الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

﴿فان انتهوا﴾ يعني عن القتال، وقيل عن الشرك والكفر ﴿فلا عدوان
 إلا على الظالمين﴾ أي لا تظلموا إلا الظالمين أي لا تعتدوا إلا على ظلم وهو
 من لم ينته عن الفتنة ولم يدخل في الإسلام، وإنما سمي جزاء الظالمين عدواناً
 مشاكلة كقوله تعالى ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ وقوله ﴿فمن اعتدى عليكم
 فاعتدوا عليه﴾.

وسمي الكافر ظالماً لوضعه العبادة في غير موضعها، والنفي هنا بمعنى
 النهي لئلا يلزم الخلف في خبره تعالى، والعرب إذا بالغت في النهي عن الشيء
 أبرزته في صورة النفي المحض إشارة إلى أنه ينبغي أن لا يوجد البتة فدلوا على
 هذا المعنى بما ذكرت لك، وعكسه في الإثبات إذا بالغوا في الأمر بالشيء أبرزوه
 في صورة الخبر نحو ﴿والوالدات يرضعن﴾ وسيأتي.

﴿الشهر الحرام﴾ هو ذو القعدة من السنة السابعة ﴿بالشهر الحرام﴾ هو
 ذو القعدة من السنة السادسة وهذا في المعنى تعليل لقوله ﴿واقتلوهم﴾ حيث
 ثقتموهم﴾ أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال لما سار رسول الله ﷺ معتمراً
 في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت،
 وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام قاضاهم على
 الدخول من قابل فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين،
 وأقصه الله منهم، نزلت في ذلك هذه الآية^(١)، وروي نحوه عن أبي العالية

(١) ابن كثير ١/٢٢٨.

ومجاهد وقتادة وابن جريج، والمعنى إذا قاتلوكم في الشهر الحرام وهاكم حرمة قاتلوهم في الشهر الحرام مكافأة لهم ومجازاة على فعلهم، وهذا صريح في أنه قد وقع منهم مقاتلة في عام الحديبية، وهو كذلك فقد وقع قتال خفيف بالرمي بالسهام والحجارة.

﴿والحرمات﴾ جمع حرمة كالظلمات جمع ظلمة، وإنما جمع الحرمات لأنه أراد الشهر الحرام والبلد الحرام وحرمة الإحرام، والحرمة ما منع الشرع انتهاكه ﴿قصاص﴾ أي المساواة والمماثلة، والمعنى أن كل حرمة يجزي فيها القصاص، فمن هتك حرمة عليكم فلکم أن تهتكوا حرمة عليه قصاصاً ولا تبالوا به، قيل وهذا كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقتال، وقيل أنه ثابت بين أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم ينسخ، فيجوز لمن تعدي عليه في مال أو بدن أن يتعدى بمثل ما تعدي عليه، وبهذا قال الشافعي وغيره.

وقال آخرون إن أمور القصاص مقصورة على الأحكام وهكذا الأموال لقوله ﷺ: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك^(١)»، أخرجه الدارقطني وغيره، وبه قال أبو حنيفة وجمهور المالكية وعطاء الخراساني، والقول الأول أرجح، وبه قال ابن المنذر، واختاره ابن العربي والقرطبي، وحكاها الداودي عن مالك، ويؤيده إسنه صلى الله عليه وآله وسلم لامرأة أبي سفيان أن تأخذ من ماله ما يكفيها وولدها، وهو في الصحيح.

ولا أصرح وأوضح من قوله تعالى في هذه الآية ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ وهذه الجملة في حكم التأكيد للجملة الأولى أعني قوله والحرمات قصاص، وإنما سمي المكافآت اعتداء مشاكلة كما تقدم.

وعن ابن عباس في هذه الآية وفي قوله ﴿وجزاء سيئة﴾ الآية وقوله ﴿ولن انتصر بعد ظلمه﴾ الآية وقوله ﴿وإن عاقبتهم﴾ الآية قال هذا ونحوه نزل بمكة، والمسلمون يومئذ قليل ليس لهم سلطان يقهر المشركين، فكان المشركون يتعاطونهم بالشتم والأذى، فأمر الله المسلمين من يتجاراً منهم أن يتجاراً بمثل ما أوتي إليه أو يصبر أو يعفو، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأعز الله سلطانه أمر المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، ولا يعدو بعضهم على بعض كأهل الجاهلية، فقال ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ الآية يقول ينصره السلطان حتى ينصفه على من ظلمه، ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاص مسرف قد عمل بحمية الجاهلية ولم يرض بحكم الله انتهى.

وأقول هذه الآية التي جعلها ابن عباس ناسخة مؤيدة لما تدل عليه الآيات التي جعلها منسوخة ومؤكدة له، فإن الظاهر من قوله ﴿فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ أنه جعل السلطان له، أي جعل له تسليطاً يتسلط به على القاتل، ولهذا قال ﴿فلا يسرف في القتل﴾.

ثم لو سلمنا أن معنى الآية كما قاله لكان ذلك مخصصاً للقتل من عموم الآيات المذكورة لا ناسخاً له، فإنه لم ينص في هذه الآية إلا على القتل وحده، وتلك الآيات شاملة له ولغيره، وهذا معلوم من لغة العرب التي هي المرجع في تفسير كلام الله سبحانه.

ولما أباح لهم الاقتصاص بالمثل، وشأن النفس حب المبالغة في الانتقام من العدو حذرهم من ذلك فقال ﴿واتقوا الله﴾ أي في حال كونكم منتصرين لأنفسكم ممن اعتدى عليكم فلا تعتدوا إلى ما لا يحل لكم ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ بالنصر والعون.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

﴿وأنفقوا في سبيل الله﴾ في هذه الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله وهو الجهاد بالمال، واللفظ يتناول غيره مما يصدق عليه أنه من سبيل الله، والإنفاق هو صرف المال في وجوه المصالح الدينية كالإنفاق في الحج والعمرة وصلة الرحم والصدقة وتجهيز الغزاة وعلى النفس والعيال وغير ذلك مما فيه قربة الله تعالى، لأن كل ذلك يصدق عليه أنه في سبيل الله، ولكن إطلاق هذا اللفظ ينصرف إلى الجهاد.

عن خزيمة بن فانك قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف» أخرجه الترمذي والنسائي^(١).

﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ الباء زائدة ومثله ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وقال المبرد: أي بأنفسكم تعبير بالبعض عن الكل كقوله ﴿بما كسبت أيديكم﴾ وقيل هذا مثل مضروب يقال فلان ألقى بيده في أمر كذا إذا استسلم لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيديه فكذلك فعل كل عاجز في أي فعل كان.

وقال قوم: التقدير ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم، وعبر بالأيدي عن الأنفس، لأن بها البطش والحركة، والتهلكة مصدر من هلك يهلك هلاكاً، وهلكاً وتهلكة أي لا تأخذوا فيما يهلككم، قال اليزيدي: التهلكة من نواذر المصادر ليست مما يجري على القياس.

وللسلف في معنى الآية أقوال، قال حذيفة: نزلت في النفقة أي تركها في

(١) صحيح الجامع الصغير ٥٩٨٦.

سبيل الله مخافة العيلة، وروي نحوه عن ابن عباس وعكرمة والحسن، وقال الحسن: هو البخل، وقال زيد بن أسلم: هو أن يهلك رجل من الجوع والعطش ومن المشي في البعث..

وقال أبو أيوب: كانت التهلكة الإقامة في الأموال وإصلاحها وترك الغزو، وقال البراء بن عازب: هو الرجل يذنب الذنب فيلقي بيديه فيقول لا يغفر الله لي أبداً، وروي عن النعمان بن بشير نحوه. وقيل أنه القنوط وقيل عذاب الله، وقيل غير ذلك.

والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما يصدق عليه أنه تهلكة في الدين أو الدنيا فهو داخل في هذا، وبه قال ابن جرير الطبري.

ومن جملة ما يدخل تحت الآية أن يقتحم الرجل في الحرب فيحمل على الجيش مع عدم قدرته على التخلص وعدم تأثيره لأثر ينفع المجاهدين.

ولا يمنع من دخول هذا تحت الآية إنكار من أنكره من الذين رووا السبب، فإنهم ظنوا أن الآية لا تجاوز سببها، وهو ظن تدفعه لغة العرب.

﴿وأحسنوا﴾ أي في الإنفاق في الطاعة أو الظن بالله في إخلافه عليكم وقال رجل من الصحابة معناه أدوا الفرائض، وقيل لا تقتروا ولا تسرفوا ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ المنفقين في سبيله الظانين به حسناً.

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ ۚ إِذَا جَعَلْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةً كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

﴿وأتوموا الحج والعمرة لله﴾ اختلف العلماء في المعنى المراد بإتمام الحج والعمرة فقليل أداؤهما والإتيان بهما من دون أن يشوبهما بشيء مما هو محظور، ولا يخل بشرط ولا فرض كقوله تعالى ﴿فأتمهن﴾ وقوله ﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن يخرج لهما لا لغيرهما. وقيل إتمامهما أن يفرد كل واحد منهما من غير تمتع ولا قران، وبه قال ابن حبيب.

وقال مقاتل: إتمامهما أن لا يستحلوا فيهما ما لا ينبغي لهن، وقيل إتمامهما أن يحرم لهما من دويرة أهله، وقيل أن ينفق في سفرهما الحلال الطيب.

وقد أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل وابن عبد البر في التمهيد عن يعلى بن أمية قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانة وعليه جبة وعليه أثر خلوق فقال كيف تأمرني يا رسول الله ﷺ أن أصنع في عمري، فأنزل الله ﴿وأتوموا الحج والعمرة لله﴾ فقال رسول الله ﷺ أين السائل عن العمرة فقال: ها أناذا قال «إخلع الجبة واغسل عنك أثر الخلوق، ثم ما كنت صانعاً في حجك فاصنعه في عمرتك» وقد أخرجه الشيخان وغيرهما من حديثه، ولكن فيها أنه أنزل عليه بعد السؤال ولم يذكر ما الذي أنزل عليه.

وقال ابن عباس: تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمره العقبة وزار البيت فقد حل، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت وبالصفا وبالروة فقد حل.

وقد ورد في فضل الحج والعمرة أحاديث كثيرة ليس هذا موطن ذكرها.

وقد اتفقت الأمة على وجوب الحج على من استطاع إليه سبيلاً، واستدل بهذه الآية على وجوب العمرة لأن الأمر بإتمامها أمر بها، وبذلك قال علي وابن عمر وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبي وسعيد ابن جبير ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعي وأحمد وإسحق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكية.

وقال مالك والنخعي وأصحاب الرأي كما حكاه ابن المنذر عنهم أنها سنة، وحكي عن أبي حنيفة أنه يقول بالوجوب.

ومن القائلين بأنها سنة ابن مسعود وجابر بن عبد الله.

ومن جملة ما استدل به الأولون ما ثبت عنه عليه السلام في الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هدي فليهل بحج وعمرة» وثبت عنه أيضاً في الصحيح أنه قال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة».

وأخرج الدارقطني والحاكم من حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت»^(١).

واستدل الآخرون بما أخرجه الشافعي في الأم وعبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن أبي صالح الحنفي قال: قال رسول الله ﷺ: «الحج جهاد والعمرة تطوع».

وأخرج ابن ماجة عن طلحة بن عبيد الله مرفوعاً مثله.

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه عن جابر: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن العمرة أواجبة هي، قال: لا وأن تعتمروا خير لكم.

(١) قطعة من حديث طويل أورده مسلم / ١٢١٨... دخلت العمرة في الحج - مرتين - لا بل لأبعد أبداً...

وأجابوا عن الآية والأحاديث المصرحة بأنها فريضة بحمل ذلك على أنه قد وقع الدخول فيها وهي بعد الشروع فيها واجبة بلا خلاف.

وهذا وإن كان فيه بعد لكنه يجب المصير إليه جمعاً بين الأدلة، ولا سيما بعد تصريحه ﷺ بما تقدم في حديث جابر من عدم الوجوب.

وعلى هذا يحمل ما ورد مما فيه دلالة على وجوبها كما أخرج الشافعي في الأم أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ لعمر بن حزم أن العمرة هي الحج الأصغر، وكحديث ابن عمر عند البيهقي في الشعب قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أوصني فقال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج وتعتصر وتسمع وتطيع، وعليك بالعلانية وإياك والسر».

وهكذا ينبغي حمل ما ورد من الأحاديث التي قرن فيها بين الحج والعمرة في أنها من أفضل الأعمال وأنها كفارة لما بينهما وأنها يهدمان ما كان قبلهما ونحو ذلك.

وأركان الحج خمسة الإحرام والوقوف بعرفة والطواف والسعي والحلق أو التقصير، وأركان العمرة أربعة الإحرام والطواف والسعي والحلق أو التقصير، وبهذه الأركان تمام الحج والعمرة.

﴿فإن أحصرتم﴾ أصل الحصر في اللغة الحبس والتضييق، قال أبو عبيدة والكسائي والخليل أنه يقال أحصر بالمرض وحصر بالعدو، وفي المجمل لابن فارس العكس، ورجح الأول ابن العربي قال وهو رأي أكثر أهل اللغة، وقال الزجاج: أنه كذلك عند جميع أهل اللغة، وقال الفراء: هما بمعنى واحد في المرض والعدو، ووافقه على ذلك أبو عمرو الشيباني فقال حصرني الشيء وأحصرني أي حبسني.

وبسبب هذا الاختلاف بين أهل اللغة اختلف أئمة الفقه في معنى الآية

فقالت الحنفية: المحصر من يصير ممنوعاً من مكة بعد الإحرام بمرض أو عدو أو غيره، وقالت الشافعية وأهل المدينة: المراد بالآية حصر العدو.

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن المحصر بعدو يحل حيث أحصر، وينحر هديه إن كان ثم هدي ويحلق رأسه كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو وأصحابه في الحديبية.

﴿فما استيسر من الهدي﴾ أي إن أحصرتم دون تمام الحج والعمرة فحللتم فالواجب أو فعليكم أو فانحروا أو فاهدوا ما تيسر، يقال يسر الأمر واستيسر كما يقال صعب واستصعب، وليس السين للطلب، والهدي والهدي لغتان وهما جمع هدية وهي ما يهدي إلى البيت من بدنة أو غيرها، ويقال في جمع الهدي أهداء.

واختلف أهل العلم في المراد بقوله ﴿فما استيسر﴾ فذهب الجمهور إلى أنه شاة، وقال ابن عمر وعائشة وابن الزبير: جمل أو بقرة، وقال الحسن: أعلى الهدي بدنة وأوسطه بقرة وأدناه شاة، وهذا الدم دم ترتب وتعديل كما أشار له ابن المقرئ.

﴿ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ هو خطاب لجميع الأمة من غير فرق بين محصر وغير محصر، وإليه ذهب جمع من أهل العلم، وذهبت طائفة إلى أنه خطاب للمحصرين خاصة أي لا تحلوا من الإحرام حتى تعلموا أن الهدي الذي بعثتموه إلى الحرام قد بلغ محله، وهو الموضع الذي يحل فيه ذبحه.

واختلفوا في تعيينه فقال مالك والشافعي: هو موضع الحصر اقتداء برسول الله ﷺ حيث أحصر في عام الحديبية، وقال أبو حنيفة: هو الحرم لقوله تعالى ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ وأجيب عن ذلك بأن المخاطب به هو الأمن الذي يمكنه الوصول إلى البيت، وأجاب الحنفية عن نحره ﷺ بالحديبية بأن طرف الحديبية الذي إلى أسفل مكة هو من الحرم، ورد بأن المكان الذي

وقع فيه النحر ليس هو من الحرم.

﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ المراد بالمرض هنا ما يصدق عليه مسمى المرض لغة، والمراد بالأذى من الرأس ما فيه من قمل أو صداع أو جراح ونحو ذلك فمن حلق فعليه فدية.

وقد بينت السنة ما أطلق هنا من الصيام والصدقة والنسك فثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى كعب بن عجرة وهو محرم وقمله يتساقط على وجهه فقال: يؤذيك هوام رأسك قال نعم، فأمره أن يحلق ويطعم ستة مساكين أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام^(١).

وقد ذكر ابن عبد البر أنه لا خلاف بين العلماء أن النسك هنا هو شاة، وحكى عن الجمهور أن الصوم هنا ثلاثة أيام والإطعام لستة مساكين.

وروي عن الحسن وعكرمة ونافع أنهم قالوا: الصوم في فدية الأذى عشرة أيام والإطعام لعشرة مساكين، والحديث الصحيح المتقدم يرد عليهم ويبطل قولهم.

وقد ذهب مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم وداود إلى أن الإطعام في ذلك مدان بمد النبي ﷺ أي لكل مسكين، وقال الثوري: نصف صاع من بر أو صاع من غيره، وروي ذلك عن أبي حنيفة، قال ابن المنذر: وهذا غلط لأن في بعض أخبار كعب أن النبي ﷺ قال له: تصدق بثلاثة أصع من تمر على ستة مساكين.

واختلفت الرواية عن أحمد فروي عنه مثل قول مالك والشافعي، وروي عنه أنه إن أطعم برأ فمد لكل مسكين، وإن أطعم تمرأ فنصف صاع.

واختلفوا في مكان هذه الفدية فقال عطاء ما كان من دم فبمكة وما كان

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

من طعام أو صيام فحيث شاء، وبه قال أصحاب الرأي، وقال طاوس والشافعي: الاطعام والدم لا يكونان إلا بمكة، والصوم حيث شاء وقال مالك ومجاهد: حيث شاء في الجميع، وهو الحق لعدم الدليل على تعيين المكان، وهذا الدم دم تخيير وتقدير.

﴿فإذا أمتم﴾ أي برئتم من المرض، وقيل من خوفكم من العدو، على الخلاف السابق ولكن الأمن من العدو أظهر من استعمال أمنهم في ذهاب المرض، فيكون مقوياً لقول من قال أن قوله ﴿فإن أحصرتم﴾ المراد به الإحصار من العدو كما أن قوله فمن كان منكم مريضاً يقوي قول من قال بذلك لإفراد عذر المرض بالذكر، وقد وقع الخلاف هل المخاطب بهذا هم المحصورون خاصة أم جميع الأمة على حسب ما سلف.

﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾ يعني أن يحرم الرجل بعمرة ثم يقيم حلالاً بمكة إلى أن يحرم بالحج فقد استباح بذلك ما لا يحل للمحرم استباحته، وهو معنى تمتع واستمتع، ولا خلاف بين أهل العلم في جواز التمتع بل هو أفضل أنواع الحج عند أهل التحقيق.

﴿فما استيسر من الهدي﴾ وهو شاة يذبحها يوم النحر فلو ذبحها قبله بعد ما أحرم بالحج أجزأه عند الشافعي، ولا يجزئه ذبحه عند أبي حنيفة قبل يوم النحر، وهذا الدم دم ترتيب وتقدير كما ذكره ابن المقرئ.

وقد اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أنواع من أنواع الدم الواجب في النسك وبقي الرابع يذكر في المائدة في قوله ﴿لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم﴾ الآية وهو دم تخيير وتعديل، ويجب في شيئين صيد وشجر.

﴿فمن لم يجد﴾ الهدي إما لعدم المال أو لعدم الحيوان ﴿فصيام ثلاثة أيام في﴾ أيام ﴿الحج﴾ وهي من عند شروعه في الإحرام إلى يوم النحر، ومع ذلك يجوز ذبحه قبل الإحرام به على القاعدة من أن كل حق مالي تعلق بسببين جاز

تقديمه على ثانيهما، وقيل يصوم قبل يوم التروية يوماً ويوم التروية ويوم عرفة، وقيل ما بين أن يحرم بالحج إلى يوم عرفة، وقيل يصومهن من أول عشر ذي الحجة، وقيل ما دام بمكة، وقيل أنه يجوز أن يصوم الثلاث قبل أن يحرم. وقد جوز بعض أهل العلم صيام أيام التشريق لمن لم يجد الهدي، ومنعه آخرون وبه قال الشافعي.

﴿وسبعة إذا رجعت﴾ أي إلى الأوطان والأهل، قال أحمد واسحق: يجزئه الصوم في الطريق ولا يتضييق عليه الوجوب إلا إذا وصل وطنه، وبه قال الشافعي وقتادة والربيع ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وغيرهم، وقال مالك إذا رجع من منى فلا بأس أن يصوم والأول أرجح.

وقد ثبت في الصحيح من حديث ابن عمر أنه قال ﷺ: «فمن لم يجد فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»^(١).

فبين ﷺ أن الرجوع المذكور في الآية هو الرجوع إلى الأهل، وثبت أيضاً في الصحيح من حديث ابن عباس بلفظ: «وسبعة إذا رجعت إلى أمصاركم»، وقيل إذا فرغتم من أعمال الحج، وبه قال أبو حنيفة، والأول أولى، وفيه التفات عن الغيبة.

وإنما قال سبحانه ﴿تلك عشرة كاملة﴾ مع أن كل أحد يعلم أن الثلاثة والسبعة: عشرة لدفع أن يتوهم متوهم التخير بين الثلاثة الأيام في الحج والسبعة إذا رجع، قاله الزجاج، وقال المبرد: ذكر ذلك ليدل على انقضاء العدد لئلا يتوهم متوهم أنه قد بقي منه شيء بعد ذكر السبعة، وقيل هو توكيد كما تقول كتبت بيدي، وقد كانت العرب تأتي بمثل هذه الفذلكة فيما دون هذا العدد.

وقوله ﴿كاملة﴾ توكيد آخر بعد الفذلكة لزيادة التوصية بصيامها وأن لا

(١) جزء من حديث رواه مسلم ١٢٢٧ / عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ينقص من عددها، والمعنى كاملة يعني في الثواب والأجر يعني أن ثواب صيام العشرة كثواب الذبح لا ينقص شيئاً، وقيل كاملة في قيامها مقام الهدي.

﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ الإشارة قيل هي راجعة إلى التمتع فيدل على أنه لا متعة لحاضري المسجد الحرام كما يقوله أبو حنيفة وأصحابه، قالوا: ومن تمتع منهم كان عليه دم وهو دم جنابة لا يأكل منه، وقيل أنها راجعة إلى الحكم وهو وجوب الهدي أو الصيام على من تمتع فلا يجب ذلك على من كان من حاضري المسجد الحرام كما يقوله الشافعي ومن وافقه، والمراد من لم يكن ساكناً في الحرم، أو من لم يكن ساكناً في المواقيت فما دونها، على الخلاف في ذلك بين الأئمة.

قال مالك: هم أهل مكة، وقال طاوس: هم أهل الحرم، وقال ابن جريج: هم أهل عرفة والرجيع وضجنان ونخلة، وقال الشافعي: من كان وطنه من مكة على أقل من مسافة القصر، وقال أبو حنيفة: هم أهل الميقات، والمواقيت ذو الحليفة والجحفة وقرن ويللم وذات عرق، وقيل من تلزمه الجمعة فيه.

قال السيوطي: والأهل كناية عن النفس أي نفس المحرم أي ذلك المحرم لم يكن هو نفسه حاضر المسجد الحرام، وهذا معنى سخيّف والأولى ما قاله غيره.

وحكى الرملي عن الطبري أن المراد بالأهل الزوجة والأولاد الذين تحت حجره دون الآباء والاختوة.

﴿واتقوا الله﴾ أي فيما فرض عليكم في هذه الأحكام، وقيل هو أمر بالتقوى على العموم وتحذير من شدة عقاب الله سبحانه ﴿واعلموا أن الله﴾ اظهار في موضع الاضمار لتربية المهابة في روع السامع ﴿شديد العقاب﴾ لمن خالف أمره وتهاون بحدوده وارتكب مناهيه، وهو من باب اضافة الصفة المشبهة إلى مرفوعها.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ
فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَكْرَدُوا فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى
وَأَتَّقُوا يَأْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

﴿الحج أشهر معلومات﴾ أي وقت الحج أشهر أو وقت عمل الحج،
وقيل التقدير الحج في أشهر، وقيل غير ذلك.

وقد اختلف في الأشهر المعلومات فقال ابن مسعود وابن عمر وعطاء
والربيع ومجاهد والزهري: هي شوال وذو القعدة، وذو الحجة كله، وبه قال
مالك.

وقال ابن عباس والسدي والشعبي والنخعي: هي شوال وذو القعدة
وعشر من ذي الحجة، وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد وغيرهم وقد روي
أيضاً عن مالك.

وتظهر فائدة الخلاف فيما وقع من أعمال الحج بعد يوم النحر فمن قال
ان ذا الحجة كله من الوقت قال لم يلزمه دم التأخير، ومن قال ليس إلا العشر
منه قال يلزمه دم التأخير.

وقد استدل بهذه الآية من قال أنه لا يجوز الاحرام بالحج قبل أشهر
الحج، وهو عطاء وطاوس ومجاهد والأوزاعي والشافعي وأبو ثور، قالوا: فمن
أحرم بالحج قبلها أحل بالعمرة ولا يجزئه عن إحرام الحج كمن دخل في صلاة
قبل وقتها فلا تجزئه، وقال أحمد وأبو حنيفة أنه مكروه فقط، وروي نحوه عن
مالك والمشهور عنه جواز الاحرام بالحج في جميع السنة من غير كراهة، وروي
مثله عن أبي حنيفة.

وعلى هذا القول ينبغي أن ينظر في فائدة توقيت الحج بالأشهر المذكورة في الآية، وقد قيل أن النص عليها لزيادة فضلها، وقد روي القول بجواز الإحرام في جميع السنة عن اسحاق بن راهويه وإبراهيم النخعي والثوري والليث بن سعد، واحتج لهم بقوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ فجعل الأهلة كلها مواقيت للحج، ولم يخص الثلاثة الأشهر، ويجاب بأن هذه الآية عامة وتلك خاصة والخاص مقدم على العام.

ومن جملة ما احتجوا به القياس للحج على العمرة فكما يجوز الإحرام للعمرة في جميع السنة كذلك يجوز للحج، ولا يخفى أن هذا القياس مصادم للنص القرآني فهو باطل.

والحق ما ذهب إليه الأولون إن كانت الأشهر المذكورة في قوله ﴿الحج أشهر﴾ مختصة بالثلاثة المذكورة بنص أو إجماع، فإن لم يكن كذلك فالأشهر، جمع شهر، وهو من جموع القلة يتردد ما بين الثلاثة إلى العشرة والثلاثة هي المتيقنة فيجب الوقوف عندها.

ومعنى معلومات أن الحق في السنة مرة واحدة في أشهر معلومات من شهورها ليس كالعمرة، أو المراد معلومات ببيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أو معلومات عند المخاطبين لا يجوز التقدم عليها ولا التأخر عنها.

﴿فمن فرض﴾ على نفسه ﴿فيهن الحج﴾ أي أوجبه عليها وألزمه إياها، وأصل الفرض في اللغة الحز والقطع، ومنه فرضة القوس والنهر والجبل، وفرضية الحج لازمة للعبد الحر كلزوم الحز للقوس، وقيل معنى فرض أبان وهو أيضاً يرجع إلى القطع لأن من قطع شيئاً فقد أبانه عن غيره.

وقال ابن مسعود: الفرض الإحرام، وقال ابن الزبير: الإهلال، وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين، والمعنى في الآية فمن ألزم نفسه وأوجب

عليها فيهن الحج بالشروع فيه بالنية قصداً باطناً، وبالإحرام فعلاً ظاهراً وبالتلبية نطقاً مسموعاً، وقال أبو حنيفة إن إزامه نفسه يكون بالتلبية أو بتقليد الهدي وسوقه، وقال الشافعي: تكفي النية في الإحرام بالحج.

﴿فلا رث﴾ قال ابن عباس وابن جبير والسدي وقتادة والحسن وعكرمة والزهري ومجاهد ومالك هو الجماع، وفي رواية عن ابن عباس هو غشيان النساء والتقبيل والغمز، وقال ابن عمر وطاوس وعطاء وغيرهم: الرث الإفحاش بالكلام والحناء، والقول القبيح، وعلى هذا التلفظ به في غيبة النساء يكون رثاً، وقال أبو عبيدة الرث اللغا من الكلام.

﴿ولا فسوق﴾ أصله الخروج عن حدود الشرع وعن الطاعة، وقيل هو الذبح للأصنام، وقيل التنازع بالألقاب، وقيل السباب، وقال ابن عمر: هو ما نهى عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظفار وأخذ الشعر وما أشبه ذلك.

والظاهر أنه لا يختص بمعصية معينة، وإنما خصصه من خصصه بما ذكر باعتبار أنه قد أطلق على ذلك الفرد إسم الفسوق كما قال سبحانه في الذبح للأصنام ﴿أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ وقال في التنازع ﴿بئس الإسم الفسوق﴾ وقال ﷺ «سباب المسلم فسوق»^(١) ولا يخفى على عارف أن إطلاق إسم الفسوق على فرد من أفراد المعاصي لا يوجب اختصاصه به.

﴿ولا جدال﴾ مشتق من الجدل وهو القتال، والمراد به هنا المماراة وقيل السباب، وقيل الفخر بالأباء، والظاهر الأول ومعنى النفي لهذه الأمور والنهي عنها.

(١) رواه مسلم ٦٤/ وتتمته وقتاله كفر.

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ الرفث التعريض للنساء بالجماع، والفسوق المعاصي كلها والجدال جدال الرجل صاحبه، وروي نحو هذا عن جماعة من التابعين بعبارات مختلفة.

قال ابن عباس: الجدال هو المراء، قيل هو قول الرجل: الحج اليوم، ويقول آخر الحج غداً، وقيل هو ما كان عليه أهل الجاهلية كان بعضهم يقف بعرفة وبعضهم بمزدلفة وبعضهم يحج في ذي القعدة وبعضهم في ذي الحجة، وكل يقول الصواب فيما فعلته، فأخبر الله أن أمر الحج قد استقر على ما فعله رسول الله ﷺ فلا خلاف فيه بعده.

﴿في الحج﴾ أي في أيامه ونكتة الإظهار كمال الإعتناء بشأنه والإشعار بعلّة الحكم، فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها من موجبات ترك الأمور المذكورة، وإيثار النفي للمبالغة في النهي، والدلالة على أن ذلك حقيق بأن لا يقع، فإن ما كان منكراً مستقبلاً في نفسه ففي خلال الحج أقبح كلبس الحرير في الصلاة لأنه خروج عن مقتضى الطبع والعادة إلى محض العبادة.

ظاهر الآية في الثلاثة خبر ومعناه نهى، وإنما نهى عن ذلك وإن كان اجتنابها في كل الأحوال والأزمان واجباً لأنها في الحج أسمع وأفطع منه في غيره، وقيل معناه ولا شك في الحج أنه في ذي الحجة فأبطل النسئ.

وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»^(١) أخرجه البخاري ومسلم.

﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ حث على الخير بعد ذكر الشر، وعلى

(١) رواه مسلم / ١٣٥٠ وبرواية من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه.

الطاعة بعد ذكر المعصية، وهو أن يستعملوا مكان الرفث الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة، وفيه أن كل ما يفعلونه من ذلك فهو معلوم عند الله لا يفوت منه شيء.

﴿وتزودوا﴾ ما يبلغكم لسفركم ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ أي ما يتقى به سؤال الناس وغيره، فيه الأمر باتخاذ الزاد لأن بعض العرب كانوا يقولون كيف نحج بيت ربنا ولا يطعمنا فكانوا يحجون بلا زاد، ويقولون نحن متوكلون على الله سبحانه ثم يقدمون فيسألون الناس ويكونون كلاً عليهم، فأنزل الله هذه الآية، أخرجه عبد بن حميد والبخاري وأبو داود والنسائي وغيرهم عن ابن عباس، وقد روي عن جماعة من التابعين مثل ذلك.

قال ابن الجوزي: قد لبس إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد، وظنوا أن هذا هو التوكل، وهم على غاية من الخطأ.

وقيل المعنى تزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة فإن خير الزاد التقوى، والأول أرجح كما دل عليه سبب نزول الآية، وفيه إخبار بأن خير الزاد اتقاء المنهيات، فكأنه قال اتقوا الله في إتيان ما أمركم به من الخروج بالزاد فإن خيره التقوى، وقيل المعنى فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من التهلكة والحاجة إلى السؤال والتكفف.

﴿واتقون﴾ أي وخافوا عقابي. وقيل اشتغلوا بتقواي، وفيه تنبيه على كمال عظمة الله جل جلاله ﴿يا أولي الألباب﴾ فيه التخصيص لأولي الألباب بالخطاب بعد حث جميع العباد على التقوى، لأن أرباب الألباب والعقول هم القابلون لأوامر الله الناهضون بها، ولب كل شيء خالصه.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ
مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا
هَدَىٰكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ فيه الترخيص لمن حج في التجارة ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق، وهو المراد بالفضل هنا، ومنه قوله تعالى ﴿فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ أي لا إثم عليكم في أن تبتغوا في مواسم الحج رزقاً ونفعاً وهو الربح في التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج، نزل رداً لكرهتهم ذلك.

والحق أن الإذن في هذه التجارة جار مجرى الرخص وتركها أولى لقوله تعالى ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ والإخلاص هو أن لا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة.

﴿فإذا أفضتم من عرفات﴾ يقال فاض الإناء إذا امتلأ ماء حتى ينصب من نواحيه، ورجل فياض أي مندفعه يده بالعطاء، ومعناه أفضتم أنفسكم، فترك ذكر المفعول كما ترك في قولهم دفعوا من موضع كذا، وعرفات اسم لتلك البقعة كأذرعات أي موضع الوقوف، وعرفة اسم اليوم وسميت عرفات لأن الناس يتعارفون فيها، وقيل لأن آدم التقى هو وحواء فيها فتعارفا، وقيل غير ذلك.

قال ابن عطية: والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع إلا على القول بأن أصله جمع، واستدل بالآية على وجوب الوقوف بعرفة لأن الإفاضة لا تكون إلا بعده ولا يتم الحج إلا به، ووقت الإفاضة من عرفات بعد غروب

الشمس، فإذا غربت دفع منها وآخر صلاة المغرب حتى يجمع بينها وبين العشاء بمزدلفة.

﴿فاذكروا الله﴾ المراد بذكر الله هنا دعاؤه ومنه التلبية والتكبير أي اذكروه لذاته من غير ملاحظة نعمه، لأنه تعالى يستحق الحمد من حيث ذاته ومن حيث انعامه على خلقه، فحصلت المغايرة بين هذا وقوله ﴿واذكروه كما هداكم﴾ وقيل المراد بالذكر صلاة المغرب والعشاء بالمزدلفة جمعاً، وقد أجمع أهل العلم على أن السنة أن يجمع الحاج بينهما فيها.

﴿عند المشعر الحرام﴾ سمي مشعراً من الشعار وهو العلامة، والدعاء عنده من شعائر الحج ووصف بالحرام لحرمة من التحريم وهو المنع، فهو ممنوع من أن يفعل فيه ما لم يؤذن فيه، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم وقف به يذكر الله ويدعو حتى أسفر جداً، رواه مسلم أي دخل في السفر بفتحيتين وهو بياض النهار، قاله الشوبري، والمشعر هو جبل قزح الذي يقف عليه الإمام، وقيل هو ما بين جبلي المزدلفة من مأزمي عرفة إلى وادي محسر.

﴿واذكروه﴾ ذكراً حسناً ﴿كما هداكم﴾ هداية حسنة، وكرر الأمر بالذكر تأكيداً، وقيل الأول أمر بالذكر عند المشعر الحرام، والثاني أمر بالذكر على حكم الإخلاص، وقيل المراد بالثاني تعديد النعمة عليهم والكاف للتعليل.

﴿وإن كنتم من قبله لمن الضالين﴾ الضمير في قبله عائد إلى الهدى، وقيل إلى القرآن، وقيل إلى الرسول، والضلalin الجاهلين بالإيمان والطاعة قاله الخطيب، وقيل جاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدون.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ فيه الخطاب للحمس من قريش لأنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كانوا يقفون بالمزدلفة وهي من الحرم، فأمروا بذلك.

وقد ورد في هذا المعنى روايات عن الصحابة والتابعين عند البخاري ومسلم وغيرهما، وعلى هذا يكون ثم لعطف جملة بمعنى الواو لا للترتيب، وقيل الخطاب لجميع الأمة، والمراد بالناس «إبراهيم» أي أفيضوا من حيث أفاض إبراهيم فيحتمل أن يكون أمراً لهم بالإضافة من عرفة، ويحتمل أن تكون إفاضة أخرى وهي التي من مزدلفة، وعلى هذا يكون «ثم» على بابها للترتيب في الذكر لا في الزمان الواقع فيه الأعمال، وقد رجح هذا الاحتمال الأخير ابن جرير الطبري وهو الذي يقتضيه ظاهر القرآن.

﴿واستغفروا الله﴾ أي من مخالفتكم في الموقف وجميع ذنوبكم، وإنما أمروا بالاستغفار لأنهم في مساقط الرحمة، ومواطن القبول، ومظنات الإجابة، وقيل أن المعنى استغفروا للذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم وهو وقوفكم بالمزدلفة دون عرفة، وقد وردت أحاديث كثيرة في المغفرة لأهل عرفة ونزول الرحمة عليهم وإجابة دعائهم^(١).

﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي سائر لذنوب عباده برحمته، وفيه دليل على أنه يقبل التوبة من عباده التائبين ويغفر لهم.

(١) منها: أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلته أنا والنبيون من قبل لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

ومنها: ما من يوم أكثر أن يعتق الله فيه عدداً من النار من يوم عرفة.

ومنها: ما رؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدهر ولا أغبط منه في يوم عرفة.

فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ
ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾

﴿فإذا قضيت مناسككم﴾ المراد بالمناسك أعمال الحج، ومنه قوله ﷺ
«خذوا عني مناسككم» أي فإذا فرغتم من أعمال الحج، وقيل المراد بها
الذبايح وذلك بعد رمي جمره العقبة والاستقرار بمكة.

﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ إنما قال سبحانه ذلك لأن
العرب كانوا إذا فرغوا من حجهم يقفون عند الجمرة، وقيل عند البيت
فيذكرون مفاخر آبائهم ومناقب أسلافهم بالمشور والمنظوم من الكلام الفصيح،
وغرضهم بذلك الشهرة والسمعة والرفعة، فلما من الله عليهم بالإسلام أمرهم
بذكره مكان ذلك الذكر، ويجعلونه ذكراً مثل ذكرهم لأبائهم أو أشد من
ذكرهم لأبائهم، والذكر له بالتمجيد والتحميد والتهليل والتسبيح والتكبير
والثناء عليه، وقيل أو بمعنى الواو أي وأكثروا ذكر الله تعالى من ذكركم للأباء
لأنه هو المنعم عليكم وعلى آبائكم فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً.

﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق﴾
لما أرشد سبحانه عباده إلى ذكره وكان الدعاء نوعاً من أنواع الذكر جعل من
يدعوه منقسماً إلى قسمين: أحدهما يطلب حظ الدنيا ولا يلتفت إلى حظ
الآخرة، والقسم الآخر يطلب الأمرين جميعاً، والخلاق النصيب أي ما لهذا
الداعي في الآخرة من نصيب لأن همه مقصور على الدنيا لا يريد غيرها، ولا
يطلب سواها.

وفي هذا الخبر معنى النهي عن الاقتصار على طلب الدنيا والذم لمن جعلها غاية رغبته ومعظم مقصوده.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» أخرجه البخاري، وهذا دعاء عليه بالهلاك.

وفي الباب أحاديث كثيرة وإنما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لانهم كانوا ينكرون البعث.

﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ قد اختلف في تفسير الحسنتين المذكورتين في الآية ف قيل هما ما يطلبه الصالحون في الدنيا من العافية وما لا بد منه من الرزق، وما يطلبونه في الآخرة من نعيم الجنة والرضا، وقيل المراد بحسنة الدنيا الزوجة الحسنة، وبحسنة الآخرة الحور العين، وقيل حسنة الدنيا العلم والعبادة وحسنة الآخرة الجنة وقيل الأولى العمل الصالح والثانية المغفرة والثواب، وقيل من آتاه الله الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتي فيهما حسنة، وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره.^(١)

قال القرطبي: والذي عليه أكثر أهل العلم أن المراد بالحسنتين نعيم الدنيا والآخرة قال وهذا هو الصحيح فإن اللفظ يقتضي هذا كله، فإن «حسنة» نكرة في سياق الدعاء فهو محتمل لكل حسنة من الحسنات على البدل، وحسنة الآخرة الجنة بإجماع انتهى.

(١) وقال القرطبي: قال ابن عباس: إن عند الركن ملكاً قائماً منذ خلق الله السموات والأرض يقول آمين فقولوا: (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) القرطبي ٤٣٤/٢.

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴿٢٠١﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٢﴾

﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الثاني فقط ﴿لهم نصيب مما﴾ أي من جنس ما ﴿كسبوا﴾ من الأعمال أي من ثوابها ومن جملة أعمالهم الدعاء فما أعطاهم بسببه من الخير فهو مما كسبوا، وقيل معناه من أجل ما كسبوا وهو بعيد، وقيل قوله أولئك إشارة إلى الفريقين جميعاً أي للأولين نصيب من الدنيا ولا نصيب لهم في الآخرة وللآخرين نصيب مما كسبوا في الدنيا والآخرة ﴿والله سريع الحساب﴾ الحساب مصدر كالمحاسبة وأصله العدد والمراد هنا المحسوب سمي حساباً تسمية للمفعول بالمصدر.

والمعنى أن حسابه لعباده في يوم القيامة سريع مجيئه فبادروا ذلك بأعمال الخير أو أنه وصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وأعمالهم ليدل ذلك على كمال قدرته، لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى آلة ولا إمارة ولا مساعدة فيحاسبهم في حالة واحدة كما قال تعالى ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾.

وقال السيوطي: يحاسب الخلق كلهم في قدر نصف من نهار من أيام الدنيا لحديث بذلك انتهى.

وهذا تمثيل للسرعة لا تعيين لمقدار زمن الحساب، وقيل معناه أن الله يعلم العباد ما لهم وما عليهم، وهذا أبعد، وقيل المحاسبة المجازاة ويدل عليه قوله ﴿فحاسبناها حساباً شديداً﴾ وقيل معناه أنه سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، وقيل معنى الآية أن إتيان القيامة قريب لا محالة. وفيه إشارة إلى المبادرة بالتوبة والذكر وسائر الطاعات وطلب الآخرة.

﴿واذكروا الله﴾ يعني بالتوحيد والتعظيم والتكبير في أدبار الصلوات وعند رمي الجمرات، فقد ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كبر مع كل حصاة، والخطاب للحاج وغيره كما ذهب إليه الجمهور، وقيل هو خاص بالحاج.

﴿في أيام معدودات﴾ قال القرطبي: لا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى وهي أيام التشريق الثلاثة، وهي أيام رمي الجمار، أولها اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وهو مذهب الشافعي، وبه قال ابن عمر وابن عباس والحسن وعطاء ومجاهد وقتادة.

وقال إبراهيم: الأيام المعدودات أيام العشر، والأيام المعلومات أيام النحر، وكذا روي عن مكي والمهدوي، قال القرطبي: ولا يصح لما ذكرناه من الإجماع على ما نقله أبو عمر ابن عبد البر وغيره.

عن أبي يوسف: الأيام المعلومات أيام النحر، قال لقوله تعالى ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ وقال محمد بن الحسن: هي أيام النحر الثلاثة يوم الأضحى ويومان بعده وهو قول علي، وروي عن ابن عمر، وهو مذهب أبي حنيفة.

قال الكيا الطبري: فعلى قول أبي يوسف ومحمد لا فرق بين المعلومات والمعدودات لأن المعدودات المذكورة في القرآن أيام التشريق بلا خلاف، وروي عن مالك أن الأيام المعدودات والأيام المعلومات يجمعها أربعة أيام يوم النحر وثلاثة أيام بعده، فيوم النحر معلوم غير معدود، واليومان بعده معلومان معدودان. واليوم الرابع معدود لا معلوم، وهو مروى عن ابن عمر.

قال ابن زيد: الأيام المعلومات عشر ذو الحجة وأيام التشريق.

وأجمع العلماء على أن المراد بهذا هو التكبير عند رمي الجمرات مع كل حصاة يرمي بها في جميع أيام التشريق، وهو سنة بالاتفاق، وعن نبیثة الهذلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله تعالى^(١)، رواه مسلم، ومن الذكر في هذه الأيام التكبير.

وروى البخاري عن ابن عمر أنه كان يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه وفي فسطاطه وفي مجلسه وفي ممشاه في تلك الأيام جميعاً.

وقد اختلف أهل العلم في وقته فقليل من صلاة الصبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق، فيكون التكبير على هذا في ثلاث وعشرين صلاة، وهو قول علي بن أبي طالب ومكحول، وبه قال أبو يوسف ومحمد، وقيل من غداة عرفة إلى صلاة العصر من آخر النحر، وبه قال أبو حنيفة وابن مسعود، وعلى هذا يكون التكبير في ثمان صلوات، وقيل من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال مالك والشافعي فيكون التكبير على هذا في خمس عشرة صلاة، وهو قول ابن عباس وابن عمر، ولفظ التكبير عند الشافعي الله أكبر ثلاثاً نسقاً وعند أهل العراق مرتين.

﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ اليومان هما يوم ثاني النحر ويوم ثالثه من أيام التشريق، قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة والنخعي من رمى في اليوم الثاني من الأيام المعدودات فلا حرج ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج.

فمعنى الآية كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيذاً لأن من العرب من كان يذم التعجل، ومنهم من كان يذم التأخر، فنزلت الآية

(١) رواه مسلم ١١٤١.

رافعة للجناح في كل ذلك.

وقال علي وابن مسعود: معنى الآية من تعجل فقد غفر له، ومن تأخر فقد غفر له.

والآية قد دلت على أن التعجل والتأخر مباحان ولا بد من ارتكاب مجاز في قوله ﴿يومين﴾ من حيث أنه جعل الواقع في أحدهما واقعاً فيهما كقوله ﴿نسيا حوتهما﴾ ويخرج منها اللؤلؤ والمرجان ﴿وجعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ والناسي أحدهما وكذلك المخرج منه، والجاعل له أحدهما أو من حيث حذف المضاف أي في ثاني يومين والأول أولى.^(١)

﴿لمن اتقى﴾ أي أن ذلك التخيير ورفع الإثم ثابت لمن اتقى، لأن صاحب التقوى يحترز عن كل ما يريبه، فكان أحق بتخصيصه بهذا الحكم، قال الأخفش: التقدير ذلك لمن اتقى بعد انصرافه من الحج عن جميع المعاصي، وقيل لمن اتقى قتل الصيد، وقيل معناه السلامة لمن اتقى، وقيل أي الذكر لمن اتقى في حجه لأنه الحاج في الحقيقة.

﴿واتقوا الله﴾ أي في المستقبل ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وفيه حث على التقوى، وهو عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات.

(١) وقد روى القرطبي عن النخعي والحسن أنها قالوا: من أدركه العصر وهو غني من اليوم الثاني من أيام التشريق لم ينفر حتى الغد.

وروى الدارقطني ٣٠٠/٢ عن أبي سعيد الخدري: قلنا يا رسول الله هذه الجمار التي يرمى بها كل عام فحسب أنها تنقص فقال: إنه ما تقبل منها رفع ولولا ذلك لرأيتها مثل الجبال.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ
وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾

﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ أي يروك وتستحسنه ويعظم في قلبك حلاوة كلامه مما يتعلق بأمر الدنيا، والإعجاب استحسان الشيء والميل إليه والتعظيم له.

وقال الراغب: العجب حيرة تعرض للإنسان بسبب الشيء، وليس هو شيئاً له في ذاته حالة حقيقية بل هو بحسب الإضافات إلى من يعرف السبب ومن لا يعرفه، وحقيقة أعجبنى كذا ظهر لي ظهوراً لم أعرف سببه انتهى.

لما ذكر سبحانه طائفتي المسلمين بقوله ﴿ومن الناس من يقول﴾ عقب ذلك بذكر طائفة المنافقين وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وقيل إنها نزلت في قوم من المنافقين، وقيل إنها نزلت في كل من أضمر كفراً أو نفاقاً أو كذباً وأظهر بلسانه خلافه.

﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ أي أنه يحلف على ذلك فيقول إني بك مؤمن ولك محب أو يقول الله يعلم أني أقول حقاً وأني صادق في قولي لك، أو أن ما في قلبي موافق لقولي ﴿وهو ألد الخصام﴾ أي شديد الخصومة يقال رجل ألد، وامرأة لداء، والخصام مصدر خاصم قاله الخليل؛ وقيل جمع خصيم قاله الزجاج.

والمعنى أنه أشد المخاصمين خصومة لكثرة جداله وقوة مراجعته، والإضافة بمعنى في، أي ألد في الخصام أو جعل الخصام ألد على المبالغة أي شديد الجدل في الباطل؛ وهو كاذب القول؛ وقيل شديد القسوة في المعصية يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة؛ وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم^(١)؛ أخرجه البخاري ومسلم.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ
 الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي إذا أدبر وذهب عنك يا محمد ﷺ وقيل أنه ضل وغضب، وقيل أنه بمعنى الولاية أي إذا كان والياً بفعل ما يفعله ولاية السوء من الفساد في الأرض، والسعي يحتمل أن يكون المراد به السعي بالقدمين إلى ما هو فساد في الأرض كقطع الطريق وقطع الأرحام وحرب المسلمين وسفك دمائهم، ويحتمل أن يكون المراد به العمل في الفساد وإن لم يكن فيه سعي بالقدمين كالتدبير على المسلمين بما يضرهم وأعمال الخيل عليهم؛ وكل عمل يعمل به الإنسان بجوارحه أو حواسه يقال له سعي وهذا هو الظاهر من هذه الآية.

﴿ويهلك الحرث والنسل﴾ من عطف الخاص على العام فإن الفساد أعم من ذلك فيشمل سفك الدماء ونهب الأموال وغير ذلك، والمراد بالحرث الزرع والنسل الأولاد، وقيل الحرث النساء، قال الزجاج: وذلك لأن النفاق يؤدي إلى تفريق الكلمة ووقوع القتال وفيه هلاك النسل.

وقال مجاهد: الحرث نبات الأرض، والنسل نسل كل شيء من الحيوان الناس والدواب، وعنه أيضاً قال: معنى الآية يلي في الأرض فيعمل فيها بالعدوان والظلم فيحبس الله بذلك القطر من السماء فيهلك بحبس القطر الحرث والنسل.

وقال ابن عباس: نسل كل دابة، وأصل الحرث في اللغة الشق ومنه المحراث لما يشق به الأرض، والحرث كسب المال وجمعه، وأصل النسل في اللغة الخروج والسقوط ومنه نسل الشعر، ومنه (أيضاً إلى ربهم ينسلون)، (ومن

كل حذب ينسلون)، ويقال لما خرج من كل أنثى نسل لخروجه منها.

﴿والله لا يحب الفساد﴾ يشمل كل نوع من أنواعه من غير فرق بين ما فيه فساد الدين وما فيه فساد الدنيا، واحتجت المعتزلة بهذه الآية على أن المحبة عبارة عن الإرادة، وأجيب عنه بأن الإرادة معنى غير المحبة فإن الإنسان قد يريد شيئاً ولا يحبه كالدواء المر يتناوله ولا يحبه، فبان الفرق بينهما، وقيل إن المحبة مدح الشيء وتعظيمه، والإرادة بخلاف ذلك.

﴿وإذا قيل له﴾ أي على سبيل النصيحة وهي مستأنفة أو معطوفة على يعجبك ﴿اتق الله﴾ أي خف الله في شرك وعلايتك ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ العزة القوة والغلبة، من عزه يعزه إذا غلبه ومنه ﴿وعزني في الخطاب﴾ وقيل العزة هنا الحمية والأنفة وقيل المنعة وشدة النفس.

والمعنى حملته العزة على فعل الإثم، من قولك أخذته بكذا إذا حملته عليه وألزمته إياه، قاله الزمخشري، وقيل أخذته العزة بما يؤثمه أي ارتكب الكفر للعزة، ومنه ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ وقيل الباء في قوله بالإثم بمعنى اللام أي أخذته الحمية عن قبول الوعظ للإثم الذي في قلبه وهو النفاق، وقيل الباء بمعنى مع أي أخذته العزة مع الإثم، وقيل للسببية أي إن إثمهم كان سبباً لأخذ العزة له.

وفي هذه الآية التتميم، وهو نوع من علم البديع وهو عبارة عن إرداف الكلمة بأخرى ترفع عنها اللبس وتقربها إلى الفهم، وذلك أن العزة تكون محمودة ومذمومة، فمن مجيئها محمودة قوله تعالى ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها المحمودة فقليل ﴿بالإثم﴾ توضيحاً للمراد، فرفع اللبس به، قاله السمين.

قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقول الرجل لأخيه اتق الله فيقول عليك بنفسك أنت تأمرني، وعن سفيان قال: قال رجل لمالك ابن مغول اتق الله فسقط فوضع خده على الأرض تواضعاً لله.

﴿فحسبه جهنم﴾ أي كافيه معاقبة وجزاء كما تقول للرجال كفاك ما حل بك، وأنت تستعظم عليه ما حل به وحسب اسم فاعل، وقيل اسم فعل ﴿ولبئس المهاد﴾ جمع المهد وهو الموضع المهيأ للنوم ومنه مهد الصبي، وقيل اسم مفرد سمي به الفراش الموطأ للنوم وسميت جهنم مهاداً لأنها مستقر الكفار، وقيل المعنى أنها بدل لهم من المهاد كقوله ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وقال مجاهد: بئس مهادوا لأنفسهم، وقال ابن عباس: بئس المنزل وهذا من باب التهكم والاستهزاء.

﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾ يشري بمعنى يبيع أي يبيع نفسه في مرضاة الله كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال قتادة: هم المهاجرون والأنصار، ومثله قوله تعالى ﴿وشروه بثمن بخس﴾ وأصله الاستبدال ومنه قوله ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ والمرضاة الرضا، قال ابن عباس: نزلت في سرية الرجيع وكانت بعد أحد، وفي البخاري تمام قصته عن حديث أبي هريرة فإن شئت فارجع إليه.

﴿والله رؤوف بالعباد﴾ وجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجبه ليجازيهم ويثيبهم عليه، فكان ذلك رأفة لهم ولطفاً بهم، ومن رأفته أن جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن المصر على الكفر ولو مائة سنة إذا تاب ولو لحظة أسقط عنه عقاب تلك السنين وأعطاه الثواب الدائم.

ومن رأفته أن نفس العباد وأموالهم له ثم أنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً.

وهذه أربعة أقسام اشتملت عليها تلك الآيات الكريمات أولها راغب في الدنيا فقط ظاهراً وباطناً، والثاني راغب فيها وفي الآخرة كذلك، والثالث راغب في الآخرة وفي الدنيا باطناً، والرابع راغب في الآخرة ظاهراً وباطناً معرض عن الدنيا كذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ
الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾ لما ذكر سبحانه أن الناس ينقسمون إلى ثلاث طوائف مؤمنين وكافرين ومنافقين، أمرهم بعد ذلك ما يكون على ملة واحدة، وإنما أطلق على الثلاث الطوائف لفظ الإيمان لأن أهل الكتاب مؤمنون بنبيهم وكتابهم، والمنافق مؤمن بلسانه وإن كان غير مؤمن بقلبه، والسلم بفتح السين وكسرهما، قال الكسائي: معناهما واحد، وكذا عند البصريين وهما جميعاً يقعان للإسلام والمسالمة.

وقال أبو عمرو بن العلاء: أنه بالفتح للمسالمة وبالكسر للإسلام، وأنكر المبرد هذه التفرقة.

وقال الجوهري: السلم بفتح السين ويكسر ويؤنث أصله من الاستسلام والانقياد، ورجح الطبري أنه هنا بمعنى الإسلام، وقد حكى البصريون في سلم وسلم أنها بمعنى واحد، ﴿وكافة﴾ حال من السلم أو من ضمير المؤمنين فمعناه على الأول لا يخرج منكم أحد، وعلى الثاني لا يخرج من أنواع السلم شيء بل ادخلوا فيها جميعاً أي في خصال الإسلام، وهو مشتق من قولهم كففت أي منعت أي لا يمتنع منكم أحد من الدخول في الإسلام، والكف المنع، والمراد به هنا الجميع.

﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي لا تسلكوا الطريق التي يدعوكم إليها الشيطان، وقيل لا تلتفتوا إلى الشبهات التي تلقيها إليكم أصحاب الضلاله والغواية والأهواء المضلة لأن من تبع سنة إنسان فقد اتبع أثره، وقد

تقدم الكلام على خطوات .

﴿إنه لكم عدو مبين﴾ يعني الشيطان وأنه يحاول إيصال الضرر والبلاء إلينا، وإن الله بينَ عداوته ما هي، فكأنه مبين وإن لم يشاهد، وهذا البيان بالنسبة لمن أنار الله قلبه، وأما غيره فهو حليف له .

﴿فإن زللت﴾ أي تنحيتم عن طريق الاستقامة، وأصل الزلل في القدم ثم استعمل في الاعتقادات والآراء وغير ذلك، يقال زل يزل زلاً، وزلواً أي دحضت قدمه، والمعنى فإن ملتكم وضللتكم وأشركتم وعرجتم عن الحق .

﴿من بعد ما جاءكم البينات﴾ أي بالحجج الواضحة والبراهين الصحيحة على أن الدخول في الإسلام هو الحق ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ غالب لا يعجزه شيء عن الانتقام ﴿حكيم﴾ لا ينتقم إلا لحق، وفي الآية وعيد وتهديد لمن في قلبه شك ونفاق أو عنده شبهة في الدين^(١).

(١) حكى النقاش أن كعب الأحبار لما أسلم كان يتعلم القرآن . فأقرأه الذي كان يعلمه ﴿فاعلموا﴾ أن الله غفور رحيم .

فقال كعب: اني لأستنكر أن يكون هكذا .

ومر بهما رجل فقال كعب: كيف تقرأ هذه الآية .

فقال الرجل: ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾

فقال كعب: هكذا ينبغي .

في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ يَلَكَمَ أَتَيْنَهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ
نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يُرْزِقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

﴿هل ينظرون﴾ استفهام إنكاري أي ينتظرون يقال نظرتَه وانتظرته بمعنى، والمراد هل ينتظر الزالون التاركون للدخول في الإسلام والمتبعون خطوات الشيطان، فهو التفات إلى الغيبة للإيذان بأن سوء صنيعهم موجب للإعراض عنهم، وحكاية جنائهم لما عداهم من أهل الإنصاف على طريق الإهانة.

﴿إلا أن يأتيهم الله﴾ بما وعدهم من الحساب والعذاب، استثناء مفرغ من مقدر أي ليس لهم شيء ينتظرونه إلا إتيان العذاب، وهذا مبالغة في توبيخهم ﴿في ظل﴾ جمع ظلة وهي ما يظلك، وقال الأخفش: وقد يحتمل أن يكون معنى الإتيان راجعاً إلى الجزاء فسمى الجزاء إتياناً كما سمي التخويف والتعذيب في قصة ثمود إتياناً فقال ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ وقال في قصة النضير ﴿فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾.

وإنما احتمل الإتيان هذا لأن أصله عند أهل اللغة القصد إلى الشيء، فمعنى الآية هل ينظرون إلا أن يظهر الله فعلاً من الأفعال مع خلق من خلقه يقصد إلى محاربتهم وقيل أن المعنى يأتيهم أمر الله وحكمه، وقيل أن قوله ﴿في ظل﴾ بمعنى بظل، وقيل المعنى يأتيهم ببأسه في ظل.

﴿من الغمام﴾ يعني السحاب الرقيق الأبيض، سمي بذلك لأنه يغم أي يستر، ووجه إتيان العذاب في الغمام على تقدير أن ذلك هو المراد ما في مجيء الخوف من محل الأمن من الفظاعة وعظم الموقع، لأن الغمام مظنة الرحمة لا مظنة العذاب، وهذا أبلغ في تبكيثهم وتخويفهم.

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ينظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي^(١)».

وعن ابن عمر قال: يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب.

وعن ابن عباس: يأتي الله يوم القيامة في ظلل من السحاب قد قطعت طاقات.

والتقدير في ظلل كائنة من الغمام، «ومن» على هذا للتبعيض أو من ناحية الغمام، وهي على هذا لابتداء الغاية.

﴿والملائكة﴾ أي وتأتيهم الملائكة فإنهم وسائط في إتيان أمره تعالى بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة، وقرئ بالجر عطفاً على ظلل أو على الغمام فتوصف الملائكة بكونها ظللاً على التشبيه، وقال عكرمة: والملائكة حوله، وقيل حول الغمام، وقيل حول الرب تعالى.

وهذه من آيات الصفات وللعلماء فيها وفي أحاديث الصفات مذهبان:

أحدهما الإيمان والتسليم لما جاء في آيات الصفات وأحاديثها ووجوب الاعتقاد بظواهرها والإيمان بها كما جاءت، وإحالة علمها إلى الله تعالى، مع تنزيه سبحانه عن التشبيه والتمثيل والتحريف والتبديل والتعطيل، وهو قول سلف هذه الأمة وأئمتها، قال الكلبي: هذا من الذي لا يفسر، وكان ابن عُيَينة والزهري والأوزاعي ومالك وابن المبارك والثوري والليث بن سعد وأحمد ابن حنبل واسحق بن راهويه يقولون في هذه الآية وأمثالها أقرؤها كما جاءت بلا كيف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل، هذا مذهب أعلام أهل السنة ومعتقد سلف الأمة، وأنشد بعضهم في المعنى.

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته	ولا ذاته شيء، عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها	وإجرائها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا	وتأويلنا فعل اللبيب المغالب
ونركب للتسليم سفناً فإنها	لتسليم دين المرء خير المراكب

(والثاني) التأويل لها بما يناسب تنزيه سبحانه وتعالى عندهم وهو قول جمهور علماء المتكلمين وأصحاب النظر كما قالوا في هذه الآية مجيء الله هو مجيء الآيات أو مجيء أمر الله أو عذاب الله، فأنكروا إمرار الصفات على ظاهرها وإجرائها على ما أراد الله، وهذا خلاف ما عليه سلف الأمة وأئمتها، وقد أوضحنا ذلك في كتابنا الانتقاد الرجح وبغية الرائد بما لا يحتاج الناظر فيهما إلى غيرهما.

﴿وقضي الأمر﴾ عطف على يأتيهم داخل في حيز الانتظار، وإنما عدل إلى صيغة الماضي دلالة على تحققه فكأنه قد كان، أو جملة مستأنفة جيء بها للدلالة على أن مضمونها واقع لا محالة أي وفرغ من الأمر الذي هو إهلاكهم، قال عكرمة: قضي الأمر أي قامت الساعة.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي أمور العباد في الآخرة لا إلى غيره، والمراد

من هذا إعلام الخلق أنه المجزي على الأعمال بالثواب والعقاب .

﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ المأمور بالسؤال هو النبي ﷺ ، ويجوز أن يكون هو كل فرد من السائلين ، وهو سؤال تقرير وتوبيخ ، والمسؤول عنهم يهود المدينة ، وكم إما استفهامية للتقرير أو خبرية للتكثير ، والآية هي البراهين التي جاء بها أنبياءهم في أمر محمد ﷺ ، وقيل المراد بذلك الآيات التي جاء بها موسى وهي تسع ، قال أبو العالية : آتاهم الله آيات بينات عصا موسى ويده وأقطعهم البحر ، وأغرق عدوهم وهم ينظرون وظللاً من الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى .

﴿ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته﴾ المراد بالنعمة هنا ما جاءهم من الآيات ، وقال ابن جرير الطبري : النعمة هنا الإسلام ، والظاهر دخول كل نعمة أنعم الله بها على كل عبد من عباده كائناً من كان ، فوقع منه التبديل لها ، وعدم القيام بشكرها .

ولا ينافي ذلك كون السياق في بني إسرائيل ، أو كونهم السبب في النزول ، لما تقرر من أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿فإن الله شديد العقاب﴾ فيه من الترهيب والتخويف ما لا يقادر قدره .

﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ المزين هو الشيطان بأن وسوس لهم ومناهم الأماني الكاذبة ، وذلك حقيقة كما قال السعد التفتازاني وجيء به ماضياً دلالة على أن ذلك وقع وفرغ منه ، أو المزين الأنفس المجبولة على حب العاجلة ، وزين مبني للمجهول .

وقرىء بفتح الزاء والمزين هو الله بأن خلق الأشياء العجيبة ومكنهم منها إذ ما من شيء إلا وهو خالقه وعلى هذا المسند والإسناد مجاز لأن خذلانه إياهم

صار سبباً لاستحسانهم الحياة الدنيا وتزيينها في أعينهم.

والمراد بالذين كفروا رؤساء قريش أو كل كافر، وإنما خص الكفار بالذكر مع كون الدنيا مزينة للمسلم والكافر كما وصف سبحانه بأنه جعل ما على الأرض زينة لها ليلو الخلق أيهم أحسن عملاً، لأن الكافر افتتن بهذا التزيين وأعرض عن الآخرة، والمسلم لم يفتتن به بل أقبل على الآخرة والمعنى حسنت في أعينهم وأشربت محبتها في قلوبهم حتى تهالكوا عليها وتهافتوا فيها معرضين عن غيرها.

﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ أي والحال أن أولئك الكفار يسخرون من المؤمنين لكونهم فقراء لاحظ لهم من الدنيا كحظر رؤساء الكفار وأساطين الضلال، وذلك لأن عرض الدنيا عندهم هو الأمر الذي يكون من ناله سعيداً رابحاً ومن حرمة شقيماً خاسراً، وقد كان غالب المؤمنين إذ ذاك فقراء لاشتغالهم بالعبادة وأمر الآخرة وعدم التفاتهم إلى الدنيا وزينتها.

وحكى الأخفش أنه يقال سخرت منه وسخرت به، وضحكت منه وضحكت به، والاسم السخرية والسخرى، وجيء به مضارعاً دلالة على التجدد والحدوث.

ولما وقع من الكفار ما وقع من السخرية بالمؤمنين رد الله عليهم بقوله ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ والمراد بالفوقية هنا العلو في الدرجة لأنهم في الجنة، والكفار في النار، ويحتمل أن يراد بالفوق المكان لأن الجنة في السماء والنار في أسفل سافلين. أو أن المؤمنين هم الغالبون في الدنيا كما وقع ذلك من ظهور الإسلام وسقوط الكفر وقتل أهله وأسرهم وتشريدهم، وضرب الجزية عليهم، ولا مانع من حمل الآية على جميع ذلك لولا التقييد بكونه في يوم القيامة.

وفيه دلالة على أن فوقيتهم من أجل التقوى. وفيه تحريضهم على

الإتصاف به إذا سمعوا ذلك، أو للإيذان بأن إعراضهم عن الدنيا للاتقاء عنها لكونها شاغلة عن جانب القدس.

عن حارثة بن وهب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عُتْلٌ جواظ جعظري مستكبر^(١)» أخرجه الشيخان.

وعن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»، أخرجه البخاري ومسلم.

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ يحتمل أن يكون فيه إشارة إلى أن الله سبحانه سيرزق المستضعفين من المؤمنين ويوسع عليهم، ويجعل ما يعطيهم من الرزق بغير حساب أي بغير تقدير، لأن ما يدخل عليه الحساب فهو قليل، ويحتمل أن المعنى أن الله يوسع على بعض عباده في الرزق كما وسع على أولئك الرؤساء من الكفار استدراجاً لهم، وليس في التوسعة دليل على أن من وسع عليه فقد رضي عنه، ويحتمل أن يراد بغير حساب من المرزوقين كما قال تعالى ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

وقال ابن عباس في تفسيرها: ليس على الله رقيب ولا من يحاسبه، وقال سعيد بن جبیر: لا يحاسب الرب، وقيل يرزقه في الدنيا ولا يحاسبه في الآخرة، وقيل يرزقه بغير استحقاق، وقيل لا يخاف نفاد ما في خزائنه حتى يحتاج إلى حساب. وقيل لا يعطي كل واحد على قدر حاجته بل يعطي الكثير لمن لا يحتاج إليه، وقيل غير ذلك.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

﴿كان الناس أمة واحدة﴾ أي كانوا متفقين على دين واحد، وهو الإسلام فاختلفوا، واختلف في الناس فقليل هم بنو آدم حين أخرجهم الله نسماً من ظهر آدم.

عن أبي بن كعب قال: كانوا أمة واحدة حين عرضوا على آدم ففطروهم على الإسلام وأقروا بالعبودية وكانوا مسلمين، ثم اختلفوا من بعد آدم، وقيل آدم وحده قاله مجاهد، وسمى ناساً لأنه أصل النسل، وقيل آدم وحواء وقيل المراد القرون الأولى التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة قرون. كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، قاله ابن عباس، وقيل المراد نوح ومن في سفينته، وقيل أن العرب كانت على دين إبراهيم إلى أن غيره عمرو بن لحي.

وقيل كانوا من حين وفاة آدم إلى زمان نوح على الكفر والباطل بدليل قوله ﴿فبعث الله النبيين﴾ والحكم للغالب، والأول أولى قال أبو السعود: وهو الأنسب بالنظم الكريم، وقيل ليس في الآية ما يدل على أنهم كانوا على إيمان أو كفر فهو موقوف على دليل من خارج، وقيل المراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة في خلوقهم عن الشرائع وجهلهم بالحقائق لولا أن الله من عليهم بإرسال الرسل، والأمة مأخوذة من قولهم أمت الشيء أي قصده أي مقصدهم واحد غير مخلف.

﴿فبعث الله النبيين﴾ قيل الأنبياء جملتهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، والرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر، المذكور منهم في القرآن بأسماء الأعلام

ثمانية وعشرون نبياً، والله أعلم.

﴿مبشرين﴾ بالثواب لمن آمن وأطاع ﴿ومنذرين﴾ بالعقاب لمن كفر وعصى ﴿وأنزل معهم الكتاب﴾ أي الجنس، وقيل المراد به التوراة أو أنزل مع كل واحد الكتاب، وجملة الكتب المنزلة من السماء مائة وأربعة كتب كما قيل ﴿بالحق﴾ أي الصدق والعدل، والمراد هنا الحكم والفوائد والمصالح ﴿ليحكم بين الناس﴾ مسند إلى الكتاب في قول الجمهور، وهو مجاز مثل قوله تعالى ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ وقيل أن المعنى ليحكم كل نبي بكتابه، وقيل ليحكم الله ﴿فيما اختلفوا فيه﴾ أي في الحق الذي اختلفوا فيه من بعد ما كانوا متفقين عليه، وقيل الضمير في ﴿فيه﴾ راجع إلى ما في قوله ﴿فيما﴾.

والضمير في قوله ﴿وما اختلف فيه﴾ يحتمل أن يعود إلى الكتاب ويحتمل أن يعود إلى المنزل عليه وهو محمد ﷺ، قاله الزجاج، ويحتمل أن يعود إلى الحق ﴿إلا الذين أوتوه﴾ أي أوتوا الكتاب أو أوتوا الحق، أو أوتوا النبي ﷺ أي أعطوا علمه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي الدلالات الواضحات على صحة نبوة محمد ﷺ أو الحجج الظاهرة على التوحيد ﴿بغياً بينهم﴾ أي لم يختلفوا إلا للبغي أي الحسد والحرص على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، وفي هذا تنبيه على الصفة في فعلهم القبيح الذي وقعوا فيه لأنهم جعلوا نزول الكتاب سبباً في شدة الخلاف.

﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ أي أمة محمد ﷺ ﴿لما اختلفوا فيه من الحق﴾ أي إلى الحق، و «من» للبيان أو للتبويض، وذلك لما بين لهم في القرآن من اختلاف من كان قبلهم، وقيل معناه فهدى الله أمة محمد ﷺ للتصديق بجميع الكتب بخلاف من قبلهم، فإن بعضهم كذب كتاب بعض، وقيل أن الله هداهم إلى الحق من القبله، وقيل هداهم ليوم الجمعة، وقيل هداهم لاعتقاد الحق في عيسى بعد أن كذبه اليهود، وجعلته النصراني رباً، وقيل المراد بالحق الإسلام.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ
 الْبَاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّا
 نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ وَلِذِينَ
 وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ
 عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

وقال الفراء: إن في الآية قلباً وتقديره فهدى الذين آمنوا بالحق لما
 اختلفوا فيه، واختاره ابن جرير وضعفه ابن عطية ﴿بإذنه﴾ قال الزجاج: معناه
 بعلمه، وقال النحاس: هذا غلط، والمعنى بأمره وإرادته ﴿والله يهدي من
 يشاء﴾ من عباده ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي طريق سوي.

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ أم هنا منقطعة بمعنى بل، وحكى بعض
 اللغويين أنها قد تجيء بمثابة همزة الاستفهام يبتدأ بها الكلام، فعلى هذا معنى
 الاستفهام هنا التقرير والإنكار أي أحسبتم دخولكم الجنة واقعا، والغرض من
 هذا التوبيخ تشجيعهم على الصبر وحثهم عليه، وحسب هنا من أخوات ظن،
 وقد تستعمل في اليقين.

﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾ الواو للحال، ولما بمعنى لم أي
 والحال أنكم لم يأتكم مثلهم بعد، ولم تبتلوا بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة التي
 هي مثل في الفظاعة والشدة وهو متوقع منتظر، ولم تمتحنوا بمثل ما امتحن به
 من كان قبلكم فتصبروا كما صبروا.

ذكر الله سبحانه هذه التسلية بعد أن ذكر اختلاف الأمم على أنبيائهم
 تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لقلوبهم، ومثل هذه الآية قوله ﴿أم حسبتم أن تدخلوا

الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴿وقوله﴾ الم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴿.

﴿مستهم﴾ استئناف بيان لقوله ﴿مثل الذين خلوا﴾ ﴿البأساء والضراء﴾ قد تقدم تفسيرهما ﴿وزلزلوا﴾ الزلزلة شدة التحريك تكون في الأشخاص وفي الأقوال، يقال زلزل الله الأرض زلزلة وزلزلاً بالكسر فتزلزلت أي تحركت واضطربت، فمعنى زلزلوا خوفوا وأزعجوا إزعاجاً شديداً، وحركوا بأنواع البلايا والرزايا، وقال الزجاج: الزلزلة نقل الشيء من مكانه، فإذا قلت زلزلته فمعناه كررت زلله من مكانه.

﴿حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه﴾ أي استمر ذلك إلى غاية هي قول الرسول ومن معه أي صاحبه في الإيمان، وحتى بمعنى إلى، وأن مضمرة أي إلى أن يقول، وهي غاية لما تقدم من المس والزلزال وذلك لأن الرسل أثبت من غيرهم وأصبر، وأضبط للنفس عند نزول البلايا وكذلك أتباعهم من المؤمنين.

﴿متى نصر الله﴾ متى ظرف زمان لا ينصرف إلا بجره بحرف والرسول هنا قيل هو محمد ﷺ، وقيل شعيب: وقيل هو كل رسول بعث إلى أمته. وقالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير أي حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ألا إن نصر الله قريب.

ولا ملجئ لهذا التكلف لأن قول الرسول ومن معه ﴿متى نصر الله﴾ ليس فيه إلا استعجال النصر من الله سبحانه، وليس فيه ما زعموه من الشك والإرتياب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف.

قال قتادة: نزلت هذه الآية في يوم الأحزاب وهي غزوة الخندق أصاب

النبي ﷺ يومئذ وأصحابه بلاء وحصر، وقيل نزلت في غزوة أحد، وقيل غير ذلك.

وقال ابن عباس: أخبر الله المؤمنين أن الدنيا دار بلاء وأنه مبتليهم فيها، وأخبرهم أنه هكذا فعل بأنبيائه وصفوته لتطيب أنفسهم، والمعنى أنه بلغ بهم الجهد والشدة والبلاء ولم يبق لهم صبر، وذلك هو الغاية القصوى في الشدة، فلما بلغ الحال في الشدة إلى هذه الغاية واستبطؤوا النصر قيل لهم.

﴿ألا إن نصر الله قريب﴾ إجابة لهم في طلبهم، والمعنى هكذا كان حالهم لم يغيرهم طول البلاء والشدة عن دينهم إلى أن يأتيهم نصر الله، فكونوا يامعشر المسلمين كذلك، وتحملوا الأذى والشدة والمشقة في طلب الحق، فإن نصره سبحانه قريب إتيانه لا بعيد، وفيه إشارة إلى أن المراد بالقرب القرب الزماني، وفي إثارة الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقق مضمونها وتقرر ما لا يخفى.

﴿يسئلونك ماذا ينفقون﴾ السائلون هنا هم المؤمنون، سألوا عن الشيء الذي ينفقونه ما هو أي ما قدره وما جنسه ﴿قل ما أنفقتم من خير﴾ إلى آخره فأجيبوا ببيان المصرف الذي يصرفون فيه تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد لأن الشيء لا يعتد به إلا إذا وضع في موضعه وصادف مصرفه، وقيل انه قد تضمن الآية بيان ما ينفقونه وهو كل خير، وقيل إنما سألوا عن وجوه البر التي ينفقون فيها وهو خلاف الظاهر «وما» شرطية، وقيل موصولة والأول أولى لتوافق ما بعدها.

﴿فللوالدين﴾ قدمهما لوجوب حقهما على الولد لأنها السبب في وجوده ﴿والأقربين﴾ قدمهم لأن الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء فتقديم القرابة أولى من غيرهم ولأنهم أبعاض الوالدين ﴿واليتامى﴾ لأنهم لا

يقدرّون على الكسب ولاهم منفق، وقد تقدم الكلام في الأقربين واليتامى ﴿والمساكين وابن السبيل﴾ أي هم أولى به، وانظر إلى هذا الترتيب الحسن العجيب في كيفية الإنفاق كيف فصله ثم أتبعه بالإجمال فقال ﴿وما تفعلوا من خير﴾ أي مع هؤلاء أو غيرهم طلباً لوجه الله ورضوانه ﴿فإن الله به عليم﴾ فيجازيكم عليه.

قال ابن مسعود: نسختها آية الزكاة، وقال الحسن: أنها محكمة، وقال ابن زيد: هذا في النفل أي التطوع، وهو ظاهر الآية، فمن أحب التقرب إلى الله بالإنفاق فالأولى به أن ينفق في الوجوه المذكورة في الآية فيقدم الأول فالأول.

ولم يذكر فيها السائلين والرقاب كما في الآية الأخرى اكتفاء بها أو بعموم قوله ﴿وما تفعلوا من خير﴾ فإنه شامل لكل خير وقع في أي مصرف.^(١)

(١) وفي سبب نزول الآية هو أن عمرو بن الجموح الانصاري وكان له مال كثير فقال: يا رسول الله بماذا نتصدق، وعلى من ننفق فنزلت هذه الآية.

وقيل: إن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن لي ديناراً. فقال: أنفقه على نفسك.

فقال: إن لي دينارين.

فقال: أنفقهما على أهلك.

فقال: إن لي ثلاثة فقال أنفقهما على خادمك فقال إن لي أربعة فقال أنفقهما على والديك فقال إن لي خمسة فقال أنفقهما على اقربائك فقال إن لي ستة فقال أنفقهما في سبيل الله وهو أحسنها فنزلت هذه الآية.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ
وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾ بين سبحانه، أن هذا أي فرض القتال عليهم من جملة ما امتحنوا به، والمراد بالقتال قتال الكفار، والكره بالضم المشقة، وبالفتح ما أكرهت عليه، ويجوز الضم في معنى الفتح فيكونان لغتين، وإنما كان الجهاد كرهاً لأن فيه إخراج المال ومفارقة الأهل والوطن والتعرض لذهاب النفس، وفي التعبير بالمصدر وهو كره مبالغة، ويحتمل أن يكون بمعنى المكروه كما في قولهم: الدراهم ضرب الأمير.

قيل الجهاد فرض على كل مسلم ويدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برّاً كان أو فاجراً» أخرجه أبو داود بزيادة فيه.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا»^(١)، وقيل الجهاد تطوع.

والمراد من الآية أصحاب رسول الله ﷺ دون غيرهم، وبه قال الثوري والأوزاعي والأول أولى، والجمهور على أنه فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، قال الزهري: كتب الله القتال على الناس جاهدوا أو لم يجاهدوا فمن غزا فيها ونعمت، ومن قعد فهو عدة إن استعين به أعان وإذا استنفر نفر، وإن استغنى عنه قعد، وقيل فرض عين إن دخلوا بلادنا وفرض كفاية إن كانوا ببلادهم.

﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً﴾ قيل عسى هنا بمعنى (قد) روي ذلك عن الأصم، وقال أبو عبيدة: عسى من الله إيجاب، والمعنى عسى أن تكرهوا الجهاد طبعاً لما فيه من المشقة، وأما شرعاً فهو محبوب وواجب ولا يلزم منه ما قاله السعد التفتازاني كراهة حكم الله ومحبة خلافه، وهو ينافي كمال التصديق، لأن معناه كراهة النفس ذلك الفعل ومشقته مع كمال الرضا بالحكم والإذعان له.

﴿وهو خير لكم﴾ فرما تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات شهيداً والواو للحال أو صفة لشيء، وعليه جرى أبو البقاء هنا والزخشي في قوله ﴿ولها كتاب معلوم﴾ وهو رأي ابن حيزان، وسائر النحويين يخالفونه.

﴿وعسى أن تحبوا شيئاً﴾ أي الدعة وترك القتال ﴿وهو شر لكم﴾ فرما يتقوى عليكم العدو فيغلبكم ويقصدكم إلى عقر دياركم فيحل بكم أشد مما تخافونه من الجهاد الذي كرهتم مع ما يفوتكم في ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة.

﴿والله يعلم﴾ ما فيه صلاحكم وفلاحكم وما هو خير لكم وما في الجهاد من الغنيمة والأجر والخير فلذلك يأمركم به ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ ذلك ولذلك تكرهونه، قيل أنها محكمة ناسخة للعفو عن المشركين، وقيل منسوخة لأن فيها وجوب الجهاد على الكافة والناسخ قوله تعالى ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ وقيل إنها ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه، فالناسخ منها إيجاب الجهاد مع المشركين بعد المنع منه، والمنسوخ إيجاب الجهاد على الكافة.

وقد ورد في فضل الجهاد ووجوبه أحاديث كثيرة لا يتسع المقام لبسطها.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ
أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا
وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير﴾ أي القتال فيه أمر كبير مستنكر، والشهر الحرام المراد به الجنس، وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماء ولا تغير على عدو، والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد، وهذه الأمور أعظم ذنباً وأشد إثماً من القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره، قيل إنها محكمة وإنه لا يجوز الغزو في الشهر الحرام إلا بطريق الدفع، وقيل منسوخة بقوله ﴿اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وبقوله ﴿قاتلوا المشركين كافة﴾ وبه قال الجمهور.

﴿وصد عن سبيل الله﴾ أي صدكم المسلمين عن الحج أو صدكم عن الإسلام من يريده ﴿وكفر به﴾ الضمير يعود الى الله، وقيل إلى الحج ﴿والمسجد الحرام﴾ أي صدكم عنه قاله الزمخشري وغيره، وتعقب بأن عطف قوله ﴿وكفر به﴾ على صد مانع منه إذ لا يتقدم العطف على الموصول على العطف على الصلة وهو سبيل الله لوجود الفصل بأجنبي، وأجيب بأن الكفر بالله والصد عن سبيله متحدان معنى فكأنه لا فصل بأجنبي بين سبيل وما عطف عليه.

﴿وإخراج أهله منه﴾ يعني رسول الله ﷺ والمؤمنين حين آذوهم حتى

هاجروا وتركوا مكة، وإنما جعلهم الله أهله لأنهم كانوا هم القائمين بحقوق المسجد الحرام دون المشركين.

ومعنى الآية الذي ذهب إليه الجمهور إنكم يا قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ومن الكفر بالله ومن الصد عن المسجد الحرام ومن إخراج أهل الحرم منه ﴿أكبر﴾ جرماً ﴿عند الله﴾ وسبب النزول يشهد لهذا المعنى، ويفيد أنه المراد فإن السؤال منهم المذكور في هذه الآية هو سؤال إنكار لما وقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ.

﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ المراد بالفتنة هنا الكفر والشرك قاله ابن عمر أي كفركم أكبر من القتل الواقع من السرية التي بعثها النبي ﷺ، وقيل المراد بالفتنة الإخراج لأهل الحرم منه، وقيل المراد بالفتنة هنا فتنتهم عن دينهم حتى يهلكوا أي فتنة المستضعفين من المؤمنين، أو نفس الفتنة التي الكفار عليها، وهذا أرجح من الوجهين الأولين، لأن الكفر والإخراج قد سبق ذكرهما وإنيهما مع الصد أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام، وعن سفيان الثوري هذا شيء منسوخ ولا بأس بالقتال في الشهر الحرام وعن ابن عباس أن هذه الآية منسوخة بآية السيف في براءة.

﴿ولا يزالون يقاتلونكم﴾ ابتداء كلام يتضمن الإخبار عن الله عز وجل للمؤمنين بأن هؤلاء الكفار والمشركين لا يزالون مستمرين على قتالكم وعداوتكم ﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾ أي الإسلام إلى الكفر ﴿إن استطاعوا﴾ ذلك وتهيأ لهم منكم، والتقيد بهذا الشرط مشعر باستبعاد تمكنهم من ذلك وقدرتهم عليه.

ثم حذر الله سبحانه المؤمنين من الاغترار بالكفار والدخول فيما يريدونه

من ردهم عن دينهم الذي هو الغاية لما يريدونه من المقاتلة للمؤمنين فقال ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾ الردة الرجوع عن الإسلام إلى الكفر، والتقييد بالكفر يفيد أن عمل من ارتد إنما يبطل إذا مات على الكفر، وأما إذا أسلم بعد الردة لم يثبت عليه شيء من أحكام الردة، وفيه دليل للشافعي أن الردة لا تحبط الأعمال حتى يموت على رده.

وعند أبي حنيفة أن الردة تحبط العمل وإن أسلم، وحبط معناه بطل وفسد، ومنه الحبط وهو فساد يلحق المواشي في بطونها من كثرة أكلها للكلأ فتنتفخ أجوافها، وربما تموت من ذلك، وفي هذه الآية تهديد للمسلمين ليشبوا على دين الإسلام.

﴿في الدنيا والآخرة﴾ أي لا يبقى له حكم المسلمين في الدنيا فلا يأخذ شيئاً مما يستحقه المسلمون من الميراث وغيره، ولا يظفر بحظ من حظوظ الإسلام، ولا ينال شيئاً من ثواب الآخرة الذي يوجبه الإسلام ويستحقه أهله.

وقد اختلف أهل العلم في الردة هل تحبط العمل بمجرد ما أم لا تحبط إلا بالموت على الكفر، والواجب حمل ما أطلقته الآيات في غير هذا الموضع على ما في هذه الآية من التقييد.

﴿وأولئك أصحاب النار﴾ يعني الذين ماتوا على الردة والكفر ﴿هم فيها خالدون﴾ أي لا يخرجون منها أبداً وقد تقدم الكلام في معنى الخلود.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ
 اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ الهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع وترك الأول لإيثار مكاني، والهجر ضد الوصل، والتهاجر التقاطع والمراد بها هنا الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام، والمجاهدة استخراج الجهد، والجهاد والتجاهد بذل الوسع.

﴿أولئك يرجون﴾ أي يطمعون، وإنما قال يرجون بعد تلك الأوصاف المادحة التي وصفهم بها لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ، والرجاء الأمل يقال رجوت فلاناً أرجوه رجاء وهو ضد اليأس.

وقد يكون الرجاء بمعنى الخوف كما قي قوله تعالى ﴿مالكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي لا تخافون عظمة الله، وهل إطلاقه عليه بطريق الحقيقة أو المجاز، زعم قوم أنه حقيقة ويكون من الاشتراك اللفظي، وزعم قوم أنه من الأضداد فهو اشتراك لفظي أيضاً.

وقال ابن عطية: الرجاء أبداً معه خوف كما أن الخوف معه رجاء، وزعم قوم أنه مجاز للتلازم الذي ذكرناه، قال قتادة أثنى الله على أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحسن الثناء في هذه الآية وهم خيار هذه الأمة ثم جعلهم أهل رجاء ومن رجا طلب ومن خاف هرب.

﴿رحمت الله﴾ أخبر أنهم على رجاء الرحمة وقد كتبت (رحمة) هنا بالتاء وهي في القرآن في سبعة مواضع ﴿والله غفور﴾ لذنوب عباده ﴿رحيم﴾ بهم بإجزال الأجر.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢١٩)

﴿يسئلونك عن الخمر﴾ السائلون المؤمنون فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم عن عمر أنه: قال اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فإنها تذهب بالمال والعقل، فنزلت يعني هذه الآية فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت التي في سورة النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فكان ينادي رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة أن لا يقربن الصلاة سكران، فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ فهل أنتم منتهون؟ قال عمر انتهينا انتهينا.

والخمر مأخوذة من خمر إذا ستر، ومنه خمار المرأة وكل شيء غطي شيئاً فقد خمره، ومنه «خمروا أنفسكم» وسمي خمر لأنه يخمر العقل أي يغطيه ويستتره، وقيل سميت خمرًا لأنها تركت حتى أدركت أي بلغت إدراكه، وقيل لأنها تخالط العقل من المخامرة وهو المخالطة.

وهذه المعاني الثلاثة متقاربة موجودة في الخمر لأنها تركت حتى أدركت ثم خالطت العقل فخمرته أي سترته، والخمر ماء العنب الذي غلا واشتد وقذف بالزبد، وما خامر العقل من غيره فهو في حكمه كما ذهب إليه الجمهور، وقال أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال أي ما دون المسكر منه، وذهب أبو حنيفة إلى حل ما ذهب ثلثاه بالطبخ، والخلاف في ذلك مشهور، وقد أطلت الكلام

على الخمر في شرحي لبلوغ المرام، وأطال الشوكاني الكلام عليه في شرحه للمنتقى فليرجع اليهما.

وجملة القول في تحريم الخمر ان الله أنزل فيه أربع آيات:

نزل بمكة ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً﴾ فكان المسلمون يشربونها في أول الإسلام وهي لهم حلال، ثم نزل بالمدينة في جواب عمر ومعاذ هذه الآية فتركها قوم لقوله ﴿فيهما إثم كبير﴾ وشربها قوم لقوله ﴿ومنافع للناس﴾ ثم نزل ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ فترك قوم شربها في أوقات الصلاة، ثم أنزل الله الآية التي في المائدة، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيام.

والخمر تذكر وتؤنث وقال الأصمعي الخمر أنثى وأنكر التذكير.

﴿والميسر﴾ مصدر ميمي مأخوذ من اليسر وهو وجوب الشيء لصاحبه يقال يسر لي كذا إذا وجب، والياسر اللاعب بالقداح، وقال الأزهري: الميسر الجزور الذي كانوا يتقامرون عليه، سمي ميسراً لأنه يجزأ أجزاء فكأنه موضع التجزئة وكل شيء جزأته فقد يسرته، والياسر الجازر، وقال: وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاربين بالقداح والمتقامين على الجزور ياسرون لأنهم جازرون، إذ كانوا سبباً لذلك.

والمراد بالميسر في الآية قمار العرب بالأزلام، قال جماعة من السلف: من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كل شيء فيه قمار من نرد أو شطرنج أو غيرها فهو الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب إلا ما أبيح من الرهان في الخيل والقرعة في إفراز الحقوق، وقال مالك: الميسر ميسران ميسر اللهو وميسر القمار، فمن ميسر اللهو النرد والشطرنج والملاهي كلها، وميسر القمار ما

يتخاطر الناس عليه وكل ما قומר به فهو ميسر كالطاب والمنقلة والطاولة وغيرها، وسيأتي البحث مطولا في هذا في سورة المائدة عند قوله ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إن شاء الله تعالى.

﴿قل فيهما إثم كبير﴾ يعني في الخمر والميسر، فإثم الخمر أي إثم تعاطيها ينشأ من فساد عقل مستعملها فيصدر عنه ما يصدر عن فاسد العقل من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش والزور، وتعطيل الصلوات وسائر ما يجب عليه، وأما إثم الميسر أي إثم تعاطيه فما ينشأ عن ذلك من الفقر وذهاب المال في غير طائل والعداوة وإيحاش الصدور.

﴿ومنافع للناس﴾ أما منافع الخمر فربح للتجارة فيها، وقيل ما يصدر عنها من الطرب واللذة والنشاط والفرح وقوة القلب وثبات الجنان وإصلاح المعدة وقوة الباه وتصفية اللون، وحمل البخيل على الكرم، وزوال الهم وهضم الطعام، وتشجيع الجبان، وقد أشار شعراء العرب إلى شيء من ذلك في أشعارهم.

ومنافع الميسر مصير الشيء إلى الإنسان بغير تعب ولاكد، وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح، وسهام الميسر أحد عشر، منها سبعة لها فروض على عدد ما فيها من الخطوط وهي الفذ والتوأم والرقيب والجلس والنافر والمسبل والمعلى والسفح والوغد والضعف والجزور، ولا نطول بذكر علاماتها وأحوالها.

﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ أخبر سبحانه بأن الخمر والميسر وإن كان فيهما نفع فالإثم الذي يلحق متعاطيها أكثر من هذا النفع، لأنه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه من الشرور ما لا يأتي عليه الحصر، وكذلك لا خير في الميسر يساوي ما فيها من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر

واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم.

وقد وردت في تحريم الخمر ووعيد شاربيها أحاديث كثيرة.

﴿ويستلونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ والعفو ما سهل وتيسر، ولم يشق على القلب، والمعنى أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تجهدوا فيه أنفسكم، وقيل هو ما فضل عن نفقة العيال، وقال جمهور العلماء هو نفقات التطوع، وقيل إن هذه الآية منسوخة بآية الزكاة المفروضة، وقيل هي محكمة وفي المال حق سوى الزكاة.

وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول» وثبت نحوه في الصحيح مرفوعاً من حديث حكيم بن حزام، وفي الباب أحاديث كثيرة، وقيل المعنى خذ الميسور من أخلاق الرجال ولا تستقص عليهم^(١).

﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أي في أمر النفقة ومصارفها ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي في أمرهما فتحبسون من أموالكم ما تصلحون به معاش دنياكم وتنفقون الباقي في الوجوه المقربة إلى الآخرة، وقيل في الكلام تقديم وتأخير أي كذلك يبين الله لكم الآيات في الدنيا والآخرة لعلكم تتفكرون في الدنيا وزواها، وفي الآخرة وبقائها فترغبون عن العاجلة إلى الآجلة.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

﴿ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ هذه الآية نزلت بعد نزول قوله تعالى ﴿ولا تقربوا مال اليتيم﴾ وقوله ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى﴾ وقد ضاق على الأولياء الأمر فنزلت هذه الآية، والمراد بالإصلاح هنا مخالطتهم على وجه الإصلاح لأموالهم، فإن ذلك أصلح من مجانبتهم.

وفي ذلك دليل على جواز التصرف في أموال الأيتام من الأولياء والأوصياء بالبيع والمضاربة والإجارة ونحو ذلك، وقيل أن يوسع على اليتيم من طعام نفسه ولا يوسع عليه من طعامه ولا يأخذ أجره ولا عوضاً على إصلاح أمواله.

﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم﴾ اختلف في تفسير المخالطة لهم فقال أبو عبيدة: مخالطة اليتامى أن يكون لأحدهم المال ويشق على كافله أن يفرد طعامه عنه ولا يجد بداً من خلطه بعياله فيأخذ من مال اليتيم ما يرى أنه كافيه بالتحري فيجعله مع نفقة أهله، وهذا قد تقع فيه الزيادة والنقصان، فدلّت هذه الآية على الرخصة وهي ناسخة لما قبلها، وقيل المراد بالمخالطة المعاشرة للأيتام، وقيل المراد بها المصاهرة لهم والأولى عدم قصر المخالطة على نوع خاص، بل يشمل كل مخالطة كما يستفاد من الجملة الشرطية، والتقدير فهم إخوانكم في الدين.

﴿والله يعلم المفسد﴾ لأموالهم بمخالطته ﴿من المصلح﴾ بها تحذير للأولياء أي لا يخفى على الله من ذلك شيء فهو يجازي كل أحد بعمله، من أصلح فلنفسه ومن أفسد فعليها، ففيه وعد ووعد خلا أن في تقديم المفسد مزيد تهديد وتأکید للوعيد.

﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي جعل ذلك شاقاً عليكم ومتعباً لكم

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ ۚ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ ۖ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

وأوقعكم فيما فيه الحرج والمشقة، وقيل العنت هنا معناه الهلاك، قاله أبو عبيده وأصل العنت المشقة، وقال ابن الأنباري: أصل العنت التشديد، ثم نقل إلى معنى الهلاك ﴿إن الله عزيز﴾ أي لا يمتنع عليه شيء لأنه غالب لا يغالب ﴿حكيم﴾ يتصرف في ملكه بما تقتضيه مشيئته وحكمته وليس لكم أن تختاروا لأنفسكم.

﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أي لا تتزوجوا، والمراد بالنكاح العقد لا الوطء حتى قيل أنه لم يرد في القرآن بمعنى الوطء أصلاً ﴿حتى يؤمن﴾ حتى بمعنى إلى أي إلى أن يؤمن.

وفي هذه الآية النهي عن نكاح المشركات ف قيل المراد بها الوثنيات، وقيل أنها تعم الكتابيات لأن أهل الكتاب مشركون قالت: اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

وقد اختلف أهل العلم في هذه الآية فقالت طائفة: إن الله حرم نكاح المشركات فيها والكتابيات من الجملة، ثم جاءت آية المائدة فخصصت الكتابيات من هذا العموم، وهذا محكي عن ابن عباس ومالك وسفيان بن سعيد وعبد الرحمن بن عمرو والأوزاعي.

وذهبت طائفة إلى أن هذه الآية ناسخة لآية المائدة وأنه يحرم نكاح الكتابيات والمشركات، وهذا أحد قولي الشافعي وبه قال جماعة من أهل

العلم، ويحاج عن قولهم إن هذه الآية ناسخة لآية المائدة بأن سورة البقرة من أول ما نزل، وسورة المائدة من آخر ما نزل، والقول الأول هو الراسخ، وقد قال به مع من تقدم عثمان بن عفان وطلحة وجابر وحذيفة وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن وطاوس وعكرمة والشعبي والضحاك كما حكاه النحاس والقرطبي، وقد حكاه ابن المنذر عن المذكورين، وزاد عمر بن الخطاب وقال: لا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم ذلك.

وقال بعض أهل العلم: إن لفظ المشرك لا يتناول أهل الكتاب لقوله تعالى ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين﴾ وعلى فرض أن لفظ المشركين يعم فهذا العموم مخصوص بآية المائدة كما قدمنا عن مقاتل بن حيان قال: نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي استأذن النبي ﷺ في عناق أن يتزوجها، وكانت ذات حظ من جمال، وهي مشركة وأبو مرثد يومئذ مسلم فقال يا رسول الله انها تعجبني، فأنزل الله ﴿ولا تنكحوا المشركات﴾ أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر.

وأخرج البخاري عن ابن عمر قال: حرم الله نكاح المشركات على المسلمين ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله.

﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة﴾ أي ولرقيقة مؤمنة أنفع وأصلح وأفضل من حرة مشركة، وقيل المراد بالأمة الحرة لأن الناس كلهم عبيد لله وإماؤه والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ ولأنه أبلغ فإن تفضيل الأمة المؤمنة على الحرة المشتركة يستفاد منه تفضيل الحرة المؤمنة على الحرة المشتركة بالأولى.

قال ابن عرفة: يجيء التفضيل في كلامهم إيجاباً للأول ونفيًا عن الثاني، فعلى هذا لا يلزم وجود خير في المشركة مطلقاً.

﴿ولو أعجبتكم﴾ المشركة من جهة كونها ذات جمال أو مال أو نسب أو شرف وهذه الجملة حالية، قال السيوطي: وهذا مخصوص بغير الكتابيات بآية ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾^(١).

﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ أي لا تزوجوا الكفار بالمؤمنات خطاب للأولياء ﴿حتى يؤمنوا﴾ قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن المشرك لا يوطأ المؤمنة بوجه، لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام ﴿ولعبد﴾ الكلام فيه كالكلام في قوله ولأمة والترحيج كالترجيج ﴿مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ أي بحسنه وجماله ونسبه وماله.

﴿أولئك﴾ إشارة إلى المشركين والمشركات ﴿يدعون إلى النار﴾ أي إلى الاعمال الموحبة للنار فكان في مصاهرتهم ومعاشرتهم ومصاحبتهم من الخطر العظيم ما لا يجوز للمؤمنين أن يتعرضوا له ويدخلوا فيه.

﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة﴾ أي إلى الأعمال الموجبة للجنة، وقيل المراد أن أولياء الله وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة ﴿بإذنه﴾ أي بأمره قاله الزجاج، وقيل بتيسيره وتوفيقه قاله في الكشف، فتجب إجابته بالتزويج من أوليائه وهم المسلمون ﴿ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي يوضح أدلته وحججه في أوامره ونواهيه وأحكامه لعلهم يتعظون.

(١) وقيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث صحابياً إلى مكة سرّاً ليخرج رجلاً من أصحابه، وكان له بمكة امرأة يحبها في الجاهلية يقال لها عناق فجاءته فقال لها: إن الإسلام حرم ما كان في الجاهلية قالت فتزوجني قال: حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأق النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاستأذنه فنهاه عن التزوج بها.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا
 تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ
 وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَقُّوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

﴿ويسئلونك عن المحيض﴾ السائل أبو الدحداح في نفر من الصحابة،
 والمحيض هو الحيض وهو مصدر ميمي، يقال حاضت المرأة حيضاً ومحيضاً
 فهي حائض وحائضة كذا قال الفراء، ونساء حيض وحوائض، والحيضة
 بالكسر المرة الواحدة وقيل الاسم، وقيل المحيض عبارة عن الزمان والمكان وهو
 مجاز فيهما.

وقال ابن جرير الطبري: المحيض اسم الحيض أي الحدث، وأصل هذه
 الكلمة من السيلان والانفجار، يقال حاض السيل وفاض وحاضت الشجرة
 أي سالت رطوبتها، ومنه الحوض لأن الماء يحوض إليه أي يسيل.

﴿قل هو أذى﴾ أي شيء يتأذى به أي برائحته، والأذى كناية عن القذر
 أو محله ويطلق على القول المكروه، ومنه قوله تعالى ﴿ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن
 والأذى﴾ ومنه قوله تعالى ﴿ودع أذاهم﴾ ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ أي
 فاجتنبوهن واطأهن في زمان الحيض أن حمل المحيض على المصدر أو في
 محل الحيض إن حمل على الاسم.

والمراد من هذا الاعتزال ترك المجامعة لا ترك المجالسة أو الملابس فإن
 ذلك جائز، بل يجوز الاستمتاع منها بما عدا الفرج أو بما دون الإزار على
 خلاف في ذلك.

وأما ما يروى عن ابن عباس وعبيدة السلماني أنه يجب على الرجل أن يعتزل فراش زوجته إذا حاضت فليس ذلك بشيء.
ولا خلاف بين أهل العلم في تحريم وطء الحائض وهو معلوم من ضرورة الدين.

وقد أخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أنس «أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح^(١)».

﴿ولا تقربوهن﴾ بالجماع ﴿حتى يطهرن﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، والطهر انقطاع الحيض والتطهير الاغتسال، وبسبب اختلاف القراء اختلف أهل العلم فذهب الجمهور إلى أن الحائض لا يحل وطؤها لزوجها حتى تتطهر بالماء، وقال محمد بن كعب القرظي ويحيى بن بكير: إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وإن لم تغتسل، وقال مجاهد وعكرمة إن انقطع الدم يحلها لزوجها ولكن تتوضأ.

وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: إن انقطع دمها بعد مضي عشرة أيام جاز له أن يطأها قبل الغسل وإن كان انقطاعه قبل العشرة لم يجز حتى تغتسل أو يدخل عليها وقت صلاة، وقد رجح ابن جرير الطبري قراءة التشديد.

والأولى أن يقال أن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان إحداهما انقطاع الدم والأخرى التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى فيجب المصير إليها، وقد دل على أن الغاية الأخرى هي

المعتبرة قوله تعالى بعد ذلك ﴿فإذا تطهرن﴾ فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم، وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة ما والعمل بتلك الزيادة، كذلك يجب الجمع بين القراءتين.

﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ أي فجامعوهن، وكفى عنه بالإتيان والمراد أنهم يجامعوهن في المأق الذي أباحه الله، وهو القبل، وقيل من حيث بمعنى في حيث كما في قوله تعالى ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة﴾ أي في يوم الجمعة وقوله ﴿ماذا خلقوا من الأرض﴾ أي في الأرض وقيل أن المعنى من الوجه الذي أذن الله لكم فيه أي من غير صوم وإحرام واعتكاف، وقيل أن المعنى من قبل الطهر لا من قبل الحيض، وقيل من قبل الحلال لا من قبل الزنا.

﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ قيل المراد التوابون من الذنوب والمتطهرون من الجنابة والأحداث، وقيل التوابون من إتيان النساء في أدبارهن وقيل من إتيانهن في المحيض والأول أظهر.

﴿نساؤكم حرث لكم﴾ لفظ الحرث يفيد أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج الذي هو القبل خاصة إذ هو مزدرع الذرية كما أن الحرث مزدرع النبات فقد شبه ما يلقى في أرحامهم من النطف التي منها النسل بما يلقى في الأرض من البذور التي منها النبات بجامع أن كل واحد منهما مادة لما يحصل منه، وهذه الجملة بيان للجملة الأولى أعني قوله ﴿فأتوهن من حيث أمركم الله﴾.

﴿فأتوا حرثكم﴾ أي محل زرعكم واستنباتكم الولد وهو القبل، وهذا على سبيل التشبيه، فجعل فرج المرأة كالأرض والنطفة كالبذر، والولد كالزراع ﴿أنى شئتم﴾ أي من أي جهة شئتم من خلف وقدام وباركة ومستلقية ومضطجعة وقائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة إذا كان في موضع الحرث، وإنما عبر سبحانه بكلمة أنى لكونها أعم في اللغة من أين وكيف ومتى، وأما سيويه ففسرها بكيف.

وقد ذهب السلف والخلف من الصحابة والتابعين والأئمة إلى ما ذكرناه من تفسير الآية وأن إتيان الزوجة في دبرها حرام، وروي عن سعيد بن المسيب ونافع وابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وعبد الملك ابن الماجشون أنه يجوز ذلك، حكاه عنهم القرطبي في تفسيره قال: وحكي ذلك عن مالك في كتاب له يسمى كتاب السر، وحذاق أصحاب مالك ومشايخهم ينكرون ذلك الكتاب، ومالك أجل من أن يكون له كتاب سر، ووقع هذا القول في العتبية.

وذكر ابن العربي أن ابن شعبان أسند جواز ذلك إلى زمرة كثيرة من الصحابة والتابعين وإلى مالك من روايات كثيرة عن كتاب جماع النسوان وأحكام القرآن.

قال الطحاوي: روى أصبغ بن الفرّج عن عبد الرحمن بن القاسم قال: ما أدركت أحداً أقتدي به في ديني شك في أنه حلال، يعني وطء المرأة في دبرها ثم قرأ ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ ثم قال: فأني شيء أبين من هذا.

وقد روى الحاكم والدارقطني والخطيب البغدادي عن مالك من طرق ما يقتضي إباحة ذلك وفي أسانيدنا ضعف.

وقد روى الطحاوي عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريمه شيء، والقياس أنه حلال، وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب^(١).

قال ابن الصباغ: كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب ابن عبد الحكم على الشافعي في ذلك فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه.

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن جابر قال: كانت

(١) وقد ورد التحريم صريحاً بقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. «لا تأتوا النساء في أعجازهن» رواه أحمد والنسائي.

اليهود تقول إذا أتى الرجل امرأته من خلفها في قبلها ثم حملت جاء الولد أحول فنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ إن شاء مجيبة وإن شاء غير مجيبة غير أن ذلك في صمام واحد.

وقد روي هذا عن جماعة من السلف وصرحوا أنه السبب، والصمام السبيل.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه والنسائي والضياء في المختارة وغيرهم عن ابن عباس قال: «جاء عمر إلى رسول الله فقال: يا رسول الله هلكت قال: وما أهلكك قال حولت رحلي الليلة فلم يرد عليه شيئاً فأوحى الله إلى رسوله هذه الآية ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ يقول أقبل وأدبر واتق الدبر والحیضة.

وأخرج الشافعي في الأم وابن أبي شيبه وأحمد والنسائي وابن ماجه وابن المنذر والبيهقي في سننه من طريق خزيمة بن ثابت أن سائلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وآله وسلم عن إتيان النساء في أدبارهن فقال «حلال، أو لا بأس» فلما ولى دعاه فقال: كيف قلت أمن دبرها في قبلها فنعم أم من دبرها في دبرها فلا، ان الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أدبارهن».

وأخرج ابن أبي شيبه والترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل أتى امرأة من الدبر»^(١).

وأخرج أحمد والبيهقي في سننه عن ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: «الذي يأتي امرأته في دبرها هي اللوطية الصغرى»^(٢).

(١) وقد صحح الحديث ابن خزيمة في صحيحه.

(٢) رواه البزار والطبراني وصححه المنذري.

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»^(١).

وقد ورد النهي عن ذلك من طرق.

وقد ثبت نحو ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين مرفوعاً وموقوفاً.

وقد روي القول بحل ذلك عن بعضهم كما قدمنا، وليس في أقوال هؤلاء حجة البتة ولا يجوز لأحد أن يعمل على أقوالهم فإنهم لم يأتوا بدليل يدل على الجواز فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه، وقد فسرنا لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأكابر أصحابه بخلاف ما قاله هذا المخطيء في فهمه كائناً من كان.

ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلاً أتى امرأته في دبرها فليس في هذا ما يدل على أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك فقد أخطأ بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلة على أسباب تأتي تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه.

﴿وقدموا لأنفسكم﴾ أي خيراً كما في قوله تعالى ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ وقيل ابتغاء الولد وقيل التزويج بالعفاف، وقيل التسمية والدعاء عند الجماع وقيل غير ذلك ﴿واتقوا الله﴾ فيه تحذير عن الوقوع في شيء من المحرمات ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ بالبعث مبالغة في التحذير ﴿وبشر المؤمنين﴾ الذين اتقوه بالجنة تأنيس لمن يفعل الخير ويجتنب الشر

الجزء الاول

تم الجزء الاول بفضل الله ونعمته ويليهِ الجزء الثاني.
وأوله تفسير الآية ٢٢٤ من سورة البقرة وتبدأ بقوله
تعالى:

وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ
تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ
النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

فهرس الجزء الأول

تعريف بالكتاب ومؤلفه وأنه من محققي علماء الهند وبعض مؤلفاته	٧
مقدمة المؤلف وفيها بيان منزلة علم التفسير والغرض منه وفائدته	٩
التفسير والتأويل ومعناها، وكبار الصحابة والتابعين ممن عرفوا بالتفسير	١٢
بعض عيوب كتب التفسير، ورأيه في تفسير الرازي	١٦
تفاسير الصوفية وإحادها، وبطلان أن لكل آية ظهراً وبطناً	١٦
شروط تتوفر في المفسرين، أقسام التفسير، أنواع التفسير بالرأي	١٧
أسباب اشتغال المؤلف بهذا التفسير مع وجود تفاسير كثيرة	٢٠
مزايا هذا التفسير ومنهجه	٢٢
هل لقارئ القرآن دون أن يفهمه أجر	٢٤
وفضل أهل الفهم والتدبر فيه	٢٤
أحاديث في ثواب قراءة القرآن صحيحة	٢٥
وأخرى في فضائل السور موضوعة	٢٦
تفسير الفاتحة، وأسمائها وفضلها وقراءتها للصلاة	٣١
البسملة وهل هي آية، والجهر والإسرار بها في الصلاة	٣٧
الله الرحمن الرحيم، والرحمة: معنى هذه الألفاظ الحمد لله: معناه	
والأحاديث فيه	٤١
مالك يوم الدين وملك يوم الدين ومعناه	٤٦
إياك نعبد: معنى العبادة	٤٨
اهدنا الصراط المستقيم	٤٩
اشتمال الفاتحة على علوم الدين، ثبوت آمين بالسنة	٥١

- الفاتحة تدل على التوحيد من ثلاثين وجهاً وبيانها بالتفصيل ٥٦
- (سورة البقرة) الكلام على الحروف التي في أوائل السور ٦٥
- رأي المؤلف في الاشتغال باستخراج مسائل من هذه الحروف ٦٧
- رأيه فيما جاء عن الصحابة من ذلك وما فيه من الاختلاف ٧٢
- ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين، وأقسام الهداية ٧٣
- الذين يؤمنون بالغيب، بيانهم وفضلهم وأحاديث فيهم ٧٦
- الأحاديث في فضل الصحابة وفضل من آمن بالنبي ولم يره ٧٨
- الإيمان قول وعمل واعتقاد ويزيد وينقص، والأدلة لنقض إيمان الفلاسفة ٧٩
- الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون والإيمان بما أنزل على الجميع ٨١
- الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم والختم على قلوبهم ٨٨
- أوصاف المنافقين ومجازاة الله لهم بالمثل ٩٣
- استهزاء الله بهم ومعناه وضرب المثل لهم بمن استوقد ناراً ٩٦
- توضيح المثل وفوائد ضرب الأمثال ٩٨
- ضرب مثل آخر لهم كصيب فيه رعد وبرق ١٠٠
- يا أيها الناس اعبدوا ربكم وتعداد نعمه عليهم ليستحق العبادة وحده ١٠٢
- النهي عن اتخاذ الأنداد لله وقول رجل للنبي ما شاء وشئت ١٠٥
- التحدي بإتيان سورة من القرآن وعجز فصحاء العرب عن ذلك ١٠٧
- وصف النار التي أعدت للكافرين، والجنة التي أعدت للمتقين ١٠٨
- إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة. يضل به كثيراً ويهدي ١١٣
- الذين ينقضون عهد الله ويفسدون في الأرض ١١٦
- كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ١١٨
- هو الذي خلق لكم ما في الأرض ثم استوى إلى السماء ١١٩
- معنى دقيق لحديث خلق الله التربة يوم السبت ووصف السماء ١٢٣
- وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ١٢٥
- وعلم آدم الأسماء والأقوال فيها ١٢٨

امتناع إبليس عن السجود لآدم لأنه كان شريراً أصلياً ١٣١
 إسكان آدم وزوجه الجنة وأين كانت ١٣٢
 فأزلهما الشيطان فأخرجهما مما كانا فيه، وتلقى آدم من ربه كلمات ١٣٤
 قلنا اهبطوا منها جميعاً؛ مقدار لبثه في الجنة وأين هبط ١٣٧
 يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي وأوفوا بعهدي وهو الإيمان ١٣٨
 أجر من آمن برسوله ثم آمن بمحمد، ١٤٠
 البشارات بمحمد في الكتب السابقة ١٤٦

ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق ١٤٨
 رأيه في المفسرين الذين يتكلفون إيجاد المناسبة بين الآيات والسور ١٤٩
 هل حضور الصلاة في جماعة واجب؟ أتأمرون الناس بالبر وتنسون ١٥٢
 أنفسكم
 أحاديث في وعيد فاعلي ذلك، الاستعانة بالصبر والصلاة ١٥٦
 أحاديث في مدح الصبر والفرع إلى الصلاة عند النوازل ١٥٦
 يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي وأنا فضلتكم على العالمين واتقوا يوماً ١٥٩
 تعداد النعم عليهم: وإذ نجيناكم من آل فرعون، وإذ فرقنا بكم البحر .. ١٦٢
 وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل ١٦٥
 وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ١٧٠
 إنزال المن والسلوى عليهم في التيه ١٧٢
 وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فبدل الذين ظلموا، فأنزلنا عليهم
 الرجز ١٧٤
 وإذ استسقى موسى لقومه ١٧٧
 وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد ١٧٩
 إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين؛ الصابئة كان فيهم
 مؤمنون ١٨٣

- ١٨٨ اعتداء اليهود في السبت ومسحهم قردة وخنازير
- ١٩١ قصة البقرة التي أمرهم موسى بذبحها وتعنتهم في ذلك
- ٢٠١ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم مع تحريفهم لكلام الله بعد سماعه
- ٢٠٤ التوراة والإنجيل اليوم: ما حالهما من التبديل
- ٢٠٣ وإذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم.. ليحاجوكم به
- ٢٠٥ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني
- ٢٠٦ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله
- ٢٠٧ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة من كسب سيئة وأحاطت به
- ٢١٣ بيان ما في الميثاق المأخوذ عليهم وجزاء من يؤمن ببعض ويكفر ببعض
- ٢١٦ إيتاء موسى الكتاب وعيسى البينات وتأييده بروح القدس
- ٢١٧ تكذيبهم لفريق من الرسل وقتلهم لفريق وقوله قلوبنا غلف
- ٢١٩ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، بثما اشتروا به أنفسهم
- ٢٢٠ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا
- ٢٢٢ اتخذهم العجل - ورفعنا فوقكم الطور - أشربوا في قلوبهم العجل
- ٢٢٤ أمرهم بأن يتمنوا الموت، حرصهم على الحياة وعدم فائدته لهم
- ٢٢٨ عداوتهم لجبريل لنزوله بالقرآن، نبذهم للعهد وللقرآن
- ٢٣٢ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، يعلمون الناس السحر
- ٢٣٤ ما هو السحر، هاروت وماروت
- ٢٤١ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا
- ٢٤٢ ما يود الكفرة من أهل الكتاب وغيرهم أن ينزل القرآن
- ٢٤٤ ما ننسخ من آية.. والكلام في وقوع النسخ وعدمه
- ٢٥١ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى
- ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم كفاراً.. وما تقدموا لأنفسكم من خير
- ٢٥٢ تجدوه
- ٢٥٣ وقالوا لن يدخل الجنة الا اليهود والنصارى ومطالبتهم بالدليل

اليهود والنصارى كل منهم ليست على شيء ٢٥٤
ومن أظلم ممن منع مساجد الله ٢٥٧
ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله ٢٥٩
وقالوا اتخذ الله ولداً. بديع السموات والأرض. إذا قضى أمراً ٢٦١
وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله ٢٦٤
إنا أرسلناك بالحق. . ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ٢٦٥
الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ٢٦٧

وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ٢٧٠
وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً. . . مقام إبراهيم ٢٧٤
دعاء إبراهيم لمكة وارزق أهله من الثمرات ٢٧٨
دعاؤه حين رفع القواعد من البيت ٢٨١
ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ٢٨٣
ووصى بها إبراهيم بنيه. أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ٢٨٧
قالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا. . قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا
صبغة الله. قل أتحاجوننا في الله ٢٩٠
ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله ٢٩٥
سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم ٢٩٦
وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء ٣٩٩
وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع ٣٠١
وما كان الله ليضيع إيمانكم. قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة
ترضاها ٣٠٣
وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل
آية ما تبعوا قبلتك ٣٠٥
وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواءهم.

- الذين آتيناهم، الكتاب يعرفونه ٣٠٩
- ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات: أينما تكونوا يأت بكم الله ٣١٠
- فاذكروني أذكركم ٣١٤
- استعينوا بالصبر والصلاة: حياة من يقتل في سبيل الله ٣١٦
- ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع - المصاب يقول انا لله - وجزاؤه ٣١٨
- الصفاء والمرورة من شعائر الله ٣٢٠
- الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات ٣٢٢
- الا الذين تابوا وبينوا ٣٢٤
- وإلهكم إله واحد ٣٢٥
- إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ٣٢٦
- ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم ٣٣٠
- الذين آمنوا أشد حباً لله ٣٣٠
- إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ٣٣٢
- كلوا مما في الأرض حلالاً - ولا تتبعوا خطوات الشيطان ٣٣٤
- نعي القرآن على المقلدين ٣٣٧
- ومثل الذين كفروا ٣٣٨
- تحريم الميتة والدم والخنزير وما أهل به لغير الله إلا لمن اضطر ٣٤٠
- وعيد من يكتُم ما أنزل الله من الكتاب ٣٤٤
- ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ٣٤٦
-
- كتب عليكم القصاص في القتلى ٣٥١
- ولكم في القصاص حياة ٣٥٥
- وجوب الوصية على من حضره الموت ٣٥٧
- كتب عليكم الصيام، فمن كان مريضاً أو على سفر ٣٦١
- وعلى الذين لا يطيقونه فدية وما مقدارها ٣٦٣

- شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ٣٦٥
- وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع ٣٧٠
- أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ٣٧٣
- ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد ٣٧٦
- ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام ٣٧٩
- يسألونك عن الأهلة ٣٨١
- وليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها. وقاتلوا في سبيل الله الذين ٣٨٣
- يقاتلونكم ولا تعتدوا ٣٨٤
- واقتلوهم حيث ثقفتموهم - ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام ٣٨٥
- واقتلوهم حتى لا تكون فتنة - الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات ٣٨٧
- قصاص ٣٨٧
- وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ٣٩٠
- وأتموا الحج والعمرة لله ٣٩٢
- فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى ٣٩٤
- فمن كان منكم مريضاً.. ففدية.. فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر ٣٩٦
- الحج أشهر معلومات.. فلا رفث ولا ٤٠٠
- وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ٤٠٤
- ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضت من عرفات ٤٠٥
- فاذكروا الله ٤٠٥
- فإذا قضيت مناسككم - فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا.. ومنهم ٤٠٨
- من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ٤٠٨
- واذكروا الله في أيام معدودات ٤١١
- فمن تعجل في يومين ومن تأخر ٤١٢
- ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ٤١٤
- وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة ٣١٥

- بالاثم ٤١٦
- ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ٤١٧
- ادخلوا في السلم كافة ٤١٨
- هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل ٤٢٠
- بيان عقيدة السلف في مثل هذه الآية ٤٢٢
- سل بني اسرائيل كم آتيناهم من آية - ومن يبدل نعمة الله ٤٢٣
- زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا ٤٢٣
- فوقهم يوم القيامة ٤٢٤
- كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فهدى الله الذين آمنوا ٤٢٦
- أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا ٤٢٨
- يسألونك ماذا ينفقون .. فللوالدين و ٤٣٠
- كتب عليكم القتال وهو كره لكم ٤٣٢
- يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ٤٣٤
- والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ٤٣٥
- الردة تجب العمل ٤٣٦
- الذين آمنوا وهاجروا .. يرجون رحمة الله ٤٣٧
- يسألونك عن الخمر والميسر ٤٣٨
- يسألونك عن اليتامى ٤٤٢
- ولا تنكحوا المشركات ٤٤٣
- أمة مؤمنة خير من مشركة ، النهي عن نكاح المشركين لأنهم يدعون الى النار ٤٤٤
- الامر باعتزال النساء في الحيض لأنه أذى ٤٤٦
- فإذا تطهرهن فأتوهن من حيث امركم الله ٤٤٨
- فأتوا حرثكم أنى شئتم - تحريم إتيان النساء في أدبارهن ٤٥٠

تم الفهرس والحمد لله

فتح البصائر في مقام القرآن

تفسير سلفي أثري خالٍ من الإسرائيليات الجذليات المذهبية والكلامية
يفني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الامام العلامة الملك المؤيد مه الله الباري
أبي الطيب "صديقه بن حسن بن علي الحسين القنوجي البجاري
"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعته

خادم العلم

عبدالله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الأول

المكتبة العصرية
مكتبة - بيروت

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م



سَهْمٌ مِنْ بَنَاءِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ الْأَنْصَارِيِّ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار البيضاء - المغرب
المطبعة العصرية للنشر

بغروت - ص.ب. ٨٣٥٥ - تليكس ٢٠٤٣٧٤ SCS

صيدا - ص.ب. ٢٢١ - تليكس ٢٩١٩٨ LE

فتح البصائر في مقام القرآن

تفسير سلفي أشري خالٍ من الإسرائيليات والجذليات المذهبية والـ
يفني عن جميع التفاسير ولا تغني جميعها عنه

تأليف

السيد الامام العلامة الملك المؤيد مه الله الباري
أبي الطيب "صديقه بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري
"١٢٤٨-١٣٠٧هـ"

عني بطبعه وقدم له وراجعته
خادم العلم
عبدالله بن ابراهيم الأنصاري

الجزء الخامس عشر

المكتبة العصرية
مكتبة

جميع الحقوق محفوظة

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م



شركة البناء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار البيضاء - المغرب
المطبعة العصرية للنشر

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ - تليكس ٢٠٤٣٧٤ SCS
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تليكس ٢٩١٩٨ LE

فتح البصائر
في مقام القرآن

الجزء الخامس عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ويشتمل على:

- | | | |
|----------------|----------------|----------------|
| سورة التكاثر. | سورة الفجر. | سورة المرسلات. |
| سورة العصر. | سورة البلد. | سورة عم. |
| سورة الهمزة. | سورة الشمس. | سورة النازعات. |
| سورة الفيل. | سورة الليل. | سورة عبس. |
| سورة قريش. | سورة الضحك. | سورة التكويد. |
| سورة أرايت. | سورة ألم نشرح. | سورة الانفطار. |
| سورة الكوثر. | سورة التين. | سورة المطففين. |
| سورة الكافرون. | سورة اقرأ. | سورة الأنشاق. |
| سورة النصر. | سورة القدر. | سورة البروج. |
| سورة تبت. | سورة لم يكن. | سورة الطارق. |
| سورة الإخلاص. | سورة الزلزلة. | سورة أعلك. |
| سورة الفلق. | سورة العاديات. | سورة الغاشية. |
| سورة الناس. | سورة القارعة. | |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة المرسلات

هي خمسون آية وهي مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر
قال قتادة إلا آية منها وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾
فإنها مدنية وروى هذا عن ابن عباس.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود قال: «بينما نحن
مع النبي صلى الله عليه وسلم في غار بمنى إذ نزلت سورة
﴿المرسلات عرفاً﴾ فإنه ليتلوها وإني لأتلقاها من فيه. وإن فاه
لرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال النبي صلى الله عليه وآله وسله
اقتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبي صلى الله عليه وآله وسله وقد
شركم كما وقيتم شرها».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته وهو
يقرأ والمرسلات عرفاً فقالت: «يا بني لقد ذكرتني بقرأتك هذه
السورة إنها آخر ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها
في المغرب».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَأَلْصَقَتْ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرَتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَأَلْفَرَقَتْ فَرَقًا ﴿٤﴾
فَأَلْمُقِيتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَقْعٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا التَّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾
وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ﴿١٠﴾

﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ قال جمهور المفسرين هي الرياح ، روي عن ابن مسعود قال إنه الريح وقيل هي الملائكة ، وبه قال مقاتل وأبو صالح والكلبي ، وقال أبو هريرة : هي الملائكة أرسلت بالعرف ، وعن ابن مسعود مثله ، وقيل هم الأنبياء .

فعلى الأول أقسم سبحانه بالرياح المرسلة لما يأمرها به كما في قوله ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقوله ﴿ ويرسل الرياح ﴾ وغير ذلك وعلى الثاني أقسم سبحانه بالملائكة المرسلة لوحيه وأمره ونهييه ، وعلى الثالث أقسم برسله المرسلة إلى عباده لتبليغ شرائعه ، وقيل المراد بالمرسلات السحاب لما فيها من نقمة ونعمة ^(١) .

وإنتصاب (عرفاً) إما على أنه مفعول لأجله أي المرسلات لأجل العرف وهو ضد النكر أو على أنه حال بمعنى متتابعة يتبع بعضها بعضاً كعرف

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عُرْفًا ، وقد ترسل عرفاً الملائكة ، وترسل كذلك الرياح ، ولا دلالة تدل على أن المعنى بذلك أحد الحزبين دون الآخر ، وقد عم جل ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف ، فكل من كانت صفته كذلك ، فداخل في قسمه ذلك ، ملكاً أو ريحاً أو رسولاً من بني آدم مرسلًا . وقال ابن كثير : والأظهر أن المرسلات : هي الرياح ، كما قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ وهكذا العاصفات هي الرياح ، يقال : عصفت الرياح : إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات : هي الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب عز وجل .

الفرس ، تقول العرب سار الناس إلى فلان عرفاً واحداً إذا توجهوا إليه ، وهم على فلان كعرف الضبع إذا تألبوا عليه ، أو على أنه مصدر كأنه قال والمرسلات إرسالاً أي متتابعة ، أو على أنه منصوب بنزع الخافض أي والمرسلات بالعرف ، قرأ الجمهور (عرفاً) بسكون الراء ، وقرأ عيسى بن عمر بضمها .

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي الرياح الشديدة الهبوب ، وقال القرطبي : بغير اختلاف ، يقال عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه ، وناقة عصف أي تعصف براكبها فتمضي كأنها ريح في السرعة ، ويقال عصفت الحرب بالقوم إذا ذهبت بهم ، وقيل هي الملائكة الموكلون بالريح ، يعصفون بها ، وقيل يعصفون بروح الكافر ، وقيل هي الآيات المهلكة كالزلازل ونحوها ، وقال ابن مسعود هي الرياح ، وعن علي قال هي الرياح ، وبه قال ابن عباس .

﴿والناشرات نشرأ﴾ يعني الرياح تأتي بالمطر وهي تنشر السحاب نشرأ ، قال ابن مسعود هي الرياح أو الملائكة الموكلون بالسحاب ينشرونها أو ينشرون أجنحتهم في الجو عند النزول بالوحي ، أو هي الأمطار لأنها تنشر النبات ، وقال الضحاك : يريد ما ينشر من الكتب وأعمال بني آدم ، قال الربيع : أنه البعث للقيامة ينشر الأرواح وجاء بالواو هنا لأنه إستئناف قسم آخر .

﴿فالفارقات فرقاً﴾ يعني الملائكة تأتي بما يفرق بين الحق والباطل ، والحلال والحرام وقال مجاهد هي الرياح تفرق بين السحاب فتبدده ، وروي عنه أنها آيات القرآن تفرق بين الحق والباطل ، وقيل هي الرسل فرقوا بين ما أمر الله به ونهى عنه ، وبه قال الحسن قال ابن عباس هي الملائكة فرقت بين الحق والباطل .

﴿فالملقىات ذكراً﴾ هي الملائكة قال القرطبي : بإجماع أي تلقي الوحي إلى الأنبياء ، وقيل هو جبريل وسمي بإسم الجمع تعظيماً له ، وقيل هي الرسل

يلقون إلى أمهم ما أنزل الله عليهم ، قاله قطرب ، قال ابن عباس : فالملقيات ذكراً قال بالتنزيل .

قرأ الجمهور ملقيات بسكون اللام وتخفيف القاف إسم فاعل .

وقرأ ابن عباس بفتح اللام وتشديد القاف من التلقية وهي إيصال الكلام إلى المخاطب .

أقسم سبحانه بصفات خمسة موصوفها محذوف فجعله بعضهم الرياح في الكل ، وبعضهم جعله الملائكة في الكل ، وبعضهم غاير فجعله تارة الرياح وتارة الملائكة ، وجعل الجلال المحلي الصفات الثلاث الأول لموصوف واحد وهو الرياح ، وجعل الرابعة لموصوف ثان وهو الآيات وجعل الخامسة لموصوف ثالث وهو الملائكة ، ولم يسلك هذه الطريق غيره من المفسرين .

وعبارة النهر : ولما كان للمقسم به موصوفات قد حذفت وأقيمت صفاتها مقامها وقع الخلاف في تلك الموصوفات ، والذي يظهر أن المقسم به شيئان ، ولذلك جاء العطف بالواو في ﴿ والناشرات ﴾ والعطف بالواو يشعر بالتغاير ، وأما العطف بالفاء إذا كان في الصفات فيدل على أنها راجعة لموصوف واحد :

وإذا تقرر هذا فالظاهر أنه أقسم أولاً بالرياح ويدل عليه عطف الصفة بالفاء ، والقسم الثاني فيه ترق إلى أشرف من المقسم به الأول وهم الملائكة ، ويكون قوله (فالفارقات ، فالملقيات) من صفاتهم وإلقاؤهم للذكر وهو ما أنزل الله تعالى صحيح إسناده إليهم .

وما ذكر من اختلاف المفسرين في المراد بهذه الأوصاف ينبغي أن يحمل على التمثيل لا على التعيين ، والراجح أن الأوصاف الثلاثة الأول للرياح ، والرابع والخامس للملائكة ، وهو الذي اختاره الزجاج والقاضي وغيرهما .

﴿ عذراً أو نذراً ﴾ انتصابهما على البدل من ﴿ ذكراً ﴾ أو على المفعولية والعامل فيهما المصدر المنون كما في قوله تعالى ﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة

يتيماً ﴿ أو على المفعول لأجله أي للإعذار والإنذار ، أو على الحال بالتأويل المعروف أي معذرين أو منذرين .

قرأ الجمهور بإسكان الذال فيهما ، وقرىء بضمها وبسكونها في (عذراً) وضمها في نذراً .

وقرأ الجمهور عذراً أو نذراً على العطف بأو ، وقرىء بالواو .
والمعنى أن الملائكة تلقي الوحي إعذاراً من الله إلى خلقه وإنذاراً من عذابه ، كذا قال الفراء ، وقيل عذراً للمحقين ونذراً للمبطلين .

قال أبو علي الفارسي : يجوز أن يكون العذر والنذر بالثقل جمع عاذر وناذر كقوله ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ فيكون نصباً على الحال من الإلقاء أي يلقون الذكر في حال العذر والإنذار ، قال المبرد هما بالثقل جمع والواحد عذير ونذير ، وقيل الإعذار محو الإساءة ، والإنذار التخويف ، والأول أظهر .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ أي ان الذي توعدونه من مجيء الساعة والبعث كائن لا محالة ما إسم الموصول ، والقاعدة أنها إذا كانت كذلك ترسم مفصلة من أن ورسمت هنا موصولة بها إتباعاً لرسم المصحف الإمام .

ثم بين سبحانه متى يقع ذلك فقال ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي محي نورها وذهب ضؤها يقال طمس الشيء إذا درس وذهب أثره ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي فتحت وشقت ومثله قوله ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي قلعت من مكانها بسرعة ، يقال نسفت الشيء وأنسفته إذا أخذه بسرعة ، وقال الكلبي سويت بالأرض ، والعرب تقول نسفت الناقة الكلاً إذا رعت ، وقيل جعلته كالحب الذي ينسف بالمنسف ، ومنه قوله ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ والأول أولى ، قال المبرد : نسفت قلعت من مواضعها .

وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْنَتَ ﴿١٦﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٧﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٩﴾
 وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿٢٢﴾ كَذَلِكَ
 نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٥﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي
 قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢٦﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٧﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَبَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٩﴾

﴿ وإذا الرسل أقنت ﴾ الهمزة بدل من الواو المضمومة ، وكل واو انضمت وكانت ضميتها لازمة يجوز إبدالها بالهمزة ، وقد قرئ بالواو ، والوقت الأجل الذي يكون عنده الشيء المؤخر إليه .

والمعنى جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما في قوله سبحانه ﴿ يوم يجمع الله الرسل ﴾ وقيل هذا في الدنيا أي جمعت الرسل لمليقاتها الذي ضرب لها في إنزال العذاب بمن كذبها ، والأول أولى ، قال أبو علي الفارسي أي جعل يوم الدين والفصل لها وقتاً ، وقيل أقنت أرسلت لأوقات معلومة على ما علم الله به .

﴿ لأي يوم أجلت ﴾ هذا الإستفهام للتعظيم والتعجب ، أي لأي يوم عظيم تعجب العباد منه لشدته ومزيد أهواله ضرب لهم الأجل لجمعهم ، والجملة مقول قول مقدر هو جواب لإذا أو في محل نصب على الحال من الضمير في أقنت ، قال الزجاج المراد بهذا التأقيت تبين الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أمهم .

ثم بين هذا اليوم فقال ﴿ ليوم الفصل ﴾ قال قتادة يفصل فيه بين الناس بأعمالهم إلى الجنة والنار ، ثم أتبع ذلك تعظيماً وتهويلاً فقال ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أي وما أعلمك بيوم الفصل يعني أنه أمر بديع هائل لا يقادر قدره ، وما مبتدأ وأدراك خبره أو العكس كما اختاره سيبويه .

ثم ذكر حال الذين كذبوا بذلك اليوم فقال ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي ويل لهم في ذلك اليوم الهائل ، قال الزمخشري ويل أصله مصدر ساد مسد فعله لكنه عدل به إلى الرفع للدلالة على الثبات .

قلت : سوغ الإبتداء به كونه دعاء لا ما ذكره الزمخشري ، ويجوز ويلاً بالنصب ولكنه لم يقرأ به ، والويل الهلاك أو هو إسم واد في جهنم ، قال ابن مسعود يسيل فيه صديد أهل النار فجعل للمكذبين .

وكررت هذه الآية في هذه السورة عشر مرات لأنه قسم الويل بينهم على قدر تكذيبهم ، فإن لكل مكذب شيء عذاباً سوى تكذيبه بشيء آخر ، ورب شيء كذب به هو أعظم جرماً من التكذيب بغيره ، فيقسم له من الويل على قدر ذلك التكذيب .

وقال الكرخي : التكرار في مقام الترغيب والترهيب مستحسن لا سيما إذا تغيرت الآيات السابقة على المرات المكررة كما هنا .

ذكر سبحانه ما فعل بالكفار من الأمم الخالية فقال ﴿ألم نهلك الأولين﴾ أخبر سبحانه بإهلاك الكفار من الأمم الماضية من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم كقوم نوح وعاد وثمود ، قال مقاتل يعني بالعذاب في الدنيا حين كذبوا رسلهم ، والإستفهام إنكاري وهو داخل على نفي ، ونفي النفي إثبات ، ويعبر عنه بالإستفهام التقريري والمراد به طلب الإقرار بما بعد النفي .

﴿ثم تتبعهم الآخريين﴾ يعني كفار مكة ومن وافقهم حين كذبوا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، قرأ الجمهور تتبعهم بالرفع على الإستئناف أي ثم نحن نتبعهم ، كذا قدره أبو البقاء ، وقال ليس بمعطوف لأن العطف يوجب أن يكون المعنى أهلكننا الأولين ثم أتبعناهم الآخريين في الهلاك ، وليس كذلك لأن إهلاك الآخريين لم يقع بعد ، ويدل على الرفع قراءة ابن مسعود ﴿ثم سنتبعهم الآخريين﴾ بسين التنفيس .

وقرىء بالجزم عطفاً على نهلك ، قال شهاب الدين على جعل الفعل معطوفاً على مجموع الجملة من قوله ألم نهلك ، والمراد بالآخرين حينئذ قوم شعيب ولوط وموسى ، وبالأولين قوم نوح وعاد وشمود .

﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أي مثل ذلك الفعل الفطيع نفعل بهم ، يريد من يهلكه فيما بعد ، والكاف في موضع نصب على النعت لمصدر محذوف أي مثل ذلك الإهلاك نفعل بكل مشرك إما في الدنيا أو في الآخرة .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أي ويل يوم ذلك الإهلاك للمكذبين بكتب الله ورسله ، قيل والويل الأول لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا ، والتكرير للتوكيد شائع في كلام العرب .

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ أي ضعيف حقير قدر متين ذليل وهو النطفة ، قال ابن عباس مهين ضعيف ، هذا نوع آخر من تخويف الكفار . ونظيره قوله سبحانه ﴿ ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ﴾ .

﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ أي مكان حريز وهو الرحم يحفظ فيه المني من الآفات المفسدة له كالهواء ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أي إلى مقدار قدره الله تعالى للولادة وهو مدة الحمل وهو تسعة أشهر أو ما فوقها أو ما دونها ، وقيل إلى أن يصور .

﴿ فقدركم ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف من القدرة ويدل عليه ﴿ فنعم القادرون ﴾ وقرىء بالتشديد من التقدير ، وهو موافق لقوله ﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ قال الكسائي والفراء وهما لغتان بمعنى قدرت كذا وقدرته ﴿ فنعم القادرون ﴾ أي نعم المقدرين نحن ، قيل المعنى قدرناه قصيراً أو طويلاً ، وقيل قدرنا أي ملكنا .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بقدرتنا على ذلك أو على الإعادة وبنعمة الفطرة .

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رُوسَى شَمِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً
فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَبَلَّيْمْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ
ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظِلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِّ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾
كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَبَلَّيْمْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

ثم بين لهم بديع صنعه وعظيم قدرته ليعتبروا فقال ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا ﴾ معنى الكفت في اللغة الضم والجمع ، ويقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه ، ومن هذا يقال للجراب والقدر كفت ، والكفات بالكسر الموضع الذي يكفت فيه شيء أي يضم ، ذكره المختار والقاموس ، وقال المحلي : مصدر كفت وفيه نظر لأن كفت من باب ضرب ، فالحق أنه إسم مكان وقيل جمع كافت كصيام وقيام ، وقيل مصدر كالكتاب والحساب .

وقال الأخفش : كفاتا جمع كافتة والأرض يراد بها الجمع فنعتت بالجمع . وقال الخليل : التكتفت تقليب الشيء ظهراً لبطن أو بطناً لظهر ، ويقال إنكفت القوم إلى منازلهم أي ذهبوا .

والمعنى ألم نجعل الأرض ضامة للأحياء على ظهرها ، والأموات في بطنها ، تضمهم وتجمعهم قال الفراء يريد تكفتهم أحياء على ظهرها في دورهم ومنازلهم ، وتكفتهم أمواتاً في بطنها أي تحوزهم ، وهو معنى قوله ﴿ أحياء وأمواتاً ﴾ والتنكير فيهام للتفخيم أي تكفت أحياء لا يعدون وأمواتاً لا يحصرون ، وقال أبو عبيدة : (كفاتاً) أوعية ، وقيل معنى جعلها كفاتاً أنه يدفن فيها ما يخرج من الإنسان من الفضلات ، وقال ابن عباس : (كفاتاً) كنا .

وقال الأخفش وأبو عبيدة : الأحياء والأموات وصفان للأرض أي

الأرض منقسمة إلى حي وهو الذي ينبت ، وإلى ميت وهو الذي لا ينبت .
قال الفراء : إنتصاب أحياء وأمواتاً لوقوع الكفات عليه أي ألم نجعل
الأرض كفات أحياء وأموات ، فإذا نون نصب ما بعده ، وقيل نصباً على
الحال من الأرض أي منها كذا ومنها كذا ، وقيل هو مصدر نعت به للمبالغة .

﴿وجعلنا فيها رواسي شاهحات ﴾ أي جبلاً مرتفعات طوالاً ، والرواسي
الثوابت ، والشاهحات الطوال وكل عال فهو شامخ ، وقال ابن عباس : جبلاً
مشرفات وقيل ثوابت عاليات .

﴿وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ أي عذباً قاله ابن عباس ، والفرات الماء
العذب يشرب منه ويسقى به ، قال مقاتل : وهذا كله أعجب من البعث ،
روي أن في الأرض من الجنة سيحان وجيحان والفرات والنيل كلها من أنهار
الجنة ﴿ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما أنعمنا عليهم من نعمنا التي هذه من
جملتها .

﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ في الدنيا يقول لهم ذلك خزنة
جهنم توبيخاً وتقريعاً أي سيروا إليه من العذاب ، وهو عذاب النار .

﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ أي إلى ظل من دخان جهنم قد
سطع ثم افترق ثلاث فرق يكونون فيه حتى يفرغ من الحساب ، وهذا شأن
الدخان العظيم إذا ارتفع تشعب شعباً .

قرأ الجمهور انطلقوا في الموضعين على صيغة الأمر على التأكيد ، وقرىء
بصيغة الماضي في الثاني أي لما أمروا بالإنطلاق امثلوا ذلك فانطلقوا ، وقيل
المراد بالظل هنا هو السرادق ، وهو لسان من النار تحيط بهم ثم تشعب ثلاث
شعب فتظلمهم حتى يفرغ من حسابهم ثم يصيرون إلى النار ، وقيل هو الظل
من محموم كما في قوله ﴿ في سموم وحميم ، وظل من محموم ﴾ على ما تقدم ،
وقيل أن الشعب الثلاث هي الضريع والزقوم والغسلين لأنها أوصاف النار .

ثم وصف سبحانه هذا الظل تهكماً بهم فقال ﴿ لا ظليل ﴾ كنين يظلمهم من حر ذلك اليوم ، وهذا تهكم بهم ورد لما أوهمه لفظ الظل ﴿ ولا يغني ﴾ أي لا يرد عنهم شيئاً ﴿ من اللهب ﴾ أي النار ، قال الكلبي لا يرد حر جهنم عنكم .

ثم وصف سبحانه النار فقال ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ العظيم أي كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها ، والشرر ما تطاير من النار متفرقاً ، والقصر البناء العظيم ، وقيل القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل جمر وجمرة وتمر وتمرّة وهي الواحدة من جنس الحطب الغليظ ، قال سعيد بن جبيرة والضحاك وهي أصول الشجر العظام ، وقيل أعناقه .

قرأ الجمهور كالقصر بإسكان الصاد وهو واحد القصور كما تقدم ، وقرئ بفتحها أي أعناق النخل والقصرة العنق جمعه قصر وقصرات ، وقال قتادة : أعناق الإبل .

وقرأ سعيد بن جبيرة : بكسر القاف وفتح الصاد وهي جمع أيضاً لقصرة مثل بدر وبدرية وقصع قصعة .

وقرأ الجمهور بشرر بفتح الشين ، وقرأ ابن عباس وابن مقسم شرار بكسرهما مع ألف بين الرائيين ، وقرأ عيسى كذلك إلا أنه بفتح الشين وهي لغات ، قال ابن عباس قصر النخل يعني الأعناق ، وعنه قال كانت العرب في الجاهلية تقول اقصروا لنا الحطب فيقطع على قدر الذراع والذراعين ، وقال ابن مسعود : إنها ليست كالشجر والجبال ، ولكنها مثل المدائن والحصون .

ثم شبه الشرر باعتبار لونه فقال ﴿ كأنه جمالة صفر ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص جمالة جمع جمل ، وقرأ الجمهور جمالات بكسر الجيم وهي جمع جمال وهي الإبل أو جمع جمالة ، وقرئ بضم الجيم وهي حبال السفن ، قال ابن عباس : جمالات صفر قطع النحاس .

عن عبد الرحمن بن عباس قال : « سمعت ابن عباس يسأل عن قوله ﴿ بشرر كالقصر ﴾ قال كنا نرفع الخشب بقدر ثلاثة أذرع أو أقل فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ، قال وسمعته يسأل عن قوله ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ قال حبال السفن يجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال » .

ولفظ البخاري « كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك فنرفعه للشتاء فنسميه القصر ﴿ كأنه جمالات صفر ﴾ حبال السفن تجمع حتى تكون كأوساط الرجال » وعنه قال هي الإبل .

قال الواحدي الصفر معناها السود في قول المفسرين ، قال الفراء الصفر سود الإبل لا يرى أسود من الإبل إلا وهو مشرب صفرة لذلك سمت العرب سود الإبل صفراً ، قيل والشرر إذا تطاير وسقط وفيه بقية من لون النار أشبه شيء بالإبل السود .

قيل وهذا القول محال في اللغة أن يكون شيء يشوبه شيء قليل فينسب كله إلى ذلك الشائب فالعجب لمن قال بهذا وقد قال تعالى ﴿ جمالات صفر ﴾ وأجيب بأن وجهه أن النار خلقت من النور فهي مضيئة ، فلما خلق الله جهنم هي موضع النار حشى ذلك الموضع بتلك النار وبعث إليها سلطانها وغضبه فاسودت من سلطانها وازدادت سواداً وصارت أشد سواداً من كل شيء فيكون شررها أسود لأنه من نار سوداء .

قلت هذا الجواب البارد لا يدفع ما قاله القائل لأن كلامه باعتبار ما وقع في الكتاب العزيز هنا من وصفها بكونها صفراً ، فلو كان الأمر كما ذكره المجيب من اسوداد النار واسوداد شررها لقال الله تعالى كأنها جمالات سود ، ولكن إذا كانت العرب تسمى الأسود أصفر لم يبق إشكال لأن القرآن نزل بلغتهم ، وقد نقل الثقات عنهم ذلك ويدل عليه الحديث في صفة جهنم وفي آخره « فهي سوداء مظلمة » فكان ما في القرآن هنا وارداً على هذا الإستعمال العربي ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لرسل الله وآياته .

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْنَدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمٌ
 الْفَصْلُ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ
 الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَهُ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوْا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ
 تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوْا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا
 إِنَّكُمْ تَجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾
 وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون ، قرأ الجمهور برفع يوم على أنه خبر لإسم الإشارة ، وقرأ زيد بن علي والأعرج والأعمش وغيرهم بالفتح على البناء لإضافته إلى الفعل ومحله الرفع على الخبرية ، وقيل هو منصوب على الظرفية .

قال الواحدي قال المفسرون : في يوم القيامة مواقف ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها يختم على أفواههم فلا يتكلمون ، وقد قدمنا الجمع بهذا في غير موضع ، وقيل إن هذا إشارة إلى وقت دخولهم النار وهم عند ذلك لا ينطقون لأن مواقف السؤال والحساب قد انقضت ، وقال الحسن لا ينطقون بحجة وإن كانوا ينطقون ، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الوعيد كأنه قيل هذا العقاب المذكور كائن يوم لا ينطقون .

وعن عكرمة قال : « سأل نافع بن الأزرق : ابن عباس عن قوله ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ و ﴿ لا تسمع لهم إلا همساً ﴾ و ﴿ أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ ، و ﴿ هاؤم إقرأوا كتابيه ﴾ فقال له ويحك هل سألت عن هذا أحداً قبلي؟ قال لا قال أما إنك لو كنت سألت هلكت . أليس قال الله ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ قال بلى ، قال فإن لكل مقدار يوم من

هذه الأيام لونا من الألوان » .

﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ قرأ الجمهور يؤذن على البناء للمفعول ، وقرأ زيد بن علي لا يأذن على البناء للفاعل أي لا يأذن الله لهم أي لا يكون لهم إذن من الله فيكون لهم اعتذار من غير أن يجعل الاعتذار مسبباً عن الأذن كما لو نصب ، قال الفراء الفاء في ﴿ فيعتذرون ﴾ نسق على يؤذن وأجيز ذلك لأن أواخر الكلام بالنون ولو قال فيعتذروا لم يوافق الآيات ، وقد قال ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ بالنصب والكل صواب ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما دعتهم إليه الرسل وأنذرتهم عاقبته .

﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ أي ويقال لهم هذا يوم الفصل الذي يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، والخطاب في ﴿ جمعناكم ﴾ للكفار في زمن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم والمراد بالأولين كفار الأمم الماضية .

﴿ فإن كان لكم كيد ﴾ أي إن قدرتم على حيلة في دفع العذاب عنكم الآن ﴿ فيكيدون ﴾ أي فافعلوها ، وهذا تقرير لهم وتهكم وتوبيخ قال مقاتل يقول إن كان لكم حيلة فاحتالوا لأنفسكم ، وقيل المعنى فإن قدرتم على حرب فحاربون ، وقيل إن هذا من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيكون كقول هود ﴿ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا .

ثم لما ذكر سبحانه في سورة الدهر أحوال الكفار في الآخرة على سبيل الإختصار وأطنب في أحوال المؤمنين فيها ، ذكر في هذه السورة أحوال الكفار على سبيل الإطناب ، وأحوال المؤمنين على سبيل الإيجاز فوق بذلك التعادل بين السورتين فقال ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ أي في ظلال الأشجار وظلال القصور لا كالظل الذي للكفار من الدخان ومن النار كما تقدم ، قال المحلي أي تكاثف أشجار ، وعبرة الكازروني أي تحت أشجار .

قرأ الجمهور ﴿ في ظلال ﴾ وقرىء في ظل جمع ظلة ، قال مقاتل والكلبي: المراد بالملتقين الذين يتقون الشرك بالله لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقرير الكفار على كفرهم .

قال الرازي: فيجب أن تكون هذه الآية مذكورة لهذا الغرض وإلا لتفككت السورة في نظمها وترتيبها ، وإنما يتم النظم بأن يكون هذا الوعد حاصلاً للمؤمنين بسبب إيمانهم ، لأنه لما تقدم وعيد الكافر بسبب كفره وجب أن يقرن ذلك بوعد المؤمن بسبب إيمانه حتى يصير ذلك سبباً في الزجر عن الكفر ، فأما أن يقرن به وعد المؤمن بسبب طاعته فلا يليق بالنظر ، كذا قال .

والمراد بالعيون الأنهار أي نابعة من ماء وعسل ولبن وخمر كما قال تعالى ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ إلخ .

﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ المراد بالفواكه ما يتفكه به مما تطلبه أنفسهم وتستدعيه شهواتهم فمتى اشتهاوا فاكهة وجدوها حاضرة فليست فاكهة الجنة مقيدة بوقت دون وقت كما في أنواع فاكهة الدنيا .

﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم ذلك ، والقائل لهم الملائكة إكراماً لهم ، أو يقال لهم من قبل الله ، فالجملة مقدرة بالقول والباء للسببية أي بسبب ما كنتم تعملونه في الدنيا من الأعمال الصالحة .

﴿ إنا كذلك ﴾ أي مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿ نجزي المحسنين ﴾ في أعمالهم وعقائدهم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث صاروا في شقاء عظيم وصار المؤمنون في نعيم مقيم .

﴿ كلوا وتمتعوا ﴾ خطاب للكفار أي الويل ثابت لهم في حال ما يقال لهم ذلك تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا أو يقال لهم هذا في الدنيا ، وإنما قال ﴿ قليلاً ﴾ لأن متاع الدنيا وزمانه قليل لأنه زائل مع قصر مدته في مقابلة مدة الآخرة ، وذلك إلى منتهى آجالهم .

قال بعض العلماء التمتع بالدنيا من أفعال الكافرين ، والسعي لها من أفعال الظالمين والاطمئنان إليها من أفعال الكاذبين ، والسكون فيها على حد الاذن والأخذ منها على قدر الحاجة من أفعال عوام المؤمنين ، والاعراض عنها من أفعال الزاهدين ، وأهل الحقيقة أجل خطراً من أن يؤثر فيهم حب الدنيا وبغضها وجمعها وتركها .

﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي المشركون بالله ، وهذا وإن كان في اللفظ أمر فهو في المعنى تهديد وزجر عظيم ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ حيث عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل .

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لهؤلاء المجرمين من أي قائل كان ﴿ اركعوا لا يركعون ﴾ أي وإذا أمروا بالصلاة لا يصلون ، قال مقاتل : « نزلت في ثقيف امتنعوا من الصلاة بعد أن أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بها فقالوا لا ننحنى فإنها سبة علينا فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود » وقيل إنما يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا لله سبحانه ، قاله ابن عباس^(١) .

وفي هذه الآية دليل على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة ، وسميت الصلاة باسم جزئها وهو الركوع ، وخص هذا الجزء لأنه يقال على الخضوع والطاعة ، ولأنه خاص بصلاة المسلمين ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بأوامر الله سبحانه ونواهيه .

﴿ فبأي حديث بعده ﴾ أي بعد القرآن ﴿ يؤمنون ﴾ أي يصدقون إذا لم

(١) قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» ١٨١ : هكذا ذكره الثعلبي ، قال : وأخرجه أبو داود ٢٢٢/٣ ، وأحمد ٢١٨/٤ وابن أبي شيبة ، والطبراني ، من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص به ، وأتم منه . قلت : وفيه عننة الحسن .

يؤمنوا به ، مع أنه آية مبصرة ومعجزة باهرة من بين الكتب السماوية ، قرأ
الجمهور يؤمنون بالتحتية على الغيبة ، وقرأ ابن عامر في رواية عنه ويعقوب
بالفوقية على الخطاب .

سورة عمّ

كدا في الخازن والخطيب . وتسمك سورة التساؤل وسورة النبا .
وهي أربعون آية وقيل إحدى وأربعون آية وهي مكية عند الجميع .
وقال ابن عباس نزلت بمكة . وعن ابن الزبير ومثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾

﴿عم يتساءلون﴾ أصله عن ماء فأدغمت النون في الميم لأن الميم تشاركها في الغنة ، كذا قال الزجاج ، وحذفت الألف ليطمئذ الخبر عن الاستفهام ، وكذلك فيم وبم ، ونحو ذلك ، والمعنى عن أي شيء يسأل بعضهم بعضاً .

قرأ الجمهور: عمَّ بحذف الألف لما ذكرنا، وقرئ بإثباتها، ولكنه قليل لا يجوز إلا للضرورة، وقرئ بهاء السكت عوضاً عن الألف ، قال الزجاج : اللفظ لفظ الاستفهام والمعنى تفخيم القصة ، كما تقول أي شيء تريد ، إذا عظمت شأنه .

قال الشهاب : وهذا الاستفهام لا يمكن حمله على حقيقته لأن المطلوب به لا بد أن يكون مجهولاً عند الطالب ، فلذا جعل مجازاً عن الفخامة، لأنه ورد على طريق مخاطبات العرب فالاستفهام بالنسبة إلى الناس .

وقال في النهر : هذا الاستفهام فيه تفخيم وتهويل وتقرير وتعجيب .

قال الواحدي قال المفسرون: «لما بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأخبرهم بتوحيد الله والبعث بعد الموت وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون بينهم ، يقولون ماذا جاء به محمد ، وما الذي أتى به ؟ فأنزل الله عمَّ يتساءلون» (١) قال الفراء التساؤل هو أن يسأل بعضهم بعضاً كالتقابل ، وقد

(١) روى ابن جرير الطبري سبب النزول هذا عن الحسن ١/٣٠ وأورده السيوطي في «الدر» ٣٠٥/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن الحسن .

يستعمل أيضاً في أن يتحدثوا به وإن لم يكن بينهم سؤال . قال تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ وهذا يدل على أنه التحدث . ومناسبتها لما قبلها ظاهرة لما ذكر في قوله : ﴿ فبأي حديث بعده ﴾ أي بعد هذا الحديث وهو القرآن وكانوا يتجادلون فيه ويتساءلون عنه فقال : ﴿ عم ﴾ يتساءلون ﴿

ثم ذكر سبحانه تساؤلهم عما ذا وبينه فقال : ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ أورده سبحانه أولاً على طريقة الاستفهام مبهماً لتوجه إليه أذهانهم ، وتلفتت إليه أفهامهم ، ثم بينه بما يفيد تعظيمه وتفخيمه ، كأنه قيل عن أي شيء يتساءلون ، هل أخبركم به ، ثم قيل بطريق الجواب ﴿ عن النبأ العظيم ﴾ على مناجاة قوله : ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾ وإنما كان ذلك النبأ أي القرآن عظيماً لأنه نبيء عن التوحيد وتصديق الرسول ، ووقوع البعث والنشور .

وقال الضحاك : يعني نبأ يوم القيامة وكذا قال قتادة .

وقد استدل على أن النبأ هو القرآن بقوله الآتي : ﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ فإنهم اختلفوا في القرآن فجعله بعضهم سحراً وبعضهم شعراً وبعضهم كهانة وبعضهم قال هو أساطير الأولين ، وأما البعث فقد اتفق الكفار إذ ذاك على إنكاره ، ويمكن أن يقال أنه قد وقع الاختلاف في البعث في الجملة فصدق به المؤمنون ، وكذب به الكافرون ، فقد وقع الخلاف فيه من هذه الحيشة وإن لم يقع الاختلاف فيه بين الكفار أنفسهم على التسليم والتنزل .

ومما يدل على أنه القرآن قوله سبحانه : ﴿ قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ﴾ ومما يدل على أنه البعث أنه أكثر ما كان يستنكره المشركون وتأباه عقولهم السخيفة .

وأيضاً فطوائف الكفار قد وقع الاختلاف بينهم في البعث فأثبتت النصرى المعاد الروحاني ، وأثبتت طائفة من اليهود المعاد الجسماني ، وفي

التوراة التصريح بلفظ الجنة باللغة العبرانية بلفظ جنعيذا بجيم مفتوحة ثم نون ساكنة ثم عين مهملة مكسورة ثم تحتية ساكنة ثم ذال معجمة بعدها ألف ، وفي الإنجيل في مواضع كثيرة التصريح بالمعاد ، وأنه يكون فيه النعيم للمطيعين ، والعذاب للعاصين .

وقد كان بعض طوائف كفار العرب ينكر المعاد كما حكى الله عنه بقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ وكانت طائفة منهم غير جازمة بنفيه بل شاكة فيه كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَيْقِنِينَ ﴾ وما حكاه الله عنهم بقوله : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَى ﴾ فقد حصل الاختلاف بين طوائف الكفر على هذه الصفة .

وقد قيل إن الضمير في قوله يتساءلون يرجع إلى المؤمنين والكفار لأنهم جميعاً كانوا يتساءلون عنه : فأما المسلم فيزداد يقيناً واستعداداً وبصيرة في دينه ، وأما الكافر فاستهزاء وسخرية .

قال الرازي : ويحتمل أنهم يسألون الرسول ويقولون ما هذا الذي تعدنا به من أمر الآخرة ، قال ابن عباس : النبأ العظيم القرآن ، وهذا مروي عن جماعة من التابعين .

﴿ الذي هم فيه مختلفون ﴾ الموصول صفة للنبأ بعد وصفه بكونه عظيماً فهو متصف بالعظم ومتصف بوقوع الاختلاف فيه .

﴿ كلا سيعلمون ﴾ ردع لهم وزجر ، وهذا يدل على أن المختلفين فيه هم الكفار ، وبه يندفع ما قيل أن الخلاف بينهم وبين المؤمنين ، فإنه انما يتوجه الردع والوعيد إلى الكفار فقط ، وقيل كلا بمعنى حقاً .

ثم كرر الردع والزجر فقال : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ للمبالغة في التأكيد والتشديد في الوعيد ، وقرأ الجمهور بالياء التحتية في الفعلين على الغيبة ، وقرأ بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الضحاك الأولى بالفوقية ، وقرأ الثانية

بالتحتية ، قال الضحاك أيضاً ﴿كلا سيعلمون﴾ يعني الكافرين عاقبة تكذيبهم ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ يعني المؤمنين عاقبة تصديقهم ، وقيل بالعكس ، وقيل هو وعيد بعد وعيد .

وقيل: المعنى ﴿كلا سيعلمون﴾ عند النزاع ما يحل بهم ﴿ثم كلا سيعلمون﴾ عند البعث لأنه يكشف لهم الغطاء حينئذ ، وقيل الأول للبعث والثاني للجزاء .

وقال ابن مالك تأكيد لفظي ولا يضر توسط حرف العطف، قال السمين : والنحويون يأبون هذا ولا يسمونه إلا عطفاً وإن أفاد التأكيد ، قال زاده « ثم » موضوعة للتراخي الزماني وقد تستعمل في التراخي الرتبي كما هنا تشبيهاً لتباعد الرتبة بتباعد الزمان .

ثم ذكر سبحانه بديع صنعه وعظيم قدرته على البعث وأشار إلى الأدلة الدالة عليها وذكر منها تسعة ليعرفوا توحيدهم ويؤمنوا بما جاء به رسوله فقال : ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً﴾ أي قدرتنا على هذه الأمور المذكورة أعظم من قدرتنا على الإعادة بالبعث ، فما وجه إنكاركم ، لأنه قد تقرر أن الأجسام متساوية الأقدام في قبول الصفات والأعراض .

وهذا الجعل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخلق خلا إنه مختص بالإنشاء التكويني ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، وهذا عام له كما في الآية الكريمة ، وقيل: الجعل بمعنى التصيير ، والمهاد الوطاء والفراش كما في قوله : ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾ قرأ الجمهور بالجمع ، وقرئ مهداً .

والمعنى أنها كالمهد للصبي وهو ما يمهد له فينام عليه ، وسمي الممهد بالمهد تسمية للمفعول بالمصدر كضرب الأمير ، والأوتاد جمع وتد أي جعلنا الجبال أوتاداً للأرض لتسكن ولا تتحرك كما ترسى الخيام بالأوتاد .

وفي هذا دليل على أن التساؤل الكائن بينهم هو عن أمر البعث لا عن القرآن ولا عن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كما قيل ، لأن هذا الدليل إنما يصلح للإستدلال به على البعث .

وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾

﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ معطوف على المضارع المنفي داخل في حكمه ، فهو في قوة أما خلقناكم ، والمراد بالأزواج هنا الأصناف أي الذكور والإناث ، وقيل المراد بها الألوان ، وقيل يدخل في هذا كل زوج من المخلوقات من قبيح وحسن وطويل وقصير .

﴿ وجعلنا نومكم سباتاً ﴾ قال الزجاج السبات أن ينقطع عن الحركة والروح في بدنه أي جعلنا نومكم راحة لكم ، قال ابن الأنباري جعلنا نومكم قطعاً لأعمالكم لأن أصل السبت القطع ، وقيل أصله التمدد يقال سبتت المرأة شعرها إذا حلتها وأرسلته ، ورجل مسبوت الخلق أي ممدوده ، والرجل إذا أراد أن يستريح تمدد فسمي النوم سباتاً .

وفي المختار السبات النوم وأصله الراحة وبابه نصر . وفي المصباح السبات كغراب النوم الثقيل ، وأصله الراحة يقال سبت يسبت من باب قتل وسبت بالبناء للمفعول غشي عليه وأيضاً مات ، ومن هنا قيل المعنى وجعلنا نومكم موتاً ، والنوم أحد الموتين فالمسبوت يشبه الميت ولكنه لم يفارقه الروح ، ومن هذا قوله : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ .

﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أي نلبسكم ظلمته ونغشيكم بها كما يغشيكم اللباس ، فشبه الليل باللباس ، لأن في كل منهما ستراً . فهو استعارة . وقال سعيد بن جبير والسدي أي سكناً لكم ، وقيل المراد ما يستريحه عند النوم من

الللحاف ونحوه وهو بعيد لأن الجعل وقع على الليل لا على ما يستتر به النائم عند نومه .

﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ أي وقت معاش ، والمعاش مصدر ميمي بمعنى المعيشة ، وقع هنا ظرفاً ، وكل شيء يعاش به فهو معاش ، والمعنى أن الله جعل لهم النهار مضيئاً ليسعوا فيما يقوم به معاشهم وما قسمه الله لهم من الرزق .

﴿ وبنينا فوقكم سبْعَ شِدَادٍ ﴾ يريد سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء لا يؤثر فيها مرور الزمان ، ولهذا وصفها بالشدة وغلظ كل واحدة منها مسيرة خمسمائة عام كما ورد ذلك .

﴿ وجعلنا سراجاً ﴾ منيراً ﴿ وهاجاً ﴾ وقاداً يعني الشمس ، والوهاج المضيء المتألىء من قولهم وهج الجوهر أي تلاًء ، ويقال وهج يوهج كوجل يوجل وكوعد يعد ، قال الزجاج الوهاج الوقاد ، وهو الذي وهج يقال وهجت النار تهج وهجاً ووهجاناً ، قال مقاتل جعل فيه نوراً وحرّاً ، والوهج يجمع النور والحرارة ، وقال ابن عباس وهاجاً مضيئاً .

﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ المعصرات هي السحاب التي تنعصر بالماء ولم تمطر بعد كالمرأة المعتصرة التي قد دنا حيضها ، كذا قال سفيان والربيع وأبو العالية والضحاك ، وقال مجاهد ومقاتل وقتادة والكلبي هي الرياح ، والرياح تسمى معصرات يقال أعصرت الرياح تعصر إعصاراً إذا أثارت العجاج ، قال الأزهري هي الرياح ذوات الأعاصير ، وذلك أن الرياح تستدر المطر ، وقال الفراء المعصرات السحاب التي يتحلب منها المطر .

قال النحاس : وهذه الأقوال صحاح يقال للريح التي تأتي بالمطر معصرات ، والرياح تلقح السحاب فيكون المطر ، ويجوز أن تكون هذه الأقوال قولاً واحداً ويكون المعنى وأنزلنا من ذوات المعصرات .

قال في الصحاح والمعصرات السحاب تعتمر بالمطر ، وعصر القوم أي

مطروا ، قال المبرد يقال سحب معصر أي ممسك للماء ويعتصر منه شيء بعد شيء .

وقال أبي بن كعب والحسن وابن جبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان : المعصرات السموات وقال ابن عباس : السحاب ، وقال ابن مسعود : يبعث الله الريح فتحمل الماء فتمر به السحاب فتدر كما تدر اللقحة .

وقرأ ابن عباس ﴿ وأنزلنا من المعصرات بالرياح ﴾ وقيل المعصرات المغيثات والعاصر هو الغيث .

والثجاج هو المنصب بكثرة على وجه التتابع ، يقال ثج الماء أي سال بكثرة وثنجه أي أساله فيكون لازماً ومتعدياً ، وبابه رد ، ومطر ثجاج أي منصب جداً ، والثج أيضاً سيلان دماء الهدي ، وفي الحديث « أحب العمل إلى الله العج والثج » فالعج رفع الصوت بالتلبية ، والثج إراقة دماء الهدي .

وقال الزجاج : الثجاج الصباب ، وقال ابن زيد ثجاجاً كثيراً ، وقال ابن عباس : منصباً ، وقيل مدراراً متتابعاً يتلو بعضه بعضاً ، وقال ابن مسعود الثجاج ينزل من السماء أمثال العزالي فتصرفه الرياح فينزل متفرقاً .

﴿ لنخرج به حباً ونباتاً ﴾ أي لنخرج بذلك الماء حباً يقتات به كالحنطة والشعير ونحوهما والنبات ما تأكله الدواب من الحشيش والتبن وسائر النبات والكلاء .

﴿ وجنات ألفافاً ﴾ أي بساتين ملتف بعضها ببعض تتشعب أغصانها ولا واحد للألفاف كالأوزاع والأخفاف ، وقيل واحدها لف بكسر اللام وضمها ، ذكره الكسائي ، وقال أبو عبيدة : واحدها ليف كشریف وأشراف ، وروي عن الكسائي أنها جمع الجمع يقال جنة لفاء ونبت لف والجمع لف بالضم مثل حمر ثم يجمع هذا الجمع على ألفاف ، وقيل هو جمع ملتفة بحذف الزوائد .

وقال ابن عباس : ألفافاً ملتفة ، وقال : يقول التف بعضها ببعض ، قال الفراء : الجنة ما فيه النخيل ، والفردوس ما فيه الكرم .

ولما أثبت الله البعث بالأدلة التسعة المتقدمة كأن سائلاً سأل عن وقته ما هو فقال ﴿إن يوم الفصل﴾ بين المحسن والمسيء ، والمحق والمبطل ، وأكدته بأن لأنه مما ارتابوا فيه ﴿كان﴾ في علمه وحكمه ﴿ميقاتاً﴾ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأولين والآخرين يصلون فيه إلى ما وعدوا من البعث ، وقيل معنى ميعاداً أنه حد توقت به الدنيا وتنتهي عنده وقيل حد للخلائق ينتهون إليه أو منتهى معلوماً لوقوع الجزاء أو ميعاداً للثواب والعقاب .

﴿يوم ينفخ﴾ بدل من يوم الفصل أو بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله وإن كان الفصل متأخراً عن النفخ ﴿في الصور﴾ هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية التي تكون للبعث ﴿فتأتون﴾ من قبوركم إلى الموقف ﴿أفواجاً﴾ أي زمراً زمراً وجماعات جماعات ، وهي جمع فوج والفاء في ﴿فتأتون﴾ فصيحة تدل على محذوف أي فتأتون إلى موضع العرض عقيب ذلك أفواجاً أي أمماً مع كل أمة إمامهم .

﴿وفتحت السماء﴾ معطوف على ﴿ينفخ﴾ وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع أي فتحت لنزول الملائكة ، وقال علي القاريء عطف على ﴿فتأتون﴾ أو حال أي والحال انها قد فتحت ، وقرىء بالتخفيف والتشديد وهما سبعيتان .

قال الشهاب المراد بالفتح ليس ما عرف من فتح الأبواب ، وهو موافق لقوله ﴿إذا السماء انشقت﴾ و ﴿إذا السماء انفطرت﴾ فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وعبر عن التشقيق بالفتح إشارة إلى كمال قدرته حتى كان تشقيق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ﴿فكانت أبواباً﴾ كما في قوله : ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾ وقيل معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب ، وقيل أبوابها طرقها ، وقيل تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق ، وقيل أن لكل عبد بابين في السماء باب لرزقه وباب لعمله ، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب .

وظاهر قوله : ﴿فكانت أبواباً﴾ انها صارت كلها أبواباً ، وليس المراد ذلك بل المراد انها صارت ذات أبواب كثيرة .

وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغْيِينِ مَثَابًا ﴿٢٢﴾ لِيُثَبِّتَ
 فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا
 ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ
 أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

﴿وسيرت الجبال﴾ عن أماكنها في الهواء كالهباء الذي هو الغبار وقلعت
 عن مقارها ، وقيل معنى سيرت أنها نسفت من أصولها ، ومثل هذا قوله :
 ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ ﴿فكانت سراباً﴾ أي
 هباء منبثاً يظن الناظر أنها سراب ، وتخيل الشمس أنها ماء ، والمعنى أن الجبال
 صارت كلا شيء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء وليس بماء .

ذكر سبحانه أحوال الجبال بوجوه مختلفة ، ويمكن الجمع بينها بأن نقول
 أول أحوالها الإندكاك وهو قوله : ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة
 واحدة﴾ وثاني أحوالها أن تصير كالعهن المنفوش كما في قوله : ﴿وتكون الجبال
 كالعهن المنفوش﴾ وثالث أحوالها أن تصير كالهباء وهو قوله : ﴿وبست الجبال
 بساً فكانت هباء منبثاً﴾ ورابع أحوالها أن تنسف وتحملها الرياح كما في قوله :
 ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾ وخامس أحوالها أن
 تصير سراباً أي لا شيء كما في هذه الآية .

ثم شرع سبحانه في تفصيل أحكام الفصل فقال : ﴿إن جهنم كانت
 مرصاداً﴾ قال الأزهري المرصاد المكان الذي يرصد الراصد فيه العدو ، وقال
 المبرد مرصاداً يرصدون به أي هو معد لهم يرصد به خزنتها الكفار ، قال
 الحسن إن على الباب رصداً لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز عليهم ، فمن جاء
 بجواز جاز ومن لم يجيء بجواز حبس وقال مقاتل محبساً ، وقيل طريقاً وممرأ .
 قال في الصحاح الراصد للشيء الرقيب له ، يقال رصده يرصده رصداً

والرصد الترقب ، والمرصد موضع الرصد ، قال الأصمعي رصدته أرصده ترقبته .

ومعنى الآية إن جهنم كانت في حكم الله وقضائه موضع رصد يرصد فيه خزنة النار الكفار ليعذبوهم فيها ، أو هي في نفسها متطلعة لما يأتي إليها من الكفار كما يتطلع الرصد لمن يمر بهم ، ويأتي إليهم ، والمرصاد مفعال من أبنية المبالغة كالمعطار والمعمار ، فكأنه يكثر من جهنم انتظار الكفار .

ثم ذكر من هي مرصد له فقال ﴿لِلطَّاغِينَ مِثَابًا﴾ أي مرجعاً يرجعون إليه ، والمثاب المرجع يقال آب يؤوب إذا رجع ، والطاغي من طغى بالكفر ، وللطاغين نعت لمرصاداً متعلق بمحذوف ومثاباً بدل من مرصاداً ، ويجوز أن يكون للطاغين في محل نصب على الحال من مثاباً قدمت عليه لكونه نكرة .

وانتصاب ﴿لَا بَئِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ على الحال المقدرة من الضمير المستكن في الطاغين قرأ الجمهور لا بئين بالألف ، وقرئء بدون ألف ، وانتصاب (أحقاباً) على الظرفية أي ماكثين في النار ما دامت الأحقاب ، وهي لا تنقطع ، وكلما مضى حقب جاء حقب ، وهي جمع حقب بضميتين وهو الدهر ، والأحقاب الدهور ، والحقب بضم الحاء وسكون القاف قيل هو ثمانون سنة .

وحكى الواحدي عن المفسرين أنه بضع وثمانون سنة ، السنة ثلاثمائة وستون يوماً اليوم ألف سنة من أيام الدنيا ، وقال السدي الحقب سبعون سنة ، وقال بشير بن كعب ثلاثمائة سنة ، وقال ابن عمر أربعون سنة ، وقيل ثلاثون ألف سنة .

قال الحسن الأحقاب لا يدري أحد كم هي ، ولكن ذكروا أنها مائة حقب ، والحقب الواحد منها سبعون ألف سنة ، اليوم منها كالف سنة ، قال ابن عباس أحقاباً سنين .

وعن سالم بن أبي الجعد قال سأل علي بن أبي طالب: هلال الهجري ما تجدون الحقب في كتاب الله ؟ قال نجده ثمانين سنة كل سنة منها إثنا عشر

شهرًا كل شهر ثلاثون يوماً كل يوم ألف سنة ، وعن ابن مسعود في الآية قال الحقب الواحد ثمانون سنة .

وعن أبي هريرة رفعه « قال الحقب ثمانون سنة والسنة ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم منها ألف سنة مما تعدون » .

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم : « قال الحقب ألف شهر والشهر ثلاثون يوماً والسنة إثنا عشر شهراً ثلثمائة وستون يوماً ، كل يوم ألف سنة مما تعدون فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة » أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقاباً والحقب بضع وثمانون سنة ، كل سنة ثلثمائة وستون يوماً ، واليوم ألف سنة مما تعدون » ، قال ابن عمر : فلا يتكلن أحد أنه يخرج من النار » أخرجه البزار وابن مردويه والبيهقي .

وعن ابن عمرو قال : الحقب الواحد ثمانون سنة وعن ابن عباس مثله ، وعن عبادة ابن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحقب أربعون سنة » أخرجه ابن مردويه .

وقيل الأحقاب وقت شربهم الحميم والغساق ، فإذا انقضت فيكون لهم نوع آخر من العذاب ، وعن خالد بن معدان في الآية وفي قوله ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ أنهما في أهل التوحيد من أهل القبلة .

وقيل إن الآية منسوخة بقوله : ﴿ فلن يزيدكم إلا عذاباً ﴾ يعني أن العدد قد ارتفع ، والخلود قد حصل ، والأول أولى ، وقيل الآية محمولة على العصاة الذين يخرجون من النار ، والأولى ما ذكرناه أولاً من أن المقصود بالآية التأييد لا التقييد ، وحكى الواحدي عن الحسن أنه قال : والله ما هي إلا أنه إذا مضى حقب دخل آخر ثم آخر كذلك إلى الأبد .

﴿ لا يذوقون فيها ﴾ حال من الضمير في ﴿ لا يذوقون ﴾ أو صفة لأحقاباً أو مستأنفة لبيان ما اشتملت عليه من أنهم لا يذوقون في جهنم أو في الأحقاب ﴿ برداً ﴾ ينفعهم من حرها ﴿ ولا شراباً ﴾ ينفعهم من عطشها .

﴿ إلا حميماً ﴾ هو الماء الحار ﴿ وغساقاً ﴾ هو صديد أهل النار ، وقيل هو ماء يسيل من صديد أهل النار ، والاستثناء منقطع عند من جعل البرد النوم ، وبه قال الزمخشري ، ويجوز أن يكون متصلاً من قوله : ﴿ ولا شراباً ﴾ وبه قال أبو حيان ، وقضية كلام الكواشي تجويز الأمرين ، وقيل أنه بدل من ﴿ شراباً ﴾ وهو الأحسن لأن الكلام غير موجب .

وقال مجاهد والسدي وأبو عبيدة والكسائي والفضل بن خالد وأبو معاذ النحوي : البرد المذكور في هذه الآية النوم ، قال الزجاج : أي لا يذوقون فيها برد ريح ولا ظل ولا نوم ، فجعل البرد يشمل هذه الأمور ، وإطلاق البرد على النوم لغة هذيل وسمي بذلك لأنه يقطع سورة العطش ، ألا ترى أن العطشان إذا نام سكن عطشه ولأنه يبرد صاحبه ، والعرب تقول منع البرد البرد يعني أذهب البرد النوم .

وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم : « سئل هل في الجنة نوم فقال : لا ، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها » وكذلك النار وقد قال تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ وقيل البرد برد الشراب ، والشراب الماء ، وجعل الزجاج البرد برد كل شيء له راحة ، وهذا ينفعهم . فأما الزمهرير فهو برد يتأذون به فلا ينفعهم فلهم منه من العذاب ما الله أعلم به ، وقال الحسن وعطاء وابن زيد برداً أي روحاً وراحة .

قرأ الجمهور غساقاً بالتخفيف ، وقرأ حمزة والكسائي بتشديد السين وهما سبعيتان ، وقد تقدم تفسيره وتفسير الحميم والخلاف فيهما في سورة (ص) .

عن ابن مسعود قال زمهرير جهنم يكون لهم من العذاب لأن الله يقول لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً ، قال قد انتهى حره ، وغساقاً قد

انتهى حره ، وأن الرجل إذا أدنى الإناء من فيه سقط فروة وجهه حتى يبقى عظماً تققع .

﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي موافقاً لأعمالهم على أن ﴿ وفاقاً ﴾ صفة لجزاء بتأويله باسم الفاعل ، ويصح أن يكون على حذف مضاف أي ذا وفاق أو باق على مصدريته لقصد المبالغة ، قال الفراء والأخفش : جازيناهم جزاء وفاق أعمالهم ، وقال الزجاج : جوزوا جزاء وفاق أعمالهم .

قال الفراء : الوفاق جمع الوفاق ، والوفوق والموافق واحد ، قال مقاتل وافق العذاب الذنب فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار ، وقال الحسن وعكرمة : كانت أعمالهم سيئة فأتاهم الله بما يسوءهم .

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي ثواب حساب ، قال الزجاج كانوا لا يؤمنون بالبعث فيرجون حسابهم . والجملة مستأنفة وتعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور .

﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ أي كذبوا بالآيات القرآنية أو كذبوا بما هو أعم منها تكديماً شديداً ، وفعال من مصادر التفعيل قال الفراء هي لغة فصيحة يمانية تقول كذبت كذاباً وخرقت القميص خرقاً .

قال في الصحاح هو أحد مصادر التشديد لأن مصدره قديجيء على تفعيل مثل التكليم وعلى فعال مثل كذاب ، وعلى تفعلة مثل توصية ، وعلى مفعل مثل ومزقناهم كل ممزق .

وقرأ الجمهور كذاباً بالتشديد وقرأ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالتخفيف ، قال أبو علي الفارسي التخفيف والتشديد جميعاً مصدر المكاذبة ، وقرأ ابن عمر كذاباً بضم الكاف والتشديد جمع كاذب ، قال أبو حاتم ونصبه على الحال ، قال الزمخشري وقد يكون يعني على هذه القراءة بمعنى الواحد البليغ في الكذب تقول رجل كذاب كقولك حسان وبخال .

قرأ الجمهور ﴿ وكل شيء ﴾ بالنصب على الاشتغال أي وأحصينا كل شيء ﴿ أحصيناه ﴾ وقرأ أبو السماك برفعه على الابتداء وما بعده خبره ، وهذه الجملة معترضة بين السبب والمسبب ، وفائدة الاعتراض تقرير ما ادعاه من قوله ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ .

وفي انتصاب قوله : ﴿ كتاباً ﴾ أوجه .

أحدها : أنه مصدر من معنى أحصينا أي إحصاء فالتجوز في نفس المصدر .

والثاني : أنه مصدر لأحصينا لأنه في معنى كتبنا ، فالتجوز في نفس الفعل أي لالتقاء الإحصاء والكتب في معنى الضبط والتحصيل .

والثالث : أن يكون منصوباً على الحال أي مكتوباً في اللوح لتعرفه الملائكة ، وقيل أراد ما كتبه الحفظة على العباد من أعمالهم ، وقيل المراد به العلم لأن ما كتب كان أبعد من النسيان ، والأول أولى لقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ .

﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ هذه الجملة مسببة عن كفرهم وتكذيبهم بالآيات ، والأمر أمر إهانة وتحقير ، قال الرازي هذه الفاء للجزاء فنبه على أن الأمر بالذوق معلل بما تقدم شرحه من قبائح أفعالهم ومن الزيادة في عذابهم أنها كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها وكلما خبت النار زادهم الله سعيراً ، قيل هذه أشد آية في القرآن على أهل النار كلما استغاثوا من نوع من العذاب أغيثوا بأشد منه .

قال الرازي وفي هذه الآية مبالغات منها التأكيد بلن ، ومنها الالتفات ، ومنها إعادة قوله فذوقوا بعد ذكر العذاب .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَثَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثَرِيًّا ﴿٤٠﴾

﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ هذا شروع في بيان حال المؤمنين وما أعد الله لهم من الخير بعد بيان حال الكافرين وما أعد الله لهم من الشر ، والمفاز مصدر بمعنى الفوز والظفر بالبغية والمطلوب والنجاة من النار ، ومنه قيل للفلاة مفازة تفاؤلاً بالخلاص منها ، ويصلح أن يراد به الجنة على أنه مصدر ميمي بمعنى المكان أو بمعنى الحدث ويحتمل أن يفسر الفوز بالأمرين جميعاً ، لأنهم فازوا بمعنى نجوا من العذاب ، وفازوا بما حصل لهم من النعيم ، وفي المختار الفوز النجاة ، وهو الهلاك أيضاً ، وعلى هذا فإطلاق المفازة على الفلاة الخالية من الماء حقيقي لأنها مهلكة ، ومن معاني الفوز الهلاك كما رأيت وبابها قال :

ثم فسر سبحانه هذا المفاز فقال : ﴿ حدائق وأعنباً ﴾ وانتصابها على أنها بدل اشتمال من ﴿ مفازاً ﴾ أو بدل كل من كل على طرق المبالغة يجعل نفس هذه الأشياء مفازاً ، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني وإذا كان مفازاً بمعنى الفوز فيقدر مضاف أي فوز حدائق ، وهي جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه فيه أنواع الشجر المثمر ، والأعنب جمع عنب أي كروم أعناب ، والتكرير يدل على تعظيم ذلك العنب .

قال المحلي ﴿ وأعنباً ﴾ عطف على مفاز أي ذكرت بعد الحدائق تنوياً لعظم شأنها وإلا فهي من جملة الحدائق ، قال القاري وهذا بعيد جداً والظاهر

عطفه على حدائق وكذا كواعب وكأساً انتهى .

﴿وكواعب أتراباً﴾ الكواعب جمع كاعبة وهي الناهدة قال ابن عباس أي نواهد ، يقال كعبت الجارية تكعب تكعباً وكعوباً ، ونهدت تنهد نهوداً ، والمراد أن لهم نساء كواعب تكعبت ثديهن وتفلكت حتى صارت كالكعب في صدورهن ، أي استدارت مع ارتفاع يسير ، قال الضحاك الكواعب العذارى ، والأتراب الأقران في السن ، وقد تقدم تحقيقه في سورة البقرة ، وقال ابن عباس أي لدات مستويات .

﴿وكأساً دهاقاً﴾ قال الحسن وقتادة وابن زيد : أي مترعة مملوءة ، يقال أدهقت الكأس أي ملأتها ، وقال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد ﴿دهاقاً﴾ متتابعة يتبع بعضها بعضاً ، وقال زيد بن أسلم : دهاقاً صافية ، قال ابن عباس : دهاقاً ممتلئاً ، وعنه قال : هي الممتلئة المترعة المتتابعة ، وربما سمعت العباس يقول يا غلام إسقنا وأدهق لنا . وعنه قال ﴿دهاقاً﴾ دراكاً ، وعنه قال إذا كان فيها خمر فهي كأس ، وإذا لم تكن فيها خمر فليس بكأس .

﴿لا يسمعون﴾ حال من المتقين ﴿فيها﴾ أي في الجنة عند شرب الخمر وغيره من الأحوال ﴿لغواً﴾ وهو الباطل من الكلام ﴿ولا كذاباً﴾ أي لا يكذب بعضهم بعضاً قرأ الجمهور كذاباً مشدداً وقرأ الكسائي هنا مخففاً ، ووافق الجماعة على التشديد في الآية المتقدمة للتصريح بفعله المشدد هناك ، وقد قدمنا الخلاف في كذاباً هل هو من مصادر التفعيل أو من مصادر المفاعلة .

﴿جزاء من ربك﴾ أي جازاهم بما تقدم ذكره جزاء ، قال الزجاج : المعنى جازاهم جزاء أي بمقتضى وعده وكذا ﴿عطاء﴾ أي وأعطاهم عطاء تفضلاً منه ، إذ لا يجب عليه شيء ، وقيل عطاء بدل من جزاء أي بدل كل من كل ، وفي إبداله منه نكتة لطيفة ، وهي الدلالة على أن بيان كونه عطاء وتفضلاً منه هو المقصود وبيان كونه جزاء وسيلة له .

﴿ حساباً ﴾ قال أبو عبيدة كافياً فهو مصدر أقيم مقام الوصف أو باق على مصدريته مبالغة أو هو على حذف مضاف ، وقال ابن قتيبة كثيراً ، يقال أحسبت فلاناً أي أكثرته له العطاء . قال الزجاج حساباً أي ما يكفيهم قال الأخفش يقال أحسبني كذا أي كفاني .

قال الكلبي حاسبهم فأعطاهم بالحسنة عشراً وقال مجاهد حساباً لما عملوه ، فالحساب بمعنى القدر أي بقدر ما وجب له . في وعد الرب سبحانه فإنه وعد للحسنة عشراً ، ووعد لقوم سبعمئة ضعف ، وقد وعد لقوم جزاء لا نهاية له ولا مقدار كقوله : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وقرأ أبو هاشم حساباً بفتح الحاء وتشديد السين أي كفافاً قال الأصمعي تقول العرب حسبت الرجل بالتشديد إذا أكرمته ، وفي القاموس حسبك درهم كفاك ، وشيء حساب كاف ومنه ﴿ عطاء حساباً ﴾ وأحسبه كفاه وقرأ ابن عباس حساناً بالنون .

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن ﴾ قرىء بخفض رب والرحمن على أن رب بدل من ربك والرحمن صفة له ، وقرىء برفعهما على أن رب مبتدأ والرحمن خبره أو الرحمن صفته ولا يملكون خبره أو على أن رب خبر مبتدأ مقدر أي هو رب ، والرحمن صفته ، أو على أن رب مبتدأ والرحمن مبتدأ ثان ولا يملكون خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول .

وقرأ ابن عباس وحمة والكسائي بخفض الأول ورفع الثاني على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقال هذه أعد لها فخفض رب لقربه من ربك فيكون نعتاً له ، ورفع الرحمن لبعده منه على الاستئناف ، وخبره قوله :

﴿ لا يملكون ﴾ أي الخلق ﴿ منه ﴾ تعالى أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيه ﴿ خطاباً ﴾ بالشفاعة إلا بإذنه ، وقيل الخطاب الكلام أي لا يملكون أن يخاطبوا الرب سبحانه خوفاً إلا بإذنه ، دليله ﴿ لا تكلم نفس الا بإذنه ﴾ وقيل

اراد الكفار وأما المؤمنون فيشفعون ، والجملة مستأنفة مقررة لما تفيده الربوبية العامة من العظمة والكبرياء .

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة ﴾ الظرف منتصب بلا يملكون أو بلا يتكلمون وقوله ﴿ صفاء ﴾ منتصب على الحال أي مصطفىين أو على المصدرية أي يصفون صفاء ، والجملة حالية أو مستأنفة لتقرير ما قبله .

واختلف في الروح على أقوال ثمانية فقليل أنه ملك من الملائكة أعظم من السموات السبع ومن الأرضين السبع ومن الجبال ، وقيل هو جبريل ، قاله الشعبي والضحاك وسعيد بن جبیر ، وقيل الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة قاله أبو صالح ومجاهد ، وعن ابن عباس مثله مرفوعاً وزاد لهم رؤوس وأيد وأرجل ثم قرأ هذه الآية ، وقال هؤلاء جند وهؤلاء جند ، أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه ، وقيل هم أشرف الملائكة ، قاله مقاتل بن حيان ، وقيل هم حفظة على الملائكة قاله ابن أبي نجيع .

وقيل هم بنو آدم قاله الحسن وقتادة ، وقيل هم أرواح بني آدم تقوم صفاء وتقوم الملائكة صفاء وذلك بين النفختين قبل أن ترد إلى الأجسام ، قاله عطية العوفي ، وقيل إنه القرآن قاله زيد بن أسلم ، وقال ابن عباس هو ملك من أعظم الملائكة خلقاً .

وعن ابن مسعود قال : الروح في السماء الرابعة وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة يخلق من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يحيي يوم القيامة صفاء واحداً^(١) ، أخرجه ابن جرير ، وعن ابن عباس قال : ﴿ إن جبريل يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار ترعد فرائضه فرقاً من عذاب الله يقول سبحانك لا إله إلا انت ما

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٣٠٩/٦ من رواية ابن أبي حاتم وأبي الشيخ في « العظمة » وابن مردويه عن ابن عباس ، والله أعلم بصحة سنده . وقد ذكر ابن كثير هذا المعنى عن ابن عباس موقوفاً عليه ، وذكره ابن كثير والشوكاني عن مجاهد وأبي صالح ، ولعله مما تلقاه ابن عباس من الاسرائيليات . والله أعلم .

عبدناك حق عبادتك ما بين منكبيه كما بين المشرق والمغرب ، أما سمعت قول الله :

﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾^(١) أخرجه أبو الشيخ ، وعنه قال يقول حين تقوم أرواح الناس مع الملائكة فيما بين النفختين قبل أن ترد الروح إلى الأجساد ، أخرجه البيهقي في الاسماء والصفات .

﴿ لا يتكلمون ﴾ أي الخلائق ثم خوفاً وإجلالاً لعظمة الله جل جلاله من هول ذلك اليوم ولا يشفعون لأحد ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ بالشفاعة أو لا يتكلمون إلا في حق من أذن له الرحمن .

﴿ و ﴾ كان ذلك الشخص ممن ﴿ قال صواباً ﴾ قال الضحاك ومجاهد : صواباً يعني حقاً وقال أبو صالح : لا إله إلا الله ، وبه قال ابن عباس ، وأصل الصواب السداد من القول والفعل ، قيل لا يتكلمون يعني الملائكة والروح الذين قاموا صفاً هيبة وإجلالاً إلا من أذن له الرحمن منهم في الشفاعة ، وهم قد قالوا صواباً ، قال الحسن : إن الروح يقول يوم القيامة لا يدخل أحد الجنة إلا بالروح ، ولا النار إلا بالعمل .

قال الواحدي : فهم لا يتكلمون يعني الخلق كلهم إلا من أذن له الرحمن وهم المؤمنون والملائكة ، وقال في الدنيا صواباً أي شهد بالتوحيد .

قال البيضاوي : قوله لا يتكلمون الخ تقرير وتأکید لقوله : ﴿ لا يملكون ﴾ فإن هؤلاء الذين هم أفضل الخلائق وأقربهم من الله إذ لم يقدرُوا أن يتكلموا بما يكون صواباً كالشفاعة لمن ارتضى إلا بإذنه فكيف يملكه غيرهم .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى يوم قيامهم على تلك الصفة وهو مبتدأ وخبره ﴿ اليوم الحق ﴾ أي الكائن الواقع المتحقق الثابت وقوعه ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴾ أي مرجعاً يرجع إليه بالعمل الصالح لأنه إذا عمل خيراً

(١) روى هذا المعنى ابن جرير الطبري في «تفسيره» ٢٢/٣٠ عن ابن مسعود قال ابن كثير: وهذا قول غريب جداً.

قربه إلى الله ، وإذا عمل شراً باعده منه ، قال قتادة مآباً سبيلاً .

قال أبو السعود : الفاء فصيحة تفصح عن شرط محذوف ومفعول المشيئة محذوف ، وقوله : ﴿ إلى ربه ﴾ أي إلى ثوابه ، وهو متعلق بمآباً كأنه قيل وإذا كان الأمر كما ذكر من تحقق اليوم المذكور لا محالة فمن شاء أن يتخذ مرجعاً إلى ثواب ربه الذي ذكر شأنه العظيم فعل ذلك بالإيمان والطاعة ، وتعلق الجار به لما فيه من معنى الافضاء والإيصال انتهى .

ثم زاد سبحانه في تخويف الكفار فقال : ﴿ إنا أنذرناكم ﴾ يا كفار مكة ﴿ عذاباً قريباً ﴾ يعني العذاب في الآخرة وكل ما هو آت فهو قريب ، ومثله قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ كذا قال الكلبي وغيره ، وقال قتادة هو عذاب الدنيا لأنه أقرب العذابين ، قال مقاتل هو قتل قریش ببدر ، والأول أولى لقوله :

﴿ يوم ينظر المرء ﴾ أي كل امرئ مسلماً كان أو كافراً ﴿ ما قدمت يده ﴾ أي يشاهد كل ما قدمه من خير أو شر لقوله : ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ وتخصيص الأيدي لأن أكثر الأعمال يقع بها ، وإن احتمل أن لا يكون للأيدي مدخل فيما ارتكب من الآثام ، و« ما » موصولة أو استفهامية قال الحسن والمرء هنا هو المؤمن أي يجد لنفسه عملاً ، فأما الكافر فلا يجد لنفسه عملاً فيتمنى أن يكون تراباً ، وقيل المراد به الكافر على العموم ، وقيل أبي بن خلف وعقبة بن أبي معيط ، والأول أولى لقوله :

﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ فإن الكافر واقع في مقابلة المرء . والمراد جنس الكافر يتمنى أن يكون تراباً لما يشاهده مما قد أعدّه الله له من أنواع العذاب . والمعنى أنه يتمنى أنه كان تراباً في الدنيا فلم يخلق ولم يكلف ، أو تراباً يوم القيامة فلم يبعث ، وقيل المراد بالكافر أبو جهل ، وقيل أبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وقيل إبليس ، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ ولا ينفيه خصوص السبب كما تقدم غير مرة ، ووضع الظاهر موضع

المضمر لزيادة الذم .

عن أبي هريرة : « قال يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجّماء من القرناء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في البعث والنشور .

وأما الجن فقال أبو الزناد يعودون تراباً أيضاً . وقال عمر بن عبد العزيز ومجاهد وغيرهما مؤمنو الجن حول الجنة في ربض ورحاب وليسوا فيها ، والذي عليه الأكثرون أنهم مكلفون مثابون ومعاقبون ، فالمؤمن يدخل الجنة ، والكافر يدخل النار كبني آدم ، ذكره الخطيب والله أعلم بالصواب .

سورة النازعات

وتسمى سورة الساهرة خمس أو ست وأربعون آية وهي مكية بلا
خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّزَعَتِ غَرْقًا ① وَالنَّشِطَتِ نَشْطًا ② وَالسَّبَّحَتِ سَبْحًا ③ فَالسَّبَقَتِ سَبْقًا ④
فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ⑤ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ⑥ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ⑦

﴿والنازعات غرقاً﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء التي ذكرها وهي الملائكة التي تنزع أرواح العباد عن أجسادهم كما ينزع النازع في القوس فيبلغ بها غاية المد ، وكذا المراد بالناشطات والسابحات والسابقات والمدبرات ، يعني الملائكة^(١) ، والعطف مع اتحاد الكل لتزليل التغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي ، وإنما جاءت هذه الأقسام بلفظ التأنيث والكل وصف للملائكة مع أنهم ليسوا إناثاً لأن المقسم به طوائف من الملائكة ، والطوائف جمع طائفة وهي مؤنثة ، وهذا قول الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم .

وقال السدي : النازعات هي النفوس حين تغرق في الصدور ، وقال مجاهد : هي الموت ينزع النفس ، وقال قتادة : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق ، من قولهم نزع إليه إذا ذهب ، أو من قولهم نزعت بالحبل أي أنها تغرب وتغيب وتطلع من أفق آخر ، وبه قال أبو عبيدة والأخفش وابن كيسان .

وقال عطاء وعكرمة : النازعات القسي تنزع بالسهم ، وإغراق النازع في القوس أن يمدّه غاية المد حتى ينتهي به إلى النصل ، وقيل أراد بالنازعات

(١) ذكر ابن كثير أن الصحيح في قوله: ﴿والنازعات غرقاً﴾: الملائكة، قال: يعنون حين تنزع أرواح بني آدم، فمنهم من تأخذ روحه بعسر فتغرقه في نزعها، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلته من نشاط، وهو قوله: ﴿والناشطات نشطاً﴾.

الغزاة الرماة ، وانتصاب غرقاً على أنه مصدر محذوف الزوائد أي إغراقاً ،
والناصب له ما قبله لملاقاته له في المعنى أي إغراقاً في النزع حيث تنزعها من
أقاصي الأجساد ، أو على الحال أي ذوات إغراق يقال أغرق في الشيء يغرق
فيه إذا أوغل فيه وبلغ غايته ، وعن علي قال : هي الملائكة تنزع أرواح
الكفار ، وعن ابن عباس قال : هي أنفس الكفار تنزع ثم تنشط ثم تغرق في
النار وقال ابن مسعود الملائكة الذين يلون أنفس الكفار .

﴿ و ﴾ معنى ﴿ الناشطات نشطاً ﴾ أنها تنشط النفوس أن تخرجها من
الأجساد كما ينشط العقل من يد البعير إذا حل عنه حلاً رقيقاً ، ونشط الرجل
الدلو في البئر إذا أخرجها ، والنشاط الجذب بسرعة ، ومنه الأنشطة للعقدة
التي يسهل حلها .

قال أبو زيد نشطت الحبل أنشطه نشطاً عقدته ، وأنشطته أي حللته
وأنشطت الحبل أي مددته ، قال الفراء أنشط العقل أي حل ونشط أي ربط
الحبل في يديه ، قال الأصمعي بئراً نشاط أي قريبة القعر يخرج الدلو منها
بجذبة واحدة ، وبئر نشوط وهي التي لا يخرج منها الدلو حتى ينشط كثيراً ،
وقال مجاهد هو الموت ينشط نفس الإنسان ، وبه قال ابن عباس ، وقال
السدي : هي النفوس حين تنشط من القدمين ، وقال عكرمة وعطاء : هي
الأوهاق التي تنشط السهام ، وقال قتادة والحسن والأخفش هي النجوم تنشط
من أفق إلى أفق أي تذهب .

قال في الصحاح والناشطات نشطاً يعني النجوم من برج إلى برج كالشور
الناشط من بلد إلى بلد والهموم تنشط بصاحبها ، وقال أبو عبيدة و قتادة هي
الوحوش حين تنشط من بلد إلى بلد ، وقيل الناشطات لأرواح المؤمنين
والنازعات لأرواح الكافرين لأنها تجذب روح المؤمن برفق ، وتجذب روح
الكافر بعنف .

وقوله نشطاً مصدر وكذا سباحاً وسبقاً ، قال علي : هي الملائكة تنشط

أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها ، وعن معاذ بن جبل قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار ، قال الله والناشطات نشطاً أتدري ما هو؟ قلت يا نبي الله ما هو؟ قال: كلاب في النار تنشط اللحم والعظم » أخرجه ابن مردويه .

﴿ والسابحات سبحاً ﴾ هي الملائكة تسبح في الأبدان لإخراج الأرواح كما يسبح الغواص في البحر لإخراج شيء منه ، يعني الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلمونها سلاً رقيقاً ثم يدعونها حتى تستريح ثم يستخرجونها كالسباح في الماء يتحرك فيه برفق ولطافة .

وقال مجاهد وأبو صالح : هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين لأمر الله كما يقال للفرس الجواد سابع إذا أسرع في جريه ، وقال مجاهد : أيضاً السابحات الموت يسبح في نفوس بني آدم ، وقيل هي الخيل السابحة في الغزو ، وقال قتادة والحسن هي النجوم تسبح في أفلاكها كما في قوله : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ وقال عطاء هي السفن تسبح في الماء . وقيل هي أرواح المؤمنين تسبح شوقاً إلى الله ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض .

﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ هم الملائكة على قول الجمهور كما سلف ، قال مسروق ومجاهد : تسبق الملائكة الشياطين بالوحي إلى الأنبياء ، وقال أبو روق هي الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح . وروي نحوه عن مجاهد ، وقال مقاتل هي الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، وقال الربيع هي أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة شوقاً إلى الله ، وقال علي كرم الله وجهه : هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى ، وقال مجاهد : أيضاً هو الموت يسبق الإنسان ، وقال قتادة والحسن ومعمر : هي النجوم يسبق بعضها في السير بعضاً .

وقال عطاء : هي الخيل التي تسبق إلى الجهاد ، وقيل هي الأرواح التي تسبق الأجساد إلى الجنة أو النار .

قال الجرجاني عطف السابقات بالفاء لأنها مسببة عن التي قبلها أي واللاتي يسبحن فيسبقن . تقول قام فذهب ، فهذا يوجب أن يكون القيام سبباً للذهاب ، ولو قلت قام وذهب بالواو ، لم يكن القيام سبباً للذهاب ، قال الواحدي : وهذا غير مطرد في قوله الآتي : ﴿ فالدبريات أمراً ﴾ لأنه يبعد أن يجعل السبق سبباً للتدبير .

قال الرازي ويمكن الجواب عما قاله الواحدي بأنها لما أمرت سبحت فسبقت فدبرت ما أمرت بتدبيره ، فتكون هذه أفعالاً يتصل بعضها ببعض ، كقوله قام زيد فذهب فضرب عمراً .

ولما سبقوا في الطاعات وسارعوا إليها ظهرت أمانتهم ففوض إليهم التدبير .

ويجاب عنه بأن السبق لا يكون سبباً للتدبير كسببية السبح للسبق ، والقيام للذهاب ومجرد الإتصال لا يوجب السببية والمسببية .

والأولى أن يقال العطف بالفاء في المديريات طوبى به ما قبله من عطف السابقات بالفاء ولا يحتاج إلى نكتة كما احتاج إليها ما قبله لأن النكتة إنما تطلب لمخالفة اللاحق للسابق لا لمطابقته وموافقته .

﴿ فالدبريات أمراً ﴾ قال علي هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة . وعنه يدبرون ذكر الرحمن وأمره ، وقال ابن عباس ملائكة يكونون مع ملك الموت يحضرون الموت عند قبض أرواحهم فمنهم من يعرج بالروح ، ومنهم من يؤمن على الدعاء ، ومنهم من يستغفر للميت حتى يصل على عليه ويدلى في حفرة ، قال القشيري اجمعوا على أن المراد هنا الملائكة .

وقال الماوردي فيه قولان : (أحدهما) الملائكة وهو قول الجمهور ، والثاني إنها الكواكب السبع ، حكاه خالد بن معدان عن معاذ بن جبل ، وفي تدبيرها الأمر وجهان (أحدهما) تدبر طلوعها وأفولها (الثاني) تدبر ما قضاه الله فيها من الأحوال .

ومعنى تدبير الملائكة للأمر نزولها بالحلال والحرام وتفصيلهما والفاعل للتدبير في الحقيقة وإن كان هو الله عز وجل لكن لما نزلت الملائكة به وصفت به ، وقيل إن الملائكة لما أمرت بتدبير أهل الأرض في الرياح والأمطار وغير ذلك قيل لها مدبرات .

قال عبد الرحمن بن سابط تدبير أمر الدنيا إلى أربعة من الملائكة جبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل ، أما جبريل فموكل بالرياح والجنود ، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات ، وأما عزرائيل فموكل بقبض الأنفس ، وأما إسرافيل فهو ينزل بالأمر عليهم .

وجواب القسم بهذه الأمور التي أقسم الله بها محذوف أي والنازعات وكذا وكذا لتبعثن . قال الفراء وحذف لمعرفة السامعين به ويدل عليه قوله ﴿إذا كنا عظاماً نخرة﴾ وقيل إن جواب القسم لقوله ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ أي أن في يوم القيامة وذكر موسى وفرعون لعبرة لمن يخشى ، قال ابن الأنباري وهذا قبيح لأن الكلام قد طال بينهما .

وقيل جواب القسم ﴿هل أتاك حديث موسى﴾ لأن المعنى قد أتاك وهذا ضعيف جداً .

وقيل الجواب ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ على تقدير ليوم ترجف الراجفة تتبعها الراجفة

قال السجستاني : يجوز أن يكون هذا من التقديم والتأخير كأنه قال فإذا هم بالساهرة والنازعات ، قال ابن الأنباري وهذا خطأ لأن الفاء لا يفتح بها الكلام والأول أولى .

وقال الكرخي الفاء فيها للدلالة على ترتيبها بغير مهلة ، وهو من عطف المقسم به والمعطوف بالواو من عطف الصفات بعضها على بعض ، والعطف مع اتحاد الكل بتنزيل التغيرات العنواني منزلة التغيرات الذاتي للإشعار بأن كل واحد من الأوصاف المعدودة من معظمات الأمور حقيق بأن يكون على حياله

مناطقاً لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به من غير انضمام الأوصاف الآخر إليه .

﴿ يوم ترجف الراجفة ﴾ انتصاب هذا الظرف بالجواب المقدر للقسم أو بإضمار اذكر ، والراجفة المضطربة ، يقال رجف رجف إذا اضطرب ، والمراد هنا الصيحة العظيمة التي فيها تردد واضطراب كالرعد وهي النفخة الأولى التي يموت بها جميع الخلائق ، قاله ابن عباس .

﴿ تتبعها الرادفة ﴾ هي النفخة الثانية التي تكون عند البعث ، قاله ابن عباس وبينهما أربعون سنة ، فالיום واسع للنفختين وغيرهما فصح ظرفيته للبعث الواقع عقب الثانية ، وسميت رادفة لأنها ردت النفخة الأولى ، كذا قال جمهور المفسرين وقال ابن زيد : الراجفة الأرض ، والرادفة الساعة ، وقال مجاهد الراجفة الزلزلة تتبعها الرادفة الصيحة ، وقيل الراجفة اضطراب الأرض والرادفة الزلزلة .

وأصل الرجفة الحركة ، وليس المراد التحرك هنا فقط بل الراجفة هنا مأخوذة من قولهم رجف الرعد يرجف رجفاً ورجيفاً إذا ظهر صوته ، ومنه سميت الأراجيف لإضطراب الأصوات بها وظهور الأصوات فيها ، ومحل تتبعها الرادفة النصب على الحال من الراجفة .

والمعنى لتبعثن يوم النفخة الأولى حال كون النفخة الثانية تابعة لها ، وعن أبي بن كعب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربع الليل قام فقال : يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ترجف الأرض رجفاً وتزلزل بأهلها وهي التي يقول الله ﴾ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ يقول مثل السفينة في البحر تكفأ بأهلها مثل القنديل المعلق بأرجائها . أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي .

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَيْنَا الْمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾
 أَيْنَا كُنَّا عِظَمًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَاِنْمَاهِي زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا
 هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ
 إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾

﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ قلوب مبتدأ ويومئذ منصوب بواجفة . وواجفة صفة لقلوب وهو المسوغ للإبتداء بالنكرة أي قلوب مضطربة خائفة قلقة خافقة لما عاينت من أهوال يوم القيامة ، قال جمهور المفسرين . اي خائفة وجللة ، وقال ابن عباس : وجللة متحركة ، وقال السدي زائلة عن أماكنها نظيره ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر ﴾ وقال المؤرج : قلقة مستوفزة ، وقال المبرد : مضطربة يقال وجف القلب يجف وجيفاً إذا خفق كما يقال وجب يجب وجيباً ، والإيجاف السير السريع فأصل الوجيف اضطراب القلب ، وقال ابن عباس : خائفة .

﴿ أبصارها ﴾ مبتدأ ثان وخبره ﴿ خاشعة ﴾ والجملة خبر الأول ، في الكلام حذف مضاف تقديره أبصار أصحاب القلوب ذليلة ، والضمير راجع إلى أصحاب القلوب فهو من الإستخدام والمراد أنها تظهر عليهم الذلة والخشوع عند معاينة أهوال يوم القيامة ، كقوله ﴿ خاشعين من الذل ﴾ قال عطاء يريد أبصار من مات على غير الإسلام ويدل على هذا أن السياق في منكري البعث .

﴿ يقولون أينا لمردودون في الحافرة ﴾ هذا حكاية لما يقوله المنكرون للنعث في الدنيا إستهزاء وإنكاراً للبعث إذا قيل لهم أنكم تبعثون ، أي أنرد إلى أول حالنا وإبتداء أمرنا فنصير أحياء بعد موتنا ، يقال رجع فلان في حافرته أي رجع من حيث جاء والحافرة عند العرب إسم لأول الشيء وإبتداء الأمر ، ومنه قولهم رجع فلان على حافرته أي على الطريق الذي جاء منه ، يقال النقد عند

الحافرة أي عند الحالة الأولى وهي الصفقة ، ويقال اقتتل القوم عند الحافرة أي عند أول ما التقوا ، وسميت الطريق التي جاء منها حافرة لتأثيره فيها بمشيه فيها فهي حافرة بمعنى محفورة ، وقيل الحافرة العاجلة .

والمعنى إنا لمردودون إلى الدنيا وقيل الحافرة جمع حافر بمعنى القدم أي انمشي أحياء على أقدامنا ونطأ بها الأرض ، وقيل فاعلة بمعنى مفعولة ، وقيل على النسب أي ذات حفر ، والمراد الأرض ، وقيل الحافرة الأرض التي يحفر فيها قبورهم ، والمعنى إنا لمردودون في قبورنا أحياء ، كذا قال الخليل والفراء وبه قال مجاهد ، وقال ابن زيد : الحافرة النار ، واستدل بقوله ﴿ تلك إذا كرة خاسرة ﴾ قال ابن عباس في الحافرة أي الحياة وعنه قال خلقاً جديداً ، قرأ الجمهور في الحافرة ، وقرأ أبو حيوة في الحفرة .

ثم زادوا في الاستبعاد بقولهم ﴿ أنذا كنا عظاماً نخرة ﴾ أي بالية متفتتة يقال نخر العظم بالكسر إذا بلي ، وهذا تأكيد لإنكار البعث أي كيف نرد أحياء ونبعث إذا كنا عظاماً نخرة ، والعامل في « إذا » مضمّر يدل عليه مردودون أي أنذا كنا عظاماً بالية نرد ونبعث مع كونها أبعد شيء من الحياة .

قرأ الجمهور نخرة ، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر ناخرة ، واختار الأولى أبو عبيدة وأبو حاتم ، والثانية الفراء وابن جرير وأبو معاذ النحوي .

قال أبو عمرو بن العلاء : الناخرة التي لم تنخر بعد أي لم تبل ولا بد أن تنخر ، وقيل هما بمعنى ، تقول العرب نخر الشيء فهو ناخر ونخر ، وطمع فهو طامع وطمع ونحو ذلك ، قال الأخفش هما جميعاً لغتان أيهما قرأت أحسن .

وقيل الناخرة التي أكلت أطرافها وبقيت أوساطها ، والنخرة التي فسدت كلها ، وقال مجاهد نخرة أي مرفوثة كما في قوله ﴿ رفاتاً ﴾ وقيل الناخرة المجوفة التي تمر فيها الريح فتنخر أي تصوت ، وقد قرئ إذا كنا وإذا كنا بالإستفهام وبعده .

ثم ذكر سبحانه عنهم قولاً آخر قالوه فقال ﴿ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴾ أي رجعة ذات خسران لما يقع على أصحابها من الخسران ، والمعنى أنهم قالوا إن رددنا بعد الموت لنخسرن بما يصيبنا بعد الموت مما يقوله محمد ، وهذا إستهزاء منهم ، وقيل معنى خاسرة كاذبة أي ليست بكائنة كذا قال الحسن وغيره ، وقال الربيع بن أنس : خاسرة على من كذب بها ، وقال قتادة ومحمد بن كعب : أي لئن رجعنا بعد الموت لنخسرن بالنار ، وإنما قالوا هذا لأنهم أوعدوا بالنار ، والكرة الرجعة والجمع كرات .

وقوله ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ تعليل لما يدل عليه ما تقدم من استبعادهم لبعث العظام النخرة وإحياء الأموات ، والمعنى لا تستبعدوا ذلك فإنما هي زجرة واحدة وكان ذلك الإحياء والبعث ، والمراد بالزجرة الصيحة وهي النفخة الثانية التي يكون البعث بها ، وقيل أن الضمير في ﴿ إنما هي ﴾ راجع إلى الرادفة المتقدم ذكرها التي يعقبها البعث وسميت هذه النفخة زجرة لأنه يفهم منها النهي عن التخلف والمنع منه ، وعبارة الخطيب وعبر بالزجرة لأنها أشد من النهي لأنها صيحة لا يتخلف عنها القيام أصلاً .

﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ أي فإذا الخلائق الذين قد ماتوا ودفنوا أحياء على وجه الأرض ، قال الواحدي المراد بالساهرة وجه الأرض وظاهرها في قول الجميع ، قال الفراء سميت بهذا الاسم لأن فيها نوم الحيوان وسهرهم ، وقيل لأنه يسهر في فلاتها خوفاً منها فسميت بذلك ، قال في الصحاح الساهرة وجه الأرض ، ومنه قوله ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال الساهرة أرض بيضاء ، وقيل أرض من فضة لم يعص الله فيها ، وقيل الساهرة الأرض السابعة يأتي بها الله سبحانه فيحاسب عليها الخلائق .

وقال سفيان الثوري : الساهرة أرض الشام أو أرض مكة أو أرض القيامة ، وقال قتادة هي جهنم ، أي فإذا هؤلاء الكفار في جهنم ، وإنما قيل لها ساهرة لأنهم لا ينامون فيها لاستمرار عذابهم ، وقال ابن عباس هي وجه

الأرض وفي لفظ الأرض كلها ساهرة .

وجملة ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ مستأنفة مسوقة لتسلية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تكذيب قومه ، وأنه يصيبهم مثل ما أصاب من كان قبلهم ممن هو أقوى منهم ، ومعنى ﴿ هل أتاك ﴾ قد جاءك وبلغك ، وهذا على تقدير أن قد سمع من قصص فرعون وموسى ما يعرف به حديثهما ، وعلى تقدير أن هذا أول ما نزل عليه في شأنهما فيكون المعنى على الإستفهام إذ لا وجه لحملة على الإقرار حينئذ أي هل أتاك حديثه؟ أنا أخبرك به .

﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ الظرف متعلق بحديث لا بأتاك لاختلاف وقتيهما ، وقد مضى من خبر موسى وفرعون في غير موضع ما فيه كفاية .

والواد المقدس المبارك المطهر غاية الطهر بتشريف الله له بإنزال النبوة فيه المفيضة للبركات ، قال الفراء ﴿ طوى ﴾ واد بين المدينة ومصر سمي طوى لأنه طوى فيه الشر عن بني إسرائيل أو لأن موسى طواه بالليل إذ مر به فارتفع إلى أعلى الوادي ، وقيل واد بالشام عند الصوريين أيلة ومصر ، وهو معدول من طاو كما عدل عمر من عامر ، قاله الفراء ، قال : والصرف أحب إلي إذ لم أجد في المعدول نظيراً له .

وقيل طوى معناه بالعبرانية يا رجل فكأنه قيل يا رجل ، وقيل المعنى أن الوادي المقدس بورك فيه مرتين والأول أولى ، وقد مضى تحقيق القول فيه ، قرىء طوى بالتنوين وتركه وهما سبعيتان ، قال الجوهري طوى اسم موضع بالشام تكسر طاؤه وتضم ويصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله إسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة وبقعة وجعله معرفة .

﴿ إذهب إلى فرعون ﴾ قيل هو على تقدير القول ، وقيل هو تفسير للنداء أي ناداه نداء هو قوله إذهب ، وقيل هو على حذف ﴿ أن ﴾ المفسرة ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ أن اذهب ﴾ لأن في النداء معنى القول .

وجملة ﴿إنه طغى﴾ تعليل للأمر أو لوجوب الإمثال أي جاوز الحد في العصيان والفساد والتكبر والكفر بالله ، قال الرازي ولم يبين أنه طغى في أي شيء فقليل تكبر على الله وكفر به ، وقيل تكبر على الخلق واستعبدهم .

﴿فقل هل لك أن تزكى﴾ أي قل له بعد وصولك إليه هل لك رغبة إلى التزكي وهو التطهر من الشرك ، وأصله تزكى ، قرأ الجمهور بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن كثير بتشديد الزاي على إدغام التاء في الزاي .

قال أبو عمرو ابن العلاء معنى قراءة التخفيف تكون زكياً مؤمناً ، ومعنى قراءة التشديد الصدقة ، وفي الكلام مبتدأ مقدر تتعلق به إلى ، والتقدير هل لك رغبة أو توجه أو سبيل إلى التزكي ، ومثل هذا قولهم هل لك في الخير يريدون هل لك رغبة في الخير ، وقال ابن عباس : هل لك أن تقول لا إله إلا الله ، وقيل معناه هل لك أن تسلم وتصلح العمل ، أمر عليه السلام أن يخاطبه بالإستفهام الذي معناه العرض ليستدعيه بالتلطف ويستنزله بالمداواة من عتوه ، وهذا نوع تفصيل لقوله ﴿فقولا له قولاً لئناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ .

﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ أي أرشدك إلى عبادته وتوحيده فتخشى عقابه ، والفاء لترتيب الخشية على الهداية لأن الخشية لا تكون إلا من مهتد راشد ، قال ابن عطاء الخشية أتم من الخوف ، لأنها صفة العلماء في قوله تعالى ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي العلماء به رواه السلمي .

وعن الواسطي : أوائل العلم الخشية ثم الإجلال ثم الهيبة ثم التعظيم ثم الفناء^(١) وعن بعضهم من تحقق بالخوف ألهاه خوفه عن كل مفروح به ، وألزمه الكمد إلى أن يظهر له الأمن من خوفه ، ذكره الكرخي .

(١) الفناء اصطلاح صوفي لا يعرفه الإسلام

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا
 رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ
 خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ
 بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَنَّاعًا لَّكُمْ
 وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾

﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ هذه الفاء هي الفصيحة لإفصاحها عن كلام محذوف يعني فذهب فقال له ما قال مما حكاه الله في غير موضع ، وأجاب عليه بما أجاب إلى أن قال : إن كنت جئت بآية فأت بها فعند ذلك أراه الآية الكبرى .

واختلف فيها ما هي ف قيل العصا ، وقيل يده وقيل فلق البحر ، وقيل هي جميع ما جاء به من الآيات التسع ، والأول أولى ثم اليد ، والأكثر على أنه أراها له ، وأطلق عليهما الآية الكبرى لاتحادهما معنى أو أراد بالكبرى العصا وحدها لأنها كانت مقدمة على الأخرى .

ولا ينافي هذا قوله في الآية الأخرى ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها ﴾ وكل آياته كبرى لأن الإخبار هنا عما أراه له أول ملاقاته إياه وهو العصا واليد ، ثم أردف ذلك برؤية الكل .

ولا مساغ لحمل الآية على مجموع معجزاته فإن ما عدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما في سورة الأعراف ، ولا ريب في أن هذا مطلع القضية وأمر السحرة مترقب بعده .

﴿ فكذب وعصى ﴾ أي فلما أراه الآية الكبرى كذب فرعون بموسى وبما جاء به وعصى الله عز وجل بعد ظهور الآية وتحقق الأمر فلم يطعه .

﴿ثم أدبر﴾ أي تولى وأعرض عن الإيمان ، وأتى بشم لأن إبطال الأمر ونقضه يقتضي زماناً طويلاً ﴿يسعى﴾ أي يعمل بالفساد في الأرض ويجتهد في معارضة ما جاء به موسى ، وقيل أدبر هارباً من الحية يسعى خوفاً منها ، وقال الرازي معنى أدبر يسعى أقبل يسعى كما يقال أقبل يفعل كذا أي أنشأ يفعل كذا فوضع أدبر موضع أقبل ، لئلا يوصف بالإقبال ، ويسعى حال من الضمير في أدبر .

﴿فحشر﴾ أي فجمع جنوده للقتال والمحاربة أو جمع السحرة للمعارضة أو جمع الناس للحضور ليشاهدوا ما يقع أو جمعهم ليمنعوه من الحية ﴿فنادى فقال أنا ربكم الأعلى﴾ أي قال لهم بصوت عال أو أمر من ينادي بهذا القول بعدما قال له موسى ربي أرسلني إليك ، والمعنى أنه لا رب فوقي ، قال عطاء كان صنع لهم أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وقال أنا رب أصنامكم ، وقيل أراد بكونه ربهم أنه قائدهم وسائدهم والأول أولى لقوله في آية أخرى ﴿ما علمت لكم من إله غيري﴾ .

﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ النكال نعت مصدر محذوف أي أخذه أخذ نكال أو هو مصدر لفعل محذوف أي أخذه الله فنكله نكال الآخرة والأولى ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، ويجوز أن يكون انتصاب نكال على أنه مفعول له أي أخذه الله لاجل نكال ، ويجوز أن ينتصب بنزع الخافض أي بنكال ، ورجح الزجاج أنه مصدر مؤكد ، قال لأن معنى أخذه الله نكل الله به فأخرج من معناه لا من لفظه .

وقال الفراء أي أخذه الله أخذاً نكالاً أي للنكال ، والنكال اسم لما جعل نكالاً للغير أي عقوبة له ، يقال نكل فلان بفلان إذا عاقبه وأصل الكلمة من الإمتناع ، ومنه النكول عن اليمين ، والنكل القيد ، والمراد بنكال الآخرة عذاب النار ، ونكال الأولى عذاب الدنيا بالغرق ، وقال مجاهد عذاب أول عمره وآخره ، وقال قتادة : الآخرة قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ والأولى تكذيبه لموسى ، وقيل الآخرة قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ والأولى قوله ﴿ما

علمت لكم من إله غيري ﴿١﴾ قاله ابن عباس وكان بين الكلمتين أربعون سنة ، قاله ابن عمرو^(١) .

﴿إن في ذلك﴾ أي فيما ذكر من قصة فرعون وما فعل به ﴿لعبرة﴾ عظيمة ﴿لمن﴾ شأنه أن ﴿يخشى﴾ الله ويتقيه ويخاف عقوبته ويحاذر غضبه .
﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء﴾ أي أخلقكم بعد الموت وبعثكم أشد عندكم وفي تقديركم أم خلق السماء ، والخطاب لكفار مكة والمقصود به التوبيخ لهم والتبكيت لان من قدر على خلق السماء التي لها هذا الجرم العظيم ، وفيها من عجائب الصنع وبدائع القدرة ما هو بين الناظرين ، كيف يعجز عن إعادة الأجسام التي أماتها بعد أن خلقها أول مرة ، ومثل هذا قوله سبحانه ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ وقوله ﴿أليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ .

ثم بين سبحانه كيفية خلق السماء فقال ﴿بناها﴾ أي جعلها كالبناء المرتفع فوق الأرض ﴿رفع سمكها﴾ أي أعلاه في الهواء ، وهذا بيان للبناء ، أو جعل مقدار ذهابها وارتفاعها في سمت العلو رفيعاً مسيرة خمسمائة عام ، يقال سمكت الشيء أي رفعته في الهواء وسمك الشيء سموكاً ارتفع قال الفراء كل شيء حمل شيئاً من البناء أو غيره فهو سمك ، وبناء مسموك وسمام سامك أي عال والسموكات السموات .

وقال ابن جزي : السمك غلظ السماء وهو الإرتفاع الذي بين السطح السفلي الأسفل الذي يلينا ، وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها ، قال البغوي : رفع سمكها أي سقفها ولينظر ما المراد بسقفها ، ويمكن أن يقال

(١) قال ابن كثير: ﴿فأخذ الله نكال الآخرة والأولى﴾ أي : انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا ﴿ويوم القيامة بئس الوفد المرفود﴾ كما قال تعالى : ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾ قال : وهذا هو الصحيح في معنى الآية أن المراد بقوله : ﴿نكال الآخرة والأولى﴾ أي الدنيا والآخرة .

سقف كل سماء هو السماء التي فوقها كما أن السماء الدنيا سقف للأرض تأمل .

قال الكسائي والفراء والزجاج : تمّ الكلام عند قوله بناها لأنه من صلة السماء والتقدير أم السماء التي بناها فحذف التي ، ومثل هذا الحذف جائز .

ومعنى ﴿فسواها﴾ جعلها مستوية الخلق معتدلة الشكل لا تفاوت فيها ولا اعوجاج ولا فطور ، ولا فروج ولا شقوق ﴿وأغطش ليلها﴾ الغطش الظلمة بلغة أنمار أي جعله مظلماً يقال أغطش الليل وأغطشه الله كما يقال أظلم الليل وأظلمه الله ، ورجل أغطش وامرأة غطشى لا يهتديان .

قال الراغب وأصله من الأغطش وهو الذي في عينه عمش ، ومنه فلاة غطشى لا يهتدى فيها والتغاطش التعامي ، وأضاف الليل إلى السماء لأن الليل يكون بغروب الشمس ، والشمس مضافة إلى السماء .

﴿وأخرج ضحاها﴾ أي أبرز نهارها المضيء بإضاءة الشمس وعبر عن النهار بالضحي لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وأضافه إلى السماء لأنه يظهر بظهور الشمس ، وهي منسوبة إلى السماء .

﴿والأرض بعد ذلك﴾ أي بعد خلق السماء ﴿دحاها﴾ بسطها يقال دحا يدحو دحوا ودحي يدحي دحياً أي بسط ومد فهو من ذوات الواو والياء فيكتب بالالف والياء ويقال لعش النعامة أدحى لأنه مبسوط على الأرض ، قال أمية ابن الصلت :

دحوت البلاد فسويتها وأنت على طيها قادر

قيل دحيت من مكة بعد خلق السماء بألفي عام^(١) .

(١) قال ابن كثير ٩٢/٤ : أما خلق الأرض ، فقبل خلق السماء بالنص ، وبهذا أجاب ابن عباس رضي الله عنها فيما ذكره البخاري . انظر «صحيح البخاري» ٤٢٧/٨ ، ٤٢٨ . ثم قال ابن كثير ٤٦٨/٤ : ولكن إنما دحيت الأرض بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل ، قال : وهذا معنى قول ابن عباس وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

ولا معارضة بين هذه الآية وبين ما تقدم في سورة فصلت من قوله ﴿ ثم استوى الى السماء ﴾ بل الجمع بأنه سبحانه خلق الأرض أولاً غير مدحوة ثم خلق السماء ثم دحى الأرض ، وقد قدمنا الكلام على هذا مستوفى هنالك ، وقدما أيضاً بحثاً في هذا في أول سورة البقرة عند قوله ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ وذكر بعض أهل العلم أن (بعد) بمعنى مع كما في قوله ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ وقيل (بعد) بمعنى قبل كقوله ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ﴾ أي من قبل الذكر ، والجمع الذي ذكرناه أولى وهو قول ابن عباس وغير واحد واختاره ابن جرير .

وعن ابن عباس أن رجلاً قال له آيتان في كتاب الله تخالف إحداهما الأخرى ، فقال إنما أتيت من قبل رأيك قال اقرأ ﴿ قل أننكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، حتى بلغ ، ثم استوى الى السماء ﴾ وقوله ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ قال خلق الله الأرض قبل أن يخلق السماء ثم خلق السماء ثم دحى الأرض بعد ما خلق السماء وإنما قوله ﴿ دحاها ﴾ بسطها ، وعنه قال دحاها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام وما بينهما في يومين .

قرأ الجمهور بنصب الأرض على الاشتغال وقرئ بالرفع على الابتداء .

ثم فسر سبحانه الدحو فقال : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ فجرت من الأرض الأنهار والبحار والعيون ، والمرعى النبات الذي يرعى والمرعى مصدر سمي أي رعيها وهو في الأصل موضع الرعي ، واستعير الرعي للانسان على سبيل التجوز .

قال الشهاب : والمرعى ما يأكله الحيوان غير الانسان فأريد به مجازاً

مطلق المأكول للانسان وغيره ، فهو مجاز مرسل من باب استعمال المقيد في المطلق انتهى ، وهو استعارة تصريحية حيث شبه اكل الناس برعي الدواب او فيه جمع بين الحقيقة والمجاز ، وقال الكرخي يجوز ان يكون استعارة معنوية .

والظاهر انه تغليب لأن قوله الآتي ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ وارد عليه ومن حقه أن تغلب ذوو العقول على الأنعام فعكس تجهيلاً لأن الكلام مع منكري الحشر بشهادة قوله ﴿ أنتم أشد خلقاً ﴾ كما مر كأنه قيل أيها المعاندون الداخلون في زمرة البهائم الملزوزون في قرننها في تمتعكم بالدنيا وذهولكم عن الأخرى .

والجملة إما بيان وتفسير لدحاها لأن السكنى لا تتأتى بمجرد البسط بل لا بد من تسوية امر المعاش من المأكول والمشرب ، وإما في محل نصب على الحال .

﴿ والجبال أرساها ﴾ أي أثبتها في الأرض وجعلها كالأوتاد للأرض لتثبت وتستقر وأن لا تميد بأهلها ، قرأ الجمهور بنصب الجبال على الاشتغال ، وقرئ بالرفع على الابتداء ، قيل ولعل وجه تقديم ذكر إخراج الماء والمرعى على إرساء الجبال مع تقدم الإرساء عليه الاهتمام بأمر المأكول والمشرب .

﴿ متاعاً ﴾ أي منفعة ﴿ لكم ولأنعامكم ﴾ من البقر والابل والغنم ، وانتصاب متاعاً على المصدرية أي تمتعكم بذلك متاعاً أو هو مصدر من غير لفظه لأن قوله ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ بمعنى متع بذلك أو على أنه مفعول له أي فعل ذلك لأجل التمتع وإنما قال لكم ولأنعامكم لأن فائدة ما ذكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى كائنة لهم ولأنعامهم ، والمرعى يعم ما يأكله الناس والدواب .

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

﴿ فإذا جاءت الطامة ﴾ أي الداهية التي تعلو سائر الدواهي ﴿ الكبرى ﴾ أي العظمى التي تطم على سائر الطامات ، فالوصف بالكبرى تأسيس لا تأكيد فهي أكبر من داهية فرعون ، وهي قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ .

وهذا شروع في بيان أحوال معادهم إثر بيان أحوال معاشهم ، والفاء للدلالة على ترتب ما بعدها على ما قبلها كما ينبىء عنه لفظ المتاع ، وفي الكرخي وخص ما هنا بالطامة موافقة لما قبله من داهية فرعون ، ولذلك وصفت بالكبرى ، موافقة لقوله ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ بخلاف ما في عبس فإنه لم يتقدمه شيء من ذلك فخصت بالصاخة وإن شاركت الطامة في أنها النفخة الثانية لأنها الصوت الشديد والصوت يكون بعد الطم فناسب جعل الطم للسابقة ، والصخ للاحقة انتهى .

قال الحسن وغيره : هي النفخة الثانية ، وقال الضحاك وغيره : هي القيامة سميت بذلك لأنها تطم على كل شيء لعظم هولها قال المبرد : الطامة عند العرب الداهية التي لا تستطاع ، وإنما أخذت فيما أحسب من قولهم طم الفرس طميماً إذا استفرغ جهده في الجري ، وطم الماء إذا ملأ النهر كله . وقال غيره هو من طم السيل الركية أي دفنها ، والطم الدفن .

قال مجاهد وغيره : الطامة الكبرى هي التي تسلم أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، قال ابن عباس : الطامة اسم من أسماء يوم القيامة ،

وجواب « إذا » قيل هو قوله ﴿ فأما من طغى ﴾ وقيل محذوف أي فإن الأمر كذلك أو عاينوا أو علموا أو أدخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، وقدره بعضهم بقوله كان من عظام الشؤن ما لم تشاهده العيون .

وقال أبو البقاء العامل فيها جوابها وهو معنى ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ لأنه منصوب بفعل مضمر أي أعني يوم يتذكر أو يوم يتذكر بكون كيت وكيت ، وقيل إن الظرف بدل من « إذا » وقيل هو بدل من الطامة الكبرى ، ومعنى تذكر الإنسان ما سعى أنه يتذكر ما عمله من خير أو شر لأنه يشاهده مدوناً في صحائف أعماله ، و « ما » مصدرية أو موصولة .

﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ معطوف على ﴿ جاءت ﴾ أي أظهرت النار المحرقة إظهاراً بيناً مكشوفاً لا تخفى على أحد ، قال مقاتل فكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق ، وقيل لمن يرى من الكفار لا من المؤمنين .

والظاهر أنها تبرز لكل راء ، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها ، وأما الكافر فيزداد غماً إلى غمه وحسرة إلى حسرته .

قرأ الجمهور لمن يرى بالتحية وقرأت عائشة ومالك بن دينار وعكرمة وزيد بن علي : بالفوقية أي لمن تراه الجحيم ، أو لمن تراه أنت يا محمد ، وقرأ ابن مسعود لمن رأى على صيغة الفعل الماضي .

﴿ فأما من طغى ﴾ أي جاوز الحد في الكفر والمعاصي ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ أي قدمها على الآخرة باتباع الشهوات المحرمات ولم يستعد لها ولا عمل عملها ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ أي مأواه ، والألف واللام عوض عن المضاف إليه ، وهذا عند الكوفيين ، وعند سيبويه وعند البصريين هي المأوى له ، ولا بد من أحد هذين التأويلين في الآية لأجل العائد من الجملة الواقعة خبراً عن المبتدأ الذي هو من طغى ، وحسن عدم ذكر ذلك العائد كون الكلمة وقعت فاصلة ورأس آية ، والمعنى انها منزله الذي ينزله ومأواه الذي يأوي إليه لا غيرها .

ثم ذكر القسم الثاني من القسمين فقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ﴾ أي حذر مقامه بين يدي ربه يوم القيامة لعلمه بالمبدأ والمعاد ، قال الربيع مقامه يوم الحساب ، قال قتادة يقول ان الله عز وجل مقاماً قد خافه المؤمنون ، وقال مجاهد هو خوفه في الدنيا من الله عز وجل الواقعة الذنب فيقلع عنه ، نظيره قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ والأول أولى .

﴿ ونهى النفس ﴾ الامارة بالسوء ﴿ عن الهوى ﴾ أي زجرها من الميل الى المعاصي والمحارم التي تشتهيها ، قال مقاتل هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها ، والهوى ميل النفس الى شهواتها ﴿ فان الجنة هي المأوى ﴾ أي المنزل الذي ينزله والمكان الذي يأوي اليه لا غيرها .

﴿ يسألونك ﴾ يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿ عن الساعة أيان مرساها ﴾ أي متى وقوعها وقيامها ، قال الفراء أي متى قيامها كرسو السفينة ، قال أبو عبيدة ومرسى السفينة حين تنتهي ، والمعنى يسألونك عن الساعة متى يقيمها الله ، وقد مضى بيان هذا في سورة الاعراف .

﴿ فिम أنت من ذكرها ﴾ أي في أي شيء أنت يا محمد من ذكر القيامة والسؤال عنها والمعنى لست في شيء من علمها وذكرها انما يعلمها الله سبحانه ، وهو استفهام انكار ورد لسؤال المشركين عنها أي فيم أنت من ذلك حتى يسألوك عنها ولست تعلمها وأنت آخر الأنبياء وعلامة من علاماتها فلا معنى لسؤالهم عنها فكفاهم ذلك دليلاً على دنوها ووجوب الاستعداد لها ، والأول أولى .

عن علي بن أبي طالب قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن الساعة فنزلت فيم أنت من ذكرها » أخرجه ابن مردويه .

وعن عائشة قالت : ما زال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسأل عن الساعة حتى أنزل الله فيم أنت من ذكرها الخ فانتهى فلم يسأل عنها « أخرجه البزار وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه .

وعن طارق بن شهاب قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثّر ذكر الساعة حتى نزلت هذه الآية فكف عنها » أخرجه عبد بن حميد والنسائي وابن جرير وغيرهم .

وعن ابن عباس : « أن مشركي مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا متى الساعة استهزاء منهم ، فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ يعني مجيئها فيم أنت من ذكرها يعني ما أنت ممن علمها يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴾ الى ربك متهاها ﴾ يعني منتهى علمها » أخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه ، قال السيوطي : بسند ضعيف .

وعن عائشة قالت : « كانت الأعراب اذا قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم يسألوه عن الساعة فينظر الى أحدث انسان منهم فيقول إن يعش هذا قامت عليكم ساعتكم » ، أخرجه ابن مردويه .

وجملة ﴿ الى ربك متهاها ﴾ مستأنفة أي منتهى علمها فلا يوجد علمها عند غيره وهذا كقوله : ﴿ قل انما علمها عند ربي ﴾ وقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ فكيف يسألونك عنها ويطلبون منك بيان وقت قيامها .

﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي مخوف لمن يخشى قيام الساعة وذلك وظيفتك ليس عليك غيره من الاخبار بوقت قيام الساعة ونحوه مما استأثر الله بعلمه إذ لا مدخل لتعيين وقتها في الانذار ، فإن محض الانذار لا يتوقف على علم المنذر بوقت قيامها ، فقصر حاله على الانذار فلا يتعداه الى علم الوقت وخص الانذار بمن يخشى لأنهم المتفعون بالانذار ، وإن كان منذراً لكل مكلف من مسلم وكافر .

قرأ الجمهور بإضافة منذر الى ما بعده ، وقرئ بالتنوين قال الفراء كلاهما صواب كقوله بالغ أمره وموهن كيد الكافرين ، قال ابو علي الفارسي يجوز أن تكون الاضافة للماضي نحو ضارب زيد أمس ، وقال الزمخشري التنوين هو الأصل والاضافة تخفيف ، وكلاهما يصلح للحال والاستقبال .

﴿ كأنهم ﴾ أي كفار قريش ﴿ يوم يرونها ﴾ أي يوم يرون الساعة ويعاينونها ﴿ لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي يستقصرون مدة لبثهم ويزعمون أنهم لم يلبثوا إلا قدر آخر نهار أو أوله ، أو قدر الضحى الذي يلي تلك العشية ، والمراد تقليل مدة الدنيا كما قال لم يلبثوا الا ساعة من نهار ، وقيل لم يلبثوا في قبورهم .

قال الفراء والزجاج : المراد بإضافة الضحى الى العشية إضافته الى يوم العشية على عادة العرب يقولون آتيك الغداة أو عشيتها ، وآتيك العشية أو غداتها فتكون العشية في معنى آخر النهار ، والغداة في معنى أول النهار ، وزاد زاده أن الضحى والعشية لما كانتا من يوم واحد كان بينهما ملابسة مصححة لإضافة إحداهما الى الأخرى .

قال المحلي : وحسن الاضافة وقوع الكلمة فاصلة أي من الفواصل .

والجملة تقرير لما يدل عليه الانذار من سرعة مجيء المنذر به ، والعشية هي من الزوال الى غروب الشمس ، والضحى هو البكرة الى الزوال .

سورة عبس

وتسمك سورة السفرة وسورة الأعمك . وهي إحكك أو اثنتان
وأربعون آية وهي مكية في قول الجميع وعن ابن عباس رضي الله عنه
نزلت بمكة . وعن ابن الزبير رضي الله عنه مثله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يُزَكَّى ۚ (٣) أَوْ يَذْكُرُ فَنَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ۚ (٤)
أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى ۚ (٥) فَأَنَّ لَهُ تَصَدَّى ۚ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۚ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ (٨) وَهُوَ
يَخْشَى ۚ (٩) فَأَنَّ عَنْهُ نِلَهَى ۚ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۚ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۚ (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۚ (١٣)

﴿ عبس وتولى ﴾ أي كلع بوجهه وقطب وأعرص ، وقرىء عبس بالتشديد ، جيء في هذه المواضع بضمائر الغائب إجلالاً له صلى الله عليه وسلم ولطفاً به لما في المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى .

﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ مفعول لأجله أي لأن جاءه ، والعامل فيه إما عبس أو تولى ، على الاختلاف بين البصريين والكوفيين في التنازع هل المختار أعمال الأول أو الثاني ، والمختار مذهب البصريين لعدم الاضمار في الثاني .

وقد أجمع المفسرون على أن سبب نزول الآية « أن قوماً من أشرف قريش كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد طمع في إسلامهم ، فأقبل عبد الله ابن أم مكتوم ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقطع عليه ابن أم مكتوم كلامه ، فأعرض عنه ، فنزلت » (١) .

وعن عائشة قالت : « أنزلت عبس وتولى في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول

(١) قوله تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ يوماً يناجي عتبة بن ربيعة ، وأبا جهل بن هشام ، وأمياً وأبياً ابني خلف ، ويدعوهم إلى الله تعالى ، ويرجو إسلامهم ، فجاء ابن أم مكتوم الأعمى ، فقال : علمني يا رسول الله مما علمك الله ، وجعل يناديه ، ويكرر النداء ، ولا يدري أنه مشغل بكلام غيره ، حتى ظهرت الكراهية في وجهه ﷺ لقطعه كلامه ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وأقبل على القوم يكلمهم ، فنزلت هذه الآيات ، فكان رسول الله ﷺ يكرمه بعد ذلك ، ويقول : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي .

الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول أترى بما أقول بأساً ، فيقول لا ، ففي هذا أنزلت » أخرجه الترمذي وحسنه وابن المنذر وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه .

وعن أنس قال : « جاء ابن أم مكتوم وهو يكلم أبي بن خلف فأعرض عنه ، فأنزل الله ﴿ عبس ﴾ الخ وكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه » أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وأبو يعلى .

وعن ابن عباس قال : « بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يناجي عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبا جهل بن هشام ، وكان يتصدى لهم كثيراً ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا فأقبل عليهم رجل أعمى يقال له عبد الله ابن أم مكتوم يمشي وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرئ النبي صلى الله عليه وآله وسلم آية من القرآن ، قال يا رسول الله علمني مما علمك الله ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعبس في وجهه وتولى وكره كلامه ، وأقبل على الآخرين ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نجواه وأخذ ينقلب الى أهله أمسك الله ببعض بصره ثم خفق برأسه ثم أنزل الله ﴿ عبس وتولى ﴾ الآية ، فلما نزل فيه ما نزل أكرمه نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمه وقال له: ما حاجتك هل تريد من شيء؟ وإذا ذهب من عنده قال: هل لك حاجة في شيء » أخرجه ابن جرير وابن مردويه ، قال ابن كثير فيه غرابة وقد تكلم في إسناده^(١) .

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص ٣٣٣ بغير سند، وقال الحافظ في «تخريج أحاديث الكشاف» ١٨١ ذكره الثعلبي بلا إسناد، وأخرجه ابن أبي حاتم من رواية العوفي عن ابن عباس نحوه. وأخرج الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، وابن حبان عن عائشة قالت: أنزلت سورة «عبس وتولى» في ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني ، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين ، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ، ويقبل على الآخر ، ويقول: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول: لا ، ففي هذا أنزلت .

وقال المحلي : فكان بعد ذلك يقول له إذا جاء مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويبسط له رداءه ، وقال الخازن استخلفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته^(١) وكان من المهاجرين الأولين ، قيل قتل شهيداً بالقادسية . قال أنس بن مالك رأيت يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء^(٢) .

قرأ الجمهور ﴿ أن جاءه الأعمى ﴾ على الخبر بدون الاستفهام ، ووجهه ما تقدم .

وقرأ الحسن ﴿ أن جاءه ﴾ بالمد على الاستفهام فهو على هذه القراءة متعلق بفعل محذوف دل عليه عبس وتولى والتقدير أن جاءه الأعمى تولى وأعرض .

﴿ وما يدريك ﴾ التفت سبحانه من الغيبة الى خطاب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لأن المشافهة أدخل في العتاب . أي أي شيء يجعلك دارياً بحاله حتى تعرض عنه .

وجملة ﴿ لعله يتركى ﴾ مستأنفة لبيان أن له شأنًا ينافي الاعراض عنه أي لعله يتطهر من الذنوب بالعمل الصالح بسبب ما يتعلمه منك لا من الشرك لأنه أسلم قديماً بمكة ، فالضمير في لعله راجع الى الأعمى ، وقيل هو راجع الى الكافر أي وما يدريك أن ما طمعت فيه ممن اشتغلت بالكلام معه عن الأعمى أنه يزكى أو يذكر ، والأول أولى ، وكلمة الترجي باعتبار من وجه اليه الخطاب للتنبيه على أن الاعراض عنه مع كونه مرجو التزكي مما لا يجوز .

ومثل هذه الآية قوله في سورة الأنعام ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ وكذلك قوله : في سورة الكهف : ﴿ ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ .

(١) أي يستخلفه للصلاة بالناس .

(٢) كلمة انس لا تصح لأن الرجل أعمى .

﴿أو يذكر﴾ عطف على يزكى داخل معه في حكم الترجي ، أي أو يتذكر فيتعظ بما تعلمه من المواعظ ﴿فتنفعه الذكرى﴾ أي الموعظة المسموعة منك ، قرأ الجمهور بالرفع وقرئ بالنصب على جواب الترجي أي أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزكي أو تذكر ولو دريت ما فرط ذلك منك .

﴿أما من استغنى﴾ أي كان ذا ثروة وغنى ، أو استغنى عن الايمان وعما عندك من العلم الذي ينطوي عليه القرآن ﴿فأنت له تصدى﴾ أي تصغي لكلامه ، والتصدي الاصغاء وقيل هو من الصدى وهو الصوت المسموع في الأماكن الخالية والأجرام الصلبة ، وقيل من الصدى وهو العطش ، والمعنى على التعريض ، قرأ الجمهور تصدى بالتخفيف على طرح احدى التائين تخفيفاً ، وقرأ نافع وابن محيصن بالتشديد على الادغام ، وفي هذا مزيد تنفير له صلى الله عليه وآله وسلم عن الاقبال عليهم والاصغاء الى كلامهم .

﴿وما عليك ان لا يزكى﴾ أي أي شيء عليك في أن لا يسلم ولا يهتدي ، فإنه ليس عليك الا البلاغ فلا تهتم بأمر من كان هكذا من الكفار ، ويجوز ان تكون (ما) نافية أي ليس عليك بأس في أن لا يتزكى من تصديت له وأقبلت عليه ، وتكون الجملة في محل نصب على الحال من ضمير تصدى .

ثم زاد سبحانه في معاتبته رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ﴿وأما من جاءك يسعى﴾ أي وصل اليك حال كونه مسرعاً في المجيء اليك طالباً منك ان ترشده الى الخير وتعظه بمواعظ الله ﴿وهو يخشى﴾ حال من فاعل ﴿يسعى﴾ على التداخل ، أو من فاعل جاءك على الترادف أي يخشى الله أو أذى الكفار يعني ابن أم مكتوم ﴿فأنت عنه تلهى﴾ أي تتشاغل عنه وتعرض عن الاقبال عليه . والتلهي التشاغل والتغافل ، يقال لهيت عن الأمر أهى أي تشاغلت عنه وكذا تلهيت . وليس هو من اللهو في شيء ولم يجعل من اللهو

لأنه مسند الى ضمير النبي ، ولا يليق بمنصبه الكريم أن ينسب اليه الفعل من اللهو بخلاف الاشتغال فإنه يجوز ان يصدر منه في بعض الأحيان ، ولا ينبغي أن يعتقد غير هذا .

وقوله ﴿ كلاً ﴾ ردع له صلى الله عليه وآله وسلم عما عوتب عليه أي لا تفعل بعد هذا الواقع منك مثله من الاعراض عن الفقير ، والتصدي للغني والتشاغل به مع كونه ليس ممن يتزكى . عن ارشاد من جاءك من أهل التزكي والقبول للموعظة ، وهذا الواقع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو من باب ترك الأولى ، فأرشدته الله سبحانه الى ما هو الأولى به .

﴿ إنها تذكرة ﴾ أي أن هذه الآيات أو السورة موعظة حقها أن تتعظ بها وتقبلها وتعمل بموجبها أو تعمل بها كل أمتك .

﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن رغب فيها اتعظ بها وحفظها وعمل بموجبها ، ومن رغب عنها كما فعله من استغنى فلا حاجة الى الاهتمام بأمره ، قيل الضميران في ﴿ إنها ﴾ وفي ﴿ ذكره ﴾ للقرآن وتأنيث الأول لتأنيث خبره ، وقيل الأول للسورة أو للآيات السابقة والثاني للتذكرة لأنها في معنى الذكر ، وقيل المعنى فمن شاء الله ألهمه وفهمه القرآن حتى يذكره ويتعظ به والأول أولى .

ثم أخبر سبحانه عن عظم هذه التذكرة وجلالتها فقال : ﴿ في صحف ﴾ أي أنها تذكرة كائنة في صحف ، فالجار والمجرور صفة لتذكرة وما بينهما اعتراض ، والصحف جمع صحيفة .

ومعنى ﴿ مكرمة ﴾ أنها مكرمة عند الله لما فيها من العلم والحكمة ، أو لأنها نازلة من اللوح المحفوظ ، وقيل المراد بالصحف كتب الأنبياء كما في قوله ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى ﴾ .

مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كَرَامٍ بَرَّةٍ ﴿١٦﴾ قُلِّلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
 ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّيْلَ يَسِّرُهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ
 ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا
 الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْنَيْنَا فِيهَا جَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًّا ﴿٢٨﴾ وَزَيَّنَّاوْنَحْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَّائِقُ غُلْبًا ﴿٣٠﴾

﴿ مرفوعة ﴾ أي أنها رفيعة القدر عند الله ، وقيل مرفوعة في السماء السابعة ، قال الواحدي قال المفسرون مكرمة يعني في اللوح المحفوظ ، مرفوعة يعني في السماء السابعة ، قال ابن جرير مرفوعة القدر والذكر ، وقيل مرفوعة عن الشبه والتناقض .

﴿ مطهرة ﴾ أي منزهة لا يمسها إلا المطهرون ، قال الحسن مطهرة من كل دنس . قال السدي مصانة عن الكفار لا ينالونها ، وقال المحلي منزهة عن مس الشياطين انتهى .

وفيه ان الصحف بأيدي الملائكة في السماء ، والشياطين لا يصلون الى السماء فلا يظهر مدح الصحف بتطهيرها من مسهم فليتأمل ، قاله سليمان الجمل .

﴿ بأيدي سفرة ﴾ جمع سافر ككتبة وكاتب ، قال ابن عباس سفرة كتبة ، وقال هم النبطية القراء ، والمعنى أنها بأيدي كتبة من الملائكة ينسخون الكتب من اللوح المحفوظ ، قال الفراء السفرة هنا الملائكة الذين يسفرون بالوحي بين الله ورسوله من السفارة وهي السعي بين القوم .

قال الزجاج إنما قيل للكتاب سفر بكسر السين ، والكاتب سافر لأن معناه أنه بين ، يقال أسفر الصبح اذا أضاء وسفرت المرأة اذا كشفت النقاب عن وجهها ، ومنه سفرت بين القوم أسفر سفارة أي أصلحت بينهم ، قال مجاهد هم الملائكة الكرام الكاتبون لأعمال العباد .

وقال قتادة : السفرة هنا هم القراء لأنهم يقرأون الأسفار ، وقال وهب بن منبه هم أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

ثم أثنى سبحانه على السفرة فقال : ﴿ كرام ﴾ على ربهم كذا قال الكلبي ، وقال الحسن كرام عن المعاصي فهم يرفعون انفسهم عنها ، وقيل يتكرمون أن يكونوا مع ابن آدم اذا خلا بزوجه أو قضى حاجته ، وقيل يؤثرون منافع غيرهم على منافعهم ، وقيل يتكرمون على المؤمنين بالاستغفار لهم .

﴿ بررة ﴾ جمع بار مثل كفرة وكافر أي أتقياء مطيعون لربهم صادقون في إيمانهم وقد تقدم تفسيره ، وقال ابن عباس هم الملائكة .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأه وهو عليه شاق له أجران » .

﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ أي لعن الانسان الكافر ما أشد كفره ، قال الكرخي وهذا دعاء عليه بأشنع الدعوات وإن ذلك ورد على أسلوب كلام العرب لبيان استحقيقه لأعظم العقاب حيث أتى بأعظم القبائح كقولهم اذا تعجبوا من شيء قاتله الله ما أخبئه ، أخزاه الله ما أظلمه ، قال الشاعر :

يتمنى المرء في الصيف الشتا فإذا جاء الشتا أنكره
لا بدأ يرضى ولا يرضى بدأ قتل الانسان ما أكفره

وقيل معناه أي شيء أكفره أي دعاه الى الكفر ، وهو استفهام توبيخ ، والظاهر هو الأول ، قيل المراد بالانسان عتبة بن أبي لهب ، ومعنى ما أكفره التعجب من افراط كفره ، قال الزجاج معناه اعجبوا أنتم من كفره ، وقيل المراد بالانسان من تقدم ذكره في قوله ﴿ أما من استغنى ﴾ وقيل المراد به الجنس وهذا هو الأولى فيدخل تحته كل كافر شديد الكفر ويدخل تحته من كان سبباً لنزول الآية دخولاً أولياً .

ثم ذكر سبحانه ما كان ينبغي لهذا الكافر أن ينظر فيه حتى ينزجر عن كفره ويكف عن طغيانه فقال: ﴿من أي شيء خلقه﴾ أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر، والاستفهام للتقرير أو تحقير له والأول أظهر، لأن الاستفهام ذكروا من معانيه التقرير، لكن التحقير أخص بالمقام، وجمع بعضهم بينهما فقال الاستفهام هنا لتقرير التحقير، قال الشهاب ولو قيل أنه للتقرير والتحقير مستفاد من شيء المنكر لكان له وجه.

ثم فسر سبحانه ذلك فقال: ﴿من نطفة﴾ أي من ماء مهين، وهذا كمال تحقير له قال الحسن كيف يتكبر من خرج من مخرج البول مرتين.

﴿خلقته فقدره﴾ أي فسواه وهياه لمصالح نفسه، وخلق له اليدين والرجلين والعينين وسائر الآلات والحواس، وقيل قدره أطواراً من حال أي حال، نطفة ثم علقه إلى أن تم خلقه، والفاء للترتيب في الذكر.

﴿ثم السبيل يسره﴾ أي يسر له الطريق إلى الخير والشر، وقال السدي ومقاتل وعطاء وقتادة يسره للخروج من بطن أمه، قال بعضهم إن رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجليه من تحت فهو في بطن أمه على الانتصاب، فإذا جاء وقت خروجه انقلب بإلهام من الله تعالى، ذكره الرازي والأول أولى، ومثله قوله ﴿وهديناه النجدين﴾ وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور أي يسر السبيل يسره.

﴿ثم أماته فأقبره﴾ أي جعله بعد أن أماته ذا قبر يواري فيه إكراماً له، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله السباع والطيور، كذا قال الفراء، وقال أبو عبيدة جعل له قبراً وأمر أن يقبر فيه، وقال أقبره ولم يقل قبره لأن القابر هو الدافن بيده والمقبر هو الله تعالى، ويقال قبر الميت إذا دفنه بيده، وأقبره إذا أمر غيره أن يجعله في قبر، وعد الأماته من النعم لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم.

﴿ثم إذا شاء﴾ إنشاره ﴿أنشره﴾ أي أحياه بعد موته، وعلق الانشار

بالمشيئة للدلالة على أن وقته غير متعين بل هو تابع للمشيئة ، وأما سائر الأحوال المذكورة قبل ذلك فانها تعلم أوقاتها من بعض الوجوه فلم تفوض الى مشيئته تعالى ، قرأ الجمهور أنشره وقرىء نشره ، وهما لغتان فصيحتان .

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر للانسان الكافر عما هو عليه من التكبر والتجبر والترفع والاصرار على انكار التوحيد والبعث والحساب أي ليس الأمر كما يقول ﴿ لما يقض ما أمره ﴾ الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ، وقيل المراد الانسان على العموم ، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة لأنه لا يخلو من تقصير^(١) ، قال الحسن أي حقاً لم يعمل ما أمر به ، وقال ابن فورك : أي كلا لم يقض لهذا الكافر ما أمره به من الاتيان بل أمره بما لم يقض له .

قال ابن الأنباري : الوقف على كلا قبيح ، والوقف على أمره وأنشره جيد ، وكلا على هذا بمعنى حقاً . وقيل المعنى لما يقض جميع أفراد الانسان ما أمره بل أدخل به بعضها بالكفر ، وبعضها بالعصيان ، وما قضى ما أمره الله به الا القليل .

وقال بعضهم : ما لابن آدم والفخر ، أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو بينهما حامل عذرة .

ثم شرع سبحانه في تعداد نعمه على عباده ليذكروها وينزجروا عن كفرانها ، بعد ذكر النعم المتعلقة بحدوثهم فقال ﴿ فلينظر الانسان الى طعامه ﴾ أي ينظر كيف خلق الله طعامه الذي جعله سبباً لحياته ، وكيف هيأ له أسباب المعاش يستعد بها للسعادة الأخروية ، قال مجاهد الى مدخله

(٣) قال ابن كثير : وحكاه البغوي عن الحسن البصري بنحو من هذا ، قال : ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا ، والذي يقع لي في معنى ذلك - والله أعلم - أن المعنى : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي : بعثه ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ أي : لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة ويفرغ القدر من بني آدم ممن كتب الله أن يسجد منهم ويخرج إلى الدنيا ، وقد أمر به تعالى كوناً وقدرأً ، فإذا تنهى ذلك عن الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم .

ومخرجه ، وبه قال ابن الزبير ، والأول أولى ، وعن ابن عباس قال الى خروئه ، أخرجه ابن أبي الدنيا .

ثم بين سبحانه ذلك فقال : ﴿ انا صببنا الماء صباً ﴾ قرأ الجمهور إنا بالكسر على الاستئناف ، وقرأ الكوفيون وورش عن يعقوب بالفتح على أنه بدل من طعامه بدل اشتمال لكون نزول المطر سبباً لحصول الطعام فهو كالمشتمل عليه أو بتقدير لام العلة ، قال الزجاج الكسر على الابتداء والاستئناف ، والفتح على معنى البدل من الطعام .

والمعنى فلينظر الانسان الى أنا صببنا الماء صباً ، وأراد بصب الماء المطر ، وبه قال ابن عباس ، وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما بالفتح والإمالة

﴿ ثم شققنا الأرض ﴾ بالنبات الخارج منها بسبب نزول المطر ﴿ شقاً ﴾ بديعاً لايقاً بما يخرج منه في الصغر والكبر والشكل والهيئة ، قال ابن عباس شقاً عن النبات .

قال البيضاوي أسند الشق الى نفسه تعالى اسناد الفعل الى السبب ، وتبع في ذلك الزمخشري ، وقد رده في الانتصاف بأنه تعالى موجد الأشياء فالاسناد اليه تعالى حقيقة ، وانما ذكره الزمخشري اعتزلاً فإن أفعال العباد مخلوقة لهم عنده ، ورده المدقق في الكشف بأنه ليس مبنياً على ما ذكر ، بل لأن الفعل إنما يسند حقيقة لمن قام به لا لمن أوجده ، فالاعتراض عليه ناشئ من قلة التدبر ، أفاده الشهاب .

ثم بين سبب هذا الشق وما وقع لأجله فقال : ﴿ فأنبتنا فيها حباً ﴾ يعني الحبوب التي يتغذى بها ، والمعنى أن النبات لا يزال ينمو ويتزايد الى أن يصير حباً ﴿ و ﴾ أنبتنا فيها ﴿ عنباً ﴾ قيل وليس من لوازم العطف أن يقيد المعطوف

بجميع ما قيد به المعطوف عليه ، فلا ضير في خلو نبات العنب عن شق الأرض .

قلت بل يمكن التقييد ويكون باعتبار أصل نبات العنب ففيه شق الأرض .

﴿ وقضباً ﴾ هو القت الرطب الذي يقضب مرة بعد أخرى تعلف به الدواب ، ولهذا سمي قضباً على مصدر قضبه أي قطعه ، كأنه لتكرر قطعه نفس القطع ، قال الخليل : القضب الفصفصة الرطبة فاذا يبست فهي القت ، قال في الصحاح والقضبة والقضب الرطبة ، قال والموضع الذي تنبت فيه المقضبة قال القتيبي وثعلب وأهل مكة يسمون العنب القضب ، قال ابن عباس القضب الفصفصة يعني القت .

﴿ وزيتوناً ﴾ هو ما يعصر منه الزيت وهي شجرة الزيتون المعروفة ﴿ ونخللاً ﴾ هو جمع نخلة ﴿ وحدائق غلباً ﴾ جمع حديقة وهي البستان ، والغلب العظام الغلاظ الرقاب ، قال مقاتل ومجاهد الغلب الملتف بعضها ببعض ، يقال رجل أغلب اذا كان عظيم الرقة ، ويقال للأسد أغلب لأنه مصمت العنق لا يلتفت إلا جميعاً ، وجمع أغلب وغلباء غلب كما جمع أحمر وحمراء حمر ، يقال حديقة غلباء أي غليظة الشجر ملتفة فالحدائق ذات أشجار غلاظ فهو مجاز مرسل ، وفيه تجوز في الاسناد أيضاً لأن الحدائق نفسها ليست غليظة بل الغليظ أشجارها .

وقال قتادة وابن زيد الغلب النخل الكرام ، وعن ابن زيد أيضاً وعكرمة هي غلاظ الأوساط والجدوع ، وقال ابن عباس : غلباً طوالاً ، وعنه قال : الحدائق كل ملتف ، والغلب ما غلظ ، وعنه قال شجر في الجنة يستظل به لا يحمل شيئاً .

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَّعَالِكُمْ وَلَا تَنْعَمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَيْنِهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَ ذِشْنُ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَ ذِ
مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَ ذِ عَلَيْهَِا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

﴿ وفاكهة ﴾ عطف عام فيدخل رطب وعنب ورمان وأترج وتمر وزبيب وغير ذلك وهذا بالنظر لعطفه على عنباً ، وأما اذا عطف على حدائق كما هو المتبادر فهو عطف خاص على عام كما لا يخفى ، ثم الفاكهة ما يأكله الناس من ثمار الأشجار كالعنب والتين والخوخ ونحوه .

﴿ وأباً ﴾ هو كل ما أنبت الأرض مما لا يأكله الناس ، ولا يزرعونه من الكلاً وسائر انواع المراعي ، قال الضحاك الأب كل شيء ينبت على وجه الأرض ، وقال ابن أبي طلحة : هو الثمار الرطبة وبه قال ابن عباس ، وروي عن الضحاك أيضاً أنه قال : هو التين خاصة والأول أولى .

وعن ابن عباس أيضاً الأب ما أنبت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس وعنه قال الأب الكلاً والمرعى ، وعن ابراهيم التيمي قال : « سئل أبو بكر الصديق عن الأب ما هو فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم » أخرجه أبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد .

وعن عبد الله بن يزيد « أن رجلاً سأل عمر عن قوله ﴿ أباً ﴾ فلما رآهم يقولون أقبل عليهم بالدرة » أخرجه عبد بن حميد .

وعن أنس « أن عمر قرأ على المنبر فأنبتنا فيها حباً وعنباً الى قوله ﴿ وأباً ﴾ قال كل هذا قد عرفناه فما الأب ، ثم رفض عصاً كانت في يده فقال هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب ، اتبعوا ما بين لكم

من هذا الكتاب فاعملوا عليه ، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربه » أخرجه ابن سعد وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب والخطيب^(١) .

قال المحلي ﴿أبا﴾ أي ما ترعاه البهائم أي سواء كان رطباً أو يابساً فهو أعم من القضب وقيل التين وعليه فالمغايرة بينه وبين القضب ظاهرة .

﴿متاعاً لكم﴾ منصوب بأنبتنا لأنه مصدر مؤكد لعامله لأن انباته الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات ، ويحتمل ان العامل محذوف تقديره فعل ذلك متاعاً لكم أو متعكم بذلك تمتيعاً لكم ﴿ولأنعامكم﴾ جمع نعم وهي الابل والبقر والغنم .

ثم شرع سبحانه في بيان أحوال المعاد فقال : ﴿فاذا جاءت الصاخة﴾ يعني صيحة يوم القيامة ، وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الأذان أي تصمها فلا تسمع ، وقيل لأنها تصخ لها الأسماع من قولك أصاخ الى كذا أي استمع اليه ، والأول أصح قال الخليل : الصاخة صيحة تصخ الأذان حتى تصمها لشدة وقعها ، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذ من الصك الشديد يقال ، صكه الحجر اذا صكه به ، وقال ابن عباس : الصاخة من أسماء يوم القيامة .

قال ابن الأعرابي : الصاخة التي تورث الصمم وأنها لمسمعة ، وهذا

(١) وما ورد من أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى : (وفاكهة وأباً) فقال : أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم ، فقد رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في «فضائل القرآن» ، من رواية محمد بن زيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي عن أبي بكر رضي الله عنه ، وهو منقطع بين إبراهيم التيمي وبين أبي بكر رضي الله عنه . وقد روى ابن جرير قال : حدثنا بشار ، حدثنا ابن أبي عدي ، حدثنا حميد ، عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه (عبس وتولى) حتى أتى على هذه الآية (وفاكهة وأباً) قال : قد عرفنا ما الفاكهة فما الأب؟ فقال : لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح ، إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد رواه غير واحد عن أنس به ، ولكن هذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله تعالى : (فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلًا وحدائق غلباً وفاكهة وأباً) .

من بديع الفصاحة والفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم ، وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف يدل عليه قوله الآتي ﴿ لكل امرئ منهم ﴾ الخ أي فاذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه .

﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ الظرف إما بدل من إذا جاءت او منصوب بمقدر أي أعني ، ويكون تفسيراً للصاخة أو بدلاً منها مبني على الفتح ، وخص هؤلاء بالذكر لأنهم أخص القرابة وأولاهم بالحنو والرأفة ، فالفرار منهم لا يكون إلا لهول عظيم وخطب فظيع ، وتبعات بينه وبينهم ، والمراد بالفرار التباعد .

والمعنى أنه لا يلتفت الى واحد من هؤلاء لشغله بنفسه ، قيل أول من يفر من أخيه هابيل ، ومن أبويه ابراهيم ، ومن صاحبته نوح ولوط ، ومن ابنه نوح ، والعموم أولى ، وقيل انما يفر عنهم حذراً من مطالبتهم إياه بما بينهم . وقيل يفر عنهم لئلا يروا ما هو فيه من الشدة وقيل لعلمه بأنهم لا ينفعونه ولا يغنون عنه شيئاً كما قال تعالى ﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ .

قال عبد الله بن طاهر الأبهري : يفر منهم لما يتبين له من عجزهم وقلة حيلتهم ، الى من يملك كشف تلك الكروب عنه ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئاً سوى ربه تعالى .

﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أي لكل انسان يوم القيامة شأن يشغله عن الأقرباء ويصرفه عنهم ، والجملة مستأنفة لبيان سبب الفرار ، قال ابن قتيبة يغنيه أي يصرفه عن قرابته ، ومنه يقال أغن عني وجهك أي أصرفه .

عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تحشرون حفاة عراة فقالت امرأة أيبصر أحدنا أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » أخرجه الترمذي ، وقال حديث حسن

صحيح^(١) .

قرأ الجمهور يغنيه بالغين المعجمة وقرأ ابن محيصن بالعين المهملة مع فتح الياء أي يهمه من عناء الأمر إذا أهمله .

ثم بين مآل أمر المذكورين وانقسامهم الى الأشقياء والسعداء بعد وقوعهم في داهية عظيمة فقال ﴿ وجوه ﴾ مبتدأ وإن كان نكرة لأنه في مقام التفصيل وحيز التنويع ، وهو من مسوغات الابتداء بالنكرة ﴿ يومئذ ﴾ متعلق به ومعنى ﴿ مسفرة ﴾ مشرقة متهلة مضيئة ، وبه قال ابن عباس ، وهي وجوه المؤمنين لأنهم قد علموا اذا ذاك ما لهم من النعيم والكرامة ، يقال أسفر الصبح اذا اضاء قال الضحاك : مسفرة من آثار الضوء وقيل من قيام الليل ، وقيل من الغبار في سبيل الله ﴿ ضاحكة ﴾ عند الفراغ من الحساب ﴿ مستبشرة ﴾ أي فرحة بما نالته من الثواب الجزيل وكرامة الله ورضوانه .

ثم لما فرغ سبحانه من ذكر حال المؤمنين ذكر حال الكفار فقال ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ أي غبار وكدورة لما تراه مما أعده الله لها من العذاب ﴿ ترهقها قترة ﴾ أي يغشاها ويعلوها سواد وكسوف ، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه ، والقتر في كلام العرب الغبار كذا قال أبو عبيدة ، ويدفع ما قاله أبو عبيدة تقدم ذكر الغبرة فانها واحدة الغبار ، وقال زيد

(١) رواه بنحوه الطبري ٦١/٣٠ من رواية الحسين بن حريث عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح عن أنس ، ورواه ابن أبي حاتم من رواية أزهر بن حاتم عن الفضل بن موسى عن عائذ بن شريح به ، وعائذ بن شريح ، قال أبو حاتم الرازي في «الجرح والتعديل» : في حديثه ضعف . وروى الترمذي في «سننه» ١٦٨/٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «تحشرون حفاة عراة غرلاً» فقالت امرأة : أيبصر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟! قال : يا فلانة ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، قد روي من غير وجه عن ابن عباس . وروى مسلم في «صحيح» ٢١٩٤/٤ عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً (غير محتونين) قلت : يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض» .

بن أسلم القترة ما ارتفعت الى السماء والغبرة ما انحطت الى الأرض ، قال ابن عباس : ذلة وشدة وعنه أنه قال قترة سواد الوجه .

﴿ أولئك ﴾ يعني أصحاب الوجوه وأهل هذه الحالة ﴿ هم الكفرة الفجرة ﴾ جمع كافر وفاجر أي الجامعون بين الكفر بالله والفجور ، ولذلك جمع الى سواد وجوههم الغبرة كما جمعوا الفجور الى الكفر ، يقال فجر أي فسق ، وفجر أي كذب ، وبابهما دخل ، وأصله الميل ، والفاجر المائل عن الحق .

سورة التكوير

تسع وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن عائشة وابن الزبير مثله .

وعن ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر الك يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت . وإذا السماء انفطرت . وإذا السماء انشقت ﴾ » أخرجه الترمذي وحسنه وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه^(١) .

قال الكازروني : مناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر بعض أحوال القيامة فيما قبلها أردفه ببعض أحوالها الآخر .

(١) أخرجه أحمد في «المسند» رقم ٤٨١٦ و ٤٩٣٤ و ٤٩٤١ و ٥٧٥٥ وإسناده صحيح ، والترمذي ١٦٨/٢ ، والحاكم ٥١٥/٢ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وأورده السيوطي في «الدر» ٣١٩/٦ وزاد نسبه لابن المنذر وابن مردويه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ﴿٩﴾

﴿ إذا الشمس كورت ﴾ أي أظلمت ، قاله ابن عباس ، ارتفاع الشمس بفعل محذوف يفسره ما بعده على الاشتغال ، وهذا عند البصريين ، وأعرب الزمخشري الشمس فاعلاً لفعل مقدر يدل عليه كورت ، ومنع أن يرتفع بالإبتداء لأن « إذا » تطلب الفعل لما فيها من معنى الشرط ، وما منعه من وقوع المبتدأ بعدها أجازته الأخفش والكوفيون ، وأجازوا إذا زيد أكرمك فأكرمه ، ولكن الأولى ما ذكره .

والتكوير الجمع وهو مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها قال الزجاج لفت كما تلف العمامة يقال كورت العمامة على رأسي أكورها كوراً وكورتها تكويراً إذا لففتها .

قال أبو عبيدة كورت مثل تكوير العمامة تلف فتجمع ، قال الربيع بن خثيم كورت أي رمى بها ومنه كورته فتكور أي سقط قال مقاتل وقتادة والكلبي ذهب ضوءها ، وقال مجاهد اضمحلت وقيل غورت .

قال الواحدي قال المفسرون تجمع الشمس بعضها إلى بعض ثم تلف فيرمى بها . فالحاصل أن التكوير إما بمعنى لف جرمها أو لف ضوءها أو الرمي بها ، والمعنى طويت كطي السجل .

عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « الشمس والقمر

يكوران يوم القيامة» أخرجه^(١) البخاري ، قيل أنها جمادان فالقائهما في النار يكون سبباً لازدياد الحر في جهنم ، وإذا ظرف في هذه المواضع الاثنى عشر وجوابها ﴿ علمت نفس ﴾ كما سيأتي .

﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أي تهافت وتساقطت وانقضت وتناثرت ، يقال انكدر الطائر من الهوى إذا انقض ، والأصل في الانكدار الانصباب . قال الخليل يقال انكدر عليهم القوم إذا جاؤوا أرسالاً فانصبوا عليهم ، قال أبو عبيدة انصبت كما ينصب العقاب ، قال الكلبي وعطاء تمطر السماء يومئذ نجوماً فلا يبقى نجم في السماء إلا وقع على الأرض وقيل انكدارها طمس نورها ، وقال ابن عباس تغيرت .

وعن أبي مريم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « كورت في جهنم وانكدرت في جهنم فكل من عبد دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى وأمه ولو رضيا أن يعبدا ، لدخلاها » أخرجه ابن أبي حاتم والديلمي .

﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أي قلعت عن وجه الأرض وأبعدت ورفعت عن مكانها بعد تفتيتها وسيرت في الهواء سير السحاب ، ومنه قوله ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ .

﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ العشار النوق الحوامل التي في بطونها أولادها ، الواحدة عشاء وهي التي قد أتى عليها في الحمل عشرة أشهر ، ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع ، وخص العشار لأنها أنفس مال عند العرب وأعزه عندهم . ومعنى عطلت تركت هملاً بلا راع وبلا حلب ، قال أبي بن كعب أي أهملها أهلها ، وذلك لما شاهدوا من الهول العظيم ، أو لاشتغالهم بأنفسهم .

قيل وهذا على وجه المثل لأن يوم القيامة لا يكون فيه ناقة عشاء . بل

(١) وقد ورد في حديث مرفوع أخرجه الطماوي واسناده صحيح .

المراد أنه لو كان للرجل ناقة عشراء في ذلك اليوم أو نوق عشار لتركها ولم يلتفت إليها اشتغالاً بما هو فيه من هول يوم القيامة ، وسيأتي ما يفيد أن هذا في الدنيا .

وقيل العشار السحاب فإن العرب تشبها بالحامل ، ومنه قوله تعالى ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ وتعطيها عدم إبطائها ، وقيل المراد أن الديار تعطل فلا تسكن ، وقيل الأرض التي تعشر زرعها تعطل فلا تزرع ، قرأ الجمهور عطلت بالتشديد وقرأ ابن كثير في رواية عنه بالتخفيف .

﴿ وإذا الوحوش ﴾ أي ما توحش من دواب البر ﴿ حشرت ﴾ قرأ الجمهور بالتخفيف ، وقرأ بالتشديد أي بعثت وجمعت بعد البعث من كل ناحية حتى يقتص بعضها من بعض ، فيقتص للجما من القرناء .

قال قتادة يحشر كل شيء حتى الذباب للقصاص ، فإذا اقتص منها ردت تراباً فلا يبقى منها إلا ما فيه سرور لبني آدم وإعجاب بصورته كالطاووس ونحوه .

وقيل حشرها موتها وقيل أنها مع نفرتها اليوم من الناس وتبدها في الصحاري تضم ذلك اليوم إليهم ، قال أبي بن كعب حشرت اختلطت .

قال الشهاب في ريجانة الألباء : وههنا أمر نفيس نمحو به السيئات وبحث عظيم نحوي به عظام الرفات وهو أن الحيوانات هل يحييها الله تعالى وتحشر ويقتص لبعضها من بعض ؟ فأكثر أهل الحديث والسنة والأصول على أنه كذلك لوروده في القرآن في قوله تعالى ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ ولقول سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم في خبر القصاص يوم القيامة يؤخذ للجما من القرناء .

وخالفهم أبو الحسن الأشعري فقال في كتاب الإيجاز ما نصه لا يجب على الله أن يعوض البهائم والأطفال والمجانين وجميع الخلق الذين خلق فيهم الألم خلافاً للقدرية حيث قالوا إن الله تعالى إذا ألم الحيوان لا على سبيل

الإستحقاق ويجب عليه أن يعوضهم وإلا يكون ظالماً .

ودليلنا أن العقل لا يوجب على الله شيئاً ، وإذا ثبت أن البهائم وغيرها من الحيوان الذي خلق فيه الألم من غير جرم ولا ذنب لا يستحقون ذلك لم تجب إعادتهم ولا نشرهم ولا حشرهم يوم القيامة .

وقال القدرية إن لم يعوضهم في الدنيا فإنه يجب عليه حشرهم في الآخرة وبعثهم كبعث المكلفين .

فإن قالوا قد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خبر القصاص « حتى يؤخذ للجما من القرناء » .

قلنا المراد به حتى يؤخذ للضعيف من القوي ، فكفى بذلك عنهم لأن الدليل قد قام على أنهم غير مكلفين ، ومن لا تكليف عليه لا يعاقب ولا يقتص منه انتهى .

وفي سراج الملوك اختلف السلف في هذا فقال ابن عباس حشرها موتها ، وهو تأويل بعيد لأن الحشر الجمع ، وليس في موتها جمعها ، بل تفريقها بتمزيقها ، ومعظم المفسرين على أنها تحشر كلها حتى الذباب يقتص منها ثم يقال لها كوني تراباً .

وقال بعضهم لا نقطع باعادتها كالمجانين ومن لم تبلغه الدعوة ، وتوقف بعضهم في ذلك والدليل عليه الآية المذكورة والحديث الصحيح عن أبي هريرة « ليؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » وانكرها الأشعري لأنها غير مكلفة والخبر تمثيل لشدة التقصي في الحساب .

وقال الأسفراييني يقتص منها بما تفعله في الدنيا ، ورد بأنها ليست بمكلفة فهي في المشيئة يفعل بها ما أراد انتهى .

أقول قد تصل بهذا التفصيل الوقوف على الأقوال الأربعة وأدلتها ،
والحق الذي تشتفي به الصدور أن لا تؤول الآية والحديث بما هو خلاف
الظاهر ، والشبهة الداعية له بأنها غير عاقلة ولا مكلفة ، والحشر والحساب
مبني على ذلك ، فإذا سقط الأساس سقط ما بني عليه .

فالجواب عنها أن نسلم أنها غير مكلفة لأنها لا تعقل ، والنزاع فيه
مكابرة إلا أنها لما كانت في المشيئة يفعل الله بها ما يريد ، وهو لا يسأل عما
يفعل باتفاق أهل السنة بل العقلاء فنقول إن الله تعالى يعيدها وينصف بعضها
من بعض بما فعلته بإرداتها لإدراكها للجزئيات ، وليس هذا بتكليف ولا مبني
عليه ، لأن جزاء التكليف إنما يكون في داري الخلود والنار وهي تعود تراباً
قبل دخول أهليهما فيهما .

وأما فعل الحكيم القدير لذلك فليعرف أهل المحشر أنه عز وجل لا
يترك مثقال ذرة من العدل ، ليتحقق أهل النعيم ما لهم من النعيم المقيم وأهل
الجهيم ما أعد لهم من العذاب الأليم تنويراً لهم وإرشاداً لأن يعلموا عظمة
كبريائه ، وتساوي جمع مخلوقاته عنده بالنسبة لذلك .

ولك أن تقول قول ابن عباس حشرها موتها معناه أن حشرها لأجل أن
يفنيها ويقول لها كوني تراباً ، ولولا بعد كلام الأشعري بتصريحه بما ينافيه حملنا
أنه تمثيل على ما ذكر ، أو قلنا أنه إنما أنكر الوجوب ، ولكن الحق أحق أن
يتبع ، وهذا مما ينبغي أن يكتب بالنور ، على صفحات خدود الحور ، وإنما
ذكرنا هذا مع طوله وعدم مناسبته لموضوع التفسير تصديقاً على من طالعه
بجواهر الفرائد .

﴿ وإذا البحار سجرت ﴾^(١) أي أوقدت فصارت ناراً تضطرم وقال الفراء

(١) في هذه الآية عجيبة قرآنية تقطع السنة الملحدون الذين يقولون إن القرآن من عند محمد ، من أين
لمحمد أو لعصر محمد ما في هذه الآية من علوم لم يعرفها العالم إلا في العصر الحديث .
لم يكن عصر محمد يعرف في البحار إلا الري والإنبات ، أما أن البحار تنقلب ناراً فهذا ما لم يخطر لهم =

ملئت بأن صارت بحراً واحداً وكثر مأوها وبه قال الربيع بن خيثم والكلبي ومقاتل والحسن والضحاك ، وقيل أرسل عذبا على مالها ، ومالها على عذبا حتى امتلأت . وقيل فجرت فصارت بحراً واحداً وروي عن قتادة وابن حبان أن معنى الآية ييست ولا يبقى فيها قطرة يقال سجرت الحوض أسجره سجراً إذا ملأته ، وقال القشيري هو من سجرت التنور أسجره سجراً إذا أحميته .

قال ابن زيد وعطية وسفيان ووهب وغيرهم أوقدت فصارت ناراً ، وقيل معنى سجرت أنها صارت حمراء كالدم من قولهم عين سجراء أي حمراء .

قرأ الجمهور سجّرت بتشديد الجيم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بتخفيفها عن أبي العالية قال ست من آيات هذه السورة في الدنيا والناس ينظرون إليها ، وست في الآخرة ﴿ إذا الشمس كورت - إلى - وإذا البحار سجرت ﴾ هذه في الدنيا والناس ينظرون إليها ، ﴿ وإذا النفوس زوجت - إلى - وإذا الجنة أزلفت ﴾ هذه في الآخرة أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر .

وعن أبي بن كعب قال ست آيات قيل يوم القيامة بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، وفزع الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطيور والوحوش ، فماجوا بعضهم في بعض .

وقال أيضاً في الآية قال الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر ، فإذا هو نار تأجج فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة

ببال . وإليك كلمة لأستاذ جامعي .

ونرى كذلك أن المعامل الطبيعية والكيميائية أثبتت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق فيما بلغه من كتاب الله ، ذلك أن قوله تعالى ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ معناه التهب وصارت ناراً . والبحوث العلمية أثبتت أن الماء مكون من عنصرين : أكسوجين وهيدروجين ، وأن الهيدروجين يشتعل . والأكسوجين يساعد على الاشتعال . فإذا فصلت القدرة بين عنصري الماء تحولت البحار إلى نيران . وهذا دليل جديد على صدق القرآن . الناشر .

إلى الأرض السابعة وإلى السماء السابعة فبينما هم كذلك إذ جاءتهم ريد فأماتتهم ، وقال ابن عباس : تسجر حتى تصير ناراً ، وقال أيضاً سجرت أي اختلط ماؤها بماء الأرض .

﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أي قرنت بأجسادها أي ردت الأرواح إلى أبدانها ، وهذا بناء على ان التزويد بمعنى جعل الشيء زوجاً ، والنفوس على هذا بمعنى الأرواح وقيل معناه قرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح في الجنة ، وقرن بين الرجل السوء مع رجل السوء في النار كذلك تزويد الأنفس ، قاله عمر بن الخطاب ، وأخرج نحوه ابن مردويه عن النعمان بن بشير مرفوعاً .

وقال عطاء زوجت نفوس المؤمنين بالخور العين ، وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين ، وقيل قرن كل شكل إلى شكله في العمل ، وهو راجع إلى القول الثاني .

وقيل قرن كل رجل إلى من كان يلازمه من ملك أو سلطان كما في قوله ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وقال الحسن ألحق كل امرئ بشيعته ، اليهود باليهود والنصارى بالنصارى والمجوس بالمجوس ، وكل من كان يعبد شيئاً من دون الله يلحق بعضهم ببعض ، والمنافقون بالمنافقين والمؤمنون بالمؤمنين .

وقيل يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان ، ويقرن المطيع بمن دعاه إلى الطاعة من الأنبياء والمؤمنين .

وقيل قرنت النفوس بأعمالها وكتبها فأصحاب اليمين زوج . وأصحاب الشمال زوج ، والسابقون زوج ﴿ وإذا المؤؤودة ﴾ أي المدفونة حية ﴿ سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ وقد كانت العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية مخافة العار أو الحاجة والإملاق ، وخشية الاسترقاق ، يقال وأد يئد فهو وائد والمفعول به مؤؤود ، وأصله مأخوذ من الثقل لأنها تدفن فيطرح عليها التراب

فيثقلها فتموت ، ومنه ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله وهنا قول متمم بن نويرة * ومؤودة مقبورة في مغارة * ومنه قول الراجز :
سميتها إذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن رميت
قرأ الجمهور « المؤودة » بهمزة بين واوين ساكنين كالمؤودة ، وقرأ البزي في رواية عنه بهمزة مضمومة ثم واو ساكنة ، وقرأ الأعمش المؤدة بزنة الموزة ، وقرأ الجمهور سئلت مبنياً للمفعول ، وقرأ الحسن بكسر السين من سال يسيل ، وقرأ علي وابن مسعود وابن عباس سألت مبنياً للفاعل ، وقتلت بضم التاء الأخيرة ، وهذه قراءة شاذة .

والمعنى على الأولى أن توجيه السؤال إليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كأنه لا يستحق أن يخاطب ويسأل عن ذلك ، وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد بصرف الخطاب كقوله ﴿ أنت قلت للناس ﴾ وهذه الطريقة أفضع في ظهور جناية القاتل وإلزام الحجة عليه .

قال الحسن أراد الله أن يوبخ قاتلها لأنها قتلت بغير ذنب ، وقيل لتدل على قاتلها وقيل لتقول بلا ذنب قتلت ، وعلى هذا هو سؤال تلطف .

وقرأ الجمهور قتلت بالتخفيف مبنياً للمفعول ، وقرأ أبو جعفر بالتشديد على التكثير وقرئ بكسر التاء الثانية على أنها تاء المؤنثة المخاطبة والفعل مبني للمفعول ، وهذه قراءة شاذة وفي مصحف أبي وإذا المؤودة سألت بأي ذنب قتلتني .

وفي الآية دليل على أن أطفال المشركين لا يعذبون ، وعلى أن التعذيب لا يكون بلا ذنب .

عن عمر بن الخطاب قال « جاء قيس بن عاصم التميمي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني وأدت ثمان بنات لي في الجاهلية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأعتق عن كل واحدة رقبة ، قال إني : صاحب إبل قال : فاهد عن كل واحدة بدنة » أخرجه البزار والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه .

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ
 أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالْخَشْرِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ
 إِذَا عَسَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا انْفَسَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ
 مَكِينٍ ﴿٢٠﴾

﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أي صحائف الأعمال ﴿ نشرت ﴾ أي فتحت وبسطت للحساب لأنها تطوى عند الموت وتنشر عند الحساب ، فيقف كل إنسان على صحيفته فيعلم ما فيها فيقول ﴿ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ ويجوز أن يراد نشرت بين أصحابها أي فرقت بينهم ، قرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو نشرت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير وهما سبعيتان .

﴿ وإذا السماء كُشِطَتْ ﴾ أي أزيلت عن أماكنها وعدمت بالمرة ، والكشط قلع عن شدة التراق ، فالسما تكشط كما يكشط الجلد عن الكرش ، والقشط بالقاف لغة في الكشط وهي قراءة ابن مسعود ، قال الزجاج : قلعت كما يقلع السقف ، وقال الفراء : نزعت فطويت ، وقال مقاتل كشفت عما فيها ، قال الواحدي ومعنى الكشط رفعك شيئاً عن شيء قد غطاه .

﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أي أججت وأوقدت لأعداء الله إيقاداً شديداً ، وزيد في إحماها قرأ الجمهور سعرت بالتخفيف ، وقرأ نافع وابن ذكوان وورش بالتشديد لأنها أوقدت مرة بعد مرة وهما سبعيتان ، قال قتادة سعرها غضب الله وخطايا بني آدم .

﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي قربت إلى المتقين وأدنت منهم ليدخلوها ، قال الحسن إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها ، وقال ابن زيد معنى أزلفت تزينت ، والأول أولى لأن الزلفى القرب في كلام العرب .

قيل هذه الأمور الإثنا عشر ست منها في الدنيا وهي من أول السورة إلى قوله ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ ﴾ وست في الآخرة هي ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ إلى هنا وقد سبق بيانها .

وجواب الجميع قوله ﴿ عَلِمْتَ نَفْسَ مَا أَحْضَرْتَ ﴾ على أن المراد الزمان الممتد من الدنيا إلى الآخرة لكن لا بمعنى أنها تعلم ما تعلم في كل جزء من أجزاء هذا الوقت الممتد أو عند وقوع كل داهية من تلك الدواهي ، بل المراد علمت ما أحضرته عند نشر الصحف أو في موقف المحاسبة أو عند الميزان إلا أنه لما كان بعض تلك الدواهي من مبادئه وبعضها من روافده نسب علمها بذلك إلى زمان وقوع كلها تهويلاً للخطب ، وتفظيلاً للحال .

والمراد بما أحضرت أعمالها من الخير والشر وبحضورها حضور صحائف الأعمال لأن الأعمال أعراض لا يمكن إحضارها أو حضور الأعمال نفسها ، كما ورد أن الأعمال تصور بصور تدل عليها ، وتعرف بها ، وتنكير نفس المفيد لثبوت العلم المذكور لفرد من النفوس أي لبعض منها للإيذان بأن ثبوته لجميع أفرادها من الظهور والوضوح بحيث لا يخفى على أحد ، ويدل على هذا قوله :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ وقيل يجوز أن يكون ذلك للإشعار بأنه إذا علمت حينئذ نفس من النفوس ما أحضرت وجب على كل نفس إصلاح عملها مخافة أن تكون هي تلك التي علمت ما أحضرت ، فكيف وكل نفس تعلمه على طريقة قولك لمن تنصحه « لعلك ستندم على ما فعلت ، وربما ندم الإنسان على فعله » .

﴿ فَلَا أَقْسَمُ ﴾ لا زائدة كما تقدم تحقيقه وتحقيق ما فيه من الأقوال في أول سورة القيامة أي فأقسم ﴿ بِالْخَنَسِ ﴾ وهي الكواكب ، وسميت الخنس من خنس إذا تأخر لأنها تخنس بالنهار فتخفى ولا ترى وهي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد كما ذكره أهل التفسير ، ووجه تخصيصها بالذكر من

بين سائر النجوم أنها تستقبل الشمس وتقطع المجرة .

وقال في الصحاح الخنس الكواكب كلها لأنها تخنس في المغيب أو لأنها تخفى نهاراً أو يقال هي الكواكب السيارة منها دون الثابتة .

قال الفراء إنها الكواكب الخمس المذكورة لأنها تخنس في مجراها وتكنس أي تستتر كما تكنس الأطباء في المغار ، وقيل سميت خنساً لتأخرها لأنها الكواكب المتحيرة التي ترجع وتستقيم ، يقال خنس عنه يخنس خنوساً إذا تأخر وأخنسه غيره إذا خلفه ومضى عنه والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة .

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : هي الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى ، وعنه قال خمسة أنجم زحل وعطارد والمشتري وبهرام والزهرة ليس شيء يقطع المجرة غيرها .

وعن ابن عباس قال : هي النجوم السبعة وزاد الشمس والقمر وخنوسها رجوعها وكنوسها تغييها بالنهار .

﴿ الجوار ﴾ أي السيارة لأنها تجري مع الشمس والقمر ﴿ الكنس ﴾ أي أنها ترجع حتى تخفى تحت ضوء الشمس فخنوسها رجوعها وكنوسها اختفاؤها تحت ضوءها وقيل خنوسها خفاؤها بالنهار وكنوسها غروبها ، قال الحسن وقتادة هي النجوم التي تخنس بالنهار وإذا غربت ، والمعنى متقارب لأنها تتأخر في النهار عن البصر لخفائها فلا ترى وتظهر بالليل وتكنس في وقت غروبها .

وقيل المراد بها بقر الوحش وبه قال ابن مسعود : لأنها تتصف بالخنس وبالجواري وبالكنس ، وقال عكرمة : اخنس البقر والكنس الأطباء فهي تخنس إذا رأت الإنسان وتنقبض وتتأخر وتدخل كناسها ، وقيل هي الملائكة والأول أولى لذكر الليل والصبح بعد هذا .

والكنس مأخوذ من الكناس الذي يختفي فيه الوحش ، والخنس جمع خانس وخانسة ، والكنس جمع كناس وكانسة .

وقال ابن عباس هي البقرة تكنس إلى الظل ، وعنه قال تكنس لأنفسها في أصول الشجر تتوارى فيه ، وعنه قال هي الطباء وعنه الخنس البقر ، والجوار الكنس الطباء ، ألم ترها إذا كانت في الظل كيف تكنس بأعناقها ومدت نظرها .

وعن أبي العديس قال : « كنا عند عمر بن الخطاب فأتاه رجل فقال يا أمير المؤمنين ما الجواري الكنس فطعن عمر بمخصرة معه في عمامة الرجل فألقاها عن رأسه فقال عمر: أحروري ؟ والذي نفس عمر بن الخطاب بيده لو وجدتكم مخلوقاً لأنحيت القمل عن رأسك » أخرجه الحاكم في الكنى ، وهذا منكر ، فإن الحرورية لم يكونوا في زمن عمر رضي الله عنه ولا كان لهم في ذلك الوقت ذكر .

﴿ والليل إذا عسعس ﴾ أي أقبل بظلامه أو أدبر ، قال أهل اللغة : هو من الأضداد . يقال عسعس الليل إذا أقبل ، وعسعس إذا أدبر ، ويدل على أن المراد هنا أدبر قوله الآتي ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ قال الفراء : أجمع المفسرون على أن معنى عسعس أدبر كذا حكاه عنه الجوهري ، وقال الحسن : أقبل ظلامه ، قال الفراء العرب تقول عسعس الليل إذا أقبل وإذا أدبر .

وهذا لا ينافي ما تقدم عنه لأنه حكى عن المفسرين أنهم أجمعوا على حمل معناه في هذه الآية على أدبر ، وإن كان في الأصل مشتركاً بين الإقبال والادبار ، قال المبرد هو من الأضداد ، قال والمعنيان يرجعان إلى شيء واحد وهو ابتداء الظلام في أوله وإدباره في آخره ، قال ابن عباس عسعس أدبر وعنه قال إقبال سواده .

﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي امتد حتى يصير نهراً بيناً ، والتنفس في الأصل خروج النسيم من الجوف ، وتنفس الصبح إقباله لأنه يقبل بروح ونسيم ، فجعل ذلك تنفساً له مجازاً أو شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذي حبس بحيث لا يتحرك فإذا تنفس وجد راحة ، وههنا لما طلع الصبح

فكانه تخلص من ذلك الحزن فعبّر عنه بالتنفس .

قال الواحدي تنفس أي امتد ضوؤه حتى يصير نهاراً ومنه يقال للنهار إذا زاد تنفس ، وقيل المعنى إذا انشق وانفلق ومنه تنفست القوس أي تصدعت قال ابن عباس إذا تنفس إذا بدا النهار حين طلوع الفجر .

قال الشهاب مناسبة لقرينه ظاهرة على التفسيرين لأن ما قبله إن كان للإقبال فهو أول الليل وهذا أول النهار ، وإن كان للإدبار فهذا ملاصق له فينبغي مناسبة الجوار فلا وجه لما قيل من أنه على الأول أنسب انتهى .

ثم ذكر سبحانه جواب القسم فقال ﴿ إنه ﴾ أي القرآن ﴿ لقول رسول كريم ﴾ على الله تعالى يعني جبريل وبه قال ابن عباس لكونه نزل به من جهة الله سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأضاف القول إلى جبريل لكونه مرسلاً به وقيل المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والأول أولى .

ثم وصف الرسول المذكور بأوصاف محمودة فقال ﴿ ذي قوة عند ذي العرش مكين ﴾ أي ذي قوة شديدة في القيام بما كلف به كما في قوله ﴿ شديد القوى ﴾ ومن قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط الأربع من الماء الأسود وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء ثم قلبها ، وأنه صاح صيحة بشمود فأصبحوا جاثمين ، وأنه يهبط من السماء إلى الأرض ثم يصعد في أسرع من رد الطرف .

والمعنى أنه ذو رفعة عالية ومكانة مكيمة عند الله سبحانه ، وهو في محل نصب على الحال من مكين ، وأصله الوصف فلما قدم صار حالاً ، ويجوز أن يكون نعتاً لرسول يقال مكن فلان عند فلان مكانة أي صار ذا منزلة عنده ومكانة قال أبو صالح من مكانته عند ذي العرش أنه يدخل سبعين سرادقاً بغير إذن .

مُطَاعٌ ثُمَّ أَمِينٌ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ
بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾
لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

ومعنى قوله ﴿مطاع﴾ أنه مطاع بين الملائكة يرجعون إليه ويطيعونه ومن طاعتهم له أنهم فتحوا أبواب السموات ليلة المعراج بقوله لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفتح خزنة الجنة أبوابها بقوله .

قال الحسن فرض الله على أهل السموات طاعة جبريل كما فرض على أهل الأرض طاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ثم أمين﴾ قرأ الجمهور بفتح ثم على أنها ظرف مكان للبعيد ، والعامل فيه مطاع أو ما بعد ، والمعنى أنه مطاع في السموات أو أمين فيها أي مؤتمن على الوحي وغيره .

وقرىء بضمها على أنها عاطفة وكأن العطف بها للتراخي في الرتبة لأن ما بعدها أعظم مما قبلها ومن قال أن المراد بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالمعنى أنه ذو قوة على تبليغ الرسالة إلى الأمة ، مطاع يطيعه من أطاع الله ، أمين على الوحي .

﴿وما صاحبكم بمجنون﴾ الخطاب لأهل مكة والمراد بصاحبكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى وما محمد يا أهل مكة بمجنون ، وذكره بوصف الصحبة للاشعار بأنهم عالمون بأمره ، وأنه ليس مما يرمونه به من الجنون وغيره في شيء ، وأنهم افترضوا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم .

وهذه الجملة داخلة في جواب القسم فأقسم سبحانه بأن القرآن نزل به جبريل وأن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليس كما يقولون من أنه مجنون ، وأنه يأتي بالقرآن من جهة نفسه .

والمقصود^(١) رد قولهم ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جَنَّةٌ﴾ لا تعداد فضلها والموازنة بينهما .

ثم إنك إذا أمعنت النظر وقفت على أن إجراء تلك الصفات على جبريل في هذا المقام إدماج لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه بلغ من المكانة وعلو المنزلة عند ذي العرش بأن جعل السفير بينه وبينه مثل هذا الملك المقرب المطاع الأمين ، فالقول في هذه الصفات بالنسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفعة منزلة له كالقول في قوله ذي العرش بالنسبة إلى رفعة منزلة جبريل عليه السلام ، كذا ذكره الكرخي .

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي وتالله لقد رأى محمد صلى الله عليه وآله وسلم جبريل بمطلع الشمس من قبل المشرق ، لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين ، لأن من جهته ترى الأشياء وهذه الرؤية هي الواقعة في غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض ، وقيل الأفق المبين اقطار السماء ونواحيها .

وإنما قال سبحانه ذلك مع أنه قد رآه غير مرة لانه رآه هذه المرة في صورته له ستمائة جناح .

قال سفيان : إنه رآه في أفق السماء الشرقي أي لانه كان في المشرق من حيث تطلع الشمس ، وقال ابن بحر في أفق السماء الغربي ، وقال مجاهد : رآه نحو أجياد وهو مشرق مكة ، والمبين صفة للأفق ، قاله الربيع : وقيل صفة لمن رآه قاله مجاهد .

وقيل معنى الآية ولقد رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل ، وقد تقدم القول في هذا في سورة النجم .

(١) جواب سؤال تقريره أن بعضهم استدل بالآية على فضل جبريل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيث عد فضائل جبريل واقتصر على نفي الجنون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأجاب المؤلف العلامة عن هذا بقوله والمقصود رد قولهم الخ أه السيد ذو الفقار .

قال ابن عباس في الآية انما عنى جبريل أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رآه في صورته عند سدره المنتهى ، والافق المبين السماء السابعة .

﴿ وما هو ﴾ أي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ على الغيب ﴾ يعني خبر السماء وما اطلع عليه مما كان غائباً علمه عن أهل مكة ﴿ بظنين ﴾ أي بمتهم أي هو ثقة فيم يؤدي عن الله سبحانه ، وقيل بظنين بالضاد أي ببيخل ، قاله ابن عباس أي لا يبخل بالوحي ولا يقصر في التبليغ .

وسبب هذا الاختلاف اختلاف القراء فقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء أي بمتهم والظنة التهمة واختارها أبو عبيد ، قال لأنهم لم يبخلوه ولكن كذبوه واتهموه .

وقرأ الباقر بالضاد من ضننت بالشيء أضن ضناً إذا بخلت ، قال مجاهد أي لا يضمن عليكم بما يعلم بل يعلم الخلق كلام الله وأحكامه ، وقيل المراد جبريل انه ليس على الغيب بظنين والاول أولى .

وقرأ ابن مسعود بالظاء بمعنى متهم .

وعن عائشة : « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأها بالظاء » أخرجه الدارقطني في الافراد والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب ، فإن البخل وما في معناه لا يتعدى بعلى وانما يتعدى بالباء ، .

﴿ وما هو ﴾ أي القرآن ﴿ بقول شيطان رجيم ﴾ طريد من الشياطين المسترقة للسمع المرجومة بالشهب ، قال الكلبي يقول أن القرآن ليس بشعر ولا كهانة كما قالت قريش كقوله ﴿ وماتزلت به الشياطين ﴾ قال عطاء يريد بالشیطان الشيطان الابيض الذي كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في صورة جبريل يريد أن يفتنه .

ثم بكتهم الله سبحانه ووبخهم فقال ﴿ فأين تذهبون ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ظهور انه وحي مبين ، وليس مما يقولون في شيء أي

ابن تعدلون عن هذا القرآن وعن طاعته ، قاله قتادة ، وقال الزجاج : معناه أي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي قد بينت لكم .

وهذا استضلال لهم كما يقال لتارك الجادة اعتسافاً أو ذهاباً في جنبات الطريق اين تذهب وإلى أين تذهب ، وحكى الفراء عن العرب ذهبت الشام وخرجت العراق وانطلقت السوق أي إليها قال سمعناه في هذه الاحرف الثلاثة يريد إلى أي أرض تذهب فحذف إلى .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين ، وتذكير لهم .

وقوله ﴿ لمن شاء منكم ﴾ بدل من العالمين باعادة الجار ومفعول المشيئة ﴿ أن يستقيم ﴾ أي لمن شاء منكم الاستقامة على الحق والإيمان والطاعة .

﴿ وما تشاؤون ﴾ الاستقامة ﴿ إلا أن ﴾ أي بأن ﴿ يشاء الله ﴾ تلك المشيئة فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه وانهم لا يقدرُونَ على ذلك إلا بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ وقوله ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ وقوله ﴿ انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ والآيات القرآنية في هذا المعنى كثير .

والخطاب هنا ليس للمخاطبين في قوله ﴿ فأين تذهبون ﴾ بل هو لمن عبر عنهم بقوله لمن شاء منكم أن يستقيم ﴿ رب العالمين ﴾ أي مالك الخلق أجمعين .

عن ابي هريرة قال « لما نزلت لمن شاء منكم أن يستقيم قالوا الأمر إلينا إن شئنا استقمنا وأن شئنا لم نستقم فهبط جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال كذبوا يا محمد ﴾ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه . »

سورة الإنفطار

هي تسع عشرة آية وهي مكية بلا خلاف وقال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله. وأخرج النسائي عن جابر قال : « قام معاذ فصلح العشاء فطول فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أفَتَانِ انت يا معاذ أين أنت عن سبح اسم ربك. والضحك . وإذا السماء انفطرت » وأصل الحديث في الصحيحين ولكن بدون ذكر إذا السماء انفطرت وقد تفرد بها النسائي . وقد تقدم في سورة التكويد حديث « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة رأى عين فليقرأ إذا الشمس كورت وإذا السماء انفطرت الحديث » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَغْرَكٌ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ
﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ السماء فاعل فعل محذوف يدل عليه المذكور ، قال الواحدي قال المفسرون انفطارها انشقاقها كقوله ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة تنزيلاً ﴾ والفطر الشق يقال فطرته فانفطر ، ومنه فطر ناب البعير اذا طلع ، قيل والمراد أنها انفطرت هنا لنزول الملائكة منها وقيل انفطرت لهيبة الله عز وجل .

﴿ واذا الكواكب انتثرت ﴾ اي اذا انقضت وتساقطت متفرقة ، يقال نثرت الشيء انثره نثراً ، والانتثار استعارة لازالة الكواكب حيث شبهت بجواهر قطع سلكها وهي مصرحة أو مكنية .

﴿ واذا البحار فجرت ﴾ أي فجر بعضها من أعلاها أو أسفلها في بعض فصارت بحراً واحداً واختلط العذب منها بالمالح ، وازال ما بينهما من البرزخ الحاجز ، وقال الحسن معنى فجرت ذهب ماؤها ويبست ، قال ابن عباس فجرت بعضها في بعض ، وقيل فاضت .

العمامة على بناء فجرت للمفعول مثقلاً ، وقرأ مجاهد مبنياً للفاعل مخففاً من الفجور نظراً الى قوله ﴿ بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ فلما زال البرزخ بغيًا ، وقرأ مجاهد أيضاً والربيع بن خيثم والزعفراني والثوري مبنياً للمفعول مخففاً .

﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أي قلب ترابها الذي أهيل على الأموات وقت الدفن ، وأخرج الموتى الذين هم فيها ، يقال بعثر يبعثر بعثرة اذا قلب التراب ، ويقال بعثر المتاع قلبه ظهراً لبطن وبعثرت الحوض وبعثرته اذا هدمته ، وجعلت أعلاه أسفله .

قال الفراء بعثرت أخرجت ما في بطنها من الذهب والفضة وذلك من أشرط الساعة أن تخرج الأرض ذهبها وفضتها ، وقال ابن عباس أي بحثت . وكررت « اذا » لتحويل ما في حيزها من الدواهي .

قال الرازي المراد من هذه الآيات أنه اذا وقعت هذه الأشياء التي هي أشرط الساعة فهناك يحصل الحشر والنشر ، وهي ههنا أربعة اثنان منها يتعلقان بالعلويات واثنان يتعلقان بالسفليات .

والمراد بهذه الآيات بيان تخريب العالم وفناء الدنيا وانقطاع التكاليف ، والسماء كالسقف ، والأرض كالبناء ، ومن أراد تخريب دار فانه يبدأ أولاً بتخريب السقف ثم يلزم من تخريب السماء انتشار الكواكب ، ثم بعد تخريب السماء والكواكب يخرب كل ما على وجه الأرض من البحار ، ثم بعد ذلك تخرب الأرض التي فيها الأموات ، وأشار لذلك بقوله ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾

ثم ذكر سبحانه الجواب عما تقدم فقال ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ والمعنى أنها علمته عند نشر الصحف لا عند البعث لأنه وقت واحد من عند البعث الى عند مصير أهل الجنة الى الجنة وأهل النار الى النار ، والكلام في افراد نفس هنا كما تقدم في السورة الأولى في قوله :

﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ ومعنى ما قدمت وأخرت ما قدمت من عمل خير أو شر أو أخرت من سنة حسنة أو سيئة لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة واجر من عمل بها ، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها .

وقال قتادة ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة ، وقيل ما قدم من فرض وآخر من فرض وقيل أول عمله وآخره .

وقيل أن النفس تعلم عند البعث بما قدمت وأخرت علماً إجمالاً لأن المطيع يرى آثار السعادة ، والعاصي يرى آثار الشقاوة ، وأما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند نشر الصحف .

عن ابن مسعود قال ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها بعده فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً أو سنة سيئة يعمل بها بعده فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئاً ، وعن ابن عباس نحوه .

وأخرج الحاكم وصححه عن حذيفة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم من استن خيراً فاستن به فله أجره ومثل أجور من اتبعه من غير منتقص من أجورهم ، ومن استن شراً فاستن به فعليه وزره ومثل أوزاره من اتبعه من غير منتقص من أوزارهم^(١) وتلا حذيفة ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ .

ولما أخبر سبحانه في الآية الأولى عن وقوع الحشر والنشر ذكر في هذه الآية ما يدل عقلاً على وقوعه فقال :

﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ هذا خطاب للكفار وقال بعضهم المراد بالانسان ما يشمل الكافر والمؤمن العاصي ، قال الشهاب وهذا أرجح كما في الكشف وغيره .

والمعنى ما الذي غرك وخدعك أو جعلك غاراً حتى كفرت بربك الكريم الذي تفضل عليك في الدنيا بإكمال خلقك وحواسك وجعلك عاقلاً فاهماً ورزقك وأنعم عليك بنعمه التي لا تقدر على جحد شيء منها ، قال قتادة غره شيطانه المسلط عليه ، وقال الحسن غره شيطانه الخبيث وقيل غره حمقه وجهله .

وقيل غره عفو الله اذ لم يعاجله بالعقوبة أول مرة كذا قال مقاتل ، وذكر الكريم للمبالغة في المنع من الاغترار ، فإن محض الكرم لا يقتضي اهمال الظالم وتسوية الموالي والمعادي والمطيع والعاصي ، فكيف اذا انضم اليه صفة القهر والانتقام والاشعار بما به يغره الشيطان فانه يقول له افعل ما شئت فربك كريم لا يعذب أحداً ولا يعاجل بالعقوبة ، والدلالة على أن كثرة كرمه تستدعي الجد في طاعته لا الانهماك في عصيانه إغتراراً بكرمه ، وعن عمر بن الخطاب أنه قرأ هذه الآية وقال : غره والله جهله .

﴿ الذي خلقك ﴾ من نطفة ولم تك شيئاً ﴿ فسواك ﴾ رجلاً تسمع وتبصر وتعقل ﴿ فعدلك ﴾ أي فجعلك معتدلاً قال عطاء جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة وقال مقاتل عدل خلقك في العينين والأذنين واليدين والرجلين ، والمعنى عدل بين ما خلق لك من الأعضاء .

قرأ الجمهور فعدلك مشدداً وقرىء بالتخفيف واختار الأولى أبو عبيد وأبو حاتم قال الفراء وأبو عبيد : يدل عليها قوله ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ ومعنى القراءة الأولى أنه سبحانه جعل أعضائه متعادلة لا تفاوت فيها ، ومعنى الثانية أنه صرفه وأماله الى أي صورة شاء إما حسناً وإما قبيحاً وإما طويلاً وإما قصيراً .

﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ في أي صورة متعلق بركبك وما مزيدة وشاء صفة لصورة أي ركبك في أي صورة شاءها ، ويجوز أن يتعلق بمحذوف على أنه حال أي ركبك حاصلًا في أي صورة .

ونقل أبو حيان عن بعض المفسرين أنه متعلق بعدلك ، واعترض عليه بأن أي لها صدر الكلام فلا يعمل فيها ما قبلها ، قال مقاتل والكلبي ومجاهد : في أي شبه من أب أو أم أو خال أو عم ، وقال مكحول ان شاء ذكراً وإن شاء أنثى .

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينٍ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر عن الاغترار بكرم الله وجعله ذريعة الى الكفر به والمعاصي له أو بمعنى حقاً ﴿ بل تكذبون بالدين ﴾ اضراب عن جملة مقدرة ينساق اليها الكلام كأنه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض وأنتم لا تردعون عن ذلك بل تجاوزونه الى ما هو أعظم منه من التكذيب بالدين وهو الجزاء أو بدين الاسلام .

قال ابن الانباري الوقف الجيد على الدين وعلى ركبك ، وعلى كلا قبيح ، والمعنى بل تكذبون يا أهل مكة بالدين أي بالحساب وبل لنفي شيء تقدم ، وتحقيق غيره ، وإنكار البعث قد كان معلوماً عندهم وإن لم يجر له ذكر .

قال الفراء كلا ليس الأمر كما غررت به ، قرأ الجمهور تكذبون بالفوقية على الخطاب ، وقرأ الحسن وأبو جعفر وشيبة بالتحية على الغيبة .

وجملة ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل تكذبون أي تكذبون والحال أن عليكم من يدفع تكذبيكم ، أو مستأنفة مسوقة لبيان ما يبطل تكذبيهم ، والحافظون الرقباء من الملائكة الذين يحفظون على العباد أعمالهم ويكتبونها في الصحف .

قال ابن عباس : جعل الله على ابن آدم حافظين في الليل والنهار يحفظان عمله ويكتبان أثره .

وهذا الخطاب وإن كان مشافهة إلا أن الأمة أجمعت على عموم هذا الخطاب في حق المكلفين .

وقوله تعالى حافظين جمع يحتمل أن يكونوا حافظين لجميع بني آدم من غير أن يختص واحد من الملائكة بواحد من بني آدم ، ويحتمل أن يكون الموكل بكل أحد منهم غير الموكل بالآخر ، ويحتمل أن يكون الموكل بكل واحد منهم جمعاً من الملائكة كما قيل إثنان بالليل وإثنان بالنهار أو كما قيل أنهم خمسة ، واختلفوا في الكفار هل عليهم حفظة فقيل لا ، لأن أمرهم ظاهر وعملهم واحد ، قال تعالى ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ وقيل عليهم حفظة وهو ظاهر قوله تعالى في هذه الآية وفي قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ فأخبر أن لهم كتاباً ، وأن عليهم حفظة .

ثم وصفهم سبحانه فقال ﴿ كراماً كاتبين ﴾ أي أنهم كرام لديه يكتبون ما يأمرهم به من أعمال العباد ﴿ يعلمون ﴾ على التجدد والاستقرار ﴿ ما تفعلون ﴾ في الآية دلالة على أن الشاهد لا يشهد إلا بعد العلم لوصف الملائكة بكونهم ﴿ حافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ فدل على أنهم يكونون عالمين بها حتى أنهم يكتبونها فاذا كتبوها يكونون عالمين عند أداء الشهادة .

قال الرازي المعنى التعجيب من حالهم كأنه قال إنكم تكذبون بيوم الدين وملائكة الله موكلون يكتبون أعمالكم حتى تحاسبوا بها يوم القيامة ونظيره قوله تعالى ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء وأنه عند الله من جلائل الأمور فيه انذار وتهويل للمجرمين ، ولطف للمتقين ، وعن الفضيل انه كان اذا قرأها قال ما أشدها من آية على الغافلين .

ثم بين سبحانه حال الفريقين فقال ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أي جنة

﴿ وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ أي نار ، والجملة مستأنفة لتقرير هذا المعنى الذي سيقى له وهي كقوله سبحانه ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

لفظ الفجار عائد على الكافرين الذين تقدم ذكرهم ، وليس شاملاً لعصاة المؤمنين ، لأننا لا نسلم أن مرتكب الكبيرة من المؤمنين فاجر على الإطلاق (فأل) في الفجار للعهد لا الذكرى بدليل قوله ﴿ بَلْ تَكْذِبُونَ بِالْدين ﴾ .

﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدين ﴾ صفة لجحيم أو مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما حالهم فقيل يصلونها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به ، ويجوز أن يكون في محل نصب على الحال من الضمير في متعلق الجار والمجرور ، ومعنى يصلونها أنهم يلزمونهم مقاسين لوهجها وحرها يومئذ .

قرأ الجمهور يصلونها مخففاً مبنياً للفاعل ، وقرئ بالتشديد مبنياً للمفعول .

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ أي لا يفارقونها أبداً ولا يغيبون عنها بل هم فيها وقيل المعنى وما كانوا غائبين عنها قبل ذلك بالكلية بل كانوا يجدون حرها في قبورهم .

ثم عظم سبحانه ذلك اليوم فقال ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدين ﴾ أي يوم الجزاء والحساب ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدين ﴾ كرره تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره وتهويلاً لأمره كما في قوله ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ و ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ والمعنى أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين قال الكلبي الخطاب للإنسان الكافر .

ثم أخبر سبحانه عن اليوم فقال ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس ﴿ لِنَفْسٍ ﴾ أخرى ﴿ شَيْئاً ﴾ من النفع والضرر ، وملك الشفاعة لبعض الناس إذ ذاك إنما هو بإذن الله ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ذكره الحفناوي .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو برفع يوم على أنه بدل من يوم الدين أو خبر مبتدأ محذوف .

وقرأ أبو عمرو في رواية عنه ﴿يوم﴾ بالتنوين والقطع عن الاضافة .
 وقرأ الباقر بفتحها على أنها فتحة إعراب بتقدير أعني أو أذكر فيكون مفعولاً
 به أو على أنها فتحة بناء لاضافته الى الجملة على رأي الكوفيين وهو في محل
 رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أو على أنه بدل من يوم الدين .

قال الزجاج يجوز ان يكون في موضع رفع إلا أنه بني على الفتح
 لاضافته الى قوله ﴿لا تملك﴾ وما أضيف الى غير المتمكن فقد يبنى على
 الفتح وإن كان في موضع رفع ، وهذا الذي ذكره إنما يجوز عند الخليل
 وسيبويه اذا كانت الاضافة الى الفعل الماضي وأما الى الفعل المستقبل فلا
 يجوز عندهما ، وقد وافق الزجاج على ذلك أبو علي الفارسي والفراء
 وغيرهما .

﴿والأمر يومئذ لله﴾ وحده لا يملك شيئاً من الأمر غيره كائناً من كان .
 قال مقاتل يعني لنفس كافرة شيئاً من المنفعة ، قال قتادة : ليس ثم أحد يقضي
 شيئاً أو يصنع شيئاً إلا الله رب العالمين ، والمعنى أن الله لا يملك أحداً في
 ذلك اليوم شيئاً من الأمور كما ملكهم في الدنيا ، ومثل هذا قوله ﴿لمن الملك
 اليوم ، لله الواحد القهار﴾ .

سورة المطففين

هي ست وثلاثون آية . قال القرطبي وهي مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل . ومدنية في قول الحسن وعكرمة . وقال مقاتل أيضا هي أول سورة نزلت بالمدينة . وقال ابن عباس وقتادة هي مدنية الا ثمان آيات من قوله : ﴿ ان الذين أجمعوا ﴾ الك آخرها . وقال الكلبي وجابر بن زيد نزلت بين مكة والمدينة . وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

وعن ابن عباس قال آخر ما نزل بمكة سورة المطففين . وعنه قال : « لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك » أخرجه ابن مردويه والبيهقي في الشعب . قال السيوطي: بسند صحيح^(١) .

(١) أخرجه ابن ماجة ٧٤٨/٢ ، والطبري ٩١/٣٠ ، والواحدي : ٣٣٣ ، وقال الحافظ في « تخرج الكشاف » ٢١٨ : رواه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٢٣/٦ وزاد نسبته إلى الطبراني وابن مردويه والبيهقي في « شعب الإيمان » بسند صحيح عن ابن عباس .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ
يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

﴿ويل للمطففين﴾ ويل مبتدأ ، وسوغ الابتداء به كونه دعاء ، ولو نصب لجاز ، قال مكي والمختار في ويل وشبهه اذا كان غير مضاف الرفع ، ويجوز النصب ، فان كان مضافاً أو معرفاً كان الاختيار فيه النصب كقوله ﴿ويلكم لا تفتروا﴾ والمطفف المنقص ، وحقيقته الأخذ في الكيل أو الوزن شيئاً طفيفاً أي نزراً خفيفاً حقيراً .

قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من الطفف وهو القليل ، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن .

قال الزجاج : إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف .

قال أبو عبيدة والمبرد : المطفف الذي يبخس في الكيل والوزن .
والمراد بالويل هنا شدة العذاب أو نفس العذاب أو الشر الشديد أو هو واد في جهنم .

قال الكلبي « قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وهم سيئون كيلهم ووزنهم لغيرهم ، ويستوفون لأنفسهم فنزلت هذه الآية » ^(١) .

وقال السدي قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وكان بها رجل

(١) قال الألوسي و « هم » ضمير مرفوع تأكيد للضمير المرفوع وهو الواو يعني في « كالوا » .

يقال له أبو جهينة ومعه صاعان ، يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر فأنزل الله هذه الآية .

قال الفراء : هم بعد نزول هذه الآية أحسن الناس كيلاً الى يومهم هذا .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما نقص قوم العهد إلا سلط الله عليهم العدو ، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين » وهذا الوعيد يلحق كل من يأخذ لنفسه زائداً أو يدفع الى غيره ناقصاً قليلاً أو كثيراً ، لكن ان لم يتب منه فإن تاب قبلت توبته ، ومن فعل ذلك وأصر عليه كان مصراً على كبيرة من الكبائر ، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون الى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن والزرع ، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن .

ثم بين سبحانه المطففين من هم فقال ﴿ الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون ﴾ الاكتيال الأخذ بالكيل ، قال الفراء يريد اکتالوا من الناس ، « وعلى » « ومن » في هذا الموضع يعتقبان ، يقال اکتلت منك أي استوفيت منك وتقول اکتلت عليك أي أخذت ما عليك ، قال الزجاج : اذا اکتالوا من الناس استوفوا عليهم الكيل .

قال الزمخشري : لما كان اکتيالهم اکتیالاً يضرهم ويتحامل فيه عليهم أبدل « على » مكان « من » للدلالة على ذلك ، ويجوز أن يتعلق بيستوفون ، « وقدّم المفعول على الفعل لافادة الخصوصية أي يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها قال السمين : وهو حسن .

ولم يذكر اتزنوا لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فأحدهما يدل على الآخر ، قال الواحدي قال المفسرون : يعني الذين إذا اشتروا لأنفسهم استوفوا في الكيل والوزن ، وإذا باعوا ووزنوا لغيرهم نقصوا وهو معنى قوله :

﴿ واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي كالوا لهم أو وزنوا لهم

فحذفت اللام فتعدى الفعل الى المفعول فهو من باب الحذف والايصال ، ومثله نصحتك ونصحت لك كذا قال الأخفش والكسائي والفراء .

وقال الفراء : سمعت أعرابية تقول اذا صدر الناس أتينا التاجر فيكيلنا المد والمدين الى الموسم المقبل ، قال وهو من كلام اهل الحجاز ومن جاورهم من قيس .

قال الزجاج : لا يجوز الوقف على كالوا حتى يوصل بالضمير ، ومن الناس من يجعله تأكيداً أي تأكيداً للضمير المستكن في الفعل فيجيز الوقف على كالوا أو وزنوا قال أبو عبيد : وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين ويقف على كالوا أو وزنوا ثم يقول هم يخسرون ، قال : وأحسب قراءة حمزة كذلك . قال ابو عبيد الاختيار أن يكونا كلمة واحدة من جهتين .

(إحداهما) الخط ولذلك كتبوهما بغير الف ولو كانتا مقطوعتين لكانتا كالوا أو وزنوا بالألف .

(والأخرى) انه يقال كلتك ووزنتك بمعنى كلت لك ووزنت لك وهو كلام عربي كما يقال صدتك وصدت لك وكسبتك وكسبت لك ، وشكرتك وشكرت لك ونحو ذلك ، وقيل هو على حذف المضاف وإقامة المضاف اليه مقامه ، والمضاف المكيل والموزون اي واذا كالوا مكيلهم أو وزنوا موزونهم ، ومعنى يخسرون ينقصون كقوله ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ والعرب تقول خسرت الميزان وأخسرته .

ثم خوفهم سبحانه فقال : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ مستأنفة مسوقة لتحويل ما فعلوه من التطفيف وتفضيحه وللتعجيب من حالهم في الاجترأ عليه ، والاشارة بأولئك الى المطففين وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد درجتهم في الشرارة والفساد .

والمعنى أنهم لا يخطرون ببالهم أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون

قيل والظن هنا بمعنى اليقين أي لا يوقن أولئك ولو أيقنوا ما نقصوا الكيل والوزن ، وقيل الظن على بابة والمعنى إن كانوا لا يستيقنون البعث فهلا ظنوه حتى يتدبروا فيه ويبحثوا عنه ، ويتركوا ما يخشون من عاقبته ويأخذوا بالأحوط .

﴿ ليوم عظيم ﴾ هو يوم القيامة ، ووصفه بالعظم لكونه زماناً لتلك الأمور العظام من البعث والحساب والعقاب ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

عن عبد الملك بن مروان أن أعرابياً قال له قد سمعت ما قال الله في المطففين ، أراد بذلك ان المطفف قد توجه عليه الوعيد العظيم الذي سمعت به ، فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ولا وزن .

ثم زجر عن ذلك اليوم فقال ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي يوم يقومون من قبورهم لأمر رب العالمين أو لجزائه أو لحسابه أو لحكمه وقضائه ، وفي وصف اليوم بالعظم مع قيام الناس لله خاضعين فيه ، ووصفه سبحانه بكونه رب العالمين دلالة على عظم ذنب التطفيف ومزيد إثمه وفظاعة عقابه ، وفيما كان مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وعطاء بل في كل قول وعمل وحال .

وقيل المراد بقوله يوم يقوم الناس قيامهم في رشحهم الى أنصاف آذانهم .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحه الى أنصاف آذنيه » (١)

وقيل المراد قيامهم بما عليهم من حقوق العباد ، وقيل المراد قيام الرسل بين يدي الله للقضاء ، والأول أولى .

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية « فكيف بكم اذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر اليكم » أخرجه الطبراني وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في البعث .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم يقوم الناس لرب العالمين بمقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة فيهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس الى الغروب الى أن تغرب ، أخرجه أبو يعلى وابن حبان وابن مردويه .

وعن ابن مسعود قال « إذا حشر الناس قاموا أربعين عاماً » أخرجه ابن أبي حاتم وأخرجه ابن مردويه من حديثه مرفوعاً .

وعن ابن عمر أنه قال : « يا رسول الله كم مقام الناس بين يدي رب العالمين يوم القيامة؟ قال ألف سنة لا يؤذن لهم » أخرجه الطبراني وعن ابن عمر أنه قرأ هذه السورة فلما بلغ هنا بكى نحيباً وامتنع عن قراءة ما بعدها .

﴿ كلا ﴾ هي للردع والزجر للمطففين الغافلين عن البعث وما بعده أو بمعنى حقاً . ثم استأنف فقال ﴿ إن كتاب الفجار ﴾ أظهر في موضع الاضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف ، يعني أن كتب اعمال الكفار ﴿ لفي سجين ﴾ وهو ما فسره به سبحانه من قوله :

﴿ وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ﴾ فأخبر بهذا أنه كتاب مرقوم أي مسطور ، قيل هو كتاب جامع لأعمال الشر الصادرة من الشياطين والكفرة والفسقة ، ولفظ سجين علم به .

وقال قتادة وسعيد بن جبير ومقاتل وكعب : أنه صخرة تحت الأرض السابعة تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها وبه قال مجاهد فيكون في الكلام على هذا القول مضاف محذوف ، والتقدير محل كتاب مرقوم ، وقال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج : لفي حبس وضيق شديد ، والمعنى كأنهم في حبس جعل ذلك دليلاً على خسارة منزلتهم وهوانهم .

كَلَّا إِنْ كُنْتَ الْفَجَّارِ لَفِي سَجِينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ ﴿٨﴾ كُنْتُ مَرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُتِلَى عَلَيْهِ
 ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ
 يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا
 إِنْ كُنْتَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلَيَيْنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُونَ ﴿١٩﴾ كُنْتُ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾

قال الواحدي ذكر قوم أن قوله ﴿كتاب مرقوم﴾ تفسير سجين وهو بعيد لأنه ليس السجين من الكتاب في شيء على ما حكيناه عن المفسرين ، والوجه أن يجعل بياناً لكتاب المذكور في قوله ﴿إن كتاب الفجار﴾ على تقدير هو كتاب مرقوم أي مكتوب قد بينت حروفه انتهى ، والأولى ما ذكرناه .

ويكون المعنى أن كتاب الفجار الذين من جملتهم المطففون أي ما يكتب من أعمالهم أو كتابة أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدون للقبائح المختص بالشر ، وهو سجين .

ثم ذكر ما يدل على تهويله وتعظيمه فقال ﴿وما أدراك ما سجين﴾ ثم بينه بقوله كتاب مرقوم .

قال الزجاج : معنى قوله وما أدراك ما سجين ليس ذلك مما كنت تعلمه أنت ولا قومك أي في الدنيا قبل نزول الوحي عليك وإنما علمته بالوحي .

قال قتادة : ومعنى مرقوم رقم لهم بشر ، كأنه أعلم بعلامة يعرف بها أنه كافر وكذا قال مقاتل .

وقد اختلفوا في نون سجين ف قيل هي أصلية واشتقاقه من السجن وهو الحبس ، وهو بناء مبالغة كخمير وسكير وفسيق من الخمر والسكر والفسق ، وكذا قال أبو عبيدة والمبرد والزجاج ، قال الواحدي : وهذا ضعيف لأن العرب ما كانت تعرف سجيناً ، ويجاب عنه بأن رواية هؤلاء الأئمة تقوم بها الحجة

وتدل على أنه من لغة العرب ، ومنه قول ابن مقبل :

ورفقة يضربون البيض صاحبة ضرباً تواصت به الأبطال سجيناً

وقيل النون بدل من اللام والأصل سجيل مشتقاً من السجل وهو الكتاب ، قال ابن عطية : من قال ان سجيناً موضع ، فكتاب مرفوع على أنه خبر « إن » والظرف وهو قوله لفي سجين ملغى ، ومن جعله عبارة عن الكتاب ، فكتاب خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير هو كتاب ، ويكون هذا الكلام مفسر السجين ما هو كذا قال الضحاك ، وقوله مرقوم مختوم بلغة حمير ، وأصل الرقم الكتابة .

وقال كعب الأحبار في الآية أن روح الفاجر يصعد بها الى السماء فتأبى السماء أن تقبلها فتهبط بها الى الأرض فتأبى أن تقبلها ، فيدخل بها تحت سبع أرضين حتى ينتهي بها الى سجين ، وهو خد إبليس فيخرج لها من تحت خد إبليس كتاباً فيختم ويوضع تحت خد إبليس^(١) وعن ابن عباس قال سجين أسفل الأرضين .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الفلق جب في جهنم مغطى ، وأما سجين مفتوح ، قال ابن كثير هو حديث غريب منكر لا يصح^(٢) .

(١) هذا من إسرائيليات كعب الأحبار ولا خير فيها .

(٢) قال ابن كثير : والصحيح أن « سجيناً » مأخوذ من السجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ضاق ، وكل ما تعالى منها اتسع ، فإن الأفلاك السبعة كل واحد منها أوسع وأعلى من الذي دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها حتى ينتهي السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة ، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم ، وهي أسفل السافلين ، كما قال تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال ها هنا : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ﴾ وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال تعالى : ﴿ إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال سجين الأرض السابعة السفلى » .

وأخرج هو عن جابر نحوه مرفوعاً .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك قال لما حضرت كعباً الوفاة أتته ام بشر بنت البراء فقالت إن لقيت إبني فاقرأه مني السلام فقال غفر الله لك يا أم بشر ، نحن أشغل من ذلك ، فقالت أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت وإن نسمة الكافر في سجين ، قال بلى قالت فهو ذاك « أخرجه ابن ماجه والطبراني والبيهقي في البعث وعبد بن حميد .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا متصل بقوله ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ وما بينهما اعتراض ، والمعنى ويل يوم القيامة لمن وقع منه التكذيب بالبعث وبما جاءت به الرسل .

ثم بين سبحانه هؤلاء المكذبين فقال ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أي يوم القيامة لأنه يوم الجزاء والحساب ، والموصول بدل من المكذبين أو صفة .

﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أي فاجر جائر متجاوز في الأثم منهمك في أسبابه ﴿ اذا تتلى عليه آياتنا ﴾ المنزلة على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو القرآن الكريم ﴿ قال أساطير الأولين ﴾ أي أحاديثهم وأباطيلهم التي زخرفوها والحكايات التي سطرت قديماً جمع أسطورة بالضم أو إسطاره بالكسر ، قرأ الجمهور تتلى بفوقيتين ، وقرئ بالتحية .

وقوله ﴿ كلا ﴾ للردع والزجر للمعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له وقال الحسن : بمعنى حقاً ، وقوله ﴿ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ بيان للسبب الذي حملهم على قولهم بأن القرآن أساطير الأولين .

وقال أبو عبيدة : ران على قلوبهم غلب عليها ، رينا وريوناً وكل ما غلبك وعلاك فقد ران بك وران عليك ، قال الفراء هو أنها كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها . قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب .

قال مجاهد : القلب مثل الكف ورفع كفه فاذا أذنب انقبض وضم إصبعه ، فاذا أذنب ذنباً آخر انقبض وضم أخرى ، حتى ضم أصابعه كلها حتى يطبع على قلبه ، قال وكانوا يرون أن ذلك هو الرين ، ثم قرأ هذه الآية .

قال أبو زيد يقال قد رين بالرجل ريناً اذا وقع فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به .

وقال أبو معاذ النحوي الرين أن يسود القلب من الذنوب ، والطبع ان يطبع على القلب وهو أشد من الرين ، والاقفال أشد من الطبع .
قال الزجاج : الرين هو كالصدأ يغشى القلب كالغيم الرقيق ومثله الغين .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن العبد إذا أذنب ذنباً تكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن عاد زادت حتى تغلف قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله سبحانه في القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ الخ أخرجه أحمد والترمذي وصححه النسائي وابن ماجه وغيرهم^(١) .

(١) روى الترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ ما كانوا يكسبون ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح ، ولفظ النسائي « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر وتاب ، صقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ ما كانوا يكسبون » .

ثم ذكر سبحانه الردع والزجر فقال ﴿كلا﴾ وقيل كلا بمعنى حقاً أي حقاً ﴿انهم﴾ يعني الكفار ﴿عن ربهم﴾ أي عن رؤيته ﴿يومئذ﴾ أي يوم القيامة ﴿لمحجوبون﴾ لا يرونه أبداً ، قال مقاتل يعني أنهم بعد العرض والحساب لا ينظرون الى ربهم نظر المؤمنين إليه ، قال الحسين بن الفضل : كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في الآخرة عن رؤيته .

قال الزجاج في هذه الآية دليل على أن الله عز وجل يرى في القيامة ، ولولا ذلك ما كان في هذه الآية فائدة ، وقال جل ثناؤه ﴿وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة﴾ فأعلم سبحانه ان المؤمنين ينظرون ، وأعلم ان الكفار محجوبون .

وقيل هو تمثيل لاهانتهم بإهانة من يحجب عن الدخول على الملوك ، وقال قتادة وابن أبي مليكة : هو أن لا ينظر اليهم برحمته ولا يزيكهم ، وقال مجاهد : محجوبون عن كرامته ، وكذا قال ابن كيسان والأول أولى .

﴿ثم إنهم لصالو الجحيم﴾ أي لداخلو النار وملازموها غير خارجين منها ، وثم لتراخي الرتبة لأن صلي الجحيم أشد من الالهانة وحرمان الكرامة .
﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ أي يقول لهم خزنة جهنم تبكيتاً وتوبيخاً هذا ما كذبت به في الدنيا وأنكرتم وقوعه فانظروه وذوقوه .

وقوله ﴿كلا﴾ للردع والزجر عما كانوا عليه والتكرير للتأكيد .

وجملة ﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾ مستأنفة لبيان ما تضمنته ، ويجوز أن تكون كلا بمعنى حقاً فتلخص أن في كل واحدة من الأربعة الواقعة في هذه السورة قولين ، والأبرار هم المطيعون وكتابهم صحائف حسناتهم ، قال الفراء عليين ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له .

ووجه هذا أنه منقول من جمع علي من العلو قال الزجاج : هو أعلى الأمكنة قال الفراء والزجاج : فأعرب كإعراب الجمع لأنه على لفظ الجمع ولا واحد له من لفظه نحو ثلاثين وعشرين وقسرين قيل هو علم لديوان الخير

الذي دون فيه ما عمله الصالحون وحكى الولد عن المفسرين أنه السماء السابعة . قال الضحاك ومجاهد وقتادة يعني السماء السابعة فيها أرواح المؤمنين ، وقال الضحاك أيضاً هو سدرة المنتهى ينتهي إليه كل شيء من أمر الله لا يعدوها . وقيل هو الجنة وبه قال ابن عباس : وقال قتادة أيضاً هو فوق السماء السابعة عند قائمة العرش اليمنى ، وقيل أن عليين صفة للملائكة في الملأ الأعلى كما يقال فلان بنى فلان أي في جملتهم ، وقيل هو لوح من زبرجدة خضراء معلق تحت العرش مكتوبة فيه أعمالهم وقيل هو قائمة العرش اليمنى وقيل هو مراتب عالية محفوفة بالجلالة وقد عظمها الله وأعلاها .

﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ أي ما أعلمك يا محمد أي شيء عليون ، على جهة التفخيم والتعظيم لعليين .

أخرج ابن المبارك في الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر من طريق شمر ابن عطية أن ابن عباس سأل كعب الأحبار عن قوله ﴿ إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ قال « روح المؤمن اذا قبضت عرج بها الى السماء ففتح لها أبواب السماء وتلقاها الملائكة بالبشرى حتى ينتهى بها الى العرش ، وتعرج الملائكة فيخرج لها من تحت العرش رق فيرقم ويختم ويوضع تحت العرش لمعرفة النجاة لحساب يوم الدين » .

وعن أبي أمامة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله سلم « صلاة على إثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين » أخرجه أحمد وأبو داود والطبراني وابن مردويه .

ثم فسر سبحانه بقوله ﴿ كتاب مرقوم ﴾ أي مسطور ، وقيل مكتوب فيه أعمالهم أو ما أعد لهم في الآخرة من الكرامة ، وهذا التفسير الإلهي يغني عن تفاسير الخلق ، قال الخطيب مكتوب فيه أن فلاناً آمن من النار ، رقماً يا له من رقم ما أبهاه وأجمله .

والكلام في هذا كالكلام المتقدم في قوله ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ الخ .

بَشَّهْدَهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ
نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُنْتَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنَايَا شَرِبَ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

وجملة ﴿ يشهده المقربون ﴾ صفة أخرى لكتاب والمعنى أن الملائكة يحضرون ذلك الكتاب المرقوم ويحفظونه ، وقيل يشهدون بما فيه يوم القيامة لتعظيمه ، والأول من الشهود والثاني من الشهادة .

قال وهب وابن إسحق المقربون هنا إسرافيل فاذا عمل المؤمن عمل البر صعدت الملائكة بالصحيفة ولها نور يتلأأ في السموات كنور الشمس في الأرض حتى ينتهى بها الى اسرافيل فيختم عليها . وقال ابن عباس المقربون أهل السماء .

ثم ذكر سبحانه حالهم في الجنة بعد ذكر كتابهم فقال ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أي أن أهل الطاعة لفي تنعم عظيم لا يقادر قدره ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ الأرائك الأسرة التي في الحجال^(١) وقد تقدم أنها لا تطلق الأريكة على السرير إلا إذا كان في حجلة .

قال الحسن : ما كنا ندري ما الأرائك حتى قدم علينا رجل من اليمن فزعم أن الأريكة عندهم الحجلة اذا كان فيها سرير ، قال الشهاب الحجلة بفتحين بيت مربع من الثياب الفاخرة يرخى على السرير يسمى في عرف الناس بالناموسية والمعنى أنهم ينظرون الى ما أعد الله لهم من الكرامات ،

(١) قال الجوهري الحجال جمع حجلة بالتحريك واحده حجال العروس وهو بيت يزين بالثياب والأسرة ذكره الكرخي أهـ .

كذا قال عكرمة ومجاهد وغيرهما ، وقال مقاتل ينظرون الى أهل النار وقيل ينظرون الى وجهه وجلاله .

﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي اذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعمة لما تراه في وجوههم من النور والحسن والبياض والبهجة والتنعيم والرونق .

أخرج ابن المنذر عن علي بن أبي طالب في الآية قال « عين في الجنة يتوضؤون منها ويغتسلون فتجري عليهم نضرة النعيم » أي بهجة التنعيم وطراوته ، والخطاب ، لكل راء يصلح لذلك ، يقال أنضر النبات اذا أزهى ونور قال عطاء وذلك أن الله زاد في جمالهم وفي ألوانهم ما لا يصفه واصف .

قرأ الجمهور تعرف بفتح الفوقية وكسر الراء ونصب نضرة ، وقرئ بضم الفوقية وفتح الراء على البناء للمفعول ورفع نضرة بالنيابة .

﴿ يسقون من رحيق ﴾ خمر خالصة من الدنس فهي بيضاء ﴿ مختوم ﴾ على إنائها لا يفك ختمها الا هم قال أبو عبيدة والأخفش والمبرد والزجاج الرحيق من الخمر ما لا غش فيه ولا شيء يفسده ، والمختوم الذي له ختام .

وقال الخليل : الرحيق أجود الخمر ، وفي الصحاح : الرحيق صفوة الخمر . وقال مجاهد ؛ هو الخمر العتيقة البيضاء الصافية قال مجاهد : مختوم مطين كأنه ذهب الى معنى الختم بالطين ، ويكون المعنى أنه ممنوع أن تمسه يد الى أن يفك ختمه للأبرار . وقال تعالى : في سورة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ وأنهار من خمر ﴾ والنهر لا يختم عليه فطريق الجمع بينهما أن المذكور في هذه الآية في أوان مختوم عليها لشرفها ونفاستها ، وهي غير تلك الخمر التي في الأنهار :

﴿ ختامه مسك ﴾ أي آخر طعمه اذا رفع الشارب فاه من آخر شربه وجد ريحه كريح المسك ، وقيل مختوم أوانيه من الأكواب والأباريق بمسك مكان الطين ، وكأنه تمثيل لكمال نفاسته وطيب رائحته .

والحاصل أن المختوم والختام إما أن يكون من ختام الشيء وهو آخره أو من ختم الشيء وهو جعل الخاتم عليه كما تختتم الأشياء بالطين ونحوه .

وقال ابن مسعود : الرحيق الخمر والمختوم يجدون عاقبتها طعم المسك ، وعنه ﴿ مختوم ﴾ ممزوج ﴿ ختامه مسك ﴾ قال طعمه في ريحه ، وقيل يمزج لهم بالكافور ، ويختم لهم بالمسك .

وقال ابن عباس رحيق خمر ومختوم ختم بالمسك .

عن ابن مسعود قال : ليس بخاتم فيختم به ولكن خلطه بمسك ، ألم تر الى المرأة من نسائك تقول خلطة من الطيب كذا كذا ، وعن أبي الدرداء ختامه مسك قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم ، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريحها .

قرأ الجمهور ﴿ ختامه ﴾ وقرئ ﴿ خاتمه ﴾ بفتح الخاء قال علقمة أما رأيت المرأة تقول للعطار إجعل خاتمه مسكاً أي آخره ، والخاتم والختام يتقاربان في المعنى إلا أن الخاتم الاسم والختام المصدر ، كذا قال الفراء ، وقال في الصحاح : والختام الطين الذي يختم به ، وكذا قال ابن زيد .

﴿ وفي ذلك ﴾ الرحيق الموصوف بتلك الصفة ﴿ فليتنافس المتنافسون ﴾ أي فليرغب الراغبون وقيل ان « في » بمعنى الى أي والى ذلك فليتبادر المتبادرون في العمل ، كما في قوله ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وأصل التنافس التشاجر على الشيء والتنازع فيه بأن يحب كل واحد أن ينفرد به دون صاحبه .

يقال نفست الشيء عليه نفاسة أي ضننت به ولم أحب ان يصير اليه ، قال البغوي أصله من الشيء النفيس الذي تحرص عليه نفوس الناس فيريده كل واحد لنفسه وينفس به على غيره أي يضمن به ، قال عطاء المعنى فليستبق

المستبقون ، وقال مقاتل بن سليمان فليتنازع المتنازعون ، وذا لا يكون الا بالمسارعة الى الخيرات ، والانتهاء عن السيئات ، وقال الزمخشري فليرتقب المرتقبون والمعنى في الجميع واحد .

﴿ ومزاجه ﴾ معطوف على ختامه صفة أخرى لرحيق أي ومزاج ذلك الرحيق ﴿ من تسنيم ﴾ وهو شراب ينصب عليهم من علو وهو أشرف شراب الجنة وأصل التسنيم في اللغة الارتفاع فهي عين ماء تجري من علو الى أسفل ، ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه ، ومنه تسنيم القبور .

قال ابن عباس : لما سئل عن هذا : هذا مما قاله الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ وقال ابن مسعود : عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفاً .

ثم بين سبحانه ذلك فقال ﴿ عينا يشرب بها المقربون ﴾ انتصاب عينا على المدح ، وقال الزجاج : على الحال ، وإنما جاز أن يكون عينا حالاً مع كونها جامدة غير مشتقة لاتصافها بقوله ﴿ يشرب بها ﴾ وقال الأخفش أنها منصوبة بيسقون ، وقال الفراء بتسنيم والأول أولى ، وبه قال المبرد قيل والباء في بها زائدة أي يشربها أو بمعنى « من » أي يشرب منها قال ابن زيد : بلغنا أنها عين تجري من تحت العرش .

ثم ذكر سبحانه بعض قبائح المشركين فقال ﴿ إن الذين أجرموا ﴾ وهم كفار قریش كأبي جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل وأصحابهم من اهل مكة ومن وافقهم على الكفر ، حكى الله عنهم أربعة أشياء من العلامات القبيحة أولها :

﴿ كانوا من الذين آمنوا ﴾ كعمار وبلال وخباب وصهيب وأصحابهم من فقراء المؤمنين ﴿ يضحكون ﴾ أي يستهزئون بهم في الدنيا ويسخرون منهم ، وآخرها قولهم ﴿ ان هؤلاء لضالون ﴾ وتقديم الجار والمجرور إما للقصر إشعاراً بغاية شناعة ما فعلوا أو لمراعاة الفواصل .

وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُبُوبَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿ وإذا مروا بهم ﴾ أي وإذا مر المؤمنون بالكفار وهم في مجالسهم ﴿ يتغامزون ﴾ من الغمز وهو الإشارة بالجفون والحواجب أي يغمز بعضهم بعضاً ويشيرون بأعينهم وحواجبهم طعناً فيهم وعيباً لهم ، وقيل يعيرونهم بالاسلام ويعيبنهم به .

﴿ وإذا انقلبوا ﴾ أي اذا انقلب الكفار من مجالسهم ﴿ الى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي معجبين بما هم فيه متلذذين به يتفكهون بذكر المؤمنين والطعن فيهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم ، والانقلاب الانصراف .
قرأ الجمهور فاكهين وقرئ فكهين بغير ألف ، قال الفراء هما لغتان مثل طمع وطامع وحذر وحاذر ، وقد تقدم بيانه في سورة الدخان ان الفكه الأشربط والفاكه الناعم المتنعم .

﴿ وإذا رأوهم ﴾ أي اذا رأى الكفار المسلمين في أي مكان ﴿ قالوا ان هؤلاء لضالون ﴾ في اتباعهم محمداً صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بما جاء به ، وتركهم التنعم الحاضر يعني خدع محمد هؤلاء فضلوا وتركوا اللذات لما يرجونه في الآخرة من الكرامات فقد تركوا الحقيقة بالخيال ، وهذا هو عين الضلال أو المعنى واذا رأى المسلمون الكافرين قالوا هذا القول ، والأول أولى .

﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أي والحال أنهم لم يرسلوا على

المسلمين من جهة الله موكلين بهم يحفظون عليهم أحوالهم وأعمالهم ، ويشهدون برشدهم وضلالهم ، بل أمروا بإصلاح أنفسهم ، فاشتغالهم بذلك أولى بهم من تتبع عورات غيرهم وتسفيه أحلامهم ، وهذا تهكم بهم واشعار بان ما اجتروا عليه من القول من وظائف الرسل من جهته تعالى .

ويجوز أن يكون ذلك من جملة قول المؤمنين كأنهم ﴿ قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا علينا حافظين ﴾ إنكاراً لصدهم عن الشرك ودعائهم الى الاسلام ، قاله ابو السعود والأول أولى وأظهر .

﴿ فاليوم ﴾ أي يوم الآخر ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ يعني أن المؤمنين في ذلك اليوم يضحكون من الكفار حين يرونهم أذلاء مغلوبين قد نزل بهم ما نزل من العذاب كما ضحك الكفار منهم في الدنيا .

﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أي يضحكون منهم ناظرين اليهم والى ما هم فيه من الحال الفظيع والهوان والصغار بعد العزة والاستكبار ، وقد تقدم تفسير الأرائك قريباً .

قال الواحدي قال المفسرون أن أهل الجنة اذا أرادوا نظروا من منازلهم الى أعداء الله وهم يعذبون في النار فضحكوا منهم كما ضحكوا منهم في الدنيا .

وقال أبو صالح يقال لأهل النار اخرجوا ويفتح لهم أبوابها فاذا رأوها قد فتحت أقبلوا اليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون اليهم على الأرائك فاذا انتهوا الى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ الخ .

وجملة ﴿ هل تُوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ مستأنفة لبيان أنه قد وقع الجزاء للكفار بما كان يقع منهم في الدنيا من الضحك من المؤمنين والاستهزاء بهم ، والاستفهام للتقرير ، وتوب بمعنى أثيب والمعنى هل جوزي الكفار بما

كانوا يفعلونه بالمؤمنين ، وقيل الجملة في محل نصب بينظرون وقيل هي على
إضمار القول أي يقول بعض المؤمنين لبعض هل ثوب الكفار ، والثواب ما
يرجع على العبد في مقابلة عمله ، ويطلق على الخير والشر .
قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام لام هل في ثاء ثوب ، وقرأ الباكون
بترك الادغام .

سورة الانشقاق

هي ثلاث أو خمس وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف . قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

وعن أبي رافع طليت مع أبي هريرة العتمة^(١) فقرأ إذا السماء انشقت فسجد فقلت له، فقال سجدت خلف أبي القاسم طلك الله عليه وآله وسلم فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه^(٢) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة « قال سجدنا مع رسول الله طلك الله عليه وآله وسلم في إذا السماء انشقت وقرأ باسم ربك الذي خلق » .

وعن بريدة أن النبي طلك الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر « إذا السماء انشقت ونحوها » أخرجه ابن خزيمة والرويان في مسنده والضياء المقدسي في المختارة .

(١) أي العشاء .

(٢) أي سجود التلاوة إذا وصل إلى آية ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ
﴿٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾

﴿إذا السماء انشقت﴾ أي انصدعت وتفتطرت ، فيه حذف ، والتقدير إذا انشقت السماء انشقت لأن إذا الشرطية يختص دخولها بالجمل الفعلية ، وما جاء من هذا ونحوه فمؤول محافظة على قاعدة الاختصاص ، فالسما فاعل لفعل محذوف .

قال الواحدي قال المفسرون انشقاقها من علامات القيامة ، ومعنى انشقاقها انفطارها بالغمام الأبيض كما في قوله ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ وقيل تنشق من المجرة وبه قال علي بن أبي طالب والمجرة باب السماء ، وأهل الهيئة يقولون أنها نجوم صغار مختلطة غير متميزة في الحس .

واختلف في جواب «إذا» فقال الفراء أنه أذنت ، والواو زائدة . وكذلك ألفت . قال ابن الأنباري هذا غلط لأن العرب لا تقحم الواو إلا مع حتى إذا كقوله ﴿حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها﴾ ومع لما كقوله ﴿فلما أسلما وتلة للجبين وناديناه﴾ ولا تقحم مع غير هذين .

وقيل أن الجواب قوله ﴿فملاقية﴾ أي فأنت ملاقيه . وبه قال الأخفش . وقال المبرد إن في الكلام تقدماً وتأخيراً أي ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية﴾ إذا السماء انشقت .

وقال المبرد أيضاً إن الجواب قوله ﴿فأما من أوتي كتابه﴾ وبه قال الكسائي ، والتقدير إذا السماء انشقت فمن أوتي كتابه بيمينه فحكمه كذا ، وقيل هو يا أيها الإنسان على إضمار الفاء أو على إضمار القول أي يقال له يا

أيها الإنسان ، وقيل الجواب محذوف تقديره بعثتم أو لاقى كل إنسان عمله .
وقيل هو ما صرح به في سورة التكويد أي ﴿ علمت نفس ﴾ ، هذا على تقدير
أن « إذا » شرطية ، وقيل ليست بشرطية وهي منصوبة باذكر المحذوف وهي
مبتدأ وخبرها إذا الثانية والواو مزيدة وتقديره وقت انشقاق السماء وقت مد
الأرض .

ومعنى ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أنها أطاعته في الانشقاق ولم تأب ولم
تتنع ، مشتق من الأذن وهو الاستماع للشيء والإصغاء إليه . وحق لها أن
تطيع وتنقاد وتسمع : وقد استعمل الأذن في الاستماع في أشعار العرب ، وفي
الحديث « ما أذن الله لشيء أذنه لنبي يتغنى بالقرآن » قال الشاعر :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذن^(١)
وقال الحجار بن حكيم : أذنت لكم لما سمعت هديركم .

وفي المختار أذن له استمع وبابه طرب ، وقيل المعنى وحقق الله عليها
الاستماع لأمره بالانشقاق أي جعلها حقيقة بذلك ، قال الضحاك حقت
أطاعت وحق لها أن تطيع ربها لأنه خلقها ، يقال فلان محقوق بكذا . ومعنى
طاعتها انها لا تمتنع مما أراده الله بها . قال قتادة حق لها أن تفعل ذلك ، ومن
هذا قول كثير :

فإن تكن العتبي فأهلاً ومرحباً وحقت لها العتبي لدنيا وقلت

﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أي بسطت كما تبسط الأدم ودكت جبالها وكل

(١) البيت لقَعْنَب بن ضمرة بن أم صاحب أم قعنب ، وكان في أيام الوليد ، وهو في « مجاز القرآن »
١٧٧/١ ، و « الطبري » ١١٢/٣٠ . و « السمط » : ٣٦٢ ، و « الاقتضاب » : ٢٩٢ و « شواهد
الكشاف » ١٤٣ ، و « القرطبي » ٢٦٧/١٩ ، و « اللسان » أذن ، وأورد بيتاً قبله ، هو :
إن يسمعوا ربيّةً طاروا بها فرحاً مني وما علموا من صالحٍ دفنوا

أمت فيها حتى صارت ﴿قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها ، وقيل مدت زيد في سعتها من المدد ، وهو الزيادة ، قال ابن عباس : تمد يوم القيامة .

وأخرج الحاكم قال السيوطي بسند جيد عن جابر قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم فيها إلا موضع قدميه »

﴿وألقت ما فيها﴾ أي أخرجت ما فيها من الأموات والكنوز وطرحتهم إلى ظهرها ورمت ﴿وتخلت﴾ من ذلك ، قال ابن عباس أخرجت ما فيها من الموتى وتخلت ممن على ظهرها من الأحياء ومثل هذا قوله : ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ والمعنى تخلت غاية الخلو لم يبق شيء في باطنها كأنها تكلفت أقصى جهدها في الخلو يقال تكرم الكريم إذا بلغ جهده في الكرم ، وتكلف فوق ما في طبعه ، وذلك يؤذن بعظم الأمر .

وقيل ألقت ما استودعته وتخلت مما استحفظته . ووصفت الأرض بالإلقاء والتخلية توسعاً وإلا فالتحقيق أن المخرج لتلك الأشياء هو الله تعالى .

﴿وأذنت لربها﴾ أي سمعت وأجابت وأطاعت لما أمرها به من الإلقاء والتخلي ، وقال ابن عباس سمعت حين كلمها وعنه قال أطاعت وحقت بالطاعة وعنه قال سمعت وأطاعت ﴿وحقت﴾ أي وجعلت حقيقة بالاستماع لذلك والانقياد له إذ هي مصنوعة مربوبة لله تعالى ، وقد تقدم بيان معنى الفعلين قبل هذا ، وليس تكراراً لأن الأول في السماء وهذا في الأرض ، وتكرير إذا لاستقلال كل من الجملتين بنوع من القدرة .

يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلَقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ
 ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
 وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾
 إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

﴿ يا أيها الإنسان ﴾ المراد جنس الإنسان فيشمل المؤمن والكافر وقيل هو الإنسان الكافر والأول أولى لما سيأتي من التفصيل ﴿ إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ الكدح في كلام العرب السعي في الشيء بجهد من غير فرق بين أن يكون ذلك الشيء خيراً أو شراً ، والمعنى أنك ساع إلى ربك في عملك أو إلى لقاء ربك مأخوذ من كدح جلده إذا خدشه ، قال قتادة والضحاك والكلبي : عامل لربك عملاً ، وفي المختار الكدح العمل والسعي والكد والكسب ، وهو الخدش أيضاً وباب الكل قطع .

﴿ فملاقية ﴾ أي فملاق عملك وبه قال ابن عباس ، والمعنى أنه لا محالة ملاق لجزاء عمله وما يترتب عليه من الثواب والعقاب ، قال الشهاب : أي ملاق كدحه بنفسه من غير تقدير لوجوده في صحفه ، وعلى هذا فما بعده تفصيل له .

قال القتيبي معنى الآية انك كادح أي عامل ناصب في معيشتك إلى لقاء ربك لا مفر لك منه ، والملاقاة بمعنى اللقاء أي تلقى ربك بعملك ، وقيل فملاق كتاب عملك لأن العمل قد انقضى .

﴿ فأما من أوتي كتابه ﴾ أي كتاب عمله ﴿ بيمينه ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ سهلاً هيناً لا مناقشة فيه ، قال مقاتل لأنها تغفر ذنوبه ولا يحاسب عليها .

وقال المفسرون هو أن تعرض عليه سيئاته ثم يغفرها الله فهو الحساب

اليسير ، وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس أحد يحاسب إلا هلك فقلت أليس يقول الله فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً قال ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض ، ومن نوقش الحساب هلك » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

وعنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في بعض صلاته « اللهم حاسبني حساباً يسيراً فلما انصرف قلت : يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه ، أنه من نوقش الحساب هلك » أخرجه أحمد وعبد ابن حميد وابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه ، وفي بعض ألفاظ الحديث الأول وهذا الحديث « عَذَّبَ » مكان هلك .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ثلاث من كن فيه يحاسبه الله حساباً يسيراً ، ويدخله الجنة برحمته : تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك » أخرجه البزار والطبراني في الأوسط والبيهقي والحاكم .

﴿ وينقلب ﴾ أي يرجع وينصرف بنفسه بعد الحساب اليسير من غير مزعج برغبة وقبول ﴿ إلى أهله ﴾ الذين أهل بهم في الجنة من عشيرته أو إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا من الزوجات والأولاد وقد سبقوه إلى الجنة أو إلى من أعده الله له في الجنة من الحور العين والولدان المخلدين أو إلى جميع هؤلاء ﴿ مسروراً ﴾ مبتهجاً فرحاً بما أوتي من الخير والكرامة .

﴿ وأما من أوتي كتابه ﴾ بشماله و﴿ وراء ظهره ﴾ قال الكلبي لأن يمينه مغلولة إلى عنقه وتكون يده اليسرى خلفه وقال قتادة ومقاتل تفك ألواح صدره وعظامه ثم تدخل يده وتخرج من ظهره فيأخذ كتابه كذلك ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أي ينادي هلاكه ويتمنى فإن نداء ما لا يعقل يراد به التمني فالنداء بمعنى الطلب بالنداء ، والمعنى إذا قرأ كتابه قال يا ويلاه يا ثبوراً ، والثبور الهلاك ، وقال ابن عباس ثبوراً الويل .

﴿ ويصلى سعيراً ﴾ أي يدخلها ويقاسي حر نارها وشدتها ، قرأ أبو عمرو وحمزة وعاصم يصلي بفتح الياء وسكون الصاد وتخفيف اللام ، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح اللام وتشديدها ، وقرأ بضم الياء واسكان الصاد من أصلى يصلي .

﴿ إنه كان في أهله ﴾ أي عشيرته في الدنيا ﴿ مسروراً ﴾ باتباع هواه وركون شهوته بطراً أشراً لعدم خطور الآخر بباله أي كان لنفسه متابعاً ، وفي مراتع هواه راتعاً ، والجملة تعليل لما قبلها .

﴿ إنه ظن ﴾ أي علم وتيقن ﴿ أن لن يحور ﴾ تعليل لكونه كان في الدنيا بين أهله مسروراً والمعنى أن سبب ذلك السرور ظنه بأنه لا يرجع إلى الله ولا يبعث للحساب والعقاب لتكذيبه بالبعث وجحده لدار الآخرة ، وأن هي المخففة من الثقل سادة مع ما في حيزها مسد مفعولي ظن ، والخور في اللغة الرجوع يقال حار يحور إذا رجع وقال الراغب الخور التردد في الأمر ، ومحاورة الكلام مراجعته والمحار المرجع والمصير .

قال عكرمة وداود بن أبي هند : « يحور » كلمة بالحشية ومعناها يرجع ، قال القرطبي : الخور في كلام العرب الرجوع ، ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم أني أعوذ بك من الخور بعد الكور » يعني من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة ، وكذلك الخور بالضم ، وفي المثل حور في محار أي نقصان في نقصان ، والخور أيضاً الهلكة ، قال ابن عباس : يحور يبعث ويرجع .

﴿ بلى إن ربه كان به بصيراً ﴾ أي كان به وبأعماله عالماً لا يخفى عليه منها خافية ، وبلى إيجاب للمنفى بأن أي بلى ليحورن وليبعثن ، وأن ربه جواب قسم مقدر فالجملة بمنزلة التعليل لما أفادته بلى ، قال الزجاج كان به بصيراً قبل أن يخلقه عالماً بأن مرجعه إليه .

فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن
 طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ
 كَفَرُوا يُكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ لا زائدة كما تقدم في امثال هذه العبارة وقد قدمنا
 الخلاف فيها في سورة القيامة فارجع إليه .

أقسم بمخلوقاته تشريفاً لها وتعريضاً للاعتبار بها ، والشفق الحمرة التي
 تكون بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة ، قال الواحدي :
 هذا قول المفسرين وأهل اللغة جميعاً ، قال الفراء : سمعت بعض العرب
 يقول عليه ثوب مصبوغ كأنه الشفق وكان أحمرأ ، وحكاه القرطبي عن أكثر
 الصحابة والتابعين والفقهاء .

وقال أسد بن عمرو وأبو حنيفة رحمه الله : في إحدى الروايتين عنه أنه
 البياض ، ولا وجه لهذا القول ولا متمسك له لا من لغة العرب ولا من
 الشرع ، قال الخليل الشفق الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء
 الآخرة .

قال في الصحاح : الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول الليل إلى
 قريب العتمة ، وكتب اللغة والشرع مطبقة على هذا^(١) .

وقال مجاهد : الشفق النهار كله ، ألا تراه قال ﴿ والليل وما وسق ﴾

(١) أخرجه الدارقطني في « سننه » ص ١٠٠ ، وصحح البيهقي وقفه ، وقال في « المعرفة » : روي هذا
 الحديث عن عمر ، وعلي ، وابن عباس ، وعبد بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وأبي هريرة ، ولا
 يصح عن النبي ﷺ فيه شيء ، وذكره السيوطي في « الدرر » موقوفاً على ابن عمر ، وعزاه إلى
 عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه .

وقال عكرمة هو ما بقي من النهار ، وإنما قالوا هذا لقوله بعده ﴿ والليل وما وسق ﴾ فكأنه تعالى أقسم بالضياء والظلام ، ولا وجه لهذا على أنه قد روي عن عكرمة أنه قال الشفق الذي يكون بين المغرب والعشاء ، وروي عن أسد بن عمرو الرجوع ، وعن عمر بن الخطاب قال الشفق الحمرة ، وعن ابن عباس نحوه ، وعن أبي هريرة الشفق النهار كله .

وقال الراغب الشفق اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس ، وقال الزمخشري الشفق الحمرة التي ترى في المغرب بعد سقوط الشمس وبسقوطه يخرج وقت المغرب ويدخل وقت العتمة عند عامة العلماء إلا ما يروى عن أبي حنيفة في إحدى الروايتين أنه البياض وروى أسد بن عمرو أنه رجع عنه انتهى ، وسمي شفقاً لرقته ومنه الشفقة على الإنسان وهي رقة القلب عليه .

﴿ والليل وما وسق ﴾ أي جمع ما دخل عليه من الدواب وغيرها ، والوسق عند أهل اللغة ضم الشيء بعضه إلى بعض يقال استوسقت الإبل إذا اجتمعت وانضمت والراعي يسقها أي يجمعها ، قال الواحدي : المفسرون يقولون وما جمع وضم وحوى ولف .

والمعنى أنه جمع وضم ما كان منتشرًا بالنهار في تصرفه وذلك الليل إذا أقبل أوى كل شيء إلى مأواه ، وقال عكرمة وما وسق أي وما ساق من شيء إلى حيث يأوي فجعله من السوق لا من الجمع ، وقيل وما وسق أي وما جن ما ستر ، وقيل وما حمل وكل شيء حملته فقد وسقته ، والعرب تقول لا احمله وما وسقت عيني الماء أي حملته ووسقت الناقة تسق وسقاً أي حملت .

قال قتادة والضحاك ومقاتل بن سليمان : وما وسق وما حمل من الظلمة أو حمل من الكواكب ، قال القشيري ومعنى حمل ضم وجمع والليل يحمل بظلمته كل شيء ، وقال سعيد بن جبير وما وسق أي وما عمل فيه من التهجد والاستغفار بالاسحار ، والأول أولى ، وقال ابن عباس : ما وسق ما دخل فيه وعنه ما جمع .

﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أي اجتمع وتكامل ، قال الفراء : اتساقه امتلاؤه واجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة ورابع عشرة إلى ست عشرة ، وهو افتعل من الوسق الذي هو الجمع ، قال الحسن اتسق امتلاً واجتمع ، وقال قتادة استدار يقال وسقته فاتسق كما يقال وصلته فاتصل ، ويقال أمر فلان متسق أي مجتمع منتظم ، ويقال اتسق الشيء إذا تتابع ، قال ابن عباس اتسق استوى ، وعنه قال ليلة ثلاث عشرة .

﴿ لتركبن ﴾ أيها الناس ﴿ طبقاً عن طبق ﴾ حالاً بعد حال ، هذا جواب القسم ومحل عن طبق النصب على أنه صفة لطبقاً مجاوزاً لطبق ، أو على الحال من ضمير لتركبن أي مجاوزين أو مجاوزاً ، قرئ بفتح الموحدة على أنه خطاب للواحد وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له ، وقرئ بضم الموحدة خطاباً للجمع وهم الناس . قال الشعبي ومجاهد لتركبن يا محمد سماء بعد سماء ، قال الكلبي يعني تصعد فيها وهذا على القراءة الأولى ، وقيل درجة ورتبة بعد رتبة في القرب من الله ورفعة المنزلة .

وقيل المعنى لتركبن حالاً بعد حال كل حالة منها مطابقة لأختها في الشدة ، وقيل المعنى لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال من كونك نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم حياً وميتاً وغنياً وفقيراً ، فالخطاب للإنسان المذكور في قوله ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ واختار أبو حاتم وأبو عبيدة القراءة الثانية قالاً لأن المعنى بالناس أشبه منه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وقرأ عمر رضي الله عنه ليركبن بالتحية وضم الموحدة على الإخبار ، وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قرآ بالغيبة وفتح الموحدة أي ليركبن الإنسان ، وروي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قرآ بكسر حرف المضارعة وهي لغة ، وقرئ بفتح حرف المضارعة وكسر الموحدة على أنه خطاب للنفس .

وقيل أن معنى الآية ليركبن القمر أحوالاً من سرار واستهلال وهو بعيد ،

قال مقاتل : طبقاً عن طبق يعني الموت والحياة ، وقال عكرمة : رضيع ثم فطيم ثم غلام ثم شاب ثم شيخ . وعن ابن مسعود : قال يعني السماء تنفطر ثم تنشق ثم تحمر ، وعنه قال : السماء تكون كالمهل وتكون وردة كالدهان وتكون واهية وتنشق فتكون حالاً بعد حال ، وقيل يعني الشدائد وأهوال الموت ثم البعث ثم العرض ، وقيل « لتركبن سنن من كان قبلكم » كما ورد في الحديث الصحيح .

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ الاستفهام للإنكار والفاء لترتيب ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من احوال يوم القيامة الموجبة للإيمان والسجود أو من غيرها على الاختلاف السابق ، والمعنى أي شيء للكفار لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم بما جاء به من القرآن مع وجود موجبات الإيمان بذلك من التغيرات العلوية والسفلية الدالة على خالق عظيم القدرة .

﴿ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ الجملة في محل نصب على الحال أي أي مانع لهم حال عدم سجودهم وخضوعهم عند قراءة القرآن ، قال الحسن وعطاء والكلبي ومقاتل ما لهم لا يصلون ، وقال أبو مسلم المراد الخضوع والاستكانة . وقيل المراد نفس السجود المعروف بسجود التلاوة ، وقد وقع الخلاف على هذا الموضع من مواضع السجود عند التلاوة أم لا وقد تقدم في فاتحة هذه السورة الدليل على السجود ، وهذه السجدة آخر سجديات القرآن عند الشافعي ومن وافقه .

﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به من الكتاب المشتمل على إثبات التوحيد والبعث والثواب والعقاب ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ أي بما يضمرونه في أنفسهم من التكذيب . وقال مقاتل : بما يكتمون من أفعالهم . وقال ابن زيد : يجمعون من الأعمال الصالحة والسيئة ، مأخوذ من الوعاء الذي يجمع فيه ، ويقال وعاء حفظه وعيت الحديث أعياه وعياً ومنه ﴿ أذن واعية ﴾ وقال ابن عباس يوعون يسرون .

﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي أخبرهم خبراً يظهر أثره على بشرتهم واجعل ذلك بمنزلة البشارة لهم لأن علمه سبحانه بذلك على الوجه المذكور موجب لتعذيبهم ، والأليم المؤلم الموجه ، والكلام خارج مخرج التهكم بهم .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الاستثناء منقطع لأن الموصول مبتدأ ، والجملة خبره والاستثناء من قبيل المفردات أي لكن الذين جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ﴿ لهم أجر ﴾ عند الله ﴿ غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع ولا منقوص ، يقال مننت الحبل إذا قطعته ، قال المبرد : المنين الغبار لأنه يقطعه وراءه وكل ضعيف منين وممنون ، وقيل المعنى أنه لا يمن عليهم به وقيل متصل وليس بذلك لأن الضمير راجع إلى الذين كفروا ، والذين كفروا قد وضع موضع المظهر للاشعار بأنهم لا يؤمنون ولا يسجدون عند قراءة القرآن عليهم لأنهم كافرون مكذبون .

قال أبو السعود استئناف مقرر لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيته ومقارنته الثواب العظيم .

سورة البروج

هي اثنتان وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس
نزلت بمكة . وعن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماوات ذات البروج ، والسماوات والطارق »
أخرجه أحمد وعن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
كان يقرأ في الظهر والعصر بالسماوات والطارق والسماوات ذات البروج »
أخرجه أحمد والدارمي وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي
وغيرهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَصْحَابُ
الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿والسما ذات البروج﴾ قد تقدم الكلام في البروج عند قوله ﴿هو الذي جعل في السما بروجاً﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك : هي النجوم والسما ذات النجوم ، وقال عكرمة ومجاهد أيضاً هي قصور في السما وبه قال ابن عباس ، وقال المنهال بن عمرو : ذات الخلق الحسن ، وقال أبو عبدة ويحيى بن سلام وغيرهما : هي المنازل للكواكب وهي اثنا عشر برجاً لاثنى عشر كوكباً وهي : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت ، قيل وهي منازل الكواكب السبعة السيارة المريخ وله الحمل والعقرب ، والزهرة ولها الثور والميزان ، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة ، والقمر وله السرطان ، والشمس ولها الأسد والمشتري وله القوس والحوت وزحل وله الجدي والدلو .

والبروج في كلام العرب القصور ، ومنه قوله ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ شبهت منازل هذه النجوم بالقصور لكونها تنزل فيها ، وقيل هي أبواب السما . وقيل هي منازل القمر ، وأصل البرج الظهور سميت بذلك لظهورها .

وعن جابر بن عبد الله « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن السما ذات البروج فقال الكواكب ، وسئل عن قوله ﴿جعل في السما بروجاً﴾ قال الكواكب وعن قوله ﴿في بروج مشيدة﴾ قال القصور » أخرجه ابن مردويه .

﴿واليوم الموعود﴾ أي الموعود به وهو يوم القيامة قال الواحدي : في قول جميع المفسرين ، وبه قال ابن عباس .

﴿وشاهد ومشهود﴾ نكرهما دون بقية ما أقسم به لاختصاصهما من بين الأيام بفضيلة ليست لغيرهما فلم يجمع بينهما وبين البقية بلام الجنس . وهذا جواب أيضاً عما يقال لم خصصهما بالذكر دون بقية الأيام ؟ وإنما لم يعرفا بلام العهد لأن التنكير أدل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ والمراد بالشاهد من يشهد في ذلك اليوم من الخلائق أي يحضر فيه والمراد بالمشهود ما يشاهد في ذلك اليوم من العجائب .

وذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أن الشاهد يوم الجمعة وأنه يشهد على كل عامل بما عمل فيه ، والمشهود يوم عرفة لأنه يشهد الناس فيه موسم الحج وتحضره الملائكة ، قال الواحدي وهذا قول الأكثر ، قال ابن عباس : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة وهو الحج الأكبر .

فيوم الجمعة جعله الله عيداً لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته وفضله بها على الخلق أجمعين وهو سيد الأيام عند الله وأحب الأعمال إلى الله ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه ، أخرجه ابن مردويه .

وحكى القشيري عن ابن عمر وابن الزبير أن الشاهد يوم الأضحى ، وقال سعيد بن المسيب : الشاهد يوم التروية والمشهود يوم عرفة ، وقال النخعي : الشاهد يوم عرفة والمشهود يوم النحر : وقيل الشاهد هو الله سبحانه ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير لقوله ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ وقوله ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ .

وقيل الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ وقوله ﴿ يا أيها الرسول إنا أرسلناك شاهداً ﴾ وقوله ﴿ ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ وقيل الشاهد جميع

الأنبياء لقوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ﴾ .

وقيل هو عيسى ابن مريم لقوله ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ .

والمشهدود على هذه الأقوال الثلاثة إما أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو أمم الأنبياء أو أمة عيسى .

وقيل الشاهد آدم والمشهدود ذريته ، وقال محمد بن كعب : الشاهد الإنسان لقوله ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وقال مقاتل أعضاؤه لقوله ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ﴾ .

وقال الحسين بن الفضل : الشاهد هذه الأمة والمشهدود سائر الأمم لقوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ وقيل الشاهد الحفظة والمشهدود بنو آدم « وقيل الأيام والليالي ، وقيل الشاهد الخلق يشهدون لله عز وجل بالوحدانية والمشهدود له بالوحدانية هو الله سبحانه . وسيأتي بيان ما هو الحق .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اليوم الموعود يوم القيامة واليوم المشهدود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة » وما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل منه فيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجاب الله له ، ولا يستعيز من شيء إلا أعاذ منه « أخرجه الترمذي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه .

وعن أبي هريرة رفعه « قال الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة والمشهدود هو الموعود يوم القيامة » أخرجه الحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه^(١) .

(١) رواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وفي سنده موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف كما قال

الحافظ ابن حجر في « التقریب » ، وقال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن

وعن علي بن أبي طالب اليوم الموعود يوم القيامة والمشهود يوم النحر والشاهد يوم الجمعة .

وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » أخرجه ابن جرير والطبراني وابن مردويه .

وعن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية « الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة » أخرجه ابن عساكر وابن مردويه ، وعن أبي هريرة مثله موقوفاً .

وعن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سيد الأيام يوم الجمعة وهو الشاهد ، والمشهود يوم عرفة « وهذا مرسل من مراسيله أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه .

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه يوم مشهود تشهده الملائكة » أخرجه ابن ماجه والطبراني وابن جرير .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال في الآية الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، وعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سأله عن قوله ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال هل سألت أحداً قبلي قال نعم سألت ابن عمر وابن الزبير فقالا يوم الذبح ويوم الجمعة قال لا ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم قرأ ﴿ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ ﴿ ذلك يوم مشهود ﴾ وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما في الآية قال الشاهد جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمشهود يوم القيامة ثم تلا ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ ﴿ ذلك يوم مشهود ﴾ .

وعن ابن عباس قال اليوم الموعود يوم القيامة والشاهد محمد صلى الله عليه

= عبدة ، وموسى بن عبدة : يضعف في الحديث ، ضعفه يحيى بن سعيد وغيره من قبل حفظه ، وقال ابن كثير : وروى هذا الحديث ابن خزيمة من طرق عن موسى بن عبدة الربذي ، وهو ضعيف ، وقد روي موقوفاً على أبي هريرة ، وهو أشبه .

وسلم والمشهود يوم القيامة ثم تلا ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود .
وعنه قال الشاهد الله والمشهود يوم القيامة .

قلت وهذه التفاسير عن الصحابة رضي الله عنهم قد اختلفت كما ترى وكذلك اختلفت تفاسير التابعين بعدهم ، واستدل من استدل منهم بآيات ذكر الله فيها أن ذلك الشيء شاهد أو مشهود ، فجعله دليلاً على أنه المراد بالشاهد والمشهود في هذه الآية المطلقة ، وليس ذلك بدليل يستدل به على أن الشاهد والمشهود المذكورين في هذا المقام هو ذلك الشاهد والمشهود الذي ذكر في آية أخرى ، وإلا لزم أن يكون قوله هنا وشاهد ومشهود هو جميع ما أطلق عليه في الكتاب العزيز أو السنة المطهرة أنه يشهد أو أنه مشهود ، وليس بعض ما استدلوا به مع اختلافه بأولى من بعض ، ولم يقل قائل ذلك .

فإن قلت هل في المرفوع الذي ذكرته من حديثي أبي هريرة وحديث أبي مالك الأشعري وحديث جبير بن مطعم ومرسل سعيد بن المسيب ما يعين هذا اليوم الموعود والشاهد والمشهود .

قلت أما اليوم الموعود فلم تختلف هذه الروايات التي ذكر فيها بل اتفقت على أنه يوم القيامة ، وأما الشاهد ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم الجمعة وفي حديثه الثاني أنه يوم عرفة ويوم الجمعة ، وفي حديث الأشعري أنه يوم الجمعة ، وفي حديث جبير أنه يوم الجمعة وفي مرسل سعيد أنه يوم الجمعة فاتفتت هذه الأحاديث عليه ، ولا تضر زيادة يوم عرفة عليه في حديث أبي هريرة الثاني .

وأما المشهود ففي حديث أبي هريرة الأول أنه يوم عرفة وفي حديثه الثاني أنه يوم القيامة وفي حديث أبي مالك أنه يوم عرفة وفي حديث جبير أنه يوم عرفة ، وكذا في حديث سعيد ، فقد تعين في هذه الروايات أنه يوم عرفة ، وهي أرجح من تلك الرواية التي صرح فيها بأنه يوم القيامة ، فحصل من مجموع هذا رجحان ما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة ، وأما اليوم الموعود فقد قدمنا أنه

وقع الإجماع على أنه يوم القيامة .

﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ هذا جواب القسم واللام فيه مضمرة وهو الظاهر ، وبه قال الفراء وغيره وقيل تقديره لقد قتل فحذفت اللام وقد ، وعلى هذا تكون الجملة خبرية والظاهر أنها دعائية لأن معنى قتل لعن ، قال الواحدي : في قول الجميع والدعائية لا تكون جواباً للقسم فقيل الجواب قوله ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين ﴾ وقيل قوله ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ وبه قال المبرد واعترض عليه بطول الفصل .

وقيل هو مقدر يدل عليه قوله قتل أصحاب الأخدود كأنه قال أقسم بهذه الأشياء أن كفار قريش ملعونون كما لعن أصحاب الأخدود ، فإن السورة وردت لتثبيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم .

وقيل تقدير الجواب أن الأمر حق في الجزاء ، وقيل تقدير الجواب لتبعثن ، واختاره ابن الانباري .

وقال أبو حاتم السجستاني وابن الانباري أيضاً في الكلام تقديم وتأخير أي ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ واعترض عليه بأنه لا يجوز أن يقال والله قام زيد .

وعن ابن مسعود قال : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ إلى قوله ﴿ شاهد ومشهود ﴾ هذا قسم على ﴿ أن بطش ربك لشديد ﴾ إلى آخرها ، والأخدود جمع خد وهو الحق العظيم المستطيل في الأرض كالخندق وجمعه أخاديد ومنه الخد لمجاري الدموع والمخدة لأن الخد يوضع عليها ، ويقال تخدد وجه الرجل إذا صارت فيه أخاديد من جراح .

أخرج عبد الرازق وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد ومسلم والترمذي والنسائي والطبراني عن صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « كان ملك من الملوك فيمن كان قبلكم وكان لذلك الملك كاهن يكن له فقال له ذلك الكاهن انظروا لي غلاماً فهماً أو قال فطناً ألقنه فأعلمه علمي فإني أخاف أن أموت فينقطع منكم هذا العلم ، ولا يكون فيكم من يعلمه قال فنظروا له على

ما وصف فأمره أن يحضر ذلك الكاهن وأن يختلف إليه فجعل الغلام يختلف إليه وكان على طريق الغلام راهب في صومعة فجعل الغلام يسأل ذلك الراهب كلما مر به فلم يزل به حتى أخبره فقال إنما أعبد الله فجعل الغلام يمكث عند هذا الراهب ، ويبطئ عن الكاهن ، فأرسل الكاهن إلى أهل الغلام أنه لا يكاد يحضرنى ، فأخبر الغلام الراهب بذلك فقال له الراهب إذا قال لك أين كنت فقل عند أهلي ، وإذا قال لك أهلك أين كنت فأخبرهم أنني كنت عند الكاهن ، فبينما الغلام على ذلك إذ مر بجماعة من الناس كثير قد حبستهم دابة يقال أنها كانت أسداً فأخذ الغلام حجراً فقال اللهم إن كان ما يقول ذلك الراهب حقاً فأسألك أن تقتل هذا الدابة ، وإن كان ما يقول الكاهن حقاً فأسألك أن لا تقتلها ، ثم رمى فقتل الدابة فقال الناس من قتلها قالوا الغلام ففزع الناس وقالوا قد علم هذا الغلام علماً لم يعلمه أحد ، فسمع أعمى فجاءه فقال له إن أنت رددت عليّ بصري فلك كذا وكذا فقال الغلام لا أريد منك هذا ، ولكن أرأيت إن رجعت عليك بصرك أتؤمن بالذي رده عليك قال نعم ، فدعا الله فرد عليه بصره فأمن الأعمى فبلغ الملك أمرهم فبعث إليهم فأتى بهم فقال لأقتلن كل واحد منكم قتلة لا أقتل بها صاحبه فأمر بالراهب والرجل الذي كان أعمى فوضع المنشار على مفرق أحدهما فقتله وقتل الآخر بقتلة أخرى ، ثم أمر بالغلام فقال انطلقوا به إلى جبل كذا وكذا فalcوه من رأسه فانطلقوا به إلى ذلك الجبل فلما انتهوا إلى ذلك المكان الذي أرادوا أن يلقوه منه جعلوا يتهافتون من ذلك الجبل ويتردون حتى لم يبق منهم إلا الغلام ، ثم رجعت الغلام فأمر به الملك أن ينطلقوا به إلى البحر فيلقوه فيه ، فانطلقوا به إلى البحر ، فغرق الله الذين كانوا معه وأنجاه ، فقال الغلام للملك إنك لن تقتلني حتى تصلبي وترميني وتقول إذا رميتني بسم الله رب الغلام ، فأمر به فصلب ثم رماه وقال بسم الله رب الغلام فوق السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ثم مات ، فقال الناس لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد ، فإنا نؤمن برب هذا الغلام ، فقل للملك

أجزعت أن خالفك ثلاثة فهذا العالم كلهم قد خالفوك ، قال فخذ أخذوداً ثم ألقى فيها الحطب والنار ، ثم جمع الناس فقال : من رجع عن دينه تركناه ، ومن لم يرجع ألقيناه في هذه النار ، فجعل يلقيهم في تلك الأخدود ، فقال يقول الله ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود ﴾ حتى بلغ ﴿ العزيز الحميد ﴾ فأما الغلام فإنه دفن ثم أخرج فيذكر أنه خرج في زمن عمر بن الخطاب وإصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل .

ولهذه القصة ألفاظ فيها بعض اختلاف ، وقد رواها مسلم في أواخر الصحيح عن هذبة بن خالد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب .

وأخرجها أحمد من طريق عفان عن حماد به .

وأخرجها النسائي عن أحمد بن سليمان عن حماد بن سلمة به .

وأخرجها الترمذي عن محمود بن غيلان وعبد بن حميد عن عبد الرزاق عن معمر عن ثابت به .

وعن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ أصحاب الأخدود ﴾ قال هم الحبشة أخرجهم ابن المنذر وابن أبي حاتم .

وعن ابن عباس « قال هم ناس من بني إسرائيل خدوا أخذوداً في الأرض أوقدوا فيه نارا ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالاً ونساء فعرضوا عليها » أخرجهم ابن جرير وقال مقاتل كانت الأخاديد ثلاثة واحدة بنجران باليمن وأخرى بالشام . وأخرى بفارس ، حرق أصحابها بالنار فأما التي بالشام فهو أبطاموس الرومي ، وأما التي بفارس فبختنصر ، ويزعمون أنهم أصحاب دانيال ، وأما التي باليمن فذو نواس .

فأما التي بالشام وفارس فلم ينزل الله فيهم قرآنا وأنزل في التي بنجران اليمن وذلك لأن هذه القصة كانت مشهورة عند أهل مكة فذكرها الله تعالى لأصحاب رسوله يحملهم بذلك على الصبر وتحمل المكارة في الدين .

النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ

بِدْئٌ وَيَعِيدٌ ﴿١٣﴾

﴿ النار ذات الوقود ﴾ قرأ الجمهور النار بالجر على أنها بدل اشتمال من الأخدود لأن الأخدود مشتمل عليها وحينئذ فلا بد من ضمير مقدر أي النار فيه وذات الوقود وصف لها بأنها نار عظيمة والوقود الحطب الذي توقد به ، وقيل هو بدل كل من كل ، وقيل أن النار مخفوضة على الجوار حكاة مكى عن الكوفيين .

قرأ الجمهور بفتح الواو من الوقود ، وقرىء بضمها وبرفع النار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي النار أو على أنها فاعل فعل محذوف أي أحرقتهم النار .

﴿ إذ هم عليها قعود ﴾ العامل في الظرف قتل أي لعنوا حين أحرقوا بالنار قاعدين على ما يدنو منها ويقرب إليها ، قال مقاتل يعني عند النار قعود يعرضونهم على الكفر ، وقال مجاهد كانوا قعوداً على الكراسي عند الأخدود ، قال زاده عبر عن القعود على حافة النار بالقعود على نفس النار للدلالة على أنهم حال قعودهم على شفيرها مستولون عليها يقذفون فيها من شأؤه ويخلون سبيل من شأؤه .

﴿ وهم ﴾ أي الذين خددوا الأخدود وهم الملك وأصحابه ﴿ على ما يفعلون بالمؤمنين ﴾ بالله تعالى من عرضهم على النار ليرجعوا إلى دينهم ﴿ شهود ﴾ أي

حضور أو يشهد بعضهم لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فيما أمر به ، وقيل يشهدون بما فعلوا يوم القيامة ثم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ، وقيل على بمعنى مع والتقدير وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين من الإحراق شهود لا يرقون لهم لغاية . قسوة قلوبهم ، هذا هو الذي يستدعيه النظم وتنطق به الروايات المشهورة

قال الزجاج أعلم الله قصة قوم بلغت بصيرتهم وحقيقة إيمانهم إلى أن صبروا على أن يحرقوا بالنار في الله ، وفيه حث للمؤمنين على الصبر وتحمل أذى أهل الكفر والعناد .

روي أن الله أنجى المؤمنين الملقين في النار وكانوا سبعة وسبعين بقبض أرواحهم قبل وقوعهم فيها وخرجت النار إلى من ثم فأحرقتهم ، وهؤلاء لم يرجعوا عن دينهم ، والذين رجعوا عشرة أو أحد عشر ، ولم يرد نص بتعيين عدد أصحاب الأخدود .

﴿ وما نقموا منهم ﴾ قرأ الجمهور نقموا بفتح النون ، وقرىء بكسرهما والفصيح الفتح في المختار نقم الأمر كرهه ، وبابه ضرب ونقم من باب فهم لغة أي ما أنكروا عليهم ولا عابوا منهم ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ إلا أن صدقوا بالله الغالب المحمود في كل حال ، قال الزجاج ما أنكروا عليهم ذنباً إلا إيمانهم ، وهذا كقوله ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا بآيات ربنا ﴾ وهذا من تأكيد المدح بما يشبه الذم كما في قوله :

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم
وقول الآخر:
ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عتاق الطير شكلاً عيونها
وقول الآخر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ثم وصف سبحانه بما يدل على العظم والفخامة فقال ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ ومن كان هذا شأنه فهو حقيق بأن يؤمن به ويوحده ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ من فعلهم بالمؤمنين لا تخفى عليه منه خافية ، وفي هذا وعيد شديد لأصحاب الأخدود ، ووعد خير لمن عذبه على دينه من أولئك المؤمنين .

ثم بين سبحانه ما أعد لأولئك الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا من التحريق فقال ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات﴾ أي حرقوهم بالنار ، والعرب تقول فنتت الشيء أي أحرقتة وفتنت الدرهم والدينار إذا أدخلته النار لتنظر جودته ، ويقال دينار مفتون ويسمى الصائع الفتان ، ومنه قوله ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي يحرقون وقيل معنى فتنوا المؤمنين محنهم في دينهم ليرجعوا عنه .

قال الرازي : ويحتمل أن يكون المراد كل من فعل ذلك ، قال وهذا أولى ، لأن اللفظ عام والحكم بالتخصيص ترك للظاهر من غير دليل ﴿ثم لم يتوبوا﴾ من قبح صنعهم ولم يرجعوا عن كفرهم وفتنتهم ﴿فلهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب جهنم﴾ بسبب كفرهم ﴿ولهم﴾ عذاب آخر زائد على عذاب كفرهم وهو ﴿عذاب الحريق﴾ الذي وقع منهم للمؤمنين . وقيل أن الحريق إسم من أسماء النار كالسعير وقيل أنهم يعذبون في جهنم بالزمهرير ، ثم يعذبون بعذاب الحريق فالأول عذاب بيردها ، والثاني عذاب بحرها .

وقال الربيع بن أنس أن عذاب الحريق أصيبوا به في الدنيا ، وذلك أن النار ارتفعت من الأخدود إلى الملك وأصحابه فأحرقتهم ، وبه قال الكلبي ، ومفهوم الآية أنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد ، وإنما عبر سبحانه بأداة التراخي لأن التوبة مقبولة قبل الغرغرة ولوطال الزمان .

ثم لما ذكر سبحانه وعيد المجرمين أتبعه بذكر ما أعده للمؤمنين الذين أحرقوا بالنار فقال ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وظاهر الآية العموم

فيدخل في ذلك المحرقون في الأخدود بسبب إيمانهم دخولاً أولاً ، والمعنى أن الجامعين بين الإيمان وعمل الصالحات ﴿ لهم ﴾ بسبب الإيمان والعمل الصالح ﴿ جنات تجري من تحتها ﴾ أي تحت أسرتها وغرفها وجميع أماكنها ﴿ الأنهار ﴾ يتلذذون ببردها في نظير ذلك الحر الذي صبروا عليه في الدنيا .

وقد تقدم كيفية جري الأنهار من تحت الجنات في غير موضع ، وأوضحنا أنه إن أريد بالجنات الأشجار فجري الأنهار من تحتها واضح وإن أريد بها الأرض المشتملة عليها فالتحتية باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر لأنها ساترة لساحتها وأرضها .

﴿ ذلك ﴾ أي ما تقدم ذكره مما أعده الله لهم ﴿ الفوز الكبير ﴾ الذي لا يعدله فوز ولا يقاربه ولا يدانيه ، والفوز الظفر بالمطلوب ، وما في « ذلك » من معنى البعد للإيذان بعلو درجته في الفضل والشرف .

﴿ إن بطش ربك ﴾ بالكفار ﴿ لشديد ﴾ بحسب إرادته قاله الجلال المحلي ، وفيه إشارة إلى الرد على الفلاسفة القائلين بأنه موجب بالذات ، وقد نطق القرآن بأنه فعال لما يريد ، والجملة مستأنفة لخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه ، والمغفرة لمن أطاعه ، والمعنى أن أخذه تعالى للجبابرة والظلمة شديد ، والبطش الأخذ بعنف ، ووصفه بالشدة يدل على أنه قد تضاعف وتفاقم . ومثل هذا قوله : ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ .

﴿ إنه هو يبدئ ويعيد ﴾ أي يخلق الخلق أولاً في الدنيا ويعيدهم أحياء بعد الموت كذا قال الجمهور ، وقيل يبدئ للكفار عذاب الحريق في الدنيا ثم يعيده لهم في الآخرة ، واختار هذا ابن جرير والأول أولى ، وقال ابن عباس : يبدئ العذاب ويعيده انتهى ، ومن كان قادراً على الإيجاد والاعادة إذا بطش كان بطشه في غاية الشدة ، وبهذا ظهر التعليل بهذه الجملة لما سبق من شدة البطش .

وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَقَالَ لِمَا يَرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَنتَكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ
 ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ
 قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أي بالغ المغفرة لذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها ، بالغ المحبة للمطيعين من أوليائه ، قال مجاهد الواد لأوليائه فهو فعول بمعنى فاعل . وقال ابن زيد معنى الودود الرحيم ، وحكى المبرد عن إسماعيل القاضي أن الودود هو الذي لا ولد له ، وقيل الودود بمعنى المودود أي يوده عباده الصالحون ويحبونه كذا قال الأزهري .

قال ويجوز أن يكون فعولاً بمعنى فاعل أي يكون محباً لهم ، قال وكلتا الصفتين مدح لأنه جل ذكره إن أحب عباده المطيعين فهو فضل منه ، وإن أحبه عباده العارفون فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه ، قال ابن عباس : الودود الحبيب .

وقالت المعتزلة غفور لمن تاب ، وقال أصحاب السنة غفور مطلقاً لمن تاب ومن لم يتب ، لأن الآية مذكورة في معرض التمدح بكونه غفوراً مطلقاً أتم ، فالحمل عليه أولى ، ولأن الغفور صيغة مبالغة فالمناسب أن يحمل على الإطلاق . قاله زاده .

﴿ ذو العرش المجيد ﴾ قرأ الجمهور برفع المجيد على أنه نعت لذو ، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم قالوا لأن المجد هو النهاية في الكرم والفضل ، والله سبحانه هو المنعوت بذلك .

وقرىء بالجر على أنه نعت للعرش ومجده علوه وعظمته .

وقدم وصف سبحانه عرشه بالكرم كما في آخر سورة المؤمنين ، قال ابن عباس : المجيد الكريم ، قيل أن العرش أحسن الأجسام ، وقيل هو نعت

لربك ، ولا يضر الفصل بينهما لأنها صفات لله سبحانه ، وقال مكي : هو خبر بعد خبر . والأول أولى . ومعنى ذو العرش ذو الملك والسلطان كما يقال فلان على سرير ملكه ، وقيل المراد خالق العرش .

﴿ فعال لما يريد ﴾ من الإبداء والاعادة ، قال عطاء لا يعجز عن شيء يريد ولا يمتنع منه شيء طلبه ، وارتفاع فعال على أنه خبر مبتدأ محذوف ، قال الفراء : هو رفع على التكرير والاستئناف لأنه نكرة محضة ، قال ابن جرير : رفع فعال وهو نكرة محضة على وجه الاتباع لإعراب ﴿ الغفور الودود ﴾

وإنما قال : « فعال » لأن ما يريد ويفعل في غاية الكثرة ، والإرادة هنا تكوينية فيكون فيه دلالة على خلق أفعالهم ، وختم به الصفات لأنه كالنتيجة للأوصاف السابقة .

قال الكرخي : نكره لضرب من التعظيم تتلاشى عنده الأوهام والعقول ، قال بعضهم : وفيه دلالة على أنه لا يجب عليه شيء لأنها دالة على أن فعله بحسب إرادته ، ثم ذكر سبحانه خبر الجموع الكافرة فقال :

﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ والجملة مستأنفة مقررة لما تقدم من شدة بطشه سبحانه وكونه فعالاً لما يريد ، وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي هل أتاك يا محمد خبر الجموع الكافرة الطاغية في الأمم الخالية المكذبة لأنبيائهم المتجندة عليها .

ثم بينهم فقال ﴿ فرعون وثمود ﴾ وهو بدل من الجنود ، فالمراد بفرعون هو وقومه والمراد بثمود القوم المعروفون ، والمراد بحديثهم ما وقع منهم من الكفر والعناد والضلال ، وما وقع عليهم من العذاب والنكال ، وقصتهم مشهورة ، وقد تكرر في الكتاب العزيز ذكرها في غير موضع ، واقتصر على الطائفتين لاشتهار أمرهما عند أهل الكتاب ، وعند مشركي العرب ودل بهما على أمثالهما .

ثم أضرب عن مماثلة هؤلاء الكفار الموجودين في عصره صلى الله عليه

وآله وسلم إضراباً إنتقالياً لمن تقدم ذكرهم وبين أنهم أشد منهم في الكفر والتكذيب فقال ﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾ شديد لك ولما جئت به ، ولم يعتبروا بمن كان قبلهم من الكفار .

﴿والله من ورائهم محيط﴾ أي يقدر على أن ينزل بهم ما أنزل بأولئك لا عاصم لهم منه ، والاحاطة بالشيء الحصر له من جميع جوانبه فهو تمثيل لعدم نجاتهم بعدم فوت المحاط به على المحيط .

ثم رد سبحانه تكذيبهم بالقرآن فقال : ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ أي متناه في الشرف والكرم والبركة والنفع ، معجز بنظمه عالي الطبقة من بين الكتب ، وحيد في النظم والمعنى لكونه بياناً لما شرعه الله لعباده من أحكام الدين والدنيا وليس هو كما يقولون أنه شعر وكهانة وسحر .

﴿في لوح محفوظ﴾ أي مكتوب في لوح وهو أم الكتاب محفوظ عند الله من وصول الشياطين اليه ، قرأ الجمهور لوح بفتح اللام واتفق عليها القراء وقرأ الجمهور محفوظ بالجر على أنه نعت للوح وقرىء برفعه على أنه نعت للقرآن ، أي ﴿بل هو قرآن مجيد﴾ محفوظ في لوح ، قيل والمراد باللوح بضم اللام الهواء والفضاء الذي فوق السماء السابعة ، وبه قال أبو الفضل وكذا قال ابن خالويه .

وقال في الصحاح اللوح بالضم الهواء بين السماء والأرض ، وعن ابن عباس قال «أخبرت أن لوح الذكر لوح واحد فيه الذكر» وأن ذلك اللوح نور ، وأنه مسيرة ثلثمائة سنة» أخرجه ابن المنذر ، وعن انس ان اللوح المحفوظ الذي ذكره الله في الآية في جبهة اسرافيل .

وأخرج أبو الشيخ قال السيوطي بسند جيد عن ابن عباس قال : «خلق الله اللوح المحفوظ كمسيرة مائة عام فقال للقلم قبل أن يخلق الخلق اكتب علمي في خلقي ، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة» وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

سورة الطارق

هي سبع عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن خالد الحذاء « أنه أبصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سوق ثقيف وهو قائم على قوس أو عصا حين أتاهم يبتغي النصر عندهم. فسمعه يقرأ ﴿ والسماء والطارق ﴾ حتى ختمها قال فوعيتها في الجاهلية ثم قرأتها في الإسلام. قال فدعنتي ثقيف فقالوا ماذا سمعت من هذا الرجل. فقرأتها فقال من معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا. لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه » أخرجه أحمد والبخاري في تاريخه والطبراني وابن مردويه.

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ
الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾

﴿والسمااء والطارق﴾ أقسم سبحانه بالسمااء والطارق ، وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر السمااء والشمس والقمر والنجوم ، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغارها عجيبة ، والطارق هو النجم الثاقب كما صرح به التنزيل .
قال الواحدي : قال المفسرون أقسم الله بالطارق يعني الكواكب تطرق بالليل وتخفى بالنهار ، قال الفراء : الطارق النجم لأنه يطلع بالليل ، وما أتاك ليلاً فهو طارق ، وكذا قال الزجاج والمبرد .

وقد اختلف في الطارق هل هو نجم معين أو جنس النجم ، فقيل هو زحل وقيل الثريا وقيل هو الذي ترمى به الشياطين ، وقيل هو جنس النجم ، قال في الصحاح : والطارق النجم الذي يقال له كوكب الصبح .

قال الماوردي : أصل الطروق الدق فسمي قاصد الليل طارِقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق ، ثم اتسع به في كل ما ظهر بالليل كائناً ما كان ، ثم اتسع كل التوسع حتى أطلق على الصور الخالية البادية بالليل .

وقال قوم إن الطروق قد يكون نهراً والعرب تقول أتيتك اليوم طرقتين أي مرتين ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم « أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير » قال ابن عباس أقسم ربك بالطارق وكل شيء طرقت بالليل فهو طارق .

ثم بين سبحانه ما هو الطارق تفخياً لشأنه بعد تعظيمه بالإقسام به فقال ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ وفيه تنبيه على أن رفعة قدره بحيث لا ينالها إدراك

الخلق ، فلا بد من تلقيها من الخلاق العليم .

﴿ النجم الثاقب ﴾ أي المضيء ومنه يقال ثقب النجم ثقباً إذا أضاء وثقوبه ضؤوه ، قال مجاهد : الثاقب المتوهج وقيل المرتفع العالي ، قال سفيان : كان ما في القرآن « وما أدراك » فقد أخبره ، وكل شيء قال « ما يدريك » لم يخبره به .

وقيل هو نجم في السماء السابعة وهو زحل لا يسكنها غيره من النجوم ، وإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء هبط فكان معها ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة ، فهو طارق حين ينزل وحين يصعد .

ولم يقل : والنجم الثاقب ، مع أنه أخضر وأظهر فعدل عنه تفخيماً لشأنه فأقسم أولاً بما يشترك فيه هو وغيره وهو الطارق ، ثم فسره بالنجم إزالة لذلك الإبهام الحاصل بالاستفهام ، والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر نشأ مما قبله كأنه قيل ما هو فقيل هو النجم الثاقب .

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ هذا جواب القسم ، وما بينها اعتراض جيء به لتأكيد فخامة القسم المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسم عليها ، وقد تقدم في سورة هود اختلاف القراء في « لما » فمن قرأ بتخفيفها كانت إن هنا هي المخففة من الثقيلة فيها ضمير الشأن المقدر وهو اسمها ، واللام هي الفارقة و « ما » مزيدة ، وهذا كله تفريع على قول البصريين أي أن الشأن كل نفس لعلها حافظ .

ومن قرأ بالتشديد فإن نافية ، ولما بمعنى إلا أي ما كل نفس إلا عليها حافظ ، قيل والحافظ هم الحفظة من الملائكة الذين يحفظون عليها عملها وقولها وفعلها ، ويحصون ما تكسب من خير وشر ، وقيل الحافظ هو الله عز وجل .

وعدى حافظ بعلى لتضمينه معنى القيام ، فإنه تعالى قائم على خلقه

بعلمه واطلاعه على أحوالهم وقيل هو العقل يرشدهم إلى المصالح ويكفهم عن
المفاسد ، والأول أولى لقوله ﴿ وإن عليكم لحافظين ﴾ وقوله ﴿ ويرسل عليكم
حفظة ﴾ وقوله ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه ﴾ والحافظ في
الحقيقة هو الله عز وجل كما في قوله ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ وقوله ﴿ وكان الله
على كل شيء رقيباً ﴾ فإن الممكنات كما تحتاج إلى الواجب لذاته في وجودها
تحتاج إليه في بقائها ، وحفظ الملائكة من حفظه لأنهم يحفظونه بأمره .

﴿ فلينظر الإنسان ﴾ الفاء للدلالة على أن كون حافظ على كل نفس
يوجب على الإنسان أن يتفكر في مبتدأ خلقه ليعلم قدرة الله على ما هو دون
ذلك من البعث ، قال مقاتل يعني المكذب بالبعث ﴿ مم خلق ﴾ أي من أي
شيء خلقه الله ، والمعنى فلينظر نظر التفكير والاستدلال حتى يعرف أن الذي
ابتدأه من نطفة قادر على إعادته .

ثم بين سبحانه ذلك فقال ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ والجملة مستأنفة
جواب سؤال مقدر ، والماء هو المني والدفق الصب ، يقال دفقت الماء أي
صببته ويقال ﴿ ماء دافق ﴾ أي مدفوق مثل ﴿ عيشة راضية ﴾ أي مرضية .

قال الفراء والأخفش أي مصبوب في الرحم ، قال الفراء وأهل الحجاز
يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم سر كاتم أي مكتوم
وهم ناصب أي منصوب وليل نائم ونحو ذلك .

قال الزجاج : من ماء ذي اندفاق يقال دارع وقايس ونابل أي ذو درع
وقوس ونبل ، يعني من صيغ النسب كلابن وتامر ، وهو صادق على الفاعل
والمفعول أو هو مجاز في الأسناد ، فأسند إلى الماء ما لصاحبه مبالغة أو هو
استعارة مكنية وتخيلية أو مصرحة بجعله دافقاً لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق
بعضه بعضاً أي يدفعه كما أشار له ابن عطية .

وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما لكن جعلها ماء
واحداً لا متزاجهما .

يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَإِنَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا هَزْلٌ ﴿١٤﴾ لِيُكِيدُوا كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُمْ رُودًا ﴿١٧﴾

ثم وصف هذا الماء فقال ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ أي صلب الرجل وترائب المرأة وهي جمع تربية وهي موضع القلادة من الصدر ، والولد لا يكون إلا من المائين ، قرأ الجمهور يخرج مبنياً للفاعل وقرىء مبنياً للمفعول ، وفي الصلب وهو الظهر لغات قرأ الجمهور بضم الصاد وسكون اللام ، وقرأ أهل مكة بضمهما ، وقرأ اليماني بفتحهما ، ويقال صالب على وزن قالب ومنه قول العباس بن عبد المطلب * تنقل من صالب إلى رحم * في أبياته المشهورة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم كلام في هذا عند تفسير قوله ﴿الذين من أصلابكم﴾ وقيل الترائب ما بين الثديين .

وقال الضحاك : ترائب المرأة اليدان والرجلان والعينان وقال : سعيد بن جبير هي الجيد ، وقال مجاهد هي ما بين المنكبين والصدر ، وروي عنه أنه قال : هي الصدر ، وعنه قال هي : التراقي ، وحكى الزجاج أن الترائب عصارة القلب ومنه يكون الولد ، والمشهور في اللغة أنها عظام الصدر والنحر ، قال عكرمة الترائب الصدر .

قال في الصحاح التريبة واحدة الترائب وهي عظام الصدر ، قال أبو عبيدة جمع التريبة تريب ، وحكى الزجاج أن الترائب أربع أضلاع من يمين الصدر ، وأربع أضلاع من يسرة الصدر .

قال قتادة والحسن المعنى يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة ، وحكى الفراء أن مثل هذا يأتي من العرب يكون معنى من بين الصلب من الصلب ، وقيل إن ماء الرجل ينزل من الدماغ .

ولا يخالف هذا ما في الآية لأنه إذا نزل من الدماغ نزل من بين الصلب والترائب ، وقيل أن المنى يخرج من جميع أجزاء البدن ، ولا يخالف هذا ما في الآية لأن نسبة خروجه إلى ما بين الصلب والترائب باعتبار أن أكثر أجزاء البدن هي الصلب والترائب وما يجاورها وما فوقها مما يكون تنزله منها .

قال ابن عباس في الآية : ما بين الجيد والنحر ، وعنه قال : تربية المرأة وهي موضع القلادة وعنه الترائب ما بين ثدي المرأة وعنه الترائب أربع أضلاع من كل جانب من أسفل الاضلاع ، قال ابن عادل أن الولد يخرج من ماء الرجل يخرج من صلبه العظم والعصب ، ومن ماء المرأة يخرج من ترائبها اللحم والدم .

﴿ إنه على رجهه لقادر ﴾ الضمير في « إنه » يرجع إلى الله سبحانه بدلالة قوله ﴿ خلق ﴾ عليه ، فإن الذي خلقه هو الله سبحانه ، والضمير في رجهه عائد إلى الإنسان ، والمعنى أن الله سبحانه على إعادة الإنسان بالبعث بعد الموت لقادر ، هكذا قال جماعة من المفسرين .

وقال مجاهد : على أن يرد الماء في الإحليل ، وقال عكرمة والضحاك على أن يرد الماء في الصلب ، وقال مقاتل بن حيان يقول إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب ، ومن الشباب إلى الصبا ، ومن الصبا إلى النطفة وقال ابن زيد إنه على حبس ذلك الماء حتى لا يخرج لقادر ، والأول أظهر ، ورجحه ابن جرير والثعلبي والقرطبي ، قال ابن عباس : على أن يجعل الشيخ شاباً والشاب شيخاً .

﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ العامل في الظرف على تفسير الأول هو رجهه ، وقيل لقادر ، واعترض عليه بأنه يلزم تخصيص القدرة بهذا اليوم ، وقيل العامل فيه مقدر أي يرجعه أو اذكر فيكون مفعولاً به .

وأما على قول من قال أن المراد رجع الماء فالعامل فيه اذكر ، والمعنى تختبر وتعرف وتكشف السرائر التي تسر في القلوب من العقائد والنيات

وغيرها ، وقيل يظهر الخبايا وقيل يبدي كل سر فيكون زيناً في وجوه ، وشيناً في وجوه ، والمراد هنا عرض الأعمال ونشر الصحف ، فعند ذلك يتميز الحسن منها من القبيح ، والغث من السمين ، وفي المختار السر الذي يكتم وجمعه أسرار ، والسريرة مثله والجمع سرائر .

﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾ أي فما للإنسان من قوة ومنعة في نفسه يمتنع بها من عذاب الله ولا ناصر ينصره مما نزل به ، قال عكرمة هؤلاء الملوك ما لهم يوم القيامة من قوة ولا ناصر ، قال سفيان القوة العشيرة والناصر الحليف والأول أولى .

﴿والسواء ذات الرجع﴾ أي التي ترجع بالدوران إلى الموضع الذي تتحرك عنه ، قال الزجاج : الرجع المطر ، لانه يجيء ويرجع ويتكرر ، قال الخليل الرجع المطر نفسه ، والرجع نبات الربيع .

قال الواحدي : الرجع المطر في قول جميع المفسرين ، وفي هذا نظر فإن ابن زيد قال الرجع الشمس والقمر والنجوم يرجعن في السماء تطلع من ناحية وتغيب في ناحية ، وقال بعض المفسرين ذات الرجع ذات الملائكة لرجوعهم إليها بأعمال العباد ، وقال بعضهم معناه ذات النفع .

ووجه تسمية المطر رجعاً ما قاله القفال أنه مأخوذ من ترجيع الصوت وهو إعادته وكذا المطر لكونه يعود مرة بعد أخرى سمي رجعاً ، وقيل إن العرب كانوا يزعمون أن السحاب تحمل الماء من بحار الأرض ثم ترجعه إلى الأرض ، وقيل سمته العرب رجعاً لاجل التفاؤل ليرجع عليهم وقيل لأن الله يرجعه وقتاً بعد وقت ، وقال ابن عباس الرجع المطر بعد المطر .

﴿والأرض ذات الصدع﴾ هو ما تتصدع عنه الأرض من النبات والثمار والشجر والأنهار والعيون ، والصدع الشق لانه يصدع الأرض فتصدع له قال أبو عبيدة والفراء : تتصدع بالنبات ، قال مجاهد : والأرض ذات الطرق التي تصدعها المياه وقيل ذات الحرث لانه يصدعها ، وقيل ذات

الاموات لانصداعها عنهم عند البعث .

والحاصل أن الصدع إن كان اسماً للنبات فكأنه قال والأرض ذات النبات ، وإن كان المراد به الشق فكأنه قال والأرض ذات الشق الذي يخرج منه النبات ونحوه ، وقال ابن عباس صدعها عن النبات وعنه قال تصدع الاودية .

وعن معاذ بن أنس مرفوعاً قال « تصدع بإذن الله عن الأموال والنبات » ، أخرجه ابن منده والديلمي .

قال الرازي إنه تعالى كما جعل كيفية خلقه الحيوان دليلاً على معرفة المبدأ والمعاد ، ذكر في هذا القسم كيفية خلقه النبات ، فقوله تعالى ﴿ والسماوات والرجع ﴾ كالأب وقوله ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ كالأم ، وكلاهما من النعم العظام لان نعم الدنيا موقوفة على ما ينزل من السماء مكرراً ، وعلى ما ينبت من الأرض كذلك .

وجواب القسم الثاني قوله ﴿ إنه لقول فصل ﴾ أي أن القرآن لقول يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما كما قيل له فرقان ، ومنه فصل الخصومات وهو قطعها بالحكم الجازم ، ويقال هذا قول فصل أي قاطع للشر والنزاع ، وقال ابن عباس فصل حق .

﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي لم ينزل القرآن الكريم باللعب فهو جد كلمة ليس بالهزل ، والهزل ضد الجد ، فيجب أن يكون مهيباً في الصدور ، ومعظماً في القلوب ، يترفع به قارئه وسامعه عن أن يلزم بهزل أو يتفكه بمزاح ، وقال ابن عباس بالهزل بالباطل .

﴿ انهم يكيدون كيداً ﴾ أي يمكرون في إبطال ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الدين الحق ، قال الزجاج يخاتلون النبي صلى الله عليه وسلم ويظهرون ما هم على خلافه ، وذلك حين اجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا فيه وقيل الكيد القاء الشبهات كقولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾

﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً﴾ وما أشبه ذلك .

﴿وأكيد كيداً﴾ أي أستدرجهم من حيث لا يعلمون وأجازيهم جزاء كيدهم ، قيل هو ما أوقع الله بهم يوم بدر من القتل والاسر ، وقيل كيد الله لهم نصرة نبيه صلى الله عليه وسلم وإعلاء درجته ، تسمية لإحدى المتقابلين بالاسم الآخر كقوله ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ .

﴿فمهل الكافرين﴾ أي أخرهم ولا تسأل الله سبحانه تعجيل هلاكهم والدعاء عليهم باهلاكهم فإننا لا نعجل لان العجلة وهي ايقاع الشيء في غير وقته اللائق به نقص ، وارض بما يريد لك في أمورهم ﴿أمهلهم﴾ بدل من مهل ومهل ، وأمهل بمعنى مثل نزل وأنزل ، والامهال الانظار ، وتمهل في الامر اتأد ، وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين والتصبير ، وانتصاب ﴿رويداً﴾ على أنه مصدر مؤكد للفعل المذكور أو نعت لمصدر محذوف أي أمهلهم امهالاً رويداً أي قليلاً أو قريباً .

وقد أخذهم الله تعالى ، ونسخ الامهال بآية السيف والامر بالقتال والجهاد ، قال أبو عبيدة الرويد في كلام العرب تصغير الرود والروود المهل ، وقيل تصغير أرود مصدر أرود تصغير الترخيم ، ويأتي اسم فعل نحو : رويد زيداً أي أمهله ويأتي حالاً نحو سار القوم رويداً أي متمهلين ذكر معنى هذا الجوهري والبحث مستوفى في علم النحو .

سورة الاعلى

ويقال سورة سبح وهي تسع عشرة آية هي مكية في قول الجمهور، وقال الضحاك مدنية، وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير وعائشة مثله .

وأخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال « أول من قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مصعب بن عمير وابن أم مكتوم فجعلنا يقرآن القرآن ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ثم جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون هذا رسول الله عليه وآله وسلم قد جاء فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وسورة مثلها^(١) .

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٥٣٧/٨ عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ (يعني المدينة) مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلنا يقرآننا القرآن ، ثم جاء عمار ، وبلال ، وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ في سور مثلها أهـ . وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بها وبسورة الغاشية في صلاة الجمعة والعيد ووتر العشاء ، وتبث في « الصحيحين » أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلاً صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » ؟ .

وعن علي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحب هذه السورة سبح اسم ربك الاعلى ، أخرجه أحمد والبزار وابن مردويه
أحد لكثرة ما اشتملت عليه من العلوم والخيرات الحسان .

وأخرج أحمد ومسلم وأهل السنن عن النعمان بن بشير « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة ﴿ سبح اسم ربك الاعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ وإن وافق يوم الجمعة قراءهما جميعاً ، وفي لفظ وربما اجتمعا في يوم واحد فقراءهما . وفي الباب أحاديث .

وأخرج مسلم وغيره عن جابر بن سمرة « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في الظهر سبح اسم ربك الاعلى . »

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه والدارقطني والحاكم والبيهقي عن أبي بن كعب قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بـ ﴿ سبح اسم ربك الاعلى ﴾ ﴿ وقل يا أيها الكافرون ﴾ ﴿ وقل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بسبح وفي الركعة الثانية ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثالثة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين .

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ هلا طليت بـ ﴿ سبح اسم ربك الاعلى ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ والليل إذا يغشى .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سُنُقِرُكَ فَلَ تَنْسَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ أي نزهه عن كل ما لا يليق به في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه ، قال السدي : أي عظمه قيل والإسم هنا مقحم لقصد التعظيم ، قال ابن جرير المعنى نزه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه ، فلا تكون لفظة « اسم » على هذا مقحمة وقيل المعنى نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره إلا وأنت له خاشع معظم ولذكره محترم ، وقال الحسن معنى سبح صل له وقيل المعنى صل بأسماء الله لا كما يصلي المشركون بالملكاء والتصدية وقيل المعنى ارفع صوتك بذكر ربك ومنه قول جرير :

قبح الإله وجوه تغلب كلما سبح الحجيح وكبروا تكبرا

وقال جماعة من الصحابة والتابعين قل سبحان ربي الأعلى ، وقيل معناه نزه ربك الأعلى عما يصفه به الملحدون ، فعلى هذا يكون الإسم صلة ، والأعلى صفة للرب ، وقيل للاسم ، والأول أولى .

وعن عقبة بن عامر الجهني قال لما نزلت فسبح باسم ربك العظيم ، قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعلوها في ركوعكم ، فلما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال اجعلوها في سجودكم أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه ولا مطعن في إسناده .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى » أخرجه أحمد والطبراني وابن مردويه

والبيهقي ، وقال أبو داود خولف فيه وكيع فرواه شعبة عن أبي إسحق عن سعيد عن ابن عباس موقوفاً ، واخرجه موقوفاً أيضاً عبد الرزاق وابن أبي شيبه وعبد بن حميد وابن جرير عنه أنه « كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى » .

وفي لفظ لعبد بن حميد عنه قال إذا قرأت سبح اسم ربك الأعلى فقل سبحان ربي الأعلى ، وعن علي بن أبي طالب « أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة فقل له أتزيد في القرآن قال لا إنما أمرنا بشيء فقلته » .

وعن أبي موسى الأشعري أنه قرأ في الجمعة سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى .

وعن سعيد بن جبير قال سمعت ابن عمر يقرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى .

وكذلك هي في قراءة أبي بن كعب وعن عمر أنه كان إذا قرأ سبح اسم ربك الأعلى قال سبحان ربي الأعلى وعن ابن الزبير أنه قرأ سبح اسم ربك الأعلى فقال سبحان ربي الأعلى وهو في الصلاة .

وقوله ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ صفة أخرى للرب قال الزجاج خلق الإنسان مستوياً ، ومعنى سوى عدل قامته وحسن خلقه ، قال الضحاك خلقه فسوى خلقه وقيل خلق الأجساد فسوى الأفهام وقيل خلق الإنسان وهياه للتكليف والقيام بأداء العبادات وقيل خلق في أصلاب الآباء وسوى في أرحام الأمهات .

وقيل خلق كل شيء فسوى خلقه تسوية ولم يأت به متفاوتاً غير ملتئم ولكن على إحكام واتساق ودلالة على أنه صادر عن عالم حكيم أو سواه على ما فيه منفعة ومصلحة وقيل خلق كل ذي روح فسوى اليدين والرجلين والعينين .

وقوله ﴿والذي قدر فهدى﴾ صفة أخرى للرب أو معطوف على الموصول الذي قبله ، قرء قدر مخففاً ومثقلاً ، قال الواحدي قال المفسرون : قدر خلق الذكر والأنثى من الدواب فهدى الذكر للأنثى كيف يأتيها .

وقال مجاهد : هدى الإنسان لسبيل الخير والسعادة والشقاوة ، وروي عنه أيضاً أنه قال : قدر السعادة والشقاوة وهدى للرشد والضلالة ، وهدى الانعام لمراعيها وقيل قدر أرزاقهم وأقواتهم وهداهم لمعايشهم إن كانوا إنساً ، ولمراعيهم إن كانوا وحشاً .

وقال عطاء : جعل لكل دابة ما يصلحها وهداها له وقيل خلق المنافع في الأشياء وهدى الإنسان لوجه استخراجها منها ، وقال السدي : قدر مدة الجنين في الرحم تسعة أشهر ، وأقل وأكثر ثم هداه للخروج من الرحم .
قال الفراء أي قدر فهدى وأضل ، فاكتمى بأحدهما .

وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا والأولى عدم تعيين فرد أو أفراد مما يصدق عليه قدر وهدى إلا بدليل يدل عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين إما على البذل أو على الشمول ، والمعنى قدر أجناس الأشياء وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه .

ولما ذكر ما يختص بالناس أتبعه بما يختص بالحيوان فقال ﴿والذي أخرج المرعى﴾ صفة أخرى للرب أي أنبت العشب وما ترعاه الدواب والنعم من النبات الأخضر .

﴿فجعله غثاء﴾ أي فجعل المرعى بعد أن كان أخضر هشياً يابساً جافاً بالياً كالغثاء الذي يكون فوق السيل ، وفي القاموس الغثاء القماش والزبد والهالك البالي من ورق الشجر ، قال قتادة الغثاء الشيء اليابس ، ويقال للبقول والحشيش إذا انحطم ويبس « غثاء » وهثيم ، قال الكسائي غثاء حال من المرعى أي أخرجه أحوى من شدة الخضرة والري فجعله غثاء بعد ذلك .

﴿أحوى﴾ أي اسود بعد اخضراره ، وذلك أن الكلاً إذا يبس أسود ، والأحوى مأخوذ من الحوة وهي سواد يضرب إلى الخضرة ، وقيل خضرة عليها سواد ، وفي القاموس الحوة سواد إلى خضرة أو حمرة إلى السواد ، حوى كرضى حوى ، قال في الصحاح والحوة أي بالضم حمرة الشفة ، قال ابن عباس غثاء هشياً أحوى متغيراً ، وقال ابن زيد وهذا مثل ضربه الله للكفار بذهاب الدنيا بعد نضارتها .

﴿سنقرئك﴾ أي سنجعلك قارئاً بأن نلهمك القراءة ، والسين إما للتأكيد وإما لأن المراد إقراء ما أوحى الله إليه حينئذ وما سيوحى إليه بعد ذلك ، فهو وعد باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء ﴿فلا تنسى﴾ ما نقرأه ، والجملة مستأنفة لبيان هدايته صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة به بعد بيان الهداية العامة لكافة خلقه ، وهو هدايته صلى الله عليه وآله وسلم لحفظ القرآن وتلقي الوحي ، وهدايته للناس أجمعين .

قيل هو نفي ، وقيل نهي والألف اشباع ، ومنع مكى أن يكون نهياً لأنه لا ينهى عما ليس باختياره ، وهذا غير لازم إذ المعنى أن النهي عن تعاطي أسباب النسيان وهو شائع فسقط ما قاله .

قال مجاهد والكلبي كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من آخر الآية حتى يتكلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأولها مخافة أن ينساها ، فنزلت هذه الآية فلم ينس شيئاً بعد ذلك .

وعن ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينسى فقليل له قد كفيناك ذلك ، ونزلت هذه الآية » وعن سعد بن أبي وقاص نحوه .

وهذه الآية تدل على المعجزة من وجهين :

﴿الأول﴾ أنه كان رجلاً أُمياً فحفظه لهذا الكتاب المطول من غير دراسة

ولا تكرار خارق للعادة فيكون معجزة .

﴿ الثاني ﴾ أن هذه السورة من أول ما نزل بمكة فهذا إخبار عن أمر عجيب مخالف للعادة سيقع في المستقبل ، وقد وقع فكان هذا إخباراً فيكون معجزاً .

وقوله ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ استثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي لا تنسى مما تقرأه شيئاً من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه ، قال ابن عباس يقول إلا ما شئت أنا فأنسيك .

قال الفراء وهو لم يشأ سبحانه أن ينسى محمد صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً كقوله ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ وقيل إلا ما شاء الله أن تنسى ثم تذكر بعد ذلك فإذا قد ينسى ولكنه يتذكر ولا ينسى شيئاً نسياناً كلياً ، وقيل هو بمعنى النسخ أي إلا ما شاء الله أن ينسخه مما نسخ تلاوته وحكمه معاً ، وأما ما نسخت تلاوته فقط أو حكمه فقط فلا يصح أن تنساه للاحتياج إلى تلاوته في الأول ، وإلى حكمه في الثاني .

وقيل المعنى فلا تترك العمل إلا ما شاء الله أن تتركه لنسخه ورفع حكمه ، وقيل إلا ما شاء أن يؤخر إنزاله ، والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة والايذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهية المستتبعة لسائر الصفات .

﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ تعليل لما قبله أي يعلم ما ظهر وما بطن ، والاعلان والاسرار ، وظاهره العموم فيندرج تحته ما قيل ان الجهر ما حفظه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وما يخفى هو ما نسخ من صدره ، ويدخل تحته أيضاً ما قيل من أن الجهر هو إعلان الصدقة وما يخفى هو أخفاؤها .

ويدخل تحته أيضاً ما قيل ان الجهر جهره صلى الله عليه وسلم بالقرآن مع قراءة جبريل مخافة أن يتفلت عليه ، وما يخفى ما في نفسه مما يدعوه إلى الجهر .

وَنَيْسِرُكَ لِلْيَسْرِ ﴿٨﴾ فَذَكَرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴿٩﴾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَسْجَنِبُهَا
 الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾
 وَذَكَرَ أَسْمَرِيَّهٖ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ
 هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾

﴿ونيسرك لليسرى﴾ معطوف على سنقرئك كما ينبىء عنه الالتفات إلى الحكاية فهو داخل في حيز التنفيس ، وما بينها اعتراض وارد للتعليل .

قال مقاتل : أن نهون عليك عمل الجنة ، وقيل نوفقك للطريقة التي هي أيسر وأسهل ، وقيل للشرعية اليسرى وهي الحنيفية السهلة السمحة البيضاء التي ليلها كنهارها ، وقيل نهون عليك الوحي حتى تحفظه وتعمل به .
 والأولى حمل الآية على العموم أي نوفقك للطريقة اليسرى في الدين والدنيا في كل أمر من أمورهما التي تتوجه إليك ، وهذه النكتة قال ﴿نيسرك﴾ ولم يقل نيسر لك أي لإفادة أنك موفق لها ، وقال ابن عباس لليسرى للخير ، وقال ابن مسعود للجنة .

﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ أي عظم يا محمد الناس بما أوحينا إليك وأرشدتهم إلى سبل الخير ، واهداهم إلى شرائع الدين ، قال الحسن تذكرة للمؤمن وحجة على الكافر .

قال الواحدي : إن نفعت أو لم تنفع ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث مبلغاً للإعذار والإنذار فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع ، ولم يذكر الحالة الثانية كقوله ﴿سراييل تقيكم الحر﴾ : قال الجرجاني : التذكير واجب وإن لم ينفع فالمعنى إن نفعت الذكرى أو لم تنفع ، وقيل أنه مخصوص في قوم بأعيانهم ، وقيل إن بمعنى ما أي فذكر ما نفعت الذكرى لأن الذكرى

نافعة بكل حال وقيل انها بمعنى (قد) ذكره ابن خالويه وهو بعيد جداً ،
وقيل انها بمعنى اذ .

وما قاله الواحدى والجرجاني أولى وقد سبقهما إلى القول به الفراء
والنحاس والزهرأوي قال الرازي : قوله ﴿ ان نفعت الذكرى ﴾ للتنبيه على
أشرف الحالين وهو وجود النفع الذي لأجله شرعت الذكرى والمعلق بأن على
الشيء لا يلزم أن يكون عدماً عند عدم ذلك الشيء ، ويدل عليه آيات منها
هذه الآية ، ومنها قوله تعالى ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ ومنها قوله
﴿ ولا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة إن خفتم ﴾ فإن القصر جائز عند
الخوف وعدمه ، ومنها قوله ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما
حدود الله ﴾ والمراجعة جائزة بدون هذا الظن .

فهذا الشرط فيه فوائد منها ما تقدم ، ومنها البعث على الانتفاع بالذكر
كما يقول الرجل لمن يرشد ، قد أوضحت لك أن كنت تعقل ، وهو تنبيه للنبي
صلى الله عليه وآله وسلم على أنها لا تنفعهم الذكرى ، أو يكون هذا في تكرير
الدعوة فأما الدعاء الأول فهو عام انتهى .

ثم بين سبحانه الفرق بين من تنفعه الذكرى ومن لا تنفعه فقال :
﴿ سيذكر ﴾ أي سيتعظ بوعظك ، والسين بمعنى سوف ، وسوف من الله
واجب كقوله سنقرئك فلا تنسى ﴿ من يخشى ﴾ الله فيزداد بالتذكير خشية
وصلاحاً .

﴿ ويتجنبها ﴾ أي ويتجنب الذكرى ويبعد عنها فلا يقبلها ﴿ الأشقى ﴾
من الكفار لإصراره على الكفر بالله وانهماكه في معاصيه .

ثم وصف الأشقى فقال ﴿ الذي يصلى النار الكبرى ﴾ أي العظيمة
الفظيعة لأنها أشد حراً من غيرها . قال الحسن النار الكبرى نار جهنم والنار
الصغرى نار الدنيا ، وقال الزجاج هي السفلى من أطباق النار ، وقيل أن في
الآخرة نيراناً ودركات متفاضلة ، فكما أن الكافر أشقى العصاة فكذا يصلى

أعظم النيران .

﴿ ثم لا يموت فيها ﴾ فيستريح مما هو فيه من العذاب ﴿ ولا يحیی ﴾ حياة ينتفع بها ، ومنه قول الشاعر :

ألا ما لنفس لا تموت فينقضي عنها ولا تحیی حياة لها طعم
وثم للتراخي في مراتب الشدة لأن التردد بين الموت والحياة أفضع من
صلي النار الكبرى .

ولما ذكر تعالى وعيد من أعرض عن النظر في دلائل الله أتبعه بالوعد
لضده فقال ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي نال الفوز من تطهر من الشرك فأمن
بالله ووحده وعمل بشرائعه ، قال عطاء والربيع من كان عمله زاكياً نامياً ،
وقال قتادة : تزكى بعمل صالح ، وقال عطاء وقاتدة وأبو العالية نزلت في
صدقة الفطر ، قال عكرمة كان الرجل يقول أقدم زكاتي بين يدي صلاتي ،
وأصل الزكاء في اللغة النماء .

وقيل المراد بالآية زكاة الأموال كلها . وقيل المراد بها زكاة الأعمال لا
زكاة الأموال لأن الأكثر أن يقال في الأموال زكى لا تزكى ، قال ابن عباس :
من تزكى من قال لا إله إلا الله .

وعن عوف عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه يأمر بزكاة الفطر قيل أن
يصلي صلاة العيد ويتلو هذه الآية » أخرجه البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم
والحاكم في الكنى والبيهقي في سننه وابن مردويه ، وفي لفظ قال « سئل النبي
صلى الله عليه وسلم عن زكاة الفطر فقال ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال هي
زكاة الفطر » وكثير بن عبدالله ضعيف جداً^(١) قال أبو داود وهو ركن من أركان
الكذب وقد صحح الترمذي حديثاً من طريقه وخطيء في ذلك .

ولكن يشهد له ما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري « قد كان

(١) أحد رجال إسناد هذا الحديث ولم يذكره المؤلف اختصاراً .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر .

وليس في هذين الحديثين ما يدل على أن ذلك سبب النزول بل فيها أنه صلى الله عليه وسلم تلا الآية ، وقوله هي زكاة الفطر يمكن أن يراد به أنها مما يصدق عليه التزكي ، وقد قدمنا أن السورة مكية ولم يكن في مكة صلاة عيد ولا فطرة .

وعن أبي سعيد الخدري في الآية قال « أعطى صدقة الفطر قبل أن يخرج إلى العيد وخرج إلى العيد فصلى » وعن ابن عمر قال إنما أنزلت هذه الآية في إخراج صدقة الفطر قبل صلاة العيد ، وعن عطاء قال قلت لابن عباس رأيت قوله ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ للفطر قال لم أسمع بذلك ، ولكن للزكاة كلها ، ثم عاودته فقال لي : والصدقات كلها .

﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ قيل المعنى ذكر اسم ربه بالخوف فعبدته وصلّى له ، وقيل ذكر اسم ربه بلسانه وكبر للافتتاح فصلّى أي فأقام الصلوات الخمس ، وبه يحتج على وجوب تكبيرة الافتتاح وعلى أنها ليست من الصلاة لأن الصلاة عطف عليها وهو يقتضي المغايرة ، على أن الافتتاح جائز بكل اسم من أسمائه عز وجل ، قاله النسفي وفيه نظر ، وقيل ذكر موقفه ومعاذته فعبدته وهو كالقول الأول .

وقيل ذكر اسم ربه بالتكبير في أول الصلاة لأنها لا تنعقد إلا بذكره وهو قوله الله أكبر ، وقيل ذكر اسم ربه في طريق المصلى فصلّى ، وقيل هو أن يتطوع بصلاة بعد زكاة ، وقيل المراد بالصلاة هنا صلاة العيد كما أن المراد بالتزكي في الآية الأولى زكاة الفطر ، ولا يخفى بعد هذا القول لأن السورة مكية ولم تفرض زكاة الفطر وصلاة العيد إلا بالمدينة .

عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ قال « من شهد أن لا إله إلا الله وقطع الأنداد وشهد أني

رسول الله ﷺ وذكر اسم ربه صلى ﷺ قال هي الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بمواقيتها» أخرجه ابن مردويه ، وقال البزار لا يروى عن جابر إلا من هذا الوجه وعن ابن عباس قال من تزكى من الشرك ﷺ وذكر اسم ربه ﷺ قال وحد الله صلى ﷺ قال الصلوات الخمس .

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ هذا إضراب عن كلام مقدر يدل عليه السياق وينساق إليه الكلام أي أنتم لا تفعلون ذلك بل تؤثرون اللذات الفانية العاجلة الكائنة في الدنيا على الدار الآخرة الآجلة الباقية فلا تفعلون ما به تفلحون .

قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب للكفار فقط أو لمطلق الناس ، ويؤيدها قراءة أبي بل أنتم تؤثرون وقرئ بالتحتية على الغيبة وعلى هذا يكون الضمير راجعاً للأشقى ، قيل والمراد بالآية الكفرة والمراد بالايثار للحياة الدنيا هو الرضا بها والاطمئنان إليها والاعراض عن الآخرة بالكلية .

وقيل المراد بها جميع الناس من مؤمن وكافر ، والمراد بإيثارها هو أعم من ذلك مما لا يخلو عنه غالب الناس من إيثار جانب الدنيا على الآخرة ، والتوجه إلى تحصيل منافعها والاهتمام بها اهتماماً زائداً على اهتمامه بالطاعات .

وعن عرفة الثقفي قال استقرأت ابن مسعود ﷺ سبح اسم ربك الأعلى ﷺ فلما بلغ ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه فقال آثرنا الدنيا على الآخرة فسكت القوم فقال آثرنا الدنيا لأن رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزويت عنا الآخرة ، فآثرنا هذا العاجل وتركنا الآجل ، وقال ﴿ بل يؤثرون الحياة الدنيا ﴾ بالياء .

قال عرفة عند ابن مسعود فقرأ هذه الآية فقال لنا أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة قلنا لا ، قال لأن الدنيا أحضرت وعجل لنا طعامها وشرابها ونساءها ولذاتها وبهجتها ، وأن الآخرة تغيب وزويت عنا فأصبنا العاجل وتركنا الآجل .

﴿والآخرة خير وأبقى﴾ أي والحال أن الدار الآخرة التي هي الجنة أفضل وأدوم من الدنيا ، لأنها تشتمل على السعادة الجسمانية والروحانية ، والدنيا ليست كذلك ، ولأن الدنيا لذاتها مخلوقة بالآلام ، والآخرة ليست كذلك ، ولأن الدنيا فانية والآخرة باقية ، والباقي خير من الفاني .
قال مالك بن دينار لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى لكان الواجب أن يؤثر خزف يبقى على ذهب يفنى ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى .

﴿إن هذا﴾ أي ما تقدم من فلاح من تزكى وما بعده ، وقيل إنه إشارة إلى جميع السورة ﴿لفي الصحف الأولى﴾ أي ثابت فيها قال النسفي وهو دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة ، لأنه جعله مذكوراً في تلك الصحف مع أنه لم يكن فيها بهذا النظم وبهذه اللغة انتهى .

قال الخطيب : لم يُرد تعالى أن هذه الالفاظ بعينها في تلك الصحف بل معناه أن معنى هذا الكلام في تلك الصحف وفيه بعد لأن أبا حنيفة قد رجع عنه وعليه الإعتداد عند الحنفية وعليه الفتوى منهم وقد وصف الله سبحانه القرآن بكونه عربياً فلا يتم هذا الإستدلال .

﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ بدل من الصحف الأولى قال قتادة وابن زيد يريد بقوله ﴿إن هذا : والآخرة خير وأبقى﴾ وقالوا تتابعت كتب الله عز وجل أن الآخرة خير وأبقى من الدنيا وقال الحسن تتابعت كتب الله عز وجل إن هذا لفى الصحف الأولى ، وهو قوله ﴿قد أفلح﴾ إلى آخر السورة .

قرأ الجمهور صحف بضم الحاء في الموضعين ، وقرئ بسكونها فيهما ، وقرأ الجمهور «إبراهيم» بالألف بعد الراء وبالياء بعد الهاء ، وقرئ بحذفهما وفتح الهاء ، وقرأ أبو موسى وابن الزبير إبراهيم بألفين .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «هي كلها في صحف إبراهيم وموسى» أخرجه البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن

مردويه ، وعنه في الآية قال « نسخت هذه السورة من صحف إبراهيم وموسى » وفي لفظ « هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى » .

وعن أبي ذر قال : قلت « يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب ؟ قال مائة كتاب وأربعة كتب » الحديث وأخرجه عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر .

سورة الفاشية

هي ست وعشرون آية وهي مكية بلا خلاف . وعن ابن عباس
قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله . وقد تقدم حديث النعمان بن
بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سبح اسم ربك
الإعلى والفاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلِّي نَارًا
حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ قال جماعة من المفسرين هل هنا بمعنى قد ، وبه قال قطرب أي قد جاءك يا محمد ، حديث الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الخلائق بأهوالها ، وقيل أن بقاء (هل) على معناها الاستفهامي المتضمن للتعجب مما في حيزه والتشويق الى استماعه أولى .

وقد ذهب الى أن المراد بالغاشية هنا القيامة أكثر المفسرين ، وقال سعيد بن جبير ومحمد بن كعب الغاشية النار تغشى وجوه الكفار كما في قوله ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ وقيل الغاشية أهل النار لأنهم يغشونها ويقتحمونها ، والأول أولى .

قال الكلبي المعنى إن لم يكن أتاك حديث الغاشية فقد أتاك قال ابن عباس : الغاشية من أسماء القيامة وعنه قال الغاشية الساعة ، وفي المصباح الغشاء الغطاء ويقال أن الغشى يعطل القوى المحركة والأوردة الحساسة لضعف القلب بسبب وجع شديد أو برد أو جوع مفرط ، وقيل الغشي هو الاغماء وقيل الإغماد امتلاء بطون الدماغ من بلغم بارد غليظ وقيل الاغماء سهو يلحق الانسان مع فتور الأعضاء لعدة ، وغشيته أغشاه من باب تعب أتيته ، والاسم الغشيان بالكسر .

وجملة ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ما هو أو مستأنفة استئنافاً نحوياً لبيان ما تضمنته من كون ثم وجوه في ذلك اليوم متصفة بهذه الصفات المذكورة ، ووجوه مرتفع على الابتداء وإن كان نكرة لوقوعه في مقام التفصيل ، وقد تقدم مثل هذا في سورة القيامة وفي سورة النازعات .

والتنوين في يومئذ عوض عن المضاف إليه أي يوم غشيان الغاشية ، والخاشعة الذليلة الخاضعة وكل متضائل ساكن يقال له خاشع ، يقال خشع الصوت إذا خفي ، وخشع في صلاته إذا تذلل ونكس رأسه ، والمراد بالوجوه هنا أصحابها قال المحلي عبر بها عن الدُّوات في الموضعين أي بالجزء عن الكل ، وخص الوجه لأنه أشرف أعضاء الانسان ولأن الذل يظهر عليه أولاً دون غيره ، قال مقاتل يعني الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله ، قال قتادة وابن زيد خاشعة في النار .

وقيل أراد وجوه اليهود والنصارى على الخصوص ، والأول أولى ، وفي البحر : الآية نزلت في القسيسين وعباد الأوثان ، وفي كل مجتهد في كفر .

﴿ عاملة ﴾ أي أنها تعمل عملاً شاقاً ، قال أهل اللغة يقال للرجل إذا دأب في سيره عمل يعمل عملاً ، ويقال للسحاب إذا دام برقه قد عمل يعمل عملاً ، قيل وهذا العمل هو جر السلاسل والأغلال والخوض في النار والصعود والهبوط في تلالها ووهادها .

﴿ ناصبة ﴾ أي تعبئة يقال نصب بالكسر ينصب نصباً إذا تعب ، والمعنى أنها في الآخرة تعبئة لما تلاقيه من عذاب الله ، وقيل أن قوله ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا إذ لا عمل في الآخرة أي تعمل في الدنيا بالكفر والمعاصي ، وتنصب في ذلك ، وقيل إنها ﴿ عاملة ﴾ في الدنيا ﴿ ناصبة ﴾ في الآخرة ، والأول أولى .

قال قتادة عاملة ناصبة تكبرت في الدنيا عن طاعة الله فأعملها الله

وأنصبها في النار بجر السلاسل الثقالة ، وحمل الأغلال ، والوقوف حفاة عراة في العرصات ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ .

قال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله في الدنيا ولم تنصب فاعملها وانصبها في جهنم ، قال الكلبي : يجرون على وجوههم في جهنم ، وقال أيضاً يكلفون ارتقاء جبل من حديد في جهنم فينصبون فيها أشد ما يكون من النصب بمعالجة السلاسل والأغلال والخوض في النار كما تخوض الابل في الوحل .

قال ابن عباس : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ تعمل وتنصب ، وعنه قال يعني اليهود والنصارى تخشع ولا ينفعها عملها ، قرأ الجمهور ﴿ عاملة ناصبة ﴾ بالرفع فيهما على أنهما خبران آخران للمبتدأ أو على تقدير مبتدأ وهما خبران له ، وقرىء بنصبهما على الحال أو على الذم .

وقوله ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ خبر آخر للمبتدأ أي تدخل ناراً متناهية في الحر ، يقال حمى النار وحمى التنور أي اشتد حرهما ، قال الكسائي يقال اشتد حمى النهار وحموه بمعنى ، والمعنى قد أحمرت وأوقد عليها مدة طويلة ، وفي الحديث « أحمرى عليها ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة » .

قرأ الجمهور تصلى بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرىء بضمها مبنياً للمفعول وبضم التاء وفتح الصاد وتشديد اللام ، والضمير راجع الى الوجوه على جميع هذه القراءات السبعية ، والمراد أصحابها كما تقدم .

وهكذا الضمير في ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي متناهية في الحر ، والآني الذي قد انتهى حره من الإبقاء بمعنى التأخر ، يقال آناه يؤنيه إبقاء أي أخره وحبسه ، كما في قوله ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ قال الواحدي

قال المفسرون لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت ، قال ابن عباس هي التي قد طال أينها وقال أيضا قد أنى غليانها ، وعنه قال انتهى حرها .

ولما ذكر سبحانه شرابهم عقبه بذكر طعامهم فقال : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ هو نوع من الشوك لا ترعاه دابة لخبثه يقال له الشبرق في لسان قريش إذا كان رطباً فإذا يبس فهو الضريع ، كذا قال مجاهد ، وقتادة وغيرهما من المفسرين ، قيل وهو سم قاتل ، وإذا يبس لا تقربه دابة ولا ترعاه ، وقيل هو شيء يرمى به البحر يسمى الضريع من أقوات الأنعام لا من أقوات الناس ، فاذا رعت منه الابل لا تشبع وتهلك هزلاً . قال الخليل الضريع نبات أخضر منتن الريح يرمى به البحر ، وجمهور أهل اللغة والتفسير قالوا بالأول .

وقال سعيد بن جبير : الضريع الحجارة وقيل هو شجرة في نار جهنم ، وقال الحسن : هو بعض ما أخفاه الله من العذاب . وقال ابن كيسان : هو طعام يضرعون عنده ويدلون ويتضرعون الى الله بالخلاص منه ، فسمي بذلك لأن آكله يتضرع إلى الله في أن يعفى عنه لكرهته وخشونته ، قال النحاس : قد يكون مشتقاً من الضارع وهو الدليل أي من شربه تلحقه ضراعة وذلة ، وقال الحسن أيضاً هو الزقوم وقيل هو واد في جهنم .

وقد تقدم في سورة الحاقة ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ﴾ والغسلين غير الضريع كما تقدم ، وجمع بين الآيتين بأن النار دركات ، والعذاب ألوان والمعذبون طبقات ، فمنهم من طعامه الضريع ، ومنهم من طعامه الغسلين ، ومنهم من طعامه الزقوم ، فلا تناقض بين هذه الآيات .

قال ابن عباس الضريع الشبرق ، وقال أيضاً شجر من نار ، وعنه قال الشبرق اليابس .

لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾

ثم وصف سبحانه الضريع فقال : ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ أي لا يسمن الضريع آكله ولا يدفع عنه ما به من الجوع يعني هما منفعتا الغذاء وكلاهما منتفیان عنه .

قال المفسرون : لما نزلت ليس لهم طعام الخ قال المشركون إن إبلنا تسمن من الضريع فنزلت ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ وكذبوا في قولهم هذا فإن الابل لا تأكل الضريع ولا تقربه ، وقيل اشتبه عليهم أمره فظنوه كغيره من النبات النافع .

قال أبو السعود وتحقيق ذلك أن جوعهم وعطشهم ليسا من قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة من حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة الى المطعوم والمشروب بحيث يلتذ بهما عند الأكل والشرب ، ويستغنى بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المعدة ويستفيد منهما قوة وسمناً عند انهضامهما ، بل جوعهم عبارة عن اضطرابهم عند إضرار النار في أحشائهم الى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها من اللهب ، وأما أن يكون لهم شوق الى مطعم ما أو التذاذ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادة قوة فهيئات .

وكذا عطشهم عبارة عن اضطرابهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم الى شيء مائع بارد يطفئه من غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادة قوة في الجملة ، وهو المعنى بما روي أنه تعالى يسلط عليهم الجوع بحيث يضطربهم

الى أكل الضريع . فإذا أكلوه يسلط عليهم العطش فيضطرهم الى شرب الحميم فيشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم .

وتنكير الجوع للتحقير أي لا يغني من جوع ما .

ثم شرع سبحانه في بيان حال أهل الجنة بعد الفراغ من بيان حال أهل النار فقال ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أي ذات نعمة وبهجة في لين العيش ، وهي وجوه المؤمنين صارت ناعمة لما شاهدوا من عاقبة أمرهم وما أعده الله لهم من الخير الذي يفوق الوصف ، ومثله قوله ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ والمراد بالوجوه هنا أصحابها كما تقدم .

ثم قال ﴿ لسعيها راضية ﴾ أي لعملها الذي عملته في الدنيا راضية لأنها قد أعطيت من الأجر ما أرضاها وقرت به عيونها .

﴿ في جنة عالية ﴾ أي عالية المكان مرتفعة على غيرها من الأمكنة أو عالية القدر لأن فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين .

﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ قرأ الجمهور بفتح الفوقية ونصب لاغية أي لا تسمع أنت أيها المخاطب أو لا تسمع تلك الوجوه وقرىء بضم التحتية مبنياً للمفعول ورفع لاغية ، وقرىء بالفوقية مضمومة ورفع لاغية وقرىء بفتح التحتية مبنياً للفاعل ونصب لاغية . واللغو الكلام الساقط .

قال الفراء والأخفش : أي لا تسمع فيها كلمة لغو قيل المراد بذلك الكذب والبهتان والكفر ، قاله قتادة وقال مجاهد أي الشتم ، وقال الفراء لا تسمع فيها حالفاً يحلف بكذب ، قال الكلبي لا تسمع في الجنة حالفاً بيمين برة ولا فاجرة ، وقال الفراء أيضاً لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم ، وهذا أرجح الأقوال لأن النكرة في سياق النفي من صيغ العموم ولا وجه لتخصيص هذا بنوع من اللغو خاص إلا بمخصص يصلح للتخصيص .

ولاغية إما صفة موصوف محذوف أي كلمة لاغية أو جماعة لاغية أو

نفس لاغية أو مصدر أي لا تسمع فيها لغواً قال ابن عباس لا تسمع أذى ولا باطلاً .

﴿ فيها عين جارية ﴾ قد تقدم في سورة الانسان أن فيها عيوناً ، والعين هنا بمعنى العيون كما في قوله ﴿ علمت نفس ﴾ ومعنى جري العين أنها تجري مياهها على وجه الأرض في غير أخدود تتدفق بأنواع الأشربة المستلذة لا ينقطع جريها أبداً ، قال الكلبي لا أدري بماء أو بغيره .

﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أي عالية مرتفعة السمك أو عالية القدر أو شريفة الذات قال ابن عباس بعضها فوق بعض .

﴿ وأكواب موضوعة ﴾ قد تقدم أن الأكواب جمع كوب وأنه القدح الذي لا عروة له ولا خرطوم أي انها موضوعة بين أيديهم يشربون منها أو معدة لأهلها أو موضوعة على حافات العين الجارية أو موضوعة عن حد الكبر أي هي أوساط بين الكبر والصغر كقوله ﴿ قدروها تقديرًا ﴾ .

﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ هي الوسائد قال الواحدي في قول الجميع واحدتها نمركة بضم النون وزاد الفراء سماعاً عن العرب نمركة بكسرهما وهما لغتان أشهرهما الأولى ، قال الكلبي وسائد مصفوفة بعضها الى بعض ، ومنه قول الشاعر :

كهول وشبان حسان وجوهمهم على سرر مصفوفة ونمارق

قال في الصحاح : النمرك والنمركة وسادة صغيرة وكذلك النمركة بالكسر لغة حكاها يعقوب وقال ابن عباس : نمارق مجالس ، وعنه قال : مرافق ، وقيل مساند ومطارح أينما أراد أن يجلس جلس على موسدة واستند الى الأخرى ، قال الواحدي مصفوفة أي فوق الطنافس .

وَزَرَابِي مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ
 ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ
 مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ
 الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

﴿وزرابي مَبْثُوثَةٌ﴾ يعني البسط العراض الفاخرة واحدها زربي وزربية
 قال أبو عبيدة والفراء الزرابي الطنافس التي لها خمل رقيق واحدها زربية ،
 وفي القاموس الزرابي النمارق والبسط أو كل ما يبسط ويتكأ عليها : الواحد
 زربي بالكسر ويضم والمبثوثة المبسوطة قاله قتادة وقال عكرمة بعضها فوق
 بعض .

قال الواحدي ويجوز أن يكون المعنى أنها متفرقة في المجالس ، وبه
 قال القتيبي ، وقال الفراء مبثوثة كثيرة ، والظاهر أن معنى البث التفريق مع كثره
 ومنه ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ قال القرطبي وغيره هذا أصح .

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ
 والفاء للعطف على مقدر كما في نظائره مما مر غير مرة ، والجملة مستأنفة
 مسوقة لتقرير أمر البعث والاستدلال عليه ، وكذا ما بعدها ، وقيل الجملة في
 محل جر على أنها بدل اشتمال من الإبل .

والمعنى ينكرون أمر البعث ويستبعدون وقوعه أفلا ينظرون إلى الإبل
 التي هي غالب مواشيهم وأكثر ما يشاهدونه من المخلوقات كيف خلقت معدولاً
 عن سنن خلق سائر أنواع الحيوانات على ما هي عليه من الخلق البديع من
 عظم جشتها ومزيد قوتها وبديع أوصافها .

قال أبو عمرو بن العلاء إنما خص الإبل لأنها من ذوات الأربع تبرك

فتحمل عليها الحمولة ، وغيرها من ذوات الأربع لا يحمل عليه إلا وهو قائم .
قال الزجاج نبههم على عظيم من خلقه قد ذلله للصغير يقوده وينيخه ،
وينهضه ويحمل عليه الثقل من الحمل وهو بارك فينهض بثقل حمله ، وليس
ذلك في شيء من الحوامل غيره فأراهم عظيماً من خلقه ليدل بذلك على
توحيده .

وسئل الحسن عن هذه الآية وقيل له الفيل أعظم في الأعجوبة فقال أما
الفيل فالعرب بعيدة العهد به ، ثم هو خنزير لا يركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا
يحب دره ، والابل من أعز مال العرب وأنفسه يأكل النوى والقت ويخرج
اللبن ويأخذ الصبي بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها .

وقال المبرد : الابل هنا هي القطع العظيمة من السحاب ، وهو خلاف
ما ذكره أهل التفسير واللغة .

وروي عن الأصمعي أنه قال : من قرأ خلقت بالتخفيف عنى به البعير ،
ومن قرأ بالتشديد عنى به السحاب .

قال أبو السعود : بدأ بالابل لكثرة منافعها كأكل لحمها وشرب لبنها
والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد البعيدة ، وعيشها بأي نبات أكلته
كالشجر والشوك وصبرها على العطش عشرة أيام فأكثر ، وطواعيتها لكل من
قادها ولو صبيّاً صغيراً ونهوضها وهي باركة بالأحمال الثقيلة وتأثرها بالصوت
الحسن مع غلظ أكبادها ولا شيء من الحيوان جمع هذه الأشياء غيرها ولكونها
أفضل ما عند العرب جعلوها دية القتل .

والابل اسم جمع لا واحد له من لفظه وإنما واحده بعير وناقة وجمل .
﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ فوق الأرض بلا عمد على وجه لا يناله
الفهم ولا يدركه العقل وقيل رفعت فلا ينالها شيء .
﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ على وجه الأرض مرساة راسخة لا تميد

ولا تميل ولا تزول ﴿ والى الأرض كيف سطحت ﴾ أي بسطت ، والسطح بسط الشيء يقال لظهر البيت إذا كان مستويا سطح ، قرأ الجمهور مبنياً للمفعول مخففاً ، وقرأ الحسن : مشدداً ، وقرأ علي بن أبي طالب وغيره خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وضم التاء فيها كلها .

قال المحلي قوله سطحت ظاهر في أن الأرض سطح ، وعليه علماء الشرع لا كرة كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقض ركناً من أركان الشرع .

قال الكرخي هي كرة بطبعها وحقيقتها لكن الله أخرجها عن طبعها بفضله وكرمه بتسطيح بعضها لاقامة الحيوانات عليها فأخرجها عما يقتضيه طبعها انتهى .

وفي التكميل للشيخ رفيع الدين ابن ولي الله الدهلوي رحمه الله : أهل الشرائع يفهمون من مثل قوله تعالى ﴿ الأرض فراشاً ، ودحاها ، وسطحت ﴾ انها سطح مستو ، والحكماء يثبتون كرويتها بالأدلة الصحيحة فيتوهم الخلاف ، ويدفع بأن القدر المحسوس منها في كل بقعة سطح مستو ، فإن الدائرة كلما عظمت قل انجذاب أجزائها فاستواؤها باعتبار محسوسية ، أجزائها ، وكرويتها باعتبار معقولية جملتها انتهى .

ثم لما ذكر تعالى دليل توحيده ولم يعتبروا ولم يتفكروا فيها خاطب نبيه وأمره بأن يذكرهم فقال ﴿ فذكر ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فعظهم يا محمد وخوفهم ، ثم علل الأمر بالتذكير فقال ﴿ إنما أنت مذكر ﴾ أي ليس عليك إلا ذلك و ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ حتى تكرهمهم على الايمان ، ومسيطر بالصاد والسين المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ، كذا في الصحاح قال ابن عباس أي بجبار ، وعنه قال ثم نسخ ذلك فقال ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ .

﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع من الهاء في عليهم أي لكن من تولى عن الوعظ والتذكير ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ وهو عذاب جهنم

الدائم ، وقيل هو استثناء متصل من قوله ﴿ فذكر ﴾ أي فذكر كل أحد إلا من انقطع طمعك عن إيمانه وتولى فاستحق العذاب الأكبر ، والأول أولى ، وإنما قال الأكبر لأنهم قد عذبوا في الدنيا بالجوع والقحط والقتل والأسر .

وقرأ ابن مسعود ﴿ فإنه يعذبه الله ﴾ وقرأ ابن عباس وقتادة ﴿ ألا من تولى ﴾ على أنها ألا التي للتنبيه والاستفتاح .

﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ أي رجوعهم بعد الموت بالبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالاً ولا اشتراكاً وفائدة تقديم الظرف التشديد في الوعيد وان إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وقال ابن عباس أي مرجعهم يقال آب يؤوب إذا رجع ، قرأ الجمهور إيابهم بالتخفيف وقرأء بالتشديد ، قال أبو حاتم لا يجوز التشديد ولو جاز لجاز مثله في الصيام والقيام ، وقيل هما لغتان بمعنى ، قال الواحدي وأما إيابهم بتشديد الياء فانه شاذ لم يجزه أحد غير الزجاج .

﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ يعني جزاءهم بعد رجوعهم إلينا بالبعث في المحشر لا على غيرنا وثم للتراخي في الرتبة لا في الزمان لبعد منزلة الحساب في الشدة عن منزلة الإياب ، وعلى لتأكيد الوعيد لا للوجوب إذ لا يجب على الله شيء ، وجمع الضمير في إيابهم وحسابهم باعتبار معنى من كما أن أفرادهم في يعذبه باعتبار لفظها ، وفي تصدير الجملتين بإن وتقديم خبرها وعطف الثانية على الأولى بكلمة ثم المفيدة لبعد منزلة الحساب في الشدة من الإنباء عن غاية السخط الموجب لتشديد العذاب ما لا يخفى .

سورة الفجر

هي ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون وهي مكية بلا خلاف في قول الجمهور قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير وعائشة مثله ، ومدنية في قول علي ابن أبي طلحة .

أخرج النسائي عن جابر قال صلى معاد صلاة فجاء رجل فطلب معه فطول ، فطلب في ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاداً فقال منافق ، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال يا رسول الله جئت أطلب معه فطول علي فانصرف فطلب في ناحية المسجد فخلعت ناضج ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، « أفأتان أنت يا معاد ، أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والفجر والليل إذا يغشى » .

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ﴿٤﴾

﴿ والفجر ﴾ أقسم سبحانه بهذه الأشياء كما أقسم بغيرها من مخلوقاته ، واختلف في الفجر الذي أقسم الله به هنا ف قيل هو الوقت المعروف ، وسمي فجراً لأنه وقت انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم ، قاله علي وابن الزبير ، وقال قتادة انه فجر أول يوم من شهر محرم ، لأن منه تنفجر السنة ، وقال مجاهد يريد يوم النحر .

وقال الضحاك فجر ذي الحجة لأن الله قرن الأيام به فقال ﴿ وليال عشر ﴾ أي ليالي عشر من ذي الحجة ، وبه قال السدي والكلبي ، وقيل المعنى وصلاة الفجر أو ورب الفجر ، والأول أولى ، وقال ابن عباس فجر النهار ، وعنه قال يعني صلاة الفجر ، وعنه قال هو المحرم فجر السنة .

وقد ورد في فضل صوم شهر محرم أحاديث صحيحة ، ولكنها لا تدل على انه المراد بالآية لا مطابقة ولا تضمناً ولا التزاماً ، وجواب هذا القسم وما بعده هو قوله ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ . قاله ابن الأنباري ، وقيل محذوف لدلالة السياق عليه أي ليجازين كل أحد بما عمل أو ليعذبين ، وقدره أبو حيان بما دلت عليه خاتمة السورة التي قبله أي والفجر الخ لإيابهم إلينا وحسابهم علينا ، وهذا ضعيف جداً ، وأضعف منه قول من قال أن الجواب قوله ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ وأن هل بمعنى قد ، لأن هذا لا يصح أن يكون مقسماً عليه أبداً .

وليال عشر هي عشر ذي الحجة في قول جمهور المفسرين ، وإنما نكرت ولم تعرف لفضيلتها على غيرها لأنها أفضل ليالي السنة ، ولو عرفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذي في التنكير ، فنكرت من بين ما أقسم به للفضيلة التي ليست لغيرها ، وقال الضحاك انها العشر الأواخر من رمضان ، وقيل العشر الأول من المحرم إلى عاشرها يوم عاشوراء .

قرأ الجمهور ليال بالتثنية وعشر صفة لها ، وقرأ ابن عباس بالاضافة قيل والمراد ليالي أيام عشر ، وكان حقه على هذا أن يقال عشرة لأن المعدود مذكر ، وأجيب عنه بأنه إذا حذف المعدود جاز الوجهان .

وعن جابر مرفوعاً « هي ليالي العشر من ذي الحجة »^(١) ، أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم ، وعن طلحة بن عبد الله أنه دخل على ابن عمر هو وأبو سلمة بن عبد الرحمن فدعاهم ابن عمر الى الغداء يوم عرفة فقال أبو سلمة أليس هذه الليالي العشر التي ذكرها الله تعالى في القرآن ؟ فقال ابن عمر وما يدريك قال ما أشك ، قال بلى فاشكك .

وقد ورد في فضل هذه العشر أحاديث ، وليس فيها ما يدل على انها المرادة بما في القرآن هنا بوجه من الوجوه ، قال ابن عباس هي العشر الأواخر من رمضان .

﴿ والشفع والوتر ﴾ هما يعمان الأشياء كلها شفعها ووترها ، كالكفر والايمان ، والهدى والضلال ، والسعادة والشقاوة ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والبر والبحر ، والشمس والقمر ، والجن والانس ، وقيل شفع الليالي ووترها ، وقال قتادة الشفع والوتر شفع الصلاة ووترها منها شفع ومنها

(١) المراد بها عشر ذي الحجة ، كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف ، قال : وقد ثبت في « صحيح البخاري » عن ابن عباس مرفوعاً : « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » يعني عشر ذي الحجة ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء » .

وتر ، وقيل الشفع يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة يوم النحر ، وقال مجاهد وعطية العوفي الشفع الخلق والوتر الله الواحد الصمد وبه قال محمد بن سيرين ومسروق وأبو صالح وقتادة ، وقال الربيع بن أنس وأبو العالية هي صلاة المغرب فيها ركعتان الوتر الركعة .

وقال الضحاك الشفع عشر ذي الحجة والوتر أيام منى الثلاثة ، وبه قال عطاء وقيل هما آدم وحواء لأن آدم كان وتراً فشفع بحواء ، وقيل الشفع درجات الجنة وهي ثمان والوتر دركات النار وهي سبع وبه قال الحسين بن الفضل وقيل الشفع الصفا والمروة والوتر الكعبة ، وقال مقاتل الشفع الأيام والليالي والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده وهو يوم القيامة .

وقال سفيان بن عيينة الوتر هو الله سبحانه ، وهو الشفع أيضاً لقوله ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ الآية وقال الحسن المراد بالشفع والوتر العدد كله لأن العدد لا يخلو عنهما ، وقيل الشفع مسجد مكة والمدينة ، والوتر مسجد بيت المقدس ، وقيل الشفع حج القرآن والوتر الافراد ، وقيل الشفع الحيوان لأنه ذكر وأنثى والوتر الجماد ، وقيل الشفع ما سمي ، والوتر ما لم يسم .

ولا يخفأك ما في غالب هذه الأقوال من السقوط البين ، والضعف الظاهر ، والاتكال في التعيين على مجرد الرأي الزائف والخاطر الخاطيء ، والذي ينبغي التعويل عليه ويتعين المصير اليه ما يدل عليه معنى الشفع والوتر في كلام العرب وهما معروفان واضحان ، فالشفع عند العرب الزوج ، والوتر الفرد .

فالمراد بالآية إما نفس العدد أو ما يصدق عليه من المعدودات بأنه شفع أو وتر ، وإذا قام دليل على تعيين شيء من المعدودات في تفسير هذه الآية فإن كان الدليل يدل على أنه المراد نفسه دون غيره فذاك ، وإن كان الدليل يدل على أنه مما تناولته هذه الآية لم يكن ذلك مانعاً من تناولها لغيره .

عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الشفع والوتر ، فقال : « هو الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر » أخرجه أحمد والترمذي وغيرهما وفي اسناده رجل مجهول وهو الراوي له عن عمران^(١) .

وقد روي عن عمران بن عصام عن عمران بن حصين باسقاطه الرجل المجهول ، وقال الترمذي في الرواية الأولى غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة .

قال ابن كثير وعندي أن وقفه على عمران أشبه والله تعالى أعلم ، قال ولم يجزم ابن جرير بشيء من هذه الأقوال في الشفع والوتر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير هذا الحديث موقوفاً على عمران ، فهذا يقوي ما قاله ابن كثير .

وعن جابر مرفوعاً « أن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر » أخرجه أحمد والنسائي والبخاري والحاكم وصححه وغيرهم .

وعن ابن عباس قال كل شيء شفع فهو اثنان ، والوتر واحد . وعن أبي أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم « انه سئل عن الشفع والوتر فقال يومان وليلة يوم عرفة ويوم النحر ، والوتر ليلة النحر ليلة جمع » أخرجه الطبراني وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الشفع

(١) رواه أحمد في « المسند » ٤٤٢/٤ من حديث همام عن قتادة عن عمران بن عصام الضبعي أبو عمارة البصري ، عن شيخ أهل البصرة ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه . ورواه أيضاً الترمذي ١٧٠/٢ من حديث همام عن قتادة به ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضاً عن قتادة ، ورواه ابن جرير الطبري ١٧٢/٣٠ عن خالد بن قيس عن قتادة به ، والحاكم في « المستدرک » ٥٢٢/٢ من حديث همام عن قتادة به ، وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وفيه نظر ، لأن الراوي عن عمران بن حصين مجهول ، ولم يوثقه إلا ابن حبان . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٤٦/٦ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

اليومان والوتر اليوم الثالث» أخرجه ابن جرير ، وعن ابن الزبير قال الشفع قول الله ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ والوتر اليوم الثالث وفي لفظ الوتر أوسط أيام التشريق .

وعن ابن عباس قال الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .

قرأ الجمهور الوتر بفتح الواو ، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بكسرهما وهي قراءة ابن مسعود وأصحابه ، وهما لغتان ، والفتح لغة قريش وأهل الحجاز ، والكسر لغة تميم . قال الأصمعي كل فرد وتر ، وأهل الحجاز يفتحون فيقولون وتر في الفرد ، وحكى يونس عن ابن كثير أنه قرأ بفتح الواو وكسر التاء فيحتمل أن يكون لغة ثالثة . ويحتمل انه نقل كسرة الراء الى التاء إجراء للوصل مجرى الوقف .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ قرأ الجمهور يسر بحذف الياء وصللاً ووقفاً اتباعاً لرسم المصحف ، وقرأ نافع وأبو عمرو بحذفها في الوقف وإثباتها في الوصل ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن ويعقوب بإثباتها فيهما ، قال الخليل تسقط الياء منها موافقة لرؤوس الآي ، قال الزجاج والحذف أحب إليّ لأنها فاصلة والفواصل تحذف منها الياءات ، قال الفراء قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها .

قال المؤرج سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من ﴿ يسري ﴾ فقال لا أجيبك حتى تبين على باب داري سنة فبت على باب داره سنة فقال الليل لا يسري وإنما يسرى فيه فهو مصروف عن جهته وكل ما صرفته عن جهته بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله ﴿ وما كانت أمك بغياً ﴾ ولم يقل بغية لأنه صرفها عن باغية .

وفي كلام الأخفش هذا نظر فإن صرف الشيء عن معناه بسبب من الأسباب لا يستلزم صرف لفظه عن بعض ما يستحقه ، ولو صح ذلك للزم في كل المجازات العقلية واللفظية ، واللازم باطل فالملزوم مثله ، والأصل هنا

إثبات الياء لأنها لام الفعل المضارع المرفوع ولم تحذف لعله من العلل إلا لاتباع رسم المصحف وموافقة رؤوس الآي إجراء للفواصل مجرى القوافي .

ومعنى ﴿ والليل إذا يسر ﴾ إذا يمضي كقوله ﴿ والليل إذا أدبر ﴾ ، ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ وقيل معنى يسر يسار فيه كما يقال ليل نائم ونهار صائم وبهذا قال الأخفش والقتيبي وغيرهما من أهل المعاني ، وعلى هذا نسبة السري إلى الليل مجاز والمراد يسرى فيه فهو مجاز في الاسناد بإسناد ما للشيء للزمان كما يسند للمكان ، والظاهر أنه مجاز مرسل أو استعارة ، وبالأول قال جمهور المفسرين .

وقال قتادة وأبو العالية ﴿ والليل إذا يسر ﴾ أي جاء وأقبل ، وقال النخعي أي استوى ، قال عكرمة وقتادة والكلبي ومحمد بن كعب هي ليلة المزدلفة خاصة لاختصاصها باجتماع الناس فيها لطاعة الله سبحانه ، وقيل ليلة القدر لسراية الرحمة فيها واختصاصها بزيادة الثواب ، والراجح عدم تخصيص ليلة من الليالي دون أخرى .

قال ابن عباس ﴿ إذا يسر ﴾ إذا ذهب ، ويسر مأخوذ من السري وهو خاص بسير الليل ، يقال سريت الليل وسريت به ، وقد استعملت العرب سرى في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً ، واتساعاً نحو طاف الخيال وذهب الهم وأخذ الكسل والنشاط .

وقول الفقهاء سرى الجرح الى النفس معناه دام ألمه حتى حدث منه الموت ، وقطع كفه فسرى الى ساعده أي تعدى أثر الجرح ، وسرى التحريم وسرى العتق بمعنى التعدي . وهذه الألفاظ جارية على السنة الفقهاء ، وليس لها ذكر في الكتب المشهورة لكنها موافقة لما تقدم .

قال الفارابي سرى فيه السم والخمر ونحوهما ، وقال السرقسطي سرى عرق السوء من الانسان ، وقال ابن القطاع سرى عليه الهم أتاها ليلاً ، وسرى همه ذهب .

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴿٨﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي
الْأَوْنَادِ ﴿١٠﴾

﴿ هل في ذلك قسم ﴾ هذا الاستفهام لتقرير تعظيم ما أقسم الله سبحانه به وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة ، والاشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ الى تلك الأمور . والتذكير بتأويل المذكور ، أي هل في ذلك المذكور من الأمور التي أقسمنا بها قسم أي مقنع ومكتفى في القسم أو مقسم به حقيق بأن يؤكد به الأخبار ، وأيا ما كان فما فيه من معنى البعد للايذان بعلورتبة المشار اليه وبعد منزلته في الفضل والشرف .

﴿ لذي حجر ﴾ أي عقل ولب ، فمن كان ذا عقل ولب علم أن ما أقسم الله به من هذه الأشياء حقيق بأن يقسم به ، ومثل هذا قوله ﴿ وانه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ قال الحسن : لذي حجر أي لذي حلم ، وقال أبو مالك : لذي ستر من الناس ، وقال الجمهور : الحجر العقل قال الفراء : الكل يرجع الى معنى واحد لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر ، الكل بمعنى العقل .

وأصل الحجر المنع يقال لمن ملك نفسه ومنعها أنه لذو حجر ، ومنه سمي الحجر لامتناعه بصلابته ومنه حجر الحاكم على فلان أي منعه ، قال والعرب تقول انه لذو حجر إذا كان قاهراً لنفسه ضابطاً لها ، قال ابن عباس لذي حجر لذي حجي وعقل ونهي .

ثم ذكر سبحانه على طريق الاستشهاد ما وقع من عذابه على بعض طوائف الكفار بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم للرسول تحذيراً للكفار في عصر نبينا صلى الله عليه وسلم ، وتخويفاً لهم أن يصيبهم ما أصابهم فقال :

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يوازي العيان في الايقان وهو استفهام تقرير ، قرأ الجمهور بتنوين عاد على أن يكون قوله ﴿ إرم ذات العماد ﴾ عطف بيان لعاد ، والمراد بعاد اسم أبيهم وإرم إسم القبيلة أو بدلاً منه ، وامتناع صرف إرم للتعريف والتأنيث ، وقيل المراد بعاد أولاد عاد وهم عاد الأولى ، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى فيكون ذكر إرم على طريقة عطف البيان أو البدل للدلالة على أنهم عاد الأولى لا عاد الأخرى .

ولا بد من تقدير مضاف على كلا القولين أي أهل إرم أو سبط إرم فإن إرم هو جد عاد ، لأنه عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقرأ الحسن وأبو العالية باضافة عاد الى إرم ، وقرأ الجمهور إرم بكسر الهمزة وفتح الراء والميم ، وقرئ بفتح الهمزة والراء وقرأ معاذ بسكون الراء تخفيفاً وقرئ باضافة إرم الى ذات العماد .

وقال مجاهد : من قرأ بفتح الهمزة شبههم بالإرم التي هي الأعلام واحداً إرم . وفي الكلام تقديم وتأخير أي والفجر وكذا وكذا إن ربك بالمرصاد ألم تر أي ألم ينته علمك إلى ما فعل ربك بعاد ، وهذه الرؤية رؤية القلب ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لكل من يصلح له .

وقد كان أمر عاد وثمود مشهوراً عند العرب ، لأن ديارهم متصلة بديار العرب ، وكانوا يسمعون من أهل الكتاب أمر فرعون .

وقال مجاهد أيضاً إرم أمة من الأمم ، وقال قتادة هي قبيلة من عاد ، وقيل هما عادان فالأولى هي إرم ، قال معمر إرم إليه مجتمع عاد وثمود وكان يقال عاد إرم وعاد ثمود وكانت القبيلتان تنسب الى إرم ، قال أبو عبيدة هما عادان فالأولى إرم .

ومعنى ذات العماد ذات القوة والشدة مأخوذ من قوة الأعمدة ، كذا قال الضحاك وقال قتادة ومجاهد انهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع ، فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم ، وقال مقاتل ذات العماد يعني طولهم ، وكان طول

الرجل منهم إثني عشر ذراعاً ، يقال رجل طويل العماد أي القامة .

قال أبو عبيدة ذات العماد ذات الطول ، يقال رجل معمد إذا كان طويلاً ، وقال مجاهد وقتادة أيضاً كان عماداً لقومهم يقال فلان عميد القوم وعمودهم أي سيدهم ، وقال ابن زيد ذات العماد يعني إحكام البنيان بالعمد .

قال في الصحاح : والعماد الأبنية الرفيعة تذكر وتؤنث ، وقال عكرمة وسعيد المقبري : هي دمشق ، وعن مالك مثله ، وقال محمد بن كعب : هي الاسكندرية ، قال ابن عباس يعني بالارم الهالك ، ألا ترى أنك تقول إرم بنو فلان ، وذات العماد يعني طولهم مثل العماد .

وعن المقدم بن معد يكرب عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه ذكر إرم ذات العماد فقال كان الرجل منهم يأتي الى الصخرة فيحملها على كاهله فيلقيها على أي حي أراد فيهلكهم » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه وفي اسناده رجل مجهول لأن معاوية بن صالح رواه عن حدثه عن المقدم .

﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ هذه صفة لعاد أي لم يخلق مثل تلك القبيلة في الطول والشدة والقوة وهم الذين قالوا ﴿ من أشد منا قوة ﴾ أو صفة للقرية على قول من قال أن إرم اسم لقريتهم أو للأرض التي كانوا فيها ، والأول أولى ويدل عليه قراءة أبي بن كعب ﴿ التي لم يخلق مثلهم في البلاد ﴾ وقيل الإرم الهلاك قال الضحاك إرم ذات العماد أي أهلكتهم فجعلهم رمياً ، وبه قال شهر بن حوشب .

وقد ذكر جماعة من المفسرين أن إرم ذات العماد اسم مدينة مبنية بالذهب والفضة قصورها ودورها وبساتينها وأن حصباءها جواهر ، وترابها مسك ، وليس بها أنيس ولا فيها ساكن من بني آدم وأنها لا تزال تنتقل من موضع الى موضع تارة تكون باليمن وتارة تكون بالشام وتارة تكون بالعراق وتارة تكون بسائر البلاد . وهذا كذب بحث لا ينفع^(١) على من له أدنى تمييز .

وزاد الثعلبي في تفسيره فقال أن عبد الله بن قلابة في زمان معاوية دخل هذه المدينة ، وهذا كذب على كذب ، وافتراء على افتراء .

وقد أصيب الاسلام وأهله بداهية دهياء وفاقرة عظمى . ورزية كبرى من أمثال هؤلاء الكذابين الدجالين الذين يجترئون على الكذب تارة على بني اسرائيل وتارة على الأنبياء وتارة على الصالحين ، وتارة على رب العالمين ، وتضاعف هذا الشر وزاد كثرة بتصدر جماعة من الذين لا علم لهم بصحيح الرواية من ضعفها بل موضوعها للتصنيف والتفسير للكتاب العزيز فأدخلوا هذه الخرافات المختلفة ، والأقاصيص المنحولة والأساطير المفتعلة في تفسير كتاب الله سبحانه ، فحرفوا وغيروا وبدلوا ، ومن أراد أن يقف على بعض ما ذكرنا فلينظر في كتاب الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني .

قال الحافظ ابن كثير لا تغتر بما ذكر جماعة من المفسرين من ذكر مدينة يقال لها إرم ذات العماد فإن ذلك كله من خرافات الاسرائيليين من وضع الزنادقة منهم ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس ، فهذا وأمثاله مختلق لا حقيقة له .

وأما قوله تعالى فالمراد من الآية إنما هو الاخبار عن هلاك القبيلة المسماة بعاد الذين أرسل الله فيهم هوداً فكذبوه فأهلكهم الله ، وإرم عطف بيان لعاد أو بدل منه للاعلام بأنهم عاد الأولى فسموا باسم جدتهم إرم كما يقال لبني هاشم « هاشم » لأن عاد هو ابن عوض بن إرم سام بن نوح ، وقيل إرم اسم بلدتهم وأرضهم بالتقدير بعاد أهل إرم كقوله تعالى ﴿ واسأل القرية ﴾ أي أهلها وذات العماد إن كان صفة للقبيلة فمعناها أنهم أصحاب خيام لها أعمدة يظنون بها ، أو هو كناية عن طول اجسامهم وتشبيهها بالأعمدة ، وإن كان صفة للبلدة فمعناه أنها ذات عمد من الحجارة .

وتعقب هذا القول بأنه لو كان ذلك مراداً لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد وانما قال ﴿ لم يخلق ﴾ فالقول الأول هو الصواب انتهى ، وبه قال شيخ

الاسلام نجم الدين محمد الغيظي رحمه الله تعالى .

قال عبد الرحمن بن خلدون في كتاب العبر بعد ذكر أغلاط المؤرخين :

وأبعد من ذلك وأغرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة والفجر في قوله تعالى ﴿ إرم ذات العماد ﴾ فيجعلون لفظة إرم إسمًا لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وهي كذا وكذا ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين ، وينقلون عن عبد الله ابن قلابة من الصحابة أنه خرج في طلب إبل له فوقع عليها الخ وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الأرض ، وصحارى عدن التي زعموا أنها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمرانها متعاقبًا والأدلاء تقص طرقه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر . ولا ذكرها أحد من الاخباريين ، ولا من الأمم ، ولو قالوا أنها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه إلا أن ظاهر كلامهم انها موجودة ، وبعضهم يقول أنها دمشق بناء على أن قوم عاد ملكوها ، وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى أنها غائبة ، وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر ، مزاعم كلها أشبه بالخرافات .

والذي حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الأعراب في لفظة ذات العماد أنها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين فتعين أن يكون بناء ، ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير عاد إرم على الاضافة من غير تنوين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة التي هي أقرب الى الكذب المنقولة في عداد المضحكات ، وإلا فالعماد هي عماد الأخبية بل الخيام وإن أريد بها الأساطين فلا بدع وصفهم بأنه أهل بناء وأساطين على العموم بما اشتهر من قوتهم لا انه بناء خاص في مدينة معينة كما تقول قريش كنانة والياس مضر ، وربيعة نزار ، وأي ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذي تمحل لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله تعالى عن مثلها لبعدها عن الصحة انتهى كلامه .

ثم عطف سبحانه . القبيلة الآخرة وهي ثمود على قبيلة عاد فقال ﴿ وثمود ﴾ هم قوم صالح سموا باسم جدهم ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . قرأ الجمهور ثمود بمنع الصرف على انه اسم للقبيلة ففيه التأنيث والتعريف ، وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيهم .

﴿ الذين جابوا الصخر ﴾ أي قطعوه وقال ابن عباس : خرقوه والجوب القطع ومنه جاب البلاد إذا قطعها ، ومنه سمي جيب القميص لأنه جيب أي قطع ، قال المفسرون أول من نحت الجبال والصخور ثمود فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ، ومنه قوله سبحانه ﴿ وتنتحون من الجبال بيوتاً آمناً ﴾ وكانوا ينتحون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها .

وقوله ﴿ بالواد ﴾ متعلق بجابوا أو بمحذوف على أنه حال من الصخر وهو وادي القرى ، وهو موضع بقرب المدينة من جهة الشام ، وقيل الوادي بين جبال ، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوراً وأحواضاً وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسليل ومنفذاً فهو واد ، وقرأ الجمهور بالواد بحذف الياء وصللاً ووقفاً إتباعاً لرسم المصحف ، وقرأ ابن كثير باثباتها فيهما وقرىء باثباتها في الوصل دون الوقف .

﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ أي ذي الجنود الذين لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد أو جعل الجنود والجيش والجموع أنفسهم أوتاداً لأنهم يشدون الملك كما تشد الأوتاد الخيام ، وقيل كان له أوتاد يعذب الناس بها ويشدهم اليها ، والوتد بكسر التاء في لغة الحجاز وهي الفصحى وجمعه أوتاد ، وفتح التاء لغة ، وأهل نجد يسكنون التاء قال ابن عباس الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره .

وقال ابن مسعود : وتد فرعون لامراته أربعة أوتاداً ثم جعل على ظهرها رحي عظيمة حتى ماتت .

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرَمُونَ ﴿١٧﴾ الْيَتِيمَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٩﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿٢٠﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢١﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢٢﴾

﴿الذين طغوا في البلاد﴾ الموصول صفة لعاد وشمود وفرعون أي طغت كل طائفة منهم في بلادهم وتمردت وعتت ، والطغيان مجاوزة الحد ، ويجوز أن يكون الموصول في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين طغوا أو في محل نصب على الذم .

﴿فأكثروا فيها الفساد﴾ بالكفر ومعاصي الله والجور على عباده ﴿فصب﴾ أي أفرغ ﴿عليهم ربك﴾ وألقى على تلك الطوائف ﴿سوط عذاب﴾ وهو ما عذبهم به قال الزجاج جعل سوطه الذي ضربهم به العذاب ، يقال صب على فلان خلعة أي ألقاها عليه ، ومعنى سوط عذاب نصيب عذاب أو نوع من العذاب . فأهلك عاد بالريح وشمود بالصيحة وفرعون بالغرق ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ .

وذكر السوط إشارة إلى أن ما أحله بهم في الدنيا من العذاب العظيم هو بالنسبة إلى ما أعده لهم في الآخرة كالسوط إذا قيس إلى سائر ما يعذب به ، وقيل ذكر السوط للدلالة على شدة ما نزل بهم وكان السوط عندهم هو نهاية ما يعذب به .

وقال الفراء هي كلمة تقولها العرب لكل نوع من أنواع العذاب . وأصل ذلك أن السوط هو عذابهم الذي يعذبون به فجرى لكل عذاب إذ كان فيه عندهم غاية العذاب ، وقيل معناه عذاب يخالط اللحم والدم من قولهم ساطه

يسوته سوطاً أي خلطه فالسوط خلط الشيء بعضه ببعض ، والأولى أنه مجاز واستعارة عن إيقاع العذاب بهم على أبلغ الوجوه وأكملها إذ الصب يشعر بالدوام والسوط بزيادة الايلام أي عذبوا عذاباً مؤلماً دائماً .

وقوله : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ تعليل لما قبله إيذاناً بأن كفار قومه عليه السلام سيصيبهم مثل ما أصاب المذكورين من العذاب كما ينبىء عنه التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام .

وقد قدمنا قول من قال أن هذا جواب القسم ، وبه قال ابن مسعود ، والأولى أن الجواب محذوف والمعنى أنه يرصد عمل كل إنسان حتى يجازيه عليه بالخير خيراً وبالشر شراً ففيه استعارة تمثيلية قال الحسن وعكرمة أي عليه طريق العباد لا يفوته أحد ، والرصد والمرصاد الطريق .

وقد تقدم بيانه في سورة براءة ، وقد تقدم أيضاً عند قوله : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ وقال ابن عباس : بالمرصاد أي يسمع ويرى ، وقال ابن مسعود في الآية من وراء الصراط جسور جسر عليه الأمانة وجسر عليه الرحم وجسر عليه الرب عز وجل .

ولما ذكر سبحانه أنه ذكر ما يدل على اختلاف أحوال عباده عند إصابة الخير وعند إصابة الشر ، وإن مطمح أنظارهم ومعظم مقاصدهم هو الدنيا فقال :

﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أي اختبره وامتحنه بالنعمة ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ أي أكرمه بالمال ووسع عليه رزقه ﴿ فيقول ربي أكرمن ﴾ فرحاً بما نال وسروراً بما أعطي ، غير شاكر لله على ذلك ولا خاطر بباله أن ذلك امتحان له من ربه واختبار لحاله ، وكشف ما يشتمل عليه من الصبر والجزع والشكر للنعمة وكفرائها ، وأما هنا لمجرد التأكيد لا لتفصيل المجل مع التأكيد ، وما في ﴿ إذا ما ﴾ زائدة ، وقوله فأكرمه ونعمه تفسير للإبتلاء .

ومعنى أكرمن أي فضلني بما أعطاني من المال وأسبغه عليّ من النعم لمزيد استحقاقي لذلك وكوني موضعاً له ، ودخلت الفاء فيه لتضمن « أما » معنى الشرط أي فأما الإنسان فيقول ربي أكرمن وقت ابتلائه بالإنعام ، قال الكلبي الإنسان هنا هو الكافر ، أبي بن خلف ، وقال مقاتل نزلت في أمية بن خلف وقيل نزلت في عتبة ابن ربيعة وأبي حذيفة بن المغيرة .

﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ أي اختبره وعامله معاملة من يختبره ﴿ فقد رزقه ﴾ أي ضيقه ولم يوسع له ولا بسط له فيه ﴿ فيقول ربي أهانني ﴾ أي أولاني هواناً ، وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث لأنه لا كرامة عنده إلا الدنيا والتوسع في متاعها ، ولا إهانة عنده إلا فوتها وعدم وصوله إلى ما يريد من زينتها ، فأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته ويوفقه لعمل الآخرة .

ويحتمل أن يراد الإنسان على العموم لعدم تيقظه أن ما صار إليه من الخير وما أصيب به من الشر في الدنيا ليس إلا للاختبار والإمتحان ، وأن الدنيا بأسرها لا تعدل عند الله جناح بعوضة ولو كانت تعدل جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء .

قرىء باثبات الياء في أكرمن وأهانن وصلأ ، وحذفها وقفأ ، وقرىء بإثباتها فيهما ، وقرىء بحذفها في الوصل والوقف اتباعاً لرسم المصحف وموافقة لرؤوس الآي ، والأصل إثباتها لأنها اسم ، وقرأ الجمهور ﴿ فقد ر ﴾ بالتخفيف وقرىء بالتشديد وهما لغتان ، وقرىء ربي بفتح الياء في الموضعين وبسكونها فيهما .

وقوله : ﴿ كلا ﴾ ردع للإنسان القائل في الحالتين ما قال وزجر له ، فإن الله سبحانه قد يوسع الرزق ويبسط النعم للإنسان لا لكرامته ، ويضيقه عليه لا لإهانته بل للاختبار والإمتحان كما تقدم ونحوه قوله تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ قال الفراء « كلا » في هذا الموضع بمعنى أنه لم يكن ينبغي للعبد أن يكون هكذا ولكن يحمد الله على الغنى والفقر .

ثم انتقل سبحانه من بيان سوء أقوال الإنسان إلى بيان سوء أفعاله فقال :

﴿ بل لا تكرمون اليтим ﴾ والالتفات إلى الخطاب لقصد التوبيخ والتقريع على قراءة الجمهور بالفوقية ، وقرىء بالتحية على الخبر ، وهكذا اختلفوا فيما بعد هذا من الأفعال ، فقرأ الجمهور تحضون وتأكلون وتحبون بالفوقية على الخطاب فيها ، وقرىء بالتحية فيها والجمع في هذه الأفعال باعتبار معنى الإنسان لأن المراد به الجنس أي بل لكم أفعال هي أقبح مما ذكر ، وهي أنكم تتركون إكرام اليтим فتأكلون ماله وتمنعونه من فضل أموالكم ، قال مقاتل نزلت في قدامة بن مظعون وكان يتيماً في حجر أمية ابن خلف .

﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ قرأ الجمهور تحضون من حضه على كذا أي اغراه به ومفعوله محذوف أي لا تحضون أنفسكم أو لا يحض بعضكم بعضاً على ذلك ولا يأمر به ولا يرشد إليه ، وقرىء تحاضون وأصله تتحاضون أي لا يحض بعضكم بعضاً وقرىء تحاضون بضم التاء من الحض وهو الحث ، والطعام إما اسم مصدر أي على إطعام المسكين أو اسم للمطعم على حذف مضاف أي على بذل أو على إعطاء طعام المسكين .

﴿ وتأكلون التراث ﴾ أصله التراث فأبدلت التاء من الواو المضمومة كما في تجاه ووجه ، والمراد به أموال اليتامى الذين يرثونه من قراباتهم ، وكذلك أموال النساء وذلك أنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون أموالهم ﴿ أكلاً لماً ﴾ أي أكلاً شديداً ، وقيل معنى « لماً » جمعاً من قولهم لممت الطعام إذا أكلته جميعاً ، قال الحسن : يأكل نصيبه ونصيب اليтим ، وكذا قال أبو عبيدة .

وأصل اللّم في كلام العرب الجمع يقال لممت الشيء ألّه لماً جمعته ، ومنه قولهم لمّ الله شعثه أي جمع ما تفرق من أموره ، قال الليث : اللّم الجمع

الشديد ، ومنه حجر ملموم وكتيبة ملمومة ، والآكل يلم الثريد فيجمعه ثم يأكله وقال مجاهد : يسفه سفاً وقال ابن زيد : هو إذا أكل ماله ألم بمال غيره فأكله ولا يفكر فيما أكل من خبيث وطيب قال ابن عباس : «لماً» سفاً وعنه قال شديداً .

وكان حكم الارث عندهم من بقايا شريعة إسماعيل أو مما هو معلوم لهم وثابت عندهم بطريق عاداتهم ، فلا يقال السورة مكية وآية المواريث مدنية ولا يعلم الحل والحرمة إلا من الشرع .

﴿وتحبون المال حباً جمّاً﴾ أي حباً كثيراً ، والجم الكثير ، يقال جم الماء في الحوض إذا كثر واجتمع ، والجمة المكان الذي يجتمع فيه الماء ، وقال ابن عباس جمّاً شديداً .

ثم كرر سبحانه الردع لهم والزجر فقال ﴿كلاً﴾ أي ما هكذا ينبغي أن يكون عملكم ثم استأنف سبحانه فقال : ﴿إذا دكت الأرض دكاً دكاً﴾ وفيه وعيد لهم بعد الردع والزجر ، والدك الكسر والدق والمعنى هنا أنها زلزلت وحركت تحريكاً بعد تحريك ، قال ابن قتيبة : دكت جبالها حتى استوت ، قال الزجاج : أي تزلزلت فدك بعضها بعضاً قال المبرد أي بسطت وذهب ارتفاعها قال والدك حط المرتفع بالبسط .

وقد تقدم الكلام على الدك في سورة الاعراف وفي سورة الحاقة ، والمعنى أنها دكت مرة بعد أخرى ، ونصب دكاً الأول على أنه مصدر مؤكد للفعل ، ودكاً الثاني تأكيد للأول ، وكذا قال ابن عصفور .

ويجوز أن يكون النصب على الحال ، والمعنى حال كونها مدكوكة مرة بعد مرة ، كما يقال : علمته الحساب باباً باباً ، وعلمته الخط حرفاً حرفاً ، والمعنى أنه كرر الدك عليها حتى صارت ﴿هباء منبثاً﴾ قال ابن عباس يعني تحريكها .

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِرُ الْإِنْسَانَ
وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَعِيَ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَاَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

﴿وجاء ربك﴾ أي جاء أمره وقضاؤه وظهرت آياته وقيل المعنى أنها زالت الشبه في ذلك اليوم وظهرت المعارف وصارت ضرورية كما يزول الشك عند مجيء الشيء الذي كان يشك فيه ، وقيل جاء قهر ربك وسلطانه وانفراده بالأمر والتدبير من دون أن يجعل إلى أحد من عباده شيئاً من ذلك ، وقيل تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه ، وقيل جاء أمر ربك بالمحاسبة والجزاء وقيل غير ذلك .

والحق أن هذه الآية من آيات الصفات التي سكت عنها وعن مثلها عامة سلف الأمة وأئمتها وبعض الخلف فلم يتكلموا فيها ، بل أجروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تأويل ولا تحريف ولا تعطيل ، وقالوا يلزمنا الإيمان بها وإجرائها على ظاهرها ، والتأويل ديدن المتكلمين ودين المتأخرين ، وهو خلاف ما عليه جمهور السلف الصالحين .

وقوله ﴿والملاك صفاً صفاً﴾ منتصب على الحال أي مصطفىين أو ذوي الصفوف ، قال عطاء يريد صفوف الملائكة وأهل كل سماء صف على حدة قال الضحاك أهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة كانوا صفاً محيطين بالأرض ومن فيها فيكونون سبعة صفوف .

﴿وجيء يومئذ﴾ منصوب بجيء والقائم مقام الفاعل قوله : ﴿بجهنم﴾ وجوز مكي أن يكون يومئذ هو القائم مقام الفاعل وليس بذاك ، قال الواحدي قال جماعة المفسرين جيء بها يوم القيامة مزمومة بسبعين ألف

زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها حتى تنصب عن يسار العرش ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا لركبتيه يقول : يا رب نفسي نفسي .

وهذا الذي نقله عن جماعة المفسرين قد أتى مرفوعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخرج مسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »^(١) وعلى هذا فالآية مجرأة على ظاهرها وقيل المعنى أنها برزت لأهلها كقوله : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ والأول أولى .

﴿ يومئذ ﴾ بدل من يومئذ الذي قبله أي يوم جيء بجهنم ﴿ يتذكر الإنسان ﴾ أي يتعظ ويذكر ما فرط منه ويندم على ما قدمه في الدنيا من الكفر والمعاصي ، وقيل إن قوله : ﴿ يومئذ ﴾ الثاني بدل من قوله ﴿ إذا دكت ﴾ والعامل فيهما هو قوله : يتذكر الإنسان ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أي ومن أين له التذكرة والاتعاظ . وقيل هو على حذف مضاف أي ومن أين له منفعة الذكرى ، قال الزجاج : يظهر التوبة ومن أين له التوبة .

﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ بدل اشتغال من يتذكر أو مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ماذا يقول الإنسان فقيل يقول الخ والمعنى أنه يتمنى أنه قدم الخير والعمل الصالح لأجل حياته . والمراد حياة الآخرة فإنها الحياة بالحقيقة ، لأنها دائمة غير منقطعة ، وقيل أن اللام بمعنى في ، والمراد حياة الدنيا أي يا ليتني قدمت الأعمال الصالحة في وقت حياتي في الدنيا أنتفع بها يوم القيامة ، والأول أولى ، قال الحسن علم والله أنه صادف حياة طويلة لا موت فيها .

﴿ فيومئذ ﴾ أي يوم يكون زمان ما ذكر من الأحوال ﴿ لا يعذب عذابه ﴾

أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ أي لا يعذب كعذاب الله أحد ، ولا يوثق كوثاقه ولا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواء إذ الأمر كله له ، والضميران في عذابه ووثاقه لله عز وجل ، وهذا على قراءة الجمهور يعذب ويوثق مبنيين للفاعل ، وقرىء على البناء للمفعول فيهما فيكون الضميران راجعين إلى الإنسان أي لا يعذب كعذاب ذلك الإنسان أحد ولا يوثق كوثاقه أحد ، والمراد بالإنسان الكافر أي لا يعذب من ليس بكافر كعذاب الكافر ، وقيل إبليس وقيل المراد به أبي بن خلف .

قال الفراء المعنى أنه لا يعذب كعذاب هذا الكافر المعين أحد ولا يوثق بالسلاسل والأغلال كوثاقه أحد ، لتناهيه في الكفر والعناد ، وقيل المعنى إنه لا يعذب مكانه أحد ولا يوثق مكانه أحد فلا تؤخذ منه فدية وهو كقوله ؛ ﴿ ولا ترز وازرة وزر أخرى ﴾ والعذاب بمعنى التعذيب والوثاق بمعنى التوثيق .

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة المبني للمفعول وقالوا تكون الهاء في الموضعين ضميراً لكافر لأنه معروف أنه لا يعذب كعذاب الله أحد ، وقال أبو علي الفارسي يجوز أن يكون الضمير للكافر على قراءة الجماعة أي لا يعذب أحد أحداً مثل تعذيب هذا الكافر .

ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء ذكر بعض أحوال السعداء فقال : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ﴾ والقائل هو الله سبحانه إكراماً للمؤمن كما كلم موسى ، أو الملك ، وإنما يقال لها ذلك عند الموت أو البعث أو عند دخول الجنة ، والنفس المطمئنة هي الساكنة الموقنة بالإيمان وتوحيد الله الواصلة إلى ثلج اليقين بحيث لا يخالطها شك ولا يعترها ريب .

قال الحسن هي المؤمنة الموقنة ، وقال مجاهد الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها ، وقال مقاتل هي الآمنة المطمئنة . وقال ابن كيسان المطمئنة بذكر الله تعالى وقيل المخلصة ، قال ابن زيد المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ،

وقال ابن عباس المطمئنة المؤمنة .

﴿ إرجعي إلى ربك راضية ﴾ بالثواب الذي أعطاك ﴿ مرضية ﴾ عنده .
والمعنى ارجعي إلى الله وقيل إلى مواعده وقيل إلى أمره ، وقال عكرمة وعطاء إلى
جسدك الذي كنت فيه ، واختاره ابن جرير ، ويدل على هذا قراءة ابن عباس
﴿ فادخلي في عبادي ﴾ بالإفراد والأول أولى .

قال القفال : هذا وإن كان أمراً في الظاهر فهو خبر في المعنى ، والتقدير
أن النفس إذا كانت مطمئنة رجعت في القيامة إلى الله بسبب هذا الأمر . قال
ابن عباس : « نزلت هذه الآية وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ما
أحسن هذا فقال أما أنه سيقال لك هذا » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه
والضياء في المختارة ، وعن سعيد بن جبير نحوه مرسلأ ، وعن أبي بكر
الصديق نحوه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ يا أيتها النفس
المطمئنة ﴾ قال هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنه قال : المطمئنة المصدقة ،
وعنه قال ترد الأرواح يوم القيامة في الأجساد ، وعنه قال : راضية بما أعطيت
من الثواب ، مرضية عنها بعملها .

﴿ فادخلي في عبادي ﴾ المؤمنين أي في زمرة عبادي الصالحين وكوني من
جملتهم ، وانتظمي في سلكهم : وهذا يشعر بأن النفس بمعنى الذات ، ويجوز
أن تكون بمعنى الروح كما أشار له البيضاوي ﴿ وادخلي جنتي ﴾ معهم قيل أنه
يقال لها ارجعي إلى ربك عند خروجها من الدنيا ويقال لها ادخلي في عبادي
وادخلي جنتي يوم القيامة .

وأق بالفاء فيما لم يتراخ عن الموت وبالواو فيما يتراخى عنه .

والمراد بالآية كل نفس مطمئنة على العموم لأن السورة مكية ولا ينافي
ذلك نزولها في نفس معينة فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

عن سعيد بن جبير قال : « مات ابن عباس في الطائف فجاء طير لم ير على خلقته فدخل نعشه ثم لم ير خارجاً منه ، فلما دفن تليت هذه الآية على شفير القبر لا ندري من تلاها ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ . الآية أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني ، وعن عكرمة مثله ، أخرجه أبو نعيم في الدلائل .

سورة البلد

ويقال سورة لا أقسم وهي عشرون آية وهي مكية بلا خلاف .
عن ابن عباس قال نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله .

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ قد تقدم الكلام على هذا في تفسير ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ ولا زائدة ومن زيادة لا في الكلام في غير القسم قول الشاعر :
تذكرت ليلي فاعترتني صباة وكاد صميم القلب لا يتصدع
أي يتصدع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ما منعك أن لا تسجد ﴾ أي أن تسجد ، قال الواحدي : أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام وهو مكة ، وبه قال ابن عباس : قرأ الجمهور لا أقسم وقرئ لأقسم من غير ألف ، وقيل هو نفي للقسم .
والمعنى لا أقسم بهذا البلد إذا لم تكن فيه بعد خروجك منه ، وقال مجاهد إن « لا » رد على من أنكر البعث ثم ابتداء فقال : « أقسم » والمعنى ليس الأمر كما تحسبون والأول أولى .

والمعنى أقسم بالبلد الحرام وقال الواسطي : أن المراد بالبلد المدينة وهو مع كونه خلاف إجماع المفسرين هو أيضاً مدفوع بكون السورة مكية لا مدنية ، ومكة جعلها الله تعالى : ﴿ حراماً آمناً ﴾ ﴿ ومثابة للناس ﴾ وجعل مسجدها قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وشرفه بمقام إبراهيم وحرّم فيه الصيد ، وجعل البيت المعمور بإزائه ، ودحيت الأرض من تحته فهذه الفضائل وغيرها لما اجتمعت في مكة دون غيرها أقسم بها .

﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ البلد يذكر ويؤنث والجمع بلدان ، والبلدة البلد وجمعها بلاد مثل كلبة وكلاب ، وقال الواحدي الحل والحلال والمحل

واحد ، وهو ضد الحرام ، أحل الله لنبيه صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح حتى قاتل وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار » .

قال والمعنى أن الله تعالى لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظيم قدرها مع كونها حراماً فوعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً انتهى .

فالمعنى وأنت حل بهذا البلد في المستقبل كما في قوله : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ قال النسفي رحمه الله وكفاك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وإن تفسيره بالحال محال أن السورة مكية بالإتفاق ، وأين الهجرة من وقت نزولها ، فما بال الفتح انتهى .

قال مجاهد المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حل ، قال قتادة أنت حل به لست بآثم يعني أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي .

وقيل المعنى لا أقسم بهذا البلد وأنت حل به ومقيم فيه وهو محلك ، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة يكون المعنى لا أقسم به وأنت حل به فأنت أحق بالإقسام بك ، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً ، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم .

ولكن هذا إذا تقرر في لغة العرب أن لفظ حل يجيء بمعنى حال ، وكما يجوز أن تكون الجملة معترضة يجوز أن تكون في محل نصب على الحال .

قال ابن عباس في الآية يعني بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحل الله له يوم دخل مكة أن يقتل من شاء ويستحيي من شاء فقتل يومئذ ابن خطل صبراً وهو أخذ بأستار الكعبة فلم يحل لأحد بعد النبي صلى الله

عليه وآله وسلم أن يفعل فيها حراماً حرمه الله فأحل الله ما صنع بأهل مكة ، وعنه فيها قال أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل فيه وأما غيرك فلا .

وعن أبي برزة الأسلمي قال : « نزلت هذه الآية فيَّ خرجت فوجدت عبد الله ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام » أخرجه ابن مردويه .

وقوله : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ عطف على البلد قال قتادة ومجاهد والضحاك والحسن وأبو صالح : ووالد أي آدم وما ولد أي وما تناسل من ولده ، ومثله عن ابن عباس .

وأقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، واستخراج العلوم ، وفيهم الأنبياء والأولياء والصالحون والدعاة إلى الله والانتصار لدينه ، وكل ما في الأرض من مخلوق لأجلهم ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم وعلمه الاسماء كلها ، فيكون قد أقسم بجميع آدميين صالحهم وطالحهم .

وقيل هو قسم بآدم والصالحين من ذريته ، وأما الطالحون فكأنهم ليسوا من أولاده وكأنهم بهائم ، وفائدة التنكير في ﴿ والد ﴾ التعجب والمدح ، قاله الرازي .

وقال أبو عمران الجوني ﴿ الوالد ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ وما ولد ﴾ ذريته ، قال الفراء إن ﴿ ما ﴾ عبارة عن الناس كقوله : ﴿ ما طاب لكم ﴾ وقيل الوالد إبراهيم والولد اسماعيل ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال عكرمة وسعيد بن جبير ﴿ ووالد ﴾ يعني الذي يولد له ﴿ وما ولد ﴾ يعني العاقر الذي لا يولد له وكأنهما جعلاً ﴿ ما ﴾ نافية هو بعيد ولا يصح ذلك إلا باضممار الموصول أي ووالد والذي ما ولد ولا يجوز اضممار الموصول عند البصريين ، وقال عطية العوفي هو عام في كل والد ومولود من جميع الحيوانات واختار هذا ابن جرير .

وعن ابن عباس ﴿الوالد﴾ الذي يلد ﴿وما ولد﴾ العاقر لا يلد من الرجال والنساء ، وقد استدل بعض الجهال بهذه الآية على جواز الاحتفال لمولده صلى الله عليه وسلم ، وهذا تحريف لمعاني كتاب الله لم يذهب إليه أحد من المفسرين بل هو خلاف إجماع المسلمين .

﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ هذا جواب القسم ، والإنسان هو هذا النوع الإنساني والكبد الشدة والمشقة ، يقال كابدت الأمر قاسيت شدته ، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائدتها حتى يموت .

قال ذو النون لم يزل مربوطاً بحبل القضاء ، مدعواً إلى الائتثار والانتها ، وأصل الكبد الشدة ومنه تكبد اللبن إذا اشتد وغلظ ، ويقال كبد الرجل إذا وجعت كبده ثم استعمل في كل مشقة وشدة ، قال الحسن يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة وقال أيضاً يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء لا يخلو عن أحدهما .

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في رجل من بني جمح يقال له أبو الأشدين وكان يأخذ الأديم العكاظي ويجعله تحت رجله ويقول من أزالني عنه فله كذا فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه ، وكان من أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وفيه نزل :

﴿أحسب أن لن يقدر عليه أحد﴾ يعني لقوته ويكون معنى في كبد على هذا في شدة خلق ، وقيل معنى في كبد انه جريء القلب غليظ الكبد ، وقال ابن عباس في كبد في اعتدال وانتصاب ، وعنه قال في نصب ، وعنه قال في شدة ، وقال أيضاً في شدة خلق ولادته ونبت أسنانه ومعيشته وختانه .

وقال أيضاً : خلق الله كل شيء على أربعة إلا الإنسان فإنه خلق منتصباً ، وقال أيضاً منتصباً في بطن أمه أنه قد وكل به ملك إذا نامت الأم أو اضطجعت رفع رأسه ، لولا ذلك لغرق في الدم ، والكبد الاستواء والاستقامة فهذا امتنان عليه في الخلقة ولم يخلق الله جل جلاله دابة في بطن أمها إلا منكبة

على وجهها إلا ابن آدم فإنه منتصب انتصباً .

قال اليماني : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم وهو مع ذلك أضعف الخلق .

قال العلماء : أول ما يكابد قطع سرتة ، ثم إذا قمط قمطاً وشدد عليه يكابد الضيق والتعب ، ثم يكابد الارتضاع ولو فاته لضاع ، ثم يكابد نبت أسنانه وتحريك لسانه ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام ثم يكابد الختان والأوجاع والأحزان ثم يكابد المعلم وصولته والمؤدب وسياسته ، والاستاذ وهيئته ، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه والترويج ثم يكابد شغل الأولاد والخدم والأجناد ثم يكابد شغل الدور وبناء القصور ثم الكبر والهزم وضعف الركبة والقدم ، في مصائب يكثر تعدادها ونوائب يطول إيرادها من صداع الرأس ووجع الأضراس ، ورمد العين وغم الدين ووجع السن ، وألم الأذن ويكابد محناً من المال والنفس مثل الضرب والحبس ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة ويكابد مشقة ثم الموت بعد ذلك كله ثم سؤال الملك وضغطة القبر وظلمته ثم البعث والعرض على الله تعالى إلى أن يستقر به القرار إما في جنة وإما في نار .

فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد ودل على أن له خالقاً دبره وقضى عليه بهذه الأحوال فليمثل أمره ، ذكره القرطبي .

﴿ أيجسب ﴾ الانسان ﴿ أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أي أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه ولا ينتقم منه أحد أو يظن أبو الأشدين أن لن يقدر عليه أحد ، وأن هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير شأن مقدر .

ثم أخبر سبحانه عن مقال هذا الإنسان فقال : ﴿ يقول ﴾ مفتخراً ﴿ أهلكت مالاً لبدأ ﴾ أي كثيراً مجتمعاً بعضه على بعض ، قال الليث مال لبد لا يخاف فناؤه من كثرته ، قال الكلبي ومقاتل : يقول أهلكت في عداوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مالاً كثيراً ، وفي أبي السعود يريد كثرة ما أنفقه فيها

كان أهل الجاهلية يسمونه مكارم ويدعونه معالي ومفاخر .

وقال مقاتل نزلت في الحرث بن عامر بن نوفل أذنب فاستفتى النبي صلى الله عليه وسلم فأمره أن يكفر فقال لقد ذهب مالي في الكفارات والنفقات منذ دخلت في دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

قرأ الجمهور ﴿لبدأ﴾ بضم اللام وفتح الباء مخففاً وقرئ بضمها بالتخفيف وقرئ بضم اللام وفتح الباء مشدداً قال أبو عبيدة لبد فعل من التلييد وهو المال الكثير بعضه على بعض ، قال الزجاج : فعل للكثرة يقال رجل حطم إذا كان كثير الحطم ، قال الفراء واحدته لبدة والجمع لبد ، وقد تقدم بيان هذا في سورة الجن .

﴿أيحسب أن لم يره أحد﴾ استفهام على سبيل الإنكار أي أيعظن أنه لم يعاينه أحد ، قال قتادة أيعظن أن الله سبحانه لم يره ولا يسأله عن ماله من أين كسبه وأين أنفقه ، وقال الكلبي كان كاذباً لم ينفق ما قال ، فقال الله أيعظن أن الله لم ير ذلك منه فعل أو لم يفعل ، أنفق أو لم ينفق .

ثم ذكر سبحانه ما أنعم عليه ليعتبر فقال : ﴿ألم نجعل له عينين﴾ يبصر بهما المرئيات شققناهما وهو في الرحم في ظلمات ثلاث على مقدار مناسب . لا تزيد إحداهما على الأخرى شيئاً وقدرنا البياض والسواد والسمرة والزرقة وغير ذلك على ما ترون ، وأودعناهما البصر على كيفية يعجز الخلق عن إدراكها .

﴿ولساناً﴾ ينطق به ويعبر عما في ضميره ﴿وشفتين﴾ يستر بهما ثغره وفاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ، قال الزجاج : المعنى ألم نفعل به ما يدلّه على أن الله قادر على أن يبعثه ، والشفة محذوفة اللام وأصلها شفهة بدليل تصغيرها على شفيتها وجمعها على شفاه نظير سنة في إحدى اللغتين وشافهته أي كلمته من غير واسطة ، ولا تجمع بالألف والتاء استغناء بتكسيورها عن تصحيحها .

وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْنَحَمَ الْعَقَبَةُ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَبَكُمْ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُرْبَةُ ﴿١٣﴾ أَوْ
 إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ
 الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمُنْعَمِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 يَتَّيْنُنَاهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

﴿ وهديناه النجدين ﴾ النجد الطريق في ارتفاع ، قال المفسرون : بيناه طريق الخير وطريق الشر ، قال الزجاج المعنى ألم نعرفه طريق الخير وطريق الشر مبيتين كتبيين الطريقين العاليتين .

وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن المسيب والضحاك : النجدان الثديان لأنها كالطريقين لحياة الولد ورزقه ، والأول أولى .

وأصل النجد المكان المرتفع وجمعه نجود ، ومنه سميت نجد لارتفاعها عن انخفاض تهامة فالنجدان الطريقان العاليان .

قال ابن مسعود في الآية : سبيل الخير والشر ، وقال ابن عباس : الهدى والضلالة ، وعنه نحو قول ابن مسعود ، وعن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هما نجدان فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » أخرجه ابن أبي حاتم تفرد به سنان بن سعد ، ويقال سعد بن سنان وقد وثقه يحيى بن معين ، وقال الامام أحمد والنسائي والجوزجاني منكر الحديث ، وقال أحمد تركت حديثه لاضطرابه قد روى خمسة عشر حديثاً منكراً كلها ما أعرف منها حديثاً واحداً ، يشبه حديثه حديث البصري لا يشبه حديث أنس .

وروي نحوه عن الحسن وقتادة مرسلأ ، ويشهد له ما أخرجه الطبراني عن أبي امامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يا أيها الناس أنهما نجدان نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » .

ويشهد له أيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انما هما نجد الخير ونجد الشر ، فلا يكن نجد الشر أحب اليكم من نجد الخير » .

قال الشهاب لا يخفى أنه ذكره في سياق الامتنان والمراد الامتنان عليه بأن هداه وبين له الطريق فسلكتها تارة وعدل عنها أخرى ، فلا امتنان عليه بالشر ولذا جعله الإمام بمعنى قوله تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ووصف مكان الخير بالرفعة والنجدية ظاهر بخلاف الشر فإنه هبوط من ذروة الفطرة إلى حضيض الشقوة فهو على سبيل التغليب أوعلى توهم المخيلة أن فيه صعوداً فتدبر انتهى .

قلت الامتنان بالهداية إلى سبيل الشر يصح بمعنى أن الله عرف الإنسان طريق الشر ليجتنبه وطريق الخير ليسلكه ، ولو لم يعرفه سبيل الشر لما اجتنبه ، والأشياء تعرف بأضدادها ، فالامتنان بهدايته إليه ثابت عقلاً . والمعنى بينا ووضحنا له أن سلوك الأول ينجي وأن سلوك الثاني يردي . وأن سلوك الأول ممدوح وأن سلوك الثاني مذموم ، فالذي ذكره الشهاب تدفعه الأحاديث المرفوعة المتقدم ذكرها .

﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ الاقتحام الرمي بالنفس في شيء من غير روية ، يقال منه قحم في الأمر قحوماً أي رمى بنفسه في الأمر من غير روية وتقحيم النفس في الشيء إدخالها فيه عن غير روية ، والقحمة بالضم المهلكة ، والعقبة في الأصل الطريق الصعب التي في الجبل سميت بذلك لصعوبة سلوكها .

وهو مثل ضربه الله سبحانه لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة .

قال الفراء والزجاج : ذكر سبحانه هنا ﴿ لا ﴾ مرة واحدة والعرب لا تكاد تفرد ﴿ لا ﴾ مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع حتى يعيدوها في كلام

آخر كقوله : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ وإنما أفرد ههنا لدلالة آخر الكلام على معناه فيجوز أن يكون قوله : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ قائماً مقام التكرير ، كأنه قال فلا اقتحم العقبة ولا آمن .

قال المبرد وأبو علي الفارسي : أن « لا » هنا بمعنى لم أي فلم يقتحم ، وروي نحو ذلك عن مجاهد ، فلهذا لم يحتج إلى التكرير ، وقيل هو جار مجرى الدعاء كقوله لا نجاً .

قال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام هنا الاستفهام الذي بمعنى الإنكار تقديره أفلا اقتحم العقبة أو هلا اقتحم العقبة ، قال ابن عمر في العقبة جبل زلال في جهنم ، وقال ابن عباس العقبة النار ، وعنه قال عقبة بين الجنة والنار ، وقال قتادة وكعب : هي نار دون الجسر فاقتحموها بطاعة الله ، وقال الحسن : هي والله عقبة شديدة مجاهدة نفسه وهواه وعداوة الشيطان . وقيل العقبة خلاصه من هول العرض ، وقال مجاهد والضحاك والكلبي هي الصراط الذي يضرب على جهنم كحد السيف .

وعن عائشة قالت لما نزل ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ قيل يا رسول الله ما عند أحدنا ما يعتق إلا أن عند أحدنا الجارية السوداء تخدمه فلو أمرناهن بالزنا فجئن بالأولاد فأعتقناهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلي من أن أمر بالزنا ثم أعتق الولد » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي وأخرجه ابن جرير عنها بلفظ « لعلاقة سوط في سبيل الله أعظم أجراً من هذا » .

ثم بين سبحانه العقبة فقال : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أي أي شيء أعلمك ما اقتحامها والمعرف باللام إذا أعيد كان الثاني عين الأول فتكون الجملة معترضة مقحمة لبيان العقبة مقررلة لمعنى الإيهام والتفسير ، فإن ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ مفسرة بقوله : ﴿ فك رقبة ﴾ والمفسر منفي والمفسر كذلك لاتحادهما في الاعتبار كأنه قيل فلا فك رقبة ولا أطعم مسكيناً .

قال محيي السنة ذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشیطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة .

قال صاحب الفرائد هذا تنبيه على أن النفس لا توافق صاحبها في الإنفاق لوجه الله البتة فلا بد من التكليف وتحمل المشقة ، والذي توافقه النفس هو الافتخار والمراآت فكأنه تعالى ذكر هذا المثل بإزاء ما قال : ﴿ أهلكت مالاً لبدأ ﴾ والمراد الإنفاق المفيد ، وأن ذلك الإنفاق لمضر انتهى .

وفي التمثيل بالعقبة بعد ذكر النجدين ترشيح ثم التقرير عليه بالاقتحام قرينة لتلك المبالغة ذكره الكرخي ، ومعنى ﴿ فك رقبة ﴾ إعتاق رقبة وتخليصها من إसार الرق وكل شيء أطلقته فقد فككته ، ومنه فك الرهن وفك الكتاب ، فقد بين سبحانه أن العقبة هي هذه القرب المذكورة التي تكون بها النجاة من النار ، قرىء فك رقبة على أنه فعل ماض وهكذا أطعم ، وقرىء فك وإطعام على أنها مصدران ، وعلى الأولى المعنى فلا أفك ولا أطعم ، والفك في الأصل حل القيد سمي العتق فكاً لأن الرق كالقيد ، وسمي المرقوق رقبة لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته .

وقد ثبت الترغيب في عتق الرقاب بأحاديث كثيرة منها ما في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من النار حتى الفرج بالفرج » .

﴿ أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ أي مجاعة . والسغب الجوع ، والساغب الجائع ، قال الراغب يقال منه سغب الرجل سغباً وسغبوا فهو ساغب وسغبان والمسغبة مفعلة منه ، قال النخعي في يوم ذي مسغبة أي عزيز فيه الطعام .

قال ابن عباس مسغبة مجاعة ، وعنه جوع ، وقيد الإطعام في هذا اليوم لأن إخراج المال في ذلك الوقت أثقل على النفس وأوجب للأجر ، قرأ الجمهور

بالجر على أنه صفة ليوم ، ويتيماً هو مفعول إطعام ، وقرأ الحسن بالنصب على أنه مفعول إطعام أي يطعمون ذا مسغبة ويتيماً بدلاً منه .

﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي قرابة قاله ابن عباس . يقال فلان ذو قرابتي وذو مقربتي ، واليتيم في الأصل الضعيف يقال يتم الرجل إذا ضعف ، واليتيم عند أهل اللغة من لا أب له ، وقيل هو من لا أب له ولا أم ، ومنه قول قيس بن الملوح .

إلى الله أشكو فقد ليلي كما شكا إلى الله فقد الوالدين يتيم

﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أي لا شيء له كأنه لصق بالتراب لفقره ، وليس له مأوى إلا التراب ، يقال ترب الرجل يترب ترباً ومتربة إذا افتقر حتى لصق بالتراب ضرراً ، قال مجاهد هو الذي لا يقيه من التراب لباس ولا غيره ، وقال قتادة هو ذو العيال وقال عكرمة هو المديون ، وقال أبو سنان هو ذو الزمانة وقال ابن جبير هو الذي ليس له أحد ، وقال عكرمة أيضاً هو البعيد التربة الغريب عن وطنه وبه قال ابن عباس ، والأول أولى ومنه قول الهذلي .

وكنا إذا ما الضيف حل بأرضنا سفكنا دماء البدن في تربة الحال

وعن ابن عباس أيضاً قال هو المطروح الذي ليس له بيت ، وفي لفظ هو الذي لا يقيه من التراب شيء ، وفي لفظ هو اللازق بالتراب من شدة الفقر ، وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « هو الذي مأواه المزابل » أخرجه ابن مردويه والمتربة والمقربة والمسغبة أي كل واحد منها مصدر ميمي على وزن مفعلة .

﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ عطف على المنفي بلا ، وجاء بثم للدلالة على تراخي رتبة الإيمان ورفعة محله وفيه دليل على أن هذه القرب إنما تنفع مع الإيمان وقيل التراخي في الذكر ، وقيل المعنى ثم كان من الذين آمنوا بأن هذا نافع لهم وقيل المعنى أنه أتى بهذه القرب لوجه الله .

﴿وتواصوا بالصبر﴾ معطوف على آمنوا أي أوصى بعضهم بعضاً بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب والمحن والشدائد ﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ أي بالرحمة على عباد الله فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين ، واستكثروا من فعل الخير بالصدقة ونحوها قال ابن عباس: يعني بذلك رحمة الناس .

﴿أولئك﴾ الموصوفون بتلك الصفات هم ﴿أصحاب المينة﴾ أي أصحاب جهة اليمين أو أصحاب اليمين أو الذين يعطون كتبهم بأيمانهم وقيل غير ذلك مما قدمنا ذكره في سورة الواقعة .

﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ أي بالقرآن أو بما هو أعم منه فتدخل الآيات التنزيلية والآيات التكوينية التي تدل على الصانع سبحانه ﴿هم أصحاب المشأمة﴾ أي أصحاب الشمال أو أصحاب الشؤم أو الذين يعطون كتبهم في شمائلهم أو غير ذلك مما تقدم .

﴿عليهم نار مؤصدة﴾ أي مطبقة مغلقة يقال أصدت الباب وأصدته إذا أغلقته وأطبقتة . قرأ الجمهور مؤصدة بالواو ، وقرئ بالهمزة وهما لغتان والمعنى واحد قال ابن عباس مغلقة الأبواب ، وقال أبو هريرة مطبقة .

سورة الشمس

هي خمس عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة . وعن ابن الزبير مثله . وعن بريدة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة العشاء ﴿ والشمس وضحاها ﴾ وأشباهاها من السور » أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي . وقد تقدم حديث جابر في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لمعاذ هلا طليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى .

وعن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن يقرأ في صلاة الصبح بالليل إذا يغشى والشمس وضحاها » أخرجه الطبراني . وعن عقبة بن عامر قال : « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نطلي ركعتي الضحك بسورتيهما بالشمس وضحاها والضحك » أخرجه البيهقي في الشعب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾

﴿والشمس وضحاها﴾ أقسم سبحانه بهذه الأمور ، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وقال قوم إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف أي ورب الشمس ، وهكذا سائرهما ، ولا ملجئ إلى هذا ولا موجب له ، وقوله : ﴿وضحاها﴾ هو قسم ثان ، وقال الرازي المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي .

وقد أقسم تعالى بأنواع مخلوقاته المشتملة على المنافع العظيمة ليتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لأن ما أقسم الله تعالى به يحصل منه وقع في القلب ، وأقسم الله في هذه السورة بسبعة أشياء إلى قوله : ﴿قد أفلح من زكاه﴾ فأقسم بالشمس وضحاها فإن أهل العالم كانوا كالأموات في الليل ، فلما ظهر أثر الصبح صارت الأموات أحياء ، وتكاملت الحياة وقت الضحوة ، وهذه الحالة تشبه أحوال القيامة ، ووقت الضحى يشبه استقرار أهل الجنة فيها انتهى .

قال مجاهد أي ضوءها وإشراقها ، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها ، وكذا قال الكلبي ، وقال قتادة : ضحاها نهارها كله ، قال الفراء : الضحى هو النهار ، وقال المبرد : أصل الضحى الصبح ، وهو نور الشمس ، وقيل الضحوة ارتفاع النهار ، والضحى فوق ذلك .

قال القرطبي : الضحى مؤنثة يقال ارتفعت الضحى فوق الضحو ، وقد تذكر ، فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة ومن ذكر ذهب إلى أنها اسم فعل

نحو صرد ونغر ، قال أبو الهيثم : الضحى نقيض الظل : وهو نور الشمس على وجه الأرض ، وأصله الضحى فاستثقلوا الياء فقلبوها ألفاً قيل والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعد ذلك قليلاً ، فإذا زاد فهو الضحاء بالمد .

قال المبرد : الضحى والضحوه مشتقان من الضح وهو النور فأبدلت الألف والواو من الحاء .

واختلف في جواب القسم ماذا هو ، ف قيل هو قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قاله الزجاج وغيره وحذفت اللام لأن الكلام قد طال فصار طوله عوضاً منها ، وقيل محذوف أي لتبعثن وقيل تقديره ليدمدن الله على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما دمدن على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً ، وأما قوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ فكلام تابع لقوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ على سبيل الاستطراد ، وليس من جواب القسم في شيء ، وقيل هو على التقديم والتأخير بغير حذف ، والمعنى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ﴿ والشمس وضحاها ﴾ والأول أولى .

﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ أي تبعها وذلك بأن طلع بعد غروبها ، يقال تلا يتلو تلوأ إذا تبع ، قال المفسرون وذلك إنما يكون في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور ، وقال الزجاج تلاها حين استدار فكان يتلو الشمس في الضياء والنور ، يعني إذا كمل ضوءه فصار تابعاً للشمس في الإنارة يعني كان مثلها في الإضاءة وذلك في الليالي البيض .

وقيل إذا تلا طلوعه طلوعها ، قال قتادة إن ذلك ليلة الهلال إذا سقطت رؤى الهلال ، قال ابن زيد إذا غربت الشمس في النصف الأول من الشهر تلاها القمر بالطلوع ، وفي آخر الشهر يتلوها بالغروب ، وقال الفراء تلاها أخذ منها يعني أن القمر يأخذ من ضوء الشمس ، قال ابن عباس تلاها تبعها .

والأولى أن يفسر تلوه لها بكون ضوئه يخلفها ويجيء بعد مغيبها سواء كان ذلك من غير تراخ وهو في النصف الأول من الشهر ، أو بعد مدة وذلك في النصف الثاني من الشهر فإن القمر إذا طلع في نصف الليل يقال أنه تلاها في ظهور الضوء أي خلفها فيه ولو بعد تخلل مدة ظلمة فليتأمل .

﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ أي أضاءها ، قاله ابن عباس ، وذلك أن الشمس عند انبساط النهار تنجلي تمام الإنجلاء فكأنه جلاها مع أنها التي تبسطه وقيل الضمير عائد إلى الظلمة أي جلى الظلمة وإن لم يجر للظلمة ذكر لأن المعنى معروف ، قال الفراء تقول أصبحت باردة أي أصبحت غداتنا باردة ، والأول أولى ، ومنه قول قيس ابن الخطيم :

تجلت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب
وقيل المعنى جلى ما في الأرض من الحيوانات وغيرها بعد أن كانت مستترة في الليل ، وقيل جلى الدنيا وقيل جلى الأرض .

﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ أي يغطي الشمس فيذهب بضوئها فتغيب وتظلم الآفاق وقيل يغطي الآفاق وقيل الأرض ، وإن لم يجر لهما ذكر لأن ذلك معروف ، والأول أولى .

قال الخطيب : وجيء به مضارعاً دون ما قبله وما بعده مراعاة للفواصل إذ لو أتى به ماضياً لكان التركيب : إذا غشيها فتفتت المناسبة اللفظية بين الفواصل والمقاطع انتهى .

والمعنى يغطيها بظلمته أي فيزيل ضوؤها فالنهار يجليها ويظهرها والليل يغطيها ويزيل ضوؤها فالضمير في الفواصل من أول السورة إلى هنا للشمس .

وهذه الأقسام الأربعة ليست إلا للشمس في الحقيقة لكن بحسب أربعة أوصاف أولها الضوء الحاصل منها عند ارتفاع النهار ، وذلك هو الوقت الذي يكمل فيه انتشار

الحيوان وتحرك الإنسان للمعاش ، ومنها تلو القمر للشمس بأخذه الضوء عنها ، ومنها تكامل طلوعها وبروزها بمجيء النهار ، ومنها وجود خلاف ذلك بمجيء الليل ، ومن تأمل قليلاً في عظمة الشمس انتقل منها إلى عظمة خالقها فسبحانه ما أعظم شأنه .

﴿ والسما وما بناها ﴾ يجوز أن تكون ما مصدرية أي والسما وبنائها ، ويجوز أن تكون موصولة وبه قال أبو البقاء أي والذي بناها ، وإيثار (ما) على (من) لإرادة الوصفية لقصد التفخيم كأنه قال والقادر العظيم الشأن الذي بناها ورجح الأول الفراء والزجاج ولا وجه لقول من قال أن جعلها مصدرية مغل بالنظم ورجح الثاني ابن جرير قال ابن عباس الله بنى السماء .

﴿ والأرض وما طحاها ﴾ الكلام في ﴿ ما ﴾ هذه كالكلام في التي قبلها ومعنى طحاها بسطها على الماء كذا قال عامة المفسرين كما في قوله : ﴿ دحاها ﴾ قالوا طحاها ودحاها واحد أي بسطها من كل جانب ، والطحو البسط ، وقيل معنى طحاها قسمها وقيل خلقها والأول أولى ، والطحو أيضاً الذهاب ، قال أبو عمرو بن العلاء طحا الرجل إذا ذهب في الأرض ، يقال ما أدري أين طحا ، ويقال طحا به قلبه إذا ذهب به .

﴿ ونفس وما سواها ﴾ الكلام في (ما) هذه كما تقدم ، ومعنى سواها خلقها وأنشأها وسوى أعضائها وعدلها على هذا القانون الأحكم في أعضائها وما فيها من الجواهر والأعراض والمعاني وغير ذلك . قال عطاء يريد جميع ما خلق من الأنس والجن ، التنكير للتفخيم أو للتكثير ، وقيل المراد نفس آدم :

﴿ فألهما فجورها وتقواها ﴾ أي عرفها وأفهمها حالهما وما فيهما من الحسن والقبح ، والإلهام القاء الشيء في القلب بطريق الفيض ينشرح له الصدر ويطمئن ، فإطلاقه على الفجور تسامح ، وقد دفع بحمل الإلهام على مطلق البيان .

قال مجاهد عرفها طريق الفجور والتقوى والطاعة والمعصية ، قال الفراء

فألهمها عرفها طريق الخير والشر كما قال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ .

قال محمد بن كعب : إذا أراد الله بعبده خيراً ألهمه الخير فعمل به ، وإذا أراد به الشر ألهمه الشر فعمل به ، قال ابن زيد جعل فيها ذلك بتوفيقه إياها للتقوى وخذلانه إياها للفجور ، واختار هذا الزجاج ، وحمل الإلهام على التوفيق والخذلان .

قال الواحدي : وهذا هو الوجه لتفسير الإلهام فإن التبيين والتعليم والتعريف دون الإلهام ، والإلهام أن يوقع في قلبه ويجعل فيه ، وإذا أوقع الله في قلب عبد شيئاً فقد ألزمه ذلك الشيء قال : وهذا صريح في أن الله خلق في المؤمن تقواه ، وفي الكافر فجوره ، قال ابن عباس : في الآية علمها الطاعة والمعصية ، وعنه قال ألهمها من الخير والشر وعنه قال : ألزمها فجورها وتقواها .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين أن رجلاً قال : « يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه شيء قد قضي عليهم ومضى في قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم واتخذت عليهم به الحجة قال بل شيء قد قضي عليهم ، قال فلم يعملون اذن ؟ قال من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهينه لعملها ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » وأخرجه ابن المنذر والطبراني وابن مردويه من حديث ابن عباس ، وزاد كان إذا تلا هذه الآية ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ قال فذكره وزاد أيضاً وهو في الصلاة ، وأخرج حديث زيد بن أرقم مسلم أيضاً وأخرج نحوه أحمد من حديث عائشة .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ
 أُتِبَتْ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
 فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

﴿قد أفلح من زكاها﴾ أي قد فاز من زكى نفسه وأغناها وأعلاها بالتقوى بكل مطلوب وظفر بكل محبوب ، وقد قدما ان هذا جواب القسم على الراجح ، قال الزجاج : صار طول الكلام عوضاً عن اللام ، أي والأصل فيه (لقد) وتبعه القاضي قال الشهاب وعند النحاة أن الماضي المثلث المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد ، ولا يجوز الاقتصار على احدهما إلا عند طول الكلام أو في ضرورة ، وأصل الزكاة النمو والزيادة ومنه زكا الزرع إذا كثر ، قال ابن عباس يقول قد أفلح من زكى الله نفسه أي بالطاعة .

﴿وقد خاب من دساها﴾ أي خسر من أضلها وأغواها بالمعصية قال أهل اللغة دساها أصله دسها من التدسيس وهو إخفاء الشيء في الشيء ، فمعنى دساها في الآية أخفاها وأحملها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح . وكانت أجواد العرب تنزل الأمكنة المرتفعة ليشتهر مكانها فتقصدها الضيوف ، وكانت لثام العرب تنزل الهضاب والأمكنة المنخفضة ليخفى مكانها عن الوافدين .

وقال ابن الأعرابي المعنى دس نفسه في جملة الصالحين وليس منهم قال ابن عباس قد خاب من دس الله نفسه فأضله ، وعنه قال دساها يعني مكر بها ، وعنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في الآية «أفلحت نفس زكاها الله وخابت نفس خيها الله من كل خير» أخرجه أبو حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي من طريق جوير عن الضحاك ،

وجوهر ضعيف ، وتكرير (قد) فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونها والإيدان بتعلق القسم به أيضاً أصالة .

﴿ كذبت ثمود ﴾ رسولها صالحاً ﴿ بطغواها ﴾ أنث الفعل لضعف أثر تكذيبهم لأن كل سامع له يعرف ظلمهم فيه لوضوح آيتهم ، والطغوى اسم من الطغيان كالدعوى .

قال الواحدي قال المفسرون : معناه الطغيان حملهم على التكذيب ، والطغيان مجاوزة الحد في المعاصي والباء للسببية كما قاله مجاهد وقتادة وغيرهما ، وقيل بطغواها أي بعذابها الذي وعدت به وسمي العذاب طغوى لأنه طغى عليهم فتكون الباء على هذا للتعدية ، وبدأ في الكشف بأنها للاستعانة مجازاً يعني فعلت التكذيب بطغيانها كما تقول ظلمي بجرأته على الله ، وقال محمد بن كعب بطغواها أي بأجمعها .

قرأ الجمهور بفتح الطاء وهو مصدر بمعنى الطغيان ، وإنما قلبت الياء واواً للفرق بين الاسم والصفة لأنهم يقلبون الياء في الأسماء كثيراً نحو تقوى وسروى ، وقرئ بضم الطاء وهو مصدر أيضاً كالرجعى والحسنى ونحوهما ، وقيل هما لغتان ، واختير التعبير بالطغوى لأنه أشبه برؤوس الآيات قال ابن عباس اسم العذاب الذي جاءها الطغوى فقال كذبت ثمود بعذابها .

﴿ إذ انبعث أشقاه ﴾ العامل في الظرف كذبت أو بطغواها أي حين قام أشقى ثمود ، وهو قدار بن سالف فعقر الناقة ، ومعنى انبعث انتدب لذلك وقام به يقال بعثته على الأمر فانبعث به ، ويضرب بقدار المثل فيقال أشأم من قدار ، وهو أشقى الأولين وكان رجلاً أشقر أزرق قصيراً ، ومعنى قدار في الأصل الجزار ، وقد تقدم بيان هذا في الأعراف .

﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحاً بسبب الانبعاث أو التكذيب الذي دل على قصدهم لها بالأذى ﴿ ناقة الله ﴾ قال الزجاج أي ذروا ناقة الله ، وقال الفراء حذرهم أياها وكل تحذير فهو نصب أي ذروا عقرها ،

والإضافة للتشريف كبيت الله ﴿و﴾ احذروا ﴿سقيها﴾ وهو شربها من الماء وكان لها يوم ولهم يوم ، قال الكلبي ومقاتل قال لهم صالح ذروا ناقة الله فلا تعقروها وذروا سقيها وهو شربها من النهر فلا تعرضوا لها يوم شربها .

﴿فكذبوه﴾ بتحذيره إياهم واستمروا على تكذيبه ﴿فعقروها﴾ أي عقرها الأشقى وإنما اسند العقر إلى الجميع لأنهم رضوا بما فعله ، قال قتادة انه لم يعقروها حتى تابعه صغيروهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، قال الفراء عقرها اثنان ، والعرب تقول هذان أفضل الناس ، وهذان خير الناس ، فلهذا لم يقل أشقيها .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن زمعة قال : « خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال : ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ قال انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه مثل أبي زمعة »^(١) .

وعن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي « ألا أحدثك بأشقى الناس قال بلى قال رجلان احيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذا يعني قرنه - حتى تبطل منه هذه ، يعني لحيته » أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والبخاري والطبراني وابن مردويه والحاكم وأبو نعيم في الدلائل .

﴿فدمدم عليهم ربهم﴾ أي أهلكهم وأطبق عليهم العذاب ﴿بذنبتهم﴾ الذي هو الكفر والتكذيب والعقر ، وحقيقة الدمدمه تضعيف العذاب وترديده يقال دمدمت على الشيء أي أطبقت عليه ودمدم عليه القبر

(١) وهو قدار بن سالف . روى البخاري في « صحيحه » ٥٤٢/٨ عن عبد الله بن زمعة أنه سمع النبي ﷺ يخطب وذكر الناقة ، والذي عقر ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿إذ انبعث أشقاها﴾ انبعث لها رجل عزيز عارم منيع في رهطه مثل أبي زمعة » ورواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم .

أي أطبقه ، وناقة مدمومة إذا لبسها الشحم والدمدمة إهلاك باستئصال ، كذا قال المؤرج .

قال في الصحاح دمدت الشيء إذا ألزقته بالأرض وطحطحته ، ودمدم الله عليهم أهلكهم ودمدتم على الميت التراب أي سويته عليه .

قال ابن الأنباري دمدم أي غضب ، والدمدمة الكلام الذي يزعج الرجل ، وقال ابن الاعرابي دمدم إذا عذب عذاباً تاماً .

والضمير في ﴿ فسواها ﴾ يعود إلى الدمدمة أي فسوى الدمدمة عليهم وعمهم بها فاستوت في صغيرهم وكبيرهم ، وقيل : يعود إلى الأرض أي فسوى الأرض عليهم فجعلهم تحت التراب ، وقيل يعود إلى الأمة أي ثمود ، قال الفراء : سوى الأمة أنزل العذاب بصغيرها وكبيرها بمعنى سوى بينهم فلم يفلت منهم أحداً إلا من آمن مع صالح وكانوا أربعة آلاف .

قرأ الجمهور فدمدم بميم بين الدالين وقرأ ابن الزبير فدهدم بهاء بينهما : قال القرطبي وهما لغتان كما يقال امتقع لونه واهتقع لونه ، وفي القاموس دمدم الأرض سواها كدهدم ودمدم عليهم ، فتلخص ان دمدم بدال واحدة ودمدم بدالين معناهما واحد .

﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أي فعل الله بهم ذلك غير خائف من عاقبة ولا تبعة ، والضمير في عقباها يرجع إلى الفعل ، أو إلى الدمدمة المدلول عليها بدمدم .

قال السدي والضحاك والكلبي إن الكلام يرجع إلى العاقر لا إلى الله سبحانه أي لم يخف الذي عقرها عقبى ما صنع ، وقيل لا يخاف رسول الله عليه الصلاة والسلام عاقبة اهلاك قومه ولا يخشى ضرراً يعود عليه من عذابهم ، لأنه قد أنذرهم ، والأول أولى .

قرأ الجمهور ولا يخاف بالواو ، وقرئ بالفاء وهما قراءتان سبعيتان ، أما

الواو فيجوز أن تكون للحال أو لاستئناف الأخبار ، والفاء للتعقيب ، وهو ظاهر ، والمعنى لا يخاف عاقبتها كما تخاف الملوك عاقبة ما تفعله ، فهو استعارة تمثيلية لإهانتهم ، وأنهم أذلاء عند الله .

وفي القاموس أعقبه الله بطاعته جازاه ، والعقبى جزاء الأمر .

سورة الليل

هي احدى وعشرون آية وهي مكية عند الجمهور، وقيل مدنية قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله، عن جابر بن سمرة قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ في الظهر والعصر ﴿والليل إذا يغشى﴾ ونحوها» أخرجه البيهقي في سننه.

وعن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الهاجرة فرفع صوته فقرأ والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى، فقال له أبيّ بن كعب يا رسول الله أمرت في هذه الصلاة بشيء قال لا ولكن أردت أن أوقت لكم» أخرجه الطبراني في الأوسط وقد تقدم حديث فهذا طليت بسبح اسم ربك الأعلى والشمس وضحاها والليل إذا يغشى.

وعن ابن عباس إنني لأقول أن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل، قال الرازي نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وانفاقه على المسلمين، وفي أمية بن خلف وبخله وكفره بالله، والخبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ
 أَعْطَى وَانْفَكَّى ﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾
 وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾

﴿والليل إذا يغشى﴾ أي يغطي بظلمته ما كان مضيئاً ، قال الزجاج يغشى الليل الأفق وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار وقيل يغشى النهار وقيل يغشى الأرض ، والأول أولى ، قال ابن عباس إذا يغشى إذا أظلم .

وعن ابن مسعود قال « إن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشر أواق فأعتقه الله فأنزل الله ﴿والليل إذا يغشى﴾ إلى قوله ، ﴿إن سعيكم لشتى﴾ سعى أبي بكر وأميه وأبي إلى قوله ﴿وكذب بالحسنى﴾ قال لا إله إلا الله إلى قوله ﴿فسنيسره للعسرى﴾ قال النار » أخرجه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر .

أقسم سبحانه بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه وتسكن الخلق فيه عن التحرك ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم ، وغذاء لأرواحهم ، ثم أقسم بالنهار فقال ﴿والنهار إذا تجلَّى﴾ أي ظهر وانكشف ووضح لزوال الظلمة التي كانت في الليل بطلوع الشمس لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة ، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعايشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكانها ، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش ، ولو كان كله نهراً لبطلت الراحة فكانت المصلحة في تعاقبهما .

﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ ﴿ ما ﴾ هنا الموصولة أي والذي خلقهما وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ولقصد التفخيم أي والقادر العظيم الذي خلق صنفَي الذكر والأنثى ، قال الحسن والكلبي معناه الذي خلق الذكر والأنثى ، فيكون قد أقسم بنفسه الكريمة ، قال أبو عبيدة وما خلق أي ومن خلق .

وقال مقاتل يعني وخلق الذكر والأنثى فتكون (ما) على هذا مصدرية قال الكلبي ومقاتل يعني آدم وحواء والظاهر العموم .

قرأ الجمهور ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ وقرأ ابن مسعود ﴿ والذكر والأنثى ﴾ بدون ما خلق ، قال المحلي والخنثى المشكل عندنا ذكر أو أنثى عند الله تعالى فيحنت بتكليمه من حلف لا يكلم ذكراً ولا أنثى انتهى ، وعبارة الخطيب الخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله غير مشكل معلوم بالذكر أو الأنوثة انتهت ، وقال الكرخي يحنت بتكليمه لأن الله تعالى لم يخلق من ذوي الأرواح من ليس ذكراً ولا أنثى ، والخنثى إنما هو مشكل بالنسبة إلينا ، خلافاً لأبي الفضل الهمداني فيما حكاه وجهاً أنه نوع ثالث ، ويدفعه قوله ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ ونحو ذلك قاله الأسنوي .

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم أي أن عملكم مختلف فمنه عمل للجنة ومنه عمل للنار أو منكم مؤمن وكافر أو منكم مثاب وبالجنة ومعاقب بالنار ، أو منكم راحم وقاس وحليم وطائش وجواد وبخيل^(١) .

قال جمهور المفسرين السعي العمل ، فساع في فكاك نفسه وساع في عطبها ، وشتى جمع شتيت كمرضى جمع مريض ، وقيل للمختلف شتى لتباعد

(٢) روى مسلم في « صحيحه » ٢٠٣/١ عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » أي : كل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها ، أي : يهلكها .

ما بين بعضه وبعض ، والشتات هو الافتراق ، وسعيكم مصدر مضاف فيفيد العموم فهو جمع معنى وإن كان مفرداً في اللفظ ولذا أخبر عنه بالجمع وهو شتى فهو بمعنى مساعيكم .

﴿ فأما من أعطى ﴾ أي بذل ماله في وجوه الخير ﴿ واتقى ﴾ محارم الله التي نهى عنها ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أي أيقن بالخلف الذي من الله ، قال المفسرون فأما من أعطى المعسرين ، وقال قتادة أعطى حق الله الذي عليه ، وقال الحسن أعطى الصدق من قلبه وصدق بالحسنى أي بـ ﴿ لا إله إلا الله ﴾ وبه قال الضحاك والسلمي وابن عباس . وقال مجاهد بالحسنى بالجنة ، وقال زيد ابن أسلم بالصلاة والزكاة والصوم ، والأول أولى ، قال قتادة بالحسنى أي بموعود الله الذي وعده أن يثيبه ، قال الحسن بالخلف من عطائه ، واختار هذا ابن جرير ، وقال ابن عباس أعطى من الفضل واتقى ربه وصدق بالخلف من الله .

﴿ فسيسره اليسرى ﴾ أي فسنهيئه للخصلة التي هي حسنى وهي عمل الخير حتى يسهل عليه فعله ، والمعنى فسيسر له الانفاق في سبيل الخير والعمل بالطاعة لله ، والسين في الموضوعين للتسويق وهو من الله محقق ، وذكر القسطلاني أن هذه السين للتلطيف .

قال الشريف الصفوي مرادهم به ترقيق الكلام بمعنى أن لا يكون نصاً في المقصود بل يكون محتملاً لغير المقصود فهو كالشيء الرقيق الذي يمكن تغييره ويسهل ويقابله الكثيف بمعنى أن يكون نصاً في المقصود لأنه لا يمكن تغييره ، وتبديله فهو كالشيء الكثيف الذي لا يمكن فيه ذلك .

فالمقصود ههنا أن التيسير حاصل في الحال لكن أتى بالسين الدالة على الاستقبال والتأخير لتلطيف الكلام وترقيقه باحتمال أن لا يكون التيسير حاصلاً في الحال لنكات تقتضي ذلك والله أعلم .

قال الواحدي قال المفسرون : نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصديق

اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله ، قال ابن عباس ليسرى للخير من الله ، وقال زيد بن أسلم للجنة .

وعن عامر بن عبدالله بن الزبير قال « كان ابو بكر الصديق يعتق على الإسلام بمكة وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن فقال له أبوه أي بني أراك تعتق ناساً ضعفاء فلو أنك تعتق رجالاً جلدأ يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي أبت إنما أريد ما عند الله ، قال فحدثني بعض أهل بيتي ان هذه الآية نزلت فيه^(١) »

﴿ وأما من بخل ﴾ بماله فلم يبذله في سبل الخير ﴿ واستغنى ﴾ أي زهد في الأجر والثواب أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ، قال ابن عباس بخل بماله واستغنى عن ربه ، وعنه قال يقول من أغناه الله فبخل بالزكاة ، وعنه هو أبو سفيان بن حرب ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالخلف من الله عز وجل ، وقال مجاهد بالجنة ، وعنه قال بلا إله إلا الله .

﴿ فسيسره للعسرى ﴾ أي فسنيئه للخصلة العسرى ونسملها له حتى يتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ويضعف عن فعلها فيؤديه ذلك إلى النار ، قال مقاتل يعسر عليه أن يعطي خيراً ، قيل العسرى الشر ، وذلك أن الشر يؤدي إلى العذاب ، والعسرة في العذاب والمعنى سنيئه للشر بأن نجريه على يديه ، قال الفراء سيسره سنيئه ، والعرب تقول قد يسرت الغنم إذا ولدت أو تهيأت للولادة ، قال ابن عباس للعسرى للشر من الله وقيل للنار .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن علي بن أبي طالب قال « كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر

لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء
ثم قرأ فأما من أعطى ، إلى قوله ، للعسرى »

واخرج احمد ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبدالله أن سراقه بن مالك
قال « يا رسول الله في أي شيء يعمل ، أفى شيء ثبتت فيه المقادير وجرت به
الأقلام أم في شيء يستقبل فيه العمل ، قال بل في شيء ثبتت فيه المقادير ،
وجرت فيه الأقلام ، قال سراقه: فقيم العمل اذن يا رسول الله ؟ قال اعملوا
فكل ميسر لما خلق له ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية
فأما من أعطى ، إلى آخرها »

وقد تقدم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه ، وفي
الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة قال الفراء : لقائل أن يقول كيف
قال ذلك وهل في العسرى تيسير ؟ انتهى .

وإيضاح الجواب عن هذا ما ورد في الحديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق
له » أي عليكم بشأن العبودية وما خلقتكم لأجله وأمرتم به ، وكلوا أمور الربوبية
الغيبية إلى صاحبها فلا عليكم بشأنها ، ونظيره الرزق المقسوم مع الأمر
بالكسب ، والأجل المضروب في العمر مع المعالجة بالطب ، فانك تجد المغيب
فيهما علة موجبة ، والظاهر البادي سبباً مخيلاً وقد اصطلح الناس خاصتهم
وعامتهم أن الظاهر فيهما لا يترك بسبب الباطن ، قاله الكرخي .

﴿ وما ﴾ أي لا ﴿ يغني عنه ﴾ شيئاً ﴿ ماله ﴾ الذي بخل به وتركه لوارثه
ولم يصحبه منه إلى آخرته التي هي موضع فقره وحاجته شيء أو أي شيء يغني
عنه ﴿ إذا تردى ﴾ أي هلك ، يقال ردى الرجل يردى وتردى يتردى إذا
هلك ، وقال قتادة وأبو صالح وزيد بن أسلم إذا تردى إذا سقط في جهنم ،
يقال ردى في البئر وتردى إذا سقط فيها ، ويقال ما أدري أين ردى أي أين
ذهب .

إِنْ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿١٦﴾ وَإِنْ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٧﴾ فَأَنْذَرْتَكُمْ نَارًا تَلْظَى ﴿١٨﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٩﴾
 الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٢٠﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿٢١﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٢٢﴾ وَمَا
 لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ﴿٢٣﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢٥﴾

﴿ إن علينا للهدى ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها أي علينا البيان بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة ، قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال أي وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه حيث بينا حل من سلك كلا الطريقين ترغيباً وترهيباً .

قال قتادة على الله البيان ، بيان حرامه وطاعته ومعصيته ، قال الفراء من سلك الهدى فعلى الله سبيله لقوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول من أراد الله فهو على السبيل القاصد ، قال الفراء أيضاً المعنى إن علينا للهدى والاضلال فحذف الاضلال كقوله ﴿ سراويل تقيكم الحر ﴾ أي والبرد ، وقيل المعنى ان علينا ثواب هداه الذي هدينه ، والأول أولى .

﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي لنا كل ما في الآخرة وكل ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء ، فمن أرادهما أو أخذهما ذلك منا ، وقيل المعنى أن لنا ثواب الآخرة وثواب الدنيا فمن طلبها من غيرنا فقد أخطأ الطريق .

﴿ فأندرتكم ناراً تلظى ﴾ أي حذرتكم وخوفتكم ناراً تتوقد وتتوهج ، وأصله تتلظى فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً ، وقرئ على الأصل ﴿ لا يصلها ﴾ صلياً لازماً على جهة الخلود ﴿ إلا الأشقى ﴾ وهو الكافر وان صليها غيره من العصاة فليس صليها كصليها والمعنى يدخلها أو يجد صليها وهو حرها .

ثم وصف الأشقى فقال ﴿ الذي كذب وتولى ﴾ أي كذب بالحق الذي جاءت به الرسل وأعرض عن الطاعة والإيمان ، قال الفراء إلا الأشقى إلا من

كان شقياً في علم الله جل ثناؤه ، وقال أيضاً لم يكن كذب برد ظاهر ، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة فجعل تكذيباً كما تقول لقي فلان العدو فكذب ، إذا نكل ورجع عن اتباعه .

قال الزجاج : هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر .

ولأهل النار منازل فمنها ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، والله سبحانه كلما وعد عليه بجنس من العذاب فجدير أن يعذب به ، وقد قال الله ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فلو كان من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فائدة .

وقال في الكشاف الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين فأريد أن يبالغ في صفتها المتناقضتين فقليل الأشقى وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف ، وبالأتقى أبو بكر الصديق .

قال المحلي وهذا الحصر مؤول لقوله تعالى ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فيكون المراد الصلي المؤبد انتهى أي مصروف عن ظاهره فلا يرد الفاسق لأنه إما أن لا يدخلها إن عفي عنه أو يدخلها ويخلص منها ، فالمعنى لا يدخلها دخولاً مؤبداً إلا الكافر الذي هو شقي لأنه كذب النبي .

والأولى أن يقال مؤول بحمل الصلي على التأييد والخلود .

وعن أبي هريرة قال « لتدخلن الجنة إلا من يأبى قالوا ومن يأبى أن يدخل الجنة فقراً ﴾ الذي كذب وتولى ﴿ أخرجه ابن جرير .

وعن أبي أمامة « لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الجنة إلا من

شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله فمن لم يصدقني فإن الله يقول ﴿ لا يصلها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ﴾ كذب بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عنه. أخرجه سعيد بن منصور وغيره.

وعنه أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا كلكم يدخل الله الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » أخرجه أحمد والحاكم والضياء .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل النار إلا الأشقى ، قيل ومن الشقي قال: الذي لا يعمل لله بطاعة ولا يترك لله معصية » أخرجه أحمد وابن ماجه وابن مردويه .

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل أمتي يدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى قالوا ومن يأبى يا رسول الله قال: من اطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » أخرجه أحمد والبخاري .

﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ أي سيباعد عنها المتقي للكفر اتقاء بالغاً ، قال الواحدي الأتقى أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين اهـ ، والاولى حمل الأشقى والأتقى على كل متصف بالصفيتين المذكورتين ، ويكون المعنى انه لا يصلها صلياً تاماً لازماً إلا الكامل في الشقاء وهو الكافر . ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلا الكامل في التقوى ، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تبعد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ تبعيد الكامل في التقوى عنها .

والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله ﴿ لا يصلها إلا الأشقى ﴾ زاعماً ان الأشقى الكافر لأنه الذي كذب وتولى ، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين .

فيقال له فماذا تقول في قوله ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ فإنه يدل على انه

لا يجنب النار إلا الكامل في التقوى ، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار ، فإن أولت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى . فخذ اليك هذه مع تلك وكن كما قال الشاعر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا علي ولا ليا
وقيل أراد بالأشقى والأتقى الشقي والتقي كما قال طرفة بن العبد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد ، ولا يخفأك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالكذب ، فإن ذلك لا يكون إلا من الكافر فلا يتم ما اراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين .

عن عروة « ان ابا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله : بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وام عيسى وأمة بني المؤمل ، وفيه نزلت ﴿ وسيجنبها الاتقى ﴾ الى آخر السورة » اخرج ابن ابي حاتم ، وفي الباب روايات .

ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال ﴿ الذي يؤتي ماله ﴾ اي يعطيه ويصرفه في وجوه الخير ، وقوله ﴿ يتزكى ﴾ في محل يصب على الحال من فاعل يؤتي اي حال كونه يطلب ان يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة ، ويجوز ان يكون بدلاً من يؤتي داخلاً معه في حكم الصلة ، قرأ الجمهور يتزكى مضارع تزكى ، قرأ علي بن الحسين رضي الله عنهما بادغام التاء في الزاي .

﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ قال أبو السعود أي من شأنها ان تجازى وتكافأ ، والجملة مستأنفة لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص ، اي ليس ممن يتصدق بماله ليجازي بصدقة نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها ، وإنما يبتغي بصدقة وجه الله تعالى .

ومعنى الآية أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها ان يجازى عليها حتى يقصد بايتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها ، وإنما قال نجزي مضارعاً مبنياً للمفعول لأجل الفواصل ، والأصل يجزيها إياه أو يجزيه إياها .

﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ قرأ الجمهور بالنصب على الإستثناء المنقطع لعدم اندراجهم تحت جنس النعمة أي لكن ابتغاء وجه ربه ، ويجوز ان يكون منصوباً على انه مفعول له على المعنى اي لا يؤتي إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة ، قال الفراء هو منصوب على التأويل أي ما اعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله ، وقرئ بالرفع على البدل من محل نعمة لأن محلها الرفع إما على الفاعلية وإما على الابتداء او (من) مزيدة والرفع لغة تميم لأنهم يجوزون البدل في المنقطع في غير الإيجاب ويجرونه مجرى المتصل .

قال مكي وأجاز الفراء في ابتغاء على البدل من موضع نعمة وهو بعيد .

قلت كأنه لم يطلع عليها قراءة ، واستبعاده هو البعيد فإنها لغة فاشية ، وقرأ الجمهور أيضاً ابتغاء بالمد ، وقرئ بالقصر . والأعلى نعت للرب .

﴿ ولسوف يرضى ﴾ اللام هن الموطئة للقسم أي وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم ، وهو وعد من الكريم تعالى لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجلها إذ به يتحقق الرضا ، قاله أبو السعود ، وقرأ الجمهور يرضى مبنياً للفاعل وقرئ مبنياً للمفعول من أرضاه الله وهو قريب من قوله تعالى في آخر طه ﴿ لعلك ترضى ﴾ وترضى .

سورة الضحك

هي احدى عشرة آية وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة ، وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن المقرئ قال : « سمعت عكرمة ابن سليمان يقول قرأت على اسماعيل بن قسطنطين . فلما بلغت ﴿ والضحك ﴾ قال كبر حتى تختم . وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أخبره بذلك . وأخبره أبي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره بذلك » وأبو الحسن المقرئ المذكور هو أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ .

قال ابن كثير فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن المقرئ وكان إماما في القراءات . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازي وقال لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي قال هو منكر الحديث .

قال ابن كثير ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته فقال بعضهم يكبر من آخر الليل اذا يغشك . وقال آخرون من آخر الضحك . وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول الله أكبر ويقتصر . ومنهم من يقول الله أكبر لا إله الا الله . الله أكبر .

وذكروا في مناسبة التكبير من أول الضحك أنه لما تأخر
الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفترو تلك المدة ثم جاء
الملاك فأوحى إليه ﴿ والضحك ﴾ كبر فرحاً وسروراً. ولم يرووا ذلك
باسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جندب البجلي قال :
« اشتكك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثة فأتته
امراً فقالت يا محمد ما أراك شيطانك إلا قد تركك فلم يقربك
ليلتين أو ثلاثة فأنزل الله والضحك » .

وعن جندب قال : « أبطأ جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم
فقال المشركون قد ودع محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت ﴿ ما
ودعك ﴾ وعنه قال : « احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وآله
وسلم فقالت بعض بنات عمه ما أراك صاحبك إلا قد قلاك . فنزلت
﴿ والضحك ﴾^(١) ، وقيل في سبب نزولها غير ذلك وما ذكرنا هو
الأول .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » ٥٤٥/٨ ومسلم ١٤٢٣/٣ وأحمد في « المسند » ٣١٢/٤ وابن جرير
الطبري ٢٣١/٣٠ والواحدي في « أسباب النزول » وأورده السيوطي في « الدر » ٣٦٠/٦ وزاد نسبه
للترمذي ، والنسائي ، والبيهقي وأبي نعيم معاً في « الدلائل » عن جندب بن عبد الله بن شفيان البجلي
رضي الله عنه .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٥٤٥/٨ : وجدت في الطبري باسناد فيه من لا يعرف أن سبب
نزولها وجود جرو كلب تحت سريره ﷺ لم يشعر به ، فأبطأ عنه جبريل لذلك ، وقصة إبطاء جبريل
بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة ، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب ، بل شاذ مردود بما
في الصحيح والله أعلم . وورد لذلك سبب ثالث ، وهو ما أخرجه الطبري من طريق العوفي عن
ابن عباس قال : لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فتغير بذلك ، قالوا : ودعه
ربه وقلاه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ . . . ومن طريق اسماعيل مولى آل الزبير
قال : فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه ، فقال : لقد خشيت أن . . .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَاقَلَى ﴿٣﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ
الْأُولَى ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥﴾

﴿والضحى﴾ المراد بالضحى هنا النهار كله لقوله ﴿والليل إذا سجدى﴾ فلما قابل الضحى بالليل دل على أن المراد به النهار كله لا بعضه ، وهو في الأصل إسم لوقت ارتفاع الشمس كما تقدم في قوله ﴿والشمس وضحاها﴾ وعلى هذا يكون في الكلام مجاز من إطلاق إسم الجزء وإرادة الكل ، والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين ، وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق أن المراد به الضحى الذي كلم الله فيه موسى والمراد بقوله الآتى ﴿والليل إذا سجدى﴾ ليلة المعراج .

وقيل المراد بالضحى هو الساعة التي خر فيها السحرة سجداً كما في قوله ﴿وأن يحشر الناس ضحى﴾ وقيل المقسم به مضاف مقدر كما تقدم في نظائره أي ورب الضحى وقيل تقديره وضحاوة الضحى ، ولا وجه لهذا فله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه . وقيل الضحى نور الجنة والليل ظلمة النار ، وقيل الضحى نور قلوب العارفين ، والليل سواد قلوب الكافرين ، والأول أولى .

وقدم هنا الضحى ، على الليل . وفي السورة قبلها قدم الليل لأن لكل منهما أثراً في صلاح العالم ولليل فضيلة سبق ، وللنهار فضيلة النور ، فقدم هذا تارة وهذا أخرى ، أو أنه قدم الليل في سورة أبي بكر لأن أبا بكر سبق له كفر ، وقدم الضحى في سورة محمد لأنه نور محض ولم يتقدمه ذنب ، ولم يفصل بين السورتين إشارة إلى أنه لا واسطة بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر .

قلت هذه الأقوال من قبيل لطائف النكات وليس من تفسير كتاب الله في

شيء .

﴿والليل إذا سجي﴾ أي سكن كذا قال قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة وغيرهم ، يقال ليلة ساجية أي ساكنة ، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية ، يقال سجي الشيء يسجو سجواً إذا سكن ، قال عطاء إذا سجا إذا غطى بالظلمة . وروى ثعلب عن ابن الأعرابي سجا امتد ظلامه ، وقال الأصمعي سجو الليل تغطيته النهار مثل ما يسجي الرجل بالثوب ، وقال الحسن غشى بظلامه كل شيء ، وقال سعيد بن جبير أقبل ، وقال مجاهد أيضاً استوى والأول أولى وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة ، ومعنى سكونه استقرار ظلامه واستواؤه فلا يزداد بعد ذلك ، وقال ابن عباس إذا أقبل وعنه قال إذا ذهب .

﴿ما ودعك ربك﴾ أي ما تركك ، قاله ابن عباس وهذا جواب القسم أي ما قطعك قطع المودع ، قرأ الجمهور بتشديد الدال من التوديع وهو توديع المفارق ، وقرئ بتخفيفها من قولهم ودعه أي تركه والتوديع أبلغ من الودع لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في ترك .

قال المبرد لا يكادون يقولون ودع ولا وزر لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، قال أبو عبيدة ودعك من التوديع كما يودع المفارق ، وقال الزجاج لم يقطع الوحي ، والتوديع مستعار استعارة تبعية للترك فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقتها ، وهذه الحقيقة لا تتصور هنا .

﴿وما قلى﴾ أي ما أبغضك ، قاله ابن عباس : القلاء البغض ، يقال قلاه يقليه قلاً وقال ما قلى ، ولم يقل وما قلاك لموافقة رؤوس الآي .

﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ اللام جواب قسم محذوف أي الجنة خير لك من الدنيا مع أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد أوتي في الدنيا من شرف النبوة ما يصغر عنده كل شرف ، وتتضاءل بالنسبة إليه كل مكربة في

الدنيا ، ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية ، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم أو كظل زائل ، لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئاً ، ولما كانت طريقاً إلى الآخرة وسبباً لنيل ما أعده الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الجملة من هذه الحيشة .

وإنما قيد بقوله « لك » لأنها ليست خيراً لكل أحد .

قال البقاعي إن الناس على أربعة أقسام منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء ، ومنهم من له الشر فيهما وهم الكفرة الفقراء ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر في الآخرة وهم الكفرة الأغنياء ، ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم الفقراء المؤمنون ، ذكره الخطيب .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي فأنزل الله » ﴿ وللاخرة خير لك من الأولى ﴾ أخرجه^(١) الطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل ، وعنه قال « عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما هو مفتوح على أمته من بعده فسر بذلك فأنزل الله » .

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة والمبتدأ محذوف تقديره ولأنت سوف يعطيك ، وليست للقسم لأنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة ، وقيل هي

(١) رواه ابن جرير الطبري ٢٣٢/٣٠ من رواية الإمام الأوزاعي عن اسماعيل بن عبيد الله ابن أبي المهاجر المخزومي عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عبد الله بن عباس ، ورواه ابن أبي حاتم من طريقه به . قال ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس ، ومثل هذا ما يقال عن توقيف . ورواه الواحدي في « أسباب النزول » ٣٣٨ والحاكم ٥٢٦/٢ ورواه الطبراني في « الكبير » . قال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٣٩/٧ : وإسناد الطبراني في « الكبير » حسن . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٦١/٦ وزاد نسبه لعبد بن حميد ، والبيهقي وأبي نعيم كلاهما في « الدلائل » وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

للقسم ، قال أبو علي الفارسي ليست هذه اللام هي التي في قولك إن زيداً لقائم بل هي التي في قولك لأقومن ، ونابت سوف عن إحدى نوني التأكيد فكأنه قال ولنعطيك أي أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة .

قل والمعنى ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة فترضى ، وقال البيضاوي هذا وعد شامل لما أعطاه له من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين ، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواه ، وقيل الحوض والشفاعة في الأمة ، وقيل ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك ، وبه قال ابن عباس وزاد في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم وعنه قال رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة .

وأخرج ابن جرير عنه قال من رضا محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار .

وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه قال لا يرضي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وواحد من أمته في النار^(١) .

ويدل على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله في إبراهيم ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ وقول عيسى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية فرفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال الله يا جبريل إذهب إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك » .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال قلت لابي جعفر محمد بن علي بن الحسين « أريت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي ؟ قال أي والله حدثني محمد بن الحنفية

(١) أي من أمته الذين ساروا على نهجه عقيدة وعبادة لا أولئك الذين اكتفوا من الدين بالأسماء .

عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أشفع لأمتي حتى يناديني ربي أرضيت يا محمد فأقول نعم يا رب رضيت « ثم أقبل علي فقال إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ قلت إنا لنقول ذلك ، قال فكنا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وهي الشفاعة » .

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ولسوف يعطيك ربك فترضى » أخرجه ابن أبي شيبة .

وعن جابر بن عبد الله قال « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من جلد الإبل ، فلما نظر إليها قال يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة فأنزل الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن النجار .

قيل في الآية غير ذلك ، والظاهر انه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة ، ومن أهم ذلك عنده وأقدمه قبول شفاعته لأمته

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم الثلاث والقصد من تعداد هذه النعم تقوية قلبه صلى الله عليه وآله وسلم بخلاف قوله تعالى ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ لأنه في معرض الذم .

ثم أمره بعد ذلك أن يذكر نعم ربه كأنه قال له فالطريق في حقك أن تفعل مع عبيدي مثل ما فعلت في حقك ، والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفى على أبلغ وجه فكأنه قال قد وجدك يتيماً والوجود بمعنى العلم ، وقيل بمعنى المصادفة ، والمعنى وجدك يتيماً لا أب لك قبل ولادتك أي بعد حمله بشهرين وهو الأرجح ، وقيل غير ذلك ، والتفصيل في المواهب وشرحه .

وكانت وفاة أبيه بالمدينة ، ودفن في دار التابعة وقيل بالابواء من أعمال الفرع ، وتوفيت أمه وهو ابن أربع أو خمس أو ست أو سبع أو ثمان أو تسع أو اثنتي عشرة سنة وشهر وعشر أيام ، وكانت وفاتها بالابواء ، وقيل بالحجون ، ومات جده وهو صلى الله عليه وآله وسلم ابن ثمان .

﴿ فأوى ﴾ أي جعل لك مأوى تأوي إليه ، فرأ الجمهور فأوى بالالف بعد الهمزة رباعياً من آواه يؤويه ، وقرئ ثلاثياً وهو إما بمعنى الرباعي أو هو من أوى له إذا رحمه ، وعن مجاهد قال معنى الآية ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك فأواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطنونك ، فجعل يتيماً من قولهم درة يتيمة ، وهو بعيد جداً .

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ معطوف على المضارع المنفي وقيل على ما يقتضيه الكلام الذي قبله كما ذكرنا أي قد وجدك يتيماً الخ والضلال هنا بمعنى الغفلة كما في قوله ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ وكما في قوله ﴿ وإن كنت من

قبله لمن الغافلين ﴿ والمعنى أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة ، واختار هذا الزجاج وقيل معنى ضالاً لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع فهداك لذلك ، يعنى ليس المراد به الإنحراف عن الحق ، فهذا كقوله تعالى ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ تأمل .

وقال الكلبي والسدي والفراء وجدك في قوم ضلال فهداهم الله بك ، أو فهداك إلى إرشادهم أو ضالاً عما أنت عليه الآن من الشريعة فهداك الله تعالى إليها ، وقيل وجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها ، وقيل ناسياً شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذوي القرنين والروح فذكرك كقوله تعالى ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ وقيل وجدك طالباً للقبلة فهداك إليها كما في قوله ﴿ قد نرى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها ﴾ ويكون الضلال بمعنى الطلب لأن الضال طالب .

وقيل وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليهم . ويكون الضلال بمعنى الضياع ، وقيل وجدك محباً للهداية فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة ، كقوله تعالى ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ وقيل وجدك ضالاً في شعاب مكة فهداك أي رذك إلى جدك عبدالمطلب .

وعن ابن عباس قال وجدك بين الضالين فاستنقذك من ضلالتهم ، وقيل ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب فردّه إلى القافلة .

ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في باطل ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان ، وقاذورات أهل الفسق والعصيان .

وقيل ضالاً نفسك لا تدري من انت فعرفك نفسك وحالك ، وقيل ضالاً ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش ، وقيل معناه لا أحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق ، وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد غيره

وفيه بعد ، وأيضاً يأباه النظم الكريم .

وعندي أن الضلال والهدى عامان في هذ الآية فيشملان كل نوع من أنواع الضلالة والهداية بيد الكفر والشرك لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أي وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك ، يقال عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر ، قال الكلبي فأغنى أي رضاك بما أعطاك من الرزق واختار هذا الفراء قال : لأنه لم يكن غنياً من كثرة ، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه وذلك حقيقة الغنى ، وقيل بإعانة الأنصار حين الهجرة وقيل فأغنى بما فتح لك من الفتوح والغنائم ، وفيه نظر ، لأن السورة مكية وقيل بمال خديجة بنت خويلد وتربية أبي طالب أولاً وبمال أبي بكر ثانياً ، وقيل وجدك فقيراً من الحجج والبراهين فأغناك بها وفيه بعد .

قرأ الجمهور عائلاً وقرىء عيلاً بزنة سيد ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت قد كانت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من كان يحمي الموق فقال تعالى يا محمد ألم أجدك يتيماً فأوتيتك ألم أجدك ضالاً فهديتك ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ألم أشرح لك صدرك ألم أضع عنك وزرك ألم أرفع لك ذكرك قلت بلى يا رب » أخرجه ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر .

وأخرج ابن مردويه عنه قال « لما نزلت والضحى على رسول صلى الله عليه وآله وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمين عليّ ربي وأهل أن يمين ربي » .

ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان قال مجاهد لا تحتقر اليتيم فقد كنت يتيماً قال الاخفش لا تسلط عليه بالظلم ادفع إليه حقه واذكر يتمك ، قال

الفراء والزجاج لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه وكذا كانت العرب تفعل في حق اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحسن إلى اليتيم ويوصي باليتامى .

قرأ الجمهور فلا تقهر بالقاف وقرىء بالكاف ، والعرب تعاقب بين القاف والكاف ، قال النحاس إنما يقال كهره إذا اشتد عليه وغلظ ، وقيل القهر الغلبة والكهر الزجر ، قال أبو حيان هي لغة يعني قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور .

عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة وفرج بينهما » أخرجه البخاري وفي الباب أحاديث^(١) .

واليتيم منصوب بتقهر ، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل ألا ترى أن اليتيم منصوب بالمجزوم ، وقد تقدم على الجازم ، ولو قدمت تقهر على « لا » امتنع لأن المجزوم لا يتقدم على جازمه كالمجزور لا يتقدم على جازه قاله السمين .

﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ يقال نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره فهو نهى عن زجر السائل والاغلاظ له ، ولكن يبذل اليسير القليل ، أو يرده بالجميل .

قال الواحدي قال المفسرون يريد السائل على الباب ، يقول لا تنهره إذا سألك فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً لنا قال قتادة معناه رد السائل برحمة ولين .

وقيل المراد بالسائل طالب العلم والذي يسأل عن الدين فلا تنهره بالغلظة والجفوة وأجبه برفق ولين ، كذا قال سفيان ، والسائل منصوب بتنهره

والتقدير مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ولا تنهر السائل ، وهذه النواهي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي نواه له ولأئمة صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم أسوته ، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهي بكل فرد من أفراد هذه النواهي .

﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ أمره سبحانه بالتحدث بنعم الله عليه وإظهارها للناس واشهارها بينهم ، والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها أو نوع من أنواعها ، وقال مجاهد والكلبي المراد بالنعمة هنا القرآن ، قال الكلبي وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرأه ، قال الفراء وكان يقرأه ويحدث به ، وقال مجاهد أيضاً المراد بالنعمة النبوة التي أعطاه الله ، واختار هذا الزجاج فقال أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أعطاك الله وهي أجل النعم ، وقال مقاتل يعني أشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدى بعد الضلالة وجبر اليتيم والاغناء بعد العيلة ، فاشكر هذه النعم ، والتحدث بنعمة الله شكر .

وهذا الامر له صلى الله عليه وآله وسلم هو أمر له ولأئمة لأنهم أسوته في كل ما يأتي ويذر ، قال الحسن بن علي في الآية ما عملت من الخير وعنه قال إذا أصبت خيراً فحدث اخوانك ، وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة » أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند والبيهقي في الشعب والخطيب في المتفق ، قال السيوطي بسند ضعيف .

وعن جابر بن عبدالله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أبلى بلاء فذكره فقد شكره وإن كتبه فقد كفره » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي والضياء .

وأخرج البخاري في الادب وأبو داود والضياء عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم « من أعطى عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ومن كتبه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور » .

وعن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أولي معروفاً فليكافئ به فإن لم يستطع فليذكره فإن من ذكره فقد شكره » أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي .

قال الكرخي والجار والمجرور متعلق بحدث والفاء غير مانعة من ذلك لأنها كالزائدة والتحدث بها نشرها بالشكر والثناء عليه تعالى .

وقوله تعالى ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ مقابل لقوله ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ وقوله ﴿ وأما السائل ﴾ الخ مقابل لقوله ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ وأما قوله ﴿ وأما بنعمة ربك ﴾ الخ فجيء به على العموم .

وفي حكمة تأخير حق الله تعالى عن حق اليتيم والسائل وجوه .

احدهما أن الله غني وهما محتاجان ، وتقديم المحتاج أولى .

وثانيها أنه وضع في حظهها الفعل ورضى لنفسه بالقول .

وثالثها أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله

فختمت به ، وأوثر فحدث على فخبر ليكون عنده حديثاً لا ينساه .

سورة ألم نشرح

هي ثمان آيات وهي مكية بلا خلاف . عن عائشة قالت نزلت
سورة ألم نشرح بمكة ومثله عن ابن عباس وزاد بعد الضحك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا
لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ
فَارْغَبْ ﴿٨﴾

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ معنى شرح الصدر فتحه باذهاب ما يصدر عن الإدراك ، والاستفهام التقريري إذا دخل على النفي قرره فصار المعنى قد شرحنا لك صدرك حتى وسع مناجاة الحق ، ودعوة الخلق ، فكان غائباً عنهم بروحه ، وحاضراً معهم بجسده الشريف .

والمعنى أَلَمْ نَفْسِحه بما أودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل ، أو بما يسرنا لك من تلقي الوحي بعد ما كان يشق عليك .

قال الراغب أصل الشرح بسط اللحم ونحوه يقال شرحت اللحم وشرحته ، ومنه شرح الصدر وهو بسطه بنور إلهي وسكينته من جهة الله وروح منه وإنما خص الصدر لانه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات ، وقيل لان الصدر محل الوسوسة كما قال تعالى ﴿ يوسوس في صدور الناس ﴾ فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح .

والقلب محل العقل والمعرفة وهو الذي يقصده الشيطان فيجىء أولاً إلى الصدر الذي هو حصن القلب فإذا وجد مسلماً نزل فيه هو وجنده وبث فيه الغموم والهموم والحرص ، فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة ، وإذا لم يجد له مسلماً وطرد حصل الأمن وانشرح الصدر ، وتيسر القيام بأداء العبودية .

ولم يقل نشرح صدرك تنبيهاً على أن منافع الرسالة عائدة عليه صلى الله عليه وآله وسلم كأنه يقول إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي ، والمراد بالامتنان عليه صلى الله عليه وآله وسلم بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قام به من الدعوة وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء وحفظ الوحي . وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ قال ابن عباس في الآية شرح الله صدره للإسلام .

قرأ الجمهور نشرح بسكون الحاء بالجزم ، وبفتحتها قرأ أبو جعفر المنصور العباسي قال الزمخشري قالوا : لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحتها .

وقال ابن عطية إن الأصل ألم نشرحن بالنون الخفيفة ثم إبدالها ألفاً ثم حذفها تخفيفاً ، وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم بلم وهو قليل جداً ، وخرجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون بلم ويجزمون بلمن ، وهذه ما أظنها تصح . وإن صحت فليست من اللغات المعتبرة فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها .

وعلى كل حال فقراءة هذ الرجل مع شدة جوره ومزيد ظلمه وكثرة جبروته وقلة علمه ليست بحقيقة بالاشتغال بها .

﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ معطوف على معنى ما تقدم لا على لفظه أي قد شرحنا لك صدرك ووضعنا الخ والوزر الذنب أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ، قال الحسن وقتادة والضحاك ومقاتل المعنى حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية ، وهذا كقوله ﴿ ليغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح مع أن حقه التأخر عنه لتعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر .

ولما أن في وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه نخل بتجاوب أطراف النظم الكريم .

ثم وصف هذا الوزر فقال ﴿الذي أنقض ظهرك﴾ قال المفسرون : أي ثقل ظهرك ، قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض أي صوت . وهذا مثل معناه أنه لو كان حاملاً يحمل لسمع نقيض ظهره ، وأهل اللغة يقولون ، أنقض الحمل ظهر الناقة إذا سمع له صرير من شدة الحمل ، قال قتادة : كان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ذنوب قد أثقلته فغفرها الله له .

وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له ، وكذا قال أبو عبيدة وغيره ، وقرأ ابن مسعود ﴿وحللنا عنك وقر﴾ وقيل معناه عصمناك من الوزر الذي ينقض ظهرك ولو كان ذلك الوزر حاصلاً ، قاله الرازي وفيه استعارة تمثيلية حيث سمي العصمة وضعاً مجازاً .

ثم ذكر سبحانه منته وكرامته عليه فقال ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ وزيادة لك في الموضعين وعنك في موضع تفيد إبهام المشروح والموضوع والمرفوع ثم توضيحه . والإيضاح بعد الإبهام أوقع في الذهن ، قال الحسن وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر صلى الله عليه وسلم معه .

قال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ؛ ولا صاحب صلاة إلا ينادي فيقول أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله ، قال مجاهد يعني بالتأذين ، وعبرة الخطيب تذكر معي في الأذان والإقامة والتشهد ويوم الجمعة على المنابر ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، ويوم عرفة وأيام التشريق وعند الجمار وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ومشارك الأرض ومغارباها ، ولو أن رجلاً عبد الله وصدق بالجنة والنار وكل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء وكان كافراً انتهى .

وقيل المعنى ذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك وأمرناهم بالبشارة بك ، ولا دين إلا ودينك يظهر عليه ، وقيل رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وعند المؤمنين في الأرض ، ونرفع ذكرك في الآخرة بما نعطيك من المقام

المحمود وكرائم الدرجات وجلائل المراتب ، قال الضحاك لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به .

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله .

والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذي امتن الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور ، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر ، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه وإخباره صلى الله عليه وآله وسلم عن الله عز وجل أن من صلى عليه واحدة صلى الله عليه بها عشراً .

وكم من موضع في القرآن يذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع الله سبحانه من ذلك قوله تعالى ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ وأمر الله بطاعته صلى الله عليه وآله وسلم كقوله ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ وقوله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا عنه ﴾ وقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ وغير ذلك .

وبالجملة فقد ملأ ذكره الجميل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق والذكر الحسن والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان .

وما أحسن قول حسان رضي الله تعالى عنه :

أغر عليه للنبوّة خاتم	من الله مشهور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي مع اسمه	إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليحمله	فدو العرش محمود وهذا محمد

عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « أتاني جبريل فقال إن ربك يقول تدري كيف رفعت ذكرك . قلت الله ورسوله

أعلم ، قال إذا ذكرت ذكرت معي»^(١) أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل وقد روي بطرق .

وقال ابن عباس في الآية لا يذكر الله إلا ذكر معه فهو الذي يطوى به الذكر الجميل ويبدأ .

﴿فإن مع العسر يسراً﴾ أي أن مع الضيقة سعة ، ومع الشدة رخاء ومع الكرب فرجاً ، وفي هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين ، ومع بمعنى (بعد) ، وفي التعبير بها إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر كأنه مقارن .

عن أنس قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالساً وحياله جحر فقال : « لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه فأنزل الله ﴿إن مع العسر يسراً﴾ الخ ولفظ الطبراني : وتلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً » وأخرج الطبراني وابن مردويه عنه مرفوعاً نحوه . قال السيوطي وسنده ضعيف .

وعن ابن مسعود مرفوعاً « لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه ولن يغلب عسر يسرين إن الله يقول إن مع العسر يسراً »^(٢) الخ أخرجه عبدالرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الصبر ، وابن المنذر والبيهقي في الشعب ، قال البزار لا نعلم رواه عن أنس

(١) سقطت هذه الكلمة من الأصل ، واستدركنها من الطبري وغيره .

(٢) رواه ابن جرير الطبري ٢٣٥/٣٠ من رواية يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، ودراج ، وإن كان صدوقاً في حديثه فإنه في روايته عن أبي الهيثم ضعيف ، كما قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» ومع ذلك فقد صححه ابن حبان . وقال ابن كثير : وكذا روى الحديث ابن أبي حاتم عن يونس عن عبد الأعلى به ، ورواه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج . وأورده السيوطي في « الدر » ٣٦٤/٦ وزاد نسبه لابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الدلائل » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

إلا عائذ بن شريح قال فيه أبو حاتم الرازي في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة عن رجل عن ابن مسعود .

ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتوكيداً فقال مكرراً له بلفظ ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ أي أن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر لما تقرر من أنه إذا أعيد المعرف يكون الثاني عين الأول سواء كان المراد به الجنس أو العهد بخلاف المنكر إذا أعيد فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأول في الغالب ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في معنى هذه الآية أنه لن يغلب عسر يسرين .

قال الواحدي : وهذا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة والمفسرين على أن العسر واحد واليسر إثنان قال الزجاج ذكر العسر مع الألف واللام ، ثم ثنى ذكره فصار المعنى أن مع العسر يسرين ، قيل والتنكير في اليسر للتفخيم والتعظيم وهو في مصحف ابن مسعود غير مكرر .

قرأ الجمهور بسكون السين في العسر واليسر في الموضعين ، وقرئ بضمها في الجميع وفيه خلاف هل هو أصل أو مثقل من المسكن

وعن الحسن قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين إن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً » أخرجه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي ، وهذا مرسل وروى نحوه مرفوعاً مرسلًا عن قتادة .

ولما عدد سبحانه عليه - صلى الله عليه وسلم - نعمه السالفة ووعدته بالنعم الآتية بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة فقال ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أي إذا فرغت من صلاتك أو من التبليغ أو من الغزو فاجتهد في الدعاء واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب في العبادة أو اتعب في الدعاء قبل السلام وبعده ، والنصب التعب يقال نصب ينصب نصباً أي تعب .

قال قتادة والضحاك ومقاتل والكلبي : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة

فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد .
 قال الشعبي إذا فرغت من التشهد فادع لدينك وآخرتك ، وكذا قال
 الزهري وقال الكلبي أيضاً إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب أي ﴿ استغفر
 لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

وقال الحسن وقتادة وزيد بن أسلم : إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب
 لعبادة ربك ، وفيه نظر ، لأن السورة مكية والامر بالجهاد انما كان بعد الهجرة
 فلعله تفسير الذهاب إلى أن السورة مدنية ، قال مجاهد أيضاً : إذا فرغت من
 دينك فانصب في صلاتك .

وقال ابن عباس : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء واسأل الله
 وارغب إليه ، وعنه قال : قال الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغت
 من الصلاة وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك .

وعن ابن مسعود قال : فانصب إلى الدعاء وإلى ربك فارغب في
 المسألة ، وعنه قال إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، قال عمر
 ابن الخطاب : اني أكره أن أرى أحدكم فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل
 الآخرة .

﴿ وإلى ربك ﴾ المحسن اليك بفضائل النعم خصوصاً بما ذكر في هاتين
 السورتين ﴿ فارغب ﴾ أي أجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله
 متوكلاً عليه ، وقيل تضرع إليه ، قال الزجاج أي اجعل رغبتك إلى الله وحده
 وقال عطاء يريد أنه يضرع إليه راهباً من النار ، راغباً في الجنة .

والمعنى انه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائناً من كان فلا يطلب
 حاجاته إلا منه ، ولا يعول في جميع أموره إلا عليه ، قرأ الجمهور فارغب وقرأ
 زيد بن علي وابن أبي عبلة فرغب بتشديد الغين أي فرغب الناس إلى الله
 وشوقهم إلى ما عنده من الخير .

سورة التين

هــج ثمان آيات وهـج مكية فـجـ قول الجمهور ورواه القرطبي
عن ابن عباس أنها مدنية ويخالف هذه الرواية ما أخرجه ابن الضريس
والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال أنزلت سورة التين
بمكة . وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج البخاري ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن البراء بن عازب
« قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فطلى العشاء
فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن طوتاً ولا
قراءة منه » .

وعنه قال : « طليت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
المغرب فقرأ بالتين » أخرجه الخطيب وعن عبد الله بن يزيد نحوه عند
الطبراني وابن شيبه .

وعن زروة بن خليفة قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم
من اليمامة فعرض علينا الإسلام فأسلمنا فلما طلينا الغداة قرأ بالتين
والزيتون وإنا أنزلناه في ليلة القدر » وأخرجه ابن قانع وابن الساكن
والشيرازي في الألقاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

﴿والتين﴾ قال أكثر المفسرين هو التين الذي يأكله الناس ، وإنما أقسم بالتين لأنه فاكهة مخرصة من شوائب التنغيص ، وفيها أعظم عبرة لدالاتها على من هيأها لذلك وجعلها على مقدار اللقمة .

قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن وأكثرها غذاء ، ولذكروا له فوائد كما في كتب المفردات والمركبات وهو غذاء ودواء .

أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يكثر في المعدة يلين الطبع ويخرج بطريق الرشح ، ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ، ويسمن البدن ، ويفتح مسام الكبد وسدده والطحال ويقطع البواسير ، ويزيل نكهة الفم ، ويطول الشعر ، وهو أمان من الفالج .

وأما كونه دواء فلأنه سبب في إخراج فضلات البدن وهو مأكول الظاهر والباطن دون غيره كالجوز والتمر .

والتين في النوم رجل غير جبار ، ومن نالها في المنام نال مالاً ومن أكلها مناماً رزقه الله أولاداً ، وتستر آدم بورق التين حين فارق الجنة ، ويشبه فواكه الجنة لأنه بلا عجم وفاكهة طيبة لا فضل له ينفع من النقرس .

وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، وقيل : مسجد أصحاب الكهف ، وقال ابن زيد : مسجد دمشق ، وقال قتادة التين الجبل الذي عليه

دمشق ، وقال عكرمة وكعب الاحبار : التين دمشق ، وعن ابن عباس : قال التين بلاد الشام ، وفي سنده مجهول وعنه قال مسجد نوح الذي بني على الجودي ، وعنه قال الفاكهة التي يأكلها الناس .

﴿ والزيتون ﴾ وهو الذي يعصرون منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم ويدخل في كثير من الأدوية ، وقال الضحاك المسجد الأقصى ، وقال ابن زيد مسجد بيت المقدس ، وقال قتادة الجبل الذي عليه بيت المقدس ، وقال عكرمة وكعب الأحبار بيت المقدس ، وعن ابن عباس قال بلاد فلسطين وفي سنده مجهول ، وقال أيضاً بيت المقدس .

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ونقل ، وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية ، قال الفراء ؛ سمعت رجلاً يقول التين جبال حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام .

قلت هب إنك سمعت هذا الرجل فكان ماذا ، فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل عن الشارع ، وقال محمد بن كعب الزيتون مسجد إيليا ، وقيل إنه على حذف مضاف أي ومنابت التين والزيتون ، قال النحاس لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوز خلافه .

قال الرازي أما الزيتون فهو فاكهة من وجه ودواء من وجه ، ويستصبح به ، ومن رأى ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى .

﴿ وطور سينين ﴾ وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام اسمه الطور ، ومعنى سينين المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة ، وقال مجاهد هو المبارك بالسريانية وقال مجاهد والكلبي سينين كل جبل فيه شجر مشمر فهو سينين وسينا بلغة النبط ، قال الأخفش طور جبل وسينين شجر ، واحدته سينة .

قال أبو علي الفارسي سينين فعليل فكررت اللام التي هي نون فيه ولم ينصرف سينين كما لم ينصرف سينا لأنه جعل اسماً للبقعة

وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام وهي الأرض المقدسة كما في قوله ﴿إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾ وأعظم بركة حلت به ووقعت عليه تكليم الله لموسى عليه السلام ، قرأ الجمهور سينين بكسر السين وقرئ بفتحها وهي لغة بكر وتميم ، وقرئ سيناء بالكسر والمد ، وهذه لغات اختلفت في هذا الإسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالاسماء العجمية .

﴿وهذا البلد الأمين﴾ يعني مكة سماه أميناً لأنه آمن كما قال الله تعالى ﴿إنا جعلنا حرماً آمناً﴾ يقال أمن الرجل أمانة فهو أمين ، قال الفراء وغيره الأمين بمعنى الأمن أو فعيل بمعنى مفعول من آمنه لأنه مأمون الغوائل ، قال ابن عباس أي مكة يعني لأمن الناس فيها جاهلية وإسلاماً^(١) .

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا جواب القسم أي خلقنا جنس الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل لصورته ، وقال ابن عباس في أحسن خلق .

قال الواحدي قال المفسرون : إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده ، مزيناً بالعلم والفهم

(١) قال ابن كثير : وقال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة ، بعث الله في كل واحد منها نبيا مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول محلة التين والزيتون ، وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام ، والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران ، والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ ، قالوا : وفي آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله في طور سيناء - يعني الذي كلم الله عليه موسى بن عمران - وأشرق من ساعير - يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله منه عيسى ، - واستعلن من جبال فاران - يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً ﷺ ، فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجودي بحسب ترتيبهم في الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم الأشرف منها .

والنطق والعقل ، والتميز والأدب ، فهو أحسن الخلق بحسب الظاهر والباطن ، ومعنى التقويم التعديل يقال قومته فاستقام والمراد القوام لأن التقويم فعل الباري تعالى .

قال القرطبي هو اعتداله واستواء شأنه ، كذا قال عامة المفسرين ، قال ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلاً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً ، وهذه صفات الرب سبحانه وعليها حمل بعض العلماء قوله صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » يعني على صفاته التي تقدم ذكرها .

قلت وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقوله ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ .

ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق وعجيب الصنع فلينظر في كتاب العبر والإعبار للجاحظ ، وفي الكتاب الذي عقده النيسابوري على قوله ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ وهو في مجلدين ضخمين .

روي أن رجلاً قال لامرأته إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالق فأفتى بعض أهل العلم بأنها صارت مطلقة ، وقال الشافعي لم تطلق لأنها من جنس الإنسان ، والله تعالى يقول ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ فلو كان القمر أحسن صورة من الإنسان لم يصفه الله سبحانه بأحسن تقويم ، ولنعم ما قيل :

ما أنت مادحها يا من يشبهها	بالشمس والبدر لا بل أنت هاجيها ^(١)
من أين للشمس خال فوق وجنتها	ومضحك من نظام الدر في فيها
من أين للبدر أجفان مكحلة	بالسحر والغنج تجري في حواشيها

(٢) البيت من شواهد الفراء (٣٧١) ، وهو في الطبري ٢٤١/٣٠ ، والقرطبي ١١٣/٢٠ .

﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ أي رددناه إلى أرذل العمر ، قاله ابن عباس وهو الهرم والضعف بعد الشباب والقوة حتى يصير كالصبي فيخرف وينقص عقله ، كذا قال جماعة من المفسرين ، قال الواحدي : والسافلون هم الضعفاء والزمناء والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً لأنه لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله ، قاله الخازن .

وقال مجاهد وأبو العالية والحسن : المعنى ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة ، ولا ينافي هذا قوله تعالى ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار﴾ فلا مانع من كون الكفار والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل .

وقوله أسفل سافلين إما حال من المفعول أي رددناه حال كونه أسفل سافلين أو صفة لمقدر محذوف أي مكاناً أسفل سافلين .

﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ هذا الاستثناء منقطع على القول الأول أي لكن الذين آمنوا الخ ووجهه أن الهرم والرد إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن كما يصاب به الكافر فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الإتصال معنى ، وعلى القول الثاني متصل من ضمير رددناه فإنه في معنى الجمع أي رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

وقال الشهاب الإستثناء منقطع لأنه لم يقصد إخراجهم من الحكم وهو مدار الاتصال والانقطاع كما صرح به في الأصول لا الخروج والدخول كما توهم ، فلا يرد عليه أنه كيف يكون منقطعاً مع أنهم مردودون أيضاً فهو للإستدراك لدفع ما يتوهم من أن التساوي في أرذل العمر يقتضي التساوي في غيره ، ويكون ﴿الذين﴾ حينئذ مبتدأ والفاء داخلة في خبره لا للتفريع كما في الإتصال ، وقيل المعنى رددناه إلى الضلال كما قال ﴿إن الإنسان لفي خسر إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ أي إلا هؤلاء فلا يردون إلى ذلك .

﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم . فهذه الجملة على القول الأول مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى الثاني مقررة لما يفيد الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الرد .

قال ابن عباس في الآية أجر غير منقوص ، يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ولم يضره ما عمل في كبره ، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر ، وعنه قال من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر . وذلك قوله ﴿ ثم رددناه - إلى قوله - الصالحات ﴾ قال لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، وعنه قال يقول إلى الكبر وضعفه فإذا كبر وضعف عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبابه .

وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مرض العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً » .

﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ الخطاب للإنسان الكافر والاستفهام للتقريع والتوبيخ ولإلزام الحجة أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم وأنه يردك أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ، وعليه ينبغي أن يذهب إلى الإلتفات من الغيبة إلى الخطاب لما جرى من قوله ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ وعليه جرى في الكشف .

وقيل الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أي شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين ، وإلى هذا ذهب القاضي وقدمه على القول الأول .

قال الفراء المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين كأنه قال من يقدر على ذلك أي على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من

قدرتنا على خلق الانسان ما ظهر ، واختار هذا ابن جرير ، والدين الجزاء .

﴿ أليس الله ﴾ أي أليس الذي فعل ما فعل مما ذكرنا ﴿ بأحكم الحاكمين ﴾ صنعاً وتدبيراً ، وأقضى القاضين وأصحهم وأنفذهم حكماً وقضاء حتى تتوهم عدم الاعداء والجزاء ، وفيه وعيد شديد للكفار ، والمعنى اتقن الحاكمين في كل ما يخلق ، وقيل أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً ، والاستفهام إذا دخل على النفي صار الكلام إيجاباً وتقريراً كما تقدم في ﴿ ألم نشرح ﴾ .

وعن أبي هريرة مرفوعاً « من قرأ والتين والزيتون فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أخرجه الترمذي وابن مردويه .

وعن جابر مرفوعاً « إذا قرأت التين فقرأت أليس الله الخ فقل بلى » أخرجه ابن مردويه وعن ابن عباس « أنه كان إذا قرأ الآية قال : سبحانك اللهم فبلى » أخرجه ابن جرير وابن المنذر .

سورة اقرأ

ويقال لها سورة العلق وسورة القلم . وهي تسع عشرة آية وقيل عشرون آية . وهي مكية بلا خلاف وهي أول ما نزل من القرآن . قاله ابن عباس وعن أبي موسى الأشعري قال هي أول سورة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم وعن عائشة رضي الله تعالى عنها نحوه .

ويدل على هذا الحديث الطويل الثابت في البخاري ومسلم وغيرهما من حديثها وفيه : فجاءه الحق وهو في غار حراء فقال له الملك اقرأ . الحديث . وفي الباب أحاديث وآثار عن جماعة من الصحابة ، وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن ثم بعده نون والقلم ثم المزمل ثم المدثر إلى آخر ما ذكره الخازن في أول تفسيره . فإنه استوفى الكلام على ترتيب السور من جهة النزول بمكة ثم بالمدينة .

قال القاضي أبو بكر بن الطيب ترتيب السور على ما هي عليه اليوم في المصحف كان على وجه الاجتهاد من الصحابة ، وذكر

ذلك مكي في تفسير سورة براءة ، وذكر أن ترتيب الآيات ووضع
البسملة في الأوائل هو من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما لم يؤمر
بذلك في أول سورة براءة تركت بلا بسملة وهذا أصح ما قيل في
ذلك .

وقال قوم ان ترتيب السور عن توقيف من أصحاب النبي صلى
الله عليه وآله وسلم وأما ما روي من اختلاف مصحف أبيّ وعلي
وعبد الله فانما كان قبل عرض القرآن على جبريل في المرة الأخيرة
وان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رتب لهم تأليف السور بعد أن
لم يكن فعل ذلك .

روى يونس عن ابن وهب قال سمعت مالكا يقول انما ألف القرآن
على ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
وذكر أبو بكر ابن الأنباري في كتاب الرد أن الله أنزل القرآن جملة
السماء الدنيا ثم فرقه على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين
سنة ، فكانت السورة تنزل في أمر يحدث ، والآية تنزل جواباً لمستخبر
يسأل ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع السورة
والآية ، فانتظام السور كانتظام الآيات والحروف فكله عن رسول الله
خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عن رب العالمين ، فمن آخر سورة مقدمة
أو قدم آخر أو مؤخرة كمن أفسد نظم الآيات ، وغير الحروف
والكلمات ، ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الانعام ،
والانعام نزلت قبل البقرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه
هذا الترتيب وهو كان يقول « ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا
من القرآن » وكان جبريل عليه السلام يوقفه على مكان الآيات ، انتهك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيَى ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْعَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾

﴿اقرأ﴾ قرأ الجمهور بسكون الهمزة أمراً من القراءة وقرىء بفتح الراء وكأنه قلب الهمزة ألفاً ثم حذفها للأمر ، والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً فالتقدير اقرأ ما يوحى إليك أو ما نزل عليك أو ما أمرت بقراءته .

وقوله ﴿باسم ربك﴾ متعلق بمحذوف هو حال أي اقرأ متلبساً باسم ربك أو مبتدأ به أو مفتتحاً أو الباء زائدة أي اقرأ اسم ربك قاله أبو عبيدة ، وقال أيضاً والاسم صلة أي اذكر ربك ، وقيل الباء بمعنى على أي اقرأ على اسم ربك ، يقال افعل كذا باسم الله وعلى اسم الله قاله الأخفش ، وقيل الباء للاستعانة أي مستعيناً به ، وبسم الله تكتب من غير ألف استغناء عنها بياء الالتصاق في اللفظ والخط لكثرة الاستعمال بخلاف قوله تعالى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ فانها لم تحذف فيه لقلة الاستعمال .

عن عبدالله بن شداد قال « أتى جبريل محمداً صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد اقرأ فقال وما اقرأ فضمه ثم قال يا محمد اقرأ قال وما اقرأ قال اقرأ باسم ربك - حتى بلغ - ما لم يعلم » أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل .

وفي الصحيحين وغيرهما من حديث عائشة فجاءه الملك فقال اقرأ فقال قلت ما أنا بقارىء قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال

اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فقال اقرأ باسم ربك الخ .

ثم الظاهر أن هذه الجملة ليست من القرآن لأن الأمر بتحصيل الشيء غير ذلك الشيء ، ولكن قام الاجماع على أنها من جملة القرآن خصوصاً مع اثباتها في المصاحف بخطها سلفاً وخلفاً من غير نكير ، فعلم منه أنها من جملة القرآن ، تأمل .

قال السيوطي في اتقانه إن أول سورة اقرأ مشتمل على نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براءة الاستهلال لكونها أول ما نزل من القرآن فان فيها الأمر بالقراءة وفيها البداءة باسم الله وفيها الاشارة إلى علم الاحكام ، وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب واثبات ذاته وصفاته من صفة ذات وصفة فعل ، وفي هذا الاشارة إلى أصول الدين وفيها ما يتعلق بالاخبار من قوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ولهذا قيل انها جديرة أن تسمى عنوان القرآن لأن عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله انتهى ذكره ابن لقيمة في حاشية البيضاوي ، والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وآله وسلم للاشعار بتبليغه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الغاية القاصية من الكمالات ، البشرية ، قاله أبو السعود .

ثم وصف الرب بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ لتذكير أول النعم الفائضة عليه منه تعالى ، لأن الخلق هو أعظم النعم وعليه يترتب سائر النعم ، قال الكلبي يعني الخلائق وفيه تنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات قادر على تعليم القراءة .

﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ يعني بني آدم ، والعلقة الدم الجامد ، وإذا جرى فهو المسفوح ، وقال من علق يجمع علقه لأن المراد بالإنسان الجنس ،

والمعنى خلق جنس الإنسان من جنس العلق ، وإذا كان المراد بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ كل المخلوقات فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفاً له لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع ، وإذا كان المراد بالذي خلق ، الذي خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للأول ، والنكتة ما في الابهام ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أولاً ثم فسر ثانياً ، وقال من علق ولم يقل من نطفة مراعاة للفواصل .

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال ﴿ اقرأ ﴾ أي افعل ما أمرت به من القراءة وجملة ﴿ وربك الأكرم ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلى الله عليه وسلم من قوله « ما أنا بقارئ » يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ ، وهو أُمِّي فقيل له اقرأ وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم ، قال الكلبي يعني الحليم عن جهل العباد فلم يعجل بعقوبتهم .

وقيل انه أمره بالقراءة أولاً لنفسه ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ ، فلا يكون من باب التأكيد والأول أولى ، والأكرم صفة تدل على المبالغة في الكرم إذ كرمه يزيد على كل كرم ، لأنه ينعم بالنعمة التي لا تحصى .

قال في البحر : ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة الله تعالى يسمون الأكرم والرشيد وفخر السعداء وسعيد السعداء في ديار مصر ويدعوهم بها المسلمون ويزيدون عليها على سبيل التعظيم : الشيخ الأكرم ، والشيخ الأسعد والشيخ الرشيد ، فياها من خزي يوم عرض الأقوال والأفعال على الله تعالى .

﴿ الذي علم بالقلم ﴾ أي علم الإنسان الخط بالقلم فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب ، قال الزجاج علم الإنسان الكتابة بالقلم قال قتادة : بالقلم نعمة من الله عز وجل عظيمة لولا ذلك لم يقيم دين ولم يصلح عيش ، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة

التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا القلم والخط لكفى به ، وسمي قلماً لأنه يقلم أي يقطع وأول من خط به ادريس ، وقيل آدم وقد حققنا أحوال القلم وما يتعلق به في كتابنا الاكبر في أصول التفسير فإن شئت فارجع إليه .

وجملة ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ بدل اشتمال من التي قبلها أي علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها قيل المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ وقيل الإنسان هنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم .

﴿ كلا ﴾ ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه وان لم يتقدم له ذكر ، وقيل معناه حقاً ، وهو مذهب الكسائي ومن تبعه لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون ﴿ كلا ﴾ رداً له كما قالوا في كلا والقمر ، ومذهب أبي حيان أنها بمعنى ألا الاستفتاحية وصوبه ابن هشام لكسر همزة إن بعدها أي لكونه مظنة جملة كما بعد حرف التنبيه نحو ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ ولو كانت بمعنى حقاً لما كسرت إن بعدها لكونها مظنة مفرد ، وفي الكواشي يجوز في ﴿ كلا ﴾ أن تكون تنبيهاً فيقف على ما قبلها ، وردعاً فيقف عليها .

ومعنى ﴿ ان الإنسان ليطغى ﴾ أنه يجاوز الحد ويستكبر على ربه ، قيل المراد بالإنسان هنا أبو جهل وهو المراد بهذا وما بعده إلى آخر السورة ، وانه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة في أول هذه السورة .

وقوله ﴿ أن رآه استغنى ﴾ علة ليطغى أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً ، والرؤية هنا بمنعى العلم ولو كانت بصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد ، لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه ، قال الفراء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي ترد

اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول رأيتني وحسبتي ومتى نراك خارجاً ومتى نظنك خارجاً .

قل والمراد هنا انه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال ، قرأ الجمهور أن رآه بمد الهمزة وقرئ بقصرها ، قال مقاتل كان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه وكذا قال الكلبي .

قال الرازي أول السورة يدل على مدح العلم ، وآخرها يدل على ذم المال وكفى بذلك مرغبا في الدين والعلم ، ومنفراً عن الدنيا والمال .

ثم هدد سبحانه وخوف فقال ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي المرجع ، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر ، يقال رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى ، وتقدم الجار والمجرور للقصر أي الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره ، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان ، فإن الله يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت كما رده من النقصان إلى الكمال حيث نقله من الجمادية إلى الحيوانية ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة ، قاله الرازي .

﴿ رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ قال المفسرون الذي ينهى أبو جهل ، والمراد بالعبد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال ابن عباس هو أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسلى^(١) على ظهره وهو ساجد لله عز وجل ، وفيه تقبيح لصنعه وتشنيع لفعله ، حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية .

وعن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال لو فعل لأخذته الملائكة عياناً .

(١) كرش الجزور بما فيه من القاذورات .

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا
لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانَةَ ﴿١٨﴾
كَلَّا لَا نُطِيعُهُ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

﴿أرأيت إن كان على الهدى﴾ يعني العبد المنهي إذا صلى ، وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿أو أمر بالتقوى﴾ أي بالاخلاص والتوحيد والعمل الصالح الذي تتقي به النار .

﴿أرأيت إن كذب وتولى﴾ يعني أبا جهل كذب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتولى عن الإيمان ، وقوله ﴿أرأيت﴾ في الثلاثة المواضع بمعنى أخبرني ، لأن الرؤية لما كانت سبباً للأخبار عن المرئي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها ، والخطاب لكل من يصلح له .

وقد ذكر هنا أرأيت ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها بجملة استفهامية فيكون في موضع المفعول الثاني لها ، ومفعولها الأول محذوف وهو ضمير يعود على الذي ينهى الواقع مفعولاً أول لأرأيت الأولى ، ومفعول أرأيت الأولى الثاني محذوف وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد أرأيت الثانية ، وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثان ، حذف الأول للدلالة مفعول أرأيت الثالثة عليه ، فقد حذف الثاني من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية ، وليس طلب كل من أرأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع ، لأنه يستدعي إضماراً ، والجمل لا تضرر إنما تضرر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة .

وأما جواب الشرط المذكور مع أرأيت في الموضعين الأخيرين فهو محذوف تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى .

﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وإنما حذف للدلالة ذكره في جواب الشرط

الثاني ، ومعنى ألم يعلم الخ أي ألم يطلع على أحواله فيجازيه بها فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وقيل أرأيت الأولى مفعولها الأول الموصول ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور ، وأرأيت في الموضعين تكرير للتأكيد ، وقيل كل واحد من أرأيت بدل من الأولى ، وألم يعلم بأن الله يرى : الخبر .

﴿ كلا ﴾ ردع للناهي ومنع له عن نهيه ، واللام في ﴿ لئن لم ينته ﴾ هي الموطئة للقسم أي والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لنسفاً بالناصية ﴾ السفع الجذب الشديد ، ويقال سفعت الشيء إذا قبضته وجذبتة ، ويقال سفع بناصرية فرسه .

قال الراغب : السفع الأخذ بسفعة الفرس أي بسواد ناصيته ، وباعتبار السواد قيل به سفعة غضب ، اعتباراً بما يعلو من اللون الدخاني من اشتد به الغضب ، وقيل للصقر أسفع لما فيه من لمع السواد ، أو امرأة سفعاء اللون . انتهى .

وقيل مأخوذ من سفعته النار والشمس إذا غيرت وجهه إلى سواد ، والمعنى لناخذن بناصيته ولنجرنه إلى النار ، وهذا كقوله ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ وقيل في الدنيا يوم بدر فقد جره المسلمون إلى القتل فقتله ابن مسعود وهو طريق بين الجرحى وبه رمق وهو يخور ، وعبر بالناصية عن جميع الشخص ، واكتفى بتعريف العهد عن الإضافة لأنه علم أنها ناصية الناهي .

﴿ ناصية ﴾ وهي شعر مقدم الرأس ، وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله ﴿ كاذبة ﴾ أي في قولها ﴿ خاطئة ﴾ في فعلها ، وهذا على مذهب الكوفيين ، فإنهم لا يميزون إبدال النكرة من المعرفة إلا بشرط وصفها ، وأما على مذهب البصريين فيجوز بلا شرط .

قرأ الجمهور بالجذر وقرئ بالرفع على إضمار مبتدأ أي هي ناصية ، وقرئ بالنصب على الذم ، قال مقاتل أخبر عنه بأنه فاجر خاطيء فقال ناصية

كاذبة خاطئة ، تأويلها صاحبها كاذب خاطيء ، وفي هذا الاسناد المجازي من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطيء .

﴿ فليدع ناديه ﴾ أي أهل ناديه لأن النادي هو المجلس الذي يجلس وينتدي فيه القوم ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، والمعنى ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، قيل إن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزلت ﴿ فليدع ناديه ﴾ قال ابن عباس أي ناصره .

﴿ سندع الزبانية ﴾^(١) أي الملائكة الغلاظ الشداد وهم خزنة جهنم كذا قال الزجاج ، وقال الكسائي والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم زابن ، وقال أبو عبيدة زبانية^(٢) وقيل زباني بتشديد الياء ، وقيل هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبائيل ، وقال قتادة هم الشرط^(٣) في كلام العرب ، وأصل الزبن الدفع ، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه .

قرأ الجمهور سندع بالنون ، ولم يرسم الواو كما في قوله ﴿ يوم يدع الداع ﴾ وقرئ سيدعى على البناء للمفعول ، ورفع الزبانية على النيابة ، والسين في ﴿ سندع ﴾ ليست للشك فإنه من الله واجب لأنه ينتقم لرسوله من عدوه .

وعن ابن عباس قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فجاء أبو جهل فقال ألم أنك عن هذا إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني ، فأنزل الله هذه الآية فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي فقبل ما يمنعك فقال

(١) راجع تعليق هام على هذه الآية في آخر سورة المدثر .

(٢) بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه وتخفيف الياء من الزبن وهو الدفع أو واحدتها زبني على النسب وأصله زباني بتشديد الياء فالتاء عوض عن الياء قاله البيضاوي وفي المختار واحد الزبانية زبان أو زابان . أهـ .

(٣) وهم الشرطة (البوليس) في لغة العصر .

قد اسود ما بيني وبينه ، قال ابن عباس والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه » أخرجه أحمد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني وغيرهم^(١)

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قالوا نعم قال واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبة ولأعفرن وجهه في التراب ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأن على رقبة ، قال فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي بيده ، فقيل له مالك فقال إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً قال وأنزل الله ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجٍ ﴾ إلى آخر السورة يعني أبا جهل ﴿ فليدع ناديه ﴾ يعني قومه ﴿ سندع الزبانية ﴾ يعني الملائكة^(٢) .

ثم كرر سبحانه الردع والزجر فقال ﴿ كَلَّا لَا تَطَعَهُ ﴾ فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿ واسجد ﴾ أي صل لله غير مكترث به ولا مبال بنهيه ﴿ واقرب ﴾ أي تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة ، وقيل المعنى إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء ، وقال زيد ابن أسلم واسجد أنت يا محمد واقترب أنت يا أبا جهل من النار ، والأول أولى .

والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة وعبر عنها بالسجود لأنه أفضل أركانها بعد القيام ، وقيل سجود التلاوة ، ويدل على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من السجود عند تلاوة هذه الآية ، وقد قدمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسجد في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وفي ﴿ اقرأ باسم ربك الذي

(١) مسلم / ٢١٥٤ .

(٢) البخاري ٥٥٧/٨ .

خلق ﴿ وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا من الدعاء » أخرجه مسلم ^(١) .

سورة القدر

وهي خمس آيات ، قال المحلي أو ست آيات قال سليمان الجمل
ولم يذكر غيره هذا القول من المفسرين فيما رأينا بل اقتصروا على
كونها خمساً ، ولعل قائل هذا القول يعد ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها
بإذن ربهم ﴾ آية مستقلة ، ثم رأيت في السمين ما يشير إليه انتهك ،
وهي مكية عند أكثر المفسرين ، كذا قال الماوردي ، وقال الثعلبي
هي مدنية في قول أكثر المفسرين وهو الأصح ، وذكر الواقدي أنها
أول سورة نزلت بالمدينة وعن ابن عباس وابن الزبير وعائشة أنها نزلت
بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ الْوَحْشَ فِيهَا يَأْذِنُ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿إنا أنزلناه﴾ الضمير للقرآن وإن لم يتقدم له ذكر ، عظمه حيث أسند إنزاله إليه دون غيره وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه ، ورفع مقدار الوقت الذي أنزل فيه ، والنون في إنا للتعظيم ، روي أنه أنزل جملة واحدة ﴿في ليلة القدر﴾ الى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، ثم كان ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، نجوماً على حسب الحاجة وكان بين نزول أوله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثلاث وعشرون سنة .

وفي آية أخرى ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وهي ليلة القدر ، وفي آية أخرى ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس﴾ وليلة القدر في شهر رمضان ، قال مجاهد في ليلة القدر ، ليلة الحكم .

وقد أخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وغيرهم عن ابن عباس « أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ثم جعل جبريل ينزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، بجواب كلام العباد وأعمالهم » .

ومعلوم أن الإنزال مستعار للمعاني من الأجرام ، شبه نقل القرآن من اللوح الى السماء وثبوته فيها بنزول جسم من علو إلى سفلى ، فعلى هذا هو مجاز مستعار قيل : سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدر فيها ما شاء من أمره

الى السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق وغير ذلك .

وقيل انها سميت بذلك لعظم قدرها وشرفها ، من قولهم لفلان قدر ، أي شرف ومنزلة كذا قال الزهري : وقيل سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً وقال الخليل : سميت ليلة القدر لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة كقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ أي ضيق .

والأحاديث في فضل ليلة القدر كثيرة وكذا في تعيينها وليس هذا موضع بسطها وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً قد ذكرناها بأدلتها وبيّنا الراجح منها في شرحنا لبلوغ المرام المسمى بمسك الختام ، وذكرها الشوكاني في شرحه لمنتقى الأخبار المسمى بنيل الأوطار .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ في هذا الاستفهام تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يديرها إلا الله سبحانه ، والمعنى ما غاية فضلها ومنتهى علو قدرها . قال سفيان : كل ما في القرآن من قوله وما أدراك فقد أدراه ، وكل ما فيه من قوله ﴿ وما يدريك ﴾ فلم يدره ، وكذا قال الفراء . والمعنى أي شيء يجعلك دارياً بها .

ثم بين فضلها من ثلاثة أوجه أولها قوله ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، قال كثير من المفسرين : أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، واختار هذا الفراء والزجاج ، وذلك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع ، فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة .

وقيل أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر لأن العرب تذكر ألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة ، وقيل وجه ذكر ألف شهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر ، فجعل الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها .

وقيل أن النبي صلى الله عليه وسلم ، رأى أعمار أُمته قصيرة فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم ، وقيل غير ذلك مما لا طائل تحته .

عن أنس في الآية قال العمل في ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر ، وعن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أرى بني أمية على منبره فسأه ذلك فنزلت إنا أعطيناك الكوثر يا محمد يعني نهر في الجنة ونزلت ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ إلى قوله ﴿ ألف شهر ﴾ يملكها بعدك بنو أمية ، قال القاسم فعددتنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً » والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده أخرجه الترمذي وضعفه وابن جرير والطبراني والحاكم وابن مردويه والبيهقي .

قال الترمذي أن يوسف هذا مجهول يعني يوسف بن سعد الذي رواه عن الحسن بن علي ، قال ابن كثير فيه نظر فإنه قد روى عنه جماعة منهم حماد بن سلمة وخالد الحذاء ويونس بن عبيد ، وقال فيه يحيى بن معين هو مشهور وفي رواية عنه هو ثقة ، ورواه ابن جرير من طريق القاسم ابن الفضل عن عيسى بن مازن .

قال ابن كثير ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً ، قال المزني هو حديث منكر .

وقول القاسم بن الفضل أنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر الخ ليس بصحيح فإن جملة مدتهم من عند أن استقل بالملك معاوية وهي سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهي سنة اثنتين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة ، وعن ابن عباس نحو ما روي عن الحسن بن علي ، وعن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلاً نحوه .

﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾ هي مستأنفة مبينة لوجه

فضلها موضحة لليلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر ، وهذا هو الوجه الثاني ، والمعنى متلبسين بإذن ربهم والاذن الأمر ، ومعنى تنزل تهبط من السموات إلى الأرض ، والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين أي ومعهم جبريل ، ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه ، وقيل الروح صنف من الملائكة هم أشرفهم ، وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة وقيل الروح الرحمة .

وقد تقدم الخلاف في الروح عند قوله ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ﴾ قرأ الجمهور تنزل بفتح التاء وقرىء بضمها على البناء للمفعول .

﴿ من ﴾ أجل ﴿ كل أمر ﴾ من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة ، وقيل أن من بمعنى اللام أي لكل أمر ، وقيل هي بمعنى الباء أي بكل أمر ، فهي للتعدية ، قاله أبو حاتم ، قرأ الجمهور « أمر » وهو واحد الأمور ، وقرىء امرئ مذكر امرأة أي من أجل كل إنسان ، وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة فيسلمون على كل إنسان ، ف ﴿ من ﴾ على هذا بمعنى على ، والأول أولى .

وقد تم الكلام عند قوله ﴿ من كل أمر ﴾ ثم ابتداء بفضلها الثالث فقال ﴿ سلام هي ﴾ أي ما هي إلا سلامة وخير كلها لا شر فيها ، وقيل هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة ، قال مجاهد هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى .

وقال الشعبي هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، يمرون على كل مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن ، وقيل يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض ، وقال عطاء يريد سلام على أولياء الله وأهل طاعته .

وعن ابن عباس في الآية قال في تلك الليلة تصفد مردة الشياطين وتغل عفاريت الجن وتفتح فيها أبواب السماء كلها ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب ،

فلذا قال سلام هي ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ قال وذلك من غروب الشمس الى أن يطلع الفجر أي حتى وقت طلوعه .

قرأ الجمهور مطلع بفتح اللام ، وقرأ بكسرهما فقيلا هما لغتان في المصدر ، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل ، وقيل بالفتح اسم مكان وبالكسر المصدر ، وقيل العكس و « حتى » متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أي لمكانهم في محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر وقيل متعلقة بسلام بناءً على أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر .

سورة لم يكن

تسمى سورة البينة . وسورة المنفكين . وسورة القيامة . وسورة البرية . هي ثمان آيات أو تسع آيات وهي مدنية في قول الجمهور . وقيل مكية . أخرج ابن مردويه عن ابن عباس نزلت بالمدينة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة لم يكن بمكة .

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . أن يقرأ عليه .

وعن أبي حية البدرجي قال : « لما نزلت (لم يكن) إلخ آخرها قال جبريل يا رسول الله ان الله يأمرك أن تقرئها أبيّاً فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبيّ إن جبريل أمرك أن أقرئك هذه السورة فقال أبيّ وقد ذكرت ثم يا رسول الله قال نعم فبكى^(١) . أخرجه أحمد وابن قانع في معجم الصحابة والطبراني وابن مردويه .

قيل ان أياً كان أسرع أخذاً لالفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأراد بقراءته صلى الله عليه وآله وسلم، عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقرأ ويعلم غيره .

وعن اسمعيل بن أبي حكيم المزني أحد بني فضل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يقول : « أن الله يستمع قراءة ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ فيقول أبشر عبدك وعزتي وجلالي لا مكنن لك في الجنة حتى ترضى »^(١) أخرجه أبو نعيم في المعرفة ، قال ابن كثير حديث غريب جداً ، وأخرجه أبو موسى المديني عن مطر المزني أو المدني بنحوه .

(١) ثم بفتح الراء أي هناك وتأمل تجد أنه بكى خشية لله ولم يغتر .

(٢) مسلم ١٩١٥/٤ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَانَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا لَأَمِنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ المراد بهم اليهود والنصارى ، ومن للبيان ﴿ والمشركون ﴾ المراد بهم مشركو العرب ، وهم عبدة الأوثان ، وقرأ ابن مسعود ﴿ لم يكن المشركون وأهل الكتاب ﴾ قال ابن العربي وهي قراءة في معرض البيان لا في معرض التلاوة .

وقرأ أبي : فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون ، وقرأ الأعمش والنخعي والمشركون بالرفع عطفاً على الموصول .

وسمي أهل الكتاب كفاراً مع إيمانهم بكتابهم ونبیهم لأنهم عدلوا عن الطريق المستقيم في التوحيد فكفروا بذلك ، فإنه قيل إن اليهود مجسمة وكذلك النصارى لقولهم بالتثليث ، وهذا يقتضي كفر جميع أهل الكتاب قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، والظاهر خلافه ، ولذا قال الماتريدي أن (من) تبعيضية لأن منهم من آمن .

﴿ منفكين ﴾ يقال فككت الشيء فانفك أي انفصل ، والمعنى أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ولا منتهين عما هم عليه ﴿ حتى تأتيهم ﴾ أي أتتهم ﴿ البينة ﴾ أي الحجة الواضحة وقيل الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية التي لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة .

وقيل منفكين زائلين أي لم تكن مدتهم لتزول حتى تأتيهم البينة ، يقال

ما انفك فلان قائماً أي ما زال فلان قائماً ، وأصل الفك الفتح ومنه فك الخلخال وقال الأزهري : ليس هو من باب ما انفك وما برح ، وإنما هو من باب انفكاك الشيء عن الشيء وهو انفصاله عنه .

وقيل منفكين بارحين أي لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة ، وقال ابن كيسان المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه وهو كقوله : ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ وعلى هذا فيكون معنى قوله ﴿ والمشركين ﴾ أنهم ما كانوا يسيئون القول في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى بعث فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، فلما بعث عادوه وأسأؤوا القول فيه .

وقيل منفكين هالكين ، من قولهم انفك صلبه أي انفصل فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى لم يكونوا معذيين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم ، وقيل إن المشركين هم أهل الكتاب فيكون وصفاً لهم لأنهم قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله .

قال أبو السعود منفكين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والایمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان ، والعزم على انجازه ، وهذا الوعد من أهل الكتاب مما لا ريب فيه ، وأما من المشركين فلعله قد وقع من متأخريهم بعد ما شاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحته بما شاهدوا من نصرتهم على أسلافهم .

وانفكاك الشيء عن الشيء أن يزيله بعد التحامه كالعظم إذا انفك من مفصله ، وفيه إشارة إلى كمال وكادة وعدهم ، انتهى ملخصاً .

قال الواحدي : ومعنى الآية إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن ، فبين لهم ضلالتهم وجهالتهم ودعاهم إلى الإيمان ، وهذا بيان عن النعمة والانقاذ به من الجهل والضلالة ، والآية فيمن آمن من الفريقين .

قال : وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً ، وقد تخطب فيها الكبار من العلماء وسلوكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب ، والوجه ما أخبرتك فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال .

قال ويدل على كون البينة محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إنه فسرهما وأبدل بقوله الآتي ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ يعني ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها وهو القرآن ، ويدل على ذلك انه كان يتلو عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، انتهى كلامه .

وقيل إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبي الموعود به ، فلما بعث تفرقوا كما حكاه الله عنهم في هذه السورة ، والمراد بالبينة على ما قاله الجمهور هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنه في نفسه بينة وحجة ، ولذلك سماه ﴿ سراجاً منيراً ﴾ .

وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله ﴿ رسول من الله ﴾ فاتضح الأمر وتبين أنه المراد بالبينة ، وقال قتادة وابن زيد البينة هي القرآن كقوله ﴿ أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ وقال أبو مسلم المراد بها مطلق الرسل والمعنى حتى تأتيتهم رسل من الله وهم الملائكة ، والأول أولى .

قرأ الجمهور برفع رسول على أنه بدل كل من كل على سبيل المبالغة أو بدل اشتمال ، قال الزجاج : رسول رفع على البدل من البينة ، وقال الفراء : رفع على أنه خبر مبتدأ مضمرة أي هي رسول أو هو رسول ، وقرأ ابن مسعود وأبي رسولاً بالنصب على القطع ، وقوله ﴿ من الله ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول أي كائن من الله ويجوز تعلقه بنفس رسول .

﴿ يتلو صحفاً مطهرة ﴾ صفة أخرى لرسول أو حال ، وقال أبو البقاء : التقدير يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله ، ومعنى يتلو يقرأ يقال تلا يتلو تلاوة ، والصحف جمع صحيفة وهي ظرف المكتوب ، ومعنى مطهرة أنها منزهة من

الزور والضلال ، قال قتادة : مطهرة من الباطل .

قال الشهاب : تطهير الصحف كناية عن كونها ليس فيها باطل على الاستعارة المصروفة أو الممكنية وقيل مطهرة من الكذب والشبهات والكفر ، والمعنى واحد ، وقيل معظمة وقيل لا ينبغي أن يمسها الا المطهرون ، والأول أولى .

والمعنى أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف والقراطيس من المكتوب فيها فالكتب بمعنى المكتوبات في القراطيس ، فالقرآن يجمع ثمرة كتب الله المتقدمة عليه ، والرسول وان كان أمياً لكنه لما تلا ما في الصحف كان كالتالي لها فصيح نسبة تلاوة الصحف اليه وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب وإنما يقرأ بالوحي عن ظهر قلب .

﴿ فيها كتب ﴾ صفة لصفح من كتاب أو حال من ضميرها والمراد الآيات والأحكام المكتوبة فيها التي هي مدلول القرآن المكتوب لفظه ونقشه ﴿ قيمة ﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة ، من قول العرب قام الشيء إذا استوى وصح ، قال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ أي حكم ، وقوله صلى الله عليه وسلم ، في قصة العسيف لأقضين بينكما بكتاب الله ، ثم قضى بالرجم وليس الرجم في كتاب الله فالمراد لأقضين بينكما بحكم الله ، وبهذا يندفع ما قيل أن الصحف هي الكتب ، فكيف قال ﴿ صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ﴾ وقال الحسن يعني بالصحف التي في السماء يعني في اللوح المحفوظ كما في قوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ .

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريرهم وبيان أن ما نسب اليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر بل كان بعد وضوح الحق وظهور الصواب ، وأيضاً تصريح بما أفادته الغاية قبله ، وإفراد أهل الكتاب بالذكر بعد الجمع بينهم وبين

المشركين للدلالة على شناعة حالهم وإنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى ، فاقصر عليهم لأنهم أشد جرماً ، أو أنه يعلم حال غيرهم بالطريق الأولى فهو من باب الاكتفاء .

فالمعنى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ولا المشركون إلا من بعد الخ قال المفسرون لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا فأمن به بعضهم وكفر آخرون .

والاستثناء مفرغ من أعم الأوقات أي وما تفرقوا في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، وهي بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بالشرعية الغراء والمحجمة البيضاء أو هو صلى الله عليه وسلم ، وقيل البينة القرآن وقيل البينة هو البيان الواضح الذي في كتبهم أنه نبي مرسل كقوله ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ .

قال القرطبي قال العلماء : من أول السورة الى قوله ﴿ كتب قيمة ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين ، وقوله ﴿ وما تفرق الذين ﴾ الخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ
وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

وجملة ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ حالية مقيدة لغاية قبح ما فعلوا
وتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرق بعد مجيء البينة أي والحال انهم ما
أمروا في كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله ويوحده ، وقيل إن اللام في ليعبدوا
بمعنى أن أي ما أمروا إلا بأن يعبدوا كقوله ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ أي أن
يبين ، وقوله ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ أي أن يطفئوا ، والعبادة هي
التذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ لأن جماعة عبدوا المسيح والملائكة
والأصنام وما أطاعوهم ، ولكنها في الشرع صارت إسما لكل طاعة أدت له
على وجه التذلل والنهاية في التعظيم .

﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي حال كونهم جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه
أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين ، قرأ الجمهور مخلصين بكسر اللام ،
وقرأ الحسن بفتحها .

وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات لأن الإخلاص
في العمل من عمل القلب ، قال الكرخي : الإخلاص أن لا يطلع على عملك
إلا الله سبحانه ولا تطلب منه ثوابا ، وقال الشهاب الإخلاص عدم الشرك وانه
ليس بمعنى الإخلاص المتعارف .

وانتصاب ﴿ حنفاء ﴾ على الحال من ضمير مخلصين فيكون من باب

التداخل ، ويجوز أن يكون من فاعل يعبدوا ، والمعنى مائلين عن الأديان كلها إلى دين الاسلام وقيل متبعين ملة ابراهيم ، وقيل حجاجاً ، وقيل مختونين محرمين لنكاح المحارم ، وقيل الحنيف الذي آمن بجميع الأنبياء والرسل ، ولا يفرق بين أحد منهم ، والأول أولى .

وأصل الحنف في اللغة الميل وخصه العرف بالميل الى الخير ، وسموا الميل الى الشر إلحاداً .

والحنيف المطلق هو الذي يكون متبرئاً عن أصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ، وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات ، وعن توابعها من الخطأ والنسيان إلى العمل الصالح ، وهو مقام التقى ، وعن المكروهات إلى المستحبات ، وهو المقام الأول من الورع ، وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعني إلى ما يعني وهو المقام الثاني من الورع ، وعما يجز الى الفضول وهو مقام الزهد فالآية جامعة لمقامي الاخلاص الناظر أحدهما إلى الحق ، والثاني إلى الخلق .

﴿ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة﴾ أي يفعلوا الصلوات في أوقاتها ويعطوا الزكاة عند محلها ، وخص الصلاة والزكاة لأنهما من أعظم أركان الدين ، قيل إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة فالأمر ظاهر ، وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا وهما من جملة ما وقع الأمر به فيها .

﴿وذلك﴾ المذكور من عبادة الله وإخلاصها وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿دين القيمة﴾ أي دين الملة المستقيمة والشريعة المتبوعة ، قاله الزجاج ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف ، قال الخليل القيمة جمع القيم ، والقيم القائم .

قال الفراء أضاف الدين إلى القيمة وهو نعتة لاختلاف اللفظين ، وأنث القيمة رداً إلى الملة ، وقال الفراء أيضاً هو من إضافة الشيء إلى نفسه ،

ودخلت الهاء للمدح والمبالغة ، وما في الإشارة من معنى البعد للاشعار بعلو رتبته وبعد منزلته وسمو مكانته .

ثم بين سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ عطف على الموصول أو المجرور ، وخبر إن ﴿ في نار جهنم ﴾ أي أنهم يصيرون إليها يوم القيامة . وبدأ بأهل الكتاب لأنهم كانوا يطعنون في نبوته فجنايتهم أعظم لأنهم أنكروه مع العلم به .

﴿ خالدين فيها ﴾ حال من المستكن في الخبر ، ولم يقل خالدين فيها أبداً كما قال بعد في صفة أهل الثواب لأن رحمته أزيد من غضبه ، فلم يتفق الخلودان في الأبدية ﴿ أولئك ﴾ المذكورون من أهل الكتاب والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم والخلود فيها ﴿ هم شر البرية ﴾ يقال براً أي خلق والبارىء الخالق ، والبرية الخليفة .

قرأ الجمهور البرية في الموضعين بغير همز وقرئ بالهمز فيهما قال الفراء إن أخذت البرية من البراء وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ ، وإن أخذتها من برئت القلم أي قدرته دخلت ، وقيل أن الهمز هو الأصل لأنه يقال براً الله الخلق بالهمز أي ابتدعه واخترعه ، ومنه قوله ﴿ من قبل أن نبرأها ﴾ ولكنها خففت الهمزة والتزم تخفيفها عند عامة العرب ، وظاهر الآية العموم ، وقيل شر البرية الذين عاصروا الرسول إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر من هؤلاء كفرعون وعافر ناقة صالح (عليه السلام).

وشر البرية أفعل تفضيل أي لأنهم يخفون من كتاب الله صفة محمد وأشر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق دين الحق على الخلق ، وأشر من الجهال لأن الكفر مع العلم يكون عناداً ، وهذا فيه تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .

ثم بين سبحانه حال الفريق الآخر فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون

بهذا ﴿ هم خير البرية ﴾ أي في عصره صلى الله عليه وسلم ، ولا يبعد أن يكون في مؤمني الأمم السالفة من هو خير منهم .

وعن أبي هريرة قال أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك . وقرأوا إن شئتم ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية .

وعن عائشة قالت : قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله قال : يا عائشة أما تقرئين ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية : أخرجه ابن مردويه :

وعن جابر بن عبد الله قال : « كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل علي فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ الآية فكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، إذا أقبل قالوا قد جاء خير البرية » أخرجه ابن عساكر .

وعن ابن عباس قال : « لما نزلت هذه الآية قال رسول الله لعلي هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين » أخرجه ابن مردويه ، وأخرج الضياء عن علي مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً « عليّ خير البرية » وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أخبركم بخير البرية قالوا بلى يا رسول الله قال رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هبة استوى عليه . ألا أخبركم بشر البرية قالوا بلى قال الذي يسأل بالله ولا يعطي به » أخرجه أحمد .

﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان والعمل الصالح ﴿ جنات عدن ﴾ هذا من مقابلة الجمع بالجمع وهو يقتضي انقسام الآحاد على الآحاد فيكون لكل واحد جنة ، وقيل الجمع باق على حقيقته وأن لكل واحد جنات كما يدل عليه قوله ﴿ ولمن خاف مقام ربه

﴿جنتان﴾ ﴿ومن دونهما جنتان﴾ فذكر للواحد أربع جنات وأدنى تلك الجنات مثل الدنيا بما فيها عشر مرات .

والمراد بجنات عدن هي أوسط الجنات وأفضلها يقال عدن بالمكان يعدن عدناً أي أقام ومعدن الشيء مركزه ومستقره ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ الأربعة وهي الخمر والماء والعسل واللبن ، وقد قدمنا في غير موضع انه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة فجريان الأنهار من تحتها ظاهر ، وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر فجري الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر وهو الشجر .

﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا يخرجون منها ولا يظعنون عنها بل هم دائمون في نعيمها مستمرين في لذاتها .

وجملة ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرد الجزاء وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره ، وقبلوا شرائعه ، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً وأن تكون في محل نصب على الحال بإضمار قد .

﴿ذلك لمن خشي ربه﴾ أي ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه في الدنيا وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه فانها ليست بخشية على الحقيقة .

سورة الزلزلة

هــج ثمان أو تسع آيات . وهـج مدنية هـج قول ابن عباس وقتادة . ومكية هـج قول ابن مسعود وعطاء وجابر .

عن عبد الله بن عمرو قال أتت رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « أقرئني يا رسول الله قال اقرأ ثلاثاً من دوات الرّ فقال الرجل كبر سنك واشتد قلبك وغلظ لسانك . قال اقرأ ثلاثاً من دوات حمّ فقال مثل مقالته الأولى . فقال اقرأ ثلاثاً من المسبحات فقال مثل مقالته الأولى وقال ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه اذا زلزلت الارض حتّى فرغ منها قال الرجل والديك بعثك بالحق لا أزيد عليها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أفلح الرويحل . أفلح الرويحل » أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ اذا زلزلت الارض عدلت له بنصف القرآن . ومن قرأ قل هو الله أحد عدلت له بثلاث القرآن . ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن . أخرجه الترمذي وابن مردويه والبيهقي .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا زلزلت الارض تعدل نصف القرآن ، وقل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن ، أخرجه الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي ، قال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة .

وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه « هل تزوجت يا فلان قال : لا والله يا رسول الله ولا عندى ما أتزوج به ، قال : أليس معك قل هو الله أحد قال بلى ، قال ثلث القرآن ، قال أليس معك اذا جاء نصر الله والفتح ، قال بلى ، قال ربع القرآن ، قال أليس معك قل يا أيها الكافرون ، قال بلى قال ربع القرآن ، قال أليس معك اذا زلزلت الارض ؟ قال بلى ، قال ربع القرآن ، تزوج » قال الترمذي هذا حديث حسن .

وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من قرأ في ليلة اذا زلزلت كان له عدل نصف القرآن » أخرجه ابن مردويه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاءًا لِّیُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي إذا حركت حركة شديدة وجواب الشرط «تحدث» والمراد تحركها عند قيام الساعة فإنها تضطرب من شدة صوت إسرافيل حتى ينكسر كل شيء عليها ، قال مجاهد وهي النفخة الأولى لقوله تعالى ﴿ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ﴾ .

وفي الخازن في وقت هذه الزلزلة قولان :

(أحدهما) وهو قول الأكثرين أنها في الدنيا وهي من أشراط الساعة .

(والثاني) أنها زلزلة يوم القيامة إنتهى .

ويؤيد القول الثاني قوله تعالى ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ فإن الإخراج إنما هو في النفخة الثانية ، وكذا شهادتها بما وقع عليها إنما هو بعد النفخة الثانية ، وكذلك انصراف الناس من الموقف إنما يكون بعد الثانية تأمل .

وذكر المصدر للتأكيد ثم أضافه إلى الأرض فهو مصدر مضاف إلى فاعله والمعنى زلزالها المخصوص الذي يستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها ، قرأ الجمهور زلزالها بكسر الزاي ، وقرأ بفتحها وهما مصدران بمعنى . وقيل المكسور مصدر . والمفتوح إسم قال القرطبي : والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس والقلقال ، قال ابن عباس في الآية أي تحركت من أسفلها .

« وأخرجت الأرض أثقالها » أي ما في جوفها من الأموات والدفائن ، والأثقال جمع ثقل . قال أبو عبيدة والأخفش إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، قال مجاهد أثقالها موتها تخرجهم في النفخة الثانية ، وقد قيل للجن والإنس الثقلان ، وإظهار الأرض في موضع الإضممار لزيادة التقرير قال ابن عباس : أثقالها الموت والكنوز .

وأخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجىء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجىء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي . ويجىء السارق فيقول في هذا قطعت يدي . ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً » .

« وقال الإنسان ما لها » أي قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت ، لما يدهمه من أمرها ويبهره من خطبها ، وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقوله ما لها مبتدأ وخبر ، وفيه معنى التعجب أي أي شيء لها أو لأي شيء زلزلت وأخرجت أثقالها . قال ابن عباس الكافر يقول ما لها .

وقوله « يومئذ » بدل من إذا والعامل فيهما قوله « تحدث أخبارها » ويجوز أن يكون العامل في إذا محذوفاً والعامل في يومئذ تحدث ، والمعنى يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها وتحديثهم بما عمل عليها من خير وشر ، وذلك إما بلسان الحال حيث يدل على ذلك دلالة ظاهرة أو بلسان المقال بأن ينطقها الله سبحانه ، وقيل هذا متصل بقوله « وقال الإنسان ما لها » أي قال ما لها تحدث أخبارها متعجباً من ذلك .

وقال يحيى بن سلام تحدث أخبارها بما أخرجت من أثقالها ، وقيل تحدث بقيام الساعة وأنها قد أتت ، وأن الدنيا قد انقضت ، قال ابن جرير تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة وإخراج الموتى ، ومفعول تحدث الأول محذوف ، والثاني هو أخبارها أي تحدث الخلق أخبارها .

عن أبي هريرة قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال «أتدرون ما أخبارها، قالوا الله ورسوله أعلم، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل كذا وكذا فهذا أخبارها». أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وغيرهم^(١).

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «إن الأرض لتجيء يوم القيامة بكل عمل عُملَ على ظهرها. وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى بلغ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أخرجه ابن مردويه والبيهقي.

وعن ربيعة الجرشي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال «تحفظوا من الأرض فإنها أمكم وأنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة» أخرجه الطبراني.

﴿بأن ربك أوحى لها﴾ متعلق بتحدث أو بنفس أخبارها والباء زائدة، وقيل سببية أي بسبب إحياء الله إليها، قال الفراء تحدث أخبارها بوحى الله وإذنه لها، واللام في لها بمعنى (إلى) وإنما أوثرت على (إلى) لموافقة الفواصل، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى، كذا قال أبو عبيدة.

وقيل إن أوحى يتعدى باللام تارة وبإلى أخرى، وقيل إن اللام على بابها من كونها العلة والموحى إليه محذوف وهو الملائكة، والتقدير أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض أي لأجل ما يفعلون فيها، والأول أولى.

وقوله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إما بدل من يومئذ الذي قبله، وإما منصوب بمقدر هو أذكر، وإما منصوب بما بعده والمعنى يوم إذ يقع ما ذكر ﴿يصدر الناس﴾ من قبورهم إلى موقف الحساب ﴿أشتاتاً﴾ أي متفرقين، والصدر الرجوع، وهو ضد الورود، وقيل يصدر من موضع الحساب إلى الجنة أو النار،

وانتصاب أشتاتاً على الحال والمعنى أن بعضهم آمن وبعضهم خائف ،
وبعضهم بلون أهل الجنة وهو البياض ، وبعضهم بلون أهل النار وهو
السواد ، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين وبعضهم إلى جهة الشمال مع
تفرقهم في الأديان واختلافهم في الأعمال .

﴿ ليروا أعمالهم ﴾ متعلق بيصدر وقيل فيه تقديم وتأخير أي تحدث
أخبارها بأن ربك أوحى لها ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشتاتاً . قرأ
الجمهور ليروا مبنياً للمفعول وهو من رؤية البصر أي ليرى الله أعمالهم ،
وقرىء مبنياً للفاعل والمعنى ليروا جزاء أعمالهم .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ أي
وزن نملة وهي أصغر ما يكون من النمل . قرأ الجمهور يره في الموضعين بضم
الهاء وصلأ وسكونها وقفأ وقرأ هشام بسكونها وصلأ ووقفأ .

وقرأ الجمهور أيضاً مبنياً للفاعل في الموضعين ، وقرىء على البناء
للمفعول فيهما أي يريه الله إياه ، وقرىء يراه على توهم أن من موصولة أو
على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدرة في الفعل .

قال مقاتل : فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره يوم القيامة في
كتابه فيفرح به ، وكذلك من يعمل مثقال ذرة في الدنيا شراً يره يوم القيامة
فيسؤه ، ومثل هذه الآية قوله ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ .

وقال بعض أهل اللغة أن الذرة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض
فما علق من التراب فهو ذرة ، وقيل الذر ما يرى في شعاع الشمس من
الهباء ، والأول أولى .

و « من » الأولى عبارة عن السعداء ، ومن الثانية عبارة عن الأشقياء ،
وقال محمد بن كعب فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر فيرى ثوابه في
الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ،
ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله

وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر ، والأول أولى .

قال مقاتل نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ويقول إنما أوعد الله النار على الكفارين .

قال ابن مسعود : هذه الآية أحكم آية في القرآن وأصدق ، وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية .

قال كعب الأحبار لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم آيتان أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿ فمن يعمل ﴾ إلخ .

وروى محيي السنة : عن ابن عباس ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً كان أو شراً إلا أراه الله تعالى : فأما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فتزد حسناته تحسراً ويعذب بسيئاته ، وهذا الإحتمال يساعده النظم والمعنى .

عن أنس قال بينما أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ نزلت عليه ﴿ فمن يعمل ﴾ إلخ فرفع أبو بكر يده وقال يا رسول الله « إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر ، فقال يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، ويدخر لك ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة » أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم في تاريخه وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

عن أبي أسماء قال بينما أبو بكر يتغدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت هذه الآية فأمسك أبو بكر وقال يا رسول الله ما عملنا من شر رأيناه فقال ما ترون مما تكرهون فذاك مما تجزون ، ويؤخر الخير لأهله في الآخرة . أخرجه إسحق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال أنزلت إذا زلزلت وأبو بكر الصديق قاعد فبكى فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يبكيك يا

أبا بكر قال تبكيني هذه السورة فقال « لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم لخلق الله قوماً يخطئون ويذنبون فيغفر لهم ». أخرجه ابن أبي الدنيا وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الخيل لثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر ، الحديث قال .

وسئل عن الحمرة^(٣) فقال ما أنزل عليّ إلا هذه الآية الجامعة الفاذة، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ . أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما .

سورة العاديات

في إحدى عشرة آية وهي مكية في قول ابن مسعود وجابر
والحسن وعكرمة وعطاء ، ومدنية في قول ابن عباس وأنس بن مالك
وقتادة .

وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « إذا
زلزلت تعدل نصف القرآن والعاديات تعدل نصف القرآن » وهو مرسل .
أخبره أبو عبيدة في فضائله . وعن ابن عباس مرفوعاً مثله . أخرجه
محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رباح وزاد « وقل هو الله أحد
تعدل ثلث القرآن » . وقل يا أيها الكافرون تعدل ربع القرآن » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيَّتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَأَلْمُورِبَتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَأَلْمُغِيرَتِ ضُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾
وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ
مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

﴿والعاديات﴾ جمع عادية وهي الجارية بسرعة من العدو ، وهو المشي بسرعة فقلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها كالغازيات من الغزو ، والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العدو ، و ﴿ضبحاً﴾ مصدر مؤكد لإسم الفاعل فإن الضبح نوع من السير ونوع من العدو ، ويقل ضبح الفرس إذا عدا بشدة مأخوذ من الضبح وهو الدفع ، وكأن الحاء بدل من العين ، قال أبو عبيدة والمبرد الضبح من اضباعها في السير .

ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال أي ضابحات أو ذوات ضبح ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف أن يضح ضبحاً . وقيل الضبح صوت حوافرها إذا عدت . وقال الفراء الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت قيل كانت تكمم لثلاث تصهل فيعلم العدو ، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة .

وقيل الضبح صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو وليس بصهيل .

وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن العاديات ضبحاً هي الخيل ، وقال عبيد ابن عمير ومحمد بن كعب والسدي هي الإبل ، ونقل أهل اللغة إن أصل الضبح للثعلب فاستعير للخيل .

قال ابن عباس بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت ﴿والعاديات ضبحاً﴾ ضبحت بأرجلها وفي

لفظ ضبحت بمناخرها وعنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سرية إلى العدو فأبطأ خبرها فشق ذلك عليه فأخبره الله خبرهم وما كان من أمرهم فقال ﴿والعاديات ضبحاً﴾ قال هي الخيل والضحج نخير الخيل حين تنخر .

وعنه قال هي الخيل في القتال وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت ، وعن ابن مسعود قال هي الإبل ، قال إبراهيم النخعي قال علي هي الإبل ، وقال ابن عباس هي الخيل ، فبلغ علياً قول ابن عباس فقال ما كانت لنا خيل يوم بدر ، قال ابن عباس إنما كانت تلك في سرية بعثت .

وعن عامر الشعبي قال تمارى علي وابن عباس في العاديات ضبحاً فقال ابن عباس هي الخيل^(١) وقال علي كذبت يا ابن فلانة والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد كان على فرس أبلق ، قال وكان يقول هي الإبل فقال ابن عباس ألا ترى أنها تثير نقعاً فما شيء يثير إلا بحوافرها ، وعن ابن عباس قال هي الخيل في القتال وعن ابن مسعود قال في الحج ، وعن ابن عباس ليس شيء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس ، وقد روي عنه بطرق أنه الخيل ، وعنه قال الخيل ضبحها زخيرها ألم تر أن الفرس إذا عدا قال اح اح

(١) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن العاديات ضبحاً فقلت الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو جالس تحت سقاية زمزم فسأله عن العاديات ضبحاً فقال سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت عنها ابن عباس فقال هي الخيل حين تغير في سبيل الله فقال اذهب فادعه لي ، فلما وقفت على رأسه قال فتقي الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير ، وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف يكون العاديات ضبحاً إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة فإذا أؤوا إلى المزدلفة أوقدوا النيران ، والمغيرات ضبحاً من المزدلفة إلى منى فذلك جمع ، وأما قوله فأثرن به نقعاً فهي تقع الأرض حتى تطؤه بأخفافها وحوافرها قال ابن عباس فنزعت من قولي ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه ، ذكره الشوكاني رحمه الله في فتح القدير انتهى سيد ذو الفقار أحمد .

فذلك ضبحها ، وعن علي قال الضبح من الخيل الحمحمة ومن الإبل النفس .

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ هي الخيل حين توري النار بسنابكها ، والإبراء إخراج النار ، والقدح الصك ، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد .

قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران والكلام في انتصاب قدحاً كالكلام في انتصاب ضبحاً والخلاف في كونها الخيل أو الإبل كالخلاف الذي تقدم في العاديات ، والراجح أنها الخيل كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة ما تقدم منها وما سيأتي فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل ، وتقدم ما في ذلك من الخلاف بين الصحابة .

قال ابن عباس في الآية قدحت بحوافرها الحجارة ، وعنه قال حين تجزي الخيل توري ناراً أصابت سنابكها الحجارة ، وعنه قال الرجل إذا أورى زنده ، وعنه قال هو مكر الرجل قدح فأورى ، وقال ابن مسعود إذا سفت الحصى بمناسمها فضرب الحصى بعضه بعضاً فتخرج منه النار .

﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ أي التي تغير على العدو وقت الصباح ، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوه لقتل أو أسر أو نهب ، وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم ، وصبحاً منصوب على الظرفية قال ابن عباس صبحت القوم بغارة .

وعنه قال هي الخيل أغارت فصبحت العدو ، وعنه قال إذا أصبحت العدو ، وعنه قال الخيل تصبح العدو ، وقال أيضاً غارت الخيل صبحاً ، وقال ابن مسعود حين يفيضون من جمع ، وإنما أقسم الله عز وجل بخيل الغزاة تنبيهاً على فضلها وفضل رباطها في سبيل الله ، ولما فيها من المنافع الدينية والدنيوية والأجر والغنيمة .

﴿فأثرن به نقعاً﴾ معطوف على الفعل الذي دل عليه اسم الفاعل إذ المعنى واللاتي غدرن فأثرن أو على إسم الفاعل نفسه لكونه في تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول فإن الألف واللام في الصفات أسماء موصولة ، فالكلام في قوة واللاتي غدرن فأورين فأغرن فأثرن ، والنقع الغبار الذي أثارته في وجه العدو عند الغزو .

وتخصيص إثارته بالصبح لأنه وقت الإغارة وكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح . وقيل المعنى فأثرن بمكان عدوهن نقعاً يقال ثار النقع وأثرته أي هاج وهيجته .

قرأ الجمهور فأثرن بتخفيف الثاء وقرئء بتشديدها أي فأظهرن غباراً ، وقال أبو عبيدة النقع رفع الصوت ، وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم ، انتهى .

والمعروف عند جمهور أهل اللغة والمفسرين أن النقع الغبار ، وهذا هو المناسب لمعنى الآية وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى ، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صباحاً فأثرن به صوتاً قليل الجدوى مغسول المعنى ، بعيد من بلاغة القرآن المعجزة .

وقيل النقع شق الجيوب ، وقال محمد بن كعب النقع ما بين مزدلفة إلى منى ، وقيل أنه طريق الوادي ، قال في الصحاح النقع الغبار والجمع انقاع والنقع محبس الماء وكذلك ما اجتمع في البئر منه . والنقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء .

قال ابن عباس في الآية أثارث بحوافرها التراب وقال أيضاً هي الخيل أثرن بحوافرها يقول بعدو الخيل والنقع الغبار . وعنه قال التراب وقال أيضاً نقعاً غباراً وقال ابن مسعود إذا سرن يثرن التراب .

﴿فوسطن به جمعاً﴾ أي توسطن بذلك الوقت أو توسطن متلبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء ، والباء إما

للتعدية أو للحالية أو زائدة يقال وسطت القوم والمكان أسط وسطاً من باب وعد إذا توسطت بين ذلك . والفاعل واسط وبه سمي البلد المشهور بالعراق لأنه توسط الإقليم . تقول جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف وجلست وسط الدار بالتحريك لأنه اسم لما يكتنفه غيره من جهاته .

وكل موضع صلح فيه بين فهو وسط بالسكون وإن لم يصلح فيه بين فهو وسط بالتحريك ، وربما سكن وليس بالوجه ، و ﴿جمعاً﴾ مفعول به ، والفاءات في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها .

قرأ الجمهور فوسطن بتخفيف السين وقرىء بالتشديد قال ابن عباس في الآية صبحت القوم جميعاً وفي لفظ الجمع العدو وفي لفظ إذا توسطت العدو ، وفي لفظ جمع العدو .

﴿إن الإنسان لربه كنود﴾ هذا جواب القسم والمراد بالإنسان بعض أفرادِهِ وهو الكافر والكنود الكفور للنعمة ، وقوله لربه متعلق بكنود قدم لرعاية الفواصل وقيل هو الجاحد للحق ، وقيل الكنود مأخوذ من الكند وهو القطع كأنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر ، يقال كند الحبل إذا قطعه ، وقيل الكنود البخيل بلغة بني مالك وقيل الحسود وقيل الجهول لقدره ، وقيل العاصي بلغة كند .

وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام والجاحد للنعمة كافر لها ، ولا يناسب المقام سائر ما قيل . وعن ابن عباس قال الكنود بلساننا أهل البلد الكفور . وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « الكنود الكفور » أخرجه ابن عساكر وعنه قال : « الكنود الذي يمنع رفته وينزل وحده ويضرب عبده »^(١) ، وروي نحوه مرفوعاً عنه وسنده ضعيف . والموقوف أصح .

﴿ وإنه على ذلك ﴾ أي وأن الإنسان على كنوده ﴿ لشهيد ﴾ يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه ، وقيل المعنى وإن الله جل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد ؛ وبه قال الجمهور ؛ وقال بالأول الحسن وقتادة ومحمد بن كعب ؛ وهو أرجح من قول الجمهور لقوله ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان والمعنى أنه لحب المال قوي مجد في طلبه وتحصيله متهالك عليه .

يقال هو شديد لهذا الأمر وقوي له . إذا كان مطيقاً له . ومنه قوله تعالى ﴿ إن ترك خيراً ﴾ وقيل المعنى وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل والأول أولى ، واللام في ﴿ لحب ﴾ متعلقة بشديد ، قال ابن زيد سمى الله المال خيراً وعسى أن يكون شراً ولكن الناس يجدونه خيراً فسماه خيراً .

قال الفراء أصل نظم الآية أن يقال وإنه لشديد الحب للخير ، فلما قدم الحب قال لشديد وحذف من آخره ذكر الحب لأنه قد جرى ذكره ولرؤوس الآي كقوله ﴿ في يوم عاصف ﴾ والعصوف للريح لا لليوم كأنه قال في يوم عاصف الريح ، قال ابن عباس الخير المال .

﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ الإستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي يفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم ، وهذا تهديد ووعيد ، وبعثر معناه نثر وبحث أي نثر ما في القبور من الموتى وبحث عنهم وأخرجوا قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه ، وقال الفراء سمعت بعض العرب من بني أسد يقول بكثر بالحاء مكان العين ، وقد تقدم الكلام على هذا في قوله ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ .

﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ أي ميز وبين ما فيها من الخير والشر ، والتحصيل التمييز ، كذا قال المفسرون ، وقيل حصل أبرز ، قرأ الجمهور حصل بضم الحاء وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول ، وقرئ حصل بفتح

الحاء وتخفيف الصاد مبنياً للفاعل أي ظهر ، قال ابن عباس : بعثر بحث ، وحصل أبرز .

والمعنى أخرج وجمع بغاية السهولة ما في الصدور من خير وشر مما يظن مضمرة إنه لا يعلمه أحد أصلاً وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال ، وهذا يدل على أن الإنسان يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها وخص أعمال القلوب بالذكر ، وترك ذكر أعمال الجوارح لأنها تابعة لأعمال القلوب ، فإنه لولا تحقق البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح .

﴿ إن ربهم ﴾ أي إن رب المبعوثين ﴿ بهم يومئذ لخير ﴾ لا تخفى عليه خافية فيجازيهم بالخير خيراً وبالشر شراً ، قال الزجاج الله خير بهم في ذلك اليوم وفي غيره ولكن المعنى أن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم ، ومثله قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ ، معناه أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم .

قال الإمام دلت الآية على أنه تعالى عالم بالجزئيات الزمانيات وغيرها لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم ، فكيف لا يكون منكروه كافراً ذكره الكرخي .

قرأ الجمهور بكسر إن وباللام في الخير ، وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة وإسقاط اللام .

سورة القارعة

وهي ثمان آيات وقيل احدى عشرة آية وقيل عشر آيات ، وهي
مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾
فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

﴿ القارعة ﴾ هي من أسماء القيامة ، قاله ابن عباس لأنها تفرع القلوب بالفرع ، وتفرع أعداء الله بالعذاب . والعرب تقول قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر فظيع . وقيل أصل القرع الصوت الشديد ، ومنه قوارع الدهر ، وسميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته وهي مبتدأ وخبره ﴿ ما القارعة ﴾ .

قرأ الجمهور بالرفع وقرئ بنصبها على تقدير احذروا القارعة ، والإستفهام للتفخيم والتعظيم لشأنها كما تقدم بيانه في قوله ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ وقيل معنى الكلام على التحذير .

قال الزجاج والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب ، والحمل على معنى التفخيم والتعظيم أولى ويؤيده وضع الظاهر موضع المضمَر ، فإنه أدل على هذا المعنى ويؤيده أيضاً قوله :

﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ فإنه تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم ، وما الإستفهامية مبتدأ وإدراك خبرها ، وما القارعة مبتدأ وخبر ، والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني ، والمعنى وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة .

ثم بين سبحانه متى تكون القارعة فقال ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ إنتصاب الظرف بفعل محذوف تدل عليه القارعة أي تقرعهم يوم يكون إلخ ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير أذكر .

وقال ابن عطية ومكي وأبو البقاء هو منصوب بنفس القارعة وقيل هو خبر مبتدأ محذوف وإنما نصب لإضافته إلى الفعل ، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب أي هي يوم يكون إلخ وقيل التقدير ستأتيكم القارعة يوم يكون إلخ .

وقرأ زيد بن علي برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدر . والفراش الطير الذي تراه يتساقط في النار والسراج ، الواحدة فراشة كذا قال أبو عبيدة وغيره .

قال الفراء الفراش هو الطائر من بعوض وغيره ومنه الجراد قال وبه يضرب المثل في الطيش والهوج ، يقال أطيش من فراشة .

والمراد بالمبثوث المتفرق المنتشر يقال بثه إذا فرقه . ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ .

وقال المبثوث ولم يقل مبثوثة لأن الكل جائز كما في قوله ﴿أعجاز نخل منقعر﴾ ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ وقد تقدم بيان وجه ذلك .

وفي تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى منها الطيش الذي يلحقهم وإنتشارهم في الأرض وركوب بعضهم بعضاً . والكثرة والضعف والتدلل إجابة الداعي من كل جهة والتطاير إلى النار .

﴿وتكون الجبال﴾ بعد أن تتفتت كالرمل اسائل ﴿كالعهن المنفوش﴾ ي كالصوف الملون بالألوان المختلفة الذي نفش بالندف . والعهن عند أهل اللغة الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة ، وقد تقدم بيان هذا في سورة ﴿سأل سائل﴾ وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة ، وقد قدمنا بيان الجمع بينها .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس وتفرقهم قريقين على جهة الإجمال فقال :
 « ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ » بإتباعه الحق ، وقد تقدم القول في الميزان في
 سورة الأعراف وسورة الكهف وسورة الأنبياء ، وقد اختلف فيها هنا ف قيل هي
 جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وبه قال الفراء وغيره
 وقيل هي جمع ميزان وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه
 بلفظ الجمع كما يقال لكل حادثة ميزان . وقيل المراد بالموازين الحجج
 والدلائل .

« ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ ﴾ » حياة « ﴿ رَاضِيَةٍ ﴾ » طيبة أو مرضية فهو إسناد
 مجازي أو استعارة مكنية وتخيلية أو هي بمعنى المفعول على التجوز في الكلمة
 نفسها ، قال الزجاج : أي ذات رضا يرضاها صاحبها يعني أنها للنسب .
 وقيل المعنى فاعلة للرضاء وهو اللين والإنقياد لأهلها ، والعيشة كلمة تجمع
 النعم التي في الجنة .

« ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ » أي رجحت سيئاته على حسناته أو لم
 تكن له حسنات يعتد بها « ﴿ فَأَمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ » أي فمسكنه جهنم وسماها أمه
 لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه ، والهاوية من أساء جهنم ، وهي آخر
 الطبقات السبع وسميت هاوية لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها ، والمهوى والمهواة
 ما بين الجبلين ، وتهاوى القوم في المهواة إذا سقط بعضهم في إثر بعض .

قال قتادة يعني فمصيره إلى النار ، قال عكرمة لأنه يهوي فيها على أم
 رأسه ، قال الأخفش أمه مستقرة ، قال ابن عباس هاوية كقوله هوت أمه ،
 وعن عكرمة قال أم رأسه هاوية في جهنم .

قال الخطيب أي نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوي فيها
 نازلاً فهو في عيشة ساخطة فالآية من الإحتباك : ذكر العيشة أولاً دليلاً على
 حذفها ثانياً وذكر الأم ثانياً دليلاً على حذفها أولاً .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

(إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ، ما فعلت فلانة فإذا كان مات ولم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية) وأخرج ابن مردويه من حديث أبي أيوب الأنصاري نحوه ، وأخرج ابن المبارك من حديثه نحوه أيضاً .

وبقي قسم ثالث غير مذكور في الآية وهو من استوت حسناته وسيئاته ، قال المناوي من رجحت حسناته بسبب زيادتها على السيئات فهو في الجنة بغير حساب ، ومن استوت حسناته وسيئاته فيحاسب حساباً يسيراً ، ومن رجحت سيئاته على حسناته أي بسبب زيادتها فيشفع فيه أو يعذب .

﴿ وما أدراك ما هي ﴾ هذا الإستفهام للتهويل والتفطيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، ولا تدري كنهها ، والضمير يعود إلى الهاوية والهاء للسكت .

ثم بينها سبحانه بقوله ﴿ نار حامية ﴾ أي قد انتهى حرها وبلغ في الشدة إلى الغاية ، وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي نار حامية ، نعوذ بالله منها .

سورة التكاثر

هي ثمان آيات وهي مكية عند الجميع وروى البخاري أنها مدنية: قال ابن عباس نزلت بمكة .

عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم . قالوا ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية في كل يوم . قال أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿ التكاثر ﴾ » أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب . قال المنذرجي رجال اسناده ثقات إلا أن عقبه لا أعرفه .

وعن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من قرأ في ليلة ألف آية لقد الله وهو ضاحك في وجهه قيل يا رسول الله ومن يقو على ألف آية فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم التكاثر إلى آخرها ثم قال والذي نفسي بيده إنها لتعدل ألف آية . أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق والديلمي .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عبد الله بن الشخير قال : « انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ

ألهاكم التكاثر، وفي لفظ وقد أنزلت عليه ألهاكم التكاثر وهو يقول :
« يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مال إلا ما أكلت فأفنيته »
وأخرجه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة ولم يذكر فيه قراءة هذه
السورة ولا نزولها بلفظ « يقول العبد مالي مالي وإنما له من ماله ثلاثة ما
أكل فأفنيته وما لبس فأبلى وما تصدق فأبقى ، وما سوا ذلك فهو
ذاهب وتاركه للناس »

وعن جرير بن عبد الله قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إنني قارئ عليكم سورة ألهاكم التكاثر فمن بكى فله الجنة ،
فقرأها فمنا من بكى ، ومنا من لم يبكي فقال الذين لم يبكوا قد
جهدنا يا رسول الله أن نبكي فلم نقدر عليه ، فقال إنني قارئها عليكم
الثانية فمن بكى فله الجنة ، ومن لم يقدر أن يبكي فليتبأك » أخرجه
البيهقي في الشعب وضعفه ، والحكيم الترمذي في نواذر الأصول .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾

﴿ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ أي شغلكم التباري في التكاثر بالأموال والأولاد ، والتباهي والتفاخر بكثرتها عن طاعة الله تعالى والتغلب فيها ، يقال ألهاه عن كذا وأقهاه إذا شغله ، وقال الحسن معناه أنساكم حتى أدرككم الموت وأنتم على تلك الحال ، وقال قتادة إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر ، وقال الضحاك ألهاكم التشاغل بالمعاش وقيل المعنى متم ودفنتم في المقابر والمقابر جمع مقبرة وقال مقاتل وقتادة أيضاً وغيرهما نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا .

وقال الكلبي نزلت في حيين من قريش بني عبد مناف وبني سهم وتعادوا أو تكاثروا بالسيادة والإشراف في الإسلام ، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيداً وأعز عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر قائدأ فكثر بنو عبد مناف بني سهم ، ثم تكاثروا بالأموات فكثرتهم بهم ، فنزلت ألهاكم التكاثر فلم ترضوا حتى زرتم المقابر مفتخرين بالأموات .

وعن أبي بردة في الآية قال : « نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحرث تفاخروا وتكاثروا فقالت إحداهما فيكم مثل فلان وفلان ، وقال الآخرون مثل ذلك تفاخروا بالأحياء ثم قالوا انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل الله هذه الآية » أي لقد كان لكم فيما زرتم

عبرة وشغل ، أخرجـه ابن أبي حاتم^(١) .

وفي الآية دليل على أن الإشتغال بالدنيا والمكاثرة بها والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة ، والشرع دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم ، فيجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته وحسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدي به .

وقال سبحانه أهلكم التكاثر ولم يقل عن كذا بل أطلقه لان الإطلاق أبلغ في الذم لأنه يذهب فيه الوهم كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام ، لأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم كما تقرر في علم البيان .
والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن علم كل شيء يجب عليكم الإشتغال به من طاعة الله .

والعمل للآخرة ، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر لأن الميت قد صار إلى قبره كما يصير الزائر إلى الموضع الذي يزوره ، هذا على قول من قال إن معنى زرتم المقابر متم ، وأما على قول من قال إن معنى زرتم المقابر ، ذكرتم الموق وعددتهم للمفاخرة والمكاثرة فيكون ذلك على طريق التهكم بهم وقيل إنهم كانوا يزورون المقابر فيقولون هذا قبر فلان وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك .

﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر وتنبية على أنهم سيعلمون عاقبة ذلك يوم القيامة ، وفيه وعيد شديد ، قال الفراء أي ليس

(١) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٢٩٥٨) عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿ أهلكم التكاثر ﴾ ، قال : « يقول ابن آدم : مالي ، مالي (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفئيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » . وروى مسلم أيضاً رقم (٢٩٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يقول العبد : مالي ، مالي ، إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فافتنى (ادخره لآخرته) وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس » . وروى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يتبع الميت ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » .

الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر.

ثم كرر الردع والزجر والوعيد فقال ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ ثم للدلالة على ، أن الثاني أبلغ من الأول ، وقيل الأول عند الموت أو في القبر ، والثاني يوم القيامة قال الفراء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد ، قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد ، وكذا قال الحسن ومقاتل .

وجعله الشيخ جمال الدين بن مالك من التوكيد اللفظي مع توسط حرف العطف ، وقال الزمخشري والتكرير تأكيد للردع والرد عليهم ، ونقل عن علي ﴿كلا سوف تعلمون﴾ في الدنيا ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ في الآخرة ، فعلى هذا يكون غير مكرر لحصول التغاير بينهما لأجل تغاير المتعلقين ، وثم على بابها من المهلة وحذف متعلق العلم في الأفعال الثلاثة لأن الغرض هو الفعل لا متعلقه ، والعلم بمعنى المعرفة فيتعدى لمفعول واحد قاله السمين .

﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ أي لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقينياً كعلمكم ما هو متيقن عندكم في الدنيا ، وجواب لو محذوف أي لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير ، وتركتكم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه .

وقال الأخفش : التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم ، و ﴿كلا﴾ في هذا الموضع الثالث للردع والزجر كالموضعين الأولين ، وقال الفراء : هي بمعنى حقاً ، وقيل هي في المواضع الثلاثة بمعنى ألا ، قاله ابن أبي حاتم ، قال قتادة اليقين هنا الموت ، وعنه قال هو البعث ، وعنه كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعته بعد الموت .

وإضافة العلم إلى اليقين من إضافة الموصوف إلى صفته ، وفي السمين وعلم اليقين مصدر قيل وأصله العلم اليقين ، وقيل لا حاجة إلى ذلك لأن العلم يكون يقيناً وغير يقين فأضيف إليه إضافة العلم للخاص ، وهذا يدل على أن اليقين أخص .

ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

وقوله ﴿لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ جواب قسم محذوف ، وفيه زيادة وعيد وتهديد أي والله لترون الجحيم في الآخرة ، قال الرازي وليس هذا جواب لو لأن جواب لو يكون منفياً وهذا مثبت ، ولأنه عطف عليه ﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ﴾ وهو مستقبل لا بد من وقوعه ، قال وحذف جواب ﴿لو﴾ كثير ، والخطاب لكفار ، وقيل عام كقوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ .

قرأ الجمهور لترون بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرىء بضمها مبنياً للمفعول ، والرؤية هنا بصرية فلذلك تعدت إلى مفعول واحد .

ثم كرر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال ﴿ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي ثم لترون الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين ، وهي المشاهدة والمعينة ، وقيل المعنى لترون الجحيم بأبصاركم على البعد منكم ثم لترونها مشاهدة على القرب ، وقيل المراد بالأول رؤيتها قبل دخولها ، وبالثاني رؤيتها حال دخولها ، وقيل هو إخبار عن دوام بقائهم في النار أي هي رؤية دائمة متصلة ، وقيل المعنى لو تعلمون اليوم علم اليقين وأنتم في الدنيا لترون الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأهوالها .

﴿ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة ، وثم للترتيب الإخباري لا المعنوي ، لأن السؤال قبل رؤية الجحيم .

قال قتادة : يعني كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، ولم يشكروا رب النعم حيث عبدوا غيره وأشركوا به ، قال الحسن : لا يسأل عن النعم إلا أهل النار .

وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه وهذا هو الظاهر ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع ، لأن

تعريفه للجنس أو للاستغراق .

ومجرد السؤال لا يستلزم تعذيب المسؤول على النعمة التي سئل عنها فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها وبم عمل فيها ليعرف تقصيره وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر .

قيل السؤال عن الأمن والصحة ، وقيل عن الصحة والفراغ ، وقيل عن الإدراك بالحواس ، وقيل عن ملاذ المؤكول والمشروب ، وقيل عن الغذاء والعشاء ، وقيل عن بارد الشراب وظلال المساكن ، وقيل عن اعتدال الخلق ، وقيل عن لذة النوم ، وقيل غير ذلك والأولى العموم كما ذكرنا .

وعن ابن عباس في الآية قال صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : « قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ أهلكم التكاثر ﴾ يعني عن الطاعة ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ يقول حتى يأتيكم الموت » ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعني لو قد دخلتم قبوركم ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ يقول لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ قال لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿ لترون الجحيم ﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم فجاج مسلم ومخدوش مسلم ومكدوش في نار جهنم ﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ يعني شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم .

وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه ، وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « الأمن والصحة » رواه عبد الله بن أحمد في زائد الزهد وابن أبي حاتم وغيرهما .

وعن علي قال النعيم العافية ، وعنه قال من أكل خبز البر وشرب ماء

الفرات مبرداً وكان له منزل يسكنه فذلك من النعيم الذي يسأل عنه .

عن أبي الدرداء قال: قال رسول صلى الله عليه وآله وسلم في الآية : « أكل خبز البر والنوم في الظل وشرب ماء الفرات مبرداً » أخرجه ابن مردويه ، ولعل رفع هذا لا يصح فربما كان من قول أبي الدرداء .

وعن أبي قلابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال : « ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل بالنقى فيأكلونه » أخرجه أحمد في الزهد وابن مردويه وهذا مرسل .

وعن عكرمة قال لما نزلت هذه الآية قال الصحابة يا رسول الله أي نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل في انصاف بطوننا خبز الشعير ، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن قل لهم « أليس تحتذون النعال وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم » أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم .

وعن محمود بن لبيد قال لما نزلت ﴿ أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ فقرأ حتى بلغ النعيم ، قالوا يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال « أما إن ذلك سيكون » أخرجه ابن أبي شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الشعب .

وأخرجه الترمذي وغيره من حديث أبي هريرة .

وأخرجه أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما من حديث الزبير بن العوام .

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « أن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له ألم نصح لك جسدي ونرويك من الماء البارد »^(١) أخرجه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي

(١) روى البخاري في « صحيحه » ١١/١٩٦ عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي

ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح »

وغيرهم .

وعن جابر بن عبد الله قال : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فأطعمناهم رطباً وسقيناهم ماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا من النعيم الذي تسألون عنه » أخرجه أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد وغيرهم .

وأخرج مسلم وأهل السنن وغيرهم عن أبي هريرة قال : « خرج النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله ، قال والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما فقاما معه فأقى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رآته المرأة قالت مرحباً فقال النبي صلى الله عليه وسلم أين فلان ؟ فقالت انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فقال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني ، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال كلوا من هذا ، وأخذ المدينة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم إياك والحلوب ، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر « والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة » وفي الباب أحاديث .

١٩٧/١١ : وقوله في الحديث : « مغبون فيها كثير من الناس » كقوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية ، ونقل عن ابن بطال أن معنى الحديث : أن المرء لا يكون فارغاً حتى يكون مكفياً صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك ، فليحرص على أن لا يغبن بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون . قال ابن حجر : وأشار بقوله : « كثير من الناس » إلى أن الذي يوفق لذلك قليل . ونقل عن ابن الجوزي قوله : قد يكون الإنسان صحيحاً ولا يكون متفرغاً لشغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعاً فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، وتقام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة ، فمن استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط ، ومن استعملها في معصية الله فهو المغبون ، لأن الفراغ يعقبه الشغل ، والصحة يعقبها السقم .

سورة العصر

هي ثلاث آيات وهي مكية عند الجمهور . وقال قتادة : هي مدنية قال ابن عباس نزلت بمكة : عن أبي مزينة الدارمي وكانت له صحبة قال : كان الرجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا التقيا لم يتفارقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر . ثم يسلم أحدهما على الآخر ، أخرجه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

﴿والعصر﴾ أقسم سبحانه بالعصر وهو الدهر لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار وتعاقب الظلام والضياء ، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل وعلى توحيده ، ويقال ليل عصر ، وللنهار عصر ، ويقال للغداة والعشي عصران .

قال الرازي أقسم تعالى بالدهر لما فيه من الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء والصحة والسقم والغنى والفقر ، ولأن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة فيما لا يعني ثم ثبتت السعادة في اللحظة الأخيرة من العصر بقيت في الجنة أبد الآباد ، فعلمت أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللحظة ، فكان الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، ولأن الزمان أشرف من المكان ، فأقسم به لكونه نعمة خالصة لا غيب فيه .

وقال قتادة والحسن : المراد به في الآية العشي وهو ما بين زوال الشمس وغروبها . وعن قتادة أيضاً أنه آخر ساعة من ساعات النهار ، وقال مقاتل : إن المراد به صلاة العصر ، وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه وتعالى بالمحافظة عليها ، وأخرجه أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما من حديث الزبير بن الجوام .

وقيل هو قسم^(١) بعصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) قال الرازي أقسم سبحانه بمكانه صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ وأقسم بعمره

قال الزجاج : قال بعضهم معناه ورب العصر والأول أولى وبه قال ابن عباس ، وعنه هو ساعة من ساعات النهار ، وقال أيضاً هو ما قبل مغيب الشمس من العشي .

وأخرج الفريابي وأبو عبيد في فضائله وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن علي بن أبي طالب « أنه كان يقرأ والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وانه فيه إلى آخر الدهر » وعن ابن مسعود أيضاً أنه كان يقرأ « إن الإنسان لفي خسر وانه فيه إلى آخر الدهر » ، أخرجه عبد بن حميد .

﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ هذا جواب القسم ، والخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمعنى ان كل إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص وضلال عن الحق حتى يموت ، وقيل المراد بالإنسان الكافر ، وقيل جماعة من الكفار وهم الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، والأول أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ، ولدلالة الاستثناء عليه

قال الأخفش : في خسر في هلكة ، وقال الفراء : في عقوبة ، وقال ابن زيد : لفي شر ، وقيل لفي نقص ، والمعاني متقاربة ، قرأ الجمهور ﴿ والعصر ﴾ بسكون الصاد وقرأ بكسر الصاد وقرأ الجمهور أيضاً ﴿ خسر ﴾ بضم الخاء وسكون السين وقرأ بضمهما .

والتنكير في خسر يفيد التعظيم أي في خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، فقد جعل الإنسان معموراً في الخسر للمبالغة وانه أحاط به من كل جانب لأن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسر ، وإن كانت مشغولة بالمباحثات فالخسران أيضاً حاصل ، وإن كانت

في قوله : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ وبعبيره هنا فكأنه قال وعصرك وبلدك وعمرك فاقسم بهذه الظروف الثلاثة فإذا وجب تعظيم الظرف فحال الظروف من باب أولى انتهى .

مشغولة بالطاعات فهي غير متناهية ، وترك الأعلى والاقتصار على الأدنى نوع خسران ، ولا ينافيه قوله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ لأن الكلام ثم في^(١) أحوال البدن وهنا في أحوال النفس .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح فانهم في ربح لا في خسر ، لأنهم عملوا للآخرة ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ، والاستثناء متصل ، ومن قال ان المراد بالإنسان الكافر فقط فيكون منقطعاً ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة ، ولا وجه لما قيل ان المراد الصحابة أو بعضهم فان اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح .

﴿ وتواصوا ﴾ أي أوصى^(٢) بعضهم بعضاً ﴿ بالحق ﴾ الذي يحق القيام به وهو الإيمان بالله والتوحيد والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه ، قال قتادة بالحق أي بالقرآن وقيل بالتوحيد والحمل على العموم أولى .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ عن معاصي الله سبحانه وعلى فرائضه وعلى البلايا ، وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه ان الله مع الصابرين .

وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق فإفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها ، وكرر الفعل لاختلاف المفعولين .

(١) ثم بفتح الثاء أي هناك .

(٢) أشار به إلى أن تواصوا فعل ماض لا أمر ، ويؤخذ منه أن الوصية هي التقديم إلى الغير بما يعمل به مقروناً بوعظ ونصيحة من قولهم أرض واصمة أي متصلة النبات ، يقال قدمت إليه بكذا إذا أمرته قبل وقت الحاجة إلى الفعل ، (سيد ذو الفقار أحمد).

سورة الهمزة

هي تسع آيات وهي مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت
بمكة وقال المحلي أو مدنية والاول اوله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَدَ لَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمْدٍ مُّمدَّدةٍ ﴿٩﴾

﴿ويل﴾ هو مرتفع على الابتداء ، وسوغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم ، وخبره ﴿لكل همزة لمزة﴾ والمعنى خزي أو عذاب أو هلكة أو واد في جهنم لكل همزة لمزة ، والتاء فيهما للمبالغة في الوصف ، وقد أطرده أن بناء فعلة لمبالغة الفاعل أي المكثّر لمأخذ الاشتقاق ، وإذا سكنت العين يكون لمبالغة المفعول ، يقال رجل لعنة بفتح العين لمن كان يكثر لعن غيره ، ولعنة بسكون العين إذا كان ملعوناً للناس يكثرون لعنه :

قال أبو عبيدة والزجاج الهمزة اللزمة الذي يغتاب الناس ، وعلى هذا هما بمعنى ، وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح (الهمزة) الذي يغتاب الرجل في وجهه ﴿واللزمة﴾ الذي يغتابه من خلفه ، وقال قتادة عكس هذا ، وروي عن قتادة ومجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يغتاب الناس في أنسابهم وعن مجاهد أيضاً أن الهمزة الذي يهمز الناس بيده ، واللزمة الذي يلزمهم بلسانه .

وقال سفيان الثوري يهمزهم بلسانه ويلزمهم بعينه ، وقال ابن كيسان الهمزة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ واللزمة الذي يكسر عينه على جلسائه ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، وقيل هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون العيب للبريء .

وحاصل هذه الأقاويل يرجع الى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ،

ويدخل في ذلك من يحاكي الناس في أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه . والأولى أولى .

وأصل الهمزة الكسر يقال همز رأسه كسره ، وقيل أصل الهمز واللمز الضرب والدفع ، يقال همزه يهمزه همزاً ولمزه يلمزه لمزاً اذا دفعه وضربه .

قرأ الجمهور يقال همزة لمزة بضم أولهما وفتح الميم فيهما ، وقرئ بسكون الميم فيهما وقرأ أبو وائل والنخعي والأعمش ﴿ ويل للهمزة اللزمة ﴾ والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك ولا ينافيه نزولها على سبب خاص ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وعن ابن عباس أنه سئل عن همزة لمزة قال : هو المشاء بالنميمة المفرق بين الجمع المغري بين الأخوان ، وعنه قال همزة طعان ولمزة مغتاب .

وقوله ﴿ الذي جمع مالا وعدده ﴾ يدل من كل ، أو في محل نصب على الذم ، وهذا أرجح لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح أو تعليل لما قبله ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز وهو اعجابه بما جمع من المال ، وظنه انه الفضل فلاجل ذلك يتنقص غيره .

قرأ الجمهور جمع مخففاً وقرئ مثقلاً . قال الرازي الفرق أن التشديد يفيد انه جمعه من ههنا ومن ههنا ولم يجمعه في يوم واحد ، ولا في يومين ، ولا في شهر ولا في شهرين ، وان التخفيف لا يفيد ذلك ، ونكر ﴿ مالا ﴾ للتعظيم اي مالا بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به .

وقرأ الجمهور ﴿ وعدده ﴾ مشدداً وقرئ بالتخفيف والتشديد في الكلمتين يدل على التكثير ، وهو جمع الشيء بعد الشيء وتعددته مرة بعد أخرى ، قال الفراء معنى عدده أحصاه فهو مأخوذ من العد ، وقال الزجاج

وعدده لنوائب الدهور يقال أعددت الشيء وعددته اذا أمسكته ، قال السدي أحصى عدده ، وقال الضحاك أعد ماله لمن يرثه ، وقيل المعنى فاخر بكثرته وعدده .

والمقصود ذمه على جمع المال وإمساكه وعدم انفاقه في سبل الخير ، وقيل المعنى على قراءة التخفيف في عدده أنه جمع عشيرته وأقاربه ، قال المهدي من خفف وعدده فهو معطوف على المال أي وجمع عدده .

وجملة ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ مستأنفة لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال من فاعل جمع أي يعمل عمل من يظن أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت ، وأخلده ماضٍ معناه المضارع أي يخلده ، وقال عكرمة يحسب أن ماله يزيد في عمره .

والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ ، وقيل هو تعريض بالعمل الصالح وانه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال ، والخلد بالضم البقاء والدوام وبابه دخل ، وأخلده الله وخلد تخليداً .

﴿ كلا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان أي ليس الأمر كما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده أو معناه حقاً ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ اللام جواب قسم محذوف أي ليطرحن في النار وليلقين فيها . قرأ الجمهور لينبذن وقرئ لينبذان بالثنية أي لينبذ هو وماله في النار ، وقرئ لينبذن أي لينبذن ماله في النار .

والمعنى تحطم وتكسر كل ما بقي فيها ففي الحطمة مماثلة لعمله لفظاً ومعنى لأنها على وزن همزة لمزة وفيهما كسر كما فيها ، وحطمة من باب ضرب ، والتحطيم التكسير والحطمة من أسماء النار لأنها تحطم ما تلتقم .

﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول ، وتبلغه الأفهام ، قيل هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم وقيل الطبقة الثانية منها ، وقيل الطبقة الرابعة .

ثم بيّنها سبحانه فقال ﴿ نار الله الموقدة ﴾ بأمر الله سبحانه التي لا تخمد أبداً ووجب وتحتم إيقادها ، وفي إضافتها الى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك في وصفها بالايقاد .

﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ أي يخلص حرها الى القلوب فيعلوها ويغشاها ، وخص الأفئدة بالذكر مع كونها تغشى جميع أبدانهم لأنها محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة ، او لكون الألم اذا وصل اليها مات صاحبها لأن الفؤاد الطف ما في الجسد وأشد تألماً بأذى يمسّه أي أنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وقيل المعنى انها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد من العذاب وذلك بأمارات عرفها الله بها .

﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة مغلقة كما تقدم بيانه في سورة البلد ، يقال أصدت الباب اذا أغلقته ، وقال ابن عباس مطبقة ، وجمع الضمير في عليهم رعاية لمعنى كل .

﴿ في عمد ممددة ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في عليهم أي كائنين في عمد ممددة موثقين فيها أو في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم في عمد أو صفة لمؤصدة أي مؤصدة بعمد ممددة .

قال مقاتل أطبقت الأبواب عليهم ثم شدت بأوتاد من حديد فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم روح .

ومعنى كون العمدة ممددة أنها مطولة وهي أرسخ من القصيرة ، وقيل العمد أغلال في جهنم ، وقيل القيود ، وقال قتادة المعنى هم في عمد يعذبون بها ، واختار هذا ابن جرير .

قرأ الجمهور عمد بفتح العين والميم ، وقيل هو اسم جمع لعمود ، وقيل جمع له ، قال الفراء هي جمع لعمود كأديم وأدم ، وقال أبو عبيدة هي جمع عماد .

وقرىء بضم العين والميم جمع عمود ، قال الفراء هما جمعان صحيحان لعمود ، واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة الجمهور .

قال الجوهري : العمود عمود البيت وجمع القلة أعمدة وجمع الكثرة عمد وعمد ، وقرىء بهما وهما سبعيتان .

قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، قال ابن عباس عمد من نار ، وقال ابن مسعود هي الأدهم ، وعن ابن عباس أيضاً الأبواب هي الممددة ، وعنه قال أدخلهم في عمد فمدت عليهم في أعناقهم فسدت بها الأبواب .

قال ابن جزي : المعنى أن أبواب جهنم أغلقت عليهم بعمد ممدودة على أبوابها تشديداً في الاغلاق ، وقيل معناه في دهر ممدود أي لا انقطاع له ، قال القشيري أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار تشد تلك الأطباق حتى يرجع عليهم غمها وحرها فلا يدخل عليهم روح .

سورة الفيل

هي خمس آيات وهي مكية بلا خلاف . قال ابن عباس نزلت

بمكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ
عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَأْكُولٍ ﴿٥﴾

﴿ألم تر كيف فعل ربك﴾ الاستفهام بتقرير رؤيته صلى الله عليه وسلم بإنكار
عدمها ، والمراد بالرؤية هنا رؤية القلب ، وهي العلم عبر عنه بالرؤية لكونه
علماً ضرورياً مساوياً في القوة والجلالة للمشاهدة والعيان ، وحذفت الألف من
﴿تر﴾ للجازم ، قال الفراء المعنى ألم تخبر ، وقال الزجاج ألم تعلم .

وهو تعجيب له صلى الله عليه وآله وسلم بما فعله الله ﴿بأصحاب
الفيل﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة ، وكيف منصوب على
المصدرية أو الحالية واختار الأول ابن هشام في المغني ، والمعنى أي فعل
فعل .

وأما نصبه على الحالية من الفاعل فممتنع لأن فيه وصفه تعالى بالكيفية
وهو غير جائز ، والجملة سدت مسد مفعولي ترى ، والخطاب لرسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم ، ويجوز أن يكون لكل من يصلح له .

والمعنى قد علمت يا محمد أو علم الناس الموجودون في عصرك ومن
بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل ، وما فعل الله
بهم ، فما لكم لا تؤمنون ، وصاحب الأفيال أبرهة ملك اليمن واسمه الأشرم
سمي بذلك لأن أباه ضربه بحربة فشرم أنفه وجبينه ، قال القرطبي ، وأبرهة
لقب لكل من فيه بياض وكان نصرانياً .

والفيل هو الحيوان المعروف وجمعه فيول وأفيال وفيلة . وقال ابن

السكيت ولا تقول أفيلة وصاحبه فيال وكانت الفيلة ثلاثة عشر ، وإنما وحده لأنه نسبهم الى الفيل الأعظم الذي كان يقال له محمود وهو الذي برك وضرب في رأسه ، وقيل انما وحده موافقة لرؤوس الآي .

وعن ابن عباس قال : « جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح فأتاهم عبد المطلب فقال إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحد قالوا لا نرجع حتى نهدمه ، وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر فدعا الله الطير الأبائيل فأعطاهما حجارة سوداء عليها الطين فلما حاذتهم رمتهما فما بقي منهم أحد إلا أخذته الحكة وكان لا يحك الانسان منهم جلده الا تساقط لحمه »^(١) أخرجه ابن المنذر وعبد بن حميد وأبو نعيم والبيهقي .

﴿ ألم يجعل كيدهم ﴾ أي مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة وهدمها واستباحة أهلها ﴿ في تضليل ﴾ أي في خسارة وهلاك عما قصدوا اليه حتى لم يصلوا الى البيت ولا الى ما أرادوا بكيدهم ، والهمزة للتقرير ، كأنه قيل قد جعل كيدهم في تضليل .

والكيد هو إرادة المضرة بالغير ، لأنهم أرادوا أن يكيّدوا قريشاً بالقتل والسبي . ويكيّدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم .

قال ابن عباس « أقبل أصحاب الفيل حتى اذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم ما جاء بك إلينا ألا بعثت فنأتيك بكل شيء فقال أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله احد إلا أمن فجئت أخيف أهله ، فقال إنا نأتيك بكل شيء تريد . فارجع فأبى إلا أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلمت طير أبائيل التي قال الله ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ فجعل الفيل يعج عجباً ﴿ فجعلهم كعصف

مأكول ﴿١﴾ أخرجه البيهقي وابن المنذر والحاكم وغيرهم ، وقصة أصحاب الفيل مبسوبة في كتب التفسير والتاريخ والسير فلا نطول بذكرها .

﴿ وأرسل عليهم ﴾ عطف على ﴿ ألم يجعل ﴾ لأن الاستفهام فيه للتقرير فكان المعنى قد جعل ذلك وأرسل ﴿ طيراً ﴾ هو اسم جنس يذكر ويؤنث ﴿ أبابيل ﴾ نعت لطير لأنه اسم جمع أي أقاطيع يتبع بعضها بعضاً كالابل المؤبلة ، فرجعوا هاربين يتساقطون بكل طريق . وكان هلاكهم قرب عرفة قبل دخول الحرم على الأصح .

وقال جماعة : بوادي محسر بين مزدلفة ومنى ، قاله ابن حجر ، قال ابو عبيدة : أبابيل جماعات في تفرقة يقال جاءت الخيل أبابيل أي جماعات من ههنا وههنا ، قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان يؤبل على فلان أي يعظم عليه ويكبره ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له ، وقال بعضهم واحده إبول بكسر الهمزة مثل عجول ، وقال بعضهم إبيل كسكين .

قال الواحدي : ولم نر أحداً يجعل لها واحداً ، قال الفراء : لا واحد له من لفظه ، وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدتها إبالة مشدداً ، وحكى الفراء : أيضاً إبالة بالتخفيف .

(١) ذكر أهل التفسير أن أبرهة لما سار بجنوده إلى الكعبة ليهدمها خرج معه بالفيل ، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نعم الناس ، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ، وبعث بعض جنوده ، فقال : شب عن شريف مكة ، وأخبره أنني لم آت لقتال ، وإنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق حتى دخل مكة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم ، فقال : إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقتلوه ، وإنما جاء لهدم هذا البيت ، ثم ينصرف عنكم ، فقال عبد المطلب : ما له عندنا قتال ، وما لنا به يد ، إنا سنخلى بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه ، فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبين ذلك ، فوالله ما لنا به قوة . قال : فانطلق معي إلى الملك ، فلما دخل عبد المطلب على أبرهة أعظمه ، وكرمه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك إلى الملك ؟ فقال له الترجمان ، فقال : حاجتي أن يرد عليّ أصحابها . فقال أبرهة لترجمانه : . . .

قال سعيد بن جبير كانت طيرا من السماء لم يرقبها ولا بعدها قال قتادة هي طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجله وحجر في منقاره لا يصب شيئاً إلا هشمه ، وقيل كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع .

وقيل كان لها خراطيم كخراطيم الطير . وأكف كأكف الكلاب ، وقيل أنها العنقاء المغرب التي تضرب بها الأمثال ، وقيل في صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبايل في الطير وفي غير الطير .

ولما تم هلاكهم رجعت الطير من حيث جاءت .

﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ قرأ الجمهور بالفوقية ، وقرأ أبو حنيفة وأبو معمر وعيسى وطلحة بالتحية واسم الجمع يذكر ويؤنث . وقيل الضمير في القراءة الثانية لله عز وجل والجملة في محل نصب صفة أخرى لطير .

قال الزجاج ﴿ من سجيل ﴾ أي مما كتب عليهم العذاب به مشتقاً من السجل .

قال في الصحاح قالوا هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم وأصله سنك وكل ، وقيل السجيل الشديد ، وقال عبد الرحمن بن أبيزي من سجيل من السماء وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط وقيل من الجحيم التي هي سجين ، ثم أبدلت النون لاماً ، قال عكرمة كانت ترميهم بحجارة معها فاذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدرى . وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة ، وقد قدمنا الكلام في سجيل في سورة هود .

وعن ابن عباس قال حجارة كالبنديق وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجله وحجر في منقاره حلقت عليهم من السماء ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة فلم تعد عسكرهم ، وعنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبايل يريد مجتمعة لها

خرطومهم تحمل حصاتين في رجليها وحصاة في منقارها ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه ، ويبقى عظماً خاوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع اذا أكلته الدواب فرمت به من اسفل ، شبه لقطع أوصالهم بتفريق أجزائه ، وقيل المعنى أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدواب وبقي منه بقايا أو أكلت حبه فبقي بدون حبه والعصف جمع عصفه وعصافة وعصيفة وقد قدمنا الكلام في العصف في سورة الرحمن فارجع اليه .

قال ابن عباس يقول كالتبن ، وعن عائشة قالت لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان ونحوه عن أسماء بنت أبي بكر .

وعن ابن عباس قال ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل ، قال القرطبي أي قبل مولده لخمسین يوماً ، قال الخازن وهذا هو القول الأصح فإنهم يقولون ولد عام الفيل ، ويجعلونه تاريخاً لمولده صلى الله عليه وآله وسلم .

وعن قيس بن محرم قال ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام الفيل ، وقيل كان عام الفيل قبل ولادته صلى الله عليه وآله وسلم بأربعين سنة ، وقيل بثلاث وعشرين سنة ، وقيل غير ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة قريش

ويقال سورة لايلاف هي أربع آيات وهي مكية عند الجمهور، وقال الضحاك والكلبي هي مدنية والاول أصح. قال ابن عباس نزلت بمكة. وعن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ولا يعطيها أحداً بعدهم أني فيهم، وفي لفظ النبوة فيهم والخلافة فيهم والحجبة فيهم. والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل وعبدوا الله سبع سنين. وفي لفظ عشر سنين لم يعبدوه أحد غيرهم. ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لايلاف قريش» أخرجه البخاري في تاريخه والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي.

قال ابن كثير هو حديث غريب ويشهد له ما أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوام قال: قال رسول

اللّٰه صلّى اللّٰه عليه وسلم « فضل اللّٰه قريشاً بسبع خصال : فضلهم بأنهم عبدوا اللّٰه عشر سنين لا يعبدوا الا قرشي . وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون . وفضلهم بأنها نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم وهي لآيلاف قريش . وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والسقاية » .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب مرفوعاً نحوه وهو مرسل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قَرِيشٌ ﴿١﴾ إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا
الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

﴿لا يلاف قريش﴾ اللام قيل متعلقة بآخر السورة التي قبلها كأنه قال سبحانه أهلك أصحاب الفيل لأجل تألف قريش ، قال الفراء هذه السورة متصلة بالسورة الأولى لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال لا يلاف قريش ، أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك ان قريشاً كانت تخرج في تجارتها فلا يغار عليها في الجاهلية ، يقولون هم أهل بيت الله عز وجل حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيني بها بيتاً في اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله عز وجل ، فذكرهم نعمته ؛ أي فعل ذلك لا يلاف قريش أي ليألفوا الخروج ولا يجترئ عليهم ؛ وذكر هذا ابن قتيبة .

قال الزجاج : والمعنى فجعلهم كعصف مأكول لا يلاف قريش ، أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ولهذا جعل أبي بن كعب هذه السورة وسورة الفيل واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة .

والذي عليه الجمهور من الصحابة وغيرهم وهو المستفيض المشهور أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل وأنه لا تعلق بينهما .

وقال في الكشف ان اللام متعلقة بقوله ﴿فليعبدوا﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلاف الرحلتين ، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى إما لا فليعبدوه .

وقد تقدم صاحب الكشف الى هذا القول الخليل بن أحمد ؛ والمعنى ان لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة ، وقال الكسائي والأخفش : اللام لام العجب أي إعجبوا لا يلاف قريش وقيل هي بمعنى الى وقرىء لإلف وقرىء ليألف بفتح اللام على أنها لام الأمر ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود وفتح لام الأمر لغة معروفة .

قال سليمان الجمل قرأ ابن عامر لإلاف قريش دون ياء قبل اللام الثانية والباقون لإيلاف بياء قبلها ، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني وهو إيلافهم .

ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين ان القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على اثباتها خطأ واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطأ فهو أدل دليل على أن القراء متبعون الأثر والرواية لا مجرد الخط انتهى .

وقريش هم بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ومن لم يلد النضر فليس بقرشي ، وقريش يأتي منصرفاً إن أريد به الحي ، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ، وقيل إن قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر والأول أصح .

وقوله ﴿إيلافهم﴾ تأكيد لفظي ولذلك اتصل بضمير ما أضيف اليه الأول وقيل هو بدل لأنه أطلق المبدل منه وقيد البدل بالمفعول وهو قوله ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ لما فيه من الابهام في المبدل منه ثم التبيين في البدل ، وإنما أفرد الرحلة ولم يقل رحلتي الشتاء لأمن الإلباس ، وقيل إن رحلة منصوبة بمصدر مقدر أي ارتحالهم رحلة الشتاء وقيل منصوبة على الظرفية والرحلة الارتحال وكانت إحدى الرحلتين الى اليمن في الشتاء لأنها بلاد حارة ، والرحلة الأخرى الى الشام في الصيف لأنها بلاد باردة ، وروي أنهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون في الطائف والأول أولى فان ارتحال قريش للتجارة

معلوم معروف في الجاهلية والاسلام .

قال ابن قتيبة إنما كانت تعيش قريش بالتجارة ، وكانت لهم رحلتان كل سنة رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى الشام ، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام ، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدرُوا على التصرف .

قال ابن عباس في الآية نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف ، وعنه قال إيلافهم لزومهم ، وقيل رحلة اسم جنس وكانت لهم أربع رحلات وجعله بعضهم غلطاً ، وليس كذلك وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف .

﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم أي إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة ، والبيت الكعبة وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها ، فميز نفسه عنها وقيل لأنهم شرفوا بالبيت على سائر العرب فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته .

﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وقيل إن هذا الاطعام هو إنهم لما كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال اللهم إجعلها عليهم سنين كسني يوسف ، فاشتد القحط فقالوا يا محمد ادع الله لنا فإننا مؤمنون فدعا فأخصبوا وزال عنهم الجوع وارتفع القحط ، قال ابن عباس يعني قريشاً أهل مكة بدعوة ابراهيم حيث قال ﴿ وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أي من خوف شديد كانوا فيه ، قال ابن زيد كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم .

وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان آمنهم من خوف الحبشة مع

الفيل ، وقال ابن عباس من الجذام وعنه في الآية قال آمنهم من خوف حيث قال ابراهيم ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ قال ابن عباس نهاهم عن الرحلة وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف ولم تكن لهم راحة في شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع وآمنهم من خوف ، وكان ذلك من نعمة الله عليهم ، وعنه قال أمروا أن يألّفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف .

وقد وردت أحاديث في فضل قریش وإن الناس تبع لهم في الخير والشر ، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان وهي في دواوين الاسلام .

سورة أرايت

ويقال لها سورة الدين وسورة الماعون وسورة اليتيم وهي ست أو سبع آيات وهي مكية في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس . ومدنية في قول قتادة وآخرين . وعن ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله . وقيل نصفها الأول مكّي ونصفها الثاني مدني . والأول في العاص بن وائل والثاني في عبد الله بن أبيّ ابن سلول . وقال مقاتل والكلبي نزلت في العاص بن وائل السهمي . وقال السدي في الوليد بن المغيرة . وقال الضحاك في عمرو بن عائذ وقال ابن جريج في أبي سفيان . وقيل في رجل من المنافقين .

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾
وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿أرأيت﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له ، والاستفهام لقصد التعجب من حال ﴿الذي يكذب بالدين﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة . وقال ابن عباس بحكم الله .

قرأ الجمهور أرأيت بإثبات الهمزة الثانية وقرئ بإسقاطها ، قال الزجاج : لا يقال في رأيت ريت ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة الفاء ، والرؤية بمعنى المعرفة وقيل هي البصرية فتعدي الى مفعول واحد ، وهو الموصول أي أبصرت المكذب وقيل إنها بمعنى أخبرني فتعدي الى مفعولين الثاني محذوف أي من هو ، والأول أولى ، قيل وفي الكلام حذف والمعنى ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾ أمصيب هو أم مخطيء .

﴿فذالك الذي يدع اليتيم﴾ الفاء جواب شرط مقدر أي إن تأملت أو طلبته فذلك الخ ويجوز ان تكون عاطفة على الذي يكذب إما عطف ذات على ذات أو صفة على صفة ، فعلى الأول يكون اسم الإشارة مبتدأ وخبره الموصول أو خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ذلك والموصول صفته ، وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب ، ومعنى يدع يدفع دفعاً بعنف وجفوة أي يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً ، ومنه قوله سبحانه ﴿يوم يدعون الى نار جهنم دعاً﴾ وقد كانوا لا يورثون النساء والصبيان ، قال ابن عباس يدفعه عن حقه .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم على ذلك بخلاً بالمال أو تكديماً للجزاء ، وهو مثل قوله في سورة الحاقة ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ .

﴿ فويل للمصلين ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل اذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين فويل لهم ، ووضع المصلين موضع لهم للتوسل بذلك الى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما ذكر ، والمعنى عذاب لهم أو هلاك أو واد في جهنم لهم كما سبق الخلاف في معنى الويل ، ويجوز أن يكون الفاء لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم .

﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أي غافلون غير مباليين . وإنما عبر بعن دون في لأن صلاة المؤمن لا تخلو عن سهو بدليل وقوعه للأنبياء ولأن المراد السهو عن الصلاة بتأخيرها عن وقتها لا السهو فيها .

قال الواحدي نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً ان صلوا ولا يخافون عليها عقاباً ان تركوا فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، واذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء واذا لم يكونوا معهم لم يصلوا .

قال النخعي الذي هم عن صلاتهم ساهون هو الذي اذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً . وقال قطرب هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله ؛ وقرأ ابن مسعود لاهون مكان ساهون قال ابن عباس هم المنافقون يتركون الصلاة في السر ويصلون في العلانية .

عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبي رأيت قول الله ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أين لا يسهو أين لا يحدث نفسه ، قال إنه ليس كذلك إنه إضاعة الوقت .

وعن سعد بن أبي وقاص قال سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الآية قال « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها » قال الحاكم والبيهقي الموقوف

أصح إسناداً ، قال ابن كثير : ضعف البيهقي رفعه وصحح وقفه وكذلك الحاكم .

وعن أبي برزة الأسلمي قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الله أكبر هذه الآية خير لكم من أن يعطي كل رجل منكم جميع الدنيا هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته . وإن تركها لم يخف ربه » رآه ابن جرير وابن مردويه ، قال السيوطي بسند ضعيف ففي اسناده جابر الجعفي وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسم ، وعن ابن عباس قال هم الذين يؤخرونها عن وقتها .

﴿ الذين هم يراؤون ﴾ الناس بصلاتهم إن صلوا أو يراؤون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثبوا عليهم ، قال ابن عباس هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ، قال الخازن أما من يظهر النوافل ليقتدى به ويأمن على نفسه من الرياء فلا بأس بذلك وليس بمراء .

﴿ ويمنعون ﴾ الناس أو الطالبين ﴿ الماعون ﴾ فاعول من المعن الشيء وهو القليل يقال مال معن أي قليل ، قاله قطرب ، أو اسم مفعول من عانه يعينه ، والأصل معوون ، وكان من حقه على هذا ان يقال معون ، كمصون ومقول اسمي مفعول من صان وقال ، ولكنه قلبت الكلمة بأن قدمت عيناً على فائها فصار موعون ، ثم قلبت الواو الأولى ألفاً فوزنه الآن معقول .

قال أكثر المفسرين : الماعون اسم لما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفاس والقدر ، وما لا يمنع كالماء والملح ، وقيل هو الزكاة أي يمنعون زكاة أموالهم ، قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفاس والدلو والقدر والقادحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير .

وقالوا أيضاً الماعون في الاسلام الطاعة والزكاة ، وقال الفراء سمعت بعض العرب يقول الماعون الماء ، وقيل الماعون هو الحق على العبد على العموم ، وقيل هو المستقل من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن وهو القليل .

قال قطرب أصل الماعون من القلة والمعن الشيء القليل فسمى الله الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير ، وقيل هو ما يبخل به كالماء والملح والنار .

وعن ابن مسعود قال « كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عارية الدلو والقدر والفاس والميزان وما تتعاطون بينكم » وعنه قال « كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفاس وشبهه فيمنعونهم فانزل الله ويمنعون الماعون .

وعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال « ما تعاور الناس بينهم الفاس والقدر والدلو وأشباهه » أخرجه ابو نعيم والديلمي وابن عساكر .

وعن قره بن دعموص النمري أنهم وفدوا الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا يا رسول الله ما تعهد الينا قال « لا تمنعوا الماعون قالوا وما الماعون قال في الحجر والحديدة وفي الماء قالوا فأبي الحديدية قال قدركم النحاس ، وحديد الفاس الذي تمتهنون به ، قالوا وما الحجر ، قال قدوركم الحجارة » أخرجه ابن ابي حاتم وابن مردويه . قال ابن كثير غريب جداً ورفع منكر ، وفي إسناده من لا يعرف .

وعن سعيد بن عياض عن اصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الماعون الفاس والقدر والدلو وقال ابن عباس عارية متاع البيت ، وعن علي ابن أبي طالب قال الماعون الزكاة المفروضة يراؤون بصلاتهم ويمنعون زكاتهم .

سورة الكوثر

وتسمى سورة النحر هي ثلاث آيات وهي مكية في قول
ابن عباس والكلبي ومقاتل ومدينة في قول الحسن وعكرمة ومجاهد
وقتادة . وعن ابن عباس وابن الزبير وعائشة انها نزلت سورة الكوثر
بمكة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ قرأ الجمهور هكذا ، وقرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفراني أنطيناك بالنون قيل هي لغة العرب العاربة أي قضينا لك وخصصناك به فهو لك ولأمتك من قبل وجودك وإن لم تستول عليه وتتصرف فيه إلا في القيامة ، فالعطاء ناجز والتمكن والاستيلاء مستقبل ، والكوثر فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر ، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو القدر أو الخطر كوثرًا .

فالمعنى على هذا إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّد الْخَيْر الكثير البالغ في الكثرة الى الغاية ، وذهب اكثر المفسرين كما حكاه الواحدي الى أن الكوثر نهر في الجنة ، وقيل هو حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الموقف ، قاله عطاء وقال عكرمة الكوثر النبوة ، وقال الحسن هو القرآن وقال الحسن بن الفضل هو تفسير القرآن وتخفيف الشرائع .

وقال ابو بكر بن عياش هو كثرة الأصحاب والأمة ، وقال ابن كيسان هو الايثار ، وقيل هو الاسلام ، وقيل رفعة الذكر ، وقيل نور القلب ، وقيل الشفاعة ، وقيل المعجزات ، وقيل إجابة الدعوة ، وقيل لا إله إلا الله وقيل الفقه في الدين ، وقيل الصلوات الخمس ، وسيأتي بيان ما هو الحق .

وعن أنس قال أغفى رسول الله إغفاءة فرفع رأسه متبسماً فقال : « إنه أنزل عليّ آناً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، حتى ختمها قال هل تدرؤن ما الكوثر ، قالوا الله ورسوله أعلم ، قال هو نهر أعطانيه

ربي في الجنة عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته كعدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك » أخرجه احمد وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه ، وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه^(١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك أذفر ، قلت ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا الكوثر الذي أعطاه الله » أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما^(٢) .

وقد روي عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذي في الجنة ، وعن عائشة قالت هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم في بطنان الجنة ، وعن ابن عباس انه نهر في الجنة وعن حذيفة قال « نهر في الجنة » وحسن السيوطي إسناده .

وعن أسامة بن زيد مرفوعاً أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر فقال أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ ، هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » أخرجه ابن مردويه .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكوثر ؟ قال « هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله » أخرجه ابن مردويه .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » بهذا اللفظ في كتاب الرقاق ، باب الخوض ٤١٢/١١ وشك الراوي في آخره ، وهو (هذبة بن خالد) في رواية ، « فإذا طينه أو طيبه » قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤١٢/١١ : أراد بذلك أن أبا الوليد لم يشك في روايته ، أنه بالنون ، وهو المعتمد . قال : وتقدم في تفسير سورة الكوثر من طريق شيبان عن قتادة : فأهوى الملك بيده فاستخرج من طينه مسكاً أذفر . والأذفر : طيب الريح .

(٢) أي ليلة الإسراء ، كما في رواية البخاري في التفسير ٥٦٢/٨ : عن أنس رضي الله عنه قال : لما عرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال : « أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » .

فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة فيتعين المصير إليها ، وعدم التعويل على غيرها ، وإن كان معنى الكوثر هو الخير الكثير في لغة العرب ، فمن فسر به بما هو أعم مما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو تفسير ناظر الى المعنى اللغوي كما أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجة وغيرهم عن عطاء بن السائب قال : قال محارب بن دثار قال سعيد بن عبيد في الكوثر قلت حدثنا عن ابن عباس انه قال هو الخير الكثير فقال صدق انه للخير الكثير ، ولكن حدثنا ابن عمر قال نزلت إنا أعطيناك الكوثر فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب يجري على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل »

وأخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر هو الخير الذي أعطاه الله إياه ، قال ابو بشر قلت لسعيد ابن جبير فان ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة قال النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .

وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ناظر الى المعنى اللغوي كما عرفناك ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فسر به فيما صح عنه أنه النهر الذي في الجنة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

قال القرطبي أصح هذه الأقوال أنه النهر أو الحوض لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصاً في الكوثر .

قال القاضي عياض : أحاديث الحوض صحيحة والإيمان به فرض والتصديق به من الإيمان وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة ، وقد جمع ذلك كله البيهقي في كتابه البعث والنشور بأسانيده وطرقه المتكاثرة .

وذهب صاحب القوت وغيره الى أن حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم إنما هو بعد الصراط ، والصحيح أن له صلى الله عليه وآله وسلم حوضين وكلاهما يسمى كوثراً .

واختلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر ف قيل الميزان وقيل الحوض قال ابو الحسن الفاسي والصحيح ان الحوض قبل .

قلت والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون من قبورهم عطاشاً فيقدم قبل الصراط والميزان والله أعلم .

﴿ فصل لربك ﴾ وكان الظاهر ان يقول لنا فانتقل الى الاسم المظهر على طريق الالتفات لأنه يوجب عظمة ومهابة ، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة ، قال ابن عباس الصلاة المكتوبة وقيل صلاة عيد النحر ، وهذا يناسب كونها مدنية ، والأول يناسب كونها مكية .

﴿ وانحر ﴾ البدن التي هي خيار اموال العرب ، قال محمد بن كعب : أن ناساً كانوا يصلون لغير الله وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون صلاته ونحره له ، وقال قتادة وعطاء وعكرمة المراد صلاة العيد ونحر الأضحية ، وقال سعيد بن جبير : صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع ، وانحر البدن في منى .

وقيل النحر وضع اليمينى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر ، قاله محمد بن كعب ، وقيل هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة الى حذاء نحره ، وقيل هو أن يستقبل القبلة بنحره ، قاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص ، قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول نتناحر أي نتقابل نحر هذا الى نحر هذا أي قبالته .

وقال ابن الأعرابي هو انتصاب الرجل في الصلاة بازاء المحراب ، من قولهم : منازلهم تتناحر أي تتقابل ، وروي عن عطاء أنه قال أمره أن يستوي بين السجدين جالساً حتى يبدو نحره ، وقال سليمان التيمي المعنى وارفع

يديك بالدعاء الى نحرك .

وظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه وآله وسلم بمطلق الصلاة ومطلق النحر ، وأن يجعلهما لله عز وجل لا لغيره ، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو في حكم المقيد له .

عن علي بن أبي طالب قال لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لجبريل « ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ، فقال إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك اذا تحرمت للصلاة ان ترفع يديك اذا كبرت واذا ركعت واذا رفعت رأسك من الركوع فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وان لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله ﴿ فما استكانوا لرهبهم وما يتضرعون ﴾ » أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه وهو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصبع بن نباتة عن علي .

وعن ابن عباس في الآية قال إن الله أوحى الى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن ارفع يديك حذاء نحرك اذا كبرت للصلاة ، فذاك النحر ، وعن علي في الآية قال : « وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعهما على صدره في الصلاة » وعن أنس « عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثله » أخرجه أبو الشيخ والبيهقي في سننه .

وعن ابن عباس أيضاً اذا صليت فرفعت رأسك من الركوع فاستوق قائماً ، وعنه قال هو الذبح يوم الأضحى يقول اذبح يوم النحر .

﴿ إن شانتك هو الأبر ﴾ أي مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم ، فيعم خيري الدنيا والآخرة ، أو الذي لا عقب له أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته .

وظاهر الآية العموم ، وإن هذا شأن كل من يبغض النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وسلم ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل كما سيأتي
فلا اعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما مر غير مرة .

قيل كان أهل الجاهلية اذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا قد بتر
فلان ، فلما مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابراهيم خرج أبو جهل
الى أصحابه فقال بتر محمد ، فنزلت الآية ، وقيل القائل بذلك عقبة بن أبي
معيط .

قال أهل اللغة الأبر من الرجال الذي لا ولد له ، ومن الدواب الذي لا
ذنب له ، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبر ، وأصل البتر القطع ، يقال
بترت الشيء بترأً قطعته ، وفي المختار بتره قطعه قبل التمام ، وبابه نصر ،
والانبتار الانقطاع ، والأبر المقطوع الذنب ، وبابه طرب .

وعن ابن عباس قال : « قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش أنت
خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى الى هذا الصابىء المنبتر من قومه يزعم
أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة ، قال أنتم خير منه
فنزلت ﴿ إن شئت لك هو الأبر ﴾ ونزلت ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من
الكتاب الى قوله فلن تجد له نصيراً ﴾ » أخرجه البزار وابن أبي حاتم وابن
مردويه ، قال ابن كثير وإسناده صحيح .

وعن أبي أيوب قال : « لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، مشى المشركون بعضهم الى بعض فقالوا إن هذا الصابىء قد بتر
الليلة ، فأنزل الله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الى آخر السورة أخرجه الطبراني
وابن مردويه .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن
عباس قال « كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، القاسم ثم
زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية رضي الله تعالى عنهم ، فمات
القاسم وهو أول ميت من أهله وولده بمكة ، ثم مات عبد الله فقال العاص بن

وائل السهمي قد انقطع نسله فهو أوتر ، فأنزل الله ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ «
وفي اسناده الكلبي ، وعنه قال هو أبو جهل وعنه قال يقول عدوك وقيل ولد
القاسم ثم زينب ثم عبد الله قال الكلبي : ولدت زينب ثم القاسم ثم أم كلثوم
ثم فاطمة ثم رقية ثم عبد الله ، وكان يقال له الطيب والطاهر ، قال وهذا هو
الصحيح ، وغيره تخطئ .

سورة الكافرون

هـي ست آيات وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة .
ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك . وعن ابن الزبير أنها
نزلت بالمدينة .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر : « أن رسول الله صلى
الله عليه وآله وسلم . قرأ بهذه السورة وبقل هو الله أحد في ركعتي
الطواف » .

وفي مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم . قرأ بهما في ركعتي الفجر » . وعن ابن عمر قال : « أن رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم . قرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد
المغرب بضعاً وعشرين مرة أو بضع عشرة مرة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾
﴿ وقل هو الله أحد ﴾ . أخرجه أحمد والترمذي وحسنه والنسائي
وابن ماجه وابن حبان وابن مردويه .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبيّ قال : « كان رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم . يوتر بـ ﴿ سبح ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو
الله أحد ﴾ .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن . وكان يقرأ بهما في ركعتي الفجر . أخرجه محمد بن نصر والطبراني في الأوسط .

وعن نوفل بن معاوية الأشجعي أنه قال يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت لك فراشي قال اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك . أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله تقرأون قل يا أيها الكافرون عند منامكم » . أخرجه أبو يعلى والطبراني .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من لقى الله بسورتين فلا حساب عليه ﴾ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ﴾ . أخرجه ابن مردويه .

وعن خباب أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إذا أخذت مضجعتك فاقرا ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يأت فراشه قط إلا قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتك ختمها . أخرجه البزار والطبراني وابن مردويه . وفي الباب أحاديث كثيرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا
أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ
وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ الألف واللام للجنس ، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن سبق في علم الله أنه يموت على كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه .

وسبب نزول هذه السورة إن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة فأمره الله سبحانه أن يقول لهم ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي لا أفعل في الحال ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام . قيل والمراد فيما يستقبل من الزمان لأن لا النافية لا تدخل في الغالب إلا على المضارع الذي في معنى الاستقبال كما أن (ما) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال .

وذكر الحافظ ابن القيم في بدائع الفوائد عشر مسائل تحت هذه الآية وقال وقع (ما) فيها بدلاً عن (من) ومعناه أنتم لا تعبدون معبودي فالمقصود المعبود لا العبادة ، ولا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ (ما) لإيهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية انتهى .

عن ابن عباس : « أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء فإن لم تفعل فإننا نعرض

عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح ، قال ما هي ؟ قالوا تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، قال حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ إلى آخر السورة وأنزل الله ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ إلى قوله ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني .

وعن سعيد بن ميناء مولى أبي البختری قال : لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا ؛ « يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً ، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله هذه السورة » أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري .

وعن ابن عباس أن قريشاً قالت لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك فأنزل الله هذه السورة كلها .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أنتم فاعلمون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي .

قال الحافظ ابن القيم في البدائع : اشتمال هذه على النفي المحض خاصة هذه السورة العظيمة فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلقة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة ، هذا مع أنها متضمنة للاثبات صريحاً .

فقوله ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ براءة محضة ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ اثبات أن له معبوداً يعبدونه وأنهم بريئون من عبادته ، فتضمنت النفي والاثبات فطابقت قول امام الحنفاء ﴿ انني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني ﴾ وطابقت

قول الفئة الموحدين ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ، يقرأ بها وبقل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب ، فان هاتين السورتين سورتا الاخلاص ، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجا للعبد ولا فلاح إلا بهما وهما توحيد العمل والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وانه إله واحد صمد لم يلد ولم يولد .

والثاني توحيد القصد والارادة وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواء بل يكون وحده المعبود ، وهذه السورة مشتملة على هذا التوحيد انتهى .

﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه ، والمعنى أنه لم يعهد مني ذلك ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، كذا قيل ، وهذا على قول من قال انه لا تكرار في هذه الآيات لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قدمنا من أن (لا) لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال .

والدليل على ذلك أن لن تأكيد لما ينفيه (لا) قال الخليل في لن أن أصله (لا) فالمعنى لا أعبد ما تعبدون في المستقبل ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي .

ثم قال : ولا أنا عابد ما عبدتم أي ولست في الحال بعابد معبودكم ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي وقيل بعكس هذا ، وهو أن الجملتين الأوليتين للحال ، والجملتين الآخرتين للاستقبال بدليل قوله ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ كما لو قال القائل أنا ضارب زيداً وأنا قاتل عمراً ، فانه لا يفهم منه إلا الاستقبال .

قال الأخفش والفراء : المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ولا أنتم عابدون في

المستقبل ما أعبد .

قال الزجاج : نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بهذه السورة عبادة آلهم عن نفسه في الحال وفي المستقبل ، ونفى عنهم عبادة الله في الحال ، وفيما يستقبل ، وقيل ان كل واحد منهما يصلح للحال والاستقبال ولكننا نخص أحدهما بالحال والثاني بالاستقبال رفعاً للتكرار .

وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف ، فان جعل قوله لا أعبد ما تعبدون للاستقبال وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية ولكنه لا يتم جعل قوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ للاستقبال لأن الجملة الاسمية تفيد الدوام والثبات في كل الأوقات فدخل النفي عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام والثبات في كل الأوقات ، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ وفي قوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فلا يتم ما قيل من حمل الجملتين الأخرتين على الحال .

وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس لأن الجملة الثانية والثالثة والرابعة كلها جمل اسمية مصدرية بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيها بعده منفية كلها بحرف واحد وهو لفظ لا في كل واحد منها فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة .

وأما قول من قال ان كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال فهو إقرار منه بالتكرار ، لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى ، مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدل عليه دليل .

وإذا تقرر لك هذا فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التي لا تجحد ، واستعمالاتهم التي لا تنكر ، انهم إذا أرادوا التأكيد كرروا كما أن من مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا ، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب ، وهذا مما لا يحتاج الى إقامة البرهان عليه ، لأنه إنما

يستدل على ما فيه خفاء ، ويبرهن على ما هو متنازع فيه .

وأما ما كان من الوضوح والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شك ولا يرتاب فيه مرتاب ، فهو مستغن عن التطويل ، غير محتاج الى تكثير القول والقليل .

وقد وقع في القرآن الكريم من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن ، وربما يكثر في بعض السور كما في سورة الرحمن وسورة المرسلات ، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر .

وقد ثبت عن الصادق المصدوق صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات .

وإذا عرفت هذا ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم ، وإنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة لأنه يجوز ذلك كما في قوله سبحانه ما سخركن لنا ونحوه .

والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد ، ولا يختلف ، وقيل أنه أراد الصفة كأنه قال لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق ، وقيل أن (ما) في المواضع الأربعة هي المصدرية لا الموصولة أي لا أعبد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتي الخ .

وجملة ﴿ لكم دينكم ﴾ مستأنفة لتقرير قوله لا أعبد ما تعبدون وقوله ولا أنا عابد ما عبدتم كما أن قوله ﴿ ولي دين ﴾ تقرير لقوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ في الموضعين أي إن رضيتم بدينكم وشرككم فقد رضيت بديني وتوحيدي كما في قوله ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ والمعنى أن دينكم الذي هو الاشرار مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه الى الحصول لي كما تطمعون ، وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم .

وقيل المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي ، لأن الدين الجزاء .

قيل وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقيل ليست بمنسوخة لأنها اخبار ، والاخبار لا يدخلها النسخ ، وقيل السورة كلها منسوخة .

وقال القاضي : ﴿ ولي ديني ﴾ الذي أنا عليه لا أرفضه ، فليس فيه إذن في الكفر ، ولا منع عن الجهاد فلا يكون منسوخاً بآية القتال ، وقد فسر الدين بالحساب والجزاء والعبادة .

وقال الحافظ بن القيم في البدائع : وقد غلط في السورة خلأثق وظنوا انها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب ، وكلا القولين غلط محض فلا نسخ في السورة ولا تخصيص ، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ فيها .

وهذه السورة أخلصت للتوحيد ، ولهذا تسمى سورة الاخلاص ، والآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا أوافقكم عليه فانه دين باطل ، فهو مختص بكم لانشرركم فيه ، ولا تشركونا في ديننا الحق ، فهذا غاية البراءة والتصل من موافقتهم في دينهم ، فأين الاقرار حتى يدعى النسخ والتخصيص ؟ أفترى إذا جاهدوا بالسيف كما جاهدوا بالحجة لا يصح أن يقال لهم لكم دينكم ولي دين .

بل هذه الآية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يظهر الله منهم بلاده وعباده وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته إذ قال لهم خلفاء الرسول وذريته لكم دينكم ولنا ديننا هذا فلا يقتضي إقرارهم على بدعهم بل يقولون لهم هذا براءة منها وهم مع ذلك منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الامكان انتهى حاصله .

وقرأ الجمهور ﴿ولي﴾ بإسكان الياء وحذف الياء من (ديني) وصلاً ووقفاً ، وقرأء بفتح الياء من قوله لي وإثباتها من ديني وصلاً ووقفاً وقالوا لأنها إسم فلا تحذف ، ويجب أن حذفها لرعاية الفواصل سائغ وإن كانت اسماً ، ويجب أيضاً بأنها من ياءات الزوائد فيراعى فيه اتباع رسم المصحف ، وهي غير ثابتة فيه اكتفاء بالكسرة .

سورة النصر

وتسمى سورة التوديع ، وهي ثلاث آيات وهي مدنية بالاجماع بلا خلاف قال ابن عباس أنزل بالمدينة اذا جاء نصر الله والفتح وعن ابن عمر قال هذه السورة « نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع » ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختمها فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنها الوداع ، أخرجه البزار وأبو يعلى والبيهقي^(١) .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعت اليّ نفسي » أخرجه أحمد وغيره ، وزاد ابن مردويه في لفظ : وقرب اليّ أهلي ، وفي لفظ لما نزلت نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسه حين أنزلت فأخذ في أشد ما كان قط اجتهداً في أمر الآخرة .

وعن أم حبيبة قالت : « لما أنزل ﴿ اذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إن الله لم يبعث نبياً الا عمر من أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله ، فإن عيسى بن مريم كان أربعين سنة في بني اسرائيل وهذه لحد عشرون سنة وأنا ميت في هذه السنة فبكيت فاطمة رضي الله تعالى عنها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنت أول أهلي لي لحوقاً فتبسمت » أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه .

وعن ابن عباس قال لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فاطمة وقال : « إنه قد نعتني الله نفسي فبكيت ثم ضحكت . وقالت أخبرني أنه نعتني إليه نفسه فبكيت . فقال اصبري فانك أول أهلي لحاقاً بدي فضحكت » أخرجه البيهقي^(١) .

وتقدم في سورة الزلزلة أن هذه السورة تعدل ربع القرآن وهي آخر سورة نزلت جميعاً .

(١) روى البخاري في « صحيحه » ٥٦٥/٨ : عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليربهم ، قال : ماتقولون في قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وفي الحديث فضيلة ظاهرة لابن عباس ، وتأثير لإجابة دعوة النبي ﷺ أن يعلمه الله التأويل ويفقهه في الدين ، وفيه جواز تحديث المرء عن نفسه بمثل هذا ، لإظهار نعمة الله عليه ، وإعلام من لا يعرف قدره لينزله منزلته ، وغير ذلك من المقاصد الصالحة ، لا للمفاخرة والمباهاة ، وفيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات ، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم ، ولهذا قال علي رضي الله عنه : أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » رقم (٣٠٢٤) عن عبيد الله بن عتبة ، قال : قال لي ابن عباس : تعلم (وقال هارون : تدري) آخر سورة نزلت في القرآن ، نزلت جميعاً ؟ .

قلت : نعم ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : صدقت . قال مسلم : وفي رواية ابن أبي شيبه (أحد الرواة) : تعلم أي سورة ، ولم يقل : آخر . قال الحافظ في « الفتح » ٥٦٤/٨ : وأخرج النسائي من حديث ابن عباس أنها آخر سورة نزلت في القرآن . قال : وقد تقدم في تفسير (براءة) أنها آخر سورة نزلت ، قال : والجمع بينهما أن آخرية سورة النصر ، نزولها كاملة ، بخلاف (براءة) ، فالمراد نزول بعضها أو معظمها ، وإلا ففيها آيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النبوية ، وأوضح في ذلك أن أول (براءة) نزل عقب فتح مكة في سنة تسع عام حج أبي بكر ، وقد نزل (اليوم أكملت لكم دينكم) وهي في (المائدة) في حجة الوداع سنة عشر ، فالظاهر أن المراد معظمها ، ولا شك أن غالبها نزل في غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ
أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ النصر العون مأخوذ من قولهم قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها ، يقال نصره على عدوه ينصره نصرًا إذا أعانه ، والإسم النصره واستنصره على عدوه إذا سأل أن ينصره عليه .

قال الواحدي قال المفسرون إذا جاءك يا محمد نصر الله على من عاداك وهم قريش ، وقيل المراد نصره صلى الله عليه وآله وسلم على قريش من غير تعيين ، وقيل نصره على من قاتله من الكفار ، وقيل « إذا » بمعنى قد وقيل بمعنى إذ ، ومعنى جاء حصل .

وإنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للاشعار بأن المقدرات متوجهة من الازل إلى أوقاتها المعينة فتقرب منها شيئاً فشيئاً ، وقد قرب النصر من وقته فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره ، قاله القاضي وهو استعارة تبعية لكن قول الراغب المجيء الحصول ويكون في المعاني والأعيان يقتضي خلافه .

وفي الخطيب ﴿ جاء ﴾ بمعنى استقر وثبت في المستقبل بمجيء وقته

هذا بالنسبة للسورة ، وأما بالنسبة لآخر آية نزلت ، فقد روى البخاري عن ابن عباس : آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا وفي « الفتح » : وجاء عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر : « آخر آية نزلت على النبي ﷺ : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ أخرجه الطبري من طرق . قال الحافظ : وطريق الجمع بين هذين القولين أن هذه الآية ختام الآيات المنزلة في الربا ، وهي معطوفة عليهن ، ثم قال : وأما ما سيأتي في آخر سورة (النساء) من حديث البراء : آخر آية نزلت ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ﴾ فيجمع بينه وبين قول ابن عباس ، بأن الآيتين نزلتا جميعاً ، فيصدق أن ...

المضروب له في الأزل ، وإذا منصوبة بسبح الذي هو جوابها ونصر الله مصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف أي نصره إياك والمؤمنين .

﴿ والفتح ﴾ أي فتح مكة وقيل هو فتح سائر البلاد ، وقيل هو ما فتح الله عليه من العلوم والأول أظهر والثاني أنسب والثالث أبعد .

عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقالوا فتح المدائن والقصور ، قال فأنت يا ابن عباس ما تقول ، قال قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نعت له نفسه .

وأخرج البخاري غيره عن ابن عباس قال « كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، وكان بعضهم وجد في نفسه فقال لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر أنه من قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا فقال ما تقول ، فقلت هو أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعلمه الله له قال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر لا أعلم منها إلا ما تقول .

قال الرازي الفرق بين النصر والفتح ان الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقاً ، والنصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف عليه الفتح ، أو يقال النصر كمال الدين ، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة ، أو يقال النصر الظفر ، والفتح الجنة هذا معنى كلامه ، ويقال الأمر أوضح من هذا وأظهر فإن النصر هو التأيد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم والاستعلاء عليهم ، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم .

﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ أي أبصرت الناس من العرب وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به وهو الإسلام جماعات فوجاً

بعد فوج .

قال الحسن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكة قال العرب أما إذا ظفر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأهل الحرم وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجا أي جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً ، واثنين اثنين فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام .

قال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين .

وانتصاب أفواجا على الحال من فاعل يدخلون ومحل يدخلون نصب على الحال إن كان الرؤية بصرية ، وإن كانت بمعنى العلم فهو في محل نصب على أنه المفعول الثاني .

وعن أبي هريرة قال لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاء أهل اليمن وهم أرق قلوباً ، الايمان يمان والفقہ يمان والحكمة يمانية » أخرجه ابن مردويه .

وعن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة إذ قال « الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الايمان يمان ، والفقہ يمان ، والحكمة يمانية » أخرجه الطبراني وابن مردويه .

وعن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « إن الناس دخلوا في دين الله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا » أخرجه ابن مردويه .

وعن أبي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا قال ليخرجن منه أفواجا ، كما دخلوا فيه أفواجا » أخرجه الحاكم وصححه .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ هذا جواب الشرط وهو العامل فيه ، والتقدير فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله كما مر ، وقال مكّي العامل في (إذا) هو جاء ، ورجحه أبو حيان وضعف الأول بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها .

وقوله ﴿ بحمد ربك ﴾ في محل نصب على الحال أي فقل سبحان الله متلبساً بحمده أو حامداً له ، وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس ، وبين الحمد له على جميل صنعه له وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر والفتح لأم القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلقة ما هو معروف من قولهم هو مجنون هو ساحر هو شاعر هو كاهن ونحو ذلك .

ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمره نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار فقال ﴿ واستغفره ﴾ أي اطلب منه المغفرة لذنبك ، وسله الغفران هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك ، واستدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى .

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله ويكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقيل ان الاستغفار منه صلى الله عليه وآله وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم ، وقيل إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته وتعريضاً بهم ، فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار .

وقيل ان الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه وقيل المراد بالتسبيح هنا الصلاة ، والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة ، وفرحاً بما حباه الله من نصر الدين وكبت أعدائه ونزول الذلة بهم ، وحصول القهر لهم .

قال الحسن : أعلم الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم انه قد اقترب أجله فأمره بالتسبيح والتوبة ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح ، فكان يكثر أن يقول «سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لي أنك أنت التواب» .

قال قتادة ومقاتل : وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين .

وعن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول « سبحان الله وبحمده وأستغفره وأتوب إليه » فقلت يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقال أخبرني ربي اني سأرى علامة من أمتي فإذا رأيته أكثرت من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيته » ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فتح مكة ورأيت الناس يدخلون الخ » أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه .

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، بتأويل القرآن تعني ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وفي الباب أحاديث .

وقوله ﴿ إنه كان تواباً ﴾ تعليل لأمره سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار أي من شأنه التوبة على المستغفرين له ، يتوب عليه ويرحمهم بقبول توبتهم ، وتواب من صيغ المبالغة ، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين .

وقد حكى الرازي في تفسير اتفاق الصحابة رضي الله عنهم على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل ﴿ اليوم

أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴿ فعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوماً ثم نزلت آية الكلاله فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ فعاش بعدها أحدًا وعشرين يوماً ، وقيل سبعة أيام ، وقيل غير ذلك .

وكان فتح مكة في رمضان سنة ثمان ، وتوفي صلى الله عليه وسلم في ربيع الأول على رأس العاشرة بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة وإن كانت لشهرين وشيء مضت من الحادية عشرة إذا اعتبر التاريخ من أول السنة الشرعية وهو المحرم ، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم لاثني عشر من ربيع الأول حسبوا الباقي من هذه السنة سنة مع أنها ناقصة شهرين واثني عشر يوماً ، فلما كانت وفاته لاثني عشر من ربيع الأول كان الماضي من هذه السنة وهو شهران واثنا عشر يوماً مكماً ومتمماً لما نقصته السنة الأولى فصاح قوهم أنه توفي في العاشرة أي على رأسها وحين كمالها بالنظر لجعل التاريخ من الهجرة ، ويصح أن يقال توفي في الحادية عشرة بالنظر لجعل التاريخ من أول السنة الشرعية تأمل والله تعالى أعلم .

سورة تبت

وتسمى سورة أبي لهب كما في البحر هي خمس آيات وهي
مكية بلا خلاف وبه قال ابن عباس وابن الزبير وعائشة .

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ
مَّسَدٍ ﴿٥﴾

﴿تبت يدا أبي لهب﴾ قال مقاتل وابن عباس : خسرت ، وقيل خابت ، وقال عطاء : ضلت ، وقيل صفرت من كل خير ، ومنه قولهم شابت أم تابت أي هالكة من الهرم وقيل المعنى هلكت والأول أولى ، وخص اليمين بالتباب لأن أكثر العمل يكون بهما ، وقيل المراد باليمين نفسه وقد يعبر باليد عن النفس كما في قوله ﴿بما قدمت يداك﴾ أي نفسك ، والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله كقولهم أصابته يد الدهر وأصابته يد المنيا .

قرأ العامة لهب بفتح الهاء وقرئ بسكونها ف قيل لغتان بمعنى كالنهر والنهر ، والشعر والشعر .

وقال الزمخشري هو من تغيير الأعلام ، ولم يختلف القراء في قوله ﴿ذات لهب﴾ إنها بالفتح ، والفرق أنها فاصلة فلو سكنت زال التشاكل .

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، وذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها ولكن اسمه كما تقدم عبد العزى ، والعزى اسم صنم ، ولكون في هذه الكنية ما يدل على أنه ملابس للنار لأن اللهب هو لهب النار ، وإن كان إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلاً وإن وجهه يتلهب لمزيد حسنه كما تتلهب النار .

قال القرطبي أو لأن الله أراد أن يحقق نسبته بأن يدخله النار فيكون أبا لهب تحقيقاً للنسب وامضاء للقال والطيرة التي اختارها لنفسه ، وقيل اسمه

كنيته ، وروى صاحب الكشف أنه قرىءت يدا أبو لهب وذكر وجه ذلك .

﴿ وتب ﴾ أي هلك ، قال الفراء : الأول دعاء عليه ، والثاني خبر كما تقول أهلكه الله وقد هلك ، والمعنى أنه قد وقع ما دعى به عليه ، وتدل عليه قراءة ابن مسعود (وقد تب) وقيل كلاهما إخبار أراد بالأول هلاك عمله وبالثاني هلاك نفسه ، وقيل كلاهما دعاء عليه ويكون في هذا شبه من مجيء العام بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليمين غير مرادة .

وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال : « لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكتتم مصدقي قالوا ما جربنا عليك كذباً قال فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تباً لك إنما جمعنا لهذا ، ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿ تب يدا أبي لهب وتب ﴾ ^(١) .

﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أي ما دفع عنه ما حل به من التباب وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال ولا ما كسب من الأرباح والجاه ، أو المراد بقوله ﴿ ماله ﴾ ما ورثه من أبيه ﴿ وما كسب ﴾ الذي كسبه بنفسه .

قال مجاهد : وما كسب من ولد وولد الرجل من كسبه ، ويجوز أن تكون (ما) في قوله ما أغنى استفهامية أي أي شيء أغنى عنه وكذا في قوله (وما كسب) أي وأي شيء كسب أو مصدرية أي وكسبه .

والظاهر أن (ما) الأولى نافية والثانية موصولة .

عن عائشة « قالت إن أطيّب ما أكل الرجل من كسبه وإن ابنه من كسبه

(١) رواه البخاري ٥٦٧/٨ ورواه مسلم ١٩٤/١ بمعناه . وقوله : يا صباحاه : كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم ، فيقولونها ليجمعوا ويتأهبوا له . ورواه ابن جرير الطبري ٣٣٦/٣٠ وأورده السيوطي في « الدر » ٤٠٨/٦ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن المنذر .

ثم قرأت ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ قالت وما كسب ولده « أخرج ابن أبي حاتم ، وعن ابن عباس قال كسبه ولده أي عتيبة بالتصغير وأما عتبة فقد أسلم ، وفسر الكسب بالولد ليغايير ما قبله فيسلم من التكرار .

ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال ، قال الشهاب العدسة قرحة تعتري الانسان كانت العرب تهرب منها لأنها بزعمهم تعدي أشد العدوى .

ثم أوعده الله سبحانه بالنار فقال ﴿ سيصلى ناراً ﴾ قرأ الجمهور بفتح اللام واسكان الصاد وتخفيف اللام أي سيصلى هو بنفسه النار ويحترق بها ، وصلى من باب تعب ، وقرىء بضم الياء وفتح الصاد وتشديد اللام والمعنى سيصليه الله .

ومعنى ﴿ ذات لهب ﴾ ذات اشتعال وتوقد وهي نار جهنم ﴿ وامراته حمالة الحطب ﴾ معطوف على الضمير في يصلى وجاز ذلك للفصل ، أي وتصلى امرأته ناراً ذات لهب ، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وكانت عوراء تحمل الغضى والشوك والسعدان فتطرحها بالليل على طريق النبي صلى الله عليه وسلم ، كذا قال ابن زيد والضحاك والربيع بن أنس ومرة الهمداني .

وقال مجاهد وقتادة والسدي : أنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس ، والعرب تقول فلان يحطب على فلان إذا نم به ، وقال سعيد بن جبير معنى حمالة الحطب انها حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحطب على ظهره كما في قوله ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ وقيل المعنى حمالة الحطب في النار .

قرأ الجمهور حمالة بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للاخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب ، وأما على ما قدمنا من عطف (وامراته) على الضمير في (يصلى) فيكون رفع حمالة على النعت لامراته والاضافة

حقيقية لأنها بمعنى المضي أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هي حمالة .

وقرأ عاصم بالنصب على الذم أو على أنه حال من امرأته ، وقرىء
حاملة الحطب ، وعن ابن عباس في الآية قال كانت تحمل الشوك فتطرحه
على طريق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لتعقره وأصحابه ، وقال حمالة
الحطب : نقالة الحديث .

﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ الجيد العنق والمسد الليف الذي تفتل منه
الحبال ، قال أبو عبيدة المسد هو الحبل من صوف ، وقال الحسن هي حبال
تكون من شجر ينبت باليمن يسمى بالمسد ، وقد تكون الحبال من جلود الابل
أو من أوبارها والمسد أيضاً ليف المقل أو مطلق الليف ، والمقل شجر الدوم
كما في المصباح والمختار .

وفي القاموس ﴿ المسد ﴾ بسكون السين مصدر بمعنى الفتل ، وبفتحتها
المحور من الحديد أو حبل من ليف أو كل حبل محكم الفتل ، والجمع مساد
وأمساد .

قال الضحاك وغيره هذا في الدنيا كانت تعير النبي صلى الله عليه وآله
وسلم ، بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في عنقها فخنقتها الله به فأهلكها ،
وهو في الآخرة حبل من نار .

وقال مجاهد وعروة بن الزبير هو سلسلة من نار يدخل في فيها ويخرج من
أسفلها ، وقال قتادة هو قلادة من ودع كانت لها قال الحسن إنما كان خرزاً في
عنقها ، وقال سعيد بن المسيب كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت واللات
والعزى لأنفقتها في عداوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيكون ذلك عذاباً
في جسدها يوم القيامة .

والمسد الفتل يقال مسد حبله يمسه مسداً أجاد فتله ، قال ابن عباس
هي حبال تكون بمكة ، ويقال المسد العصا التي تكون في البكرة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر قالت « لما نزلت

﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول :

مذمماً ابينا ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنها لن تراني .

قال تعالى ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، قال لا ورب الكعبة ما هجاك فقلت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها وأخرجها البزار بمعناه وقال لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الاسناد .

سورة الاخلاص

ولها أسماء كثيرة ذكرها الخطيب ، وزيادة أسماء تدل على شرف المسمك. وهذه السورة مصرحة بالتوحيد رادة على عباد الأصنام والوثان والقائلين بالثنوية والتثليث . هي أربع أو خمس آيات وهي مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر. ومدينة في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي.

عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يا محمد انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ الخ اليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث وإن الله لا يموت ولا يورث ولم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء رواه أحمد والبخاري في تاريخه وابن خزيمة والحاكم وصححه وغيرهم . ورواه الترمذي من طريق أخر عن أبي العالية مرسلًا ولم يذكر أبيًا ثم قال وهذا أصح .

وعن جابر قال « جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿ قل هو الله ﴾ الخ آخر السورة أخرجه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم وغيرهم وحسن السيوطي إسناده .

وعن ابن مسعود قال : « قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنسب لنا ربك فنزلت هذه السورة » أخرجه أبو الشيخ في العظمة والطبراني .

وعن ابن عباس «أن اليهود جاءت إلّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلم منهم
كعب ابن الأشرف وحيك بن أخطب فقالوا يا محمد صف لنا ربك
الذي بعثك فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ﴾ فيخرج
من الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج من شيء » رواه البيهقي وغيره .

وعن أبيّ بن كعب قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم
« من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن » أخرجه أحمد والنسائي
وغيرهما^(١) .

(١) رواه مسلم في « صحيحه » ٥٥٧/١ ولفظه بتمامه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ : احشدوا (اجتمعوا) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله ﷺ
فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبراً جاء من السماء ، فذاك
الذي أدخله ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقال : « إني قلت لكم : سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا إنها
تعدل ثلث القرآن » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ١٣٣/٥ ، والترمذي ١٧٢/٢ ، والطبري ٣٤٢/٣٠ ، والواحدي في
« أسباب النزول » ٣٤٦ من حديث أبي سعد الصغاني عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي
العالبة عن أبيّ بن كعب وفي سنده ضعف . ورواه الحاكم في « المستدرک » ٥٤٠/٣ أيضاً من حديث
أبي سعد الصغاني به ، وصححه ، ووافقه الذهبي . وأورده السيوطي في « الدر » ٤٠٩/٦ وزاد نسبه
للبخاري في « تاريخه » ، وابن خزيمة ، وابن أبي حاتم في « السنة » والبغوي في « معجمه » ، وابن
المنذر في « العظمة » ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه . ورواه
الترمذي ١٧٢/٢ عن عبد بن حميد عن عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالبة
فذكره مرسلًا ، ولم يذكر فيه عن أبيّ بن كعب ، وقال : وهذا أصح من حديث أبي سعد الصغاني .
ورواه الطبري عن محمد بن عوف عن شريح بن إسماعيل بن مجالد عن مجالد عن الشعبي عن جابر .
وذكره ابن كثير من رواية أبي يعلى الموصلي من طريق مجالد بن سعيد عن الشعبي عن جابر ، وأورده
الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٤٦/٧ من رواية الطبراني في « الأوسط » .

(٣) رواه البخاري في « صحيحه » ١٠٥/٦ باب فضل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ولفظه بتمامه : عن أبي سعيد
الخدري رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يردّدها ، فلما أصبح جاء إلى رسول الله
ﷺ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقأها ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث
القرآن » .

وعن أنس قال - جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أني أحب هذه السورة قل هو الله أحد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حبك إياها أدخلك الجنة - رواه أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في سننه .

وقد وردت أحاديث كثيرة في أن من قرأ هذه السورة كذا غفر له ذنوب كذا وكذا . وهي في السنن وغيرها ولكنها ضعيفة غريبة . وفيها من هو متهم بالوضع . وقد روي من غير وجه أنها تعدل ثلث القرآن وفيها ما هو صحيح وفيها ما هو حسن .

فمن ذلك ما أخرجه أحمد والبخاري وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم - والذي نفسي بيده أنها تعدل ثلث القرآن يعني ﴿ قل هو الله أحد ﴾ - قيل ولاشتمال هذه السورة مخ قصرها على جميع المعارف الإلهية . والرد على من ألد فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن . فان مقاصده محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص . وما في الكشف من أنها تعدل القرآن كله قال الدواني لم أره في شيء من كتب التفسير والحديث انتهك .

ولو لم يرد في فضل هذه السورة إلا حديث عائشة عند البخاري ومسلم وغيرهما - أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث رجلاً في سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد . فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سلوه لأبي شيء يصنع ذلك . فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها فقال أخبروه أن الله تعالى يحبه . -

هذا لفظ البخاري في كتاب التوحيد . وأخرج البخاري أيضاً في كتاب الصلاة من حديث أنس قال - كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة فقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتك يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كل ركعة . فكلّمه أصحابه فقالوا انك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترك أنها تجزيك حتك تقرأ بالآخر . فاما أن تقرأ بها ولما أن تدعها وتقرأ

بأخرك قال ما أنا بتاركها ان أحببتكم أن أؤمكم بذلك فعلت وان كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم فكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبروه الخبر فقال يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ، فقال اني أحبها قال حبك اياها أدخلك الجنة » وقد روي بهذا اللفظ من غير وجه عند غير البخاري .

وهذه السورة قد تجردت للتوحيد والصفات ، وفيه دليل على شرف علم التوحيد وكيف لا والعلم يشرف بشرف المعلوم . ويتضح بضعته ، ومعلوم هذا العلم هو الله سبحانه وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز عليه . فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله .

وفي التوحيد وصفاته سبحانه كتب ورسائل مستقلة مفرزة تصدّح لجمعها وتأليفها عصابة من أهل العلم بالكتاب العزيز والسنة المطهرة منهم شيخ الاسلام أحمد ابن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحارثي وتلميذه الحافظ محمد بن أبي بكر بن القيم وغيرهما من سلف الائمة وخلفها كالمقريزي والشوكاني ومحمد ابن اسماعيل الأمير اليماني ومحمد بن اسماعيل الدهلوي وأمثالهم رحمنا الله وإياهم أجمعين . اللهم اجعلنا من الموحدين اياك واحشونا في زمرة العالمين بك العاملين لك ، الراجين لثوابك الخائفين من عقابك المكرميين بلقائك ، وتقبل منا انك أنت السميع العليم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكُنْ لَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

﴿ قل هو الله أحد ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول وإن المشركين قالوا يا محمد انسب لنا ربك فيكون مبتدأ ، والله مبتدأ ثان واحداً خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول ، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو والخبر أحد ، ويجوز أن يكون الله خبراً أول واحداً خبراً ثانياً ، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف أي هو أحد ، ويجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم ، والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه والأول أولى .

قال الزجاج هو كناية عن ذكر الله والمعنى أن ما سألتم تبين نسبته هو الله أحد ، قيل وهمزة أحد بدل من الواو وأصله واحد ، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل ، وقال أبو البقاء همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد .

ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري أنه لا يوصف بالأحادية غير الله تعالى ، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال رجل واحد ودرهم واحد ، قيل والواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه ، فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه إثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد .

وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد ، وأحد لا يدخل فيه ورد عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى انتهى .

وذكر أحد في الإثبات مع أن المشهور أنه يستعمل بعد النفي كما أن الواحد لا يستعمل إلا بعد الإثبات يقال في الدار واحد وما في الدار أحد .

فالجواب عنه ما قال ابن عباس أنه لا فرق بينهما في المعنى ، واختاره أبو عبيدة ويؤيده قوله تعالى ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ وعليه فلا يختص أحدهما بمحل دون آخر ، وإن اشتهر استعمال أحدهما في النفي والآخر في الإثبات .

ويجوز أن يكون العدول عن المشهور هنا رعاية الفاصلة بعد فدل بقوله ﴿ الله ﴾ على جميع صفات الكمال وهي الثبوتية كالعلم والقدرة والارادة وبالأحد على صفات الجلال وهي الصفات السلبية كالقدم والبقاء كذا قال الكرخي .

قرأ الجمهور قل هو الله بإثبات قل ، وقرأ ابن مسعود وأبي ﴿ الله أحد ﴾ بدون قل ، وقرئ ﴿ قل هو الله الواحد ﴾ وقرأ الجمهور بتنوين أحد وهو الأصل وقرئ بحذفه للخفة ، وقيل إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين ، ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منها بالكسر .

﴿ الله الصمد ﴾ الإسم الشريف مبتدأ والصمد خبره ، والصمد هو الذي يصمد إليه في الحاجات أي يقصد لكونه قادراً على قضائها فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض ، لأنه مصمود إليه أي مقصود إليه .

قال الزجاج : الصمد السيد الذي انتهى إليه السؤدد فلا سيد فوقه ، وقيل معنى الصمد الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول ، وقيل معنى الصمد ما ذكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد ، وقيل هو المستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد ، وقيل هو المقصود في الرغائب والمستعان به في المصائب ، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول ، وقيل هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وقيل هو الكامل الذي لا عيب فيه .

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب

ومجاهد وعبدالله بن بريدة وعطاء وعطية العوفي والسدي : ﴿ الصمد ﴾ هو المصمت الذي لا جوف له ، وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة وجمهور أهل التفسير .

وتكرير الإسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى .

وقيل أن الصمد صفة للإسم الشريف ، والخبر هو ما بعده والأول أولى لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة .

وعن بريد قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا جوف له وروي عنه مرفوعاً ولا يصح رفعه وعن ابن مسعود مثله وفي لفظ ليس له أحشاء ، وعن ابن عباس مثله ، وعنه قال الصمد الذي لا يطعم وهو المصمت ، وقد روي عنه أنه الذي يصمد إليه في الحوائج ، وفي لفظ الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده الشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفة لا تنبغي إلا له ، ليس له كفاء وليس كمثله شيء .

وعن ابن مسعود قال الصمد وهو السيد الذي قد انتهى سؤدده فلا شيء أسود منه ، وعن ابن عباس قال الصمد الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ أي لم يصدر عنه ولد كما ولدت مريم . ولم يصدر هو عن شيء كما ولد عيسى وعزير لأنه لا يجانسه شيء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً وقد دل على هذا قوله تعالى ﴿ أنى يكون له ولد ولم

تكن له صاحبة ﴿ قال قتادة إن مشركي العرب قالوا الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، فأكذبهم الله فقال لم يلد ولم يولد .

قال الرازي قدم ذكر نفي الولد مع أن الوالد مقدم للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين الملائكة بنات الله واليهود عزيز ابن الله والنصارى المسيح ابن الله ، ولم يدع أحد أن له والدًا فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال لم يلد .

ثم أشار إلى الحجة فقال ولم يولد كأنه قيل الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره ، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل لأنه ورد جواباً عن قولهم (ولد الله) كما حكى الله عنهم بقوله ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله .

فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد المنفي فيما مضى وردت الآية لدفع قولهم هذا .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ولم يماثله ولا يشاركه في شيء ، وآخر اسم كان لرعاية الفواصل .

وقوله (له) متعلق بقوله كفواً قدم عليه لرعاية الاهتمام لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته . وقيل أنه في محل نصب على الحال والأول أولى .

وقد رد المبرد على سيويه بهذه الآية لأن سيويه قال : إنه إذا تقدم الظرف كان هو الخبر وههنا لم يجعل خبراً مع تقدمه ، وقد رد على المبرد بوجهين .

(أحدهما) أن سيويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوزه .

(والثاني) أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال .

وحكي في الكشف عن سيبويه أن الكلام العربي الفصيح ان يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ولم ينظر إلى آخره فإنه قال في آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير انتهى .

قال الشهاب ولعل الوصل بين هذه الجمل الثلاث وهي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد بالعاطف دون ما عداها من هذه السورة لأنها سيقّت لمعنى وغرض واحد وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه وهذه أقسامها لأن المماثل إما ولد أو والد أو نظير ، فلتغاير الأقسام واجتماعها في المقسم لزم العطف فيها بالواو وكما هو مقتضى قواعد المعاني . وترك العطف في الله الصمد لأنه محقق ومقرر لما قبله . وكذا ترك العطف في لم يلد لأنه مؤكد للصمدية لأن الغني عن كل شيء المحتاج إليه كل ما سواه لا يكون والداً ولا مولوداً انتهى .

قرأ الجمهور كفواً بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء مع إبدال الهمزة واواً في الوقف وأبدلت الواو وصلاً ووقفاً أيضاً وقرئ كفأ بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مد وكذلك مع المد ، والكفاء في لغة العرب النظير ، تقول هذا كفؤك أي نظيرك والاسم الكفاءة بالفتح قال ابن عباس ليس له كفاء ولا مثل ، ومن زعم أن نفي الكفاء وهو المثل في الماضي لا يدل على نفيه للحال والكفار يدعون في الحال فقد تاه في غيه ، لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة إذ الحادث لا يكون كفأً للتقديم ، وحاصل كلام الكفرة يؤول إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل والسورة الكريمة تدفع الكل .

أخرج البخاري عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال

« كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك : فأما تكذيبه إياي
فقله لن يعيدني كما بداني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما
شتمه إياي فقله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم
يكن له كفواً أحد » .

سورة الفلق

هي خمس آيات وهي مكيّة في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة قيل وهو الصحيح، وعن ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف يقول لا تخطوا القرن بما ليس منه أنهما ليستا من كتاب الله إنما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يتعوذ بهما وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما أخرجه أحمد الطبراني وابن مردويه من طرق قال السيوطي صحيحة. قال البزار لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة. وقد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة وأثبتنا في المصحف.

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وغيرهم عن زر بن حبيش قال أتيت المدينة فلقيت أبي بن كعب فقلت له أبا المنذر « اني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه، فقال أما والذي بعث محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم بالحق لقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهما وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك. قال قيل لحي قل فقلت فقولوا فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ».

قال القرطبي زعم ابن مسعود أن هاتين السورتين دعاء يتعوذ به وليستا من القرآن وقد خالف الإجماع من الصحابة وأهل البيت.

وقال ابن قتيبة لم يكتب ابن مسعود المعوذتين في مصحفه لأنه كان يسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعوذ الحسن والحسين بهما فقدر أنهما بمنزلة « أعيدكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة » .

قال أبو بكر بن الأنباري وهذا مردود على ابن قتيبة لأن المعوذتين من كلام رب العالمين المعجز لجميع المخلوقين . وأعيدكما الخ من كلام البشر . وكلام الخالق الذي هو آية لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وحجة له ببقية على جماعة الكافرين لا يلتبس بكلام الآدميين فضلاً عن مثل عبد الله بن مسعود الفصيح اللسان العالم باللغة العارف بأجناس الكلام وأفانين القول .

وقال بعض الناس لم يكتب عبد الله المعوذتين لأنه أمن عليهما من النسيان فأسقطهما وهو يحفظهما كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه .

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزلت على الليلة آيات لم أر مثلهن قط . قل أعوذ برب الفلق . وقل أعوذ برب الناس » .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من عين الجان ومن عين الإنس . فلما نزلت سورة المعوذتين أخذ بهما وترك ما سوا ذلك » .

وعن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم « كان يكره عشر خصال ومنها أنه كان يكره الرقي إلا بالمعوذتين » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه .

وعن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحب السور الك الله قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس » أخرجه ابن مردويه .

وعن عائشة قالت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت اقرأ

عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتها» أخرجه مالك في الموطأ وهو فج الصحيحين من طريق مالك .

وعن زيد ابن أرقم قال : « سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال أن رجلاً من اليهود سحرك والسحر في بئر فلان . فأرسل علياً فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقرأ بآية ويحل حتى قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم كأنما نشط من عقال » أخرجه عبد بن حميد في مسنده وأخرجه ابن مردويه من حديث عائشة مطولاً وكذلك من حديث ابن عباس .

قليل وكانت مدة سحره صلى الله عليه وسلم أربعين يوماً وقيل ستة أشهر وقيل عاماً قال الحافظ ابن حجر وهو المعتمد .

قال الراغب تأثير السحر في النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن من حيث أنه نبي . وإنما كان في بدنه حيث أنه انسان أو بشر كما كان يأكل ويتغوط ويغضب ويشتهج ويمرض فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي .

وإنما يكون ذلك قادحاً في النبوة لو وجد للسحر تأثير في امر يرجع للنبوة كما أن جرحه وكسر ثنيتيه يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته في قوله ﴿ وَاللّٰهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ وكما لا اعتداد بما يقع في الاسلام من غلبة بعض المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الاسلام في قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) .

قال القاضي ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحراء .

ومذهب أهل السنة أن السحر حق وله حقيقة ويكون بالقول والفعل . ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين . وتام الكلام على هذا في حاشية سليمان الجمل فارجع اليه .

وقد ورد في فضل المعوذتين وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما في الصلاة وغيرها أحاديث . وفيما ذكرناه كفاية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ
﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ الفلق الصبح يقال هو أبين من فلق الصبح ،
وسمي فلماً لأنه يفلق عنه الليل وهو فعل بمعنى مفعول ، قال الزجاج لأن
الليل ينفلق عنه الصبح ويكون بمعنى مفعول وهذا قول جمهور المفسرين ،
وقيل هو سجن في جهنم ، وقيل هو اسم من أسماء جهنم وقيل شجرة في
النار ، وقيل هو الجبال والصخور لأنها تفلق بالمياه أي تشقق ، وقيل هو
التفليق بين الجبال لأنها تنشق من خوف الله .

قال النحاس يقال لكل ما اطمأن من الأرض فلق ، وقيل هو كل ما
انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحب والنوى وكل شيء من
نبات وغيره ، قاله الحسن والضحاك .

قال القرطبي : هذا القول يشهد له الإنشقاق فإن الفلق الشق يقال
فلقت الشيء فلماً شققته والتفليق مثله يقال فلقت فالفلق وتفلق فكل ما
انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونوى وماء فهو فلق ، قال الله
سبحانه (فالق الأصباح) وقال (فالق الحب والنوى) انتهى .

والقول الأول أولى لأن المعنى وإن كان أعم منه وأوسع مما تضمنه لكنه
المتبادر عند الإطلاق ، وقد قيل في وجه تخصيص الفلق بالإيماء إلى أن القادر
على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن
العائد كل ما يخافه ويخشاه وقيل طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج فكما أن
الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً
لطلوع صباح النجاح .

وقيل غير هذا مما هو مجرد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير .

عن عمرو بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقراً ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وقال يا ابن عبسة أتدري ما الفلق ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال بئر في جهنم « أخرجه ابن مردويه ، وأخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عليه غير مرفوع .

وعن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اقرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ هل تدري ما الفلق ، باب في النار إذا فتح سعت جهنم » أخرجه ابن مردويه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمستكبرون وأن جهنم لتتعوذ بالله منه » أخرجه ابن مردويه والديلمي .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « الفلق جب في جهنم » أخرجه ابن جرير .

وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان المصير إليها واجباً ، والقول بها متعيناً .

وعن ابن عباس قال الفلق سجن في جهنم ، وعن جابر بن عبد الله قال الفلق الصبح ، وعن ابن عباس أيضاً الفلق الخلق .

﴿ من شر ما خلق ﴾ متعلق بأعوذ أي أعوذ بالله من شر كل ما خلقه من جميع مخلوقاته فيعم جميع الشرور ، فهذا عام وما بعده من الشرور الثلاثة خاص فهو من ذكر الخاص بعد العام ، وقيل هو إبليس وذريته ، وقيل جهنم ، ولا وجه لهذا التخصيص كما أنه لا وجه لتخصيص من خصص هذا العموم بالمضار البدنية .

وقد حرف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه ، وتقويماً لباطله ، فقرأ بتنوين شر على أن ما نافية ، والمعنى من شر لم يخلقه ، ومنهم عمرو بن عبيد وعمرو بن فائد ، وفي المدارك قرأ أبو حنيفة رحمه الله تعالى من شر بالتنوين (وما) على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر بدل من شر أي شر خلقه أي من خلق شر أو ما زائدة انتهى وفيه أيضاً بعد وضعف كما ترى .

﴿ومن شر غاسق إذا وقب﴾ الغاسق الليل والغسق الظلمة ، قال الفراء يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم ، وقال الزجاج : قيل لليل غاسق لأنه ابرد من النهار والغاسق البارد ، والغسق البرد ، ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من أماكنها وينبعث أهل الشر على العبث والفساد كذا قال وهو قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين ، ووقوبه دخول ظلامه يقال وقبت الشمس إذا غابت ، وقيل الغاسق الثريا وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت إرتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد ، وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق .

وقال الزهري : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ولم يلاحظ معنى الغسوق ، وقيل هو القمر إذا خسف ، وقيل إذا غاب ، وبهذا قال قتادة وغيره .

واستدلوا بحديث أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت « نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً إلى القمر لما طلع فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب » قال الترمذي بعد إخراجه حسن صحيح .

وهذا لا ينافي قول الجمهور لأن القمر آية الليل ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وهكذا يقال في جواب من قال أنه الثريا .

قال ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر ، وقيل الغاسق الحية إذا لدغت وقيل الغاسق كل هاجم يضر كائناً ما كان من قولهم غسقت القرحة إذا جرى صديدها ، وقيل الغاسق هو السائل . وقد عرفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأول ووجه تخصيصه أن الشر فيه أكثر والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم الليل أخفى للويل .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « النجم هو الغاسق وهو الثريا » أخرجه ابن جرير وأبو الشيخ وغيرهما ، وروي من وجه آخر عنه غير مرفوع .

وقد قدمنا تأويل ما ورد أن الغاسق القمر .

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عاهة عن كل بلد » وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم » وعن ابن عباس في الآية قال : الليل إذا أقبل .

﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ النفاثات هن السواحر أي وأعوذ برب الفلق من شر النفوس النفاثات أو النساء النفاثات والنفث النفخ كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر ، قيل مع ريق ، وقيل بدون ريق ، وهو دليل بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور اثره .

والعقد جمع عقدة وذلك أنهم كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها . قال أبو عبيدة النفاثات هن بنات لبيد بن الأعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

قرأ الجمهور النفاثات جمع نفثة على المبالغة ، وقرئ النفاثات جمع نافثة والنفاثات بضم النون والنفاث بدون ألف . وقال ابن عباس الساحرات وعنه قال هو ما خالط السحر من الرقى .

وأخرج النسائي وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئاً وكل إليه » .

وعنه قال جاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعوذني فقال : « ألا أرقيك برقية رقاني بها جبريل فقلت بلى بأبي أنت وأمي قال بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك » من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد ، فرقى بها ثلاث مرات » أخرجه ابن ماجه وابن سعد والحاكم وغيرهم .

واختلفوا في جواز النفخ في الرقي والتعاويد الشرعية فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يدل عليه حديث عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات » الحديث .

وأنكر جماعة التفل والنفث في الرقي وأجازوا النفخ بلا ريق ، قال عكرمة لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسخ ولا يعقد .

قال النسفي جوز الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا بما كان بالسريانية والعبرانية والهندية فإنه لا يحل اعتقاده ولا اعتماد عليه .

« ومن شر حاسد » الحسد تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود ، ومعنى « إذا حسد » إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود ، قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد ، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة يا ظالماً وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على

الخصوص مع اندارجه تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضرره وهو الغاسق
والنفاثات والحاسد ، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل
واحد منهم بالذكر ، وختم بالحسد ليعلم أنه أشد وأشر ، وهو أول ذنب عصى
الله به في السماء من إبليس وفي الأرض من قابيل ، وإنما عرف بعض المستعاذ
منه ونكر بعضه لأن كل نفائة شريرة فلذا عرفت النفاثات ونكر غاسق لأن كل
غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل
حاسد لا يضر ، وربما حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات ، ذكره النسفي
في المدارك . وعن ابن عباس في قوله ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال نفس
ابن آدم وعينه .

سورة الناس

هـي ست آيات والخلاف في كونها مكية او مدنية كالخلاف
الذي تقدم في سورة الفلق . قال ابن عباس انزل بمكة قل أعوذ برب
الناس . وعن ابن الزبير قال انزل بالمدينة .

وقد قدمنا في سورة الفلق ما ورد في سبب نزول هذه السورة
وما ورد في فضلها فارجع اليه . وأتى الحافظ ابن القيم في البدائع
بفوائد بديعة كثيرة تتعلق بالمعوذتين . وكتب عشرين ورقة في بيان
ذلك لا يتسع هذا المقام لبسطها ان شئت فراجع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنْ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿ قل أعوذ ﴾ قرأ الجمهور بالهمزة وقرأء بحذفها ونقل حركتها إلى اللام ﴿ برب الناس ﴾ قرأ الجمهور بترك الامة في الناس وقرأء بالامة ، والمعنى مالك أمرهم ومربيهم ومصلح أحوالهم وانما قال رب الناس مع انه رب جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ولكون الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس في صدورهم .

وقوله ﴿ ملك الناس ﴾ عطف بيان جيء به لبيان ان رتبته سبحانه ليست كرتبة سائر الملاك لما تحت أيديهم من ممالكهم بل بطريق الملك الكامل والسلطان القاهر وقد أجمع جميع القراء في هذه السورة على إسقاط الألف بخلاف الفاتحة فاختلّفوا فيها كما مضى .

﴿ إله الناس ﴾ هو أيضاً عطف بيان لبيان أن ربوبيته وملكه قد انضم إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالابجاد والإعدام .

وأيضاً الرب قد يكون ملكاً وقد لا يكون ملكاً كما يقال رب الدار ، ورب المتاع ، ومنه قوله ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ فبين أنه ملك الناس ، ثم الملك قد يكون إلهاً وقد لا يكون فبين إنه إله لأن اسم الإله خاص به لا يشاركه فيه أحد .

وأيضاً بدأ باسم الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك فذكر أنه ملك الناس .

ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه وأنه عبد مخلوق وإن خالقه إله معبود بين سبحانه أنه إله الناس ، وكرر لفظ الناس في الثلاثة المواضع لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار والبيان ، ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس ، وقيل أراد بالأول الأطفال ، ومعنى الربوبية يدل عليه ، وبالثاني الشباب ولفظ الملك المنبئ عن السياسة يدل عليه ، وبالثالث الشيوخ ولفظ الإله المنبئ عن العبادة يدل عليه ، وبالرابع الصالحين إذ الشيطان مولع باغوائهم ، وبالخامس المفسدين لعطفه على المعوذ منه ، ذكره النسفي ، ولا وجه لهذا التخصيص وإنما هذا الكلام من لطائف البيان .

﴿ من شر الوسواس ﴾ قال الفراء هو بفتح الواو بمعنى الاسم أي الموسوس وبكسرهما المصدر أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وقيل هو بالفتح اسم لمعنى الوسوسة ، والوسوسة هي حديث النفس يقال وسوست إليه نفسه وسوسة أي حديثه حديثاً ، وأصلها الصوت الخفي ، ومنه قيل لأصوات الحلى وسواس .

قال الزجاج الوسواس هو الشيطان أي ذي الوسواس ويقال إن الوسواس ابن إبليس وسمى بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها شغله الذي هو عاكف عليه ، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ ومعنى ﴿ الخناس ﴾ كثير الخنس وهو التأخر يقال خنس إذا تأخر ، قال مجاهد إذا ذكر الله خنس وانقبض وإذا لم يذكر انبسط على القلب .

ووصف بالخناس لأنه كثير الإختفاء ومنه قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ يعني النجوم لاختفائها بعد ظهورها كما تقدم ، وقيل الخناس اسم لابن إبليس كما تقدم في الوسواس .

وعن ابن عباس في قوله الوسواس الخناس قال مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس وإن سكت عاد إليه فهو الوسواس الخناس .

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسيه التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس » أخرجه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين والبيهقي في الشعب .

وعن ابن عباس في الآية قال الشيطان جاث على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس وإذا ذكر الله خنس وعنه قال ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإذا ذكر الله خنس وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله الوسواس الخناس .

وقد ورد في معنى هذا غيره وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان وإن لم يكن على طريق الإستعاذة ، ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة .

﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ قال قتادة أن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له وإذا ذكر العبد ربه خنس .

قال مقاتل إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك ، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفي يصل إلى القلب من غير سماع صوت .

والجملة في محل الجر على الصفة أو الرفع على تقدير مبتدأ والنصب على الذم ، وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على الخناس .

ثم بين سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان جني وإنسي فقال ﴿ من الجنة

والناس ﴿ أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيوسوسته ، في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته كما قال سبحانه ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ ويجوز أن يكون متعلقاً بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس ويجوز أن يكون بياناً للناس .

قال الرازي وقال قوم من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله ﴿ في صدور الناس ﴾ لأن القدر المشترك بين الجن والإنس سمي إنساناً ، والإنسان أيضاً سمي إنساناً فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس والنوع بالإشتراك .

والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجن ما روي أنه جاء نفر من الجن ف قيل لهم من أنتم قالوا ناس من الجن وأيضاً قد سماهم الله تعالى رجالاً في قوله ﴿ وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ﴾ وقيل يجوز أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربه من ذلك الشيطان الواحد ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس .

وقيل المراد بالناس « الناسي » وسقطت الياء كسقوطها في قوله يوم يدع الداع ، ثم بين بالجنة والناس لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان .

وأحسن من هذا أن يكون قوله ﴿ والناس ﴾ معطوفاً على الوسواس أي من شر الوسواس ومن شر الناس كأنه أمر أن يستعيذ من شر الجن والإنس ، قال الحسن أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس مباشرة أما شيطان الإنس فيأتي علانية .

وقال قتادة : إن من الجن شياطين وإن من الإنس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الجن والإنس ، وقيل إن إبليس يوسوس في صدور الإنس .

وواحد الجنة جني كما أن واحد الإنس إنسي والقول الأول هو أرجح هذه الأقوال وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلا بالمعنى الذي قدمنا ويكون هذا البيان تذكّر الثقلين للارشاد إلى ان من استعاذ بالله منها ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وعن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله « أي الأعمال أحب إلى الله تعالى قال الحال المرتحل ، قيل وما الحال المرتحل ، قال الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل » ، أخرجه الترمذي .

الخاتمة

يقول العبد الضعيف الخامل المتواري ، مؤلف هذا التفسير صديق ابن حسن بن علي الحسيني القنوجي البخاري ، ختم الله له بالحسن ، وأذاقه حلاوة رضوانه الأسنى .

وإلى هنا انتهى هذا التفسير الجامع بين في الرواية والدراية ، الرافع من ألوية التحقيق والتنقيح أعظم راية ، وكان الفراغ منه في ضحوة يوم الجمعة لعله التاسع والعشرون من شهر ذي الحجة أحد شهور سنة تسع وثمانين بعد مائتين وألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها الصلاة والسلام والتحية ، وقد تم بتمامه ، وانتهى بانتهائه الأسبوع والشهر والسنة اللهم كما مننت علي باكمال هذا التفسير وأعتني على تحصيله وتفضلت عليّ بالفراغ منه على ما أردت فامن علي بقبوله واجعله لي ذخيرة خير عندك وأجزل لي المثوبة بما صرفت الوقت في تحريره كما قلت في كتابك ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم﴾ وكما قلت في هذا الباب .

كل يجيء بكسبه وكتابه يوم القيامة آخر الأزمان
في حضرة الرحمن جل جلاله عم الورى بالعفو والغفران
ويجيء هذا العبد وهو مقصر بكتابه التفسير فتح بيان

ثم اللهم انفع به من أخلفه من بعدي من ولدي ومن شئت من عبادك المؤمنين ليدوم لي الانتفاع به بعد موتي ، فإن هذا هو المقصد الجليل ، والمطلب الجميل ، من هذا الجمع والتأليف واجعله خالصاً لوجهك الكريم وتجاوز عني إذا خطر لي من خواطر السوء ما فيه شائبة تخالف الإخلاص والتوحيد ، واغفر لي ما لا يطابق مرادك ، فإني لم أقصد في جميع أبحاثي فيه إلا إصابة الحق وموافقة ما ترضاه ، فإن أخطأت فأنت غافر الخطيئات ومسبل ذيل الستر على الهفوات ، وإن أصبت فأنت قابل الطاعات ، ومانح العطيات يا بارئ

الباريات ، وقد جمعته في زمن أَهْلُهُ بغير الكتاب والسنة يفخرون ، وصنعتة كما صنع نوح عليه السلام الفلك ومنه يسخرون ، والله در من يقول :

إذا رضيت علي كرام عشيرتي فلا زال غضباناً علي لئامها

ثم اللهم أحمدك على ما أوليتني من نعمك الوافرة من الأموال والأولاد والعلم النافع من الكتاب العزيز والسنة المطهرة لا أحصى حمداً لك ، وأشكرك على ما رزقتني من خلوص النية في القول والعمل والاعتقاد ، لا أحصى شكرك أنت كما أثبتت على نفسك ، وقد رويت في صحيح مسلم بن الحجاج بسنده المتصل إلى أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله عليه وآله وسلم « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » اللهم فهذا علم ينتفع به وقد علمت نيتي وعدم انتصاري في تفسير كتابك لمذهب ذاهب أو قول قائل ما عدا قولك وما صح عن رسولك^(١) صلى الله عليه وآله وسلم فانفعني به في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأجزني بما أنت له أهل يا أهل التقوى وأهل المغفرة ، وهذه اولادي فاجعلهم من عبادك الصالحين ومن يدعو لي بعد مماتي ووفقهم للعلم النافع والعمل الصالح ، واحفظهم من بين أيديهم ومن خلفهم مما لا تحبه ولا ترضاه واجعل لي ولهم لسان صدق في الآخرين ، رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين ، وقد طعنت في العشر الخامس من عمري و ﴿ ومن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ﴾ فاعذرنى ﴿ فلم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ .

ولنختتم الكلام بالحمد لله رب العالمين كما بدأنا به أول مرة ، وصلى الله تعالى وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه كرة بعد كرة .

انتهى الكتاب بعون الله

١ - قوله « وما صحَّ عن رسولك » فيه نظر كما تقدم فهناك أحاديث ضعيفة واسرائيليات .

خاتمة الجزء
الخامس عشر

تم بحونه تعالى الجزء الخامس عشر من كتاب فتح البيان في مقاصد
القرآن وبذلك نكون قد اتممنا الكتاب بأجزائه الخمسة عشر.

ان المؤلف رحمه الله وضع بعض الحواشي ثم وضع الاستاذ المطيعي عند طبعه الكتاب الطبعة الأولى في الهند بعض الحواشي ووضعنا قريبا كلمة المطيعي .

أما معظم الحواشي وتخريج الآيات والأحاديث من كتب الحديث وبعض التعليقات المفيدة التي وضعت في الكتاب فهي من كتابة فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري وقد قام عدة علماء أجلاء بقراءتها والموافقة عليها.

الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري .

فهرس الجزء الخامس عشر

- ٧ قوله عز وجل : (سورة المرسلات) والمرسلات عرفاً
- قوله عز وجل : فالعاصفات عصفاً والناشرات نشرأ فالفارقات فرقاً
- ١٠ فالملقيات ذكرأ
- ١٢ قوله عز وجل : عذراً أو نذراً
- ١٣ قوله عز وجل : واذا السماء فرجت واذا الرسل أقتت
- ١٥ قوله عز وجل : ألم نخلقكم من ماء مهين
- ١٧ قوله عز وجل : وأسقيناكم ماء فراتاً - انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب
- ١٨ قوله عز وجل : انها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر
- ٢٠ قوله عز وجل : لا يؤذن لهم فيعتذرون
- ٢٠ قوله عز وجل : كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون
- ٢٣ قوله عز وجل : واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون
- ٢٥ قوله عز وجل : (سورة عم) عم يتساءلون
- ٢٧ قوله عز وجل : عن انبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون
- ٣٠ قوله عز وجل : ألم نجعل الأرض مهاداً والجبـال أوتاداً
- قوله عز وجل : وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وأنزلنا من
- المعصرات ماء ثجاجاً
- ٣١ قوله عز وجل : وفتحت السماء وسيرت الجبال فكانت سراباً
- ٣٥ قوله عز وجل : ان جهنم كانت مرصاداً

- ٣٦ قوله عز وجل : لا بشين فيه أحقاباً
- ٣٨ قوله عز وجل : لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً
- ٤١ قوله عز وجل : ان للمتقين مفازاً .. وكواعب أتراباً وكأساً دهاقاً
- ٤٢ قوله عز وجل : فمن شاء اتخذ الى ربه مآباً
- ٤٩ قوله عز وجل : (سورة النازعات) والنازعات غرقاً
- ٥١ قوله عز وجل : والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً
- ٥٥ قوله عز وجل : فالمدبرات أمراً ، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة
- ٥٧ قوله عز وجل : يقولون أإننا لمردودون في الحافرة
- ٥٨ قوله عز وجل : فإذا هم بالساهرة . هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه
قوله عز وجل : اذهب الى فرعون انه طغى .. فأراه الآية الكبرى ،
- ٦٠ فكذب
- قوله عز وجل : فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى
- ٦٢ أنتم أشد خلقاً أم السماء
- قوله عز وجل : رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها
- ٦٢ والأرض بعد ذلك دحاها
- قوله عز وجل : فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا .. وأما من خاف مقام
- ٦٤ ربه ونهى النفس عن الهوى
- ٦٨ : سؤلهم النبي عن الساعة وإرجاعه علمها الى الله
- ٧٣ قوله عز وجل : (سورة عبس) عبس وتولى
- ٧٥ قوله عز وجل : أما من استغنى فأنت له تصدى
- ٧٧ قوله عز وجل : في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة
- ٨٠ قوله عز وجل : قتل الانسان ما أكفره : ثم السبيل يسره
- ٨١ قوله عز وجل : فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً
- ٨٢ قوله عز وجل : وفاكهة وأباً
- قوله عز وجل : فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه ، وجوه يومئذ
- ٨٦ مسفرة

- ٩١ قوله عز وجل : (سورة التكوير) اذا الشمس كورت
- ٩٣ قوله عز وجل : واذا النجوم انكدرت .. واذا العشار عطلت
- ٩٥ قوله عز وجل : واذا الوحوش حشرت ، وفيه بحث نفيس
- ٩٧ قوله عز وجل : واذا البحار سجرت ، وفيه تعليق هام جداً
- ٩٨ قوله عز وجل : واذا النفوس زوجت
- ١٠١ قوله عز وجل : واذا السماء كشطت
- ١٠٢ قوله عز وجل : فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس
- ١٠٣ قوله عز وجل : والليل إذا عسعس ، انه لقول رسول كريم
- ١٠٦ قوله عز وجل : ولقد رآه بالأفق المبين
- ١٠٨ قوله عز وجل : وما هو على الغيب بضنين
- ١١٠ قوله عز وجل : لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله
- ١١٣ قوله عز وجل : (سورة الانفطار) اذا السماء انفطرت واذا البحار فجرت
- ١١٤ قوله عز وجل : وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين
- قوله عز وجل : إن الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم يوم لا تملك
 ١١٧ نفس لنفس شيئاً
- ١٢٣ قوله عز وجل : (سورة المطففين) ويل للمطففين
- قوله عز وجل : الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو
 ١٢٤ وزنوهم يخسرون
- ١٢٨ قوله عز وجل : ان كتاب الفجار لفي سجين
- ١٢٩ قوله عز وجل : بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون
- قوله عز وجل : انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ان كتاب الابرار لفي
 ١٣٠ عليين
- ١٣١ قوله عز وجل : كتاب مرقوم يسقون من رحيق مختوم
- ١٣٦ قوله عز وجل : ومزاجه من تسنيم
- ١٣٩ قوله عز وجل : هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون
- ١٤١ قوله عز وجل : (سورة الانشقاق) اذا السماء انشقت

- ١٤٣ : وأذنت لربها وحقت ، واذا الأرض مدت قوله عز وجل
- ١٤٥ : وألقت ما فيها وتخلت - يا أيها الانسان انك كادح قوله عز وجل
- ١٤٦ : انه كان في أهله مسبروراً ، انه ظن أنه لن يحور قوله عز وجل
- ١٤٨ : والليل وما وسق والقمر اذا اتسق لتركن طبقاً عن طبق قوله عز وجل
- ١٤٩ : الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون قوله عز وجل
- ١٥٥ : (سورة البروج) والسماء ذات البروج قوله عز وجل
- ١٥٧ : تحقيق ما هو اليوم الموعود وشاهد ومشهود قوله عز وجل
- ١٦٢ : قصة أصحاب الأخدود قوله عز وجل
- ١٦٥ : ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا قوله عز وجل
- ١٧٠ : فعال لما يريد قوله عز وجل
- ١٧١ : بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ قوله عز وجل
- قوله عز وجل : (سورة الطارق) والسماء والطارق النجم الثاقب ان كل
نفس لما عليها حافظ ١٧٣
- ١٧٨ : فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق قوله عز وجل
- ١٧٩ : يخرج من بين الصلب والترائب قوله عز وجل
- ١٨٠ : انه على رجعه لقادر ، والسماء ذات الرجع قوله عز وجل
- ١٨١ : والأرض ذات الصدع قوله عز وجل
- ١٨٣ : (سورة الأعلى) سبح اسم ربك الأعلى قوله عز وجل
- ١٨٤ : والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى قوله عز وجل
- ١٨٥ : فذكر ان نفعت الذكرى قوله عز وجل
- ١٩٣ : قد أفلح من تزكى قوله عز وجل
- ١٩٧ : (سورة الغاشية) هل أتاك حديث الغاشية قوله عز وجل
- ٢٠٠ : وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة قوله عز وجل
- ٢٠١ : تسقى من عين آنية ليس لهم طعام إلا من ضريع قوله عز وجل
- ٢٠٣ : وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية قوله عز وجل
- ٢٠٥ : وغارق مصفوفة وزرابي مبثوثة قوله عز وجل

- ٢٠٧ قوله عز وجل : لست عليهم بمسيطر
- ٢١١ قوله عز وجل : (سورة الفجر) والفجر وليال عشر والشفع والوتر
- ٢١٢ قوله عز وجل : والليل اذا يسر
- ٢١٩ قوله عز وجل : هل في ذلك قسم لذي حجر ؛ ارم ذات العماد
- ٢٢٠ : أكاذيب في تفسير (ارم) وبيان الحق في ذلك
- ٢٢٣ قوله عز وجل : الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذي الأوتاد
- قوله عز وجل : فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه واذا ابتلاه فقدر عليه
- ٢٢٥ رزقه
- ٢٢٦ قوله عز وجل : وتأكلون التراث أكلاً لماً
- ٢٣٠ قوله عز وجل : وجاء ربك والملك صفاً صفاً
- ٢٣١ قوله عز وجل : فيومئذ لا يعذب عذابه أحد
- ٢٣٥ قوله عز وجل : (سورة البلد) لا أقسم بهذا البلد و
- ٢٣٧ قوله عز وجل : لقد خلقنا الانسان في كبد
- ٢٣٩ قوله عز وجل : يقول أهلك ما لا لبداً
- ٢٤٣ قوله عز وجل : وهديناه النجدين
- ٢٤٥ قوله عز وجل : فلا اقتحم العقبة
- ٢٤٦ قوله عز وجل : يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة
- ٢٤٩ قوله عز وجل : (سورة الشمس) والشمس وضحاها
- ٢٥١ قوله عز وجل : والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها والأرض وما طحاها
- ٢٥٣ قوله عز وجل : قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها
- ٢٥٦ قوله عز وجل : فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم
- ٢٦٠ قوله عز وجل : (سورة والليل) والليل إذا يغشى
- ٢٦٥ قوله عز وجل : وما يغني عنه ماله اذا تردى
- ٢٧١ قوله عز وجل : وما لأحد عنده من نعمة تجزى
- قوله عز وجل : (سورة والضحي) والضحي والليل اذا سجي ما ودعك
- ٢٧٣ ربك وما قلى

- ٢٨٠ قوله عز وجل : ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى
- ٢٨٥ قوله عز وجل : وأما بنعمة ربك فحدث
- قوله عز وجل : (سورة ألم نشرح) ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك
٢٨٧ وزرك
- ٢٩٠ قوله عز وجل : ورفعنا لك ذكرك
- ٢٩٤ قوله عز وجل : فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب
- ٢٩٧ قوله عز وجل : (سورة التين) والتين والزيتون
- ٣٠٠ قوله عز وجل : وطور سينين وهذا البلد الأمين
- ٣٠٢ قوله عز وجل : ثم رددناه أسفل سافلين
- ٣٠٤ قوله عز وجل : الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون
- ٣٠٩ قوله عز وجل : (سورة اقرأ) اقرأ باسم ربك
- ٣١٠ قوله عز وجل : خلق الإنسان من علق . الذي علم بالقلم
- ٣١١ قوله عز وجل : ان الإنسان ليطغى أن رآه استغنى
- ٣١٢ قوله عز وجل : أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى
- ٢١٤ قوله عز وجل : لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية .. فليدع ناديه
- قوله عز وجل : (سورة القدر) إنا أنزلناه في ليلة القدر وهي خير من
٣١٩ ألف شهر
- ٣٢٣ قوله عز وجل : تنزل الملائكة والروح فيها
- قوله عز وجل : (سورة لم يكن) لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب
٣٢٧ منفكين
- قوله عز وجل : وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم
٣٣٠ البينة
- ٣٧٢ قوله عز وجل : مخلصين له الدين حنفاء
- ٣٣٧ قوله عز وجل : رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه
- قوله عز وجل : (سورة الزلزلة) اذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت
٣٣٩ الأرض أثقالها

- ٣٣٤ قوله عز وجل : من يعمل خيراً يره ومن يعمل شراً يره
- ٣٤٧ قوله عز وجل : (سورة العاديات) والعاديات ضبحاً
- ٣٤٨ قوله عز وجل : فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً
- ٣٤٩ : فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً
- ٣٥١ قوله عز وجل : ان الانسان لربه لكنود
- ٣٥٧ قوله عز وجل : (سورة القارعة) القارعة ما القارعة
- قوله عز وجل : يوم يكون الناس كالفرash المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش
- ٣٦٠ المنفوش
- ٣٦٣ قوله عز وجل : (سورة التكاثر) أهاكم التكاثر
- ٣٦٥ : الاشتغال بالدنيا مع ترك الطاعات مذموم
- ٣٦٧ قوله عز وجل : ثم لتسألن يومئذ عن النعيم
- ٣٧٠ : أنواع من النعيم الذي نسأل عنه يوم القيامة
- ٣٧٣ قوله عز وجل : (سورة العصر) والعصر ان الإنسان لفي خسر
- ٣٧٩ قوله عز وجل : (سورة الهمزة) ويل لكل همزة لمزة
- ٣٨١ قوله عز وجل : كلا لينبذن في الحطمة .. التي تطلع على الافئدة
- ٣٨٣ قوله عز وجل : انها عليهم مؤصدة في عمد ممددة
- ٣٨٧ قوله عز وجل : (سورة الفيل) ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل
- ٣٩١ قوله عز وجل : وأرسل عليهم طيراً أبابيل
- ٣٩٢ قوله عز وجل : ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول
- ٣٩٥ قوله عز وجل : (سورة قريش) لإيلاف قريش
- ٣٩٧ : رحلة الشتاء والصيف
- ٤٠١ قوله عز وجل : (سورة أرأيت) أرأيت الذي يكذب بالدين
- قوله عز وجل : فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين
- ٤٠٣ فويل للمصلين
- ٤٠٧ قوله عز وجل : (سورة الكوثر) انا أعطيناك الكوثر
- ٤١٢ قوله عز وجل : ان شائتك هو الابتر

- ٤١٧ قوله عز وجل : (سورة الكافرون) قل يا أيها الكافرون
 قوله عز وجل : لكم دينكم ولي دين ، وتحقيق لابن القيم في بيان أخطأ
 ٤٢٢ من أخطأ فيها
 ٤٢٧ قوله عز وجل : (سورة النصر) اذا جاء نصر الله والفتح
 ٤٣٥ قوله عز وجل : (سورة تبت) تبت يدا أبي لهب وتب
 ٤٤٠ قوله عز وجل : في جيدها جبل من مسد
 ٤٤٣ قوله عز وجل : (سورة الأخلاص) قل هو الله أحد
 ٤٤٤ : الأحاديث في انها نعدل ثلث القرآن
 ٤٤٩ : الله الصمد
 ٤٥٣ : (سورة الفلق) وموقف ابن مسعود منها
 ٤٥٤ : بحث في : هل نبينا سحره أحد
 ٤٦٠ قوله عز وجل : ومن شر غاسق اذا وقب
 ٤٦١ قوله عز وجل : ومن شر النفاثات في العقد
 ٤٦٣ قوله عز وجل : (سورة الناس) قل أعوذ برب الناس
 ٤٦٥ قوله عز وجل : من شر الوسواس الخناس
 ٤٦٦ قوله عز وجل : من الجنة والناس
 ٤٧١ : خاتمة الكتاب للمؤلف